

أرنست دوبلهوفر

رموز و معجزات

دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت
لقراءة الكتابات واللغات القديمة



ترجمة ودراسة
د. عماد حاتم



رموز و معجزات

إذا كانت الكتابة أصل جميع حضارات العالم، فإن فك رموز الكتابات القديمة وتاريخها يعد من أهم الموضوعات الحيوية التي يبسطها العلم التاريخي أمام الباحثين. ويعد هذا الكتاب من أشهر الكتب التي تناولت الجهود المضنية للباحثين العباقرة الذين أنطقوا الآثار الكتابية الغابرة، والتي بدت وكأنها استسلمت للصمت الأبدي. فيتصدى هذا الكتاب للبدايات الجينية للكتابة، والكتابة التصويرية (البيكتوغرافيا)، وتطور الكتابة السومرية من الصورة إلى الإسفين واستخدام اللوح الطيني (الرقيم)، وصولاً إلى اختراع الأبجدية.

ويتضمن الكتاب شرحاً لعملية حل رموز الكتابات القديمة في مصر وإيران وما بين النهرين وآسيا الصغرى وأوغاريت وجبيل وقبرص والكتابة الخطوطية الكريتية-الميكينية، والكتابة الرونية القديمة.

ونجد في هذا الكتاب وصفاً دقيقاً للمراحل المتتالية لفك رموز الهيروغليفات والصعوبات التي اعترضت العباقرة الذين كرسوا حياتهم لفك تلك الطلاسم كـ فينتريس و شامبليون وجون تشيدويك وغيرهم. وجعلنا نعيش معاناتهم وأفراح إبداعهم الذي اقتحم بجرأة الدروب التي لم يطأها أحد.

إنه عودة لتنسم أريج الأجداد وتصفح كتابهم المليء بالرموز والمعجزات علنا نستطيع قراءة كتاب المستقبل.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق

ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy

امروز و معجزات

Ernst Doblhofer

ZEICHEN
UND
WUNDER

ارنست دوبلهوفر

مُؤَزَّوْمُعْجَلَاتُ

دراسات في الطرف والمناهج التي استخدمت
لقراءة الكتابات واللغات القديمة

ترجمة ودراسة
د. عماد حاتم



منشورات دار علماء الدين

• رموز و معجزات.

دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة.

• تأليف: أرنست دوبلهوفر.

• ترجمة ودراسة: د. عماد حاتم.

• الطبعة الثانية 2010.

• عدد النسخ /1000/ نسخة.

• جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين.

• تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.

• هيئة التحرير في دار علاء الدين:

- الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.

- المتابعة الفنية والإخراج: أسامة راشد رحمة.

- التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.

- الغلاف: أمل كمال البيقاصي.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: 30598

هاتف: 5617071، فاكس: 5613241

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

مقدمة

إذا كان القرنان الخامس عشر والسادس عشر قد تميّزا بالكشف عن عوالم جديدة في المكان، ففي القرنين التاسع عشر والعشرين اكتشفت ولا تزال تكتشف عوالم جديدة في الزمان. فمنذ بداية القرن التاسع عشر، القرن الذي هيأ الأرضية لولادة تكوين جديد للبشر بدأ الباحثون من مختلف الأمم يتطلعون إلى إيجاد المفاتيح لكشف حجب رموز الماضي البعيد المطروحة في غياهب النسيان.

الكتابة أصل جميع حضارات العالم، ولهذا كان تاريخ فك رموز الكتابات القديمة واحداً من أهم الموضوعات الحيوية التي يبسطها العلم التاريخي أمام الباحثين. ومن المؤسف أنه ليس لنا أن نزعم بأن علم التاريخ لدينا قد كرس الكثير من الدراسات لهذه القضية. فمنذ فترة قصيرة فقط - عام 1961 - بدأت لدينا، وعلى أساس مادة موسعة، محاولة تفسير الشروط الخاصة بولادة مختلف أنماط الكتابة ومتابعة المراحل الأساسية لتطورها⁽¹⁾؛ وبطريقة عابرة يقوم ف. آ. ايسترين، مؤلف الكتاب المخصص لتاريخ الكتابة، بدراسة حل رموز بعض النظم الكتابية المنسية⁽²⁾. كما أن قسماً وافياً من الكتاب المخصص لمؤسس الدراسات المصرية، اللغوي ج. ف. شامبليون قد كرس لدراسة قراءة الكتابة المصرية القديمة، القراءة الأكثر ريادة والأكثر ألقاً دون ريب⁽³⁾.

بين الكتب المترجمة تجدر الإشارة إلى كتاب العالم التشيكي تشميستير لوكوتسكا «تطور الكتابة»، والذي لم يبرأ، للأسف من الأخطاء، وقد تم فيه تناول مشكلات فك

1- В.А.Истрин.Развитие письма.М.,1961.

2- كرس كتاب البروفيسور بي. في. كازانسكي، الذي صيغ بأسلوب عبثي حي، لدراسة تاريخ فك رموز الكتابة بشكل خاص، إلا أن الكتاب موجه للأطفال، انظر:

Б.В.Казанский.Разгаданная надпись.Л.,1931.

3- Ж.-Ф.Шампليون.О египетском иероглифическом алфавите, перево д, редакция и комментарии И.Г.Лившица.1950.

الرموز الكتابية. ومع كل ذلك فينبغي الإشارة إلى أن مزية الكتاب هي اشتماله على فصل يتعلق بكتابات أمريكا القديمة⁽¹⁾.

وفي سنة 1961 اغتت أدبياتنا المتعلقة بتاريخ كشف أسرار كتابات الشعوب القديمة بترجمة كتاب العالم الألماني المرموق يوهانيس فريدريك⁽²⁾ وعلى الرغم من القيمة الكبرى لكتاب ي. فريدريك فليس لنا إلا أن نرحب بترجمة عمل آخر يتناول تاريخ الجهود البطولية للباحثين العباقرة الذين أنطقوا الآثار الكتابية الغابرة والتي بدت وكأنها استسلمت للصمت الأبدي - وهو كتاب ارنست دوبلهوفر «رموز ومعجزات». ويمتاز هذا الكتاب عن كتاب ي. فريدريك، بكون مادته قد صيغت بأسلوب أكثر شعبية. يضاف إلى هذا أن دوبلهوفر يتطرق لموضوعات لا يتصدى لها فريدريك ففي الفصل الأول من كتابه يتعرض لموضوع البدايات الجنينية للكتابة والتي تعود بأصولها، إذا ما استخدمنا مصطلحاتنا المعاصرة، إلى مرحلة المجتمع الفطري المشاعي، فهو يتحدث عن «الكتابة بالأشياء» التي تضم البيركا، الخيوط ذات العقد، صولجانات الرسل، حزام الفانوموم الخاص بهنود أمريكا الشمالية وما شاكل ذلك.

ويما أن الكتابة بالأشياء تطرح إمكانات كثيرة جداً للتفسير فإنها تستبدل بالبيكتوغرافيا⁽³⁾ - الكتابة التصويرية التي يمكنها أن تلبي احتياجات متطلبات التهام لدى مجموعة صغيرة من البشر. ويشير المؤلف إلى الحالات المنفردة لاستخدام مثل هذه الكتابة ضمن شروط الحضارة المعاصرة. ثم، وعلى أساس منطقي قوي، يفترض أنه بتجمع الإنسانية في مجموعات كبيرة الأعداد تتهاى الضرورة لتوسيع التواصل عن طريق الكتابة ويتولد مطلب التوصل إلى صيغة من الرموز الكتابية توضع لجماعة كبيرة من البشر. ويدرس المؤلف هذه العملية من خلال مثال تطور الكتابة السومرية «من الصورة إلى الإسفين». والانتقال من الصورة الأولية للرمز - الرسم، قد تم التسريع بها هنا، جنوبي ما بين النهرين، بتأثير المادة المخصصة للكتابة وهي اللوح الطيني الذي كانت الرموز الإسفينية تطبع فوقه بصورة بديعة بشكل خاص. كما ويقدم مثلاً آخر لتحول صورة الرمز الكتابي تحت تأثير المادة الكتابية، فالكتابة الهيروغليفية التي خلّدت في مصر على الحجر أخذت تفقد جمالياتها المحددة عندما بدأت تنقل إلى البردي الذي يمد الصورة الأولى لورقتنا، والذي استولد الرموز المائلة الأشكال والأقرب إلى الاستدارة.

1- Ч.Лоукотка. Развитие письма, перевод с чешского Н.Н.Соколова, М. 1950.

2- И.Фридрих, Дешифровка забытых письменностей и языков, перевод с немецкого И.М. Дунаевской, М., 1961.

3- البيكتوغرافيا: باللاتينية «Dictus» التي تعني رسم و «Graphō» التي تعني يكتب.

إن مثل هذا التعرف على البدايات الجينية للكتابة، والذي يعدّ أمراً ضرورياً لفهم نظم الكتابة التي ظهرت ضمن ظروف الحضارة، يعدّ المأثرة التي لا تناقش للمؤلف. وإلى جانب هذا يحسن بالقارئ أن يعرف أن الفصل الأول يتضمن بعض وجوه النقص وسببها كون المؤلف لا يرى إلا طريقاً واحدة لتطور الكتابة انتهت باختراع الأبجدية في الشرق الأدنى واليونان، ودوبلهوفر لا يتحدث بأي شيء عن تطور الكتابة الأيديوغرافية التي لقيت تتويجها البديع في كتابة أيديوغرافية الصين. فهو يقصر وصفه على الصور الأولى للكتابة الأيديوغرافية ويشير إلى اقتصر انتشارها لدى الاسكيمو وهنود أمريكا الشمالية بالإضافة إلى أفريقيا وجزر المحيط أي في التجمعات التي تعيش ضمن شروط النظام البدائي المشاعي.

من الطبيعي أن يوسع دوبلهوفر الاعتراض على ذكر الكتابة الصينية في مؤلفه ما دامت الكتابة الصينية لم تتعرض للنسيان بينما هو يكرّس كتابه للكتابات المنسية دون سواها. ومع كل ذلك فبالإضافة إلى الكتابة الموجهة إلى كافة ممثلي الأوساط الشعبية بغض النظر عن أهليتهم الثقافية، كان على مؤلف كتاب يتناول مشكلة أصل الكتابة أن يتحدث أيضاً عن تلك الكتابة الموجهة إلى الفئات المثقفة من الشعب بغض النظر عن انتماءاتهم (فلنتذكر أن ليبنيثس العظيم قد أسمى كتابة الصين الأيديوغرافية بالـ «باسيوغرافيا» أي «الكتابة للجميع»). ولو أن دوبلهوفر توقف عند خصائص الكتابة الصينية لكان من الأسر عليه أن يدفع في الفصل الثاني عن أفاناسي كيرخير، العالم اللغوي في القرن السابع عشر، تهمة الجري دون أساس وراء «أكثر التخيلات هذياناً» لدى كاتب القرن الخامس، غورأبولون، حتى أوصل حل رموز الكتابة المصرية إلى طريق مسدود. فيما أن أفاناسي كيرخير كان مطلقاً على الكتابة الأيديوغرافية الصينية، فقد افترض أن غورأبولون كان يملك كامل الحق عندما أعلن في دراسته للكتابة الهيروغليفية المصرية أن الهيروغليفيات المصرية أيديوغرامات وليست رموزاً لفظية. والاستشهاد بكتابة مصر الأيديوغرافية كان ينبغي أن يكون عوناً للمؤلف على أن يمي بصورة أكبر ذلك الطريق الذي سار فيه أفاناسي كيرخير عند شرحه لكتابات مصر الهيروغليفية.

في الجزء الصميمي من الكتاب يشرح دوبلهوفر عملية حل رموز الكتابات القديمة في مصر، إيران، ما بين النهرين، آسيا الصغرى، أوغاريت، جيبيل، قبرص، الكتابة الخطوطية الكريتية - الميكينية - والكتابة التيوركية الرونية القديمة. وبهذا يكون قد تم في هذا الكتاب تناول جميع نظم الكتابات المنسية خلال تراكم العصور باستثناء عدد قليل جداً منها، مثل الكتابة الأبجدية النوميديّة. وربما كان ذلك مرتبطاً إلى حد ما بكون حل هذه الكتابة لا يمثل

طرافة كبيرة من الناحية المنهجية. والحق أن توفر الثنائيات البونية - النوميدي واللاتينية النوميدي على عدد كبير من أسماء العلم يمكننا من تحديد مجموع الأبجدية النوميدي دون صعوبات تذكر. وفضلاً عن ذلك فإن نتائج هذه القراءة لم تكتسب سوى أهمية متواضعة بالنسبة للعلم التاريخي، فـ «المدونات النوميديّة» على حد قول فريدريك «سواء منها الوحيدة اللغة أو العديدة اللغات تقتصر على تعداد أسماء الأعلام ولا تتضمن أي معطيات أخرى»⁽¹⁾.

يضمّن دوبلهوفر كتابه وصفاً للطريق الذي انتهى به العالم التشيكي الكبير، غروزني إلى «تفسير» اللوحات الحثية المسمارية. ويقصد دوبلهوفر بمصطلح «التفسير» عملية تحديد اللغة المجهولة، التي وضع بها نص خط بكتابة تم التعرف عليها⁽²⁾، وذلك بخلاف عملية فك الرموز المتعلقة ليس فقط بلغة نص من النصوص القديمة بل وبكتابه أيضاً. والحق أن من الضروري الإشارة إلى أن دوبلهوفر لا يستخدم بطريقة منطقية تماماً مصطلح «التفسير» الذي وضعه. وفي واقع الحال فإنه في بداية الفصل الخامس يقابل بصورة صحيحة «تفسير» النصوص المسمارية بـ «فك رموز» الكتابة الهيروغليفية الحثية ثم يصرح فيما بعد بأن قراءة غروزني لجملة واحدة في النص المسماري الحثي صارت «حجر الزاوية بالنسبة لفك الرموز» ويقارن بين هذه القراءة وبين قراءتي شامبليون وغروتيفيند.

يمكننا في واقع الحال الاعتراف دون تحفظ بالدور الخارق للعادة لقراءة ب. غروزني المشار إليها، إذ إنها استقرت في أساس كشفه الخارق للعادة، إقرار انتماء لغة اللوحات الحثية المسمارية إلى المجموعة الهندوأوروبية ثم تبين، بالإضافة إلى ذلك، أن اللغة الهندوأوروبية للنصوص المسمارية الحثية تمت بصلة القرى إلى لغة المدونات الحثية الهيروغليفية، ويمكنها بفضل ذلك أن تساعد على فك رموز هذه الأخيرة. هذا الظرف هو الذي اشترط وجود نصيب من عدم الدقة لدى دوبلهوفر في استخدامه لمصطلحي «تفسير» و «فك رموز» عند استخدامه في تحديد ب. غروزني للغة النصوص المسمارية الحثية. ومما لا شك فيه أن المؤلف كان يملك تصوراً واضحاً عن الفرق القائم بين عملية تحديد لغة اللوحات المسمارية الحثية التي كانت كتابتها معروفة وبين حل رموز المدونات الهيروغليفية الحثية، التي كانت كتابتها مبهمة مثل لغتها. وهذا ما يشهد عليه العنوان الفرعي للفصل الخامس من الكتاب «قراءة لغة المدونات الحثية الإسفينية وحل رموز النقوش الهيروغليفية الحثية».

1- И. Фридрих, Дешифровка забытых письменностей и языков.

2- يستخدم أ. فريدريك مصطلح «Deutung» (تفسير) لتحديد لغة النص الذي عرفت كتابته ويعبر

أ. م. دونافسكي في ترجمته لكتاب فريدريك عن هذا المصطلح بكلمة «معالجة».

وبكل تدقيق يصف المؤلف المراحل المتتالية لفك رموز الكتابة الهيروغليفية الحثية والتي اشتملت على بضع عشرات من السنين. والقرارات التي توصل إليها خلال هذه السنوات أمثال هؤلاء العلماء الكبار مثل ميريدجي، غروزني، غيلب، فورير وبيسيرت، تأكدت بعد عام 1947 عندما عثر العالم الألماني خ. ت. بيسيرت أخيراً، فوق هضبة قره تيببي في كيليكيا على المدونة المزدوجة اللغة التي طال انتظارها. وقد كتبت إحدى صيغتي الثنائية باللغة الفينيقية⁽¹⁾ وكتبت الأخرى بالهيروغليفيات الحثية. وقد قارنوا أحياناً دور هذه الثنائية بالدور الذي لعبته مدونة حجر رشيد في تاريخ فك رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية. ودوبلهوفر، شأن فريدريك⁽²⁾، يرفض هذه المقارنة، إذ إن مدونة قره تيببي، على عكس ما هو الأمر في حجر رشيد، لا تشير إلى بداية فك رموز الهيروغليفيات الحثية، بل على العكس من ذلك، إلى خاتمتهما. ويذكاء يقارن دوبلهوفر الأهمية العلمية لمدونة قره تيببي بأهمية أثر ثلاثي اللغات من مصر وهو ميثاق كانوب المائد لبطليموس الثالث. والحق أن كلاً من الأثرين المكتوبين قد صار حسب كلمات المؤلف «حجر المحك الذي على أساسه ثبتت صحة الكشوفات الكبرى في ميدان فك الرموز و«الخاتم الرسمي» الذي ختم العلم به وثيقته المؤكدة بأن الأعمال التي تم إنجازها حتى ذلك الوقت لم تكن ضريباً من العبث».

يستحق الفصل الثامن من كتاب دوبلهوفر اهتماماً خاصاً بين الفصول الأخرى لأنه مخصص لواحد من الانجازات المتأخرة زمنياً في ميدان فك الرموز. وهو قراءة ما يسمى بكتابة «ب» الكريتية - المنيوسية، والتي أنجزت في الخمسينيات. وعندما كان أ. فريدريك يقوم بنشر كتابه عام 1954 لم يكن قد حزم أمره على الاعتراف غير المشروط بالقراءة التي تم اقتراحها قبيل ذلك بفترة قصيرة، ولهذا السبب أغفل وصف هذا الاكتشاف الضخم والذي بنتيجته تم التوصل إلى قراءة كتابة «ب» الخطوطية التي كانت معاصرة للمرحلة الأقدم من التاريخ الطلبي للشعب اليوناني⁽³⁾.

1- أعاد د. ن. فينيكوف عندنا إصدار الصيغة الفينيقية لهذه الثنائية مرفقة بتدقيقات مهمة:

И.Н.Винников (Вновь найденные финикийские надписи, "Эпиграфика Востока", V, 1951).

2- И.Фридрих, Дешифровка забытых письменностей и языков.

3- انظر الملحق الذي كتبه إم. دياكونوف للطبعة الروسية لكتاب فريدريك والذي ثوت في اساسه دراسة J. Chadwick, The Decipherment of Linear B, Cambridge, 1958.

كما ان دراسة

С.Я.Лурье, Язык и литература Микенской Греции, М.-Л., 1957.

نعد ذات قيمة بالغة الأهمية بالنسبة لموضوع فك رموز كتابة «ب» الخطوطية

ويكل تدهيق وتمامف يمرض أ. دوبلهوفر تاريخ المأثرة العظمى التي قام بها مايكل فينترس. ويشير إلى أن القوى الخلاقة للباحث الانكليزي الشاب، كانت قد كبلت خلال فترة بقيود الأطروحات الدوغماتية التي كانت مسيطرة في العلم التاريخي لعشرات السنين السابقة عندما كان «مجرد التفكير باللغة اليونانية يعد في مفهوم التاريخ وعلم الآثار المدرسين أمراً يقترب من الهرطقة» على حد تعبير دوبلهوفر ومن هذا المنظر فإن الصمويات التي كانت تعترض الطريق الإبداعي لفينترس تذكر إلى حد ما بتلك المقبات التي كان على شامبليون العبقرى أن يزيحها ليتمكن من قراءة كتابات مصر الهيروغليفية المنسية. والحق أن شامبليون، الذي سار على هدي إشارات غورابولون وتابيه ما كان يرى في هيروغليفات مصر إلا الأيديوغرامات المجردة دون سواها، أما فينترس، فما كان بمقدوره، وهو يسير على هدي إشارات مؤرخي عشرات السنين السابقة، أن يسمح بالنسبة لكتابة اللوحات الفخارية لليونان وكريت إلا «بإمكانية القراءة» الإيجية «والإيتروسكية للمفردات» وما كان لشامبليون وفينترس أن يكتشفا العوالم الجديدة في تاريخ الإنسانية إلا بعد أن تحررا من أصفاد الماضي.

وفي حين يشير دوبلهوفر إلى كل عظمة اكتشف فينترس، يؤكد إلى جانب ذلك الأهمية التي قدمها له جون تشيدويك المتخصص في ميدان الفيلولوجيا الكلاسيكية والذي كان قد اهتم أيضاً بكتابة ألواح كريت الفخارية واستطاع دوبلهوفر أن يبين في كتابه كل صفاء وتواضع جون تشيدويك الذي كان لا يكف عن التوكيد على أن كشف أسرار وثقة اللوحات الكريتية الميكينية التي كانت مجهولة حتى ذلك الحين إنما كانت مأثرة فينترس دون أي شخص سواه.

تأكدت قراءة فينترس بعد حفريات 1953 في بيلوس. فبين اللوحات التي عثر عليها في أنقاض القصر العظيم العائد للعهد الميكيني عثر عالم الآثار الأمريكي كارل أ. بليغين على ثنائية طريفة. كانت تتضمن نصاً كريتياً - ميكينياً يجرد حسبما تدل عليه القراءة، أو أن مختلفة: ركائز وأكواز ذات ثلاث آذان أو أربع وأكواز بلا آذان، يضاف إلى هذا أن النص كان مرفقاً برسوم مطابقة⁽¹⁾. وعلى هذا فإن بإمكاننا، ويكل أساس، أن نقارن تلك اللوحة البيلوسية العاطلة من الجمال بميثاق كانوب وبثنائية قره يتي.

أ- أرى أن مما هو جدير بأكثر نصيب من التقويم الإيجابي إبراء دوبلهوفر للوحة التي نظمها الباحث الفينيقي فـ مارلينغ إن نص الجرد البيلوسي الذي كان قد نشره بليغين قد وزع فيها على فقرات جرى فيها وصف كل واحدة من الأواني بمفرده وإلى جانب الوصف الكلامي للإناء ترد في الفقرة صورته التي رسمها الكاتب البيلوسي القديم

وإذ أؤكد ذلك التثمين الذي أضفاه دويلهوفر على القيمة المعرفية للوحة بيلوس فإنني لا أستطيع الموافقة بأي حال على تحديد المؤلف لمهمة مجموع تلك الوثائق المتعلقة بجرود الحياة اليومية، والتي عثر بليفين عليها في قصر بيلوس. فدويلهوفر يرى أن تلك الرقم كانت في مجموعها مؤقتة، وأنها بطاقات مساعدة كانت، حسب أقرب الاحتمالات، تنقل عبر فترات معينة من الزمن، عند نهاية كل عام جردي، إلى قوائم وجرود ويصار إلى إتلافها بعد ذلك وأرى أن مثل هذا الافتراض لا يمكن أن يتفق مع الحياة العملية التي كانت تمارس في الماضي بالنسبة لمواد الأرشيف. فكما هو معروف بالنسبة لنا من الوثائق التي وصلتنا من أرشيفات المعابد أو الأرشيفات القديمة في سومر أن الأخيرة منها ما كانت تخزن الأضايير والجرود فقط بل وأيضاً وثائق جرود الحياة اليومية لوضع عشرات من السنين. وحقيقة الكشف في قصر بيلوس عن لوحات لا تعود إلا إلى سنة واحدة ليست دليلاً على إتلاف الوثائق الخاصة بجرود الحياة اليومية في نهاية كل جرد سنوي بل على حقيقة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى. من البين أنه ما كان يحفظ في القصر نفسه، في مكتب الحاكم، إلا وثائق العام الجاري أو، على أكبر تقدير، العامين أو الأعوام الثلاثة الأخيرة. (ومن المحتمل أن هذه الوثائق كانت مطلوبة للتثبت). أما وثائق السنوات السابقة فكانت تنقل إلى أرشيفات خاصة تحفظ فيها على مدار عشرات السنين.

ويمشيتة الأقدار فإن الحضريات الجارية في لاغاش، وأوما وأور وغيرها من مدن سومر فتحت أمامنا الأرشيفات التي كانت تحفظ فيها وتمكس الحياة البيئية خلال عشرات السنين السابقة، أما حضريات بيلوس فوهبت العلم التاريخي وثائق تتعلق بالحياة اليومية للعام الجاري. وما دامت هذه الأرشيفات البيلوسية لم تتضمن تاريخ سنة وضعها فمن المحتمل أنها قد نقلت إلى الأرشيف وأنها كانت تحفظ هناك في سلال أو جرار سجل عليها التاريخ المناسب. ويمكن عقد الآمال على أن يتم الكشف مستقبلاً في اليونان عن أمثال هذه الأضايير المؤرخة وفقاً للعهد الميكيني وأن يتم الكشف في سومر عن مجموعات وثائق لم تدخل بعد في ملاك الأرشيف ولا تزال محفوظة في قصر الحاكم.

لا بد من التوقف أمام الفصل التاسع. وهو مخصص لفك رموز الكتابة الرونية التيوركية القديمة التي تم تخليدها على الشواهد الصخرية المهيبة التي أقيمت في القرن الثامن في حوض الأورخون، جنوبي البايكال (وهي الآن أراض تعود لجمهورية منغوليا). وينبغي الإشارة إلى أن مقاطعات آسيا الوسطى التي كانت داخلة ضمن الاتحاد السوفييتي سابقاً والدول المجاورة له، هي موطن الغالبية الكبرى من الشعوب التيوركية، ولهذا فإن كل

ما يتعلق بثقافة هؤلاء لا بد وأن يستأثر باهتمامنا. كما أن اهتمام الشعب الروسي بالتبويركي معكوم أيضاً بترابط مصائر هذين الشعبين منذ أقدم العصور. وفي الوقت نفسه فإن سبب الاهتمام بالتبويركي في الغرب كان، في رأي دوبلهوفر، مشروطاً بظروف متضاربة. فقد ظلوا هناك فترة طويلة لا يعرفون عن التبويركي أي شيء على الإطلاق، بل وأنهم اليوم أيضاً لا يعرفون عنهم إلا القليل الأقل. وبمناسبة ذلك قدم دوبلهوفر لاستعراضه فك رموز الكتابة التبويركية القديمة ببسطة تاريخية وافية.

والشواهد المكتوبة التي عثر عليها في وادي أورخون أقيمت بنتيجة الصداقة الحميمة التي كانت تجمع الأتراك الشرقيين تحت حكم بيلغي - خاقان وأخيه كول - تيفين مع الصين.

بعد وفاة كول - تيفين أقام بيلغي - خاقان بمساعدة الإمبراطور الصيني شاهداً قبرياً فاخراً. فلما أكمل بيلغي - خاقان نفسه طريقه الحياتي قام وريثه، بمساعدة الإمبراطور الصيني، برفع على قبره شاهداً فاخراً من المرسف أنه قد حفظ بطريقة أسوأ من سابقه. وقد خطت على الشاهدين كتابات بلغتين: - بعضها بهيروغليفات باللغة الصينية والأخرى - بكتابة مجهولة للغة مجهولة. وقد حطم الشاهدان العظيمان وقُذِفَ بهما في غياهب النسيان بعد سنة 745 عندما دمر الأويغور دولة تبويرك الأورخون.

والفضل في تعريف عالم العلم بالكتابات المزججة اللغة في وادي أورخون يعود إلى العالم المحلي والرحالة السيبيري ن. م. يادرينتسيف الذي درس سنة 1889 تلك المنطقة غير المعروفة إلا قليلاً. وفي السنة التالية توجهت إلى ذلك المكان بعثتان: إحداهما برئاسة الباحث الفنلندي آ. غيكل والثانية - بإشراف العالم الروسي الشهير ف. ف رادولوف، مؤسس الدراسات التبويركية في بلادنا، والذي أدخل ن. م. يادرينتسيف أيضاً في عداد المشاركين في البعثة. وفي سنة 1892 نشرت نتائج كلتا البعثتين في أطلسين كبيرين تضمنتا صوراً لجميع الكتابات. وبهذه الطريقة هيئت الإمكانية لعلماء العالم بأسره لتقديم إسهامهم في العمل الصعب ولكن الجذاب والمتعلق بفك رموز الكتابة المجهولة على الشواهد في وادي أورخون وينييسي⁽¹⁾.

حتى ذلك التاريخ كان النص الصيني للمدونات قد قرئ، وهو ما هوّن إلى حد ما من صعوبات فك الرموز، ومن خلال ذلك النص كان يمكن معرفة أسماء الحكام الذين أقاموا

1- قام س. ي. مالوف بتقديم عرض دقيق لتاريخ دراسة المدونات الأورخوبينيسية في
С.Е.Малов "Памятники древнетюркской письменности", М.-Л. 1951.

الشواهد ، بالإضافة إلى اسم الشعب الذي ينتمي إليه أولئك الحكام. وبالإضافة إلى ذلك ينبغي الإشارة إلى أن الشواهد الأورخونية المكتوبة لم تكن ثابته بالمعنى الدقيق للكلمة. وتؤكد ذلك أحجام الكتابة الصينية والنص المطابق لها ، والذي وضع بكتابة مجهولة: كانت الأولى أقصر من الثانية بثلاث مرات أو أربع. ولهذا كانت تتمترض طريق قارئ الرموز الكتابية الأورخونية المزدوجة اللغة عقبات كأداء ما كان قادراً على إزاحتها غير اللغوي المتمرس الذي أعد إعداداً شاملاً والذي يتمتع بمعارف واسعة في ميدان مختلف اللغات، والتبوركسية من بينها.

ذلك الباحث كان العالم الدانماركي ويلهيلم تومسين ، أستاذ قسم علم اللغات المقارن في جامعة كوبنهاغن و في الـ 25 من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1893 قدر له - حسب كلمات س. ي. مالوف - أن يجد المفتاح الكامل لمجموع أبجدية تلك المدونات من شواطئ البينيسي وأورخون،⁽¹⁾ والتي لم تسبق معرفتها لأحد. بالطبع ما كان له. تومسين أن يحقق مثل هذا النجاح في مضمار فك رموز المدونات الأورخونية إلا باعتماده على فرضية مسبقة لم تلبث أن أصبحت أمراً مؤكداً بعد التعمق في دراسة معطيات النص الصيني لهذه الشواهد، وتؤكد الفرضية أن اللغة التي كتبت بها تلك المدونات المجهولة تدخل ضمن مجموعة اللغات التبوركسية. والتقارب بين اللغات التبوركسية أكبر من التقارب بين لغات المجموعة الهندأوروبية، وهذا ما ساعد أيضاً على النجاح المذهل السرعة لقراءة ف. تومسين. كما أن العالم الروسي ف. ف. رادلوف، ناشر المدونات الأورخونية، كان قد حدد، منذ خريف 1893، انطلاقاً من أطروحة الطابع التبوركسي للغة المدونات، نحو الـ 15 رمزاً أبجدياً (من 38). أما هذا التخلف من طرف ف. ف. رادلوف فسببه أن ذلك العالم الذي كان شخصية معترفاً بها في ميدان الفيلولوجيا التبوركسية ، لم يكن متخصصاً في ميدان علم اللغة مثل زميله الدانماركي ف. تومسين.

ولهذا فإن على قارئ هذا الكتاب أن يوافق كلياً مع مؤلفه إ. دوبلهوفر على أن فك رموز الكتابات الأورخونية - مآثرة تسجل له ف. تومسين دون تحفظ. وفضلاً عن هذا فلا يمكن إلا معارضة المؤلف عندما يسجل المعالجة الأولى للمدونات الأورخونية الكبرى لتومسين أيضاً. ذلك أن أول من عالج هذه المصادر التاريخية البالغة القيمة كان ف. ف. رادلوف الذي، بعد أن تعرف على الأبجدية التبوركسية القديمة المكتشفة

1- المصدر السابق ص 12.

من طرف ف. تومسين، قام سنة 1894 بتقديم أول ترجمة لنص الشاهد الذي أقامه لكيول - تيفين أخوه (وقد ألحق ف. رادلوف بتلك الترجمة النص مكتوباً بالحروف اللاتينية والروسية). وفي الطبعة التي نشرت في ثلاثة أجزاء في نهاية 1894 وفي 1895 تم تقديم الترجمة الثانية للكتابة على شاهد كيول - تيفين، بالإضافة إلى غيره من الشواهد الأورخوريينيسية، ولم يقم ف. تومسين بنشر ترجمته إلا سنة 1895. ومن المؤسف أن إ. دوبلهوفر لم يعرض بأي إشارة لترجمات ف. رادلوف الأسبق عهداً.

وقد سمع مؤلف الكتاب لنفسه بمثل هذا الظلم إذ نسب فك رموز النصوص الأوغاريتية للعالم الألماني غ. باوير ناسياً مآثر الباحثين الفرنسيين إ. دورم وش. فيرولو (الباب السادس)⁽¹⁾ والحق أن علينا أن نعترف، باسم العدالة نحو دوبلهوفر نفسه، بأن حالات التقييم غير الموضوعي في كتابه كانت استثناءً.

في الباب الأخير، العاشر، المسمى «مستقبل قراءة الكتابات القديمة» يعرف المؤلف قارته بثلاث مشكلات جادة تحتل مكانها في ميدان فهم وقراءة رموز الآثار المكتوبة، وهي مشكلات استعصت حتى يومنا هذا على الحل: المشكلة الإيتروسكية، فك رموز كتابة الشعوب القديمة في وادي الهند وأخيراً سر كتابة جزيرة الصيام.

أما أولى هذه القضايا، الإيتروسكية، فتُمثل واقفة أمام العلم منذ قرون. وخلال هذه المرحلة الطويلة كانت الأبجدية الإيتروسكية قد حددت بشكل نهائي وبذلك تكون رموز كتاباتها قد فُكّت، إلا أن لغة الإيتروسكيين بقيت كالسابق عصية على التفسير على الرغم من الاهتمام الشديد بتاريخ وثقافة الشعب الإيتروسكي الذي كان وثيق الارتباط بروما العظمى.

وتجري المحاولات لتبرير هذا الإخفاق بأسباب عديدة، أحدها - الافتقار إلى وجود ولو ثنائية وحيدة، لكن علينا الإشارة إلى أن نصوص جيبيل، أوغاريت، كريت وبيبلوس قد فُرِثت مع انتفاء وجود الثنائية، بل إن تفسير الكتابة الهيروغليفية الحثية قد تم بصورة ناجحة على العموم على الرغم من أن العلم ما كان، خلال فترة طويلة، يمتلك الأثر الثنائي اللغة الموسع.

أ- في هذه المسألة كان إ. فريدريك أكثر موضوعية. فهو يشير إلى إسهام باوير وإلى إسهام دورم وهرولو ويفرر إن باوير قد تمكن من قراءة 17 رمزاً من رموز الأبجدية الأوغاريتية الثلاثين

كما تجري الإشارة أيضاً إلى العدد الزهيد من المدونات الكبيرة التي وصلت إلينا⁽¹⁾. ومن الصعب علينا أن نوافق دون تحفظ على مثل هذا التفسير للمعالجة الفاشلة للنصوص الإيتروسكية. والحق أن العلم يمتلك من النصوص الإيتروسكية الموسعة ما لا يقل عما يمتلكه من نصوص الشواهد الجبيلية (ما قبل الجبيلية) الأيبينرافية⁽²⁾. ومع كل ذلك فقد حلت رموز تلك الأخيرة وقرئت في فترة قصيرة نسبياً من قبل الباحث الفرنسي إ. دورم. وهذا يعني أن السبب الرئيس على ما يبدو يشتمل في أساسه على شروط تحول دون استخدام ذلك المنهج الذي تم استخدامه بنجاح في حالات عديدة عند معالجة نصوص كانت كتابتها، أو أصبحت، معروفة. وهذا المنهج يفترض طريقتين أولاهما - ما يسمى بالمنهج التجميمي - وهو منهج تفسير ومعالجة النص على أساس تلك الثوابت التي يمكن استخراجها من النص نفسه الذي قد يقرأ لكنه لا يترجم. كما يستخدم هذا المنهج التجميمي أيضاً لدى حل الرموز التي لم تقرأ بعد إذ إنه يعتمد على المحاكمات العقلية التي تمت من خلال مراقبة بناء مختلف مجموعات الرموز بفض النظر عن دلالاتها اللفظية. أما الطريقة الأخرى - الأيتيمولوجية - فتقوم على أساس مقارنة مفردات النص الخاضع للمعالجة مع مفردات لغة مفترضة قريبة في النسب.

أما بالنسبة للنصوص الإيتروسكية فلم يستخدم فيها إلا الطريقة التجميمية، ولكن للأسف فإن علينا أن نعترف مع الباحثين الذين يتمتعون بالحدس المنهجي المطلوب بأن استخدام هذا المنهج لن يفضي إلى نتائج ملموسة. أما ما يتعلق بالطريقة الثانية للمعالجة، الأيتيمولوجية، فإن من المستحيل استخدامها في هذه الحالة إذ إن لغة الإيتروسكيين، حسبما يؤكد دويلهوفر، هي لغة معزولة بشكل مطلق ولم يجر إدخالها حتى الآن في أي منظومة لغات معروفة بالنسبة للعلم.

وأظهر شاهد على انعزالية اللغة الإيتروسكية هو المدونات على حجرتين من أحجار اللب تم العثور عليهما أثناء حفريات سنة 1848. وقد نقشت كلمة واحدة على كل من الوجوه الستة للحجر، والفرضية الوحيدة المحتملة تنحصر في أن هذه الكلمات الست هي أرقام من «واحد» إلى «ستة»، إلا أن الباحثين عجزوا حتى الآن، على الرغم من كل ما بذلوه من جهود، عن تحديد الرقم الذي يطابق كل واحدة من المفردات.

1- يتوقف إ. فريدريك عند هذه النقطة بالذات هي:

И. Фридрих (Дешифровка забытых письменностей и языков).

2- الجبيلية مصطلح يطلقه دويلهوفر على الكتابة التي وضعت في جبل على الشاطئ الشمالي للساحل

الفيبيقي في بداية الألف الثاني ق.م. ويسمى فريدريك في كتابه: ب «ما قبل الجبيلية».

إن انغمالية اللغة الإيتروسكية هي التي جعلنا نعلمها، مع دوبلهوفر، السبب الرئيس لكل أمثال هذه الإخفاقات المتكررة عند محاولات تفسير النصوص الإيتروسكية، ذلك أن جميع النجاحات المعروفة بالنسبة لنا عند حل رموز النصوص قد تحققت عندما كانت لغة الأخيرة تنتمي إلى أسرة من الأسر اللغوية التي تمت دراستها جيداً. فشرح النصوص البابلية، الآشورية، الأوغاريتية، والجبيلية ساعدت عليه الدراسات السامية أكبر مساعدة مثلما ساعدت الدراسات الإيرانية على شرح المدونات المسماة للأخيمينيين.

بعض الصعوبات المتعلقة بتفسير النصوص المصرية كان مشروطاً باشتغال اللغة المصرية على عناصر مما يسمى باللغات الحامية، التي، على عكس اللغات السامية، تختلف فيما بينها إلى حدود ملموسة⁽¹⁾.

في مثل هذه الوضعية، الشبيهة بتفسير النصوص الميروية نجد تفسير المدونات الميروية - الكتابة التي أنشئت في الدولة التي قامت قبيل فترة قصيرة من التاريخ الميلادي جنوبي مصر. وقد تمكن عالم المصريات الإنكليزي فد. غريفيت من قراءة الكتابة الميروية، إلا أن قراءة النصوص لم تتقدم تقريباً إذ لم تتحدد بعد قراءة اللغة الميروية بغيرها من اللغات.

هذا بينما حققت نتائج ملموسة دراسة اللغة السومرية، التي تميّزت بمعزولية الإيتروسكية والميروية. أما الشروط التي مكنت من التفسير الناجح للنصوص السومرية فقد تهيأت منذ بضعة آلاف من السنين في مدارس الكتبة في بابل وآشور. فقد تم الكشف خلال الحفريات عن الكتب التعليمية القديمة للغة السومرية، والتي لعبت في مدارس بابل وآشور الدور الذي لعبته اللغة اللاتينية في مدارس الأديرة في أوروبا العصور الوسطى.

لم تقدم الحفريات في إيطاليا للعلم أمثال هذه الكتب التعليمية لدراسة اللغة الإيتروسكية، وربما لم تكن وجدت على الإطلاق، ذلك لأن قراءة النصوص المكتوبة بحروف أبجدية لا تتطلب كتباً معقدة.

تجدر الإشارة إلى أن من بعض وجوه النقص في كتاب دوبلهوفر أنه يغفل الإشارة إلى المحاولة الشديدة الجاذبية التي قام بها الباحث أولتتش من أجل العثور على نصوص إيتالية مقابلة للنص الأكثر إسهاباً من بين النصوص الإيتروسكية المعروفة بالنسبة لنا، وهو ما يسمى بنص خرقة زغرب. هذا الأثر الكتابي البالغ الأهمية تم تفسيره مبدئياً كمجموعة صلوات إلى مختلف الآلهة الذين دونت أسماؤهم فوقها. وبعد كل صلاة يرد نص قصير يشبهه

1- فيما يتعلق ببناء اللغة المصرية انظر:

Н.С.Петровский, Египетский язык, Л., 1958, М.А.Короستовец, Египетский язык, 1961.

في أنه مختلف عن الصلاة. مثل هذا الجمع بين الصلوات لمختلف آلهة البانتيون وما يليه من نص قصير مستقل يرد في شاهدين إيتاليين - أومبري ولاتيني. وفي نصوصها التالية للصلوات دُوِّتِ تعليمات ترتبط بإجراءات طقوس تقديم الأضحية، ولهذا فهناك أساس للافتراض بأن النصوص المكتوبة على خرقه زُغرب والتي ترافق الصلوات، ترتبط أيضاً بالتعليمات الأولية لطقس التضحية. وتفسير أولتسشا تشير إلى أنه قد تمكن على ما يبدو من أن يفتح طريقاً جديدة للنفاز في شايا هذه اللغة الوعرة المسالك⁽¹⁾.

لا يزال الطريق بعيداً، بالطبع، عن بلوغ الفهم الصحيح للمدونات الإيتروسكية، ولا يزال علينا أن ننسب الكتابة الإيتروسكية إلى النظم التي لا تزال، مثل كتابات المدن الغابرة في حوض الهند، تنتظر تفسيرها وحل رموزها. ومن المؤسف أن دوبلهوفر عند حديثه عن محاولات حل رموز كتابة هذه المدن لم يتطرق إلى الحل الذي اقترحه ب. غروزني سنة 1939. ويزيد من الأسى بسبب ذلك أن دوبلهوفر الذي لم يتحدث بشيء عن مضمون دراسة العالم التشيكي الكبير، يقابل النتائج التي توصل إليها ذلك العالم بكثير من الاستعلاء⁽²⁾.

وعند تقييمنا لعمل إ. دوبلهوفر علينا أن نشير إلى علاقته الحميمة التي يحس بها نحو الباحثين ذوي المواهب العالية، الذين كرسوا حياتهم لكشف أسرار الكتابات التي بقيت منسية على مدار آلاف السنين وبذلك وسعوا معلوماتنا عن تاريخ الحضارة الإنسانية. وفي هذا الأسلوب البسيط والعبقري للمرض الذي يقدمه المؤلف يظهر أمامنا، وبوضوح تام، أبطال كتابه، كشافو العوالم الجديدة، بدءاً من جان - فرانسوا شامبليون وانتهاء بمايكل فينتريس. ويعيش القارئ معانيات الإبداع وأفراحه لدى هؤلاء الباحثين الذين اقتحموا بجرأة الدروب التي لم يطرقها أحد.

وقد استطاع إ. دوبلهوفر أن يصور الحماسة المندفعة للعالم الشاب غيورغ غروتيفيند الذي أرسى الأساس نحو العالم اللا محدود للنصوص المسمارية، والطاقة التي لا تتضب لارتشيبالد سايس، الباحث الذي لا يكل في ميدان حل الرموز وتفسير الآثار المكتوبة لآسيا الصغرى واليهاديين المتاخمة لها.

1 - И.Фридрих, Дешифровка забытых письменностей и языков.

2- دراسة ب. غروزني تسحق الاهتمام على الرغم من اشتغالها على بعض وجوه النقص انظر :
В.В.Струве, Дешифровка протондийских письмен.-"Вестник Академии наук СССР",
1947, №8.

وبحب خاص يصور المؤلف الحياة القصيرة والمليئة بمآثر العمل لعالم الآشوريات
الإنكليزي الشهير جورج سميث، الذي شارك في حل رموز الكتابة القبرصية أيضاً. لقد كان
جورج سميث في صباه مجرد طارق بسيط على النحاس، فصار عالماً مرموقاً بفضل موهبته
الخارقة للمادة وحب العمل الذي لا يعرف لديه الحدود.
أرى أن كتاب إ. دوبلهوفر الجذاب والمكتوب بلغة حية سيلقى لدى القراء قبولاً
محفوظاً بالاهتمام.

الأكاديمي فـه ستروفي.

نبذة عن الكتابة

بديلاً عن المدخل

«مبارك ذلك الذي أبدع الكتابة»

كلمة مأثورة عن قدماء الهنود، وفقاً لجان بول

«الكلام ينظم العالم ويرتبه. واللفظة شرارته الإلهية - وهي التي سمت بالإنسان منذ البداية فوق جميع المخلوقات الأخرى في هذا الكون. فباستعمالها صار يدعو جيرانه إلى مشاركته أفكاره ومشاعره الخاصة ويسير بهم نحو التلاحم في مجتمع. ومع كل هذا فإن الكلمة التي كانت تتسامى نبأً فوق الآماد الكبيرة بقيت محصورة ضمن الأطر الضيقة في المكان والزمان. وتُركت الإخبارية والقانون لتلاعب الثقل؛ وما كان أي شيء ليضمن الحفاظ المطلوب على الكلمة المنطوقة. فلم يتم التوصل إلى ذلك إلا بعد أن اخترع الإنسان الكتابة»⁽¹⁾.

ولا يمكن أن نعزو الكتابة إلى المخترعات القديمة بل هي أقرب إلى أن تكون واحدة من المستحدثات ذات الانعطاف الحضاري الأعظم الذي قام به الإنسان في يوم من الأيام. وستظل قائمة على الرغم من أن ملاحظاً سطحياً قد يزعم بأن السينما الوثائقية والتلفزيون وجهاز التسجيل والمذياع يمكن أن تلغي الكتابة إلى حد ما، وأن الاتجاه المعاصر في الانتقال من الكلمة نحو التحشيد المبسط للمؤثرات السمعية والبصرية سوف يزاحم الكلمة على دورها السيادي على مدار آلاف السنين بل وسوف يزحمها في يوم من الأيام.

إن الكتابة جعلت الإنسان يفكر في نفسه. فبفضلها فقط صار التفكير العقلاني الجماعي ممكناً وتأمل الإنسان في أصله وفي ماهية وجوده ومغزاه، كما أن الثقافة الروحية والتعاليم الفلسفية وديانات الإنسانية العظمى صارت ممكنة أيضاً. وكانت الكتابة أيضاً

1- F. Miltner , Wesen und geburt der Schrift , - Hisatria mundi , bd III , Bern , 1954 , s. 27.

ذاك الإسمنت الذي استعمله مؤسسو الإمبراطوريات العظيمة وبُناتها وعليها يقوم التاريخ كعلم، واستدعت الانطلاقة الكبرى لجميع فروع المعارف البشرية بما في ذلك علوم الطبيعة كما أهدت الإنسانية الخيرات الأخرى من الثقافة والحضارة واللتين ما كان لهما معنى من دونها.

وعلى ما يشير مؤرخ الحضارة الإنكليزي المعروف - ارنولد توينبي - في كتابه الأخير⁽¹⁾ بكل إصرار فإن الإنسان قضى الشطر الأعظم من مجموع وجوده على الأرض والذي يقدرونه الآن بـ 600 ألف الى مليون سنة في حالة الهمجية، و فقط بنتيجة الازدهار «الحديث» للحضارة خلال الستة آلاف سنة الأخيرة تحقق إيجاد الطرق المختلفة لوضع الملاحظات المدونة والمحافظة عليها - ذلك الفن الذي وضع في أيدي الإنسانية وعي «الماصرة الفلسفية» لجميع الأجيال. وطبيعي أن المهم ليس في كون ذلك الفن قد ساعد الإنسان على كشف الحقيقة القائلة بـ «أن ما هو كائن قد كان» وأن «لا جديد تحت الشمس»، فقد راح يفوض خطوة بعد خطوة في لانهائية ماضيه المليئة بالآلام، ويتسامى نحو ذرى الفكر الإنساني. فراح يستعين بالكنوز التي كدستها أجيال لا حصر لها واختزنتها عبر تعاقب العصور. وها هو ذا أخيراً وقد اغتنى بانتصارات العقل الذي لا يكل، وترعرع روحياً، يمسك بكامل الماهية الإنسانية في عظمتها وفي زخرفها واستطاع على حدّ تعبير المفكر الفرنسي باسكال أن يقيس «عظمة وتفاهة البشر».

إن التصور المتعلق بالمغزى الهائل للكتابة كان أمراً بالغ الحيوية في الأزمنة القديمة الغابرة ولقي انعكاسه في عدد من الأساطير التي تجزم بالمصدر الإلهي للكتابة فتنبؤ البابلي وتوت المصري - إلهان كاتبان وهما في الوقت ذاته يمسكان بمقادير البشر التي يسجلانها «بريشة القدرة». وكان قدماء العبريين يعتبرون كتابة الأسباط الأول «كتابة إلهية» بعكس كتابة البشر (ويدور الحديث عنها في كتاب إشعيا، 8، 1) ويعلمنا الإسلام أن الحروف خلقها الله ثم علمها آدم بينما حجبها حتى عن الملائكة، كما أن للكنائس المسيحية قديسيها الذين يلعبون أدوار مبدعي الكتابة ومخترعيها فالقديس ميسروب والكاثوليكوس ساحاق صاغا الأبجدية الأرمنية - وهي الكتابة الجديدة التي سرعان ما استضاعت بكون ترجمة الإنجيل كتبت بها. ومن الأمور الذائعة الشهرة اختراع الكتابة من قبل القديسين كبريل وميتودي ثم ولقائه.

1- A. Toynbee , An Historian's Approach to Religion , Oxford , University Press , 1956 , p. 3.

ولعل اليونانيين كانوا الوحيدين الذين يبدون تناقضاً طريفاً، وفي ذلك ينمكس الفرق بين الشرق والغرب⁽¹⁾. فهم الوحيدون الذين يشرفون في تقاليدهم الفنية مجموعة كبيرة من مخترعي الكتابة وهم - من دون استثناء - من البشر فلا يوجد بين مبدعي كتابتهم المعجدين إلا واحد يُصادف مرة واحدة وهو هرمز، الإله الحاذق المتعدد المواهب الذي يسجل له اختراع الكتابة كمأثرة بين مآثره وهي ليست الأهم بينها.

وإذا كانت الفكرة القائلة بأن كل كتابة ظهرت على أساس التصور الملموس للمفكر به وأنها قطعت الطريق الذي حدده المشرق - ومن الصورة إلى الحرف - فكرة لا تقبل المناقشة حتى عهد قريب فإن الكثيرين يتعدون الآن بأن الحرف كان السابق وأن المأثرة الكبرى لاكتشاف الأصوات المنفصلة من قبل كبار المخترعين «الغربيين» للكتابات (الأناضولية، الألبينية، وربما كانت الأيبيرية القديمة أيضاً) كانت قد تلاشت حتى ذلك الوقت الذي قام فيه اليونان باستعارة وتحويل الأبجدية الفينيقية ووصل الأمر إلى اللقاء التاريخي حقاً بين الشرق والغرب حتى الإخصاب المتبادل والتزاوج بين «الصورة» و«الحرف»⁽²⁾.

ومن المعروف في أيامنا هذه ما يقارب الأريمئة نمط من أنماط الكتابة دون أن ندخل في ذلك ما يسمى بالخطوات الأولى للكتابة ولا تلك الأشكال البسيطة لهذه أو تلك. فالأوروبي مثلاً يعرف رموز الكتابة اليونانية من خلال ملامحها العامة، كما أن بإمكانه أن يلاحظ الحروف العبرية على جدران الكنائس ومعابد اليهود وفي دواخلها، كما أن مواطن أوروبا الغربية قد سمع عموماً بالكبيرليبتسا السلافية، وإذا كان ممن يجمعون الطوابع فقلعه يتذكر أيضاً الكتابة العربية الواسعة الانتشار كما توقفت أنظاره أكثر من مرة على رموز الكتابتين الصينية واليابانية التي حدثت به من خلال الكتابات التي ترافق اللوحات والرسوم العائدة إلى بلاد الشرق الأقصى. ومنذ فترة غير بعيدة حاول الألمان والنمساويون أن يعيدوا الاهتمام - بصورة مفتعلة - بالكتابات الرونية دون المطالبة بمعرفتها بصورة حقيقية أصلية، ولكن القلائل يعرفون أن الكتابة الرونية لم تكن وقفاً على قدماء الجرمان،

1- يبالغ المؤلف قليلاً في تصوير هذا «الفرق بين الشرق والغرب» وفي نسب الكتابة عند اليونان إلى البشر. فقدموس الفينيقسي الذي حمل الحرف من سوريا إلى اليونان - إله، أو بطل رفع إلى مصاف الآلهة وترتبط بمآثره هذه «أساطير طيبة» اليونانية - أما هرمز فهو ح - م س أي ابن حر وهو طائر «الحر» المعروف وكان واحداً من أكبر إلهة مصر القدماء - (المترجم).

2- F. Meltner, Wesen und Geburt der Schrift, S. - 27, Anm 1.

الإسكندنافيين والانفلوساكسون، بل، - وهو ما نبدأ بالإشارة إليه هنا - وكتب بها أيضاً قديماً، الفيرك والمجربين بل وقديماً السلافيين حسب تأكيدات بعض الباحثين وإن القلائل يعرفون أن بعض الشعوب كانت تدون لغاتها لا عن طريق الأحرف بل بالصور وبالكمات - الرموز وبالرموز المقلمية واللفظية وأن هناك أخيراً كتابات يمكن قراءة بعضها وإن كان فهمها مستحيلاً رغم كل الجهود المبذولة بينما لا يزال بعضها مستصعباً على القراءة. وإنما، إذ ننوّه إلى ذلك فلنكي نستعرض اتساع وتلوّن ذلك الحقل الذي يلجّه كل راغب في دخول تاريخ قراءات رموز الكتابات القديمة.

يبقى من الضروري الآن توضيح ماهية المفاهيم المتفرقة التي سوف نستعملها بصفة دائمة في دراستنا هذه.

إننا لا نستطيع الحديث عن الكتابة بالمعنى المباشر إلا إذا توفّرنا على سمتين من سماتها ونقصد بهما - أن يكون عمل الرسم قد أنجز بأوسع معاني الكلمة (كرسم الرموز أو سحجها، رقصها، حرّها وما إلى ذلك) ومن الجهة الثانية - أن تكون الغاية إخبارية، والإخبارية توجّه في هذه الحالة إلى الآخرين أو إلى شخص الكاتب نفسه بغية استذكارها.

أما في الحالة التي يدور فيها الحديث عن الأولى من السمتين المذكورتين ويُتوصل إلى الغاية الإخبارية بواسطة وسائل أخرى فإن الباحثين يتحدثون عما يسمى بالكتابة عن طريق الأشياء - وهي الخطوة الأولى والأكثر أهمية والسابقة للكتابة. والكتابة بالأشياء تمثل في كثير من الأحيان بالبيركا⁽¹⁾ الواسعة الانتشار والتي جرى استخدامها في جميع العصور وتستعملها الآن مختلف الشعوب بهدف تسجيل الأرقام في معظم الحالات. فهذه الرقع تستعمل كقوائم عن طريق تقطيع عدد الأيام والأسابيع وما إلى ذلك. ولكن سجلات الديون والجرود تتخذ أيضاً صورة الرقع الحقيقية حتى يمكن من خلالها معرفة «ما مقدار ما يملك كل واحد في الرقعة»، وهي وثيقة تملك قوة إقناعية لا جدال فيها وبخاصة في الحالات التي يكون قد تم فيها خلال وضع البيركا التي حرّرت فوقها خطوط تطابق وحدات الدين النقدية ثم شقت بطريقة يحتفظ الدائن فيها بنصف «كأصل»، ويأخذ الآخر نصفاً «كنسخة» وعند الضرورة يكشف أي نوع من الكذب بسرعة وسهولة ويُزال كل التباس عن طريق الجمع بين جزأي اللوحة.

كما أن ما يسمى بصولجانات الرسل - شكل من أشكال الكتابة بطريقة الأشياء، وهي لم تكن معروفة فقط في أوروبا القديمة حيث تواصل استعمالها حتى الماضي القريب بل

1- البيركا - نوع من «البطاقات» الخاصة بالبضائع والمعاملات التجارية وهي لوحات من الخشب تحزّ فوقها خطوط ثم تشطر إلى شطرين يحتفظ كل من الجانبين المتعاملين بأحدهم (المنترجم).

وقبل كل شيء، في أستراليا والصين القديمة. فعلى الصولجانات المعطاة للرسول كانت تحز مختلف الرموز والخطوط. وكان على هذه الخطوط المرسومة على العصا أن تكون وهي في صيغتها البسيطة تذكرة للرسول الذي عليه، وهو ينظر إليها، أن يتذكر عدد المهمات التي عهد بها إليه. وكانت نظم الخطوط الأكثر تعقيداً تعبّر عن مجموعات من الرموز اتفق عليها بين الطرفين، تلك الرموز التي كان يمكن بواسطتها التمييز عن مركبات محدّدة من المفاهيم.

ولعل الشكل الأكثر انتشاراً، وفي الوقت نفسه الأكثر طرافة من أشكال الكتابة عن طريق استعمال الأشياء، هو الخيوط ذات العُقد، ونذكر من بينها قبل كل شيء كيبو



الشكل -1- الأينكا نوباك يوبانفي يصغي إلى إخبارية ينقلها إليه واحد من أتباعه (يقروها بواسطة الكيبو).

في جزيرة هاينان وفي البنغال وفي جزيرة ريوكيو اليابانية وفي المحيط الهادي وأفريقيا الوسطى

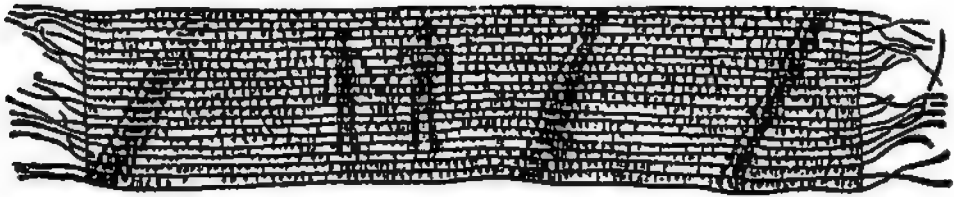
قدما، الإنكا وهم سكان البيرو الأصليون. وانا، إذ نستعرض هنا الكيبو في صورة نموذج لكتابة العقدة فإننا لا نريد الجزم بأن مثل هذه الكتابة كان مقصوداً على الإنكا دون سواهم. فحتى أن الحكيم الصيني لاوتسزي أشار في حينه إلى ذلك الدور الذي كان يعطى في الصين القديمة لكتابة العقدة كطريقة من طرق نقل المعلومات؛ ويقول هيرودوت (4-98) إن داريوس، ملك الفرس، عرض على الإيونيين تقويماً في غاية البساطة يقوم على أساس الكتابة بالعقد، كما إن المسايح الكاثوليكية تقوم على هذا الأساس. أما في وقتنا الحاضر فإن العقدة وما يشابهها من أدوات الاستذكار يمكن أن تصادف

والغربية وكاليفورنيا والأقسام الجنوبية من البيرو، والطريف أن الشرائط ذات العقد والحلقات لا تزال حتى يومنا هذا تستعمل من أجل نقل الأخبار في جزائر سولومون وكارولينا والمركيز.

إلا أن أفضل ما لدينا من معلومات هو ما يتصل بالكيبو. وكان الرأي السائد منذ عهد بعيد يقول بأن هذه الوثائق لا تتضمن غير معلومات عديدة مختلفة الطابع. وتبدو وجهة النظر هذه أوفر قدرة على الإقناع إذا ما أخذنا بالحسبان خصائص المادة. فالكيبو يتكون من خيط متين واحد وبضعة خيوط مثبتة فوقه. أما المعنى الدلالي للكتابة بالمقد فيرتبط بلون الخيوط وبنوعية وعدد العقد مثلما يتعلق بتوضع الخيوط بالنسبة للخيط الرئيسي وبترتيبها ونمط تشابكها، وبين الكيبو الثقيلة الوزن، والتي عثر عليها في المدافن بصورة شبه مطلقة، وجد واحد يكاد وزنه أن يبلغ الأريعة كيلو غرامات، بل ويمكن القول بأن التوضعات والتوحدات المختلفة وألوان الخيوط والعقد كان يسمح بتشكيلات كاملة من التراكيب، ومع كل هذا فإن من الصعب تصوّر كيف كان يتم بهذه الطريقة تناقل الأفكار المعقدة في صيغة جمل. وهنا على ما يبدو تتكشف حدود مثل هذه الكتابة بالأشياء، وهو ما قدم الذريعة لمثل ذلك التأكيد الذي سلفت الإشارة إليه والمتعلق بالطابع العددي للمجرد للكيبو. وإن شهادة غارسيلاسو دي لا هيفيا، مؤرخ فترة العصور الوسطى، لم تكن شديدة البعد عن مثل هذا الأساس، وقد كان ذلك المؤرخ شخصية طريفة إلى حدّ كبير، فأبوه - قبطان أسباني، وأمه ابنة أحد القادة المحليين. وقد أكد ذلك الفارسيلاسو بصورة جازمة في كتابه الصادر عام 1617 في قرطبة بعنوان «تاريخ البيرو العام» أن أهل البيرو كانوا يتعرّفون، عن طريق الكيبو على عدد المعارك والمسافرات والقرارات الملكية لكنهم ما كانوا قادرين على قراءة نص المرسال كلمة بكلمة. إلا أن هناك نظرية أخرى طرحها باحثون مشاهير ولم تدحض بعد وتقول بأن الكيبو لم تكن تتضمن المعطيات الإحصائية المباشرة بل وكانت أقرب إلى أن تتضمن مركبات عددية سحرية تحمل تصوّرات عن الكواكب التي تسهر على راحة الموتى.

ولعل الفرضيتين يمكن أن تتعايشا إلى حدّ بعيد، والثانية منهما لا تعدّ فقط خطوة نحو الأمام بالنسبة لنظرية الطابع العددي للكيبو بل وأنها تدعمها من ناحية المبدأ على ما يبدو. وعلى أي حال فإن الرحالة والباحث السويسري تشودي يمضي بعيداً جداً عندما يؤكد أنهم كانوا قادرين عن طريق «كتابة» الكيبو أن يدونوا مجموعات القوانين والمحفوظات بل وحتى القصائد الشعرية.

ويعتبر حزام الفامبوم العائد لهنود أمريكا الشمالية أقل شهرة بين أنماط الكتابة بالأشياء. وتتكون هذه الأحزمة من أربعة أو خمسة حبال دقيقة رُتبت إلى جانب بعضها وقد عسّقت بها أصداف متعددة الألوان مثقوبة من الوسط. وسميت هذه الأصداف عند اليروكيز بالفامبوم. وبما أن لون الصدفة كان يُحمل معنىً خاصاً (الأسود والبنفسجي للخطر والعداء، الأحمر - للحرب والأبيض - للصلح والسلام) فقد كان واضحاً أن من الممكن إرسال مراسيل كاملة من قبيلة إلى أخرى على هيئة مثل هذه الأحزمة. و (الشكل رقم 2) يقدم نموذجاً غداً كلاسيكياً - وهو فامبوم بينّ الشهير (وهو الآن ضمن مقتنيات الجمعية التاريخية البنسلفانية) وقد قدم هذا الفامبوم سنة 1682 إلى ويليام بينّ، مؤسس بنسلفانيا، من طرف قبيلة لينبي - لينابي الهندية. والفامبوم أبيض اللون يظهر في وسطه شخصان أسودا اللون أما الأيسر منهما فيمثل هندياً يقدم يده لأوروبي (صوّر يمتصر قبعة) وينحصر المغزى التاريخي لهذا الحزام في كونه يمثل الخاتم الذي يرسخ الاتحاد الودي المعقود بين بينّ والديلافار سنة 1682.



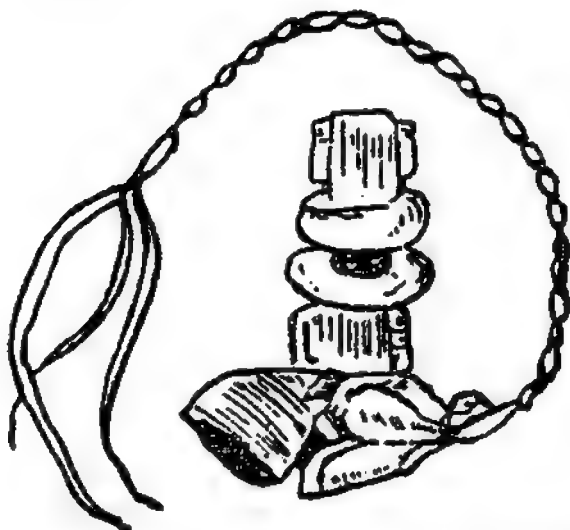
الشكل -2- قامبوم بين العائد لقبيلة لينبي - لابي.

وأخيراً عن النمط الأخير من أنماط الرسائل بالأشياء وهو يجسد ما نسميه بالكتابات الشبيهة والتي تلقى نماذجها انتشاراً أكبر في أيامنا من خلال كتابات القبائل الزنجية في أفريقيا الغربية، و (الشكل 3) يمثل كتابة من هذا النوع لدى زنوج قبيلة بيبو وهي تسمى أروكو في الصورة التي أوردها بها غ. بينسين بالاعتماد على فيلي. وهي رسالة وجهها رجل اشتدت عليه الأمراض إلى نويه وأصحابه «قرأ» هكذا: «المرض يستشري بصورة غير مرضية والحال تزداد سوءاً، واتكالنا الوحيد على الله⁽¹⁾، وللأسف فإن أياً من الباحثين السالفي الذكر لا يكشف المبادئ التي يعتمد عليها في «قراءة» مثل هذه الرسالة ولا الوسائل التي تمكن من ذلك.

وعلى ما هو واضح من (الشكل 3) ومن «القراءة» التي قدمت يمكن التطرق لهذه الوسائل بصور مختلفة، وتحتاج مثل هذه الكتابة بالأشياء إلى الكثير لتصبح وسيلة إخبارية، وقد لمست عيوب مثل هذا النمط من الكتابة وأحست به نفس تلك الشعوب التي كتبت بها، وللتخلص من

1- H. Jensen, Die Schrift in Vergangenheit und Gegenwart, Glückstadt, 1935, S. 16.

هذه العيوب قامت بخطوة سندرس ماهيتها ومعناها بصورة أكثر تفصيلاً فيما بعد (بمناسبة الكتابة بالذات) فأضفي على بعض هذه «الكتابات» طابع الأحجية اللفظية؛ ويقدم بينسين نفسه



الشكل 3- «أروكو» بيبو (شمال لاغوس، نيجيريا)

مثالاً ذا مغزى معتمداً في هذه المرة على غولير فيقول: «إن كومة من ستة أصداف من الكاوري تتخذ لدى يوروب (في نيجيريا أيضاً) دلالة أساسية هي رقم «سته» - *efo*، ولكن بما أن *efo* تعني أيضاً «عاشق» من *fa* «أغوى» فإن خيطاً يضم ستة أصداف من الكاوري يرسله شاب إلى فتاة يحمل معنى «أحسن نحوك عشقاً، أحبك» وثمانية أصداف من الكاوري تعني ثمانية *efo*، لكن هذه الكلمة

تعني أيضاً «موافق» (من *zo* «طابق»، «وافق»، «شابه») وانطلاقاً من هذا فإن مرسالاً ترسله فتاة إلى فتاهها مكوناً من ثمانية أصداف يعني: «أحسن بما تحسن به، أنا موافقة⁽¹⁾».

ولكن لكي لا يخيل لنا أن انتشار مثل هذه الكتابات بالأشياء محصور فقط ضمن إفريقيا وفي العصر الحديث والحاضر فحسب فإننا نسوق من جديد شهادة لهيرودوت - قصته المسلية وذات المغزى والمتعلقة بلوحة من لوحات تاريخ حملة ملك الفرس الأعظم داريوس الأول ضد الصقالبة. وهيرودوت، شأن داريوس، يقابلنا للمرة الثانية - والحق أن من الأمور المذهلة ذلك الارتباط الوثيق بين اسميهما وبين تاريخ الكتابة، وكم نحن مدينون لكليهما بمعرفتنا بهذا التاريخ، لذلك الرحالة اليوناني العالمي الشهيرة وذلك الفارسي ومجدد الدولة. وهكذا فإن هيرودوت قدّم للغرب الإخبارية الشهيرة عن أول رسالة بالأشياء:

«131... داريوس... بدا في مأزق صعب وقد لاحظ ملوك الصقالبة ذلك فأنفثوا إلى

داريوس رسولاً يحمل هدايا مؤلفة من عصفور وفأر وفضع وخمسة سهام. واستفسر الفرس الرسول عن معنى الهدايا لكنه ردّ عليهم بأنه أمر فقط بتسليم الهدايا والعودة على الفور، وقد عرض على الفرس أيضاً أن يفسروا معنى الهدايا التي تسلّموها إذا كانوا ناهين حقاً.

1- Ibid. S. 16 f.

132: وبدأ الفرس مشاوراتهم بعد ذلك. أما داريوس فقال بأن الصقالية يستسلمون له بأراضيهم ومائهم، وتوصل إلى استنتاج ذلك على أساس أن الفأر يعيش في الأرض ويتغذى بنفس ثمار الأرض التي يتغذى بها الإنسان، والضفدع تعيش في الماء، أما العصفور فهو أشبه بالفرس أما السهام فالصقالية يعبرون بواسطتها عن جرائعهم في القتال، هكذا كان تفسير داريوس، لكن عارضه تفسير غوبريوس، وهو أحد الفرس السبعة الذين أطاحوا بالكاهن الساحر فقال: «إذا كنتم أيها الفرس، لن تطيروا في السماء كالمصافير، ولن تختبئوا في الأرض كالفئران، ولن تقفزوا في البحيرات كالضفادع فإنكم لن تعودوا إلى بلادكم بل تسقطون صرعى هذه السهام»⁽¹⁾.

وقد كان غوبريوس على حق، وهو ما اضطر الملك إلى الاعتراف به فيما بعد.

إن هذه الرسالة عن طريق الأشياء المادية تعكس جوانب الضعف في جميع الوثائق المماثلة، وبخاصة ازدواجية معناها (وهو ما يبدو في هذه الحالة وكأنه مقصود) وفي هذه الحالة يذكر كهنة السدنة القدماء (... إذا عبر كريس نهر خاليس فسيفضى على دولة عظمتي⁽²⁾) والتي ما كانت لتتضح إلا عندما تحقق الكارثة.

ولا يمكن أن نتحقق هنا خطوة ملموسة إلى الأمام من بين المراحل المذكورة هنا للكتابة إلا إذا توفرت كلتا السمتين اللتين تناولهما الحديث فيما سبق أي إذا بدؤوا باستخدام الصورة (بأوسع معاني الكلمة) بهدف الأخبار أو التذكير، ويجب البحث عن ولادة مثل هذه الكتابة في الميدان المرتبط بتاريخ الفن، فبين النقوش الصخرية العائدة إلى أقدم العهود التاريخية هناك رسوم تتميز بسمات تتصف بها الكتابة. ومثل ذلك النقش الصخري الذي عثر عليه سنة 1911 في إسبانيا الشمالية في كهف باسييفا ويفسره غ. بينسين، مؤرخ الكتابة، بما يلي: «إلى اليسار من الأعلى صور الجزء الداخلي من الكهف على ما يبدو وهناك صورة قدمين بالقرب منهما إلى اليمين ولعلهما ترمزان إلى مفهوم «الدخول إلى الكهف» أما الرمز المجهول إلى أقصى اليمين فيمكن أن يعني خطر الدخول إلى الكهف أو الدعوة إلى دخوله»⁽³⁾.

وقد جمعت أمثال هذه الكتابات في الماضي تحت اسم مشترك هو «الكتابة التصويرية» ولكن بما أن هذا التعبير يحمل معنى فضفاضاً جداً وبالتالي يمكن أن يؤدي إلى التباس في الفهم فقد قرروا الآن الفصل بين الكتابة التصويرية بمعناها الضيق

1- Геродот, История в девяти книгах, пер. Ф.Г.Мищенко, М., 1888.

2- قدمت هذه النبوءة من معبد دلفي. إلى كريس، ملك لبيدا الذي استشار كهنة المعبد أثناء حربه مع فارس فأجيب: «إذا عبر كريس نهر خاليس فسيفضى على دولة عظمتي، لكن لم يحدد أي دولة، أدولته ام دولة فارس (لمترجم).

3- H. Jensen , Die Schrift in Vergangenheit und Gegenwart , S. 24.

(البيكتوغرافيا) وبين كتابة الأفكار (الأيديوغرافيا) كمرحلة أعلى من مراحل تطور الكتابة التصويرية. فنحن لا نتعامل مع البيكتوغرافيا إلا عندما تقوم الصورة بالرمز إلى الشيء الذي تصوّره. فإذا رسمت عوضاً عن مفهوم وكلمة «شمس» دائرة ذات أشعة منبثقة فإن الصورة في هذه الحالة تؤخذ على أنها رمز - صورة (بيكتوغرافيا). ولكن مثل هذا الرمز - الصورة يتحول إلى رمز - فكرة (ايديوغراما) إذا كان على أساس من الاتفاق الجماعي لا يعني ذلك الشيء المحدد المصوّر بل تلك «الفكرة» المرتبطة به، أي عندما تعني تلك الدائرة ذات الأشعة المنبثقة لا «شمساً» بل شيئاً بمعنى «قيظ»، «ساخن»، «حار أو دافئ».



الشكل -4- النقش الصخري في كهف باسييفا.

والكتابة التصويرية بمعناها الضيق هي الأقدم عهداً. وكمثال على ذلك نشير إلى اللوحة المنقوشة الملونة التي اكتشفت على سقف كهف ألتاميرا في أسبانيا الشمالية (عهد الباليوليت الأعلى، نحو 20 ألف سنة قبل الميلاد). وقد صور هناك بيزون قائل في حجم يكاد يكون طبيعياً وقد لويت عنقه، ويمكن لهذه الصورة أن تفسّر على حد تعبير ريان تشيخولد «تعبيراً عن اليقظة أثناء صرغ الوحش وتخليداً للصيد الناجح» وأن يلمس فيها الشكل الأقدم من «الكتابة» بالمعنى الواسع⁽¹⁾.

إن الصورة أو التخيليط التصويري يحل في البيكتوغرافيا محل الشيء المحدد المصور؛ فالدائرة ذات الأشعة تعني الشمس والخط المتعرج - الماء، والشكل ذو الرأس والذراعين والقدمين - الإنسان. أما الأيديوغراماً فتعبر عن مفهوم «الهرم» في صورة شيخ يمتد على عكاز، وتعبر عن مفهوم فعل «سار» بتصوير ساقين، أما خاصية «البارد» فتعبر عنها بإناء يرشح منه الماء. والخاصية المميزة لكل كتابة تصويرية، سواء أكانت بيكتوغرافية أم ايديوغرافية، - هي انعدام أي نوع من الرابطة بين الصورة المكتوبة وبين أصوات اللغة الحية.

1- J. Tschichold , geschichte der schrift in Bildern , 2 , Aufl. Basel , 1951 , S. 1.

وهناك عدد من أمثال هذه الصور يمكن أن يقرأ على درجة كبيرة من الصواب من قبل كل من يمين فيها النظر بفض النظر عن اللغة التي يتكلم بها.

وأنموذج مثل هذه الكتابة، وإن كان في عهد متأخر، يمكن أن تكون المحفوظات التصويرية لهود كراو والتي نقشت على جلد بيزون. وعلى الرغم من أنها حُطت في القرن التاسع عشر فإنها من وجهة نظر مستوى التطور التاريخي لا تتخطى حدود العصر الحجري. إن الصورة الموضوعية في الوسط تمثل درعا وشئيت أطرافه بريش العقاب، وظهرت فوقه صورة قريية مكونة من خيام توضع على هيئة قوس، ونشرت حول الرسم المركزي أشكال تمثل لوحات من صراع الهود فيما بينهم ومن حروبهم مع البيض. وعلى الزاوية العليا اليمنى دونت بكل دقة رؤوس الأعداء الذين قتلوا، أما آثار الحوافر والأقدام إلى اليسار فتسمح باستنتاج أعداد الخيالة والمشاة المحاربين الأعداء الذين أرسلهم الكراو إلى تلك الأصقاع المليئة، حسبما يقال، بالغابات العامرة بالطرائد وحيث يحالف الحظ الصيادين بصورة دائمة، وفي الوسط إلى اليسار ومن الأسفل إلى اليمين ثبتت شرائط من القماش الأحمر ما تزال عليها بعض فروات الرؤوس المفصولة وقد نفذ كل ذلك بالألوان السوداء الداكنة والحمراء والخضراء.

أما الأنموذج البديع الآخر، فهو ما يسمى بـ «جرود فصول الشتاء» وهو لهود قبيلة يانكتوناييس - داكوتا («الكلب المنفردة») وقد صور أيضاً على جلد بيزون. وهذا التقويم الفصلي (كان الداكوتا يحسبون السنين بفصول الشتاء) فيشمل الفترة الواقعة بين شتائي 1800 / و 1870 / 1871 وقد دونت السنون بطريقة لولبية وحُصن كل عام بالحدث البارز في تاريخ القبيلة.



1900 / 1 ثلاثون من
الداكوتا قتلوا على أيدي
هنود قبيلة الفسراب.



1824 / 25 قتلت جميع
خيول رئيس القبيلة.



1801 / 2
وباء الحمصة.



1853 / 54 وصول
الأغذية الإسبانية.



1813 / 14 وباء
السعال الديكي.

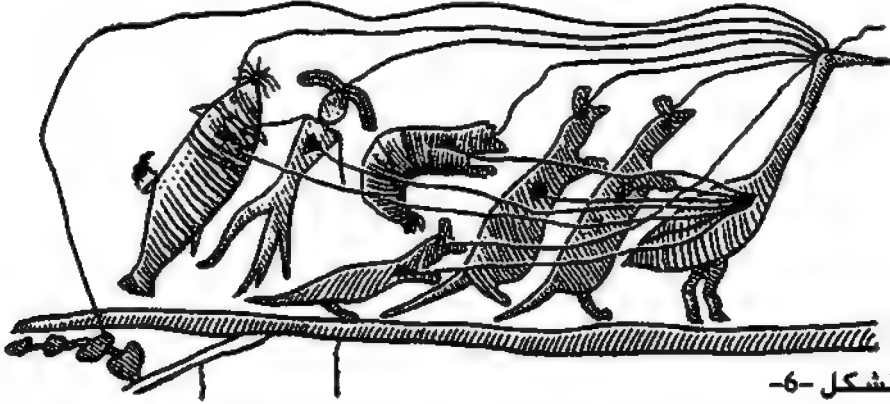


1869 / 70
كسوف الشمس.

الشكل -5- صور منفصلة من «جره فصول الشتاء» العائد لقبيلة «الكلب المنفردة».

إلا أن من الخطأ الافتراض بأن الهود وبخاصة من كان يستعمل الكتابة التصويرية قد استعملوها فقط من أجل العلاقات ضمن القبيلة الواحدة. فسمت الكتابة التصويرية حسبما رأينا هي عدم ارتباطها باللغة التي يتكلم بها القارئ. ولهذا فإن مثل هذه الكتابة تتسق والعلاقات

الدولية، قبل كل شيء. فإذا بدت قبيلة ليني - لينابي، وكأنها لم تزد على أن وثقت، عن طريق حزام الفامبوم، اتفاقها مع ويليام بين فإن سبماً من قبائل الهنود الشماليين الذين كانت الحضارة قد أسيفت عليهم البيروقراطية في مجموع ما أسيفته عليهم من نعم، اندفعت بكل شجاعة في اللانهاية السديمية لفقرات القانون عندما كان عليها أن تستحصل من كونغرس الولايات المتحدة على حق صيد السمك في بعض البحيرات. فبعد أن توحدت هذه القبائل توجهت إلى الكونغرس بصورة هذه العريضة التي تمثل وثيقة بالغة الطرافة، فالحيوانات السبعة ترمز إلى القبائل السبع يتقدمها البجع (إلى اليمين) وهو طوطم أوشكابافيس. أما الخطوط التي تربط قلوب الحيوانات وعيونها فتعني أن القبيلة الرائدة تعبر عن الرأي المجمع عليه بين القبائل وتقوم بتقديم الطلب الجماعي، بينما يعني الخط المنطلق من عين البجع، والمؤدي إلى البحيرات الأربع (إلى اليسار من الأسفل) بعد مروره فوق الحيوانات، الرغبة المشتركة لدى القبائل بالتمتع بحق صيد الأسماك في هذه البحيرات فهي المعنية بالطلب، ومن العين الأخرى للبعج ينطلق خط إلى الأمام وهو يعني أنه يرفع نظره بثقة إلى الكونغرس بانتظار ردّه الإيجابي.

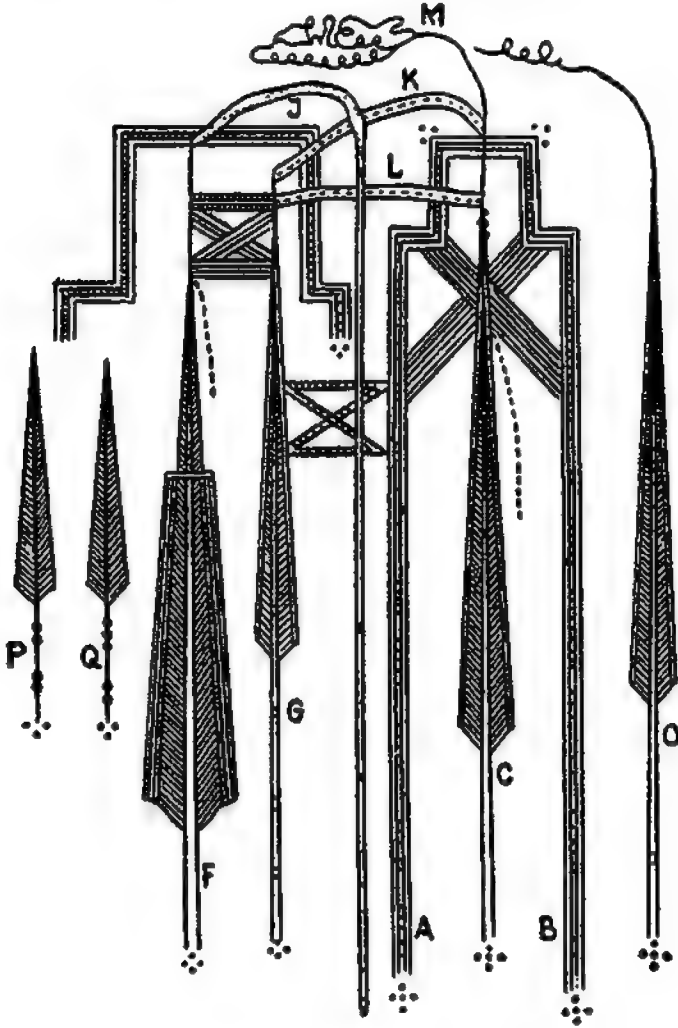


الشكل -6-

الطلب الذي وجهته القبائل الهندية السبع إلى كونغرس الولايات المتحدة الأمريكية

من الطبيعي أننا لا نلتقي بعادة استعمال الكتابة الايديوغرافية لدى الهنود فقط. فهذه الكتابة منتشرة لدى الأسكيمو وفي أفريقيا والمحيط الهادي، ورسائل الفرام التي كتبتها فتيات من قبيلة اليوكاغير في سيبيريا الشمالية الشرقية تمثل واحدة من التحف الصغيرة لهذا النمط من الكتابة حز بالمدينة على قطعة من الجلد. و (الشكل 7) يمرض انموذجاً ذا طرافة خاصة وقد أعيد نشره أكثر من مرة بعد أن قام كرامير بنشره لأول مرة سنة 1896. وإذا وضعنا في الاعتبار أن شعب اليوكاغير (وهو يسمي نفسه «الأودول») قد كان يعد ما يقارب الألفي نسمة سنة 1926، وأن ما يقارب الأربعمئة فقط من بينهم كانوا يتكلمون اللغة الموروثة

عن الأجداد ، كان علينا أن نفترض أن اللغة اليوكاغيرية كانت خلال الفترة التي مضت بعد ذلك التاريخ قد ذابت بصورة كلية في الوسط المحيط. ويطرح هذا أساساً جيداً لنا لنستعرض هذه الوثيقة المذكورة التي تكتسب طرافتها أيضاً من وجهة النظر الايتوغرافية. فكاتبات أمثال هذه الرسائل كن من دون استثناء شابات حالت التقاليد السائدة بينهن وبين التصريح بالحب عن طريق الكلمات ، إذ لم يكن ذلك متاحاً لغير الشبان. وكانت الأعياد النادرة الحدوث والمرفقة بالرقص تقدم للشابات إمكانية إعداد و «تصريف» رسائلهن.




الشكل -7- «مرسال» الحب اليوكاغيري

تقول الرسالة: «إنك تعضي، أنت تحب روسية تقطع طريقك إلي، سيولد الأبطال وستبتهج وأنت تنظر إليهم أما أنا فسأظل إلى الأبد أسيرة الأحزان وسأفكر فيك فقط على الرغم من أن هناك واحداً آخر يحبني».

إن إطار $A - B$ يعني منزلاً تعيش فيه C ، وهي الفتاة المحزونة التي صورت على هيئة تنورة ضيقة مروحية تتطابق مع الملابس اليوكاغيرية، وهي ذات ضفيرة (الخط ذي النقط) وفي البيت تتقاطع حزمتان من الخطوط وهو ما يعني الحزن. وإلى اليسار من منزل الفتاة يقع المنزل الثاني وهو إطار لم يصور حتى نهايته - وهذا يعني أن ساكنيه F و Q غائبان و F امرأة روسية وهو ما تشير إليه التنورة ذات الكنار الأكثر عرضاً. والحب يربطها بقوة إلى زوجها (الخطوط المتقاطعة بين F و G) وعلاوة على ذلك يصدر عن المرأة الروسية F خط L يقطع خط K و L . أما K و L فيصوران الحب غير المتبادل والذي تكنه الفتاة اليوكاغيرية للروسي المتزوج G أما الخط المتشابك M فيظهر أنه على الرغم من خط L الفاصل فإن الفتاة تقف في أفكارها إلى جانب محبوبها. و D يصور الشاب اليوكاغيري الواقع في هوى الفتاة وأخيراً فإن P و Q - طفلا F و G .

إننا مضطرون انطلاقاً من محدودية الحيز المكاني أن نكتفي بهذه النماذج من أنماط هذه الكتابة على الرغم من الجاذبية الخاصة التي تتميز بها النماذج الأخرى، وبيدنا أن نشير أيضاً إلى تلك الحقيقة الطريفة من وجهة نظر تاريخ الحضارة وهي أن الكتابة التصويرية لا تزال تستعمل في الحياة اليومية وبخاصة في المدن الكبرى وعند كل خطوة. وأكثر نماذجها شيوعاً - علامات المرور، إشارات التحذير مثلاً مثل «منعطف»، «تقاطع»، «ممر قطار» هي كتابات تصويرية مجردة، أما الإشارات التي تحظر حركة السيارات والدراجات النارية والعادية، فهي أيديوغراما أصيلة، وتجسدون أمثلة أخرى على ذلك عند أول لوحة للإعلانات وأكثر ما نلتقي بها في اللوحات المنجزة بطريقة فنية والتي تروج للمواد ذات الاستهلاك الواسع. إلا أن هذا ما يزال قليلاً، فخلال البحث عن سبل التفاهم المتبادل بين الشعوب حاول البشر منذ زمن بعيد اختراع اللغة العالمية الوسيطة، ويوجّه البعض أنظارهم الآن نحو المراحل الأكثر قدماً من تطور الكتابة وهم في سباقهم نحو مبادئ أكثر حداثة من الكتابة العالمية الوسيطة.

ومنذ أمد غير بعيد قام بأعمال هذه المحاولات الصحفي الهولندي كاريل يانسون والبروفسور الألماني الدكتور أندريه ايكارت. فاستخدما نظام الكتابة التصويرية

حيث إن هذه الكتابة يمكنها للوهلة الأولى أن تكون أفضل طريق عالمية للتضاهم. فهي، على ما نذكر، لا ترتبط مطلقاً بالتركيب اللفظي لأي لغة. ونشرت إحدى المجلات المشهورة منذ فترة قريبة ما يلي: سواء أكان المقصود بيتاً *maison, hause* أم *Casa* فإنه في الـ «بيكتو»، وهو الاسم الذي يطلقه يانسون على كتابته، يكتب هكذا: ،¹¹


ويمكن لنماذج كتابة الـ «بيكتو» أثناء التعرف السطحي عليها أن توحي بأنه قد تم بمساعدة هذه الكتابة التوصل إلى ما دعوا إليه كثيراً، أي أن مخترعها صاغ مركبات من الرموز من أجل جمع إمكانات التعبير عن الأفكار فمثلاً في الـ «بيكتو» تعني «أنا» و *I+* تحمل معنى الملكية وتعني «ملك» و  «منزل» و  «في» و  «مدينة» وعلى هذا فإن جملة    *I+* تدعو مفهومة في البيكتو وتعني «أنا أملك منزلاً في المدينة». ولكن نظرة أكثر تمحيصاً تكشف أيضاً جوانب الضعف في مثل هذا النظام (وهو ما ينطبق أيضاً على «الزافو» وهو «الكتابة الدلالية» التي يموذ اختراعها للبروفسور ابيكارت) أولاً، إذا سمحنا بالافتراض بأن جميع الإمكانيات للتعبير عن الأفكار هي في واقع الحال مرتبطة، ولو بصورة غير واعية، باللغة أو اللغات التي يعرف المخترع بناء وإمكانات التعبير عن الأفكار فيها، فإن الإنسان الواحد بطبيعته قادر على أن يملك تصوراً واقعياً عن عدد قليل فقط من جميع اللغات الموجودة على الأرض. ولهذا فإن مثل هذا النظام، منذ بدايته، لا يبدو مقبولاً بالنسبة لجميع اللغات وهو ما تزكده وسائل علم اللغات المقارن بكل سهولة، ثانياً، إن مثل هذه الكتابة التصويرية المكونة من البيكتوغرامات والأيديوغرامات يمكن أن تكون واقية فقط باحتياجات التعبير قبل كل شيء عن التصورات الملموسة وعن عدد قليل جداً من المفاهيم المجردة. ولكن حاولوا مثلاً أن تعبّروا بهذه الوسائل عن مطلع مقدمة كانت للطبعة الأولى من كتابه «نقد العقل المطلق»:




«كان من نصيب العقل الإنساني مصير غريب في جانب من جوانب وعيه: فهو محاصر بالأسئلة التي لا يمكنه الخلاص من ريققتها لأنها تطرح عليه من تلقاء ماهيته نفسها بيد أنه عاجز في الوقت نفسه عن الرد عليها لأنها تتجاوز طاقاته.»

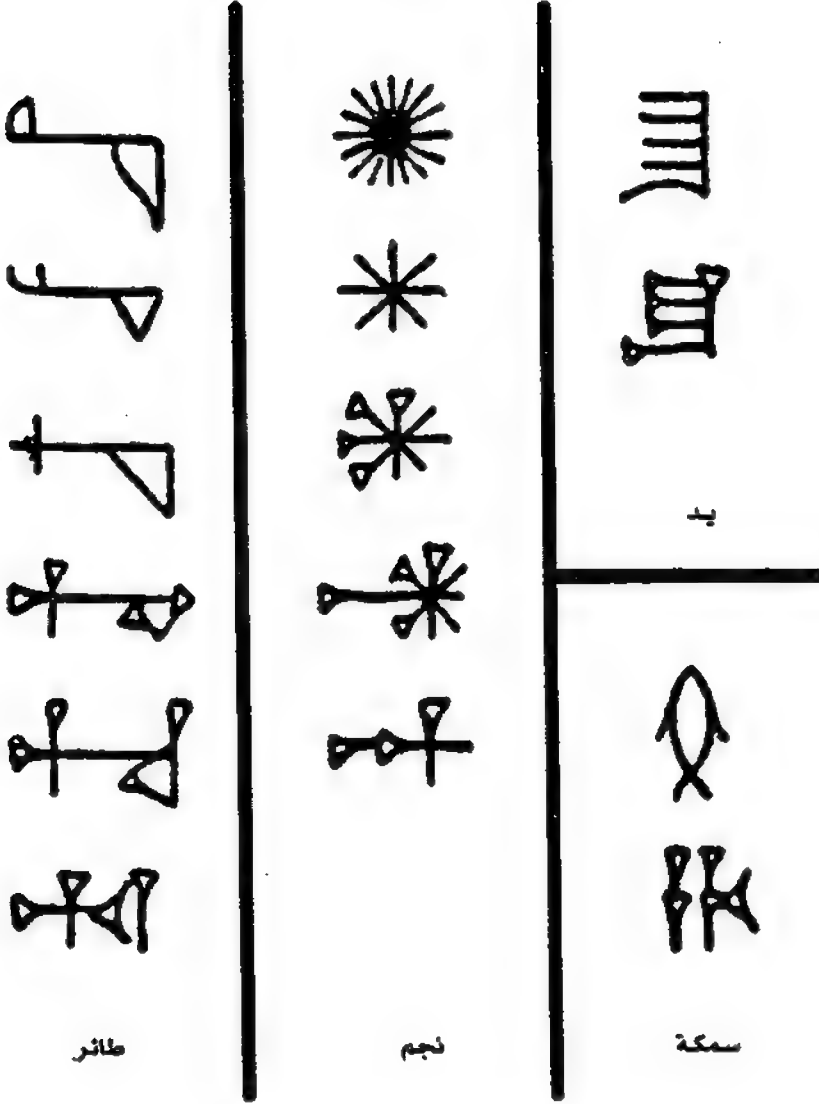
فمن الطبيعي أن تظهر في هذه الترجمة الأمور الغامضة وتعدّد المعاني التي من شأنها أن تحول من الناحية العملية دون الترجمة الوحيدة المعنى والمفهومة بالنسبة لكل قارئ.

1- «Quick», München, No 42, Jg. 9, 1956, S. 38.

إن أي كتابة تصويرية ما كانت لتكون مقبولة بالنسبة للعلم العالمي بصورة كاملة، وهي ليست كافية على الإطلاق من أجل تبادل الأفكار العليا المجردة كما لا يمكن قبولها بأي شكل كوعاء للشعر الذي يتطلب الكلمة ويميش بالكلمة. ومن هنا يمكن أن ندرك (وكان ذلك هدف إشارتنا إلى «البيكتو» و «الزافو» وغير ذلك من النظم المشابهة الأخرى) لماذا شاخت الكتابة التصويرية والإيديوغرافية بسرعة لدى جميع الشعوب الكاتبة ثم تلاشت، وأن ندرك الضرورة الضمنية للتطور التالي للكتابة.

ومرة أخرى: إن رمز  المبرر عنه بالكتابة التصويرية يمكن أن يعبر عن مفاهيم بيت *Casa, maison, hause, Hause* وما شابه ذلك. وعلى العكس فإن بيت أي التالي أحرف ب - ب - ت لا تعني إلا بيت وهي تطابق بصورة كلية وكاملة لفظ كلمة بيت. وبين هاتين الطريقتين في التعبير عن المفهوم - الرمز  أو أي رمز مشابه ومكافئ آخر، من جهة وبين مجموعة رموز ب - ب - ت من جهة أخرى - يقوم تاريخ كامل من التطور الظاهري والضمني للكتابة (وبكلمة أدق تاريخ طريق واحد لهذا التطور - هو الطريق «الشرقي» الذي تطرقنا له في البداية والذي يمتد من الصورة إلى الحرف)؛ أما التطور الخارجي - فهو تبدل الشكل، ذلك التبدل المنطلق من الصورة في الرمز المنسق المبسط والمفهوم بطريقة واحدة لدى الجميع، أما الداخلي - فتبدل دلالات الرموز الكتابية.

إذا بدأنا بتوضيح قضايا التطور الظاهري للكتابة، تطور أشكال الرموز، كان من السهل أن نرى أن مطلب الصيغة الثابتة والموحدة كان يزداد وضوحاً بازدياد انتشار الكتابة وازدياد تكيفها مع متطلبات الحياة اليومية. فحتى الآن أعطيت لأحد الأشخاص إمكانية التعبير عن «بيت» من خلال ، أو  أو  (ونستخدم في هذا المثال الأنف الذكر)، أو على الأقل رسم ذلك الرمز نفسه، ولكن بصورة مصفرة أو مكبرة، والباب يبقى مفتوحاً للتفسيرات المزدوجة ومختلف التكهينات: فالقصر والكوخ والقلمة والسقيفة تتبع مختلف التفسيرات المعقولة. وعلى هذا فإن أول خطوة نحو الكتابة المبسطة كانت (فيما يخص الصيغة) هي تبسيط وتثبيت الرمز - الصورة وهي العملية التي يمكن تقصيصها وفهمها من خلال نموذج ذلك التطور الذي قطعته الرموز السومرية القديمة من الصورة إلى الأسفين.



الشكل -8- تطور الكتابة السومرية من الرموز

التصويرية القديمة نحو المسمارية

وقع اختيارنا على هذا النموذج لسبب آخر أيضاً إذ إنه يتيح بصورة ملموسة استعراض انعكاس المادة المستخدمة في الكتابة على شكل الكتابة - وهذا عامل بالغ الأهمية في تطور الصورة الخارجية للكتابة. فالمادة المستخدمة في هذه الحالة كانت اللوح الطيني الذي تضغط فوقه الرموز بواسطة عود خشبي للكتابة أو قصبية

معدّدة عندما يكون الطين طرياً، ومن هنا جاءت الرسوم «الشبيهة بالإسفينات». وإذا كان الشكل الظاهري للكتابة يفتح الطريق نحو التوحّد والتبسيط فإن الطموح إلى إضفاء الصيغة الموحدة ينمكس بالطبع على المضمون الدلالي للرمز أيضاً. ويمكننا أن نتخيل (نظرياً) لحظة من لحظات الزمن لم يعد فيها رمز  يعني «بيتاً»، «قصرأ»، أو «سقيفة» بل واحداً من هذه المفاهيم وليكن مفهوم «بيت». وعليه، فمنذ هذا المستوى من التطور يقابل المضمون الدقيق والصارم التحديد للمعنى بمرمز صارم التحديد وشائع الاستعمال. ومثل هذه الكتابة، شأنها، شأن الكتابات التصويرية البدائية، يمكن أن تعبر ليس فقط عن الأشياء والأحداث المحدّدة بل وعن المفاهيم المجرّدة باستخدام الإشارات الرمزية من أجل ذلك، وفي الوقت نفسه فإنها تتقدم على الكتابة التصويرية المجردة وعلى الأيديوغرافية المجردة بميزة عدم ازدواجية المعنى. فهي يمكن أن تكون كتابة عن طريق الكلمة - الصورة في أنقى صورها. ونقول «كان يمكن أن تكون» لأنه لم يعثر عليها في هذه الصورة في أي مكان اللهم إلا إذا نسبنا إليها، على أثر بينسين، كتابة نُسببدي الزنجية الجنوبية التي اكتشفت سنة 1905 لدى قبيلتي ايبو وايفيك الزنجيتين. ومن بين رموز هذه الكتابة نقدم كنموذج عرضي للكتابة بطريقة الكلمة - الصورة ذلك الرمز الذي يطرحه الباحثون تعبيراً عن مفهوم «الخصومة الزوجية» وهو يتخذ هذه الصورة  (وسادة تفصل بين الزوجين اللذين أدار كل منهما ظهره للآخر).

إن كلا هذين الاتجاهين الواضحين - وأحدهما يسير نحو التحديد الواضح لدلالة الرمز - الصورة وترسيخها، والآخر نحو تبسيط شكله الخارجي وجعله موحّداً يحدوان بالكتابة نحو التخلص من خطوة الكتابة المجردة للكلمة - الصورة. وخلال عملية تطور الحضارة تجاوزت معرفة الكتابة واستعمالها دائرة مبدعها الأوّل والقائمين بالمحافظة عليها. والكتابة تتسرّب بصورة لا تتوقف في الوسط الشعبي وبصورة دائبة تتمازج الحاجة إلى التبسيط الأكبر لأشكال الرموز، فالليل يتجه نحو كتابة أبسط وأسرع، كما أن المادة الكتابية، وهي في العادة مادة هشّة، تقدم إسهامها في عملية تبسيط الرموز. وبهذه المناسبة نستعرض المقارنة التي قدمها يوهانس فريدريك من ميدان الكتابة المصرية. فهو يقارن بين نص من بردية إيبيرس، المكتوب بهيراطيقية (كتابة الكهنة) أكثر تأخراً، بالنص نفسه وقد كتب بالخط الهيروغليفي (الشكل 9).

١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥
 ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١
 ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧
 ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣
 ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩
 ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥



(1) وصفة أخرى للبعثان، عندما يمرض (2) كراوية، شحم أوز وحليب (3) يغلى ويشرب (4) وصفة
 أخرى لمنع الأنف من الخروج من الوكر (5) سمكة منسفة عند فتحة الوكر (6) عند ذلك لن تخرج
 الشكل -9- كتابة هيراطيفية على بردية إيبيرس وصيغتها بالهروغليفية

إذا كانت الهيروغليفية (الرموز المقدسة) قبل كل شيء كتابة النقوش على الآثار المنحوتة فإن الهيراطيقية الكتبية تبرز بكل وضوح مدى التشذيب و «الحت» الذي تعرضت له الرموز - الصور المرسومة بطريقة حادة، وهي في صورتها الجديدة لا تملك في عيني الناظر غير المزهل أي نوع من التشابه مع أشكالها الأولى.



إن هذه النقطة تشير إلى تحول نوعي جديد. فرمز الكتابة، حسبما يشير (الشكل 9)، قد اشتد في ابعاده عن الشيء الذي كان يعكسه إلى درجة كافية من الدقة عندما كان رمزاً تصويرياً، حتى تقطع الصلة في نهاية المطاف بين شكل الرمز الدائم التطور وبين الصورة الأولى للشيء. ومنذ هذا الحين تصبح الكلمة فقط، أي المكافئ اللفظي للصورة السابقة، محافظة على الارتباط برمز الكتابة. وبهذا يتحوّل رمز الكتابة إلى معبر عن رمز بعينه أو عن مجموعة رموز. وهذه العملية يسميها الباحثون إضفاء الصبغة الصوتية (الصوتية) على الكتابة.

لقد كانت هذه خطوة أدت إلى نتائج بعيدة الأهمية فبدلاً من ذلك الحين صار يمكن أن يحدث ما كان له فيما بعد مكان في الواقع بصورة متكررة عندما صار الرمز الواحد يستعمل للتعبير عن عدة كلمات مختلفة في معانيها لكنها بالمصادفة تلتظ بطريقة واحدة، فقد كان هذا الرمز في السابق يحل محل واحدة فقط من الكلمات - المفاهيم وهو بالذات ذلك المفهوم الذي انطلق ذلك الرمز من صورته، أما الآن فقد أصبح استخدام مثل هذا الرمز للتعبير عن مفهوم مختلف تمام الاختلاف في المعنى كأن تستعمل الكلمة - الرمز «خال» (بمعنى شامة على الخد) في العربية للتعبير أيضاً عن «خال» (بمعنى أخ الوالدة).

ولكن بهذا أيضاً يفتح الطريق لخطوة لا تقل أهمية وإن كانت ليست كبيرة - نحو النمط الثاني الأكثر أهمية والذي نلتقي به بصورة أكثر بكثير من أنماط الكتابة وهو الكتابة «المقطعية»⁽¹⁾ (تميزاً لها عن الكتابة «الحرفية») وهو ما يسمى بالكتابة عن طريق الكلمة - اللفظ. فقد تيسرت إمكانية التعبير في الكتابة عن كثير من المفاهيم المجردة بواسطة رموز كتابية كانت في البداية تعني مفاهيم محددة شريطة أن يكون المفهوم - المحدد والمجرد يلفظان بصورة واحدة.

فإذا عدنا من جديد إلى أمثلة اللغة العربية كان بإمكاننا أن نشرح كيف كتبت برموز واحد كلمتا «عجلة» بمعنى الدولاب و «عجلة» بمعنى «السرعة» و «حياة» بمعنى أفعى وبمعنى «ذات حياة».

1- في هذا المكان وفي مايلي استبدلنا الأمثلة الألمانية بأمثلة مطابقة من اللغة العربية (المترجم).

لكن إمكانيات الكتابة بالكلمة - اللفظ لا تنتهي عند هذا أيضاً. فقد اتضح انه باستخدام طريقة الصور - الأحاجي أي الأحاجي التي استعملت كما سبق ورأينا في الكتابات عن طريق استعمال الأشياء يمكن التوصل إلى تركيب مفاهيم جديدة من الرموز - الصور. ففي العربية يمكننا أن نتوصل إلى كلمة «محتاج» بوضع رمزي  و  وهما مع (البيضة) وتاج.

غير أن من الضروري أن ننبّه القارئ إلى أن عرضنا مبسط إلى درجة مبالغ فيها. فكل كلام إنساني وكل لغة وكل كتابة أيضاً هي شيء حي ودائم التبدل، لهذا فالكتابة المجردة بطريقة الكلمة - اللفظ لم توجد أبداً - (فما أكثر ما كانت لتنجح القراءات وتتوج المحاولات بالانتصار فيما لو وجدت مثل هذه الكتابة!) وبدلاً من ذلك ففي كل مكان كانوا يستعملون الكتابة «عن طريق الكلمة» كان يمكن العثور إلى جانب الكتابة بالكلمة - الصورة على كتابة بالكلمة - اللفظ فضلاً عن توفر ملامح الكتابة التصويرية المجردة واللفظية المجردة. والنتيجة هي سديم «غير منطقي» إلى درجة مدهشة، لكنه سديم أسر للانتباه ودائم التبدل في تركيبه وفي الوقت نفسه يمثل كلاً متكاملًا في بنائه. على هذه الصورة، كانت تتشكل تلك المتاهات الكثيرة التي كان يتحرك عبرها كبار قراء الرموز نارة بصورة إفرادية ونارة متعاونين فيما بينهم وثالثة بعد أن يتوارثوا إنجازات السابقين فكانوا يضيرون في هذه المتاهات ليخرجوا منها بقصب النصر.

ومما لا ريب فيه أن الكتابة بطريقة الكلمة - اللفظ كانت تشوي في صلب الانتقال إلى المرحلة التالية. وفي واقع الحال إذا كانت اللغات التي تكتب بهذه الكتابة تتضمن عدداً كبيراً من الكلمات الوحيدة المقطع أو إذا كانت الكلمات المتعددة المقاطع فيها ذات بناء بسيط متكامل للمقاطع فإن الكتابة بالكلمة - اللفظ تتطور إلى كتابة مقطعية. ويمكن دراسة عدد كامل من الكتابات المقطعية كمرحلة انتقال إلى الكتابة المقطعية، هذا بينما لا نلتقي بالكتابة المقطعية المجردة إلا في حالات نادرة نسبياً، وأكثر الأنماط شهرة من بينها هي كتابة كاتاكانا اليابانية المقطعية التي انبثقت على أساس الكلمات - الرموز الصينية، أما انحدارها من الكتابة الصينية العادية ودلالاتها الصوتية فهو ما يعرضه (الشكل 10).

كنايه	كنايه كنايه	الدلالة اللفظية	كنايه	كنايه كنايه	الدلالة اللفظية	كنايه	كنايه كنايه	الدلالة اللفظية
阿	ア	a	千	チ	ti (chi)	牟	ム	mu
伊	イ	i	門津	ツ	tu (tsu)	女	メ	me
宇	ウ	u	天	テ	te	毛	モ	mo
兀	エ	e	土	ト	to	也	ヤ	ya
於	オ	o	奈	ナ	na	勇油	ユ	yu
加	カ	ka	仁二	ニ	ni	興	ヨ	yo
幾	キ	ki	奴	ヌ	nu	良	ラ	ra
久	ク	ku	子	子	ne	利	リ	ri
个計	ケ	ke	乃	ノ	no	流	ル	ru
己	コ	ko	八	ハ	fa (ha)	礼	レ	re
草散左	サ	sa	比	ヒ	fi (hi)	呂	ロ	ro
之	シ	si (shi)	不	フ	fu	白	ワ	wa
須	ス	su	皿邊	ヘ	se (he)	懸	エ	we
卅	セ	se	保	ホ	fo (ho)	伊	井	wi
曾	ソ	so	末	マ	ma	平	チ	wo
多	タ	ta	三美	ミ	mi	—	—	—

الشكل -10- كتابة كاناكانا اليابانية المقطعة في تطورها عن الكتابة الصينية العادية

يبدو بناء مثل هذه الكتابة المقطعية للوهلة الأولى بسيطاً وملائماً إلى أبعد حد، بل وهناك من حاول إثبات أن الكتابة المقطعية أكثر عملية من كتاباتها الأوروبية الحرفية - فهذه الكتابات تستلزم تدوين عدد أكبر من الأصوات، وتبدو الفرضية قريبة من الصواب ولكنها تظهر مهيضة الجناح إذا ما ازددنا اقتراباً منها، فالكتابة المقطعية لا تكون عملية

إلا إذا توفرت اللغة على عدد غير كبير من المقاطع؛ وإلا فإن من الصعب استيعاب العدد الهائل من الرموز المقطعية. فالعدد القليل من المقاطع لا يتوفر إلا في تلك اللغات التي تتميز، كما ذكرنا، بالبناء البسيط للمقاطع والذي يسمح بعدد قليل جداً من تراكيب الأصوات. وفي هذه الحالة قدمت اللغة اليابانية (والحق أن ذلك ينطبق على لفظها القديم) حالة مثالية؛ لأنه لم يكن يعرف فيها غير المقاطع ذات النمط الساكن+صوتي أو مقاطع مكونة من صوتي فقط.

أما إذا كان البناء الصوتي للغة أكثر تعقيداً، كما هو الحال في جميع اللغات المعروفة بالنسبة لنا، وإذا كانت تترتب فيها عدة سواكن متتالية فإن الوسائل المستعملة في الكتابة المقطعية لا تكفي للتعبير التام عن النظام اللفظي للغة. ويمتد التطور إلى أبعد من ذلك إلى المرحلة الأخيرة العليا - وهي الكتابة الحرفية التي تتضمن، على الأقل من ناحية المبدأ، رمزاً خاصاً لكل لفظ منفصل.

وقد يدهش القارئ إذ يعرف أن هذه المرحلة المعروفة جيداً من قبلنا والواضحة بصورة تلقائية والتي تمثل المرحلة الأخيرة والأعلى من التطور لم تتحقق إلا في مناطق قليلة من الأرض.

فتلك الشعوب التي تسامت إلى هذه الدرجة (وانتقلت إليها من الصورة) والتي نعرف تاريخ تطور الكتابة لديها، قطعت طريقين مختلفين، أحدهما يمكن تقصيه عبر تاريخ الكتابة المصرية، وبين رموز هذه الكتابة يوجد عدد مما نسميه بالرموز ذات الساكن الواحد التي كانت تعني في البداية كلمات أو مقاطع من نمط ساكن+صوتي (مثل كا، بو وما شابهها) ومن بينها ونتيجة لإهمال الصوتيات (وهي العملية التي يصعب علينا تصوّرها بصورة واضحة، ولكنها تقوم على أساس خصائص اللغة المصرية) تكونت الحروف الحقيقية الخاصة بالتعبير عن الحروف الساكنة أي ك، ب وما شابهها.

أما قدماء الساميين¹¹ فساروا في طريق آخر، فكأنهم فصلوا الصوت الاستهلاكي للكلمة عن الكلمة نفسها وصاروا يكتبون كل الكلمة - الرمز فقط من أجل التعبير عن ذلك الصوت الاستهلاكي. فمن الرمز - الكلمة التصويري (بيت، ولعله يعود إلى الهيروغليفات المصرية) ، [] ، [] أو إلى الرمز السينائي [] ،

1- ليس هناك فارق، من الناحية العرفية بين قدماء المصريين والساميين (كما يتراعى للمؤلف) فهم يعودون جميعاً إلى أرومة واحدة (المرجع).

ظهر حرف ب والذي نعرف تسميته القديمة من التعبير اليوناني «بيتا»، وهذا المبدأ، أي كتابة الصوت الاستهلاكي للكلمة - الرمز بواسطة الكلمة - الرمز السابقة وبالتالي تحويل الكلمة - الرمز إلى رمز صوتي، يسمى بالكلمة اليونانية اكروفونيا. وعلى الرغم من أن الكلمة ليست مأثوفة جداً في مسامنا فإن ماهيتها معروفة لكل إنسان منذ زمن بعيد. ومن منا لم يقع له أن يرسل اسمه أو كنيته بالهاتف عن طريق الأحرف؟ خازم، لا ما خازم بل خازم، خالد، أحمد، زهير ومحمد... هي ذي الأكروفونيا التي نستعملها كل يوم.

وهناك من ينظر نظرة غير خالية من التقديس إلى الرموز السامية القديمة التي تعتبر جدّات حروفنا الأبجدية، لكن الدراسة المدققة لا تترك أي ظل من الشك في جوانب الضعف التي تتطوي عليها هذه الأبجدية الحرفية المبجلة: فهي لا تحتوي حتى على الرموز التي تعبّر عن الحروف الصوتية! وبالنسبة لقدماء الساميين (كما كان الأمر بالنسبة لقدماء المصريين) لم يكن هذا نقصاً ملحوظاً إذ إن بناء لغاتهم يفرز للصوتيات، إذا ما قورنت بالسواكن، دوراً يقل أهمية عن الدور الذي تلعبه في لغاتنا. ولهذا السبب كان من نصيب الهندأوروبيين دور تنويع الكتابة الحرفية بحظ أوفر من الكمال ووحدة الدلالة.

أما أول محاولة للبعوث في هذا الاتجاه - وهو ما يعتبر نموذجاً بديعاً للتجديد في تاريخ الكتابة - فقد قام بها قدماء الفرس الذين كانت كتابتهم الإسفينية تعرف الاستعمال المنقوص للصوتيات (وهو ما صعّب إلى حد كبير من قراءة رموز تلك الكتابة) بيد أن أمجاد إضفاء الصبغة الصوتية بصورة كاملة ونهائية على الأبجدية السامية كان من نصيب اليونانيين. فمن الرموز المحددة صاغ اليونان الرموز الضرورية للغتهم من أجل التعبير عن الصوتيات. ويظهر من الجدول (الشكل 12) الطريق الذي ساروا عليه.

وقد يتراءى أن النتيجة التي تفرض نفسها هي أن تطور الكتابة قد توجّ باختراع الكتابة الحرفية الكاملة وقد لا يكون هناك حتى مجال للتفكير بالتقدم المقبل في هذا المجال. إلا أن مثل هذا الاستنتاج يفتقر إلى ما يبرّره. فجميع الكتابات الحرفية الحديثة تشكو من نقطتي الضعف وتغدو إحداهما أبين عند إقامة علاقات الكتابة بين شعوب مختلفة، فالحروف اللاتينية والروسية والعربية تعبّر في مختلف اللغات التي تستخدم الأبجدية الواحدة، بل وأحياناً في اللغة الواحدة نفسها، عن أصوات مختلفة إلى حد ما. وهذا لا يسري فقط على

اللغة الإنكليزية بما فيها من كتابة معقدة، ويمكن العودة الى اللغة الروسية ومقارنة الـ o في كلمتي do.n - Mo c kea (مُسكفا - دوم) أو الـ e في e.n - Πετρος (بيتروف - ولد)⁽¹⁾ ويمكن إيراد عدد كبير من هذه الأمثلة.

	الدلالة اللفظية	الأبجدية السامية القديمة		الدلالة اللفظية	الأبجدية السامية القديمة
1	o	𐤀 𐤁	12	l	𐤋 𐤌
2	b	𐤁	13	m	𐤍 𐤎
3	g	𐤏	14	»	𐤐
4	d	𐤑	15	s	𐤒
5	k	𐤓	16	'	𐤔
6	w	𐤕	17	p	𐤖 𐤗
7	z	𐤙	18	f	𐤘
8	h	𐤛	19	q	𐤜
9	t	𐤝	20	r	𐤞
10	j	𐤟	21	h	𐤠
11	k	𐤡 𐤢	22	i	𐤣

الشكل -11- الأبجدية السامية القديمة

أما نقطة الضعف الكبرى الثانية فهي: إننا لا نستطيع أن نكتب رموزنا الأبجدية بسهولة وبخاصة إذا أردنا كتابتها بصورة جميلة ومتقنة. وتجري المحاولات للتغلب على هذا النقص باختراع مختلف النظم المختصرة للكتابة. ولكن حتى هي أيضاً بعيدة عن الكمال - فهي في كل حالة موجهة نحو خصوصية اللغات المتفرقة ومتطلباتها. فالكتابات المختصرة الوسيطة «الموحدة» التي يمكن استخدامها على مستوى واحد بالنسبة لعدة لغات لا يمكنها أن تحقق أي نجاح على الرغم من أنه قد فرغ من اختراعها وضبطها.

1- تجري الإشارة هنا الى ما تتعرض له حروف الأبجديات الحديثة أحياناً من تبدل في اللفظ فإذا لم يقع حرف الـ o في الروسية تحت النبر لفظ q قصيرة كما أن حرف (ف) إذا جاء في آخر الكلام لفظ حافظاً

بيد أن النقص الأول - وهو انعدام الدقة أثناء التعبير عن أصوات اللغات المختلفة - فيجري التخلص منه بصورة ناجحة على مدار الزمن المستمر وإن كان ذلك يتم في الحقيقة ضمن الميدان الضيق لعلم اللغويات وعلم الأصوات التطبيقي وتعليم اللغات. ويتم تحقيق ذلك بتطبيق النظم المختلفة للكتابات العلمية الصوتية. ولعله لا يلزم نفسه بكثير من الوعود ذلك الذي يتبأ بالانتشار الواسع جداً وبالنجاح المتواصل لنظام الكتابة الصوتية لجمعية الصوتيات العالمية. وهو يعتمد في أساسه على منطلقين أساسيين:

(1) التعبير عن أي صوت في جميع اللغات برمز واحد فقط.

(2) الاستعمال الدائم للرمز الواحد نفسه بالنسبة للصوت الواحد.

ويعتقد أنه قد وضعت هنا إمكانية حل إحدى المهمات المحترمة - وهي اختراع تركيب جريء، وهو - الكتابة العالمية المختصرة القائمة على الكتابة اللفظية العالمية.

إن الفصل الحالي، الذي يمثل مقدمة عامة لموضوع «الكتابة والخط»، ما كان ليكتمل دون تسجيل ملاحظتين أساسيتين إحداهما - هي الإشارة إلى الدور الخارق للمادة والذي تلعبه المادة الكتابية في تكوين الصيغة الخارجية للكتابة. فعند دراسة تاريخ قراءات الكتابات لا بد وأن نلفت النظر بصفة دائمة إلى ما يلي: بماذا وعلى ماذا دونت تلك الكتابات المطروحة للقراءة، وخلال استمرار نشاط قارئ الكتابات سنعود أكثر من مرة إلى هذا السؤال، ويودنا أن نشير منذ الآن إلى أنه قد استعملت وتستعمل مختلف الأدوات الكتابية وأشدها تضارياً: كالحجر والطين والورق والأنسجة المختلفة الأصناف والجلد (الرقا) والخشب والزجاج والمعادن والشمع وغير ذلك، ولم يمض وقت بعيد على إخراج اللوح الشمعي والغريفييل من المدارس. أما قشور الخشب ولبابه وأوراق الأشجار والمغزاة فإنها لم تستخدم فقط في الماضي بل وهناك من لا يزال يكتب عليها حتى الآن. وقبل أن يبدؤوا الكتابة بريشة اللوز وعود القصب وقبل أن يبدؤوا بالرسم بالريشة ويمسكوا بأيديهم المسطار واللوح والمجرفة وريشة الكتابة وإزميل النقش استعمل الإنسان كما هو معلوم لدينا إصبعه أداة كتابية مثلما يفعل الأطفال في أيامنا هذه إذ يستعملون أصابعهم في الكتابة على التراب.

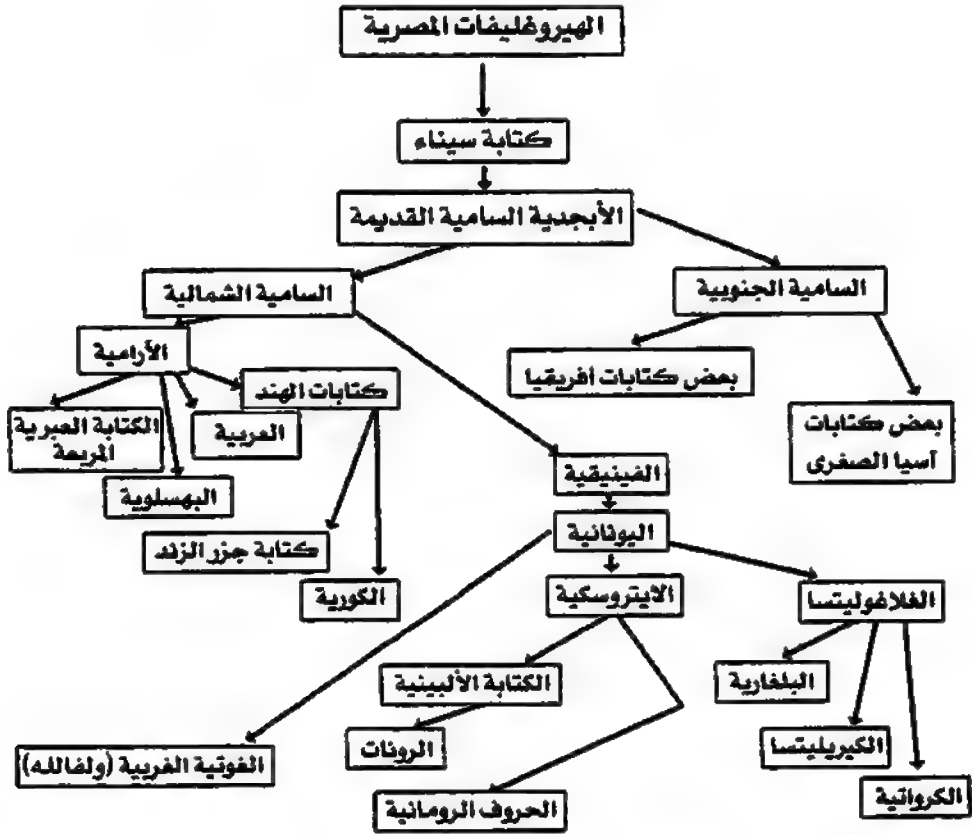
الفينيقية		اليونانية القديمة		الأبجديات الشرقية				الأبجديات الغربية				اليونانية الكلاسيكية	
الرموز	الدلالة النطقية	الرموز	الدلالة النطقية	أيقيا القديمة	ميتون	مكورتيس	الدلالة النطقية	أيقيا	لاكونيا	اركانيا	الدلالة النطقية	الرموز	الدلالة النطقية
Α	α	ΑΑ	α	ΑΑ	ΑΑ	ΑΑ	α	ΑΑΠ	ΔΑ	ΔΑ	α	Α	α
Β	β	ΚΚΥ	β	ΒΒ		ΥΥ	β	ΒΒ	Β		β	Β	β
Γ	γ	ΓΓ	γ	ΛΛ	Γ	Γ	γ	ΛΓ	Λ	ΚΚ	γ	Γ	γ
Δ	δ	Δ	δ	ΔΔ	Δ	ΔΔ	δ	ΔΔΔ	ΔΔ	ΔΔΔ	δ	Δ	δ
Ε	ε	ΕΕ	ε	ΕΕ	ΕΕ	ΕΕ	ε	ΕΕΕ	ΕΕ	ΕΕ		Ε	ε
Υ	υ					ΡΡ	υ	ΡΡ	Ρ	Ρ	υ		
Ζ	ζ	Ζ	ζ	Ζ	Ζ	Ζ	ζ	Ζ			ζ	Ζ	z, dz
Η	η	ΘΗ	η, ε	Θ	ΘΗ	Θ	η(ε)	ΘΗ	Θ	Θ		Η	ε
Θ	θ	⊕⊕	θ	⊕	⊕⊕	⊕⊕	θ	⊕⊕	⊕⊕	⊕	θ	Θ	θ
Ι	ι	Ι	ι	Ι	Ι	Ι	ι	Ι	Ι	Ι	ι	Ι	ι
Κ	κ	ΚΚΚ	κ	Κ	ΚΚ	Κ	κ	Κ	Κ	Κ	κ	Κ	κ
Λ	λ	ΛΛ	λ	ΛΛ	ΛΛ	ΛΛ	λ	Λ	Λ	ΛΛ	λ		λ
Μ	μ	ΜΜ	μ	Μ	ΜΜ	Μ	μ	ΜΜ	Μ	Μ	μ	Μ	μ
Ν	ν	ΝΝ	ν	Ν	ΝΝ	Ν	ν	ΝΝ	ΝΝ	Ν	ν	Ν	ν
Ξ	ξ			ΞΞ	Ξ	Ξ	ξ	+	×	+	ξ	Ξ	ξ
Ο	ο	ΟΟ	ο	Ο	Ο	Ο	ο	⊙	Ο	Ο	ο	Ο	ο
Π	π	ΠΠ	π	Π	ΠΠ	ΠΠ	π	ΠΠΠ	ΠΠ	ΠΠ	π	Π	π
Ρ	ρ	Ρ	ρ			Ρ	ρ						
Φ	φ	ΦΦ	φ	Φ	(Φ)	Φ	φ			Φ	φ		
Ρ	ρ	ΡΡΡ	ρ	ΡΡ	ΡΡΔ	Ρ	ρ	ΡΡΡΡ	ΡΡΡ	ΡΡ	ρ	Ρ	ρ
Σ	σ		σ	ΣΣ	ΣΣ		σ	ΣΣΣ	ΣΣΣ	ΣΣ	σ	Σ	σ
Τ	τ	ΤΥ	τ	Τ	Τ	Τ	τ	ΤΤ	Τ	Τ	τ	Τ	τ
Υ	υ	ΥΥ	υ	Υ	Υ	ΥΥ	υ, ε	ΥΥ	ΥΥ	Υ	υ	Υ	υ
		↓	κς	⊙	⊙	⊙	κς	⊙	⊙		κς	⊙	κς
				Χ+	Χ	Χ+	κς	Ψ	Ψ	Ψ	κς	Χ	κς
				Ψ	Ψ	Ψ	κς			✱✱	κς	Ψ	κς
		⊙⊙	δ		Ω		δ					Ω	δ

الشكل -12- الأبجديات اليونانية وتطورها بعد استعارة رموز الكتابة الفينيقية

إن التعرف على المادة الكتابية يمكننا من فهم الجانب الآخر من تاريخ الكتابة. فعلى أساس ذلك بالذات يمكن أن نشرح لماذا اختلفت بعض الكتابات القديمة دون أن تترك أثراً

ولم يبق من بعضها الآخر غير بعض النصف المتفرقة بينما بقيت كتابات ثالثة نقشت على مادة منيعة على التلف فاستطاعت أن تكشف لنا عن أسرارها العجيبة.

لقد ذكرنا في البداية أن مجموع الكتابات يصل حتى الأريمنئة وقمنا بمحاولة لوصف التاريخ العام للكتابة. وأن بعض المراحل المنفصلة من هذا التطور، مثلما هو الأمر بالنسبة للتقارب بين كتابات منفصلة وبالنسبة لموضوع ارتباط إحداهما بالأخرى، لا يخضع للوصف الكتابي، فنقدم فيما يلي كجزئية صغيرة فقط من تلك اللوحة الهائلة التي لم تكتمل بعد - شجرة الأسرة بالنسبة للأبجدية اللاتينية (وفقاً لـ إ. هيرينغ). وفي الحق أن اللوحة غير كاملة، وهي تضرب بعيداً جداً، في طموحها نحو التبسط (وبخاصة في موضوع التسلسل الفينيقي - اليوناني - الإيتروسكي)، ومع كل هذا فإنها تسمح بالتوصل إلى تصور واضح عن تلك الروابط التي تبدو لنا جديدة بمقدار ما هي مثيرة للدهشة.



الشكل -13- تطور الأبجديات من الهيروغليفات المصرية حتى الحروف الرومانية

الفصل الثاني

أحجية أبي الهول

قراءة رموز الكتابة المصرية القديمة

«منذ زمن بعيد فقدت آخر بارقه من الأمل في فك

رموز الهيروغليفات»

دافيد او كبيربلاد 1802

«لقد نجحت»

جان فرانسوا شامبليون 1822

في النقش المصري فوق الهرم (هيويس) سجل مقدار ما أنفق على العمال من الفجل والبصل والثوم، وأذكر جيداً أن المترجم قال لي وهو يقرأ النقش بأن ما صرف كان يعادل ألفاً وستمئة «تالانت»⁽¹⁾.

إن ذلك الرحالة والكاتب الشهير الذي رغب في معرفة ترجمة الكتابة المنقوشة فوق هرم هيويس كان هيرودوت نفسه. وقد كان ذلك الملاحظ النافذ البصيرة والراوية البارع أول من حدثت الغرب بكتابة المصريين، لكنه وللأسف لم يتحدث عنها إلا بصفة عرضية (وهو ما يتناقض تناقضاً كلياً مع أوصافه التفصيلية لأرض مصر وشعبها). وهو يشير في أحد المواضع إلى «حروف المصريين المقدسة» إلا أن إخبارياته عن الكتابة تبقى شحيحة بصورة عامة ولا تقدم حتى تصوراً تقريبياً عن جوانبها الظاهرة فكيف بتركيبها وخصائصها الجوهرية.

إلا أن هيرودوت بملاحظاته الموجزة لم يكن - على الأقل - سبباً في أي أذية، وهو ما لا يمكن أن نقوله عن جميع من ساروا على نهجه في الآداب القديمة. فثيودور ويلوتارك

1- Геродот, История в девяти книгах, пер. Ф.Г.Мищенко, М., 1888.

والكمية التي يذكرها هيرودوت زهيدة جداً بسبب الترجمة المغلوطة للنظام النقدي المصري إلى اليونانية (الأنيكية).

وكليمنت الاسكندراني، أبو الكنيسة الكاثوليكية (وهو صاحب تعبير «البيروغليفات» بمعنى «الرموز المقدسة المنقوشة») وبورفيري وفسيفي - تمرضوا جميعاً لهذا الموضوع ولو بصورة مجملة بينما تحدث عنه آخرون بصورة أكثر تفصيلاً. إلا أنهم كانوا يتعاملون مع مادة تمثل ثمرة تعبير عن الكتابة المصرية الضاربة في أعوار أربعة آلاف عام من التاريخ - لقد كانت من النوع المسمى بالكتابة «الأيثيفماتية» (المبهمة) أو ألفاز السدنة أو اللعبة التي تذكر بالأحاجي عن طريق الصور. تلك الكتابة، المتأخرة العهد، السائرة في طريق الانحطاط، كانت بالذات ما شاهده تيودور، بلوتارك وفسيفي، لا الكتابة المصرية في عهد ازدهارها. بيد أن الدليل الحقيقي في ذلك الطريق الخادع والمنبع الأساسي لكل الأخطاء التالية كان شخصاً يسمى غورأبولون وهو من نيلوبوليس.

قام ذلك الشخص الذي يحمل اسماً أنموذجياً بالنسبة للأسماء المصرية - اليونانية (غورأبولون) بوضع كتابين عن البيروغليفات عام 390 م ويبدو أنه كتبهما في بداية الأمر باللغة القبطية. وقد نُقل هذا المؤلف المجيب إلى اللغة اليونانية في القرن الخامس عشر وكان علماء عصر النهضة ينظرون إليه نظرة مجردة من أي نقد بل واختصوه بالقداسة التي كانوا يصفونها على كافة مؤلفات الكتاب القدامى. وكان غورأبولون قد درس الكتابة «المبهمة» بصورة مستفيضة ودون أدنى تردد نقل خصائصها المميّزة التي كان قد لاحظها بصورة صحيحة وطبقها على البيروغليفات. وخلال ذلك أطلق العنان «لأكثر التخيلات هذياناً» على حدّ تعبير إيرمان، عالم المصريات الألماني. فصورة الصقر، كانت وفق تفسيره تعني «الأم» حيث إن جنس الصقور لا يضم - برأيه - غير الإناث (1)، أما صورة الإوزة فكانت تعني «الابن»، إذ إن الإوز أشد الحيوانات شغفاً بأبنائه! أو قال مثلاً بأنهم «لكي يعبروا عن القوة كانوا يصورون قدي الأسد الأماميتين إذ إنهما أشد أعضائه قوة» ولكي يعبروا عن مفهوم الإنسان القذر «كانوا يصورون خنزيراً إذ إن القذارة تكمن في طبيعة الخنازير». ومثل هذه المحاولات في التفسير تبدو ذات حظ وافر من الإقناع لكنها ذات حظ أوفر من الخطأ.

لقد شرح غورأبولون البيروغليفات على أنها كتابة تصويرية فقط، لا بد وأن يتخذ كل رمز منفصل فيها مفهوماً مستقلاً.

ومهما يكن في الأمر من غرابة فإن تصورات غورأبولون بقيت حتى مطلع القرن التاسع عشر آخر صبيحة للعلم في ذلك الميدان، وتطلّب الأمر تعاوناً خارقاً للمادة بين العقل والحدس من أجل إجلاء تلك الظلمات الخائفة التي بسطها غورأبولون فوق البيروغليفات، ومن أجل تمزيق الستارة التي غطى بها وجه أبي الهول.

لكن الطريق الى ذلك كان لا يزال بعيداً... فمصر، المركز الأقدم للحضارة، والتي ترتبط بالعرب بالآلاف من الخيوط نراها تتفصل في وقت مبكر نسبياً عن المجلس المسكوني المسيحي وعن الاتحاد الذي أقامته الإمبراطورية الرومانية. فمنذ عهد الإمبراطور الروماني الشرقي جوستيان (527-565) انشق المسيحيون المصريون الناطقون بالقبطية بصورة جماعية عن الكنيسة الغربية والماليكية، وانتقلوا الى الاعتماد بوحدة الجسد حيث يسيطر الاعتماد القائل بأولوية الطبيعة اللاهوتية للمسيح (أما طبيعته الناسوتية فكانوا ينظرون إليها على أنها ظاهرة) وبذلك قطع أقوى خيط كان يربط مصر بالغرب. ولهذا ليس غريباً أن العرب المسلمين الذين هاجموا مصر سنة 638 م بقيادة عمرو، قائد جيوش الخليفة عمر والذين ضموا إلى دولة العرب والإسلام العالمية، قد تمكنوا دون جهد من إخضاع البلاد التي كانت الخصومات الدينية قد مزقتها وخضبت ترابها دماء الحروب الفارسية السابقة وانفصلت عن الغرب الروماني. لقد سقطت مصر (شأنها شأن سوريا وما بين النهرين) في أيدي العرب كثمرة سقطت من الشجرة¹¹، وعندما هوت بقايا مكتبة الإسكندرية ذات الشهرة أثناء فتح الإسكندرية، عاصمة الحكماء القديمة وتحولت حطاماً، انسدل بين الشرق والغرب ستار كثيف لا يمكن اختراقه. فكل نشاط هادف إلى البحث - ولم يكن ذلك إلا نشاطاً زهيداً، وكل محاولة للنفاذ نحو أعماق البلاد واستساخ النقوش، كانت تصطدم بمجموعها بخطورة مواجهة الجمهور المتعصب.

ولعل النقوش على الآثار استرعت أنظار العرب أكثر من مرة، غير أن تفاسيرها لم تكن تخرج عن حدود الأخيلة الخالية من المعنى. وتوجّهت وفود الحجاج المسيحيين نحو المشرق غير أنهم كانوا يبحثون عما يثبت أقاصيص التوراة، فرأوا في الأهرامات خزائن يوسف وفي هيليوبوليس - المخبأ الذي استراحت الأسرة المقدسة بداخله في طريقها الى مصر، أما العظام المبعثرة على شاطئ البحر فرأوا فيها بقايا فرعون وجنوده الذين غرقوا في ذلك المكان أثناء لحاقهم بموسى. أما النقوش التي كانت عاجزة عن الإفصاح بشيء، يتعلق بالقصص التوراتي فكانت لا تلقى أي نصيب من الاهتمام.

1- ليست هذه النعمة جديدة في كثير من الأدبيات الأوروبية التي تحاول وضع ستار بين العرب وبين مصر وسوريا وغيرهما من الأقطار العربية وتباضى على هاتين المشاطمتين الرومانيتين؛ اللتين كان فتحهما في واقع الحال تحريراً لهما من السيطرة الرومانية والفارسية. أما الخرافة التي تنهه العرب بتدمير مكتبة الإسكندرية فلم تعد قضية تصمد حتى للمناقشة. (المنترجم).

والحق يقال إن أي ستار مهما بلغ من الكثافة لن يتمكن من الاستمرار إلى الأبد على درجة من السماكة تجعل من المستحيل اختراقه. ومع كل هذا فقد استلزم الأمر مرور ما يقارب الألف عام قبل أن تهب النسمة القوية من الهواء النقي فتبديد الظلام الذي كان لا يزال يلف أبا الهول والأهرامات والمسلات والهيروغليفيات.

فقد كانت روما تحتفظ بالكثير من الأسلاب كشواهد على ماضيها الألاق عندما كانت عاصمة الإمبراطورية، ومن بين الكنوز التي كان يقصدها الطلاب ودارسو المصور القديمة كانت هناك مجموعة من المسلات المحمولة من مصر لتزين المدينة الخالدة، وقد نقشت فوقها الرموز - الرسوم المجائية. وبها بالذات ترتبط أول المحاولات المتعددة للدراسة، دراسة المسلات والهيروغليفيات الرومانية - تلك المحاولات التي لم تقدم أي نتائج ولهذا نالت ما تستحق إذ أدرجت في طيات النسيان وليس لأصحابها أن يستوفوا انتباهنا إلا بمقدار كونهم وضعوا مصر في مركز اهتمام الباحثين. لكن واحداً من بينهم ينفرد بمأثرة كبرى. إنه الجزويتي افاناسي كيرخير الذي تعرّض اسمه فيما بعد لكثير من القرح الظالم، غير أنه كان واضح حجر الأساس في علم المصريين.

لن يشمر المطلع على تاريخ جمعية الجزويت وعلى النشاط العلمي لبعض ممثليها بدهشة كبيرة إذ يلاحظ أنه وجد هناك أيضاً، في حقل المصريين، مكان لواحد من أعضاء الجمعية وهو افاناسي كيرخير - الابن الحقيقي لمصره، للقرن السابع عشر، لذلك العصر الزاخر بالمتناقضات الصارخة والبحوث الدأببة والتطلعات الجريئة، والذي شهدت بدايته بكون وكيلبر وغاليلي وشهد منتصفه ديكارت وباسكال واستتارت خاتمه بأسماء ليبنييتس ونيوتن. وقد كان ليبنييتس نفسه، وليس شخصاً آخر، هو الذي أكد حق كيرخير في أن يوضع اسمه إلى جانب أسمائهم؛ فقد كتب إلى كيرخير في 16 أيار (مايو) سنة 1670 قائلاً:

«وفيما تبقى أتمنى لك، يا من تستحق الخلود - وبالقدر الذي يوهب لبني الإنسان، واسمك يمثل تأكيداً سعيداً لذلك - خلوداً في شيخوخة حية زاخرة بطاقات الشباب»⁽¹⁾.

فما هو الطريق الذي انتهى إلى دراسة المصريين بابن الدكتور كيرخير، مستشار الكاهن الأميري بالتازار فولد والموظف من مدينة هازيلشتاين وما الذي أوصله إلى هذا الطريق؟ سلفت الإشارة إلى أن «افاناسي» تعني «الخالد» وبهذا الاسم سمي أيضاً القديس، بطريرك الإسكندرية الأعظم الذي اشتهرت مصر المسيحية بأعماله وكانت مصر في ذلك

1- افاناسي - اسم يوناني ويعني الخالدة.

الوقت البلاد التي تثير اهتماماً كبيراً من قبل مبشري جمعية المسيح. وهكذا فإن الطالب الفتي لم يبعد من أمام ناظره المثل الأعلى المتجسد في القديس الذي منحه اسمه، والطريف أن مصر المسيحية هي التي قدمت إليه المفتاح الأول نحو سير تلك الأسرار التي اكتشفها علم المصريين بصورة نهائية فيما بعد.

تم اللقاء الأول والحاسم بين كيرخير ومصر في شبير.



الشكل -14- أفاناسي كيرخير

كان ذلك عام 1628 وكان كيرخير قد نال المرتبة الكهنوتية فأوفدته الرئاسة لقضاء سنة واحدة تحت الاختبار في شبير حيث كان عليه أن ينصرف إلى التأملات الروحية وهو منزو لنفسه. وحدث مرة أن عهدوا إليه بالبحث عن أحد الكتب قلب الشاب المكتبة بأسرها لكنه لم يجد ضالته. غير أنه عثر بين كنوز المكتبة على مجلد مزين بلوحات جميلة، وكانت اللوحات البديعة تمثل المسلات المصرية التي كان البابا سيكست الخامس قد أمر بإرسالها إلى روما رغم التكاليف الباهظة. واستقرت أنظار كيرخير خاصة على الصور المجيبة

التي كانت تغطي حوائط تلك الأعمدة الهائلة من أعلاها إلى أسفلها. وفي بادئ أمره فسّر تلك الرسوم المدهشة على أنها صور تلقائية نقشتها أصابع الحجارين كزخارف عادية، إلا أن النص المؤلف الذي استغرق الباحث منذ اللحظة الأولى، سرعان ما أخرجه من ذلك التيه. فقد كان مسطوراً هناك بصورة غاية في الوضوح إن حكمة قدماء المصريين قد صيغت في هذه الرموز الهيروغليفية الفاضحة وأنها نقشت في الحجر لكي يتخذ الجميع منها المبرة. بيد أن مفتاح فهم تلك الكتابة الفاضحة كان قد ضاع منذ زمن بعيد ولم يأت لأبي إنسان من البشر الفانين أن يفتح ذلك الكتاب المختوم بأختام سبعة. إذ ذاك اشتعلت روح باحث المستقبل بالرغبة في فك رموز الهيروغليفيات وقراءة النصوص وترجمتها. وتجراً على الإمساك بالنصوص والبدء بالترجمة ونشر ما توصل إليه دون أن تكون

لديه تلك المنطلقات الأولية المعروفة في مفاهيمنا الحالية، ودون أن يتسلح بذلك الحذر الذي يعتبر في أيامنا الحاضرة القانون الفولاذي لأي عمل علمي.

ونمرض فيما يلي أنموذجاً من ترجمته «Sphinx mystagoga»



الشكل -15- dd - jn W sjr «اوزيريس يقول»

لقد فسّر كيرخير هذه الهيروغليفيات بما يلي: «عودة كل شيء الى الحياة بعد الانتصار على التيفون، رطوبة الطبيعة بفضل يقظة انوبيس» (عن إ. فردريك) ومن السهل على أي شخص غير متخصص أن يدرك الكيفية التي توصل كيرخير بها إلى هذه الترجمة: ف «رطوبة الطبيعة» استمدها من الخط المتوج الذي يعني في الحقيقة «الماء» أما «يقظة انوبيس» فارتبطت في تصوّره بصورة العين. وهو في مكان آخر يترجم بواسطة جمل كاملة، اللقب الملكي الروماني - اليوناني «اوتوكرات» («الحاكم المطلق») المكتوب برموز مصرية؛ ومن المهم أن نذكر أنه يستحيل قبول مثل هذا التفسير مهما اشتدت الرغبة إلى ذلك.

«اوزيريس» واهب الخصب وكل النبات، والذي ينزل القديس موفناً قوته الخلافة من السماء الى الأرض.

«هراء» - هكذا وبكل حق وُصفت الترجمات التي وضعها كيرخير. لكن أولئك الذين تحدثوا بنزق تجاوز الحدود، عن «جراعه العديمة النظر» اسقطوا من الحساب إلى أي درجة كان على كيرخير أن يلجأ إلى «الأفكار الهذيان» التي جاء بها غورابولون، مستجيباً في ذلك للمثل الأعلى لعصره، وأسقطوا أيضاً أن خيالاته غير المقبولة لم تكن متجاوبة فقط مع التمجيد الغيبي لكل ما كان يمت بصلة إلى الماضي البعيد الذي اختفى بل ومع الميول المرّضية التي كانت سائدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر نحو الرموز والتشابه المصطنعة⁽¹⁾، والحق أنه كان بالإمكان أن نقرأ لدى كليمنت الإسكندراني أن

1- يتضح مدى الفشارب أذواق ذلك العصر من غورابولون ورموزه وتخريجهاته ومدى استمرار تأليه من حقيقة أن البيروت دورير بنفسه قام بوضع الرسوم التمهيدية (نفوس النصر العائد للإمبراطور ماكسيميليان) وكان مطلوباً منها أن تتجاوب مع الرموز الهيروغليفية التي وضعها غورابولون وعلى الرغم من القيمة الفنية لتلك الرسوم فإنها لا تشبه بأي حال الهيروغليفيات المصرية وهي محفوظة حالياً في متحف التاريخ بفيينا.

الهيروغليفيات كانت تتضمن حروفاً بسيطة إلى جانب الكلمات - الرموز، غير أنه لم يكن هناك أي ميل لتصديق ذلك في أيام كيرخير بل وقد كان هو يعلن بصورة لا هواده فيها بأن «الهيروغليفيات» مجرد رموز وإذا كانت الترجمة اليونانية فوق المسئلة (وقد وجدت إحدى هذه الترجمات) لا تتضمن شيئاً عميق المعنى فهي ترجمة غير صحيحة. وعلى الرغم من كل هذا فإن أфанاسي كيرخير ترك للأجيال شيئاً ذا أهمية في هذا المضمار (أما كشوفاته العلمية الأخرى فحظيت بالاعتراف).



الشكل -16- اللقب الإمبراطوري «أوتوكرات» مكتوباً بالهيروغليفيات.

فقد كان أول من بين وبصورة محدّدة (في البحث الذي نشره في روما سنة 1643) إن اللغة القبطية التي كانت في ذلك الوقت لغة المسيحيين المصريين المائلة نحو الاندثار - هي اللغة الشعبية المصرية القديمة، ولم تكن تلك الحقيقية تعدّ في ذلك الوقت أمراً مسلماً بل وكانت في ذلك الوقت وبعمده عرضة للنقد بل وللتسفيه من طرف عدد من العلماء الذائعي الصيت. وكان كيرخير مديناً في المواد الأساسية لدراساته في حقل اللغة القبطية لعلاقاته الوثيقة بالدعوة الطائفية الرومانية في إدارة الإرساليات البابوية العليا حيث كانت تتلاقى خيوط الإدارة الخاصة بشبكة عريضة من المبشرين المنتشرين في مختلف أصقاع الأرض. وقد نشر كيرخير معجماً قبطياً بل وكتاباً في قواعد القبطية وبهذا ساعد إلى حدّ بعيد على إثارة الاهتمام بهذه اللغة الشعبية القديمة. وبقيت دراساته نقطة الانطلاق بالنسبة لكافة الباحثين في حقل الفيلولوجيا القبطية على مدار قرنين من الزمن.

وفي ذلك تجسدت ماثرة كيرخير التي لا سبيل إلى مناقشتها. إذ إن شامبليون الذي قام بفك رموز الهيروغليفيات والذي صار النموذج الكلاسيكي لقارئ الرموز القديمة قد انطلق، وهو لا يزال طِفلاً بعد، من ذلك الاكتشاف وبلغ من إتقانه لغة القبطية أنها صارت لغة قومية ثانية بالنسبة له كما صارت المفتاح الأهم لنشاطه كقارئ للرموز.

وبالإضافة إلى هذا فإن أфанاسي كيرخير، سبق بواحد على الأقل من «دارسي القبطيات» وكان هو الرحالة الإيطالي بيترو ديلاً فالي وكان كيرخير قد تلقى كتابه الذي

وضعه في قواعد القبطية ومعجمها عن طريق صديق قديم، وسوف نلتقي بذلك الرجل المتعدد المواهب في الفصل التالي.

والحق أن أفاناسي كيرخير لم يصبح «الأوديب المصري» الذي انتزع، على نحو ما يزعمون، السر من بين شفتي أبي الهول بعد آلاف من سني الصمت، وهو ما كان يطمح أن يكونه (وقد أسمى واحداً من كتبه بذلك الاسم) إذ كان يرى نفسه صنواً لأوديب منطلقاً من التصور الأسطوري اليوناني له. إلا أننا إذا ضرينا صفعاً عن دراساته المتشعبة الاتجاهات (ويبدو أن أهمها هي دراسة *Laterna magica*) فإنه كان بالإضافة الى ذلك يهتم بقضايا الكتابة. فقد اخترع كتابة مشتركة للصم - البكم ووضع، بالإضافة الى ذلك - مشروعاً للكتابة العالمية يستطيع كل إنسان بواسطتها أن يدون أفكاره كما تستطيع جميع شعوب الأرض قراءتها، كل بلغته الخاصة! أيكون بهذا سابقاً لكاريل يانسون والبروفيسور ايكارت؟ لم لا ربما. وهذان بدورهما كانا التابعين اللاحقين لجميع أولئك العلماء الذين كرسوا جهودهم لتخليص البشرية من لعنة الفوضى اللغوية الشاملة، والتحرر من تلك البلبلة البابلية بواسطة الكتابة العالمية، ولنكتف في هذه المعالجة بذكر رايموند لول وتريفيمي ثم ليبييتس نفسه ولنذكر من بين المتأخرين غيورغ فريدريك غروتيفيند الذي فك رموز اسفينات الكتابة الفارسية القديمة.

وهكذا فإن فك رموز الهيروغليفيات وقراءتها لم يكسبا شيئاً من أبحاث كيرخير. فقد كان هو نفسه مسحوراً بجاذبية غورابولون التي ستظل مسيطرة على الأذهان فترة طويلة من بعده. ومن جديد يطبق الظلام فيلف الطريق الى فك الرموز الهيروغليفية. وليس من حقنا أن ننكر أن بعضاً من الحزم الضوئية تمكّن من النفاذ عبر هذا الظلام في القرن الثامن عشر وذلك مع الانطلاقة الكبرى لعلم الاستشراق. فالأسقف الإنكليزي الناشط ويليام ووربيرتون، وهو أكبر خصوم فولتير، تقدم سنة 1740 بفرضية (تعاكس الآراء التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت) وتقول بأن الهيروغليفيات ليست مجرد إيديوغرامات بل إن النصوص الهيروغليفية لا تتضمن محتوى دينياً فقط بل وعناصر لفظية أيضاً، أما النصوص فربما احتوت على مضامين حتى من الحياة اليومية. كما لمس ذلك المضمون اللفظي للهيروغليفيات القسيس الفرنسي بارتيليمي المؤلف المشهور لـ «رحلة أناخارسيس الشاب الى اليونان» وكان قد عمل شخصياً وبصورة مستقلة على حل رموز الهيروغليفيات، كما حدس بذلك المؤرخ والمستشرق جوزيف دي غين (الكبير) الذي قال في تقريره أمام أكاديمية النقوش الفرنسية في 14 تشرين الثاني سنة 1756 بأن الصينيين - مستعمرون مصريون.

إلا أن دي غين استطاع بالإضافة إلى ذلك أن يقرأ اسم «مينيس» الملكي المنقوش بالهيروغليفيات وقد أوسعه أحد زملائه نقداً وتجريحاً وتقدّم بقراءته الخاطئة للاسم بلفظة «مانوف» وأثارت هذه المساجلة التقريبية الساخر الأعظم فولتير الذي لاحظ هازناً أن الحروف الصائتة لدى جميع الأخوة الايتيمولوجيين (ملرّخي اللغات والأخصائيين في ميدان الدراسات اللغوية المقارنة) لا تدخل في الحساب أما السواكن فلا شأن لهم بها. وقد أشار إلى الطابع الصوتي للهيروغليفيات أيضاً كل من تيغسين وسُوينغ.

هذه الأفكار الصائبة كانت تمثل بمجموعها البراعم الوحيدة في خضم تلك الأبحاث الكثيفة من طفيليات الفرضيات العديمة الأسس التي تكاثر عددها بصفة خاصة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر واجتذبت إليها أنظار الكثيرين.

سبق أن أشرنا إلى أن الفرنسي دي غين أعلن الصينيين مستعمرين مصريين. غير أن الإنكليز سرعان ما تقدموا إلى الصفوف الأولى وعكسوا الآية فأجبروا المصريين على الخروج من الصين بينما بقيت أكاليل الفار على هامات «الكشافة الأوائل» تقض مضاجع الروس إلى أن «برهن» كوخ، مستشار البلاط في بطرسبرج، على أن قدماء المصريين كانوا يستعملون أبجديات خمساً لا تزيد ولا تنقص. ولم تتوقف هذه الأخيطة الهذيانية ومثيلاتها عن الظهور حتى وعندما أنجزت الخطوات الملموسة الأولى نحو قراءة الرموز. وفي كل حين كان يطوف الشيطان المجرّب ليفوي ضحاياه بالهيروغليفيات، فكانت تستبطن من نصوصها الغيبية الاليفتورية والتعاليم السحرية والفيجية والفلكية والفنوصية السرية والإرشادات العملية المتعلقة بالزراعة ومقاطع كاملة من التوراة بل وآداب ما قبل الطوفان.

وبين الفينة والفينة كانت اللغة الصينية تغطي بضبايها العقول. بل لقد استبطن أحدهم، وهو الكونت بالين، وصفاً طريفة إذ قال: خذوا مزامير داوود وترجموها إلى الصينية الحديثة ثم اكتبوها برموز الكتابة الصينية القديمة، تتحصلوا على نسخة من البرديات المصرية. فهل يحق لنا أن نستغرب بعد ذلك توصل ذلك الكونت إلى «النتائج الباهرة»، فما أن يُلقي نظرة على حجر رشيد الشهير الذي سنتناوله بالحديث بعد حين حتى «ينفذ إلى أعماقه من أول نظرة» معتمداً في ذلك على غورابولون وعلى تعاليم أبيقور. وعلى أي حال فقد كان على ذلك الكونت أن يمضي ليلاً بكامله في سبيل ترجمة جزء من ذلك النقش، ونشرها سنة 1824 في دريسدن. وهو يشير إلى أن من الخطئ إتباع الرأس فمن المستحيل بغير منهجه التسارعي «حماية الذات من الأخطاء المنهجية التي لا تنجم إلا عن التفكير المتطاوّل الأمد...».

وبيدي الراهب توندو دي سان - نيكولا رآيه في ذلك بقوله: «يا للهراء» فما الذي يستحق التفكير إذا كان من الواضح من دونه وضوح النهار أن الهيروغليفيات مجرد زخارف وتزيينات بسيطة.

ولم يكتف بمض القارئين المجهولين النتائج التي توصلوا إليها. فقد تحايل أحد الدارسين في باريس حتى وضع يده على المزمور المثوي في نقش على أحد المعابد في ديندير. وهكذا «أقيمت الحجة» على أن للهيروغليفيات علاقة بالمهد القديم!

بيد أنهم قطعوا مرحلة أبعد في جنيف حيث صدرت ترجمة لنقش المسلة المسماة بمسلة بامفيلي في روما، تلك الترجمة التي ظهرت فجأة أمام أعين المعاصرين المبهورة: ك «إعلان عن انتصار أرواح الخير على أرواح الشر، منقوش قبل أربع آلاف سنة من ميلاد المسيح»!

كان من الطبيعي أن تفرق أصوات الباحثين المتمقين في ذلك الفيض من شبه العلمية. وقد سلفت الإشارة الى أن بعض العلماء ارتابوا بوجود الطابع الصوتي للهيروغليفيات إلا أنهم كثيراً ما كانوا يعمدون، وحتى في الدراسات المتخصصة، إلى إغفال الإشارات الفنية بالثمار، والتي قدّمها كارستين نيبور، بحاتثة جزيرة العرب المبقرى، الذي أسس قواعد دراسة الكتابة الأسفينية. ففي عامي 1761-1762 اضطر نيبور للإقامة شهوراً عديدة في القاهرة. وعلى أي حال فقد تمكن من ترويض نفسه على الانتظار لكن لا على الخمول. فالضرورة ولدت عملاً طيباً - إذ راح يصور جميع المنقوشات الهيروغليفية التي أتاحت له. ويحدثنا بأن ذلك أثار عنده «القرف والسأم» بادئ الأمر. لكنه يواصل حديثه قائلاً بأن «الهيروغليفيات سرعان ما غدت مألوفة بالنسبة لي إلى درجة أنني صرت قادراً على نسخها مثلما أنسخ الكتابة الأبجدية، وصار ذلك العمل بالنسبة لي مصدر متعة».

وصار نيبور ينظر الى الآثار نظرة جديدة وقد أشار الى الفرق الواضح بين «الرموز الكتابية الأكبر» و «الرموز الكتابية الأصغر» وقرر أن «الكبرى فقط يمكن أن تكون رموزاً» أما الصغرى فكان دورها أن تقدّم تفاسير ومعاني «للرموز الكبرى» وهي كثيراً ما تحمل «الملاح الواضحة للحروف الأبجدية» فإذا صحّ هذا كان بإمكاننا أن نبدأ فك تلك الرموز بمساعدة اللغة القبطية.

ويقدم كارستين نيبور بعد ذلك ملاحظته الدقيقة الثانية التي لم تلق الاهتمام المطلوب في بادئ أمرها. فقد اكتشف أن عدد الهيروغليفيات غير كبير من الناحية النسبية. فإذا كان الأمر كذلك كان من الصعب النظر إلى الكتابة المصرية على أنها بصورة كلية كتابة إيديوغرافية، أي كتابة تختص كل كلمة برمز خاص.

على أساس هاتين الملاحظتين العبقريتين اللتين نثرتا «على الهامش» يمكن أن نعدّ نيبور واحداً ممن وضعوا الأساس لفك رموز الكتابة المصرية على الرغم من أن شهرته ترتبط بقراءة رموز الإسفينات.



الشكل -17- غوتفريد ويلهيلم ليبنيتس

وعلى هذا كان هناك السخف والحشو الفارغ من جهة ومن جهة أخرى كانت الفرضيات الذكية التي تنتظر البراهين - ذلك كان وضع علم المصريات في مرحلته الوليدة الأولى عندما سقط في يده (وفي مرحلة كانت أبعد ما تكون عن التوقع) مفتاح فك الرموز. وحدث ذلك في ظروف وضمت الحكمة القائلة «عندما تتحدث المدافع تصمت ربات الفن» موضع الشك.

فحجر رشيد لم يسقط من السماء كما يقولون. والأحداث التي سبقت ميلاده الثاني يمكن أن تولف بنفسها صفحة من التاريخ. أما من

فتح هذه الصفحة فلم يكن نابليون، على نحو ما هو مأثور، بل ليبنيتس! فليبنيتس لم يكن فيلسوفاً عظيماً فقط بل وشخصية سياسية مرموقة. وقد دفعه حدسه السياسي خلال زيارته لباريس عام 1675 الى أن يكتب للملك لويس الرابع عشر، وكان يرغب في صرف مطامعه عن ألمانيا، مؤلفه المسمى «*Consilium Aegyptiacum*» والذي أشار فيه الى أن احتلال مصر سيهيئ للملك الفرنسي وضعا سيادياً في أوروبا.

وكان هذا التقرير موجهاً للملك لويس الرابع عشر، الحاكم بإرادة الله، ولم يكن ليبنيتس يحسب أن فكرته ستحظى ذات يوم بعطف خاص من جنرال جريء يفتدو إمبراطوراً بعد ذلك. ويشير كبار المؤرخين الفرنسيين الى أن نابليون كان على علم بتقرير ليبنيتس عندما تحدث سنة 1798، وفي قاعة اجتماعات المعهد الفرنسي الى نخبة من العلماء عن الكشوفات العلمية الممكنة التي كان يربط بينها وبين حملته المرتقبة على مصر. وبعد أن

عرض بكل احترام الأفكار الرئيسية المطروحة في دراسة ليبينيتس انتقل الى الكتاب الثاني وكان الترجمة الفرنسية لـ «رحلة في بلاد العرب» لنيبور في مجلدين. باعت حملة نابليون على مصر بالفضل وتبخرت أحلام الكورسيكي في السيطرة على تلك البلاد لكن العلم تلقى خلال تلك الحملة صيداً ثميناً تجاوز كل التوقعات. أما جوهرة تلك الأسلاب فقد تم العثور عليها في الثاني من فركتيدور السنة السابعة للثورة (2 آب سنة 1799).

حدث ذلك قبيل هروب نابليون من مصر، فقد كان ضغط القوات البحرية الإنكليزية يتزايد قوة. وبعد الانتصارات الباهرة التي حققتها القوات الفرنسية في بداية الحملة وجدت نفسها مطوقة محصورة، إلا أنها كانت لا تزال تسيطر على الساحل المصري وتصد بضراوة، وليس دون نجاح، هجمات الإنكليز في البحر والأترك المهاجمين من الجنوب. وفي قلعة رشيد القديمة، والتي أصبحت تسمى بقلعة جوليان فيما بعد، وعلى بعد سبعة كيلو مترات تقريباً عن رشيد في دلتا النيل، أمر ضابط العمليات بوشار جنوده بحفر الخنادق. وفجأة رن صوت إحدى المعازق، وارتدت إلى الخلف وقد اصطدمت بشيء ما قاس. لقد حررت الأرض من إسارها شيئاً غريب الشكل: كان قطعة من البازلت الأسود رقت حتى آخر نقطة فيها برموز كتابية.

لعل نظرات ذلك الجندي العربي المجهول قد تسمرت فوق اللقمة المفاجئة بكل حيرة، ولعل رفاقه الذين استدعوا قد تجمهروا يجيلون فيها نظراتهم وقد غمرهم رعب خرافي، وعلى أي حال فإن واحداً منهم هرع إلى القيادة وأبلغ عن الحادث.

كان الضباط الفرنسيون قد تلقوا من العلوم ما يزيد قليلاً عن حدود الإشراف على الأعمال الهندسية. وبفضل نفاذ بصيرة نابليون لم يكن جيشه يمانى من النقص في عدد القادرين على الأقل على قراءة جزء من تلك المنقوشة الموضوعة باللغة اليونانية. كانت تتضمن مرسوماً صدر بتاريخ 4 كسانديك - 18 ميهير السنة التاسعة (الموافق لـ 27 من أيار سنة 196 قبل الميلاد) يُقر فيه سدنة مدينة منفيس بمضاعفة فروض الولاء التي تقدم في المعابد المصرية للملك وأحفاده، وذلك عرفاناً بالأعمال الخيرة التي قدمها الملك بطليموس الخامس ايبيفان.

من النظرة الأولى كان بالإمكان الجزم بأن الكتابة العليا بين الكتابات الثلاث مؤلفة من الهيروغليفات وأن الدنيا من بينها مكتوبة بالحرف اليوناني. أما ما يخص الكتابة المتوسطة - الديموطيقية - فإنهم لم يعرفوا بادئ الأمر من أي طرف يُبدأ بها واعتبروها خطأ كتابة سريانية.

وضع الفرنسيون في الحسبان المعنى التاريخي الأصيل لهذه اللقبة الفريدة من نوعها. وظهرت الإخبارية المتعلقة بها في العدد السابع والثلاثين من «*Courier de L'Egypte*» بتاريخ 29 فروكتيدور من السنة السابعة؛ وقد لقيت تلك الوثيقة صدى خارقاً للمادة وصارت كلاسيكية بحد ذاتها.

وطبقاً للشكليات المعهودة بالنسبة لمهود البطالمة تحدد أن يكون مرسوم رشيد قد نقش فوق الحجر التذكري «بالحروف المقدسة والمحلية والهيلينية» بلغات البلاد الثلاث: المصرية القديمة، لغة الآداب القديمة التي اندثرت منذ زمن بعيد بالمصرية الحديثة الحية، ثم باللغة اليونانية.

يبدو هذا الأمر معقداً الى حد ما. إلا أنه يبدو طبيعياً ومفهوماً إذا ما قارناه بمهود أحدث عهداً. ويقدم عالم المصريات الألماني الشهير غيورغ إيبيرس هذه المقارنة البالغة الدقة إذ يقول:

لنتصور بدلاً عن مصر في تلك الأزمنة منطقة إيطالية خاضعة للمملكة النمساوية⁽¹⁾. ولنفترض أن الهيئة الروحية اتخذت قراراً ما يتعلق بالبلاط الإمبراطوري؛ إذ ذلك لا بد وأن يصدر، حسب أقرب الاحتمالات، باللغة القديمة للكنيسة الكاثوليكية - باللاتينية ثم بالإيطالية وبالألمانية - لغة البيت المالك وموظفيه. على هذا النحو بالذات وضع مرسوم رشيد ... وتكتمل صورة المقارنة إذا ما عززنا تصورنا للنص اللاتيني وقد خط بالحروف الكبيرة فقط⁽²⁾ والإيطالي بالحرف الكتابي العادي والألماني بالخط الفوطي».

وهكذا فقد أستخرج الحجر وحدد طابع الكتابات الثلاث بل وكانت إحداها مترجمة، لقد عثر على تلك الثانية التي كانت تنتظر بفارغ الصبر بل ولقد كانت ثلاثية اللغات. فهل يعني هذا أن طريقاً مباشراً قد تم شقه نحو الدراسة وفك الرموز؟ لا، إن الأمور لم تكن بهذا البساطة.

نقل الحجر بادئ الأمر الى القاهرة، الى المعهد المصري الذي كان قد أسسه نابليون، وبدأ العلماء الفرنسيون بإعداد صور من تلك النقوش وبتحضير النسخ ثم بإرسالها إلى فرنسا وكانهم كانوا يحدسون مسبقاً بفقدان الحجر. ونقل الحجر بعد ذلك إلى الإسكندرية ووضع هناك في منزل القائد العام الفرنسي مينو. لكن الإنكليز قاموا سنة 1801 بإنزال

1- بغيت إيطاليا خاضعة للتاج النمساوي فترة طويلة من العصور الوسطى (المترجم).

2- ظلت اللاتينية رداً طويلاً من الزمن تكتب بالحروف الكبيرة فقط ومون وجوه فواصل بين مفرداتها (المترجم).

جيوشهم في مصر فكان على مينو أن يستسلم، وكان قرار الاستسلام ينص في بند خاص منه على أن يسلم الفرنسيون للإنكليز جميع القطع الأثرية التي عثروا عليها في حوض النيل خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة. أما حجر رشيد الذي كانت تتعلق به أرواح الفرنسيين الذين عثروا عليه والذي كان يعرف قيمته كل من الطرفين فإن المهزومين حاولوا أن يحتفظوا به لأنفسهم فأعطوه ملكية خاصة للجنرال مينو لا تخضع لشروط الاستسلام. إلا أن القائد الأعلى الإنكليزي اللورد هاتشينسون أصّر على تسليم الحجر «باندفاع خاص حيث إن القضية كانت ذات مساس بالعلم، وهكذا وتحت وابل من العبارات الجارحة من قبل الضباط الفرنسيين المتجمهرين أصدر تيرنير، مفوض القائد هاتشينسون أمره بإرسال الأثر الذي لا يقدر بثمن. وفي سنة 1802 تم إيصاله إلى بورتسموت ثم جرى نقله بعد ذلك إلى المتحف البريطاني «حيث من المأمول أن يستقر فترة طويلة... مفخرة أسلاب السلاح البريطاني، الذي لم يؤخذ عن طريق نهب السكان العزل من السلاح، بل عنوة في حرب شريفة» بهذه الكلمات ينتهي تقرير تيرنير.

مفخرة أسلاب السلاح البريطاني... ولكن، يا للأسف، فإن الانتصار الروحي على الحجر الجلال بالنقوش لم يكن بمستطاع السلاح البريطاني، فالقدر - ذلك القدر العادل في أنظار الفرنسيين - كان يخبئ ذلك النصر للفرنسي جان - فرانسوا شامبليون على الرغم من الكشوفات الواعدة بالكثير التي قام بها الباحث الإنكليزي توماس يونغ.

لكن نسخة من النقوش فوق الحجر كانت قد وصلت إلى الوزير شابتال قبل أن يبدأ كل من يونغ أو شامبليون نشاطه. فقام الوزير بتسليم النسخة إلى المستشرق الباريسي الشهير والمرموق سيلفيستري ساسي، وكان عالماً عالمياً عالياً الصيت، وقد صار بفضل نشاطه الأكاديمي والتربوي مؤسس مدرسة المستشرقين لا في فرنسا وحدها بل وفي البلدان المجاورة. وقد لفت دي ساسي إليه الأنظار كقارئ للرموز القديمة أيضاً. إذ أتبع له أن ينتقي المفتاح المناسب لقراءة البهلوية - لغة الفرس وكتابتهم في العهد الوسيط. غير أنه ألقى نفسه عاجزاً أمام نسخ حجر رشيد. فقد استطاع أن يحدد في النص الديموطيقي ثلاث مجموعات فقط من الرموز التي كانت مطابقة لأسماء تكرر وجودها في الشطر اليوناني، وهي بطليموس، الكسندر، الإسكندرية، ارسينوي وايبيفان. إلا أن فرضياته المتعلقة بالتطابق بين رموز الكتابة الديموطيكية والحروف اليونانية لم تثبت صحتها.

كان سيلفيستري ساسي عالماً كبيراً وكان إنساناً كبيراً أيضاً. وقد اعترف في رسالته إلى شابتال بكل صراحة بعجزه عن قراءة النصوص وأرسل النسخة إلى عالم الآثار

السويدي دافيد اوكيريلاد، ذلك العالم الهواي الشهير الذي سبق له أن أقام في بلاد الشرق كدبلوماسي وكان في تلك الفترة مقيماً في باريس بهدف زيادة معلوماته. وكان منصرفاً في الأساس لدراسة اللغة القبطية فاندفع بكل حماس للعمل على دراسة النسخة التي أرسلت إليه وبالإضافة إلى ذلك كان بحوزته نسخة للمنقوشة صُنبت من الجبس. وقد وقع في خطأ دي ساسي إذ نظر إلى الكتابة الديموطيقية على أنها كتابة أبجدية فحسب أن بالإمكان، بناء على ذلك، قراءتها بسرعة أكثر من قراءة الهيروغليفيات (ولا سيما وأن القسم الهيروغليفي من النص كان معطوباً بشدة) وكان اوكيريلاد خبيراً في الفيلولوجيا الكلاسيكية والشرقية وقد حاله التوفيق! ففي الشطر الديموطيقي نجح في التعرف على جميع أسماء الأعلام الواردة في النص اليوناني وقراءتها.

وقام بعد ذلك بتوزيع الأسماء اليونانية المكتوبة بالرموز الديموطيقية إلى أحرف متفرقة فتحصل على أبجدية من 16 حرفاً داخلية في هذه الأسماء (وقد ميز غالبية هذه الأحرف بصورة صحيحة). إذ ذاك لاحظ أن تلك الرموز تظهر نفسها خارج حدود أسماء الأعلام. وأدرك فجأة، وقد سيطرت عليه الدهشة والفرح، أن بإمكانه أن يحلل إلى العناصر الحرفية مفردات مألوفة جيداً بالنسبة له في اللغة القبطية. فقرأ في أحد الأماكن كلمة «يرفيوثي» («معبد») وفي مكان آخر كلمة «وينين» («اليونانيون») بل واستطاع أن يتعرف في نهايات عدد من الكلمات المكتوبة بالديموطيقية على رمز (f) الذي يستخدم في النهاية الإعرابية للشخص الثالث ويمبر في اللغة القبطية عن ضمير «هو» أو «خاصته» (والكتابة القبطية التي تمثل صورة من صور اليونانية قد استعارت، كما هو معروف بالنسبة لنا حالياً، بعض رموز الديموطيقية)

ومن المحتمل أن يكون العالم السويدي قد التفت في بعض الأحيان وخلال مسيرة البحث، إلى النص الهيروغليفي لمذونة رشيد وقد لاحظ مرة أن الحديث في النص اليوناني يدور حول المعبد «الأول» و«الثاني» و«الثالث» وكان الشطر الهيروغليفي المطابق لذلك يتضمن خطأ بسيطاً واحداً فخطين ثلاثاً خطوط مع إشارة فوقها. وهكذا حدد الهيروغليفيات التي تمنى الأعداد الترتيبية «الأول» و«الثاني» و«الثالث».

هذه البداية المبشرة بأفضل الأمان في كشف سر حجر رشيد أنجزها العالم السويدي خلال فترة وجيزة جداً فمهد طريق الوصول إلى الكتابة الديموطيقية بفضل «أبجديته» وبذلك وضع الأساس نحو فك رموز تلك الكتابة، لكن عالين حالاً بينه وبين مواصلة التقدم في ذلك الطريق. وكان اسماهما دي ساسي و... اوكيريلاد.

أجل، أجل، فقبل كل شيء كان هو من قطع على نفسه أي طريق للتقدم نحو الأمام وذلك بإلحاحه على الطابع الأبجدي للكتابة الديموطيقية. كما تجاهل، شأن دي ساسي، حقيقة إهمال الأحرف الصوتية (وقد سلفت الإشارة إلى أن الأحرف الصوتية في اللغة المصرية، كما هو الأمر في جميع اللغات السامية، لا تكتب) خاصة وأنه لم يستطع التعرف على الرموز المحددة (الخرساء) الكثيرة العدد. وهكذا فإن أبجديته كانت ملائمة فقط لقراءة تلك الأسماء التي استبطلت منها تلك الأبجدية.

ومع كل هذا يتراءى لنا أنه كان من شأن او كيريلاد أن يواصل دراساته لو لم تؤد إداة دي ساسي إلى تصفية ملموحاته. فقد تقدم او كيريلاد بعرض نتائج اكتشافاته على المستشرق الكبير بصورة خطية. وفي رسالة الرد التي كتبها دي ساسي، وكان هو الذي سبق وأناط به ذلك العمل، أبدى، وبصفة بالغة اللباقة، شكوكه المميقة في النجاحات الإبداعية لمراسله، وهو ما ترك تأثيراً سلبياً كبيراً على السويدي المرهف الإحساس. ومن المحتمل أن دي ساسي وقد تذكر بمرارة أبحاثه الحديثة العهد التي لم تتوفر لديه الشجاعة للاعتراف بلا جدواها، أخذ ينظر بشيء من الفيرة إلى محاولات العالم السويدي. ومهما يكن فإن دافيد او كيريلاد، أحس بحسرة شديدة جراء إنكار الجهات الرسمية لجهوده، ولم تكن معاناته النفسية أقل حدة بسبب ما شجر من خلاف بينه وبين حكومته التي كان قد خدمها بصورة رائعة كدبلوماسي ثم راح يبتعد عنها بسبب حبه المتقد لروما وبسبب مبادئه السياسية. وقد نسيت بلادته إلى درجة أن محاولات هيرمين هارتليبين، المؤلف الألماني لسيرة حياة شامبليون، في الحصول على صورة لـ او كيريلاد منذ خمسين عاماً قد باءت بالفشل على الرغم من موازنة الحكومة السويدية له في ذلك.

وعلى هذا يكون دي ساسي قد قطع، وربما كان على غير رغبة منه، الخيط الذي كان او كيريلاد قد فرغ من مده، وبدءاً من سنة 1802 بدأ الصمت من جديد يلف الحجر الثلاثي اللغات تقطعه بين الفينة والفينة صرخات ثاقبة للأذان يطلقها بعض الهواة. وهكذا فإن أحداً لم يزج هدوء الحسنة النائمة حتى سنة 1814.

في ذلك العام قام توماس يونغ، عالم الطبيعيات الإنكليزي الشهير، بزيارة للقريه، جرياً على عاداته كل عام وذلك ليقتضي إجازته ويستسلم لهواياته المتنوعة.

كان يونغ عالماً مبرزاً في حقل الطبيعيات والطب. فقد اكتشف المظاهر الأساسية للرؤية، وحدد قانون التداخل الضوئي ويعتبر بحق مؤسس علم البصريات الحديث. غير أنه كان متعدد الجوانب - كعالم وكإنسان.

فقد طرح سنة 1796، وكان لا يزال طالباً في جامعة غيتينغن الفرضية القائلة بأن من المستحيل على أي أبجدية أن تستوعب كافة إمكانات أجهزة النطق البشرية ما لم تكن مؤلفة من 47 حرفاً! ثم يبدأ باهتمام كبير بوضع أبجديات اللغات الأجنبية ويجلب لنفسه شهرة من لا يشق له غبار في هذا الميدان، كما ينكب في الوقت نفسه على دراسة المخطوطات. ولم يكن يخفي على معارفه وأصدقائه الذين كانوا على معرفة بمواهبه الممتدة؛ أن «هوايته» كانت ترميم النصوص فكثيراً ما كانوا يدفعون إليه بالمخطوطات القديمة التي أصابها التلف لترميمها. إذ كان كل ما هو خارج عن ميدان علم الطبيعة يعتبر بالنسبة له محطة استراحة في عمله وطريقة مجيدة في تزجية الوقت.

بيد أن توماس يونغ لم يكن ممن يتوقفون عند منتصف الطريق. فكان إذا اختار أمراً سار به حتى نهايته. وقد ركبته ذات مرة فكرة تعلم الرقص على الحبال - وذلك لمجرد التسلية أثناء العطلة فصار يتدرب على ذلك الفن حتى غدا ذلك الراقص المحترم ينتقل فوق حبل مشدود يتراخ على أعين جمعية الراقصين على الحبال!

وهكذا كان يستعد ربيع سنة 1814 للخروج لقضاء الإجازة في القرية. ومن جديد دفع إليه أحد أصدقائه، وهو اللورد روز بروتون، بمخطوطة قديمة لكي «يلهو» بها خلال إجازته لكن المدونة لم تكن هذه المرة مخطوطة يونانية بل بردية ديموطيقية.

وما كاد يونغ يبدأ بالتميق في دراسة هذه البردية حتى تذكر فجأة كلمات سيفيرين فاتير التي كان قد اطلع عليها منذ فترة قصيرة في المجلد الثالث من «ميتريدات» أدولونغ. وكان يونغ يواظب على قراءة تلك المجلة كطالب سابق في جامعة غيتينغن.

كان يوهان سيفيرين فاتير (1771-1826) أستاذاً للاهوت واللغات الشرقية في بينا بادئ الأمر ثم في غالباً ثم في كينينغسيبرغ ثم من جديد في غالباً. وانتهى به نشاطه الأكاديمي والتربوي بعد ذلك إلى دراسة الكتابة المصرية. وخلافاً للكثيرين من معاصريه فقد انطلق في ذلك من «الكتابة الهيراطيقية»، «من المدونات الخاصة على هوامش الأقمشة التي تلف بها الموميات». وتوجت أقواله تلك الفرضية (التي لم تكن قد تأكدت بعد) والقائلة بأن من الضروري قراءة الهيروغليفات بطريقة لفظية، كرموز لفظية، وأنها تشكل أبجدية تتضمن ما ينوف على 30 رمزاً.

كان ذلك ما استوقف تكبير يونغ عندما دفعته طرافة البردية الأنفة الذكر إلى الشروع في شهر أيار بدراسة الشطر الديموطيقي من مدونة رشيد مستخدماً في ذلك النسخة - الصورة. وكان صاحبنا الإنكليزي على علم بدراسة اوكيريلاد: فقد كان هذا أرسل إليه

من روما تحليلاً للخطوط الخمسة الأولى من النص الديموطيقي بالإضافة إلى التدوين اللفظي القبطي. إلا أن المحاولة الأولى لتطبيق أبجدية اوكيريلاد أقتعت يونغ بلا جدواها.

وفي الوقت نفسه لاحظ، على نحو ما يلاحظ اوكيريلاد بأن كلمات معينة تتردد في النص اليوناني. فحاول كسابقه أن يستبطن تلك الكلمات من النص الديموطيقي.

إذ ذاك قام يونغ بخطوة مهمة نحو الأمام تجاوزت كل ما قام به اوكيريلاد فلم يكتف بتقسيم النص الديموطيقي جميعه، بل وكل النص البيروغليفي، إلى كلمات منفصلة اعتقد بأنها تطابق المفردات اليونانية وبعد ذلك نشر كلاً من النصين اللذين حللتهما بهذه الطريقة وذلك في مجلة «ارشيلوجي» باسم مستعار كي لا يسيء إلى سمعته العلمية.

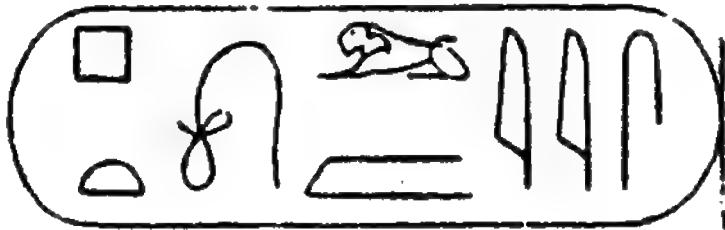
كانت الخطوة تتسم بالمخاطرة دون شك بيد أنها جاءت موفقة إلى حدود تجاوزت التوقع. ففي 1814 صدرت بقلم يونغ «الترجمة الافتراضية لنص رشيد الديموطيقي» والتي أرسلها في تشرين الأول (أكتوبر) من العام نفسه إلى دي ساسي في باريس. وقد افترض أنه نجح بسرعة كبيرة في القضاء على المدونة البيروغليفيه التي كانت تقف صامدة...

تلك كانت خطوة جريئة! ولكن ماذا عن العدة التي كان عالم الطبيعيات الإنكليزي يزعم أن يدخل بها ذلك السبيل غير المطروق؟

لم يكن لديه تأهيل فيلولوجي خاص ولا كان مزوداً بمعرفة اللغات الشرقية. فما كان قادراً على غير المقارنة العملية للنص، وكان الحدس الرياضي رائده في محاكماته فتوصل إلى نتائج عن طريق الحساب والمقارنة الرياضيين.

ومع كل هذا فإن النتائج التي توصل إليها ذلك العالم تثير الدهشة بسبب تواضع ما كان يتوسل به من أدوات.

أولاً: إن مجموعة الرموز التي تكونت بعد تقسيم النصوص تطابقت بصورة مذهلة مع مجموعات الرموز البيروغليفيه وكان من الواضح أنها مجرد مختصرات بسيطة ومعنى هذا أنها مشتقة من البيروغليفيات!



الشكل -18- إطار يحتوي اسم بطليموس

ثانياً: استطاع يونغ أن يحدّد معنى بعض مجموعات الرموز الهيروغليفية وإن كان ذلك دون تحديد مكافئاتها اللفظية.

ثالثاً: من بين الأسماء اليونانية المذكورة في النص الديموطيقي كان هناك واحد على الأقل يجب أن يظهر في القطعة المتبقية من النص الهيروغليفي وكان يجب أن يظهر بالذات ضمن الشكل البيضوي الذي يتكرر أكثر من مرة في المدونة. (وكان دي غين وسويغا ممن افترضوا أن أسماء الملوك قد نقشت في أمثال هذه الأشكال أو الأطر البيضوية).

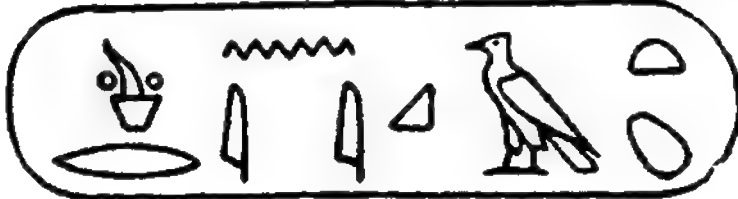
رابعاً: تجرأ يونغ، وقد أسكرته نشوة النجاح الأول، على تحليل النصوص الهيروغليفية الأخرى وحده بصورة صحيحة بمعنى بضع كلمات. وألمه ذلك فوضع سنة 1818 فهرساً لـ 214 كلمة مكتوبة بالهيروغليفية وكان تحليله للربيع منها صحيحاً. وبالإضافة إلى هذا كان الفهرس يتضمن 14 رمزاً لفظياً هيروغليفاً كانت 5 من بينها قد فهمت بصورة صحيحة و 3 بصورة صحيحة حتى النصف. وقد يعترض أحدهم فيقول بأن ما تم اكتشافه - قليل. لكن هذا لا يقلل من قيمة النجاح الذي تم تحقيقه ولا من مآثرة يونغ الذي كان أول من قال بعكس الرأي الذي كان سائداً، بأن الكتابة الهيروغليفية تتضمن، إلى جانب الكلمات - الرموز، رموزاً لفظية.

عند هذا عدّ يونغ نفسه قادراً بما فيه الكفاية على الإمساك بتلابيب الصنم الثلاثي اللغات والبدء بتحليل الإطار الذي كان من المحتمل أن يتضمن اسم «بطليموس». وهكذا حلل الهيروغليفات بالصورة التالية:

□ = P, ⊙ = t, ⚡ = لا تمنى شيئاً () : كج = ole, = ma, ⚡ = os

يبين هذا التحليل مدى اقتراب يونغ من القراءة الصحيحة لاسم: «بطلوليميس» كما يظهر إلى أي حد عوّقه نقص معلوماته اللفوية. فقد كان يبحث أيضاً في الهيروغليفات عن الصوتيات التي نعرف أنها كانت تهمل في الكتابة المصرية.

أما اسم الملكة بيرنيكا المكتوب في منقوشة أخرى، والذي افترض يونغ وجوده وعشر عليه في الواقع فقد قرأه بالطريقة نفسها أي «بيرنيكا» (وهو في الحقيقة «بيرنيكا» و «آة» - نهاية المؤنث). ونتيجة لذلك تحصل على بضعة أحرف أخرى.



الشكل -19- إطار يتضمن اسم بيرنيكا.

وبهذا أرسى يونغ حجر الأساس للقراءة الحقيقية للكتابة الهيروغليفية.

إلا أننا نجد أنفسنا أمام ظاهرة طريفة إلى حد ما فقد قدر لذلك الإنسان الذي اكتشف الطابع اللفظي للهيروغليفيات أن يكتفي بما حققه بعد أن تقدم بفرضية أو فرضيتين، إذ إنه - وقد فتح الباب على مصراعيه - تهيب تخطي العتبة. وتلك العتبة كانت علم الفيلولوجيا، العلم الذي جملة يتوقف على غير إزادة منه على ما يبدو. فمثلاً عندما واجه اسم انوبيس، إله الموتى، الذي كان مكتوباً برموز صوتية هيروغليفية بكل وضوح، لم يتمكن من التعرف عليه فأطلق عليه اسم تسيربير وهو اسم الكلب - حارس الجحيم في الأساطير اليونانية. والذي يثير بصورة أشد من ذلك أن اسم إله آخر هو الإله بتاح قد انزلق انزلاقاً من بين أصابعه. فالنص اليوناني يظهر كيف تردد هذا الاسم أكثر من مرة في منقوشة رشيد ناهيك عن أن يونغ استخرج بنفسه المعنى اللفظي للحرفين الأولين «ب» و «ط» اللذين اكتشفهما في إطار اسم الملك بطليموس!

فلماذا لم يتقدم يونغ أكثر من ذلك؟ لقد كتب بنفسه أن الأبحاث في هذا المضمار كانت بالنسبة له «فرحة بضع من ساعات الفراغ» لكن تلك الفرحة كانت تتناقص بمعدل تزايد معرفته بالمصريين. فكم كانت رغبته كبيرة في اكتشاف كنز المعارف الطبيعية المصرية التي كان يعتقد أن فيثاغورث قد استقى منها. ولكن كلما تمق نفاذاً في النصوص كلما اكتشف أن الحديث يدور عن الآلهة والفراعنة والموتى وما كان أكثر الأحاديث عن الموتى بينما تنعدم أي كلمة عن الفلك أو التاريخ.

ومما زاد الطين بلة أن أعمال يونغ لم تستقطب أي اهتمام خاص داخل بلاده ولا خارجها. ولم تثر تلك الزوينة التي كانت جديرة بها حسب رأيه. وأخيراً قدر له أن يرى إلى النجم الصاعد لمعاصره الفرنسي الفتى شامبليون والذي راح يتألق في سماء العلم الأوروبي حتى غطى ببهائه على الضوء الذي كان قد نثره هو، يونغ، فوق قراءة رموز الكتابة المصرية.

فقبل ثماني سنوات من ذلك اليوم الذي كشف فيه الجنرال بوناپرت عن خططه الطموحة المتعلقة بالحملة المصرية أمام العلماء المتجمعين في المعهد الفرنسي، كانت الزوجة الشابة لبائع الكتب جاك شامبليون تصارع الموت في مدينة فيجاك الصغيرة من أعمال لو في جنوب فرنسا. لقد كانت فريسة مرض شديد وكانت تنتظر طفلاً. وفي غمرة اليأس تذكر الزوج جاره الفريب الأطوار جاكو الذي كان يعيش قريباً في مبنى الدير القديم المهجور منذ فترة بعيدة، والذي كانت حديقته الصغيرة تتاخم أملاك أسرة شامبليون الواسعة. وقد ذاعت شهرة جاكو كساحر فكان قادراً على اختراق الحجب وكان بمقدوره أن يتفاخر بالحالات

المتكررة التي شفى فيها من المرض بمعجزته. ولم يكلفهم أن يطيلوا إليه في الطلب، فهو يأمر بأن تسجى المريضة فوق أعشاب مسخنة كان وحده يعرف خصائصها العلاجية، ثم يهرع إلى إعداد عقار ساخن من الأعشاب لكي يُشرب ويدهن به الجسم ثم يعد بسرعة الشفاء، وينكهن بولادة طفل ذكراً. وما كان جاكو جديراً أن يسمى بالساحر لولا أنه أضاف إلى كهانته قوله: من خلال هذا المرض يولد طفل يندو منارة المصور القادمة⁽¹⁾ وهكذا يولد طفل تضيء أمجاده القرون التالية.

من يستطيع بعد هذا أن يلوم تلك الأسرة السعيدة على أنها آمنت بكل كيانات بنبوءه جاكو - في أمجاد وخلود صغيرها جان - فرانسوا عندما ظهر أن الوليد المنتظر كان في الحقيقة ذكراً وعندما حل الشفاء الكامل سريعاً بعد مولده. إلا أن جان - جوزيف، ذا الاثني عشر عاماً، والذي شارك الآخرين في حفل عماد شقيقه الصغير، كان أوفر الجميع إيماناً بالمستقبل الباهر لذلك المخلوق الصغير الملفوف بالأقمطة.

حقاً، كان القدر قد وهب أسرة شامبليون طفلاً عجبياً. فقد علت الدهشة البالغة وجه الطبيب جانين لدى معاينته: إذ كانت عيناه الداكنتان الكبيرتان تتألقان في وجهه الصغير المصفر وقد أحاطت به هالة من الشمر الكستائي الداكن الكثيف. كان ذلك الوجه يبدو شرقياً - وقد بلغت الحيرة مبلغها من الطبيب، فحتى قرنية عين الصغير كانت مائلة إلى الاصفرار على نحو ما هو لدى ابن الشرق الأصيل!

لم يقدر للصغير أن ينشأ في محيط الأسرة الضيق الذي كان من شأنه أن يحميه من الأحداث والعواصف التي كانت تضطرب خارج المنزل. إذ كانت الثورة قد اشتعلت في فرنسا وما زالت أمواجها ترتفع وتتلاطم حتى بلغت في أول نيسان (إبريل) 1793 المدينة التي ولد فيها جان - فرانسوا وكانت مدينة فيجاك تتمتع بسمعة «سيئة» منذ فترة بعيدة بسبب نضال أبائهما المسميت من أجل الحرية وشعورهم الأصيل بالكرامة الشخصية - وقد استيقظت هذه السمعة مجدداً في 1789. ففي تلك السنة وهب الوالد فرانسوا نفسه لخدمة العهد الجديد. وفي السنة الثالثة للثورة أصبح واحداً من مدراء شرطة المدينة وراح يتدرج بصورة ملحوظة في سلم تلك الوظيفة. وعلى الرغم من أن منزله تعرّض لنيران التصرفات الحارقة للكارمانيولا فإنه كان يقدم الملجأ لبعض الشخصيات التي كانت حياتها في خطر ومن بين هؤلاء كان دوم

أ- هذا المقطع وغيره من المقطعات المتعلقة بحياة شامبليون وأعماله مأخوذ من سيرة حياته التي

كتبها هيرمين هارتليبين انظر:

(H. Hartleben, Champollion; sein Leben und sein werk , Bd. I - II, Berlin , 1906).

كالمي البينيدبكتي الذي سيفندو أستاذ ابنه الثاني في المستقبل. فالتأفات العالية من أجل الحرية التي تم انتزاعها أخيراً ودموع وتهدات اللاجئين الذين أووا إلى منزل شامبليون - تلك هي الانطباعات الأولى التي ما كانت لتمحى من ذاكرة جان فرانسوا الذي كبر قبل أوانه. إلا أن من المهم الإشارة إلى أن الألتان القوية لأبواق الحرية أبقت الأثر الأعمق والأوضح في قلبه الميال إلى تقبل الانطباعات.

مرة وفي ذلك العهد العاصف ضاع الصغير بصورة مفاجئة. فسيطر على الأسرة جو من الاضطراب. فالعاصفة تمول خارج النافذة والصغير لم يتجاوز العامين ونصف العام! وهب الجميع للبحث فقلبوا البيت عن آخره واندفعوا إلى الشارع تحت زخات المطر الشديد، وعند ذلك فقط عثروا على الصغير. كان يتكور تحت السطح «كمصفور السنونو» وقد مد عنقه ويسط ذراعيه الصغيرين. لماذا؟ لكي يمسه بك بشيء من نار السماء» على حسب ما فسّر الموقف بلفته البريئة ذلك البروميثيوس الصغير لأمه البائسة التي استبد بها خوف كاد يوردها التلف.

لم يكن جان فرانسوا يعرف بالطبع أنه قد كتب له السير في طريق فك الرموز. لكنه وهو ابن مكثبي، نشأ بين الكتب، وفي ذلك الرأس الصغير تكونت العقلية الحية الناشطة لفترة تسبق بفترة طويلة المرحلة التي وجد فيها الكبار الوقت لإجراء الدراسات المنتظمة معه أو ليفكروا بذلك. كانت أسئلته تتوالى دون انقطاع وكانت أمه تحكي له مقاطع طويلة من الكتاب التعليمي لكي تدخل السرور على قلبه وتشغله. فكان يحفظ ما يقال له عن ظهر قلب. ثم تحصل في مكان ما على نسخة ثانية من الكتاب ففرضوا أمام عينيه الأماكن التي كانت تتضمن المقاطع التي استظهرها فراح يقارن ما سمعه بما هو مطبوع، ويعطي لكل حرف مسميات خيالية خاصة. ثم إذا بالصغير ذي الأعوام الخمسة يدعو أبويه إلى القراءة الجهرية الحقيقية الأولى لمقاطع من الكتاب، ويعرض أمامهما أول نماذج للكتابة أنجزها بنفسه. لقد كانت تلك النماذج تبدو غريبة إلى حد ما إذ إنه كان يعيد كتابة تلك الأحرف المطبوعة!

أما الدراسة الإلزامية فلم تبدأ إلا بعد عامين ومن قبل الأخ جاك - جوزيف الذي كان يحرم نفسه في سبيل ذلك من ساعات الفراغ القليلة. بيد أن جاك - جوزيف هذا كان بالنسبة للصغير أكثر من المعلم الأول، بل وأكثر من أخ محب وحنان عليه. لقد صار، دون أن يلحظ ذلك، أول واسطة بين جان - فرانسوا شامبليون وبين أرض ميعاده - مصر.

فبفضل الصلات الجيدة التي كان يتمتع بها ابن عم شامبليون انفتحت أمام ابن شامبليون الموهوب إمكانية مرافقة جيش نابليون إلى مصر عام 1797. وكان جاك - جوزيف

يتقد رغبة في تنفيذ تلك الخطة ، فرسم لأخيه الصغير المهور الأنفاس خارطة تلك الأرض العريقة التي تلفها الأسرار. فظهرت صورة بلاد مصر العجيبة لأول مرة أمام أنظار الصغير ذي الأعوام السبعة. لكن ذلك لم يكن يعد إلا سراباً خادعاً. فقد فشلت الخطة وعوضاً عن أن يسافر جاك - جوزيف إلى مصر استقر به المقام في غرونوبل حيث صار يعمل في البداية مستخدماً في عمل تجاري لابن عمه.

ويقي جان - فرانسوا المخيب الأمل برفقة دوم كالي الطيب القلب الذي أخذ يعلمه حب الطبيعة بكل حنان وعطف. فصار الصغير يجمع الأحجار والأعشاب والحشرات. لكن فترة الدراسة المنزلية سرعان ما انتهت. أما في المدرسة العامة فلم يكن الصغير ذلك التلميذ الأمل بالنسبة للمدرسة العمومية. فالوضع المبكي لمواهبه الرياضية كان باعثاً على يأس معلميه (وقد بقي فاشلاً في الرياضيات حتى آخر أيامه). لكنه إلى ذلك استطاع تعلم اليونانية واللاتينية بمجرد السماع: حتى إنه استظهر فيرجيلوس وهوميروس عن ظهر قلب لمجرد حبه لموسيقى الشعر. وحل يومٌ سمع فيه مجدداً دعاء القدر وتسلم التحية الثانية من مصر البعيدة - فقد وصل المنزل، إلى جاك - جوزيف، العدد السابع والثلاثون من «Curier de l'Egypte» وكان يتضمن خبر الثور على حجر رشيد.

لكن جاك - جوزيف كان يعيش في غرونوبل منذ 1798 ، غرونوبل ! إن الشقيقتين لن ينسيا تلك المدينة الرائعة وسيحتفظ قلباهما إلى الأبد بمناظرها الساحرة مع إطلالة جبال الألب وهي تعانق الأفق. وبالإضافة إلى هذا فإنها كانت مركز عالم دوفيني العلمي، وكانت لها أكاديميتها الخاصة ومعاهدها العلمية الممتازة. وفي سنة 1801 تحقق أمل جان - فرانسوا ذي الأحد عشر ربيعاً: إذ كان بمقدوره أن يسافر إلى غرونوبل، إلى أخيه الذي تربطه به أشد الصلات، إلى المعهد العلمي الخاص والمحترم للراهب دوستير حيث يمكنه، وبإفرحته، أن يتعلم اللغة العبرية القديمة. وفي سنة 1802 أي بعد عام واحد فقط من بدء الدراسة وقبل أن يبلغ الثانية عشرة أشار دهشة مفتشيه المدرسين بالشرح الذكي الطريف لأحد المواضيع من نص التوراة العبرية.

وفي ذلك العام استقرت حياته بثالث «شعاع من مصر» فقد وصل إلى غرونوبل الرئيس الذي تم تعيينه مجدداً لتلك الولاية، ولم يكن ذلك موظفاً أو سياسياً عادياً، بل كان الفيزيائي والرياضي الشهير جان باتيست فوربيه وهو روح البمثة العلمية التي كانت تعمل برفقة نابليون في مصر ومؤلف المقدمة التاريخية لعمل تلك البمثة المسمى «Description de l'Egypte» «وصف مصر» وبعد وصول فوربيه انتقلت مصر في لحظة واحدة إلى غرونوبل - وهو الحدث الذي صار الحقبة الإنعطافية في الطريق الذي أعده القدر لجان فرانسوا.

وحدث أن مجموعة من الظروف تكاثفت لتضخيم اللقاء بين الطفل الموهوب والعالم الكبير. فقد صار الأخ على صلوات وثيقة بفورييه وذلك بحكم كونه أمين سر أكاديمية غرونويل. ومن جهة أخرى فإن الرئيس الذي عينَ مجدداً لم يلبث أن بدأ بتفتيش ذلك المعهد العلمي حيث لفت نظره ذلك التلميذ العبقري المتميز بين أقرانه ووعدته بأن يريه مجموعة الآثار المصرية القديمة التي بحوزته.

وهكذا يقف الفتى سنة 1802، وقد انبهر إعجاباً، في مركز ولاية غرونويل أمام مجموعة فورييه الصغيرة ولكن المنتقاة بكل دقة وإذا بذلك الانبهار الشديد وتلك الأسئلة الذكية التي راح يطرحها الطفل المتردد الخجول، وذلك الألق المبقرى المتأجج الذي أخذ يتوهج في عيني ذلك الباحث المفلور تهبب بمجموعها بالشقيق الأكبر إلى السماح له بحضور الأماسي التي كان العلماء يجتمعون فيها في حلقة ضيقة. بيد أنه لم تكن هناك ضرورة كبرى لذلك، ذلك أن زيارة مجموعة فورييه كانت قد حددت مصير جان فرانسوا شامبليون. ففي ذلك المكان، حسبما روى في مناسبات عديدة بعد ذلك، اتقدت في أعماقه الرغبة التي لا تقاوم في أن يحل رموز الكتابة المصرية في يوم من الأيام وفي ذلك المكان تأكد له أنه بالغ ما يريد.

قال شامبليون مرة فيما بعد: «الإلهام فقط - تلك هي الحياة!» وصارت تلك العبارة شعار حياته بطولها، لكن الإلهام سيطر بكل قوته ولأول مرة على ذلك الفتى الذي لم يبلغ الثانية عشرة أمام كنوز فورييه المصرية التي كانت تفويه بالفازها وقد استسلم لسلطان ذلك الإلهام بكل ما فيه وبصورة لم يعرف لها فكاً بعد ذلك.

فهل يدعشنا أن نرى إلى ذلك الإلهام وقد عبر عن نفسه بصورة طفولية لدى ذلك الطفل وأن المهمة الجديدة وذلك الجيشان الروحي الذي فاض عن الحد قد عبّرت عن نفسها بطريقة بالغة الفراسة؟

فقد صار يفطى كل ما تقع عليه يده برموز كتابية صار يسميها البيروغليفات، وينقض على أي مادة علمية جديدة ويفرق بأسئلته شقيقه الذي كان دائم الاستعداد لمساعدته. ولكن بما أنه لم يكن بمد قادراً على الفوص في «علم المصريين» فإن طاقته وتعطشه إلى العمل صادفاً متنفساً لهما في ميادين أخرى. فعلى هدي من «سير حياة» بلوتارك تظهر لديه سلسلة كاملة من قدماء الأبطال على هيئة نماذج ورقية هشة: فهو يكتب «تاريخ مشاهير الكلاب» ويتوج أعمالها المجيدة بمغامرات آرغوس، كلب اوديسيوس، ويجمع المواد اللازمة لوضع كتاب بعنوان: «سلسلة تاريخية من عهد آدم وحتى شامبليون الصغير». فقد حل الوقت

الذي يُقضى فيه مرةً وإلى الأبد على تفاهة اللوائح التاريخية المعمول بها. وقبضوا عليه مرةً متلبساً بجريمته وقد اتخذ مكانه في غرفة أخيه ونشر حوله ركماً عالياً من جذاذات كان قد اقتطعها من كتب جاك - جوزيف. وكانت تلك بالضبط الأماكن التي تتحدث عن مصر القديمة في كتب هيرودوت وسترابون وديودور وبلينيوس وبلوتارك؛ وسرعان ما تغلب الأخ على الحزن الذي سببه ذلك التصرف الوحشي نحو كتبه الأثيرة فأثنى على شقيقه الأصغر لاهتمامه بالبحث المنهجي.

وجاء الشتاء من المدرسة أيضاً فكتب الراهب دوستير: «إنني مسرور جداً من السيد شامبليون الصغير» ونلا ذلك على الفور أعلى جائزة: فقد سمح الأخ لأخيه المتمطش إلى المعرفة بدراسة ثلاث لغات تالية: العربية والسريانية و«الخلدية»؛ وللمرة التالية يجد الباحث الفارق في العلم، ذو الاثني عشر ربيعاً، نفسه على الطريق الخطأ فـ «الأرواح الصينية» التي زحمت دي غين ذات مرة بدأت تزحمه أيضاً ولم تطردها غير يد أخيه القوية.

في ذلك الوقت كان نابليون قد افتتح مدرسة نصف عسكرية في غرونوبل وألحق بها قسماً داخلياً وكان على جان فرانسوا شامبليون أن يلتحق بها. وعلى الرغم من الحرية النسبية وبعض الامتيازات التي كان يتمتع بها فإن النظام العسكري وروتين المؤسسة التعليمية العسكرية بدأ يضغطان على صدره، وتعرف في ذلك الوقت على دوم رافاييل عند فورييه، وكان هذا في ما مضى راهباً قبطياً قدم خدمات كبرى لنابليون وجيشه في مصر، ثم عين مدرساً للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس. واكتسب ذاك اللقاء مغزى خاصاً بالنسبة لشامبليون بالذات إذ إنه كان ينتهل المعارف الجديدة، وهو يدرس لوحده بصورة مستقلة (وبالمناسبة فقد أفسد نظره بسبب استغراقه في القراءة في الليالي). وقد كشفت له أعمال الأكاديميين دي غين وبارتلمي اشتراك اللغتين القبطية والمصرية القديمة، أما مقالة الأب بونجور حول المخطوطات القبطية في الفاتيكان فزادته يقيناً بأنه لا يمكن الوصول إلى اكتشاف اللغة المصرية القديمة وحل رموز الكتابة المصرية القديمة إلا بتعلم اللغة القبطية نصف المنسية.

ومرةً كتب لأخيه ما يلي: «أرسل إليّ مذكرات أكاديمية النقوش (كانت مقالات دي غين وبارتلمي قد نشرت فيها منذ عشرات السنين) فمن المستحيل الاقتصار فقط على قراء أمثال هؤلاء المؤلفين الجادين مثل كونديلياك»⁽¹⁾، وبهذا توصل الغلام ذو الأربعة عشر عاماً إلى قراءة أعمال العلماء الكبار.

1- كان كونديلياك في ذلك الوقت فيلسوفاً وعالمياً نسبياً واسع الاطلاع

ومع هذا فقد قام فوريه في نهاية الأمر بإنقاذ ذلك «المهر الشموس» الذي يستحق وجبة تبن مضاعفة ثلاثاً من إسطنبول المدرسة المكتظ. وبمساعدة فوريه هذا تعرف شامبليون على «Consilium Aegyptiacum» للبينيتس. وكان ذلك الفتى الذي تخطى عمره يأمل بكل حرارة بأن يتمكن نابليون إمبراطوراً من تحقيق ما لم يقم به لويس الرابع عشر ولم يتمكن من تحقيقه نابليون جنرالاً - ألا وهو تحويل مصر إلى مركز للعالم المتحضر. وكثيراً ما كان جان - فرانسوا يردد هذه العبارة «دوماً أفكر بأنني في مصر» وأخيراً، وبكل اندفاع الشباب شرع بإعداد أول أعماله العلمية وهو «مصر في عهد الفراعنة».

قدم مخطوطة بحثه الكامل إلى أكاديمية غرونويل مرفقة بخارطة جغرافية وتهيأت له في ذلك العام، 1807، إمكانية قراءة مقدمة البحث أمام أعضاء الأكاديمية. وطافت إمارات الشك فالارتياح فحب الاستطلاع على وجوه العلماء المستميين عندما مثل ذلك الفتى ذو الستة عشر عاماً أمامهم ليقدم تقريره حول باكورة أبحاثه العلمية. لكن عندما أنهى تقريره هب رينولدون، رئيس الأكاديمية، واقفاً من مكانه، وبلهجة مضخمة رغب بدخوله سرب العلماء المشرق. «إن الأكاديمية تقبلكم بكل فخر عضواً من أعضائها رغم حداثة سنكم. وتكون بهذا قد نظرت بعين التقدير إلى ما قنتم به لكنها تضع في اعتبارها، وهو ما يشكل الشيء الأهم، ما سوف تقومون به! أن الأكاديمية لتشعر بالغبطة وهي تفكر بأنكم ستحققون الآمال المعقودة وأنكم، إذا حملت أعمالكم إليكم الأمجاد في ذات يوم، ستذكرون ذلك التشجيع الأول الذي لقيتموه منها بالذات.»

وفي السادسة عشرة من عمره توجه شامبليون إلى باريس وذلك بالطبع لكي ينجز مخططات حل اللغز المصري. لكن السبب لم يكن مقصوداً على ذلك. فهو يريد أن يحدد لنفسه مكاناً وأن يتحصل على الإمكانيات التي تؤهله للزواج من ابنة عمته بولينيا التي كانت تكبره بستة أعوام والتي كان يكن لها أعظم مشاعر الحب. وقد ذكر في أحد أشعاره الغرامية لتلك الفترة قوله: «لكل ذوقه الخاص... بيد أن أحكم الحكماء من يتزوج».

وقدمت له باريس أفضل من كان بإمكان الغرب أن يقدمه من أجل تعلم اللغات الشرقية. فقد عرفه جاك - جوزيف على سيلفيستر دي ساسي الذي كان قد بلغ آنذاك ذروة أمجاده ويسرور لا حدود له ألقى نفسه أمام ذلك الرجل ذي التسمة والأربعين عاماً والخالي من الظرف، والذي كان مظهره يوحي بالإجلال بما يشع به من إلهام. وترك اللقاء انطباعاً عميقاً في نفس دي ساسي أيضاً وإن كان قد عد مؤلف جان - فرانسوا «مصر في عهد الفراعنة» سابقاً لأوانه.

وفي باريس راح الطالب يسمع المحاضرات في العبرية القديمة وفي «الخلدية» والسريانية، كما راح يتعلم السنسكريت والعربية واليونانية. وفي سنة 1808 تمكن من الحلول مرة محل أستاذه في أحد الأقسام.

إلا أن اللغة الأكثر إمتاعاً التي كان له أن يدرسها فقط في باريس بل وفي العالم كله - كانت اللغة القبطية. فكان يستمع في كنيسة سان روش إلى الراهب القبطي ايشا شيفتيد شي وهو يتلو القداس بالقبطية⁽¹⁾. «أريد أن أعرفها (اللغة القبطية - المؤلف) كما أعرف لغتي الفرنسية الأم... وبكلمة أخرى فقد صرت قبطياً إلى درجة أنني، ولفرحي، أترجم كل ما يخطر على بالي. كما أتحدث بالقبطية إلى نفسي ما دام الآخرون عاجزين عن فهمي...».

بيد أنه كان هناك من يتحدث بلغات الشرق الأخرى وكان الاحتكاك الدائم بالمتقنين من أبناء الدول الشرقية هو الهبة الثانية الكبرى التي أسعدت باريس طالبنا بها. فقد ذكر أخوه: «انه لدى جميع هؤلاء الشرقيين وكأنه في بيته الخاص، وهي ذي ملاحظته الخاصة: «لقد بدّل اللفظ العربي صوتي بصورة كلية، فجعله أجش وظهرت فيه الأصوات الحلقية. إنني أتحدث وأنا لا أكاد أحرك شفتي ومن المحتمل أن هذا قد حدّد ملامحي التي هي شرقية أصلاً، فابن صوّاً تلقائي بالأمس على أنني عربي وراح يفمرني بسلاماته التي كنت أردّ عليها بمثلها فراح ينثر علي تحياته التي لانهاية لها... إلى أن تدخل دوم رافاييل في الموضوع.»

وسرعان ما جاء ذلك الاجتهاد غير الاعتيادي والاحتكاك بممثلي الشرق بثماره الباهرة حتى أن المهندس والمجرب الطبيعي سونيني دي مانونكور، الذي جاب الشرق كله، أعلن بعد مقابلته لشامبليون:

«أرى وبكل سرور انه يعرف بنفس المستوى من معرفتي تلك الدول التي كنا نتجاذب حولها أطراف الحديث معه، أما صرخة العالم اللغوي المشهور الدكتور غال التي انطلقت دون وعي «أوه، يا للمبقرية اللغوية! فكانت كافية لتجبر الآخرين على أن يتبينوا في ذلك الفتى الباحث المفعم بالإلهام والمثابرة.»

وفي 1808 وفي باريس أيضاً تم اللقاء التاريخي بين شامبليون وحجر رشيد الذي سيرتبط به اسمه إلى الأبد. والحق أن شامبليون لم يلتق بالحجر نفسه - إذ كان الإنكليز قد استأثروا به لأنفسهم. غير أن نسخة عنه وصلت إلى شامبليون.

1- تم التوحيد الجزئي للاقباط (المسيحيين المصريين) بالكنيسة الرومانية وذلك بفضل جهود الإرسالية النيشيرية الألفة الذكر والتي ساعدت بكل نشاط على بعث اللغة القبطية.

لم يكن لدى شامبليون بعد القدرة على الاقتراب من النص الهيروغليفي، فهو يكتفي بالمقارنة الدقيقة للرموز الكتابية للشطر الديموطيقي مع البردية المكتوبة أيضاً بالديموطيقية، حسب أقرب الاحتمالات، بينما هي كتابة هيراطيقية في الواقع. ويتوصل بهذه الطريقة إلى معرفة عدد من الحروف الديموطيقية وقد اتفق بعضها مع أحرف اوكيريلاذ.

كتب شامبليون لأخيه: «أحيطك علماً بخلطوتي الأولى، لكن تلك الخطوة لم تكن قد تجاوزت بعد حدود ما كان اوكيريلاذ قد توصل إليه. بل وإن جو العمل الذي قطعت فيه تلك الخطوة ما كان له أن يسمّى بالجو الأمثل: فمن جهة هناك أخوه (وقد صار يسمي نفسه شامبليون - فيجاك) الذي كان يحثه دون هوادة على أداء الإنجازات الكبرى - ومن جهة أخرى هناك دي ساسي، المعلم الحذر الذي ينصحه بالأبى بيدد كل ذلك الوقت على قراءة الرموز حيث النجاح، إذا ما تحقق، يظل رهين المصادفة. فهل لنا بعد هذا أن ندهش إذا ما انقلب شامبليون أحياناً إنساناً ضئيل النفس: «أنفقت سبعة أيام على النقش المصري وأنا مقتنع بأنه أبداً لن يترجم بصورة كلية».

وفي سنة 1809 كان على شامبليون أن يقطع دراسته في باريس. فقد دعوه وهو في الثامنة عشرة من عمره، ليشغل منصب أستاذ في قسم التاريخ في الكلية التي أعيد فتحها في غرونوبل فيمضي في أداء مهماته بكل حيوية ونشاط - كان أمامه مستمعون سبق أن عرفهم زملاء في الماضي وكثير من الأساتذة السابقين كانوا ينظرون بحسد إلى «ذلك التلميذ البائس» على نجاحه الأكاديمي. ومع كل هذا يجد لديه متسعاً من الوقت لمواصلة أبحاثه الخاصة. وفي السابع من آب 1810 يتقدم إلى أكاديمية غرونوبل بنظريته في الكتابة المصرية، تلك النظرية التي تقطع كل صلة بما كان حتى ذلك الوقت يُعدُّ أمراً مفروضاً منه. فهو يضع يده لا على نمطين فقط من أنماط الكتابة المصرية بل على ثلاثة أنماط منها. فهين الديموطيقية والهيروغليزية يوجد نمط ثالث هو «الهيراطيقي» كما أسماه.

والكتابة «الهيراطيقية» هي نتيجة لتطور الكتابة الهيروغليزية وقد ظهرت بسبب أن الهيروغليفيات التي لم تكن تكتب إلا نقشاً على القطع الأثرية بدأت تستعمل كأحرف أثناء الكتابة على البرديات. وهكذا فإن المادة المختلفة اختلافاً جذرياً أدت إلى ولادة كتابة تبدو «جديدة» بصورة كلية للوهلة الأولى.

غير أن شامبليون أخطأ بادئ الأمر في تحديد تسلسل ظهور هذه الأنماط الثلاثة إذ أعدَّ الديموطيقية أقدمها وعدَّ الهيراطيقية والهيروغليزية تاليتين لها لكنه لم يلبث أن اعترف بخطئه وأعلن أن الكتابات المصرية الثلاث تعود إلى نمط واحد، وأن الكتابتين المائلتين

انبثقتا عن البيروغليفيات وأن قراءة الرموز البيروغلفية يجب أن تتطلق من الديموطيقية. وبذلك يكون قد مهد لنفسه الطريق وبصفة نهائية نحو النجاح المقبل الحاسم، وحدث ذلك قبل أربع سنوات من شروع توماس يونغ في الجانب الآخر من الخليج بدراسة البيروغليفيات!

وفي سنة 1813 حقق شامبليون أول كشف له في عالم البيروغليفيات وهو الكشف الذي يعد أكبر شاهد على حدة ذكائه. وتبدو محاكماته في يومنا هذا غاية في البساطة - وهو ما يمكن قوله عن كثير من الكشوفات العظمى. فقد كانت اللغة القبطية تتضمن ست نهايات للضمائر الشخصية الستة. فافتراض إمكانية العثور عليها في المصرية القديمة أيضاً، وأثبتت الدراسة أنه حيث كان ضمير «هو» أو «ه» يظهر في النص اليوناني من حجر رشيد كان يقابله رمز حـ (الأفمى ذات القرنين) في الشطر البيروغلفي، أما في الشطر الديموطيقي فكان يظهر الرمز الذي عرف شامبليون أنه ظهر على أساس رمز الأفمى السابق وهو يتماثل مع « ξ » القبطي الذي يعني صوت « f » المعبر عن ضمير الشخص الثالث. وهكذا فإن المنطق الحديدي لذلك الباحث أوصله إلى تحديد البيروغليف الأول انطلاقاً من دلالاته اللفظية.

وفجأة توقف كل شيء، فلا خطوة نحو الأمام، بل والأدهى من ذلك، عودة إلى المرحلة التي كان قد فرغ منها. فشامبليون ينظر مجدداً إلى البيروغليفيات على أنها مجرد رموز لا تحمل طابعاً صوتياً محدداً، ويبدأ أن الكلب المعجوز المعروف الذي طالما نجح في إدارة الرؤوس بالرموز قد تمطى، إذ أحس باقتراب زوال ملكه، يلعب مع الباحث لعبة شريرة.

في ذلك الوقت وبفضل جهود يونغ كان قد تم التعرف على صيغة اسم بطليموس فكان شامبليون يعود إليها المرة تلو المرة. لكن أسداً كان يريض هناك بشموخ وسط الشكل البيضوي. إذ ذاك قرر الباحث أن الأسد البطاش ما كان يمكن أن يعني غير مفهوم «الحرب» باليونانية $P(t) \delta lmes$ ، أي نفس تلك الكلمة الداخلة في صلب اسم الملك أيضاً.

ولكن إذا كانت تلك «الحرب» لا تعدو كونها خيالاً من الخيالات فإن الحرب الحقيقية ما لبثت أن قرعت باب غرفة أبحاث الدارس. فجاء - فرانسوا، على الرغم من عمله الدائب، لم يتحول إلى عالم مكتبي منقطع عن الدنيا، بل بقي مواطناً أصيلاً وفداً في سبيل بلاده فرنسا. فما إن عاد نابليون من جزيرة ايلبا حتى تسارعت ضربات قلب الباحث، أما بالنسبة للرؤوس الحارة التي كان يحملها أنصار نابليون، فإن مئة يوم كانت كافية لتثير شكوك رجال الشرطة حولهم. فما كاد جان فرانسوا يخرج لينضم إلى انتفاضة دوديه في غرونويل وليتمسك بالبوربون والسلاح في يده (دون أن ينسى إخفاء كنوزه المصرية تحسباً لحالة ما إذا توفى) حتى نفذ صبر الشرطة. وهكذا كان على شامبليون أن يهرب وأن يمضي فترة

من الزمن ضارباً في أرجاء الألب في دوفيني تائها لا ملاذ له. وصفيت وظائف الشقيقين ولم يسمح لهما إلا بعد وقت طويل نسبياً بالإقامة في فيجك ثم في غرونوبل دون السماح لهما بمغادرتها. وهناك راح شامبليون يكدح أشد الكدح حتى يقيم أوده عن طريق التعليم في مدرسة تعود لعهد الإصلاح.

في ذلك الوقت وفوق المسرح الفارق في الظلام والذي تمرض على خشبته قصة فك الرموز يبدأ تغيير الديكورات بصورة لا يلحظها شامبليون، ويغدو ممثلو الفصل التالي من المسرحية هم: دبلوماسي إنكليزي، رحالة وجامع تحف إنكليزي، هرقل الماجن ومسلّة. ويعطى الدور الرئيسي للأخير من بينهم جميعاً غير أن المجموعة المتبقية جديدة بالتوقف عندها قليلاً. أما اشتراك بهلوان، نجم أحد الملاهي، فلعله لا يثير كثيراً من الاستغراب، فقد امتاز توماس يونغ نفسه بأنه كان راقصاً على الحبال ذات يوم.

أما الدبلوماسي فكان هنري سولت، القنصل الإنكليزي العام في مصر فرغم ما كان يعيشه من خوف ويتمرّض له من مجازفات استطاع أن يعمل بنجاح في ميدان البحث وجمع الأثرية المصرية دون أن يكون لديه إعداد خاص. إلا أنه اضطر سنة 1817 إلى أن يتقدم إلى داسييه، أمين سر أكاديمية النقوش الفرنسية، الذي يشغل ذلك المنصب منذ سنوات عديدة، بطلب خطي من أجل إقامة الصلات مع العلماء الفرنسيين. وأنارت الرسالة بضوئها الباهر الأيام الرمادية بالنسبة لنشاط شامبليون المدرسي في غرونوبل. فقد كتبت في وادي الموتى في طيبة حيث اكتشفت، وفق تقديرات سولت، خمسة مداخل ملكية. وقد تم إنجاز ذلك العمل الجبار على يدي هرقل الأنف الذكر.

كانوا يسمّونه جوفاني باتيستا بالتسيوني، وقد ظهر إلى هذا العالم سنة 1778 في أسرة جزاز للحى من بادوانا. ولدهشة الجيران لم تمض إلا فترة قصيرة حتى كان الصبي يفرغ أقرانه طولاً بمقدار الرأس وفي السادسة عشرة من عمره كان يبدو كجوليات في شبابه فهل بقي مجال للتذكير بأنه شعر بالضيق في حانوت أبيه الضيق فاتجه جامباتيستا هذا إلى روما سيراً على قدميه. ولما لم تكن في يديه غير صنعة أبيه فإنه أخذ يمارس ذلك العمل إلى أن قطعت طريقه حسناء من روما فأشعلت قلبه بلهب عينيها الجميلتين. غير أن الحسناء كانت، لسوء الحظ، باردة القلب. ولمل ذلك كان السبب في رفضها ضراعات جوليات غير اللبّة. وماذا بوسع أي إيطالي في السابعة عشرة من عمره أن يفعله إزاء ذلك؟ لا بد وأن يجتنب ضجيج هذا العالم. ويتوافق تام مع هذا المبدأ توجه بالتسيوني إلى الدير. ويبدو انه تعلم هناك نظّم الري - فهو، على أي حال، صار قادراً على تقديم المساعدة أثناء حفرة الآبار الارتوازية.

ومن الممكن القول أن من سخره لخدمة علم المصريين كان نابليون بونابرت. ففي سنة 1796 هجم الكورسيكي على إيطاليا، وهو ما يزال بعد جنرالاً، و «حرره ميلانو. وتحركت قطع فرنسية أخرى باتجاه روما فألحقت هزيمة قاسية بجيوش البابا بيوس الرابع. أما الوطنيون الذين هبوا لصد الغزاة فبدؤوا بإطلاق النار بينما كانت فرق الغزاة تقوم بعمليات قنص في الشوارع تمتد على التكوين الظاهري للأشخاص، فكانت تقبض على الأصحاء وذوي البنية المتناسقة من الشبان وتلحقهم عنوة بالجيش الفرنسي. ومن الطبيعي أن يكون بالتسيوني بالنسبة لهم لفة طال انتظارها.

فيا لطيفة الميمنة التي يمكن أن تصاغ من ذلك الشابا وهكذا أوقفته فرقة يقودها رقيب لكنها لم تكن قد حُمنت قوة شمشون على ما يبدو. فما هي إلا لكمة واحدة حتى طار الرقيب في الجو بينما أسلم بالتسيوني بمصيره إلى قدميه السريمتين ولم يستمد أنفاسه إلا في بادوا. لكن الحاكم هناك أيضاً لم يكن إيطالياً بل كان الإمبراطور النمساوي هو الحاكم الجديد في تلك المنطقة.

ويتجه بالتسيوني إلى البندقية حيث يتعلم فن بناء عجلات شفط الماء وتعميق القنوات، إلى أن يغدو أخصائياً نادراً في قنوات الري. وتركبه من جديد «الرغبة في تبديل المكان» فيجوب أوروبا بطولها. وفي هانوفر يقع لفترة قصيرة ضمن جيوش الاحتلال البروسية. وهناك دلائل تشير إلى أنه ترك تلك الخدمة دون إذن من السلطات. كما أكدت له زيارته الثانية إلى البندقية بأن أرض أوروبا الوسطى لا تزال أشد تلظياً بالنسبة لرجل في مثل قامته. فيقطع البحر إلى إنجلترا حيث كانت تنتظره وظيفة لم يتوقعها إذ يصبح هناك «مهندس التصميمات المائية للمسرح» في لندن وممثل أحد الملاحى والمملاق القادر على رفع أحد عشر شخصاً من «التوحشين»!

ويعد رحلة قام بها مسرحه إلى كل من البرتغال وأسبانيا اضطر بالتسيوني، الذي كان دائب الفرار من الصراعات الحربية في القارة، إلى التمهقر نحو مالطا، حيث أخذ يعرض خدماته على عملاء الباشا المصري محمد علي وذلك بوصفه أخصائياً في المنشآت المائية وهكذا، كمهندس مائي، يصبح الضيف الأثير لدى السلطان المطلق على البلاد الواقعة على النيل.

إن من الممكن طبعاً تتبع طريق الحياة العجيب لذلك الإنسان. لكننا مضطرون للاكتفاء بوصف ذلك الإسهام الحاسم الذي قدمه في تاريخ قراءة البيروغليفات المصرية على غير علم منه.

فقد اشتهر بالتسيوني، إبان عمله في مصر، بكونه اختصاصياً ممتازاً في النقليات.

كان يقدم على القيام بأي عمل، وكان -
إذا اقتضى الحال - يشارك بيديه في التنفيذ.

الديموطيقية ١٠٠٠-٤٠٠ ق.م
البيراطيقية ١٤٠٠ ق.م
البيروغليزية ١٥٠٠ ق.م

١٢
١٣
١٤

١٥
١٦
١٧

١٨
١٩
٢٠

٢١
٢٢

٢٣
٢٤
٢٥

فإليه فقط كان يمكن أن يعهد بنقل مسلة طولها 26 قدماً عبر النيل وذلك بعد إزاحتها عن قاعدتها. وقد قام بذلك بطلب من ويليام جون بينكس، جامع التحف الإنكليزي، وصديق بايرون، وذلك رغم استياء القنصل العام الفرنسي دروفيتي الذي ما تخلّى عن المسلة إلا بشق النفس. وهكذا وللمرة الثانية كانت المسلة من حظ الإنكليز، ومن جديد سيكون مقدرراً لها أن تزكد أمجاد الباحثين الفرنسيين.

ولدى زيارة قام بها بينكس لجزيرة الفيلة على النهر وقعت عينه على ما كان قد خفي عن أعين الآخرين: كانت هناك قاعدة ذات نقش يوناني وهي القاعدة التي أسقطت من فوقها المسلة المجلّلة بالنقوش البيروغليزية وبكلمة أخرى فقد كانت القاعدة والمسلة تشكلان معاً وحدة متكاملة. أما النقش اليوناني على القاعدة فكان يتضمن اسم كليوباترة.

الشكل -20- تطوّر الكتابة المصرية.

وفي 1815 تمكن بينكس وهو البعثة الذي لا يكمل، من استسحاق هيروغليفيات المسلة. أما الحجر نفسه فوصل إلى يونغ بعد عام من ذلك التاريخ لكنه لم يتمكن من استنباط شيء منه.

في ذلك الوقت كان شامبليون يعمل كمن به مس، لا ينال من نشاطه تجريده من الحقوق السياسية ولا تدهور صحته. كان يطمح إلى استنطاق الموتى منحنيّاً على البيروغليفيات المنقوشة والكتابة البيراطيقية وينكب على كتب الموتى التي عثر عليها

في المقابر ثم نشرت نصوصها في المجلدات الفرنسية الأنيقة من «وصف مصر». ومرة تلو المرة يعيد مقارنات الرموز المنفصلة في نمطي الكتابة ثم يعيد موازنتها فيما للعمل الدقيق المضني! لكنه أتم ذلك في أيار (مايو) سنة 1821 وصار بإمكانه أن يعيد كتابة النص الديموطيقي رمزاً بعد رمز بواسطة الكتابة الهيراطيقية وأن يعيد كتابة هذه بالهروغليفيات، وهو ما لم يكن بمقدور أي إنسان من سابقه أن يقوم به. ويظهر (الشكل 20) ضخامة الهوة الفاصلة بين الكتابة الديموطيقية وبين كلا النمطين الآخرين وصعوبة تجاوز تلك الهوة.

وبينما كان شامبليون يعبر تلك الهوة أحس فجأة بسند قوي تحت قدميه. فقد أدرك ذلك الشيء الرئيسي الذي قضى بضربة واحدة على كل أخطاء الماضي وسدد طعنة قاتلة للشيطان الهيروغليفي الماكر. ومن جديد يحق لنا أن نفتح أذرعنا وأن ننظر بكل دهشة قائلين: ما أيسر ذلك وما أوضحه! إنه ليبيّن دون برهان!

ومن الطريف أن تخطر لشامبليون يوم عيد ميلاده، في الـ 23 من كانون الأول 1821 الفكرة السعيدة بإحصاء رموز النص الهيروغليفي وجميع المفردات اليونانية في حجر رشيد. وقد اتضح له أن الـ 486 كلمة يونانية كانت تقابل بـ 1419 هيروغليفاً وعلى هذا ما كان من الممكن أن تكون الهيروغليفات كلمات - رموزاً ولا ايديوغرامات ولا رموزاً مجردة. فعددها أكبر من أن يسمح لها بذلك! ذاك ما أظهرته حساباته بالمنطق الحديدي للحقائق.



الهيروغليفات الديموطيقية

□ p ○ i △ (wi) | (rw) — m (ms)

|| i (zi) | s (s)

الشكل -21- خليل اسم بطليموس وفق قراءة شامبليون.

تؤكد قراءة الرموز أن نفدو ملموسة باليد ، تلك القراءة التي كانت هدف حياة ذلك الباحث ، الهدف الذي ما انفك يتقدم نحوه عبر عواصف عصره ، عبر الأمراض والملاحقات والحرمان. إنه يراه ولن يطول الوقت حتى يسقط في يده كالثمرة الناضجة.

يقوم شامبليون بإجبار الرموز الديموطيقية التي كان يعرف معناها اللفظي من خلال النص اليوناني ، على القيام برحلة معاكسة وذلك بكتابتها بالصيغة الهيراطيقية ثم بالصيغة الهيروغليفية. أما حجر المحك بالنسبة له فكان الإطار البيضوي المتضمن لاسم بطليموس. وهو يبين أن ذلك الاسم كتب وفقاً للمبدأ اللفظي حتى وفي صورته الهيروغليفية ، وبهذا يكتشف خطأ يونغ فيقرأ لا «بطوليمابوس» بل «بطوليس» *p-t-o-l-m-i-s* ، وذلك وفقاً لرموز اللغة المصرية.

تم حصاد هذا الجنى الكبير في مدينة غرونوبل. وفي سنة 1821 حمل شامبليون المادة كلها إلى باريس وكان المرض قد بلغ به أشد مبلغ. وكانت خلاصة أبحاثه بحاجة إلى ما يثبتها. فكان لا بد من البراهين المقنعة من أجل إلزام المتشككين على لزوم الصمت.

كان شامبليون قد تعرف في إحدى البرديات الديموطيقية على الكيفية التي يكتب بها اسم كيلوباترة بالديموطيقية. فأخذ يتدرب مرات لا حصر لها على ذلك الاسم فيكتبه بالهيراطيقية وبالهيروغليفية. وكان يعرف أن ذلك الاسم لا بد وأن يكتب هكذا ، على هذه الصورة دون غيرها في الإطار البيضوي الملصقي في المدونة الهيروغليفية. لكن المدونة لم تكن موجودة.

وأخيراً وفي شهر كانون الثاني سنة 1822 ظهرت الطبعة الليتوغرافية للنص الهيروغيفي الذي كان قد نسخ عن المسلة التي عثر عليها في جزيرة الفيلة - تلك المسلة التي كانت قد عبرت شاطئ النيل بكل حذر عن طريق بالتسيوني الإيطالي. وقد أرسل بينكس بنسخة من المدونة إلى المعهد الباريسي حيث كان الكثير من الحساد لشامبليون فلم يحملوا النسخة إليه بل إلى ليترون ، عالم اليونانيات الشهير.

غير أن ليترون كان صديق الدراسة بالنسبة لشامبليون فقدم إليه النسخة الليتوغرافية المرسله من طرف بينكس. ويصف ج. هارتليبين ، مؤلف سيرة شامبليون ، تلك اللحظة بهذه الكلمات:

«فكان تياراً سرى في عروقه عندما وقع نظره عليها - فهناك ، في الإطار الملصقي البيضوي الثاني كان يظهر اسم «كيلوباترة» وقد كتب بنفس الصورة التي كتبه بها بعد أن استخرج صورته الهيراطيقية الأولى مرات عديدة من الصيغة الديموطيقية منتظراً بلهفة الإثبات النهائي لذلك! فمن استطاع تحقيق ذلك من قبله؟».



△ k (q) 𐀀 (rw) 𐀁 (z)

𐀂 (w:) □ p 𐀃 (i)

𐀄 (d) 𐀅 r 𐀆 (i)

△ نهاية المونث

○ محدد يوضع
بعد الاسم المونث

الشكل -22- الشكل المتضمن لاسم كليوباترة و تحليل هيروغليفاته.

قدم الإطاران الملكيان البيضويان، حاملا اسمي «بطليموس» و «كيلوباترة» لشامبليون اثني عشر حرفاً هيروغليفاً مختلفاً وعلى الفور وضعوا قراءة الرموز فوق أرضية ثابتة لا تتزعزع لكن سرعان ما تكاثفت السحب فوق الفرحة بالكشف العلمي. ذلك أن بينكس عندما أرسل النسخة إلى باريس كان قد كتب فوقها بالقلم الرصاص - «كليوباترة» - وهي فرضية يمكن فهمها جيداً إذا ما أخذنا بالحسبان أنه كان منذ زمن بعيد قد قرأ النص الإغريقي على قاعدة المسلة. وبينما استطاع شامبليون وحده، أن يؤكد حرفاً بعد حرف ما كان الآخرون (بينكس، يونغ وليترون) قد افترضوه افتراضاً فإن هؤلاء هجموا عليه هجمة واحدة لينتزعوا منه قصب السبق من غير أن ينسوا في الوقت نفسه أن يتأخروا فيما بينهم.

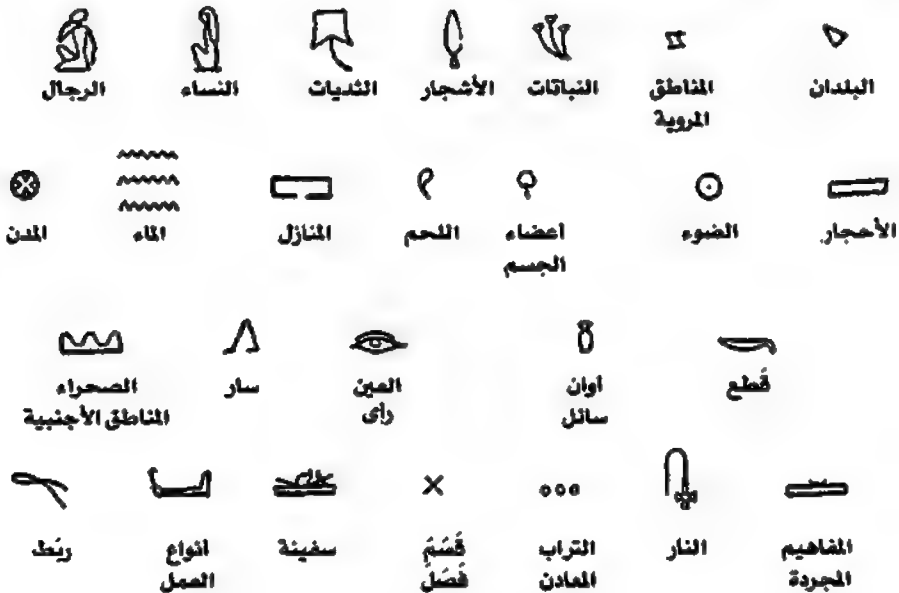
غير أنه صار من المستحيل الوقوف في طريقه. فهو يجمع الإطارات الملكية حيثما وجدها، تلك الإطارات التي تتضمن الأسماء الهيروغليفية، ويبدأ بقراءتها وقد تزود بترسانة كاملة من أسلحة علم المصريين التي كان قد صاغها بيده. ونفخت حياة جديدة في الفترة المتأخرة من التاريخ المصري ونطقت الأحجار بكلام مفهوم فهو ذا أمامنا الكساندر، تيبريوس، دوميتسيان، جرمانيك وتراجان وهي تنظر إليه من نوافذها البيضوية كأصدقاء قداماء.



الشكل -23- اسم الكسندر (أ) لقب «الحاكم المطلق» (ب) وأسماء تيبريوسس،
(ج) دوميسيان، (د) «جيرمانيك»، (هـ) و «تراجان» (و) مكتوبة بالهيروغليفية

أسماء مألوفة لكنها غريبة في الوقت نفسه. إذ ليس بينها جميعا اسم مصري محلي واحد ومن هنا ينتهي شامبليون إلى القول خطأ بأن الأسماء الأجنبية من العهد المتأخر كانت الوحيدة التي كتبت بالرموز اللفظية.

وفي آب سنة 1822 يخطو خطوة جديدة كبرى في طريق حل رموز الكتابة الهيروغليفية. فقد استرعى انتباهه أن نجمة صغيرة تظهر خلف بعض مسميات النجوم المكتوبة بالهيروغليفية. نجم خلف مسميات النجوم؟ وفجأة تتألق في ذهنه الفكرة الصائبة؛ إنه المحددات (حسبما أسماها بنفسه) أو الرموز التوضيحية وبهذا تم اكتشاف حقيقة تلك الرموز الإضافية التي كانت تظهر في نهاية الكلمة وكانت تخصص بهدف التحديد الدقيق للمفردات التي تلفظ بطرق مختلفة، ولكنها تكتب بصورة واحدة وتشكل في الوقت نفسه الشطر الأساسي من نظام الكتابة المصرية بأسره.



الشكل -24- محددات مصرية.

غير أن شامبليون لم يكن بعد قد نشر كشوفاته الجديدة في ميدان الهيروغليفية فالحياة علمته الصمت، غير أنه في الـ 22 من آب سنة 1822 يتلو في أكاديمية النقوش مقالته حول الكتابة الديموطيقية وهي ثمرة عشر سنوات من البحث. وأخيراً تحقق النجاح الحقيقي! فقد حظي باستقبال لم يكن ليتخيله حتى في أحلامه. فدي ساسي، دي ساسي العظيم، المعلم السابق والذي أشاح بوجهه فيما مضى عن تلميذه الذي بدا له شديد الاعتزاز بالنفس، ينهض من مكانه ويفتح ذراعيه في إعجاب صامت نحو العالم الشاب. ويقدم اقتراحاً بأن تأخذ الدولة على عاتقها مسؤولية إصدار مؤلفات شامبليون.

وغدا شامبليون شرهاً إلى جمع الإطارات الملكية بنهم لا يمكن إشباعه. ولم لا. فما أحفل ذلك العمل بالثمار. إنه يقع على اثنتي عشريات من الأسماء في نقوش المعابد، لكنها كانت، كمعادتها أسماء أباطرة يونان ورومان ارتبطت بالفترة الأخيرة من تاريخ مصر القديم. وربما كان يأمل في العثور على مثل ذلك الاسم في ذلك الصباح التاريخي ليوم الـ 14 من أيلول (سبتمبر) 1822 عندما انحنى متوتر الأعصاب فوق طرد كان قد أرسله إليه المهندس المعماري الفرنسي غويو الذي جاب مصر والنوبة. وكان ذلك الطرد يحتوي على نسخ دقيق للنقوش والرسوم النافرة التي كانت تزين المعابد المصرية.

هي ذي الصفحة الأولى في يده... وفجأة يقف بترقب. فمن ضمن الإطار البيضوي كان أحد الأسماء الملكية يحدق فيه وهو أمر لا سبيل إلى الشك فيه - لكنه اسم ما كان يمكن أن يكون للملك اليونان ولا لأباطرة الرومان. وثبت الباحث الشاب نظره في مجموعة الهيروغليفات كمن وقع تحت تأثير السحر.



الشكل -25- الكتابة الهيروغليفية لاسم رمسيس

وراح المخ يعمل بشكل محموم، وتضاعف الهياج والتوتر وبدأت اليد المسككة بالصفحة بالارتعاش.. فالاسم يبدأ برمز الشمس (الدائرة اليسرى من الأعلى). لكن الشمس تلفظ بالقطبية (ولنذكره أتحدث بالقطبية إلى نفسي) مع re . يلي ذلك رمز لا يزال مجهولاً ويليه رمز مكرر يمثل قطعة قماش مطوية \uparrow كان هذا يعني $R-s-s$ من

غير المحتمل أن تكون $R(e) -x?-s-s$ من اللاتينية⁽¹⁾ *rex*. فمن المعروف أن الإطار البيضوي لا بد وأن يحتوي على اسم علم..(ألا يمكن أن يكون ذلك اسم $R-m-s-s$ ، أو رمسيس، الأشهر من بين الفراعنة؟ وببيدين مرتجتين يقلب شامبليون بين الرسوم وتتدافع في رأسه الأفكار بسرعة جنونية، وتشد أصابعه على صفحة جديدة وإذا بنظراته تتسمّر من جديد على أحد الأسماء. كانت صورة الاسم هكذا:



الشكل -26- الكتابة الهيروغليفية لاسم توتوس

فهو أيضاً ينتهي بنفس الحرف s : أما بدايته فتبدأ بصورة ايبيس وهو الطائر المقدس الذي يجسّد الإله توت ومن جديد يظهر بينهما رمز ||| ؛ فإذا كانت أطروحة $R-m-s-s$ «رمسيس» صحيحة فإن هذا الرمز لا يعني إلا حرف m فالاسم إذن $Thou-m-s$. إنه توتوس بالطبع، توتوس ثاني الأسماء المتألقة من بين أسماء الفراعنة القدماء!

لم يعد هناك شك، فقد سقطت الفشاوة عن عيني شامبليون. فاستعمال الهيروغليفيات من أجل الكتابة اللفظية التي كان يعتبرها حتى ذلك الوقت مجرد نتيجة لانحطاط الكتابة في فترة متأخرة، مثلَ أمامه كمظهر مميّز بالنسبة للكتابة القديمة نفسها. وبهذا لم ينته فقط إلى حل أحجيتها الأخيرة - إذ كان لا يكاد يجرؤ على التفكير بذلك حتى في أحلامه وهاهو ذا يمسك بيده مفتاح تاريخ مصر القديم الذي فقد منذ ألف وخمسة سنة. فهو الشاهد الوحيد على أن النقوش لا تعود بمجموعها إلى الزمن المتأخر بل وأن عدداً منها يعود إلى التاريخ الغابر.

ويصعب على الباحث المنهك بعد ذلك أن يجبر نفسه على الاستمرار في الجلوس إلى طاولة العمل إلا بمشقة كبرى. ويلزم نفسه بالتزام الهدوء إذ كان بحاجة إلى التركيز فقد كان كل شيء بحاجة إلى إعادة التفكير وإلى المقارنة والتمحيص. وانتابته رغبة شديدة في أن يرسل بملء صوته صرخة الفرح وأن يجري بأقصى سرعة وفي أي اتجاه وأن يطلق لمشاعره

1- Rex باللاتينية تعني «ملك».

العنان، لكن العلم - سلطان صارم وليس غريباً أن يكون شامبليون قد ترعرع في أرجائه حتى بلغ مدارك الرجولة. وبالإضافة إلى هذا فإن الهجمات المعادية المتكررة ومواقف الحسد الخسيسة والتي صارت بمجموعها تتعاضد في أوساط العلماء، وبخاصة في أوساط الهواة السطحيين، جعلته حذراً بل وجباناً تقريباً. وبجهد يكاد يتجاوز طاقة البشر تمكّن من السيطرة على نفسه وانتقل إلى التحقق العملي البارد فأمضى النصف الأول من نهاره منكباً على رسوم غويو.

وعند منتصف النهار كانت قد تأكدت فرضياته الأولى. فهب من مكانه وبسرعة للم الصفحات ذات الرسوم ونضد أوراقه وأنطلق إلى أخيه في المعهد الفرنسي ففتح باب المكتبة على مصراعيه وعلى طاولة جاك - جوزيف المندمشم رمى بحافظة الأوراق وصاح بصوت متهدج بذلك الهياج من نعمته: «Je tiens l'affaire» «لقد نجحت!» وكانت هذه العبارة صرخة للنصر، لكن الانفعال المنهك كان فوق احتمال الباحث المهق فعلمَ برجليه الوهن وانهار على الأرض لا حراك فيه.

ظل خمسة أيام خائر القوى لا يحسن بنير الإرهاق القاتل. واستعاد وعيه بعد ذلك فهرع إلى العمل من جديد. وفي غضون بضعة أيام كتب ما تضمنه عمصراً بأكمله وهو «رسالة إلى السيد داسييه حول أبجدية الهيروغليفيات اللفظية» وقد تليت في جلسة أكاديمية النقوش في 27 أيلول.

يقدم الباحث في مقاله هذا وصفاً مبسطاً للطريق الذي سلكه نحو قراءة الأسماء اليونانية والرومانية ويقرر بعد ذلك - كذروة لكل ما تم التوصل إليه - أن النقوش القديمة أيضاً تتضمن، إلى جانب الأيديوغرامات، رموزاً أبجدية كانت تمثل شطراً قديماً وملموساً في نظام الكتابة.

أحدث اكتشاف شامبليون من الأثر ما يحدثه انفجار القنبلة. فقد كانت قراءة الرموز الهيروغليفية تمثل بالنسبة لبني قومه قضية لاصقة بقلب الأمة كلها، والقضية الأولى للساعة. ففرحت فرنسا بأسرها لفرحه وعمتها البهجة بسبب المأثرة العديدة المثال. لكن باريس هي باريس، وقد أكد الحساد بكل تشفٍ بعد ذلك أنهم بدؤوا هناك يكتبون بأبجدية شامبليون الهيروغليفية... رسائل الغرام.

أما ذروة الإنجازات فكان البحث الذي نشر عام 1824 بعنوان «دراسة في النظام الهيروغليفي لقدماء المصريين» ويتحدث فيها عن الأسماء التي تم العثور عليها في النقوش لفراعنة قدماء يعود حكمهم إلى الألف الثاني قبل الميلاد، ويقدم قراءة لعدد كبير من

الأسماء الأخرى بل ويترجم نثقاً منفصلة من نصوص متكاملة، وبالطبع لم يكن ذلك المؤلف معصوماً عن الأخطاء. لكن تلك الأخطاء كانت من الندرة إلى درجة أنها لم تود إلى الحط من قيمة دراسته؛ ومع كل هذا فإن تلك الأخطاء وضمت في أيدي أعدائه السلاح الذي انتظروه طويلاً لكي يهاجموه به.

تمكنت الأدمغة الكبيرة في ذلك العهد من تقييم الجهد الأعظم لشامبليون، وكان من بينها ويلهيلم فون هومبولدت في ألمانيا وهامير - بورغشتال في النمسا. أما في إنجلترا فقد وقف هنري سولت مزيداً له بصورة شفهية ومطبوعة، الأمر الذي عجز عن تحقيقه للأسف إنكليزي آخر كان الأولي أن يسبق به الجميع وهو توماس يونغ.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى تعالَى حول ذلك الكشف ما أسماه إيرمان بـ «نجاح متعدد الأصوات» ففي إنجلترا كانوا يشغلون رغبة في تسليم قصب السبق ليونغ، كما ظهر في فرنسا أيضاً عدد من «قرّاء الرموز» الذين سبقوا - حسب رأيهم - شامبليون فكانوا، بالتالي، أجدر منه بحيازة القصب، وكان طبيعياً أن يظهر في عدد من البلدان جماعة من هواة السخرية والتعالي. فهل نحن بحاجة بعد هذا إلى التذكير بأن أصوات ذوي الأغراض الدنيئة، والتي يميّز بها عادة أدعياء المعرفة بكل شيء، كانت تسمع في تلك الجوفة.

ومن بين هؤلاء كان يوليوس كلايروت الأخصائي في الدراسات الصينية، وكان قد أنجز الكثير في مجال اختصاصه، غير أنه كان، للأسف، شريراً فاسد الطبع وقد قال شامبليون في لحظة كانت الطعنات تبدو فيها قدراً لا سبيل إلى الفرار منه: «إنه قدرى الأسود»، وكان كلايروت قد وضع ما يسمى بالنظرية الأكرولوجية التي تقول بأن قدماء المصريين كانوا يكتبون وفق نظام الكلمة - الرمز. وأنهم كانوا يبدؤون بتلك الكلمة جميع الكلمات الأخرى المبتدئة بذلك الحرف كأن يبدؤوا مثلاً بكتابة رمز لكلمة «شمس» ثم يبدؤون به كتابة جميع الكلمات المشابهة في المطلع كـ «شهر»، «شجر»، «شرق»، وما شابه ذلك.

ونهض عالم اللاهوت زيفارت اللايبريزي ليرفع عقيرته. ذلك أنه قد حدث ذات مرة - ومن بمقدوره أن يتقرى جميع المسالك التي خلقها الله - أن التقى بشامبليون في روما وأن هذا قد تمكن من إحراز نصر ساحق عليه في إحدى «مباريات قراءة الرموز» الأمر الذي لم يستطع زيفارت نسيانه. فبدأ في مساجلاته باعتراضات كان يمكن اعتبارها صحيحة إلا أن صاحبنا انتهى فيما يخص البيروغليفات إلى نتائج خيالية تماماً، وقد دخلت أفكاره السخيفة تاريخ الفكر الألماني كأنموذج بديع للعملية الزائفة. حتى أن أحد أعماله الرئيسية كان يسمى:

«برهان لا يقبل النقض على أن الطوفان قد انتهى في السابع من أيلول سنة 3446 قبل ميلاد المسيح وعلى أن الأبجديات قد وهبت إلى جميع الشعوب في ذلك التاريخ».

الاثهاتات المتصلة بـ «خبية الأمل» وهجمات ممثلي العلم الرسمي إلى جانب الاحترام الكبير والتعقيق الساحر للفكرة التي كرس من أجلها الحياة كلها - تلك كانت المراحل الأساسية لحياة شامبليون المقبلة. فقد توصل إلى تطوير مهاراته حتى الذروة من خلال عمله في المجموعة الفنية من الآثار المصرية التي كانت تعود لملك سردينيا في تورينو. وكتبت له بعد ذلك سعادة السفر إلى مصر والتطواف فيها ودراستها فوصل إليها وكأنه يصل إلى ممتلكاته الخاصة فأمضى فيها أجمل ساعات عمره. وفيها أيضاً وفي النواويس الكنيية للمقابر الغابرة عبر القرون أحس بأنفاس الموت الرهيبية.

أصبح شامبليون حامل وسام فرقة الشرف وكادوا أن يتوجوه في روما بالقبعة الكاردينالية. وقد استطاع أن ينقل معارفه العلمية إلى ابيوليتو روزيليني من بيزا، وكان أوفر تلامذته موهبة. وفي ذلك الوقت كانت فرنسا الرسمية حكومة وبلاطا تنظر إلى مآثرته العلمية الكبرى بلا مبالاة وفيها وسع الأعداء من نشاطهم فلم يتمكن من الوصول إلى كرسي الأستاذية في الكوليج دي فرانس إلا بعد أن نجح في إزاحة العديد من العقبات والصعوبات.

وتمكن العمل الشاق الذي ضعى في سبيله بكل حياته والصراع السياسي والبحث العلمي الهائل الذي قام به في مصر من تدمير صحته. وانضم إلى ذلك السل ومرض السكر... وقد حدس بأنه وسم بميسم الموت فصرخ ذات مرة: «يا إلهي، فقط عامين لا أكثر، لم لا؟» وصرخ في مرة تالية: «ما أبكر الرحيل» ثم مسح على جبينه وقال: «لا يزال هنا الكثير». وفي الرابع من آذار سنة 1832 غالته يد المنون. وفي الطريق إلى مقبرة بير - لاشيز كان صفوة عالم العلم يسيرون لتشيع جثمانه. وكان بين المشيعين أستاذة الشيخ سيلفيستردي ساسي والكسندر فون هومبولدت.

قال شامبليون ذات مرة: «علم الدراسات القديمة - فتاة رائئة الجمال، لكنها من غير

بائنة».

لكنه أخطأ في ذلك الحساب. فما أعظم الكنز الذي جاءته به تلك الفتاة. و «الإلهام فقط - تلك هي الحياة»، وقد أوقد ذلك الإلهام قلبه ذات مرة فلم تنطفئ شعلته بعد ذلك أبداً. أجل، لم يقدر له أن يعيش طويلاً لكن إشعاعات الإلهام المشرقة الألاقة كانت تنير طريقه القصير في كل مرة عندما كانت السحب المعتمة تتجمع حتى يبدو الطريق مجهولاً ولا سبيل

إلى المضي نحو الأمام. قد يخيل لنا أن علم المصريات الفني الحديث الولادة قد دفن إلى جانب مبدعه شامبليون. إذ حملت الريح إلى كل مكان بذور الشك في نتائج قراءاته التي لم تكن منزهة عن الأخطاء والنواقص. وإذا كان عمل شامبليون قد تخطى موته وتواصل حتى النهاية فإننا سدينون بذلك لجهود العالم والدبلوماسي الألماني كارل يوسيان بونزين ولأعمال الفيلولوجي الألماني ريكارد ليبسيوس التي كرس في سبيلها حياته بطولها.

تعرف بونزين على شامبليون في روما عام 1826 وترك ذلك اللقاء انطباعاً عميقاً في نفسه. كما أن بونزين بدوره دفع العالم الفتي ريكارد ليبسيوس والذي كانت مواهبه تبشر بأفضل النتائج، إلى تكريس حياته لدراسة المصريات. وقد توّسل العالم الألماني بكل الإنجازات التي كانت قد تمت من قبله. على الرغم من أنه لم يكن في أول عهده قد تسلح بعلم المصريات، واستطاع بصميميته الألمانية، أن يوسّع الشرح الذي أحدثه العبقري الفرنسي، وأن يحزّر أعماله مما علق بها من أخطاء.

ولد ليبسيوس عام 1810 في هامبورغ في زآل، ودرس الفيلولوجيا الكلاسيكية في غيتينغن وبرلين على أشهر الأساتذة في ذلك الوقت. والحق أنه كان بمقدور الكثيرين من معاصريه أن يفخر بتلقي مثل هذه الدراسات، غير أن ليبسيوس تجاوزهم جميعاً في نقطة واحدة: إذ إنه رُسم وهو في الثانية والعشرين من عمره فارساً من فرسان العلم لقاء قراءته المستقلة وتفسيره لـ «لوحات إيغوي» الغامضة والتي سنعود إليها بعد حين.

وفي عام 1833 وصل ذلك الشاب، الذي بدأ حياته بتلك الصورة المشرقة، إلى مدينة باريس التي كانت قبله جميع المستشرقين في ذلك الحين، وذلك لإتمام دراساته. فشرع بالدراسة الموضوعية الشاملة لولفات شامبليون بما فيه من طاقة لا تتضب وذكاء وقاد. لقد كان مؤمناً بقيمة ذلك العمل فأخذ يتلمّس بعض التناقضات البسيطة فيه وراح يرمم نواقصه ويشير إلى الأماكن التي تثير بعض الريبة ويصوب الأخطاء. وبكلمة واحدة فقد بدأ بما كان مقدراً لشامبليون نفسه أن يقوم به لو لم تختره يد الموت.

وربما خطر لنا أن نتساءل: وكيف أعدنا إلى التناقضات والنواقص والأماكن المريبة والأخطاء؟

طبعاً. فمما يمكن ملاحظته من الأمثلة السابقة كان شامبليون يفهم الكتابة الصوتية للمصريين على أنها مكونة من أحرف منفصلة. أما في الواقع فإن الكلمة التي كانت تكتب كتابة صوتية كانت في غالب الأحيان تتضمن كلمة - رمز مكونة من عدة سواكن يضاف إليها في النهاية عادة ساكن أو بضعة سواكن كانت قد ظهرت في تلك الكلمة - الرمز.

فمثلاً الكلمة - الرمز mr «محرث» كانت تحمل معنى لفظياً هو $\text{mr}^{(1)}$. فإذا ما أراد أحد المصريين القدماء أن يكتب كلمة «أحب» التي تلفظ أيضاً mr أضاف إلى الكلمة الرمز الخاصة بالمحرث mr إشارة r وهي r وهكذا يظهر بدلاً من mr ما يمكن أن نسميه mr-r . وبالإضافة إلى هذا كانوا يضيفون أيضاً رمز «المروحة» ms ورمزاً يعبر عن لوح غرست فوقه أساقين mn .

بالنسبة لشامبليون كانت mr و ms تمثل ثلاثة رموز تعني حرف m . وكان على كل من هذه الرموز أن يستعمل فقط للتعبير عن الـ m التي تقابل جذر الكلمة! فإذا ما قابلته حالات (وكثيراً ما كانت هذه الحالات تقف له بالمرصاد) تكون فيها mr و ms مقبرة لوحدها عن معنى mr ، ms و mn كان بكل بساطة يفسر ذلك كاختصار لكتابات عادية. وبفضل حدسه العبقرى فقط استطاع عملياً أن يتعاشى جميع الأخطاء: فحيث كان المصري يكتب mr-r قاصداً بذلك mr (على حسب ما ذكر سابقاً في مثل «أحب» mr فإن شامبليون ما كان يرى منذ البداية إلا mr وعلى العكس فإذا ما ظهر أمامه رمز mr مفرداً كان شامبليون يعد ذلك كتابة مختصرة ويضيف الـ r المفقودة. ولهذا فإن لنا كامل الحق في أن نجزم بأن شامبليون لم يكن فقط أول من قرأ الهيروغليفيات بل وأول من فهمها أيضاً.

أما ليبسيوس الذي دوتت له زوجته في سجل خصاله العائلية الكريمة: «الوضوح الكامل ودقة المحاكمات» فقد انتبه إلى الجوانب الضعيفة في نظرية شامبليون، تلك الجوانب التي خفيت عن أنظار ذلك «المصري» من دوفيني.

يا للمثال الرائع للتعاون بين عالين أنجز أحدهما بعبقريته الفياضة، مآثرة علمية عظمية كلفته حياته، والآخر ألماني متعمق مدقق، ذو اتجاه بالغ الإلتقان، نذر حياته بطولها للدفاع عن نظرية رائده وتعميق جذورها. وفي الوقت نفسه ما أبعد الاختلاف في طريقة البحث والمنهج إذا ما استمعنا إلى مبدأ ليبسيوس القائل: «ما الذي يمكن أن يثير من الانطباع أكثر من قوة الروح التي تتجلى في المظهر الرصين والقدرة على ضبط الانفعالات، تلك القوة التي تقف نقيضاً للمشاعر الإنسانية البوغاء».

ذلك «المظهر الرصين» الذي كان يمثل أبعد غاية في تربية ليسيبوس لنفسه وجد تعبيره العلمي الكلاسيكي في دراسته التي أصدرها في روما سنة 1837 والتي وجهها إلى تلامذة شامبليون بعنوان: «رسالة إلى السيد البروفيسور إ. روزيليني بخصوص الأبجدية الهيروغليفية» وتتضمن تعميماً للنتائج التي تم التوصل إليها وقد وضعت الأساس

للعلم الجديد. وهكذا قضى مرة وإلى الأبد على الشكوك التي كانت تحوم حول صحة أو موثوقية قراءة الرموز وفق المبادئ التي طرحتها أعمال شامبليون، وبهذا صار بإمكان علم المصريات أن يحتل مكانه ككشفيق كامل الحقوق لعلوم الدراسات الشرقية الأخرى.

ولكن ربما احتاج الأمر إلى أسس أخرى لإثبات ما تم إنجازه؟ وهكذا أقام ليبسيوس سنة 1866 برحلته الثانية إلى مصر وهناك، وبعمونة عالم المصريات رينيش، وهو من فيينا، اكتشف في منطقة سان وهي في التوراة تسوان (باليونانية تانيس) حجراً ثلاثي اللغات، وقد عرف النص المنقوش فوقه فيما بعد «بميثاق كانوب».

فبين خرائب المدينة الهامدة استوقفت أنظارهما مسلة نحتت من الكلس المتحجر، وكان وجهها يتضمن مدونة هيروغليفية تقع في 37 سطراً وترجمة يونانية لها تتألف من 76 سطراً من الخط الدقيق. وظهر النص نفسه في طرف اللوحة وقد نقش بالكتابة الديموطيقية، إلا أن ليبسيوس لم يمرر انتباهاً بادئ الأمر.

وهكذا حدث ما كان ينتظره أصدقاؤه شامبليون ومريدوه منذ زمن طويل وما لم يتمكن أعداؤه إمكانية حدوثه: فقد لقيت أعمال شامبليون تأكيداً للمرة الثانية، إذ إن الترجمة التي قام بها ليبسيوس للشطر المصري وفق منهج شامبليون مع الأخذ بالحسبان نتائج الدراسات الحديثة، تطابقت تماماً مع النص اليوناني! لقد استطاع صاحب الحجر السعيد أن يقرأ المدونتين في جلسة واحدة ودون صعوبة.

وهكذا حلت رموز الكتابة المصرية في الأساس بينما كان علم اللغويات المصري ما يزال يدرج بخطواته الأولى. لكن أساس ذلك العلم صار يزداد صلابة وقوة وصار ينمو ويشهد نتيجة لتضافر جهود العلماء من البلدان الأوروبية؛ فأخذ البعض باكتشاف مظاهر جديدة في لغة ذلك الشعب العريق، واخذ غيرهم بتفسير هذه المظاهر بينما كان آخرون يجمعون المادة المتجمعة ويصنفونها ويعدون لها الشروح.

وفي الوقت نفسه بقي العمل متصلاً من أجل إنجاز قراءة الرموز بصفة نهائية. ومن الأعمال التي قدمت في هذا المضمار نذكر دراسات الإنكليزي بورتش والإيرلندي هينكس والألماني بروغش؛ وقد انصرف الأول والثاني إلى دراسة الهيروغليفات وخاصة منها المحددات بينما انصرف الثالث وكان ما يزال تلميذاً في السنوات الأخيرة من الجمنازيوم، إلى دراسة الديموطيقية.

ونحاول في الختام إعطاء ملخص لما تم إنجازه في ميدان حل رموز الكتابة المصرية خلال تلك المئة والخمسين سنة التي تلت أعمال شامبليون.

سبق أن ذكرنا أن الأنماط الثلاثة من الكتابة المصرية - الهيروغليفي والهيراطيقي والديموطيقي - هي في الواقع كتابة واحدة. ولهذا فإن بإمكاننا، إذا ما أردنا عرض بنائها وماهيتها بصورة ملخصة، الاكتفاء بوصف تلك الهيروغليفيات الذائعة الصيت والتي غُفّت أكثر من، سواها بأسرار الآلاف من السنين.

من المعلوم أن الكتابة المصرية كانت تتضمن ثلاثة أنواع من الرموز: الكلمات - الرموز، والرموز اللفظية (الحروف المنفصلة) والرموز التوضيحية الخرساء.

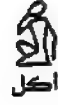


الشكل -27- هيروغليفيات مصرية تعني أشياء ملموسة

تعبر الرموز - الكلمات أو الأيديوغرامات عن مفهوم الشيء الملموس المحدد المنظور (ولا تتخذ أي أهمية في هذا كيفية لفظ الكلمة التي تعبر عن الشيء المصوّر). وهذه الرموز كثيرة العدد في الكتابة المصرية غير أنها لا تنفي على الإطلاق استعمال الرموز الأخرى.

ومما يثير الدهشة بصفة خاصة الكيفية التي تجمع بها هذه الرموز بين التصوير الواقعي وبين الشكل المبسط للخطوط، (لقد بلغت من الروعة في الأداء ومن الكمال الفني حدوداً لا نجد مثيلاً لها عند أي من الشعوب) (هـ. شنايدر).

ويمكننا أن نقول الشيء نفسه عن الكلمات - الرموز التي كانت تستعمل للتعبير عن الأعمال ذات الاتجاه المادي الملموس. وقد رسمت هذه الرموز بطريقة ترصد اللحظة الأكثر تعبيراً عن العمل: فتصوير إنسان يرفع عصا (الجهة العليا إلى اليسار) كانت تعني «ضَرْب»، وتصوير طائر مشرع الجناحين تعني «طار» وهكذا.



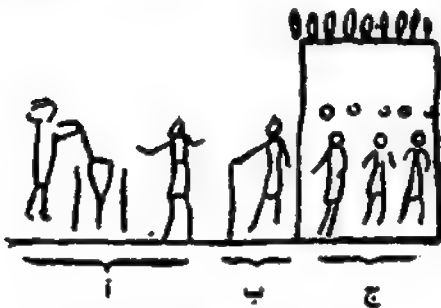
الشكل -28- ايديوغرامات هيروغليفية تعبر عن أعمال تتم يمكن مشاهدتها

وكان من الأصعب التعبير عن المفاهيم المجردة، لكن الرسوم كانت تهب للمساعدة حتى في تلك الحالة، وكانت المشكلة هي في أن يربط الشيء المصور في معناه بالمفهوم المقصود. فمفهوم «حكّم» كان يعبر عنه برمز صولجان الفراغنة. الذي يذكر بالصنارة، أما زهرة الليلك التي تدخل في شعار مصر العليا فكانت تعني «الجنوب» وكانت صورة الشيخ ذي العصا تعني «الهرم» والإناء الذي يقطر منه الماء يعني مفهوم «البارد».



الشكل -29- هيروغليفات مصرية كانت تعبر عن المفاهيم المجردة

بيد أن هذه الرموز بمجموعها لا تخرجنا من نطاق الكتابة على أساس رسم الكلمات: تلك الكتابة التي تعبر عن مفهوم كامل فهي ليست كلمة - رمزاً. والشكل التالي يبين



بني (أ) كبير الموظفين (ب) قاعة (ج)
(للملك مينيس نحو 3500 ق.م.)⁽⁴⁰⁾

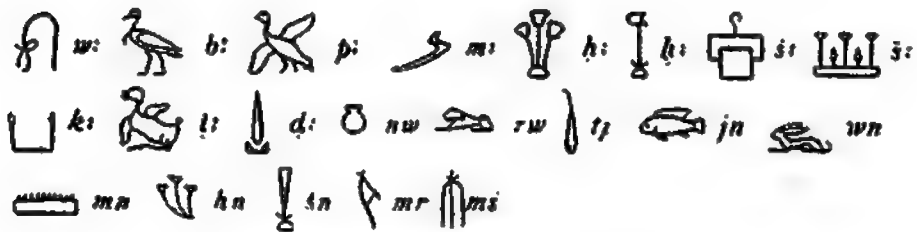
الشكل -30- كتابة هيروغليفية مصرية

بوضوح أن الكتابة المصرية في عصورها السحيقة كانت تكتفي بمثل هذه الطريقة في التعبير.

ومع كل هذا فإن قسماً كبيراً كان يعتمد على اللفظ الدقيق للكلمة المكتوبة. وفي وقت مبكر جداً بدأ الاعتماد على ما يسمى بالأحجية اللفظية (وقد سلفت الإشارة إليها في الفصل الأول). وكان هذا يسيراً على اللغة المصرية بصفة خاصة، فمن المعروف أن

الصوتيات لا تكتب فيها، ولذلك فقد ظهر فيها عدد كبير من الأومونيمات أي الكلمات المحتوية على سواكن متشابهة متوضعة وفق نظام موحد. ولكن إذا كان ما يكتب ليس الكلمة نفسها بل هيكلها العام، هيكلها العظمي المؤلف من السواكن (فلفظ الصوتيات، وبالتالي لفظ اللغة المصرية القديمة بأسرها لم يصل إلينا ولم يتم التوصل إلى إعادة بنائه إلا بصورة تقريبية وعلى أساس المنهج المقارن) إذ ذاك تبرز إمكانية التعبير عن الكلمة مثلاً برمز w يعني الشاقول $m-f-r$ وتعني أيضاً كلمة «حسن» التي يتضمن هيكلها العظمي أيضاً سواكن $(m-f-r)$ أو يستخدم رمز السنونو سنونو $(w-r)$ لكثابة كلمة كبير (وهي أيضاً wr) وبالإضافة إلى هذا فإن لفظي z و w في نهاية الكلمة قد تحولاً في وقت مبكر على ما يبدو إلى صامتين وصارا يستعملان الرمز المرسوم \square $p-r$ ويعني «منزلاً» ويمكن أن يستخدم في التعبير عن فعل $p-r-z$ ويعني «خَرَجَ» وهكذا.

وبمرور الزمن أخذ المصريون، من خلال إغناء كتابتهم التصويرية ومحاولة الوصول بها حدود الكمال، يعتمدون عن التصورات المتعلقة بالرسم كتصوير مباشر للأشياء الموجودة في الواقع. فلم يمدوا مثلاً يقرؤون رمز «السنونو» (wr) فقط كـ wr «كبير» بل وأخذوا ينظرون إليه بفض النظر عن معناه الأولوي الذي انطلق منه وذلك من وجهة نظر محتواه اللفظي (من مظهره اللفظي)، وبكلمة أخرى أخذوا ينتقلون إلى استعمال هذا الرمز من أجل كتابة أي كلمات أخرى يمكن أن تظهر فيها مجموعة $w-r$ مثل $w-r-d$ بمعنى «ثعب» ولكن $w-r$ تحولت بهذا إلى رمز لفظي من ساكنين إذا ما وضعنا في الحسبان أن الصوتيات «لا يلتصق إلبها» في الكتابة المصرية، كما لا توجد المقاطع بمفهومها الحديث، ونورد فيما يلي بعض هذه الرموز المماثلة.



الشكل -31- رموز لفظية من ساكنين

وبهذه الطريقة نفسها ظهرت الرموز اللفظية «الوحيدة المقطع» والتي كان ظهورها إشارة إلى مرحلة أعلى في تطور الكتابة وهي اختراع الكتابة الحرفية. ويرتبط نشوؤها أيضاً بالكلمات - الرموز التي تتألف فقط من ساكن واحد (ومن صائت واحد لا نمرضه) فالترياس

(المزلاج) يتضمن في اللغة المصرية ساكناً واحداً هو s (وصائتاً واحداً لا نعرفه، والمعلوم فقط هو أن هذه الكلمة تلفظ في القبطية *Si ei*). فكانت الكلمة - الرمز التي تعني «مزلاج» تستعمل بادئ الأمر لكتابة أي مقطع من نمط s + صائت ثم صارت تكتب كرمز حرفي للفظ s وذلك لأن الصائتات لم تكن تكتب. وهكذا صاغت اللغة المصرية «أبجديتها» من 24 حرفاً ساكناً نوردها فيما يلي:



الشكل -32- «الأبجدية» المصرية



وربما يتراءى لنا أنه قد آن الوقت للانتقال إلى الكتابة الأبجدية غير أن المصريين المحافظين ظلوا متمسكين بالتقاليد وواصلوا كتابتهم بالرموز الأثيرة على قلوبهم.



أما الحق في استعارة أفضل ما أبدعه المصريون في ميدان الكتابة وقطع الخطوة الأخيرة بصورة واعية نحو الكتابة الحرفية فكان من نصيب الدولة الأثيوبية التي كانت قائمة إلى الجنوب من مصر. فقد عمدوا، في تلك البلاد الواقعة تحت أقوى التأثيرات الثقافية للجارة الشمالية، إلى استخدام اللغة والكتابة المصريتين في المراسلات الرسمية على الرغم من أن لغتهم كانت مختلفة تماماً عن المصرية. وفي نحو سنة 200 تقريباً قبل الميلاد صارت ميروبي عاصمة للدولة الأثيوبية. ومنذ ذلك الوقت بدأت البلاد بالتححرر من التأثير المصري والتطلع إلى الحياة السياسية الخاصة. وبذلك أخذت الحاجة تتعاضد نحو صياغة كتابة ملائمة للغة المحلية. وهكذا ظهر أخيراً، وعلى أساس من النماذج المصرية، وربما من اليونانية أيضاً، تركيب ملائم جداً من بين هذين النموذجين - هو الكتابة الحرفية الميروبية.

تتخذ الميروبية، شأن المصرية، نعتين من الكتابة - الهيروغليفية والديموطيقية؛ وهي، شأن اليونانية، تتألف من نيف وعشرين رمزاً، هي في الواقع حروف حقيقية تظهر بينها رموز للصائتات أيضاً. أما الرموز الميروبية بحد ذاتها فقد استميرت من الكتابة المصرية، لكن دلالاتها (المعنوية واللفظية) تكاد لا تتطابق على الإطلاق مع دلالات تلك الرموز في الكتابة المصرية.

وعلى الرغم من أن الكتابة الميروبية صارت معروفة منذ عام 1820 بفضل نسخ الرّسام الفرنسي كايو فقد عدت سنين طويلة كتابة لا يمكن قراءتها. ومما كان يحول دون فك أسرار الكتابة الميروبية التصورات المشوهة حول وجود ما يسمى بدولة ميريوي الأسطورية الراهمة، التي كانت تقوم في غابر الأزمنة الضاربة في أعماق التاريخ. ولم يقض على هذه التخيلات إلا رICHARD LEPSIUS. وقد صار بالإمكان، وبمستوى لائق من الوثوقية قراءة المدونات الميروبية على الأقل. فنتيجة للجهود التي بذلها العالم الإنكليزي غريفيث خلال عشرين عاماً تقريباً 1911-1929 معتمداً على نص لقاعدة تمثال من بيناغ، كان لEBERTUS CANON قد عثر عليه، صار بالإمكان ليس فقط قراءة النص بل وفهمه إلى حد ما.

وضمت المدونة المذكورة باللغة المصرية وكتابة مصرية، غير أن أسماء الملوك والملكات نقشت بالهيروغليفيات الميروبية. وبما أن لغة هذه الهيروغليفيات تمثل لغة خاصة وان تفسيرها ليس كاملاً ولا يمكن النظر إليه على أنه أسمي من أن يناقش فإننا نكتفي بإيراد قائمة للأبجدية الميروبية وأنموذج من كتابتها (الشكل 33).

أما في مصر فقد أسلفنا الإشارة إلى أنهم كانوا يعيدين عن استعمال مثل تلك الكتابة. فكان كل يكتب على هواه. إذ كان من الممكن أن يخطر لأحد الكتاب، ولكن ليس للجميع طبعاً، أن يكتب كلمة «حسن» $n-f-r$ برمز  (أي من خلال رمز الشاقول الذي كان يعني $n-f-r$) بينما كان زميله يرى من الأفضل الجمع بين $n-f-r$ «الشاقول» f «الأقوى ذات القرون» r «هم»  وبهذا ينتهي إلى وهو ما يبدو أجمل من الناحية الفنية.

غير أن مصيبة المصائب كانت الامونيومات. فمجموعة $m-n-h$ ، كانت مثلاً تعني «الشمع» و «دغل البردي» كما كانت تعني في المصرية الحديثة «فتى» وفي الوقت نفسه كان من المستحيل الاكتفاء بكتابة جميع السواكن  فكيف تم الانتصار على الامونيومات؟ لم يكن ذلك بمقدور شيء غير المحددات. فعندما كان يطلب من $m-n-h$ ، أن تمير مثلاً عن «دغل البردي» كانوا يضيفون إلى الكلمة المكتوبة لفظياً محدد نبات فتصبح  ويجد القارئ في (الشكل 34) أكثر المحددات استعمالاً.

الهروغليفية	الديموطيقية	الدلالة اللفظية	الهروغليفية	الديموطيقية	الدلالة اللفظية
	ϣ2	a		ϣ	l
	ϥ	e		ϥ	h [y?]
	l	ê		3	h
	+	i		VII	s
	III	y		3	z
	3	w		z	k
	ν	v [b?]		19	q
	2	p		7	t
	3	m		14	te
	12	n		6	le
	2	ñ		2	z
	w	r			

: 1194 : 1232473 7 + 11151392 4318

: 1115144 12392 1393 159 12 12 12

43529

wēši: ašēreyi: tktiz-mn: iqê: zêkrêr: erkelê: amnitērey: ezhli

ايسيدا (و) اوسيريس، احفظا تاكتيز أمون بن زيكاير الذي أنجبه أمون تارس،

الشكل -33- الأجدتان المرويين (الهروغليفية والديموطيقية) ومنقوشة مروييه



الرجال



النساء



النباتات



الأشجار



النباتات



المناطق
المروية



البلدان



المن



الماء



المنازل



اللحم



اعضاء
الجسم



الضوء



الأحجار



الصحراء
المناطق الأجنبية



سار



العين
رأى



اوان
سائل



قُطع



ربط



انواع
العمل



سفينة



قَسَمَ
فُضِّل



التراب
المعادن



النار



المفاهيم
المجردة

الشكل -34- المحددات الأكثر استعمالاً

ونبيع لأنفسنا في النهاية أن نقدم، كأنموذج لما ذكرناه، نصاً هيروغليفيًا مصرياً مع كتابته اللفظية وترجمة له فقد يساعد القارئ على تكوين تصوّر ما عن ثراء هذه اللغة الشرقية وعن بنائها:



s: j ولدي
ndjzj المنتقم لي
Mn-hpr-r منعب
'nh dt ليمش خالداً
wbnj انا اشرف

n بالحب
mr(w) t-k نحوك
ham وتصور
'wzj يداي
'h'w-k أعضائك
m صياد

i
'nh الحياة
ndm-wzj ما احلى
jmt-k بشاشتك
r ل

snbt-j صدري
smn-j أضفك في
tw
m
jwnn-j معبدي الأقدس

hzzj أفتن بك
n-k أبسط
djzj سلطانتك
b:w-k (و)
smdw-k عيبك

m على البلدان
tw
nhw جميعاً
hwt-k والخوف منك
r حتى
drw حدود

ihnw أعمدة
nt
dt السماوات

الشكل -35- نص هيروغليفى مصري، الإله أمون رع يخاطب الفرعون توتوس الثالث (1504-1450 ق.م). يقرأ النص وفق اتجاه السهم. المترجم

إن قراءة كتابة شعب ذلك البلد العريق على نهر النيل لم تؤد فقط إلى فتح لوحات
جديدة للتاريخ بل وكشفت العالم الروحي للمصري القديم الذي عبر عن نفسه بصورة بديعة
في نشيد أمنحوتب الرابع «المالك حامي حوى الدين»، أخناتون إلى إله الجديد - الشمس:

«ها أنت ذا وقد تجليت فوق جبال المشرق،

وغمرت الأرض جميعها ببهائك،

رائع أنت وعظيم، تتألق من علياء سموك

فوق كل الأراضي

أشعتك تمانق البلدان بأسرها حتى أهاصي أركان

ما أبدعته أنت،

بعيداً أنت، لكن أشعتك - على الأرض.

وقد أخضعتها لابنك الحبيب.

أنت تنير للبشر الطريق لكن أحداً لا يعرف طريقك

سيدي، ما أجل أعمالك وما أغناها، لكنها

خفية عن أعين البشر⁽¹⁾».

1- M. Pieper , Die ägyptische Literatur , Wildpark - Potsdam , 1927 , S. 67.

الفصل الثالث

أهورامزدا أعالي

قراءة رموز الكتابة المسمارية الفارسية القديمة

بقول «أرابافاوش الملك:

«أهورامزدا أعالي»

نقش بيهستون

كانت الكتابة المسمارية قد طرحت في غياب النسيان بصورة أشد ثقلاً من الهيروغليفات المصرية. وإذا تم التوصل عموماً إلى قراءتها في القرن التاسع عشر فإننا مدينون بذلك لداريوس الأول.

تشير الدلائل إلى أن كتاب المصور القديمة كانوا على علم بوجود تلك الكتابة. فقد كتب هيروودوت وسترابون عن «الحروف الآشورية» وكتب تيودور عن «الحروف السريانية» كما كتب أفينيوس وبسيفي عن الحروف «الخلدية». وقد ثبت الآن، عند وضع معلوماتهم موضع التمهيد، أنهم كانوا يقصدون الكتابة المسمارية. لكن أحاديثهم كانت تدور عن «حروف» و«كتابة» ولم يكن لدى قدماء المؤلفين أي تلميح أو إشارة، حتى ولو كانت عارضة، إلى أن أصحاب الكتب من اليونان أو الرومان أو قدماء العبريين (والتمود يشير أيضاً إلى الكتابة «الآشورية») قد اعتمدوا في أوصافهم للكتابة الإسفينية على مشاهداتهم الخاصة أو حتى عرفوا بأن الإسفين كان العنصر الأساسي فيها أما كتاب اليهود اللاحقة، السريان المسيحيون، والذين كان يتوقع منهم أن يكونوا أقرب إلى المشاهدة، فإنهم أيضاً يتحدثون عن «حروف الآشوريين». هذا بينما كانت عيون سكان ما بين النهرين، بلاد الأسفينيات القديمة، أحد بصيرة على ما يبدو، فاستطاعت أن ترصد ما خفي عن أنظار المؤلفين اليونان والرومان والجغرافيين العرب في المصور الوسطى، فأسموا تلك الرموز الغربية بـ «المسماري» أي بالكتابة «الشبيهة بالمسمار» لكن المسمار لم يتأكد في حقيقة الحال، وعند الدراسة

المدفقة، كسمار، بل كان إسفيناً ولم تخطر فكرة ذلك التشابه إلا على بال شخص من وستفال.

لكن ذلك لم يحدث إلا في عهد متأخر. ففي بداية تاريخ فك الرموز بيرز، كما ذكرنا، اسم داريوس الأول الأعظم، (بالفارسية دارايا قاوش، 522-468 ق.م) وهو من آل الأخمينيد (نسبة لجدهم أخامانيش). وكان حقق لنفسه التربع على العرش بعد أن أخمد العديد من ثورات التمرد وأعاد بيده القوية سلطة دولة الأخمينيين السابقة، التي كانت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر المكدوني تمثل أكبر تشكّل دولي عرفه العالم القديم. فقد وسّع الحدود القديمة لدولته حتى صارت تضم إلى جانب ممالك الميديين والليديين والخلديين والمصريين القديمة، شطراً مهماً من هضبة إيران يمتد حتى نهر الإند وجزءاً كبيراً من الشريط الساحلي من جنوب شرق أوروبا. وقد حققت تلك الدولة الشاسعة المساحة، والمنظمة بصورة دقيقة، والمحكومة وفق أحسن النظم الإدارية، ازدهارا كبيراً في عهد داريوس... ثم دارت دورة القرون واستحالت الإمبراطورية الكبرى قراباً لكن الحضارة الأوروبية ورثت عنها إرثاً لا تقدر قيمته بثمن.

من ذلك الإرث وكانت مجموعة المنشآت الهائلة الحجم التي تترك في النفس أعمق الأثر حتى وهي في خرابها؛ وكانت هي الأساس التي قام عليه فك رموز الإسفينية. وكان من «منجزاتها» الموروثة حدائق الزينة وطرق تسيق الزهور وثمار الدراخن والدجاج الأهلي والحمام الداجن والقطع النقدية التي تحمل صور الملوك والبريد. أجل، أجل، البريد على الرغم من أن اختراعه ينسب خطأً إلى الرومان. فقد كان الفرس أول من وعى الحاجة إلى البريد لمهمات الاتصال الحكومي في ذلك الاتحاد الدولي الأولي الهائل ومن ذلك ظهر نظام عدائي البريد فنظام البريد المحمول على الخيل والذي كانت له محطات دائمة فكان يصل إلى مصر وروما إلى أن وصل إلينا.

أما كتابتنا فلم نأخذها عن الفرس.

ومن الطبيعي ألا تختفي تلك العظمة دون أن تترك أثراً. وكان من بين ما خلفته بمدنها مدينة بقيت آثارها عرضة لعاديات الزمن الذي يعفو على كل شيء، ولأيدي الإنسان التي عاثت فيها فساداً وتخریباً بينما كان العارفون يصفونها بأعظم مدينة في العالم القديم، فقد كانت مقر ملوك الفرس بارساكار (مدينة الفرس) أو بيرسيبول حسب التسمية اليونانية وهي نفس بيرسيبول التي التهمت النيران قصرها سنة 331 قبل الميلاد، عندما أثار أشجان الاسكندر الملقب بالأعظم قبضاً تاييس وتحرّضاتها على ما يبدو، فتذف القصر بمشعل متقد ناراً لأثينا التي كان الفرس قد هدموها.

فوق منبسط هائل المساحة على بعد 60 كم تقريباً من الشمال الشرقي من شيراز وعند قدمي هضبة كوخ - ي رحمات وغير بعيد عن ملتقى كور وبولفار تقتصب آثار قصور مبنية من المرمر الخشن الصلد ، وعند النظر إليها يمكن الجزم في وقتنا الحاضر بأن عدداً من تلك المباني قد ترك دون أن ينجز، وقد انتهت الروايات الشعبية إلى تفسير نشوء هذه الخرائب دون إرهاب كبير للعقل فأطلقت عليها اسم «تختي جمشيد» - أي «عرش جمشيد» وهو الملك الأسطوري لقدماء الفرس ، على الرغم من أن الأدلاء السياحيين ، وهم يعرضون على أنظار الغرياء خرائب القصور ، ينسبون بناها إلى كبير الأعظم وداريوس بل إلى الملك سليمان نفسه. وغير بعيد عن ذلك المكان تشمخ هامات «تشيخيل مينار» - «الأربعون مثذنة» أو عموداً. ومن المعروف الآن أنها تمثل بمجموعها الواجهة التي بناها داريوس الأول وكسيركس لقصرهما الأثين.

وعلى بعد خمسة كيلو مترات تقريباً إلى الشرق من هذه القصور التي ذهبت في حينها طاماً لنيران الاسكندر كانت تقوم مدينة بيرسيبول الكبيرة الفنية التي لم يلبث الاسكندر أن استباحها أيضاً وأحرقها. غير أن وجود المدينة ظل متمصلاً ، وتشير التوراة (الكتاب الأول ، المكاويين 9 ، 1-2) إلى أن سكانها ردوا في القرن الثاني قبل الميلاد جنود ملك إنطاكية ابييفان الرابع على أعقابهم وقد أدميت وجوهم. وفي القرن الأول للميلاد ظهرت مدينة اصطخر على أنقاض بيرسيبول إذ أقيمت من حجارة المدينة القديمة ، وكانت سنة 632 عاصمة الساسانيين التي هدمها الخليفة عمر بعد فترة قصيرة. ثم بدأ ازدهار مدينة شيراز الواقعة على مسافة قريبة يحول دون بعث مدينة اصطخر فلم تعد ضواحي تلك المدينة تشتهر خلال العصور التالية بغير بساتينها وكرومها العالية الإنتاجية. وماذا لنا في نهاية المطاف أن نقول بالنسبة لذلك الزمن الذي كان الكابيتول الروماني فيه «جبالاً للماعز» وكان الفوروم «مرعى للبقرة».

وعلى الشاطئ المقابل من نهر بولفار ، في الجهة المواجهة تقريباً لقصور داريوس وكسيركس كانت تطل صخرة نقشي رستم الشديدة الانحدار. ويعني اسمها «صورة رستم» وهو بطل الفرس القومي فقد كان أهل تلك المنطقة يمدون صور الملوك الساسانيين المنقوشة هناك نقشاً لرستم. وفي مكان شاهق الارتفاع نحتت في الصخور قبور الملوك الأخمينيين الأربعة. داريوس الأول ، كسيركس ، ارتاكسيركس الأول وداريوس الثاني. وغير بعيد جداً ، أي بمسافة تقارب الخمسين كيلو متراً من الشمال الشرقي من بيرسيبول ، بقي الأثر الخالد الثالث من العهد الأمجد في تاريخ إيران القديم - وهو ضريح كبير الأعظم (قوراش الثاني

559-529م) وكان ينتصب في مركز مدينة باسارغاد القديمة التي بناها وهي الآن مورغاب (كانت هناك حديقة كبيرة في ذلك الوقت). وكان قفبر أم سليمان، حسب ما أسمته الرواية الشعبية، يقوم على قاعدة تتكون من سبعة صفوف من الألواح المرمرية القوية نضدت واحداً فوق الآخر أما الأفاريز والغطاء فصنعت من ألواح صقلت بمناية فائقة ورتبت بإحكام شديد ودقة متناهية: فالبناء ثابت لا ينهار على الرغم من أن الرزّات التي تدعّمه قد اقتلعت من جذورها وانتهت منذ أمد بعيد. ويقوم مبنى الضريح بإخفاء القبر الذي يفضي إليه مدخل ضيق جداً.

وهكذا فإن المجموعة القليلة العدد من الشواهد الخرساء والبالغة الروعة والمتركة فوق مساحة صغيرة نسبياً ظلت تتحدث إلى العالم عبر القرون الطويلة عن أمجاد الدولة الفارسية الماضية وعظمتها.

كانت تلك الشواهد أول ما اجتذب أنظار الرحالة الأوروبيين وانتباههم. والحق أن هؤلاء تمكنوا بالكاد من استطاق تلك الشواهد الصخرية بشيء حول العظمة الماضية لفارس يزيد عما تحصل عليه سابقوهم الجغرافيون العرب. أما التأويلات والشروح التي كانوا يتوسلون بها لتفسير أصول هذه الآثار فكانت تتشابه في كثير من وجوهها مع أوام الحجاج المسيحيين الذين كانوا يواجهون آثار التاريخ المصري القديم.

فيوسافات باريارو (وقد وجهته جمهورية البندقية سنة 1472 إلى إيران) زار تختي جمشيد ومورغاب ونقشي رستم وحاول أن يتفهم ما رآه. إلا أنه فسّر الشخصية المركزية في لوحات نقشي رستم العظيمة الناهرة، التي تمثل الملك الساساني شاپور الأول (241-272) وقد اسر الإمبراطور الروماني فاليريان البالغ السبعين من العمر (سنة 260)، على أنها صورة شمشون التوراتية. ولم تنشر مذكرات باريارو عن رحلته إلا عام 1543 وهكذا فإن عالم العلم لم يسمع باللوحات العظيمة الناهرة إلا بعد تأخر طويل، أما تصويب ذلك التفسير الخاطئ الذي وضعه باريارو لها فكان أمراً لا سبيل حتى لمجرد التفكيكه.

وبعد نصف قرن من الزمن وقف البرتغالي انطونيو دي غوفيا أمام خرائب بيرسيبول وكان أول سفير لفيليب الثالث، ملك إسبانيا والبرتغال، إلى بلاط الشاه عباس الأول. فقرر أن مدينة شيراز واقعة مكان تختي جمشيد، وهو ما لا يمدو الحقيقة كثيراً. وفي مذكرات الطريق التي نشرت في لشبونة سنة 1611 تظهر أول إشارة جديّة إلى الكتابة الإسفينية ففي «أخبار الحروب» يشير انطونيو دي غوفيا بصورة مباشرة إلى أن «هذه الكتابة تختلف عن كتابات المعاصرين من الفرس والعرب والأرمن واليهود».

ويعد دبلوماسي البندقية والبرتغال توجه جون كارترايت الإنكليزي، الطالب الأسبق في أوكسفورد، وكان قد أرسل بمهمة تجارية إلى بلاط الشاه عباس الكبير (1588-1629) الذي بلغت فارس في عهده ذروة قوتها وازدهارها فحاول التجار الإنكليز أن يجنوا الفوائد من السماح لهم بالتجارة مع تلك البلاد. وفي رحلات واعظه يشير كارترايت بإيجاز إلى الآثار الفارسية القديمة ويكتفي بالقول بأن شيراز واقعة مكان بيرسيبول القديمة.

وتمكن دون غارسيا دي سيلفا فيفيروا، الابن الثاني لشبه الجزيرة الأيبيرية، الذي زار إيران، من تقديم معلومات أكثر إفاضة. فقد سبق له أن قرأ ديودور؛ وهو يقدم وصفاً رائعاً لخرائب تختي جمشيد ويدها بقايا قصر بيرسيبول، أما الأسلوب المعماري للقصر فيضمه في موقف حرج إذ يعجز عن إقحامه في المخططات اليونانية المعروفة بالنسبة له. وقد أشار بصدق إلى أن: «الرموز المكتوبة جميعاً مثلثة الشكل ولكن متطاولة وشكلها يذكّر بالهرم والمسلة الصغيرة التي رسمتها على الهامش فلا يمكن تمييز إحداها عن الآخر إلا بطريقة توضعه». وقد استقدم دون غارسيا معه رسماً وطلب منه نسخ سطر كامل من الكتابة الأسفينية لكن تلك النسخة لم تر النور.

أما الشخص الذي ندين له بأول إصدار للكتابة الإسفينية فإنه اتجه سنة 1614 بالطريق البحري نحو المشرق كحاج. وكان على معرفة جيدة بالمسالك البحرية للعالم المسيحي حيث سبق له قبل ذلك بثلاث سنوات أن شارك في حرب الأسطول الأسباني ضد دول الشمال الأفريقي. وتوجه الطريق إلى بلاد الحج الشرقية ببيترو ديلا فالي عبر تركيا ومصر إلى القدس ثم تمضي به عبر سوريا وإيران إلى بلاد الهند، حتى إذا عاد سنة 1626 بثلة من الشرقيين، صارخة الألوان، كانت جموع المتفرجين بانتظاره، وسرعان ما تسلّم منصب الكاتب المبجل للبابا أوربان الثامن.

وكان بيترو ديلا فالي خلال سني الترحال الطويلة قد أرسل إلى أصدقائه عدداً كبيراً من الرسائل المطولة عبر فيها عن مشاهداته وأحاسيسه، ثم نشر تلك الرسائل فيما بعد في كتاب مستقل لا يزال حتى يومنا هذا يقرأ بكثير من المتعة لما يتضمنه من حيوية في السرد. ولم يبخل بيترو بوقته لزيارة آثار العديد من المدائن البائدة ومن بينها بابل القديمة، وحمل في حقائب العودة قطعاً من الآجر المشوي وغير المشوي التقطها من بين الخرائب. أما بقايا قصر بيرسيبول فعدّها خرائب أحد المعابد وتحرى المدونات المنقوشة فوقها بكثير من الفضول وخاصة منها تلك التي تجلّ جداراً كاملاً من أعلاه حتى أسفله والموجودة غير بعيد عن الأسد المنحوت تحت الأعمدة، ويقدم وصفاً لها في رسالته الخامسة عشرة.



الشكّل -36- رموز إسفينية نشرها بيترو ديلا فالي

كانت اللغة والكتابة غير معروفتين بالنسبة له على الإطلاق. فهو يحدد أحجام الرموز ويفترض أنها تكتب بصورة ينفصل أحدها عن الآخر وأنها ليست مترابطة في كلمات. وفي كثير من الأحيان تتردد مجموعة من خمسة أحرف فينسخها، وبذلك يتكوّن أول نص إسفيني فنر لأوروبا أن تراء. وقد افترض بيترو أن المدونة تقرأ من اليسار إلى اليمين، ودلّت محاولاته المتكررة في استنباط نتائج محددة من تكرار الرموز المنفصلة على أنه كان يتمتع - على غير وعي منه بالطبع - بمنهج تجميعي في قراءة الرموز.

لكن الرموز الخمسة التي لم تكن معروفة بالنسبة لأي إنسان، والتي امتنعت قراءتها على من اكتشفها، لم تكن تقدم شيئاً، ولم تخالفها في ذلك تلك الأسطر الإسفينية الثلاثة التي احتواها وصف رحلة السير توماس هيربرت المنشور في لندن سنة 1634 (ويشير هيربرت أكثر من مرة إلى أن الآثار تتعرض للتخريب من قبل السكان المحليين الذين يأخذون منها مواد البناء) وهناك القليل الذي يمكن الإفادة منه في وصف الرحلة إلى بلاد الموسكوف وفارس (شليزفيغ، 1647) العمل الذي قدّمته تلك البعثة العجيبة، الباهظة التكاليف، التي كان قد أنفذها الدوق فريدريك الثالث هولشتاين الغوتوربي، عبر موسكو واستراخان، إلى إيران وقد دخلت التراث الأدبي الألماني بفضل اشتغالها على كل من باول فليمغ، وهو تلميذ اوبيتس وآدم اولياري، أمين مكتبة الدوق.

أما الإسهام الحقيقي في دراسة الإسفينية فاستأثرت به رحلات الفرنسي جان شاردان (1643-1713) اللاتي قام بها خلال سني 1661-1681. - حقاً إن شاردان لم يكن دبلوماسياً ولا كان عالم آثار أو مبشراً فلم يكن إلا ابن صائغ أرسله والده إلى الهند الغربية لشراء المجوهرات. وكان الشيخ شاردان يقدر إمكانية ابنه حق التقدير إذ أنفذه إلى نهاية العالم وهو في الثانية والعشرين من عمره. فبعد أن خاض الفتى سلسلة من المغامرات وبعد إقامة في أصفهان دامت ست سنوات نجح في الوصول إلى منصب المورّد التجاري للبلاط الملكي، ثم هو يقوم برحلة إلى إيران والهند بين 1671-1681 ويستقر بعد ذلك في لندن حيث رسمه شارل الثاني فارساً، وأخيراً يتجه إلى هولندا كسفير مفوض للتاج البريطاني وعميل لشركة الهند

الشرقية، وهي الشركة التي يرتبط نشاطها ارتباطاً وثيقاً بتاريخ فك رموز الأسفينية. أما عملها الثاني فكان س. فلاوير الذي كان قد نشر في لندن سنة 1694 نسخة لسطرين من سطور الإسفينية.

وفي «رحلات» شاردان التي نشرت عام 1711 تظهر أول الرسوم الدقيقة التي وضعها الرسام غريلو وهي تبين توضع القصور الأخمينية وأبعادها. ويقدم شاردان فضلاً عن ذلك وصفاً صحيحاً لرسوم نقشي رستم ويشير إلى أن الإسفينيات ليست رهوشاً تزيينية بل كتابة. وبعد عام يصدر في ليمفو (وستفاليا) كتاب «*Amoenitates Exoticae*» («روائع البلدان الغريبة») من تأليف انجلبرت كامبفير - «مخترع» الأسفينية وبكلمة أدق، أول إنسان أسمى تلك الكتابة بالإسفينية («*Littera cuneatae*»)⁽¹⁾.

كان طريق حياة ذلك الإنسان غريباً ومتلوناً. فقد كان الابن الجدير لليمفو، تلك المدينة الفانزية السابقة والتي كانت بضائمتها تصل حتى السويد وليفونيا وروسيا. حقاً، في الوقت الذي كان الصغير يتزعرع في منزل أبيه، راعي الكنيسة يوهان كيمبير (وقد بدل الابن كنيته وفقاً للفظ الألماني الشمالي) كان قد بقي القليل فقط من أنفاس الماضي للعالم الكبير، والتي كانت في يوم من الأيام تملأ المدينة الفانزية بالحياة. أما طفولة الصغير التواق إلى المعرفة فلم تكن بهيجة بما فيه الكفاية. ففي تلك البلاد، التي اشتهر سكانها دوماً بوفرة أعداد العرافات وقارئات البخت، كان الراعي كيمبير خادماً أميناً لمحاكم التفتيش التي كانت تعمل على اصطلياد الساحرات. وهذا ما يزيد من اندهاشنا لذلك التطلع الشديد الذي كان الابن يبحث به عن منفذ يخرج به من هذا العالم المحدود، ذلك المنفذ الذي انتهى به فيما بعد إلى الدوران حول العالم بالمعنى الحرفي للكلمة. فهو يخرج من الجمنازيوم اللاتيني

1- ينشر سفيند اوغي باليس عالم الأنوريات في كوبنهاغن في كتابه (كوبنهاغن، 1956، ص 63) *The Antiquity of Iraq*، إلى ان كتاب المستشرق الإنكليزي توماس هايد «*Historia religionis veterum Persarum*» الصادر عام 1700 ينص على ان الكتابة الفارسية تخذ: «*dactuli pyramidales seu cunei forms*» (رموزاً هرمية أو إسفينية) ويكتب باليس انه، بناء على ذلك، يكون هايد قد تحدث عن الأسفينيات قبل عشرين عاماً من ظهور كتاب كامبفير. ويبيدي استنباهه من أن جميع الأدبيات المتخصصة تسجل شرف اختراع هذا المصطلح لكامبفير. وعلى الرغم من هذا فإن الملف يقف هنا إلى جانب وجهة النظر الدارجة، أولاً لأن هايد يطرح مصطلح «الأسفينية» كمجرد مقابل لمصطلح «الهرمية»، ثانياً لأن تعبير كامبفير «*Littera cuneatae*» لافي صدى أوسع. وهو ما يؤكد تواريخ قراءة الرموز الإسفينية بمجموعه ورغم هذا فإننا لا نهدف بالطبع إلى مناقشة أولوية هايد.

في مدينته لبحث عن المعرفة في هولنده ولونبورغ ولوييك ثم يصل إلى دانترينغ فتورن فراكوف ففرصوفيا ، وأخيراً يدرس العلوم الطبيعية والطب لمدة أربع سنوات في كينيفسبيرغ.

ما السبب الذي دفعه للسفر إلى السويد ، حيث تحصل على عمل أمين سر في ستوكهولم بفضل علاقته الوثيقة بآل بوفيندورف. لعله الرغبة في إبهار العالم والتعاطش إلى المعرفة. واتفق أن الملك الشاب كارل الحادي عشر كان في ذلك الوقت يكرس كل جهوده للارتفاع بمستوى بلاده وقوتها. ومن أجل تحقيق ذلك وضع سياسة تجارية بعيدة المدى ، وحاول عقد الصلات التجارية الخارجية. فنظم سفارة كان عليها أن تتجه عبر روسيا إلى إيران من أجل أن تقيم هناك صلات التعامل المتبادل مع تجار المشرق. وفي العشرين من آذار (مارس) سنة 1683 انطلقت السفارة (في ذلك العام كان الشرق قد نظم حملة على أوروبا ، وانكسرت الجيوش التوركية أمام قلعة الغرب - فيينا) وانطلق انجلبيرت كيمفير مع السفارة بصفة طبيب وأمين سر. ومن خلال فنلندة وصل السويديون إلى روسيا حيث أقيم في القصر حفل استقبال على شرفهم. إلا أن ما سنتوقف عند وصفه لن يكون لقاء كامفير بأحد القياصرة سناً ، من سيفدو بطرس الأكبر فيما بعد ، بل اللوحة غير العادية التي أذهلت الرحالة الويستفالي قبل أن تقع أنظاره على المدونة الأسفينية. فهو أول أوروبي ندين له بوصف حقول النفط بالقرب من باكو حيث شهد انبثاق الغاز الملتهب من الأرض:

«تابنا المسير وبعد نصف ساعة وقفنا على قطعة ساخنة من الأرض.. وكانت مغطاة بالحصباء والرماد. ومن الشقوق الكثيرة العدد تندفع السنة عجيبة من لب خارق الجمال. ومن بعض الثقوب كان اللهب يندفع مصحوباً بحفيف يثير الخوف في قلوب الناظرين. أما ما يتقد منها في الثقوب بصورة هادئة فكان يسمح لأي راغب بالدنو منه ، وكانت ثقوب أخرى تطلق سحبا من دخان أو من أبخرة تكاد لا ترى إلا أنها مشبعة برائحة النفط.

كان ذلك كله يحدث في مساحة طولها 90 خطوة وعرضها 60 خطوة. أما الشقوق فكانت ضيقة إلى حد مدهش ، لا يزيد عرضها عن قدم واحد. و بعضها أضيق من ذلك ولها شكل نصف دائري بينما كان غيرها يمتد في خطوط طولانية متكرسة. وكان هناك اثنان من الهنود عبدة النار. من الغرياء من قبيلة البارث ، يجلسان صامتين داخل حضرتين نصف دائريتين أقامهما بنفسيهما. وكانا غارقين في تأمل تلك النار المنطلقة التي يقدسونها كعمود خالد»⁽¹⁾.

1- K. Meier - Lemgo , Engelbert kampfer , Stuttgart , 1937 , S. 26.

وفي نهاية آذار (مارس) سنة 1684 وصلت البعثة إلى أصفهان. ومضت شهور قبل أن يحدّد منجّم القصر حلول الساعة السعيدة الطالع التي يمكن للشاه أن يستقبلهم فيها. لكن ذلك الوقت لم يذهب عبثاً بالنسبة لكامبفير، فقد راح يتلقى دروساً في اللغة الفارسية على يدي كاهن الكهوشيين رافايل دي مان الطاعن في السن، والذي كان يقوم على رعاية طائفة المسيحيين الأرمن، وكانت وظيفته بوصفه مترجماً تضمن له احتراماً كبيراً في القصر.

ويعد أن تسلح كامبفير ببعض المعارف في هذا الميدان غادر السفارة السويدية ودخل في خدمة شركة الهند الشرقية فأوقدته من أصفهان إلى شيراز وكان الطريق يمر عبر بيرسيبول. «... وعند فجر اليوم التالي وصلنا إلى الأثر البديع الثاني - وهو خرائب قصر داريوس المسمى اصطخر أو تشيخيل مینار أي «الأريمین منارة»⁽¹⁾. ويتفحص اينجيلبيرت كامبفير المكان ويجري قياساته ورسومه. وكان أكثر ما يشد انتباهه هو المدونات الأسفينية التي نسخها نيبور فيما بعد. ويقوم كامبفير أيضاً بالنسخ وإن كان ذلك مقصوراً على منقوشة واحدة وكانت تقع في مكان مرتفع إلى حد ما. كانت الشمس تبهر عينيه وقد أشرف الوقت على الانتهاء بينما بقي الكثير مما تجب مشاهدته: «فلو أراد شخص أن ينسخ جميع هذه المنحوتات والنقوش والزخارف بصورة دقيقة لما كفاه شهران من الزمن. وسأشرح بالتفصيل كل ما قمت به خلال تلك الأيام الثلاثة التي لم أبق فيها لنفسي فسحة حتى لتناول الطعام»⁽²⁾. وقد أنجز وعده في كتابه: «*Amoenitates Exoticae*» أما المفامرات الشيقة التي يتحدث عنها في ذلك الكتاب فإنها أكثر غرابة من مفامرات الكثيرين من رحالي عصرنا. فبلاد العرب والهند وسيام واليابان بقيت مجرد مراحل في طريقه قبل أن يعود أدراجه إلى أمستردام بعد عشر سنوات وقد أوهنته الأسقام والأمراض.

جمع كامبفير مدونة مسماة بكاملها على الرغم من أنه لم يعرف بالطبع أنها مدونة بابلية. وأخطأ إذ ظن بأن رموزها إيديوغرامات. لكن خطأه يمكن اغتفاره. وكان هو أول من نشر مدونة طويلة وأول من طرح التسمية التي صارت الرموز الشهيرة تحملها بعد ذلك وهي تدخل حوزة العلم الأوروبي.

وفي سنة 1714 نشر الهولندي كورنيليس دي بروين، «رحلاته» «*Reizen*» في أمستردام، وكان قد زار الخرائب سنة 1704. ووجد لديه متسعاً كافياً من الوقت والمقدرة

1- Ibid , S. 67.

2- Ibid ..

لأجل استساح بعض النصوص. واعتمد على مدونة منقوشة في بهو أحد النوافذ فبرهن على أن الإسفينات لا تقراً عمودياً كما كان يظن الكثيرون بل بطريقة أفقية.

وهكذا فإن أمثال كامبفير ودي بروين وضعوا الأساس لفك الرموز. بل بكلمة أدق وضعوا أساس الأسس، فأعمالهم، التي كانت تظهر واحدة تلو الأخرى، أثارت اهتمام معاصريهم. وقد لفتت نسخ كامبفير ودي بروين أنظار محبي المعرفة إلى تجريب حظوظهم في دراسة الرموز المعجبية.

وبالرغم من الحروب الطويلة الأمد فإن الكثير من الدول كان يقدم حماية كبرى للملوم والفنون. ويمكن أن نطلق هذا بصفة خاصة على العهد السلمي الطويل الأمد للملك فريدريك الخامس في الدانمارك. فقد كان ذلك الماهل المتقور، الذي اشتهر في ألمانيا برعايته لكلويشتوك⁽¹⁾، يولي من انتباهه الكثير لتطوير الصناعات والتجارة كما أن الشركة الدانمركية للتجارة العامة، التي كانت قد أنشئت قبيل ذلك، أخذت في عهده ترسل سفنها إلى البحر المتوسط وإفريقيا الغربية والهند وجزر الهند الغربية. ومما لا شك فيه أن الحكومة، التي جهزت عام 1761 بعثة لدراسة بلاد العرب وفارس والمناطق المتاخمة كانت تتطلق قبل كل شيء من أهداف تجارية. وكان أبرز مشاركين في تلك الحملة - كارستن نيبور 1733-1815 وهو ابن أحد رجال الدين في هولشتاين، وأب المؤرخ الألماني الأشهر برتولد غيورغ نيبور. ذلك الشاب، الباحث على الأمل، ابن لودينغفورت، درس الرياضيات في غيتينغن، وهو ما مكنه من أن يصبح سنة 1760 ضابطاً مهندساً، وقد سبق له أن انتبه إلى أعمال بروين وكامبفير منذ سني دراسته في غيتينغن، وكان من ذلك العالم الخيالي الجديد أن أثار اهتمامه ببلاد الشرق - فبدأ بدراسة اللغة العربية. وهكذا كان قد انتهى إعداده في ميدانين من ميادين العلم عندما توجه سنة 1761 إلى بلاد الشرق برفقة البعثة الدانمركية.

إلا أن النجاح لم يحالف ذلك المشروع الذي عقدت عليه الآمال الكبرى. فقد أبحر الرخالون بادئ الأمر إلى مصر وكان عليهم أن يتوقفوا شهوراً طويلة في القاهرة. وقد أشرنا في الفصل المتعلق بالكتابة المصرية إلى كيف استطاع الباحث الهولشتايني أن يفيد من انتظاره غير الطوعي وكيف أخذ يدرس البيروغليفيات بصورة جذرية وإلى تلك الأفكار الرائعة التي خرج بها حول ماهية تلك الكتابة.

1- كلويشتوك (Klopstock) فريدريك غوتليب (1724-1803) كاتب وشاعر ألماني وقف ضد شعر البلاط والكلاسيكية الجامدة ونادى بالثقافة القومية الأصلية من أشهر أعماله ثلاثية درامية بعنوانين: «محرقة غيرمان، غيرمان والأمراء، مصرع غيرمان» وقصيدة «ميسباد» ترك تأثيراً كبيراً في جماعة «العاصفة والانقطاع» التي وجهت الشعر الألماني وجهة جديدة فيما بعد. (المترجم).

وأخيراً تهيأت الفرصة لمواصلة المسير. فقطعوا سوريا وفلسطين وجزيرة العرب ثم اتجهوا شطر المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة، تلك المناطق غير المضياهاة والموصدة الأبواب في وجه الأجانب، فوصلوا صنعاء وكان ذلك نهاية الطريق بالنسبة لبعضهم، فقد تعرضت الحملة لكوارث كبرى بسبب الشدائد ونتيجة للحرمان المنقطع النظير ولعدوانية السكان المحليين. وبينما كان نيبور على هوى شعرة من الموت حاول أن يتكيف مع عادات المنطقة - بأن يصبح ابن الشرق الحقيقي فيأكل ويلبس كالسكان المحليين. ولم يخرج من جحيم شبه الجزيرة حياً سوى طبيب الرحلة ونيبور. وعندما استقر بهما المقام أخيراً فوق السفينة واتجها إلى بومباي تولى الطبيب أيضاً فلم يهبط إلى اليابسة في بومباي أحد غير نيبور. فكان العضو الحي الوحيد المتبقي من الرحلة التي عقدت عليها كل تلك الآمال.

لكن ذلك لم يوهن من عزيمة كارستن نيبور. فما هو إلا عام واحد حتى شد رحال الأسفار من جديد فقطع ما بين النهرين وفارس وفي الأيام الأولى من آذار (مارس) وقف يتأمل خرائب بيرسيبول ومثل أمام «عرش جمشيد».

وتمضي أسابيع ثلاثة والخرائب لا تطلقه من بين أحضانها فيمضي في وضع رسومه ومخططاته وينسخ المدونات بهمة لا تعرف الكلال حتى تتجاوز نتائج أعماله كل ما قام به سابقوه.

قام العلماء بانتقاد أعمال نيبور أكثر من مرة فيما بعد على النواقص الطفيفة وعلى ما تضمنته من تجاوزات للدقة في بعض الأحيان. بيد أن أبحاثه بالذات كانت هي ما لقي بالضوء على الكثير مما بقي عسيراً مستعصياً على الفهم بعد كامبفيرودي بروين. أما النسخ التي وضعها للمدونات فتأسر النظر بخطوطها الجريئة والواضحة والتي تلمس فيها يد الخبير الوائمة. وكان ظهور كتاب: «أوصاف رحلة إلى بلاد العرب والمناطق المجاورة بين 1774-1778» (وهو الكتاب الذي كان بين يدي نابليون وهو يخطط لعلماء الحملة المصرية، كما رافقه في وادي النيل) إشارة إلى أن عالم العلم قد تسلم لأول مرة نسخاً دقيقة لكثير من مدونات داريوس وكسيركس المهمة، نسخاً لمبت دوراً لقي الاعتراف لدى تحقيق العلماء لنجاحاتهم الباكرة. ويتضمن الكتاب أيضاً استنتاجات ذكية ومدروسة بعناية، توصل نيبور إليها بنتيجة أعماله في المدونات.

وكان أول من لاحظ بأن المدونات المتبقية لم تكتب بنمط واحد بل بثلاثة أنماط من الكتابة (وكان لا يزال سراً بالنسبة له أن تلك المدونات تتحدث بلغات ثلاث عن مضمون واحد) وقد أدرك أن الرموز القليلة المدد نسبياً والأميل إلى البساطة في أحد تلك الأنماط

الكتابية تمثل - خلافاً للكتابتين الأخيرين - حروفاً أبجدية. وأصبحت ملاحظة نيبور هذه نقطة انطلاق بالنسبة للعمل المتبل في حل رموز الإسفينية. وقد استنتج من ملاحظته الدقيقة لخصائص الكتابة إن من الضروري قراءتها من اليسار نحو اليمين بل وحدد أبجدية تتضمن 42 حرفاً. واتضح فيما بعد أن 32 منها حددت من قبله بصورة صحيحة بينما أخطأ في تحديد التسعة الأخرى. أما الرمز العاشر فكان ما يسمى بالفواصل بين الكلمات. ولا بد من الاعتراف بأن ذلك كان محصولاً وظيفياً إذا ما وضعنا في الحسبان الكوارث التي نزلت بالرحلة وأن دراسة الإسفينية لم تكن واحداً من أهدافها.

كانت الرجولة والإصرار من السمات المميزة أيضاً للشاب الباريسي أبراهام غياتسينت انكيتيل - ديويرون (1731-1805). وقد دخل إلى عالم دراسة الإسفينيات قادماً من عالم اللاهوت فليس من قبيل المصادفة أن يكون هو الذي أرسى الأسس فيما بعد لدراسة المزدكية في أوروبا. فعلم اللاهوت الذي انصرف لدراسته وهو في باريس واوكسير واميرسفورت انتهى به، كما انتهى بالكثيرين من سواه، إلى اللغات الشرقية. ولما كانت باريس مركز الدراسات الشرقية في أوروبا في ذلك الوقت فقد عاد انكيتيل - ديويرون إليها لكي يستتير بدراسة اللغات الشرقية لكن ما تلقاه هناك لم يرضي طموحه. ولما كان واقعاً تحت تأثير الأفكار الرومانسية التي كانت واسعة الانتشار آنذاك فقد كان أول ما يطلبه هو قراءة الكتب المقدسة للبارثيين وهم آخر من عاش في الهند من أتباع زرادشت (وقد سبق لانجيلبيرت كامبير أن أشار إلى أنه شاهد في باكو اثنين منهم مستترفين في تأمل تمبدي للنار المقدسة).

لم تكن بلاد الهند أمراً مستحيل المنال بالنسبة لذلك الباريسي الفتى الناشط. فقد كانت بلاده تطمح منذ زمن بعيد للاستحواذ على المستعمرات هناك. لكن القضية لم تكن قضية رحلة لجرد المتعة. وهكذا فقد سجل الشاب نفسه جندياً في السفينة المتجهة إلى الهند وكان من حماسه وتصميمه أن جعل الحكومة تصرف له المساعدة، وقد بدأ قبل كل شيء بدراسة اللغة الفارسية الحديثة في بونديشيري، وهي قلعة فرنسية قديمة على الساحل الجنوبي - الشرقي للهند. ومن هناك اتجه شمالاً نحو البنغال (واقترنت رحلته تلك بكثير من المخاطر فالحرب الإنكليزية - الفرنسية كانت تشمل كامل تراب الهند في ذلك الوقت)، ثم عبر البلاد بطولها متجهاً شطر الشاطئ الغربي إلى سورات التي كانت تابعة للفرنسيين في يوم من الأيام. وقد توصل إليها لا من أجل أن يذرف الدموع على رفات السيطرة الاستعمارية الفرنسية بالرغم أن رغبة شديدة اجتاحت لزيارة المستعمرة لكنها

كانت مستعمرة من نوع خاص يعيش فيها آخر أتباع الديانة الفارسية القديمة - البارثيون - عبدة النار.

وساعدت الجاذبية الشخصية لذلك الفرنسي المتحمس في التعرف على كهنتهم - الدستوريين كما أنه يحتل مكانه في قلوب الزرادشتيين الذين كان بمقدورهم من تلقاء أنفسهم قراءة كتبهم المقدسة باللغة الفارسية الحديثة. وكان هدفه - الزندافستا، وهو كتاب البارثيين المقدس وكل ما تبقى من الكتب الدينية الفارسية القديمة التي عانت من سيطرة اليونان والبارثيين وانتشار الإسلام، وقد أنفذ البارثيون - عبدة النار كتاب الزندافستا وأرسلوه إلى الهند. ولما سقطت بونديشيري سنة 1761 في أيدي الإنكليز عاد انكيتيل ديويبيرون إلى أوروبا بعد سبع سنوات من الإقامة في الهند يحمل معه ليس فقط كتاب الأوستا الذي أهداه إليه البارثيون في لفته الأصلية (التي لم تكن مفهومة بالنسبة له أو لهم)، بل وترجمته إلى اللغة الفارسية الحديثة والتي أملاها عليه الدستور - داراب.

بالتبع لم تكن تلك كتابة إسفينية بل وإن الأصل لم يكن مكتوباً بها. لكن ترجمة الأوستا التي قام بها انكيتيل - ديويبيرون كانت عوناً مهماً لأولئك الذين قاموا فيما بعد بفك رموز الأسفينية: فمن تلك الترجمة عرفت الصيغ الفارسية القديمة لأسماء الأعلام التاريخية والتي لم تكن حتى ذلك الوقت معروفة بالنسبة للعلماء إلا من خلال لفظها اليوناني (الذي شوها تشويهاً فظاً كمادته).

وعلى هذا كانت المقدمات المهمة لقراءة الرموز قد صيغت - من جهتي الكتابة واللغة. وفي ذلك الوقت من عام 1762 (عندما كان انكيتيل - ديويبيرون قد عاد إلى باريس بفنيمته المكونة من 180 مخطوطاً) كان اللورد كايلو قد وضع في يد العلم المفتاح الذي كان من شأنه، في ظروف أخرى، أن يشق على الفور، الطريق إلى الإسفينية. فقد نشر مدونة على مزهرية من الألباستر كانت تعود للملك كسيركس ولم تكن مكتوبة بلفتين أو ثلاث لغات فقط بل بأربع لغات هي الفارسية القديمة والعميلية والبابلية (وستحدث عن هاتين اللغتين التاليتين في الفصل القادم) وبالجمهورية لكن ذلك المفتاح، للأسف، لم يكن يلائم القفل إذ لم يكن أحد قادراً بعد على قراءة المصرية وكان لا بد من مرور 60 عاماً قبل أن تظهر «رسالة شامبليون الشهيرة إلى داسيه».

وصارت الآثار الأخمينية تجتذب نحوها الرحالة الأوروبيين أكثر فأكثر. ومن الضروري أن نذكر هنا المستشرق الإنكليزي السير ويليام أوزلي والذي كان أمين سره جيمس يوستين مورييه أول من تعرف في «قبر أم سليمان» على مدفن كيرش الأعظم، وأيضاً

السير روبرت كبير بورتير الذي نشر مجلدين ضخمين *in quarto* (بقطع الرُبع) تتضمنان رسوماً تصور الخرائب. لكن علينا أن نتحدث قبل كل شيء عن الطفل «الشرقي» النابغة وهو الإنكليزي كلاودي جيمس ريتش الذي كان قد شغل في صباه مهمات القنصل الإنكليزي الموض في بغداد. فقد حصده الكوليرا في شيراز سنة 1821 وتوفي في «وقت باكر جداً» مثلما توفي شامبليون بعده بعشرين سنة. وقد ترك ريتش أثراً عميقاً في تاريخ الأثرية في الشرق القديم. فقد كان مؤمناً بقارئ الرموز الألماني غروتيفيند وبصورة دورية كان يرسل إليه نسخ المدونات التي يتم اكتشافها، ويمكن أن نلاحق تأثير ريتش حتى بعد عشرين سنة من وفاته: فالجلدان اللذان نشرنا في لندن سنة 1836 من تأليفه (وقد خصصنا لزيارته لكرديستان) بالإضافة إلى مذكراته ونسخه التي نشرت سنة 1839، وتركت أثراً عميقاً في نفوس المستشرقين. وعلاوة على ذلك كانت أعماله تلك هي التي دفعت الحكومة الفرنسية على أن تفتح نيابة قنصلية في الموصل وأن ترسل إليها أميل بوتن، مكتشف نينوى. وتحت تأثير أعمال ريتش اتخذ الإنكليزي الشاب أوستين هنري لبيارد، مكتشف نمرود فيما بعد، قراراً بالتقدم إلى السفارة الإنكليزية في بورت بطلب تقديم دعمها للقيام بالتحريات الجديدة. غير أن الحديث عن ذلك سيلي فيما بعد.

إننا لم نقم بعد إلا بإشارة عرضية إلى هذه المآثر في علم الكشوفات الأثرية، بخاصة وأنه كان قد تم قبل إنجازها شيء لم يكونوا قد انتبهوا إليه أو لم يشاروا الانتباه إليه. ولهذا «الشيء» تاريخ سابق جذاب.

فُتسخ العالم والرحالة كارستين نيبور الذي قام بنشر «وصفه» في الدانمارك كانت قد حظيت بالتنظيم والتقيق في ألمانيا والدانمارك قبل سواهما. وقد لعب دوراً كبيراً في ذلك أولاف خيرهارد تيخسين (1734-1815) الذي ولد في تونبيرن، وتعلم طالباً في غالا، ثم صار هناك معلماً في بيت الأيتام ثم أستاذاً للغات الشرقية في بيوتسوبا وأخيراً أميناً عاماً للمكتبة في روستوك. كان مؤسس علم قراءة الكتابات العربية القديمة، وبالإضافة إلى ذلك كان مهتماً بكافة قضايا الدراسات الشرقية التي كان عصره حافلاً بها، وقد سلفت الإشارة إلى أنه جرب مواهبه في حقل الهروغليفية دون أن يحقق نجاحاً، وذلك في دراسته التي صدرت سنة 1790 في غوتينغن. وفي سنة 1798 تقدم بمقال عن إسفينيات بيرسيبول معتمداً فيها على النتائج التي توصل إليها نيبور. يضاف إلى هذا أن معارفه الفيلولوجية الواسعة وميله إلى علم اللغات المقارن والذي لقي انتشاراً واسماً في ذلك الوقت وعبر عن نفسه في صيغة أشد الفرضيات جرأة، قدمت إليه خدمة سيئة. إذ قام، خلافاً لنيبور، بإعطاء الرموز الإسفينية

أصواتاً على هواه. ومن خلال مقارنة «المضردات» التي تحصل عليها بهذه الطريقة بمضردات اللغات السامية والهندأوروبية الأخرى حاول التوصل إلى معنى من المعاني في مجموعات الرموز المنفصلة تلك.

وازدادت هذه المجموعة الكبرى من الأخطاء عمقاً بسبب ذلك الخطأ التاريخي الكبير: إذ إن تيخسين افترض المدونات تاريخاً لأرشاك، مؤسس أسرة الأرشاكيين المالكة والمملكة البارثية (247ق.م) وبذلك افترض أن النصوص وضعت في فترة تتأخر 300 سنة عما كانت عليه في الحقيقة.

لكننا وسط ذلك الركام الذي جمعه تيخسين في مقاله المكتوب باللاتينية يمكن أن نعثر أيضاً على فصين من الجوهر.

فقد لاحظ ما لم يدركه نيبور - وهو أن لغات مختلفة ثلاثاً قد كتبت بكتابات ثلاث. كما أنه فهم بصورة أدق من نيبور معنى الرمز المنفصل الموضوع بصورة مائلة والذي يتردد بصورة دائمة في النمط الأول من الكتابات (وقد ظهر بين الرموز الخمسة التي كان قد نشرها بيترو ديلاً فالي. انظر (الشكل 36): فهذا الرمز يشير إلى بداية الكلمة ونهايتها أي أنه يفصل بين الكلمات المتوضعة واحدة تلو الأخرى. وهكذا اكتشف تيخسين الرمز الذي نسميه حالياً بـ «الفاصلة بين الكلمات».

وقد توصل إلى هذه النتيجة أيضاً، دون اتصال بتيخسين، الأكاديمي الدانمركي فريدريك كريستيان كارل هنريخ ميونتير (1761-1830) وقد ولد في غوتي ودرس في كوبنهاغن وغيتينغن ثم أصبح أسقفاً في زيلاندة وكتب سنة 1800 «دراسة في النقوش البيروسيبولية». وقام في دراسته هذه، معتمداً على المعطيات التاريخية، بتصويب خطأ تيخسين مشيراً إلى أن المدونات تعود، حسب أقرب الاحتمالات، لا إلى الأرشاكيين البارثانيين بل إلى كبار ملوك فارس القديمة من أسرة الأخمينيين والتي كانت تحكم قبل ذلك بـ 300 سنة. وقد يخطر لنا أن نتساءل: وماذا تعني هذه السنون الـ 300 إذا ما قورنت بالـ 2500 وهي عمر الإسفينات؟ ولكن أهذا كل شيء!

إن مونتير بتحديدته للتاريخ الدقيق توصل إلى نقطتين أساسيتين ما كان لقراءة الرموز من دونهما أن تتقدم خطوة واحدة.

فقبل كل شيء صار بالإمكان القول بأن المدونات قد وضعت باللغة الفارسية القديمة القريبة من لغة الأفستا، وقد عرف بعض الشيء عن هذه اللغة بفضل جهود انكيتيل - ديبيرون وسيلفيستر دي ساسي من بعده.

ثانياً، قدمت نقطة انطلاق جديدة من أجل البحث؛ فقد اتضحت نوعية أسماء الأعلام التي يحتمل وجودها في المدونات ولنتذكر أن الإطار المتضمن اسم بطليموس كان أساساً لقراءة الكتابة البيروغليفية. ويسهل علينا أن نتصور ما كان ليحدث لو أن يونغ وشامبليون انطلقا من تأريخ غير صحيح وبحثاً عن أسماء فراعنة آخرين من حكام مصر كالفرعون بساميتيخ أو نيخو. من يستطيع أن يتكهن بطول الطريق الذي كان لا بد من اجتيازه... أما هنا فقد بدأ الأخصائيون الطريق الصحيح فكان عليهم أن يبحثوا لا عن اسم أرساك كما كان متوقفاً بعد أعمال تيخسين بل... ولكن لن نستبق الأحداث.

ومثلما فعل تيخسين فقد عثر مونثير على الفاصلة بين الكلمات. وتوصل كسابقه إلى القول بوجود ثلاث لغات ولكن حيث كان تيخسين يبحث عن اللغات البارثيانية والميدية والباكترية فإن مونثير افترض بنصيب غير كبير من الصواب، وجود لغات الزند⁽¹⁾ (الفارسية القديمة) والبهلوية (الفارسية الوسطى) والفارسي (الفارسية الحديثة في عهدها المبكر). أما فرضيته الأولى فتشير إلى الاتجاه الصحيح. كما تصح الفرضية الثانية أيضاً وكان تيخسين بدوره قد طرحها، وهي تقول بأن النص الأول كتب بالأبجدية إذا ما انطلقنا من إحصائية الرموز (وهذا ما لاحظته نيبور أيضاً) أما النص الثاني فيتضمن رموزاً مقطعية بينما تدل رموز الثالث على مفردات، ويشير بعد ذلك وبصورة صحيحة إلى احتمال أن يكون مضمون النصوص الثلاثة واحداً ما دامت أمثال هذه المدونات القديمة اللغات معروفة بشكل جيد، وفضلاً عن هذا فإن الكلمة عندما تتردد في النص الأول تتردد في بقية النصوص أيضاً. بيد أن مونثير توقف في طريق مسدود بعد ذلك على الرغم من أنه كان يقف على أسس صحيحة. فبدأ بإحصاء عدد ترددات ظهور بعض الرموز المنفصلة في المدونات التي نشرها نيبور واستتبك من ذلك أن ما يجب أن يتردد بصورة أكثر هو الصائتات؛ وبهذا حدد الرموز التي كانت تعني a, \bar{a}, i, o, u ، وعلاوة على هذا حدس بالمصادفة بقراءة a واحدة وقراءة الساكن b . إلا أن طريقاً آخر يوصل استاذ اللاهوت الكوبنهاغني مباشرة إلى الهدف. فقد لفت نظره، مثلما لفت نظر تيخسين كلمة مؤلفة من سبعة رموز كانت تتردد كثيراً في المدونات. وعدها الاثنان معبرة عن اسم علم من الأعلام. إلا أن مونثير الذي كان عارفاً بألقاب اللغة الفارسية الوسطى يتوصل إلى القول بأن هذه المجموعة تعبر عن لقب، ويحدد ذلك اللقب بصورة صحيحة بكلمة ملك و «ملك الملوك». وكان على الكلمة السابقة أن تعني برأيه اسم ملك، أما المجموعة السباعية الرموز فكانت تبدو كالتالي:

1- تسميها المصطلحات اللغوية الحديثة باللغة الأوستية



الشكل -37- كلمة «ملك» في الإسفينية الفارسية القديمة

إلى اليمين تظهر الفاصلة بين الكلمات. أما في التفصيل اللفظي المعمول به حالياً فتكتب *xš ayaviya*. (اقرأ «خشاياثيا») وهي حقاً تعني «ملك». وهكذا كان مونثير قريباً من هدفه إلا أنه لا يعرف كيف يتفهم الرموز التالية لكلمة «ملك» وهو يبحث فيها بصورة صحيحة عن نهاية متعولة إلا أن الأصوات التي يسمي بها مختلف الرموز المنفصلة كانت خطأ دون استثناء. وهكذا اضطر مونثير إلى كف يده عن مواصلة البحث بعد أن جنحت به قدمه عن سواء السبيل...

وهكذا يأتي غروتيفيند! مجرد معلم بسيط غير ملموظ في الجمنازيوم. إنه لا يملك أي تصور عن الشرفيات لكنه يتمتع بالهام خاص. وفي ذات مرة، وبينما كان في تلة من الشارين، يعقد رهاناً، ثم يمضي فيقرأ رموز الإسفينية، كثيراً ما يعرضون قصته بهذه الصورة. لكن هذا أبعد ما يكون عن الصواب. فقد كان شعار حياة غروتيفيند وشعار نشاطه العلمي أيضاً هو «من الأدنى إلى الأعلى». فذلك الصغير غيورغ فريدريك غروتيفيند، الذي ولد في 6 حزيران سنة 1775 في موندلين على الفيزير، لم يكن ليحلم يوماً بأنه سيحقق الشهرة العالمية. لكن ذلك الطفل بدأ يدرك مبكراً بأن طريقاً واحداً يؤدي إلى «الأعلى» ألا وهو عشق العمل عشقاً صادقاً. وهكذا يظهر، حتى وهو في المدرسة، ما بمقدوره أن يفعل، ثم ينتسب إلى مدرسة المعلمين في ايلفيلد، ويبدأ منذ سنة 1795 بدراسة اللاهوت والفلسفة في جامعة غيتينغن حيث كان العديد من العلماء يدرسون العالم القديم واللغات المقارنة. وقد جذب غروتيفيند إليه الأصدقاء والحماة من ذوي الشأن بدابه الذي لا يعرف الكلل وباستقامته في العمل. ومن بين هؤلاء كان البروفيسور كريستيان غوتلوب هايني، أستاذ الخطابة ورئيس المكتبيين في الجامعة وأمين سر أكاديمية العلوم والمستشار السري للمحاكم. وكان هايني يمتاز بطموحه إلى النفاذ إلى عالم القديم في كل تجليات الروح، وتوضيح ما لم يكن واضحاً من معطيات علم الآثار. هذه الصميمية في البحث تركت أثراً غير يسير في نفس غروتيفيند وكانت تتسق بصورة ممتازة مع ميوله. وكان من بين من شملوه برعايتهم العالم تيخسين، وهو أول من وقف إلى جانبه،

والمؤرخ الشهير هيرمان لودفيغ غيريرين الذي قام في كتابه «أفكار حول سياسة أشهر شعوب العالم القديم وعلاقاتها وتجاريتها» بدعاية لأعمال غروتيفيند التي لم يكن قد تم الاعتراف بها.

و بمساعدة هايني تمكّن غروتيفيند - وكان لا يزال بعد طالباً - من أن يحصل على منصب أستاذ في جمنازيوم غيتينغن، ومن توفير الإمكانات التي أتاحت له فيما بعد التفرغ للأعمال العلمية، فراح يدرس الفيلولوجيا الكلاسيكية بصورة متمقة وهذا ما أعطى ثماره فيما بعد. وقد ظهرت لديه ملامح نبوغ خاص وكان لا يزال صغيراً. فالأمور التي كان المعلم الفتي يشغل بها أوقات فراغه يمكن أن نسميها الآن بـ «رياضة الفكر» فهو يحل الأحاجي وينصرف إلى حل ألغاز الصور وغير ذلك من ألغاز الشعر أيضاً. وينتهي به ذلك دون أن يلاحظ إلى تحقيق اكتشافه في المستقبل.

وفي سنة 1799 تصدّر في غيتينغن دراسة لغروتيفيند تعدّ منسية الآن هي *De pasigraphia sive scriptura universali* وهي تشير بصورة واضحة إلى منطلقاته العامة واتجاهه العلمي، ويخطئ دارسو سيرة حياته ومؤرخوه المعاصرون إذ يهملون ذلك العمل ولا يعيرونه انتباهاً. ففيها نتلمس ملامح قارئ الرموز في المستقبل. فتسمية الدراسة تملن بكل صراحة عن الكتابة «العامة» أو «العالمية» وبذلك يحتل غروتيفيند مكانه بين أولئك الذين يعملون من أجل اختراع «الكتابة الشاملة للجميع» (وقد أحصيناها في الفصل المخصص لمصر) وهو لم ينتقل إلى قراءة رموز الإسفينية بصورة عرضية كما يصورونه عادة.

وتجهل متى بدأ غروتيفيند بقراءة نصوص نيبور. ومن غير الواضح أيضاً متى وقعت في يديه *Memoires sur diverses Antiquités* لسيلفيمتردي ساسي (باريس 1793) والتي نشرت فيها بعض الكتابات بالبهلوية مما عثر عليه في نقشي رستم. وكان الكثير منها قد اكتشف فوق صور الملوك ومنها المنقوشة فوق صورتَي داريوس في نسخ نيبور، ويشيردي ساسي إلى أنها كانت تتضمن أسماء الملوك وآبائهم بالإضافة إلى لقب «ملك الملوك».

ومن الصحيح أن آخر دفعة جمعت غروتيفيند ينصرف إلى حل رموز الإسفينية كانت رهاناً عقده في جلسة بين الأصدقاء. لكن القول بأن اختياره هذا كان نتيجة طيش الشباب وليس تطلماً علمياً يعني تجاهل الإعداد العلمي الجاد لغروتيفيند وميوله الخاصة ودور أساتذته، ويعني آخر تجاهل كل ما يمثل عالمه الروحي وما صاغه بالصورة التي كان عليها. فهم غروتيفيند دراسة دي ساسي بصورة صحيحة، فأمثال تلك النقوش تعود إلى التقليد الإيراني. لكن التقاليد محافظة. أليس من الممكن الافتراض بأن تكون منقوشات

بيرسيبول قد أقيمت وفق ذلك النظام وأنها تحتوي أسماء الملوك ولقب «ملك الملوك»؟ لقد كان ذلك يتفق مع نظرة ميونتير التي كانت معروفة بالنسبة لغروتيفيند. ولكن ما هي المجموعة التي تضم سبعة رموز والتي اعتبرها ميونتير كلمة «ملك»؟ لقد سبق أن عرضت فيما سبق (الشكل 37).

سبعة رموز تعني «ملك»؟ من الضروري دراسة هذه الرموز في نص مترابط وكما كان النص أقصر كان أفضل. ويعود المالم الشاب فيمسك بنص نيبور ويوجد فيه منقوشتين قصيرتين ويتضح له أن بينهما الكثير من أوجه التشابه فهما تسترعيان النظر لذلك السبب (الشكل 38):

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠
٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠
٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠
٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠
٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٥	٨٦	٨٧	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠
٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠
٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠
٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠

الشكل 38- نقشنا داريوس الأول وكسيركس بالفارسية القديمة

وقد لاحظ غروتيفيند بادئ ذي بدء أن المجموعة المكونة من سبعة رموز والتي حددها ميونتير (وقد أشير إليها في المنقوشة العليا بأرقام 2، 4 و 6 وفي السفلى بـ 2، 4 و 7) تظهر في كلتا المنقوشتين مرة أخرى (الرقم 5) وقد أضيفت إليها بضعة رموز أخرى، فهذه الإضافة لا بد أن تكون نهاية «الملوك» المأمولة.

إذا دققنا النظر في النقوش نلاحظ أن الكلمة ذات الرقم 1 من المدونة العليا ترد في

المدونة تحت رقم 6 ولكن أضيف إليها هنا رمز ﴿﴾ الذي يظهر في الكلمة في المرتبة

السادسة. وتظهر الكلمة رقم 1 في المدونة العليا أمام اللقب ومن المحتمل أنها تعني اسماً ملكياً. أما في المدونة السفلى التي أضيف إليها رمز آخر فإن الكلمة رقم 1 تظهر بعد لقب «ملك الملوك». وعلى أساس المدونات الساسانية بالبهلوية ينتهي غروتيفيند إلى القول بأن هذه الصيغة المضافة في المدونة الثانية لا بد وأن تعني حالة الإضافة لكلمة من الكلمات التي تظهر بعدها (بعد كلمة «الملك») كلمة «ابن» وانطلاقاً من هذا فقد فسر المدونة الأولى كما يلي: (عُرِّزَت مفردات الترجمة بأرقام تشير إلى المجموعات المقابلة لها في النص السماري): «ع¹ الملك العظيم² (5)، ملك الملوك³ س⁴ الملك⁷، ابن⁸، الأخميني⁹» (5).

كان ذلك كثيراً وكان قليلاً في الوقت ذاته، وقد أشير بإشارة الاستفهام إلى المعاني المفترضة للكلمات: يضاف إلى هذا أن لقب «ملك الملوك» بقي غير مؤكد. فحل الأحجية لا يمكن أن يتم إلا بقراءة رمزي ع و س.

ولم يوهن ذلك من عزيمة غروتيفيند، فلماذا تلقى علومه الكلاسيكية في حقيقة الحال؟ لقد أمسك بكتاب هيرودوت ووجد لديه الحل. ففي الكتاب السابع من أعماله يصور هيرودوت كيف يحاول أرتابان، عم كسيركس، أن يقنعه بالعدول عن فكرته في شن الحرب على اليونان.

ورد عليه كسيركس بغضب: «أرتابان، أنت شقيق والدي، وهذا ما يقيك شر العقوبة التي نستحقها على كلامك المهين. ومع هذا فإنني سألحق بك العار كحقير وجبان بحرمانك من مرافقتي إلى هيلادا. وستمكث هنا مع النساء، بينما أقوم أنا من دونك بما اعتزمته. ما كنتُ ابنَ داريوس، حفيدَ غيستاسب وابنَ حفيدِ ارساميس وابنَ ابنِ حفيدِ أريامنا وسليلِ تيبسيس، كبير وهمبيز، تيبسيس وأخمينيس إن لم انتقم من الأثينيين»⁽¹⁾.

يا للمجموعة الرائعة من الأسماء الملكية الإيرانية! فأي شيء يستحيل استنتاجه من هذا كله؟ صار غروتيفيند يحاول بعد ذلك أن ينتقي من بين تلك الأسماء المذكورة ما يتفق بصورة أفضل مع الكلمتين الإسفينيتين ع و س. ووضع في اعتباره أمراً ينبثق من مقارنة كلا المدونتين:

فقد أخبرنا ع في المدونة الثانية أنه «ابن س الملك» فمؤلف المنقوشة الأولى س هو إذن ملك وأب لـ ع. لكن مجموعة الرموز في المدونة الأولى والتي تعني «ابن» حسبما هو محتمل (الرقم 9) لم ترد بعد كلمة «الملك»! وهذا يعني أن س على الرغم من أنه كان ملكاً فإنه لم يكن ابن ملك (بخلاف ابنه ع). والاسمان يتخذان طولاً واحداً تقريباً إلا أنهما يبدآن، كما تظهر المدونتان، برمزین مختلفین.

1- Геродот, История в девяти книгах, пер. Ф.Г.Мищенко, М., 1888.

وهكذا أقفلت سلسلة البراهين: فقد كان كل شيء يشير إلى أن ع تعني كسيركس و س - داريوس الأول الذي لم يكن أبوه غيستا سب ملكاً.

لم يتبق الآن إلا معرفة الصيغة الصحيحة لهذه الأسماء أي ضبط نطقهما الإيراني القديم الذي كان يختلف عن اللفظ اليوناني «داریوس» و «كسیركسيس» (ولنتذكر ذلك الخطأ الذي اقترهه يونغ عندما أخذ الصيغة اليونانية «بطوليمائيس» منطلقاً لحل الهيروغليفيات) أما غروتيفيند فطابق الرموز السبعة الأولى من المدونة الأولى مع اسم «دارهيوش» وهي *d-a-r-h-e-u-sh* على حسب ما كان ينطق في العهد القديم وفي الأستا. وطبق ذلك نفسه على اسم كسيركس واسم غيستا سب - الذي كان لا بد وأن يوجد في المجموعة رقم 8 في المدونة الأولى. ونتيجة لذلك توصل غروتيفيند إلى تحديد الدلالة اللفظية لـ 13 حرفاً إسفينياً، وقد اتضح فيما بعد أن أريمة منها فقط كانت تحتاج إلى بعض التدقيق، إذ إن الإيرانية القديمة لم تكن تتطابق كلية مع لغة الأستا. وفي (الشكل 39) يظهر من جديد الشكلا ن اللذان أصبحا يمثلان مرحلة كاملة من تاريخ قراءة رموز الإسفينية. وقد عزز النصان بتحليل لفظي وبترجمة تتفق ومستوى العلم المعاصر.

وعلى هذا يكون غروتيفيند قد توصل في فترة مذهلة في قصرها إلى تهديد السبيل نحو فهم الإسفينية الإيرانية القديمة. وربما كان متوقفاً أن تثير كشفه فرحة العلماء والأوساط الاجتماعية العامة في العالم كله وأن تصبح بعد ذلك بفترة قصيرة ملكاً للجمع (وقد حظيت إنجازات شامبليون بمثل هذا الاستقبال).

١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٥	٨٦	٨٧	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠
----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

(١) (١) $D(a)-a-r (a)-y(a)-a(a)-u-š(a) (2)x(a)-š(a)-y(a)-š(a)-l-y(a)$
 (3) $o(u) -z (a)-r(a)-b(u) (4)š(a)-š(a)-y(a)-š(a)-l-y(a) (5)x(a)-š(a)-y(a)-š(a)-l-y(a)$
 - $l-y(a) -e-a(a)-a(a)-a(a) (6)x(a) š(a)-y(a)-š(a)-l-y(a) (7)x(a)-š(a)-y(a)-š(a)-l-y(a)$
 - $a(a) (8)š(a)-l-l-š(a)-š(a)-z(a)-p(a)-š(a)-y(a)-a(a) (9)š(a)-š(a)-l-y(a)$
 - $a(a)-a(a)-a(a)-l-š(a)-l-y(a) (10)š(a)-š(a)-l-y(a) (11)š(a)-y(a) (12)š(a)-š(a)-a(a) (13)š(a)-š(a)-r(a)-m(a)$
 (14) $š(a)-u-a(a)-a(a)-š(a)$

قرأتس معنا) Darayonauš γāyādiya vaerka γāyādiya γāyādiyanām
 xšāyādiya dahyuanām Višāspahya puça Naγdamanāšiya bya imam tačaram
 ahanauš

س = ع ت = ش د = ز ي = ح ش = د خ = ح

داریوس، الملك العظيم، ملك الملوك، ملك البلدان، غيستا سب ابن، الأخميني هو الذي بنى هذا القصر

$x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$
$x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$
$x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$
$x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$

(1) $x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$ (2) $x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$
 (3) $x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$ (4) $x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$ (5) $x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$
 (6) $x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$ (7) $x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$ (8) $x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$
 (9) $x(a) - z(a) - r(a) - s(a) - y(a) - t(a)$

(بقرأ النص هكذا) *Xšayarsa xšayadiya vaxrka xšayādiya xšayādiyanām*
Darəyavahanā xšayādiyahya paça Haxšamanitiya

كسيركس، الملك العظيم، ملك الملوك، داريوس الملك ابن، الأخميني

المشكل -39- نقشاً داريوس الأول وكسيركس كما يقرآن ويترجمان في الوقت الحاضر.

وللأسف فإن ما أعقب كشوفات غروتيفيند على صعيد الواقع لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسمى صفحة مشرفة في تاريخ جامعة غيتينغن الجيدة. والحق أن مقتطفات من مقال غروتيفيند بعنوان:

«Praevia de cuneatis quas vocant inscriptionibus Persepolitans legendis et expliandis relation»

قد نشرت في «مذكرات غيتينغن العلمية» خلال سنتي 1802-1803، وذلك بفضل تأثير تيخسين الذي أخبر الأكاديمية بأمرها. إلا أن «مذكرات غيتينغن العلمية» رفضت أن تنشر بصورة كاملة دراسة ذلك المعلم الخامل الصيت ذي السبعة وعشرين عاماً على الرغم من أن تلك الدراسة وضعت الأسس لقراءة الإسفينات وتضمنت نتائج بعيدة المدى؛ فذلك الفتى لم يكن يعود إلى الأوساط الجامعية ولم يكن مستشرقاً في اختصاصه؛ وهكذا بقيت تلك الدراسة التأسيسية مجهولة حتى سنة 1805⁽¹⁾ حيث أفرد هيرين صفحات «لأفكار» ذلك القارئ الرموز من أجل عرض أكثر تفصيلاً لنتائج أبحاثه. أما النسخة الأصلية للمقال فلها مصير أكثر طرافة: إذ لم يتم العثور عليها إلا بعد 90 سنة (سنة 1893) حيث عثر عليه البروفيسور ويهيلم ميير في غيتينغن ونشر في «المذكرات العلمية» بكثير من الاحتفال.

ظل غروتيفيند يرقى سلم الخدمة بكل شرف واستقامة، إلا أن نشاطه العلمي التالي اتسم ببعض المساوية؛ فقد عاد في السنوات التالية إلى المشاركة في فك رموز الإسفينية (بما

1- وليس سنة 1815 كما تشير غالبية الدراسات

في ذلك البابلية) ولكن دون نجاح يستحق الذكر، ذلك أنه بقي حتى نهاية حياته يتشبه ببعض الأخطاء في منهجه الخاص بفك الرموز. أما أعماله الأخرى فكانت تبرهن على عقلية الشمولية وحب الاستطلاع لديه، إلا أنها لا تعد إنجازات علمية. وبإصرار لا يعرف الكلل ظل الباحث المعجز يواصل دراسة المدونات القديمة ولغات آسيا الصغرى (الليكلية والفريجية) وإيطاليا (الأومبرية والإيتروسكية) وقد غابت أعماله المتأخرة في طيات النسيان، لكننا نقدر في صاحبها ذلك الإصرار المتواصل ومحاولاته في إلقاء الأضواء على ما كان يعد ملفوقاً بالفموض، وتجلت خصاله الإنسانية أيضاً في كونه لم ينظر أبداً إلى نجاحات الباحثين بعين الحسد.

وهكذا فإن الأوساط الشمبية الألمانية لم تعترف بالباحث الألماني المجيد. فلما تحقق بعد عشرات السنين تقدم في دراسة الإسفينية الإيرانية القديمة كان ذلك ماثرة سجلت لعالم إسكندنافيا.

بعد البروفيسور الدانمركي راسموس كريستيان راسك (1787-1832) إلى جانب فرانس بوب وياكوب غريم، مؤسس علم اللغات المقارن الذي لقي انتشاراً واسعاً في ذلك الوقت. فعندما تمكن سنة 1827 من تحديد نهاية حالة الإضافة للجمع «ا - ن - ام» في لقب «ملك الملوك» فكأنه قام برد اعتبار قومي، ذلك أن أحد مواطني بلاده، وهو ميونتيير، قد عانى من الإخفاق منذ أكثر من عشرين سنة على الرغم من أنه يبدو قد نجح في تركيب جملة صحيحة، ولعل غروتيفيند قد قرأ تلك النهاية على أنها «آ - تش - آ - و».

انطلق راسك من النقطة التي كانت أقرب إلى نفسه: من دراسة اللغات الجرمانية. ونتيجة لأسفاره في السويد، النرويج وأيسلنده، صدرت دراسته الأولى الكبيرة «بحث حول مصدر اللغة الإسكندنافية القديمة أو الأيسلندية» (كوبنهاغن - 1818) حيث قدم البراهين لأول مرة على القرابة الوثيقة بين الإسكندنافية القديمة واللغات الجرمانية الجنوبية (المسماة حالياً بـ «الجرمانية الغربية»، والقرابة الأكثر بعداً مع اللغات السلافية، البلطيقية، اللاتينية واليونانية. وقد أهابت به رغبته الشديدة في التعرف على «أنساب» أكثر بعداً بالقيام برحلة إلى الهند عام 1816، فزوده الملك وبعض الأشخاص بنفقات الرحلة. فأتجه في البداية إلى بطرسبرج عبر السويد وهنلنده، ومنها - عبر موسكو وأستراخان - إلى فارس والهند التي وصلها عام 1820 وأمضى عامي 1820-1822 ضارباً في أرجاء الهند.

كان الفتى الدانمركي المتمطش إلى المعرفة يسير على خطى أوروبي آخر هو أنكيتيل ديويبيرون. فهو يقوم، شأن سابقه الفرنسي، بالتمق في دراسة لغة وعادات عبدة النار الذين

يمشون في بومباي وضواحيها. كما يدرس لغة البوذيين في سيلان وعاداتهم وتقاليدهم. وقد أعطت اهتماماته بدراسة لغة الكتب المقدسة للبارثيين ثمارها في دراسة الإسفينات، ومن الجدير القول أنهم كانوا ينظرون في أوروبا، وبخاصة في إنجلترا في ذلك الوقت، بكثير من الريبة إلى المواد التي جمعها انكيتيل - ديويرون بكل ما كان لديه من وفاء صادق للعلم، وكان من حظ راسك أن يقضي على تلك الشكوك مرة وإلى الأبد، ففي مقاله الرائعة حول أصالة لغة الزند برهن بصفة قاطعة على صحة المقاطع التي نشرها انكيتيل - ديويرون، مثلما أشار إلى القرابة الوثيقة بين هذه اللغة ولغة الهنود القدماء. وبمد دراسة الأبجدية وطريقة التسجيل اللتين وضعهما غروتيفيند انتهى راسك إلى القول بتشابه لغة النقوش مع لغة الزند، وأظهر أن هذه الأخيرة ليست أحدث من لغة النقوش الأخمينية، إذا لم تكن أقدم منها. وكان من نتائج هذه الدراسات (وبصورة أهم بكثير من النهاية التي اكتشفها لحالة الإضافة في الجمع) أن فتحت الطريق لاثنين من «متوجي» حل رموز الكتابة المسمارية الإيرانية القديمة هما - الفرنسي إيجين بورنوف والنرويجي كريستيان لاسين.

فلماذا لم يتقدم راسك في طريق حل الرموز؟ لقد كان عالم لغات وكان قبل كل شيء يريد أن يوضح بنويّة وقواعد اللغات الإيرانية القديمة والوسطى. لهذا كانت مهمته الأولى معالجة المجموعة الكبرى من المخطوطات التي تسنى له جمعها في الهند. وعلى ذلك فإن فكرة «أن الوقت ما يزال مبكراً بعده» كانت تخيم على حياة راسموس كريستيان راسك هذا.

فمنذ أن أحضر انكيتيل - ديويرون نتائج جهوده إلى أوروبا صارت دراسة الزند قضية كرامة قومية بالنسبة للفرنسيين. أما إيجين بورنوف فقد اعتمد في دراسة الأفيستا على التقليد المعروف. وباستعمال جدول أسماء القبائل والشعوب تمكن بورنوف ولاسين (وكانا يعملان منفصلين أحدهما عن الآخر لكنهما كانا يتبادلان الآراء) من تحديد معاني جميع رموز المسمارية الإيرانية القديمة تقريباً فتمكنا بذلك من إتمام بناء ذلك الصرح الذي وضع أساسه غروتيفيند.

وكانا يتاملان مع مادة لا تقتصر على نسخ نيبور فقط بل وعلى نسخ من ميراث ف. أ. شولتس، أستاذ الجامعة في بلدة هيسين الألمانية، الذي كان قبيل ذلك قد سافر بمهمة من الحكومة الفرنسية إلى أرمينيا حيث قتله الأكراد سنة 1829. وفضأة تضاعفت المادة المدروسة بفضل مواتاة الحظ والاحتراس والجهد الشاق لشخص اختصه أبناء وطنه بلقب الشرف: «أب الدراسات الآشورية».

حقاً لقد كان الطريق بعيداً بين التلميذ هنري كريسويك رولينسون (1810-1895) من ايلينغ وبين هذه «الأبوة»، لكن من الجدير بالذكر أنه كان، حتى في ذلك الوقت، يتلمذ اليونانية واللاتينية بكثير من الاندفاع. وفي الوقت نفسه لم يكن بالملطوق المطواع أو الحفاظ عن ظهر قلب، بل كان، على العكس من ذلك، يمتاز بالتكوين الرياضي الجيد وبمقوّة الجسم. وكان ذلك ما استقطب الأساتذة إلى جانبه وما ضمن له شعبية خاصة في الأوساط المدرسية الإنكليزية، فقد كانت ما تزال ماثلة في الأذهان معركة واترلو التي تم النصر فيها، على حد قول الإنكليز، في الملاعب الرياضية في الكلية الارستقراطية في ايتون. فليس من المستغرب بعد هذا أن يقبل هنري للخدمة في شركة الهند الشرقية وهو ما يزال في السادسة عشرة من عمره، وبعد سنة كان في الهند.

وعلى ظهر السفينة تعرف الفتى الموهوب بحاكم بومباي الذي اكتشف فيه مستمعاً شديد الانتباه. وقد أثار المستشرق المتحمس في الفتى حب كل ما له علاقة بفارس ولا سيما اللغة والأدب الفارسيين، وراح الحب يضيء حياة رولينسون بطولها ككنجم الهداية. ويقدر ما كان رولينسون فتياً فإنه كان يعرف ما يريد. فما أن وصل حتى غرق في دراسة اللغات. فهو يدرس الفارسية والعربية والهندوستاني بنجاح يجمله بعد عام واحد يتسلم منصب المترجم والمحاسب في الفرقة الفريناديرية الأولى المسكرة في بومباي. لكن هدف دراسته لم يكن ذلك. فهو مغرم باللغة الفارسية لذلك يأخذ، على أثر راسك، بتعلم هذه اللغة لدى البارثيين. وسرعان ما يصبح أخصائياً معترفاً به فهو يحفظ على ظهر قلب مقطوعات مطولة من قصائد الشعراء الإيرانيين الكبار وهو ما هيأ له منصباً مرموقاً في بلاط الشاه فيما بعد. ومن الطريف أن يعين رولينسون بعد مضي عشرات السنين، في سنة 1875 وخلال زيارة الشاه إلى إنجلترا، مستشاراً سياسياً للحكومة ليتمكن من أن يناقش مع المعامل الإيراني المسائل السياسية باللغة الفارسية.

أما الآن فرولينسون يخدم لدى الفرقة الخاصة بقذف القنابل في بومباي. فهو مترجم، خازن للمال وعالم باللغات. وعلاوة على ذلك فهو رحالة من الدرجة الأولى إذ إنه يسافر كثيراً ويتمتع بشعبية واسعة لدى جميع فئات السكان. وبفضل هذه المزايا يحصل على ترقية جديدة: فيعهد إليه سنة 1833 بتجميع معلومات تجسسية ذات أهمية خاصة، فيقوم بذلك بدرجة من الإبتقان والنجاح تجعلهم يوجهونه بعد ذلك بمأمين إلى العمل في إيران كمستشار عسكري لأخ الشاه - حاكم ولاية كرمنشاه. ويؤدي بسط السيطرة الإنكليزية على الشاطئ الأيمن لنهر الإند إلى الحرب الأفغانية الأولى سنة 1839؛ وفي تلك السنة يتم الاستيلاء على قندهار وكابول

وفي سنة 1840 يقبض على الأمير دوست محمد أسيراً وينصب مكانه حاكم موالي للإنكليز. وفي سنة 1839 يصبح رولينسون العميل السياسي لبريطانيا في قندهار التي تم الاستيلاء عليها. وتموج البلاد بالهيجان فالأفغان يكرهون السيطرة الأجنبية. وذلك ما يعرفه الإنكليز وما يعرفه هنري رولينسون أيضا. فيشترك سنة 1842 على رأس فرقة فارسية من الخيالة، كان قد شكلها ودرّبها بنفسه، في معركة قندهار ويحقق انتصارا مظفرا كما يحارب في غزنة بنفس المستوى من الانتصار. وفي سنة 1842، وبعد نهاية الحرب يعود إلى الهند.

منذ ذلك الحين بدأت الأفاق المغرية تفتح أمام الجندي الذي أثبت جدارته بصورة رائعة. كان المستقبل العسكري الباهر بانتظاره إلا أنه يرفضه.

لكنه... لا يرفض النشاط السياسي. وفي سنة 1843، عندما يقدم العقيد تابلور، عميل إنجلترا السياسي في بغداد، استقالته، يحل رولينسون محله.

لقد كان سبب القرارين - قرار رفض المنصب العسكري وقبول المنصب السياسي في بغداد - واحدا. فهو لم يكن قادرا على أن ينسى ذلك الانطباع الذي أحدثته في نفسه أول مقابلة له مع الكتابة المسماة جرت منذ 8 أعوام في إيران.

فقد سلفت الإشارة إلى أن رولينسون عين سنة 1835 مستشارا عسكريا لأخ الشاه. وفي الطريق إلى مقر عمله في كرمناشاه علم بأنه تظهر على السفوح الصخرية لجبل ايلفيند (أو ألفند، «اورانت» في الأستا و «اورونت» في المؤلفات الكلاسيكية) نقوش مسمارية. وتلك السلسلة الجبلية الواقعة إلى الجنوب من همذان (حيث كانت تقوم ايكباتانا، عاصمة الميديين) والتي يصل ارتفاعها إلى 3200 م كانت تلعب دوراً خاصاً في معتقدات الناس المحليين وموروثاتهم؛ إذ كانوا يسجلون خاصية سحرية للعشائش والأحجار التي كانوا يجمعونها في تلك المنطقة. أما النقوش فسميت ب «غانج - نامه» - «كتاب الكنوز» - إذ إنها تقدم كنوزاً خيالية لمن يهتدي إلى قراءتها حسبما كان ماثورا لدى سواد الشعوب.

وقد قامت بذلك حقا. فقد أصبحت تلك النقوش كنزا حقيقيا بالنسبة لرولينسون وعرفها يحمل الذهب.

كان رولينسون قد نسخ اثنين من النقوش الثلاثية اللغات في عين المكان. وقد انعكست عادته في العمل المنهجي في أنه عاد بعد عام فحارن نسخه بالنقوش وقام بالتصويبات حيثما وجد ذلك ضروريا. بيد أن إخبارية كانت بانتظاره في كرمناشاه جعلت قلبه يسارع في نبضه، فالكنز الذي علم بوجوده، غطى على «كتاب الكنوز»، إذ حدثه بأن صخرة بيهستون أو بيسوتون، القائمة غير بعيدة عن المدينة، مغطاة بنقوش كبيرة ولوحات ناضرة هائلة الحجم.

والحق أن المسافة نحوها 22 ميلاً إنكليزياً، أي نحو 35 كيلو متراً وهي مسيرة يوم. ولكن ماذا تعني 22 ميلاً. ماذا تعني مسيرة يوم بالنسبة للفارس السابق رولينسون؟ لقد سبق أن قطع ذات مرة 750 ميلاً في غضون 150 ساعة لكي يحذر السفير الإنكليزي في طهران من قدوم العميل الروسي إلى هرات. وهكذا ينطلق في الصيف والخريف من كرمنشاہ إلى بيهستون لينسخ النقوش.

لينسخ النقوش! إن ذلك لم يكن بالأمر السهل كما يمكن أن يتراءى الآن عندما يصورون رولينسون معلقاً عند حافة الصخرة، في مقعد مرتفع، يقوم برسومه. لنترك للعالم أن يتحدث عن ذلك بنفسه ولكننا قبل ذلك سنقدم وصفاً للمكان الذي كان فيه.

بهاستانا تعني «بلاد الآلهة» أو المكان المقدس. ففيها كان يقوم ذات يوم معبد نيئي (عشتار)، إلهة الجبال. وحتى اليوم لا يزال ذلك الجبل المشمخر ذو الهامتين يحمل الاسم الإيراني القديم (وقد تحول تدريجياً فأصبح «بيهستون»، «بيستون» و«بيستون») ويشرف المنحدر الجنوبي الأملس للجبل بصورة حادة على الطريق «درب الشعوب القديم الذي ينطلق من بنداد عبر خانقين وقهصري شيرين عبر جبال زاغروس إلى كرمنشاہ وهمذان... القوافل تتحرك خلاله على مدى 5000 سنة وعلى مدى مئات السنين يسوق الأكراد الرحل قطعانهم من السهول إلى المراعي الجبلية في الربيع ويسوقونها في الخريف من الجبال إلى سهول هيرزمسير أو «البلاد الداخلة». ومنذ انتشار الإسلام ينطلق الحجاج عبر هذا الطريق كل عام من المشرق إلى البقاع المقدسة: - جنوباً إلى مكة وإلى النجف، الكاظمية وكربلاء وشمالاً - إلى شاه عبد العزيز القريب من ملهران، وإلى قم ومشهد⁽¹⁾ وطالما دارت الحروب من أجل السيطرة على هذه الطريق. وقد عبرتها الجيوش الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى، وقد شهدت معركة داريوس الأعظم ضد الملوك الذين ثاروا عليه وشهدت هزيمة المتمردين. وفي هذا المكان، في منطقة «بلاد الآلهة» كانت الشواهد تتحدث عن مآثر الحكام. وفيها أيضاً نقش داريوس الأول النقوش التي كان عليها أن تُنهي إلى الأجيال القادمة أخبار انتصاراته.

وستتحدث ببعض الكلمات عن العصر الذي نقشت فيه تلك النقوش. فبدهأ مما يقارب الـ 700 قبل الميلاد كانت الأسرة الأخمينية تحكم الفرس، وسميت باسم مؤسسها اخامانيش (باليونانية اخايمينيس). وقام تشيشبيش (تيسيسيس)، ابن اخامانيش بتقسيم البلاد إلى قسمين: الشرقي واستلمه أريارامنا (أريامنيس) والغربي واستلمه قوراش (كير) الأول، الذي كان مرغماً شأن ابنه كامبوجيا (قمبيز) الأول على الاعتراف بسلطة الميديين عليه. وقد

1- E. Diez, Iranische Kunst - Wien, 1944, S. 114.

تمكن قوراش (كبير) الثاني الأعظم ابن كامبودجيا من الإطاحة بالملك الميدي ومن الاستيلاء على ميديا، ليديا وبابل.

وبعد أن أزاح قمبيز الثاني، ابن قوراش الأعظم ووريثه، أخاه الأصغر بارديا (سميرديس) استولى على مصر فاغتم الساحر غاوماتا (عضو طبقة الكهّان) فرصة غيابه الطويل فنصّب نفسه ملكاً على إيران وبابل في صورة بارديا الذي بدا وكأنه قد تم إنقاذه، فسارع قمبيز بالعودة. لكنه لقي حتفه سنة 522 في سوريا خلال عودته إلى فارس.

وقف سبعة أمراء من الفرس ضد غاوماتا. وكان على رأس الحركة داريافاوش (داريوس) الأول الكبير (522-485 ق.م) ابن هبشتاسبا (باليونانية غيستاب)، حفيد ابن اريارمانا؛ وقد أصبح الملك الأكبر بعد أن قُتل بيده غاوماتا. وأصبحت الحرب الأهلية أمراً محتوماً ففي كل مكان تطلق الانتفاضات الخطرة التي يقودها الطامعون بالعرش ممن خابت آمالهم. ويقوم داريوس بالقضاء عليهم بسرعة. فمن انتصاره على العصاة «الملوك الدجّالين» وعن تسليم الإله اهورامزدا إليه السيادة على العالم يدور الحديث في «سيّدة النقوش» التي دونت بالخط المسماري باللغات الرسمية الثلاث: الفارسية القديمة والعيلامية والبابلية.

تصوّر اللوحة النافرة داريوس وهو يبسط يده اليمنى نحو اهورامزدا - قرص الشمس المجنّح، ويعتمد بيسراه على قوسه، ويدوس بقدمه اليسرى على غاوماتا المطروح وهو يرفع يديه طالبا الرحمة. ويظهر «الملوك الدجّالون» أمام داريوس وقد أوتقت أيديهم وطوّقت أعناقهم بحبل، كما يظهر خلفه - اثنان من أعيان الفرس. وتظهر النقوش باللغات الثلاث حول اللوحة النافرة.

ما الذي أدى إلى جعل هذا الأثر الجليل من آثار الكتابة الفارسية القديمة منسياً إلى درجة أن كان على رولينسون أن يكتشفه من جديد عام 1836؟ السبب في ذلك هو أن الكتابة المسمارية كانت قد زحمت كما هو معروف من قبل الأبجدية الآرامية في الدولة الفارسية. أما اللوحة النافرة نفسها فكانت أشد بروزاً من أن تغيب عن الملاحظة. فلنتذكر أيضاً طريق القوافل الذي كان يمر بالقرب من المكان. فليس عجباً بعد هذا أن يكون لدينا الكثير من الإخباريات عن صخرة بيهستون.

وتشير حبة الحقيقة في ملاحظات ديودور الخيالية (الكتاب الثاني، 13) إلى أن الجبل مكرس للإله زيوس (أي اهورامزدا) وإلى أن فوقه نقوشاً «سريانية» بيد أن من العيب أن نبحث، بالاعتماد على ديودور، عن صورة سميراميس وحرّاسها المثة، منقوشة

على الصخرة، كما أن معطيات الجغرافيين المررب ياقوت، الأصطخري وابن حوقل لا تقدم شيئاً، ويكفي أن نشير إلى التفسير الساذج للأخير من بينهم: فاللوحات النافرة تمثل برأي ابن حوقل مدرسة، أما الصورة الكبيرة فهي للمعلم وأمامه التلاميذ - والمعلم يمسك بـ «آلة» تستعمل عادة لعقاب «الجامعين». كما أن بعض الرحالة المسيحيين جرب مهارته في تفسير اللوحات النافرة. فبول أنج لوي دي غاردان الذي كان يعمل أمين سر لأخيه السفير الفرنسي في طهران، زار ذلك المكان سنة 1807 فرأى في أهورامزدا صورة الصليب ورأى في الشخصيات المصورة أسفله - لوحة الحواريين الاثني عشر. وكان الوقوع في مثل هذا الخطأ ممكناً بسبب وقوع النقوش واللوحات البارزة على ارتفاع يزيد عن 100 متر. ولم تتل الأمور حظاً أوفر من الصحة لدى الإنكليزي السير كير بورتر الذي فسّر داريوس على أنه سالما نصر الثالث (859-824 ق.م) وفسّر الشخص المثلث المائلة أمامه. على أنها الأسباب الإسرائيلية المشرفة. أما غطاء الرأس المدبب على رأس آخر «الملوك الدجالين» ففسره بأنه عمامة الكهنة المنحدرين من اللاويين. وترتبط هذه التفسيرات بوضعية علم الآثار في تلك الأيام وفي ضوء هذه التفسيرات فقط تظهر إنجازات قراء المدونات ومفسريها في ضوءها الصحيح.

فكل ما قيل أو كتب حتى ذلك الوقت حول هذه المدونة كان قائماً على أساس من الأساطير أو الموروثات الشفوية أو على المراقبة البصرية من أسفل الصخرة أو من مسافة بعيدة إلى حد كبير. ولم يفكر أحد قبل رولينسون باستنساخ المدونة. ولكن لنترك الكلمة له نفسه:

«عندما تصل إلى حافة التجويف الذي يتضمن النص الفارسي (كانت المدونات تنقش وفق العادة الفارسية القديمة في تجاويف، أي فوق جدران ملساء منقورة في الصخر - المؤلف) تلاحظ أنك بحاجة إلى سلّم من أجل دراسة الجزء الأعلى من المنقوشة لكن ذلك أمر محفوف بالمخاطر حتى ومع توفر وجود السلّم، ذلك أن النتوء الذي تقف عليه ضيق جداً. فإذا كان السلّم يبلغ من الطول حداً يصل إلى تماثيل الأشخاص يصبح من المتعذر نصبه بميل يكفي لكي يكون الصعود عليه ممكناً فإذا ما جعلته أقصر يصبح بالإمكان استنساخ الأجزاء العليا من النص فقط بعد الوقوف على أعلى درجة فيه دون الاعتماد على أي مسند. لا بدّ في هذه الحالة من الاعتماد على الصخرة مع الإمساك إذ ذاك بدقتن التدوين باليد اليسرى وبالقلم باليمنى. وفي تلك الوضعية نسخت جميع المدونات المنقوشة في الأعلى، وقد استغرقني ذلك العمل إلى درجة أنني ذهلت نهائياً عن الخطر... كان بلوغ التجويف

المتضمن الجزء الصقلي (أي العيلامي - المؤلف) من إخبارية داريوس أمراً محفوظاً بقدر أكبر من الصعوبة. فالنتوء الذي يمكن وضع القدم عليه لا يوجد إلا في الجانب الأيسر من التجويف. أما الجانب الأيمن الذي يفوص فيه التجويف مسافة عدة أشبار نحو الداخل والذي يقترب من الكتابة الفارسية فإن الصخرة تتكسر عنده بصورة حادة. فكان علي بسبب ذلك أن أفكر بمدّ جسر بين الطرف الأيسر من المدونة الفارسية والنتوء البارز على الجانب الأيسر (العيلامي - المؤلف) من التجويف. وكان يمكن إقامة مثل هذا الجسر من سلم ذي طول مطابق؛ لكن محاولتي الأولى في السير فوق الهاوية باءت بالفشل وكان يمكن أن تنتهي بموتي. وسبق أن كنت قد أمرت بتقصير السلم الوحيد الذي بحوزتي لكي انصبه بميل كافٍ من أجل نسخ الأجزاء العليا من المدونة الفارسية. فلما وضعت على حافة التجويف راغباً في الوصول إلى النص الصقلي أدركت أنه أقصر من أن يصل إلى النتوء إذ لم يصل إلى النتوء غير نهاية واحدة من نهايتي السلم، فلو أنني جريت السير فوقه معتمداً على نقطة واحدة فقط لانقلب بالطبع، ولذلك أملت على الجانب فأصبحت نهايتنا الطرف العلوي من السلم معتمدين على الصخرة من الجانبين بينما كان القسم الأسفل معلقاً فوق الهاوية. فبدأت المسير وأنا أخطو على الخشبة الطولانية السفلى وأمسك بالخشبة الطولانية العليا بيدي. فلو كان السلم مصنوعاً بما هو مطلوب من المتانة لكان بالإمكان الوصول فوقه إلى البروز ولكن طبعاً دون شعور بالراحة. إلا أن الفرس عندما يصنعون السلالم يكتفون بدق الدرجات بما يلزمها من مسامير دون أن يثبتوها جيداً. وهكذا ما أن بدأت العبور حتى أخذت الدرجات بالتقافز وانفصلت الخشبة الطولانية السفلى عن العليا وتدرجت في الجرف الحاد إلى الأسفل محدثةً ضجيجاً، فتمسكت بالخشبة الطولانية العليا وبمساعدة من أصدقائي الذين كانوا يتفرجون على المجازفة بكثير من الخوف توصلت إلى التجويف الفارسي ولم أجازف بالقيام بعبور جديد إلا بعد أن أمرت بإقامة جسر متين إلى حدّ ما⁽¹⁾

ولنتحدث كيف تسنى لرولينسون أن ينسخ المدونات البابلية سنة 1847 مستبقين الأحداث لعدة سنوات:

«إن الوصول إلى النص البابلي في بيهستون أشد صعوبة منه إلى النص الصقلي أو الفارسي. وبالإمكان نسخ المدونة من الأسفل بواسطة ناظور جيد لكن القيام بطبع المدونة بدا لي، ولفترة طويلة جداً، أمراً مستحيلًا. وكنت أدرك أنني لست قادراً

1- Archaeologia, London, vol. xxxiv, 1852 p. 74.

على الوصول إلى الصخرة التي نقشت المدونة فوقها أما السكان المحليون الذين اعتادوا تسلق الجبال وراء ما عزمهم فقد أكدوا لي بأن الصخرة التي نقشت المدونة البابلية فوقها لا يمكن بلوغها. وأخيراً وجد فتى كردي متوحش واحد من مكان بعيد وقد وافق على القيام بمحاولة الوصول إلى تلك الصخرة لقاء جائزة ثمينة في حال نجاحه. وكانت الصعوبة تتمثل في كون الصخرة تنفر بعيداً فيما بعد النص الصقلي وتنحدر انحداراً حاداً نحو الأسفل مما يجعل الوصول إليها بالطرق العادية أمراً مستحيلاً. وفي البداية حشر الفتى نفسه في الشق القائم إلى اليسار من الشراع الصخري النافر. وبعد أن صعد قليلاً دق في الشق وتدا وثبته جيداً وربط به حبلًا وحاول بهذه الطريقة أن يتوصل إلى الشق الموجود غير بعيد في الجانب الآخر. لكنه لم ينجح في ذلك؛ فقد كانت الصخرة تنفر بعيداً نحو الأمام. فلم يتبق أمامه إلا أن يتسلق بمشقة كبيرة حتى الشق الثاني وهو يتشبث بيديه ورجليه بالنتوءات الصغيرة في الجدار العادي. لكنه نجح في ذلك. وكنا، نحن النظارة، لا نصدق أعيننا ونحن نراه يذلل صخرة معلقة لمساء بطول 20 قدماً. أما الآن فإن ما هو صعب أصبح في الراء. فدق وتداً ثانياً وربط به حبلًا آخر كان قد أخذه معه واستطاع بذلك أن يتعلق بالشراع الصخري النافر. وهناك استطاع بواسطة السلم أن يقيم أرجوحة تشابه ما يعمل الفنانون عادة فوقها. وراح، وقد جلس فوقها، يقوم بإرشاد مني بطبع الصيغة البابلية من إخبارية داريوس على صفحات من الورق...»⁽¹⁾

فلنمد من جديد إلى مدونات جبل الفيند.

في سنة 1836 صدرت «مذكرات حول مدونتين مسماريّتين» لإيجين بيورنوف (1801-1852) كانت إحدهما من الفيند وقد وجدت نسخة منها بين أوراق ف. أ. شولتس. وقد حدد بيورنوف أبجدية مسمارية من 33 رمزاً إلا أن القليل من بينها كان قد حدد بطريقة صحيحة. غير أن إسهامه في حل الرموز المسمارية يبقى، مع كل ذلك، إسهاماً جليلاً. فبفضل معلوماته المتمثلة بالزبد والسنسكريت تمكن من تحديد معاني الكثير من الكلمات في المدونات على الرغم من أنه لم يتمكن من قراءتها بصورة كاملة. وفضلاً عن ذلك أثبت أن كلمة «آدم» التي عدّها غروتيفيند لقباً تعني في الحقيقة «أنا أكون». وقد حدد بيورنوف بصورة صحيحة المعنى اللفظي لاثنتين فقط من الرموز - التي ترمز إلى لفظي «ك» و «ش». وليس علينا مع هذا

1- Ibid.

أن نسقط من حسابنا أنه كان بالدرجة الأولى عالم لغات هندية وأخصائياً في السنسكريت وأن دراسته للسنسكريت ما كانت إلا ذات صلة غير مباشرة بأعماله الأساسية التي كرس لها حياته بطولها.

ويمكن أن نقول هذا أيضاً عن صديقه العالم النرويجي كريستيان لاسين (1800-1876) الذي كان بدوره عالم لغات هندية ومختصاً بالسنسكريت (وكان قد اهتم باللغات الهندية بتأثير من آ. ف. هون شليف)، وأعماله حول اللغة الفارسية القديمة لا تحتل المرتبة الأولى في مجموع الدراسات التي خلفها. وقد ظهرت مقالاته «الدونات المسمارية الفارسية القديمة في بيرسيبول» في بون عام صدور دراسة بيورنوف. وتشغل هذه المقالة مكانة محترمة في تاريخ فك رموز الكتابة المسمارية.

وبالاشتغال في البحث عن أعمال جديدة يمكن أن تكون نقطة انطلاق بالنسبة لفك الرموز راح لاسين، شأن غروتيفيند من قبله ورولينسون في الوقت نفسه، يستذكر دليل الطرق غير المعبّدة في التاريخ، والذي أكد أن بالإمكان الاعتماد عليه بصورة كلية. فقد كتب هنريخ بارت عالم اللغات الأفريقية الألماني الكبير فوق نسخته من كتاب هيرودوت: «هيرودوت، مرافقي الدائم، المحترم والغالي بصفة لا حدود لها». لقد قام هيرودوت بوضع لاسين في الطريق الصحيح. ففي الفصل الـ 87 من «تاريخه» الرابع حيث يقدم وصفاً لحملة داريوس على الصقالية يقول:

«ويعد أن تخصص البوسبور أقر (داريوس) بأن يُرَكِّزَ على شاطئيه عمودان من المرمر الأبيض وأن تنقش على أحدهما بالكتابة الآشورية وعلى الآخر بالكتابة الهيلينية أسماء جميع الشعوب التي قام معها بحملته»!

افتترض لاسين أن مثل هذه المدونة يجب أن تكون موجودة أيضاً بين نصوص بيرسيبول. ولما أعاد النظر في نسخ نيبور وجد في واقع الحال مدونة جديدة كانت تضم ما لا يقل عن 24 اسم علم. فاقترح أبجدية تجاوزت كل ما سبق أن قام به غروتيفيند وبيورنوف. كان 23 رمزاً من هذه الأبجدية ذا دلالة لفظية دقيقة، وكان 8 منها قد أعيد اكتشافه من قبل لاسين. وبالإضافة إلى هذا كان رمزان منها قد حددا بصورة دقيقة تقريباً. ومن بين أسماء الأعلام الـ 24 استطاع أن يطابق بين ما لا يقل عن 19 - «إنه نصر عظيم» - على حدّ تعبير بادج، عالم الآشوريات الإنكليزي بعد مئة سنة.

لكن ربما كان الإنجاز الأعظم هو أن لاسين، قد تمكن ممتداً على دراساته في حفل اللغات الهندية، من إزاحة العقبة التي كانت تقطع الطريق على المشتغلين سابقاً بحل

الرموز: فقد لاحظ أن الصائت *a* (القصيرة) لا يكتب في اللغة الفارسية القديمة بصورة مستقلة بل هو، كما في الأبجديات الهندية «خاص» بالسواكن؛ وعلى هذا فإن الساكن *m* يمكن أن يعبر أيضاً عن مقطع *ma* وهو ما ميّز على الفور أمثال هذه الكتابات مثل *xf ayšiy varka* عن *xf ayšiy vzk* (فان طريقة التدوين تحت الشكل رقم 39) أما حيث يوضع رمز مستقل مطابق للفظ *a* فهو يشير إلى *a* الطويلة (*ā*) أي *a* المكونة من صوتي *a* يتصل الأول بالساكن السابق ويعني الثاني اللفظ الصوتي.

وعندما توصل كل من *إ. ف. بيرو*، *إ. ف. سان - جاك* وبصورة مستقلة لكل منهما، إلى تحديد الرموز التي كانت ناقصة كان الأساس قد أرسى لتاريخ فك الرموز رموز الكتابة المسماة الفارسية القديمة.

لكنها الآن بدأت للمرة الثانية منذ البداية!

حقاً إن بإمكاننا الآن أن نعبد صياغة ما نريد قوله بصورة أكثر إيجازاً. فغ. ك. رولينسون لم يكن فقط جندياً ممتازاً وفارساً مجلياً ودبلوماسياً محنكاً بل وكان عالماً من الطراز الأول. فعندما نسخ في سنة 1835، وهو في طريقه إلى كرمناشاه المدونتين المتضمنتين اللغات الثلاث من جبل الفيند كان في أحسن الأحوال قد سمع مجرد سماع بقراءة غروتيفيند لأسماء غيستاسب، داريوس، وكسيركس، ومن الممكن جداً أن رولينسون الذي كان واسع الاطلاع على العالم الكلاسيكي القديم قد تعرف بنفسه على أسماء أولئك الملوك من الأسرة الأخمينية بملاحظته التوافق في مدونات جبل الفيند. وعلى نحو ما قام به غروتيفيند فإنه طبق رموز المدونة على أسماء غيستاسب، داريوس وكسيركس وتوصل بذلك إلى 13 حرفاً كما أنه تذكر الفصل الثاني من الكتاب السابع ليرودوت والذي يتحدث كسيركس فيه عن شجرة نسبه.

بيد أن رولينسون كان يتمتع بوضع يفضل كثيراً الوضع الذي كان فيه غروتيفيند، المعلم الفوتيفيني. فقد كانت بين يديه مدونة بيهستون الهائلة. ولهذا فإن شجرة نسب كسيركس، التي ذكرت عند هيرودوت، قدمت إليه أكثر بكثير مما قدمت لغروتيفيند. فهو بدءاً من الأسطر الأولى في مدونة بيهستون يفرز مجموعة من الرموز الدالة على أسماء بارثا (فارس)، أرزاميس (أرشاما)، أرياميس (أريارامنا)، تيسيبس (تشيبيش) وأخايمينيس (اخامانيش).

فكان الملك المجيد وقد استبق بثاقب نظره الصعوبات التي ستعترض قارئ رموزه راح في أول بداية المدونة الخالدة بسمي الأسماء التي يحتاج إليها الباحث:

يقول دارايافاوش، الملك:

«أنا دارايافاوش.

الملك المجيد.

ملك الملوك،

ملك فارس،

ملك البلدان،

ابن فيشتاسبا،

حفيد أرشاما،

الأخميني.»

يقول دارايافاوش، الملك:

«أبي - فيشتاسبا.

أب فيشتاسبا - أرشاما،

وأب أرشاما - اريارامنا،

وأب اريارامنا - تشيشبيش،

وأب تشيشبيش - أخمين،

لهذا نلقب بالأخمينيين.

معروفين وُلدنا منذ عهد الآباء

منذ عهد الآباء كان جنسنا جنس الملوك.»

وفي نهاية سنة 1836 وصل رولينسون إلى بومباي وتسلم من العقيد تايلور هناك الأبجديات المسمارية لغروتيفيند وسان - مارتيني. إلا أنه كان قد تعرف بنفسه على عدد من الألفاظ يربو عما كان لدى كلا الباحثين اللذين لم يكونا - بالإضافة إلى ذلك - متفقين فيما بينهما في كل شيء.

أمضى رولينسون عام 1837 بطوله منكباً على دراسة مدونة بيهستون، ثم تقدم سنة 1838 إلى الجمعية الآسيوية الملكية في لندن بنص وتدوين كتابي وترجمة للقسمين الأولين مع ما يتصل بهما من تعليقات. وتقع هذه الدراسة في يدي ايدوين نوريس الذي كان العالم الوحيد باللغة الفارسية القديمة في العاصمة الإنكليزية، فيقوم هذا بإرسال نسخة منها إلى باريس وبذلك يصبح رولينسون لأول مرة على اتصال وثيق بالعلم. فيجري مراسلة مع لاسين ويطلب عن دراسة بيورنوف المتعلقة بالجزء الثالث من الاهستا - المسمى بالواضح. وعند ذلك ينكب على

دراسة الزند والسنسكريت باهتمام. وفي بداية عام 1839 كان قد أعد ترجمة ما يقارب جميع السطور التي كان قد طبعها في بيهستون وعددها مائتان.

الرموز الأحرف	الدلالة اللفظية	الرموز الأحرف	الدلالة اللفظية	الرموز الأحرف	الدلالة اللفظية	الرموز الأحرف	الدلالة اللفظية
	a. a		f. fa		b. ba		u. ui
	i. i		g. ga		j. ja		r. ra
	n. n		l. la		n. na		r. ri
	k. ka		' n. ni		n. nd		l. la
	k. ku		d. da		m. ma		z. za
	s. sa		d. di		n. ni		z. za
	y. ya		d. di		n. nd		z. za
	h. ha		o. oa		y. ya		f. fa
	z. za		p. pa		w. wa		h. ha

الشكل -40- الأجدية المسمارية الفارسية القديمة.

لكن العلم الأوروبي ليس نائما. فعندما يعود رولينسون إلى بغداد سنة 1843 ويميد دراسته هناك تكون أمامه مجموعة من الدراسات الجديدة: فقد أقرت الأجدية وصويت الدلالات اللفظية وحسنت الترجمات. ويقوم نوريس بإخبار رولينسون من لندن بنتائج دراسات الراهب الإيرلندي إدوارد هينكس (كان نوريس وهينكس عالمي رموز بالطبيعة وسيدور الحديث عنهما في ما يلي) وعندما يجلس رولينسون لتسجيل «مذكرات» ه (1844-1845) المخصصة للصبغة الفارسية من مدونة بيهستون يعرف أن العلم الأوروبي قد تجاوزه إلى حدود بعيدة. إلا أن هذا لا يقلل بالطبع من إنجازاته بأي شكل. فاكشافاته ستبقى إلى الأبد مرحلة مهمة في دراسة المسماريات.

ومن العمل المشترك لكثير من العلماء تجمعت بصورة تدريجية اللوحة الواضحة للكتابة المسمارية الفارسية القديمة وبخاصة أبجدية السواكن التي حفظت عناصر الكتابة المقطعية وحوّرتها بصورة إبداعية. وقد تجلت هذه العناصر في كون الأبجدية الفارسية القديمة قد مكّنت من تسجيل الأحرف الصائتة. فهـ كانت «خاصة» بالسواكن. أما التعبير عن *i* و *ii* فكان يتم بطريقة كتابة السواكن السابقة لهما بطريقة مفايرة. ويقدم (الشكل 40) كامل الأبجدية المسمارية الفارسية القديمة في الصورة التي حدّدها العلم الحديث.

وهكذا وبعد ألفين وخمسة من السنين تحقق ما أوصى به داريوس للأجيال بكل

إجلال.

يقول داريافاوش الملك:

«أنت يا من في مستقبل الأيام

تري إلى هذه الكلمات

التي أمرتُ بنقشها في الصخرة

أو إلى هذه الصور،

لا تدمرها!

بل صنّها

ما دام ذلك في استطاعتك».

أتى نظرات لفتت إسفيناً

فك رموز الكتابة المسمارية في ما بين النهرين

أعترف من أعماق قلبي... بأنني حاولت مرات عديدة.. أن أخلى مرةً وإلى الأبد عن دراسة (المنفوشات الأثرورية - المؤلف). لأنني كنت قد فقدت آخر بريق من الأمل في الوصول إلى أي نتائج إيجابية مهما كانت زهيدة.

هنري كريسيوك رولينسون، 1850

إنني أول من يقرأ هذا بعد أن ظل منسياً على مدار ألفين من السنين

جورج سميث، بعد سنة 1861

كان حل رموز الكتابة المسمارية لقدماء الفرس قد أنجز من الناحية العملية، لكن ذلك الحل لم يكن إلا البداية أو الخطوة الأولى نحو حسم المشكلة، إذ إنه لم يطرح سوى إمكانية النفاذ في ماهية الكتابة المسمارية بالمعنى الحرفي للكلمة.

فالكتابة الفارسية القديمة هي ما يمكن أن نسميه بـ «التحول المتأخر» للنظام المختزل من الكتابة المسمارية الحقيقية، ذلك النظام المكيف وفق الاستخدام العملي ضمن ظروف اللغات الإيرانية. فالكتابة الفارسية القديمة لا تشترك تقريباً أي اشتراك مع الكتابة المسمارية الحقيقية (باستثناء الإسفين نفسه بالطبع). لا تشترك تقريباً، إذ إن هذه الكتابة لم تقطع علاقاتها بصفة كلية مع الأجداد كما أن الوسائل المساعدة التي تستخدمها من أجل كتابة الصائتات توضع انحدارها من الكتابة المقطعية.

ولنعد إلى الأذهان أن أوائل الناسخين قد لمسوا في مدونة بيهستون ثلاثة أنماط من الكتابة وافترضوا وجود ثلاث لغات مختلفة وعدوا النمط الأكثر بساطة من بينها كتابة أبجدية فالأكثر تعقيداً كتابة مقطعية فايديوغرافية، واستدوا في ذلك كله على حساب عدد الرموز في كل منها.

وبحل رموز الجزء الفارسي القديم منها تم التوصل إلى مفتاح قراءة الكتابتين الآخرين.

فما هو السبب الذي دفع بملوك الفرس الكبار إلى مخاطبة العالم بلغات ثلاث؟ وبأي لغات؟ إن الوضع التاريخي الذي نقشت فيه هذه المدونات لا يتسم إلا ببعض التشابه مع الوضع الذي اشترط ظهور حجر رشيد.

فالهد الأول للكتابة المسمارية هو كما نعلم، منطقة الهلال الخصيب، أو ما بين النهرين - المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات وتعود في أيامنا هذه للجمهورية العراقية. أما حضارتها الأقدم - الآشورية في البداية ثم البابلية - الآشورية في وقت متأخر (والتي عرفت بالتسمية العامة، الأكادية) - فكانت تبسط نفوذها على الشرق والغرب، وستتناول بحديثنا فيما بعد المناطق الغربية لهذا النفوذ أما ما يخص الشرق فإن العلاقة بالحضارة السومرية ومن بعدها الحضارة البابلية كانت وقفاً، في الأساس، على منطقة كانت تبسط في الجنوب الغربي من إيران - وصارت فيما بعد دولة عيلام وعاصمتها سوس (ولهذا كانوا يقولون وعلى مدار فترة طويلة «السوسانية» أو «السوسية» بدلاً من «العيلامية») وقد اقتبس العيلاميون الكتابة المسمارية عن سكان ما بين النهرين في فترة مبكرة نسبياً واقتبسوا معها اللغة الأكادية أي اللغة البابلية - الآشورية. إلا أن اللغة العيلامية نفسها نالت فيما بعد شرف التخليد في كتابة مسمارية بابلية كانت غريبة على العيلامية (إذ إن هذه اللغة ليست هند أوروبية وليست سامية - بل ولم تدرس بما فيه الكفاية حتى الآن) حتى إذا دخل الفرس إيران عبر أرمينيا في الألف الثاني قبل الميلاد كانت عيلام المركز الأول الذي اصطدموا به ووقعوا تحت تأثيره.

ولما وجد الفرس لدي العيلاميين إدارة رسمية متكاملة حتى ذلك العهد قاموا في البداية بالمحافظة على لغة البلاد وكتابتها لصالحهم (ولم تكتمل لديهم الأعمال الخلاقة في تشكيل النظام الكتابي الخاص بهم إلا في عهد داريوس الأكبر) وبهذه اللغة العيلامية (أو بكلمة أدق - العيلامية الجديدة)، اللغة الرسمية الأقدم للدولة الفارسية وضع النمط الثاني من نص بيهستون.

فهل كانت الثالثة لغة بابلية؟ إن الدولة الخلدية البابلية المتأخرة دخلت في عداد الدولة الفارسية العالمية منذ أن قام كبير الكبير باحتلالها سنة 539 قبل الميلاد. وصارت لغتها اللغة الرسمية الثالثة للدولة وبناء على ذلك فإن كل ما كان يعلن على مجموع الدولة كان لا بد وأن ينشر بهذه اللغات الثلاث.

إن حل رموز الجزء العيلامي من المدونة، على الرغم من أنه كان مشوباً بصعوبات واضحة، فإنه كان يبشر، على ما يبدو، بنجاحات أسرع وتيرة من حل رموز اللغة البابلية التي بدلت للوهلة الأولى متشابكة بصورة تامة. وقد أعطت الحسابات بالنتيجة 111 رمزاً عيلامياً وهو ما كان يشير بدقة مطلقة إلى الطابع المقطعي وليس الطابع الأبجدي أو الأيديوغرافي لهذه الكتابة⁽¹⁾.

قدمت المحاولة الأولى لفروتيفيند شحنة واحدة من الإيضاح في تلك اللوحة من التكتل الفوضوي للرموز التي لم تكن تحتوي حتى ولا على الفاصلة بين الكلمات. فقد تأتى له في جملة الرموز أن يستخرج محدد الاسم العلم المذكور - وهو رمز إيضاحي صامت على هيئة إسفين عمودي يرد قبل الاسم (وليس بعده على ما هي الحال في الكتابة المصرية) وتشير هذه الدراسة المتأخرة لفروتيفيند إلى حدة الذكاء الوقاد لدى الباحث المعجوز.

راح نيلس لودفيغ ويستيرهارد الدانمركي، الذي وجّه إلى إيران سنة 1843، بغية استنساخ المدونات، يعمل بصورة مستقلة على المادة التي توصل إليها، وهو قائمة أسماء البلدان التي استسخت من على الصخرة التي كانت تغطي ضريح داريوس في نقشي رستم. وكان أول من حالفه التوفيق في تدوين مقطوعة من مدونة عيلامية. وكانت هذه الكتابة حسب نظرته أبجدية في شطر منها ومقطعية في شطرها الآخر وقد وقعت في الجدول الذي وضعه والمشمول على 85 رمزاً بعض المحددات التي دخلت بالخطأ والتي لم يستطيع تمييزها. أما اللغة فعدها لغة ميدية.

ولما كان من الطبيعي أن ينطلق الباحثون في حلهم لرموز هذه الكتابة أيضاً من أسماء الأعلام فإن أساس التحرك الناجح نحو الأمام قد تمزّز دفعة واحدة وتوسع عندما نشر البروفيسور المذكور ايدوين نوريس عام 1853 الصيغة العيلامية من مدونة بيهستون. وحتى ذلك الوقت كان

1- تزيد الكتابات المقطعية في رموزها عن عدد الكتابات الأبجدية وتقل في ذلك عن عدد رموز الكتابة الأيديوغرافية نظراً لأن عدد مقاطع اللغة أكثر من عدد اصواتها الأبجدية وأقل عدداً من الكلمات التي يرمز إلى كل واحدة منها برمز خاص وفقاً للكتابة الأيديوغرافية (المترجم).

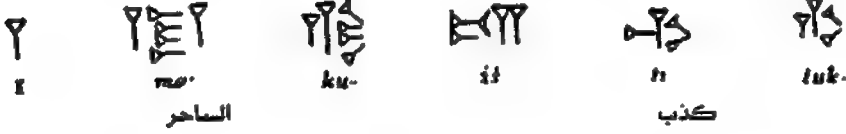
ممرؤها 40 اسم علم فقط. فإذا بالباحثين يجدون أمامهم 90 اسماً دفعة واحدة. ولا بد من الاعتراف بصورة مباشرة بأن قضية إصدار النص وقعت في الأيدي التي تبشر بأفضل النتائج. فقد كانت أعمال ذلك الإنسان تصنف بالدقة الخارقة للطبيعة وبالإثبات المتين. فعند إصدار النص الفارسي القديم لرولينسون (وعلى فكرة فقد كان نوريس قد خط بنفسه الرموز المطبعية الضرورية الجديدة لذلك النص). تمكن من وضع يده على الأخطاء الواقعة في تلك النسخ، (التي لم يسبق أن وقعت عينه على أصولها على الإطلاق!) وأن يكشف مواضع النقص فيها ويضع كل التصويبات المطلوبة. وعندما أسقط رولينسون بطريق الخطأ سطرًا كاملاً اكتشفت عين نوريس الثاقبة النظر موضع النقص وهو في لندن، وقد لفت نظر الباحث إلى ذلك وفيما بعد، وعندما قارن رولينسون تصويبات نوريس والأصل اقتنع بأنها تتفق تمام الاتفاق مع الحقيقة.

هكذا كان ذلك البروفيسور اللندني نوريس المولود سنة 1795 في تاونتون والذي تعلم اللغة الأرمنية وعدداً من اللغات الأوروبية قبل أن يبلغ العشرين. وكان لا بد من الإسراع فيانتظاره، و بانتظار رولينسون والكثيرين من طرازه - منظمة قوية لا تقصر حاجتها على قطاعي الرؤوس السفلة والمغامرين الذين كانت تقوم بنفسها على تربيتهم بكل اهتمام بل وعلى رجال الفكر أيضاً - وهي شركة الهند الشرقية. وقد التحق نوريس بخدمتها وهو في الثالثة والعشرين من عمره وراح يتعلم فيها اللغات الهندية والأفريقية والبولينيزية. وفي سنة 1838 أصبح بفضل معارفه الغزيرة أمين السر المساعد (*assistant-secretary*) للجمعية الآسيوية الملكية في لندن. وبصفته هذه تلقى أول مقال لرولينسون أرسل إلى الجمعية. وقد بهرت هذه الأفاق الجديدة أبصاره؛ فهو يفرق نفسه في دراسة اللغة الفارسية القديمة واللغات القريبة منها في النسب. ولما تظهر الطبعة النموذجية للصحيفة العيلامية لمدينة بيهستون (مترجمة) بإعداد منه كان ذلك يعني المرحلة الثانية من نشاطه العلمي. أما المرحلة الأولى فكان قد أمضاها قبل 8 أعوام عندما قام سنة 1845 وبصورة مستقلة تماماً بفك رموز مدونة أشوكي الصخرية في كابور دي غيري. ولكي تكمل صورة هذا الإنسان الفريد من نوعه نضيف بصورة عابرة أنه ظل على مدى عدد من السنين يرسل إلى رولينسون جميع الأعمال المتعلقة بالكتابة المسماة وعليها تعليقاته الحكيمة فيكون بذلك قد ساعد ذلك الأخير مساعداً كبيراً في أعماله، وأنه بالإضافة إلى ذلك لم يكن على اطلاع فقط على عدد من اللغات الأفريقية بل كان يتكلمها بطلاقة وأنه علاوة على ذلك أصدر نصوصاً كورنية قديمة وكتب عن المصير الفاجع لهذه اللغة (اللغة الكورنية - هي لغة كورينفالس الكلثية التي ولد نوريس غير بعيد عنها، وقد انقرضت بصفة نهائية سنة 1800).



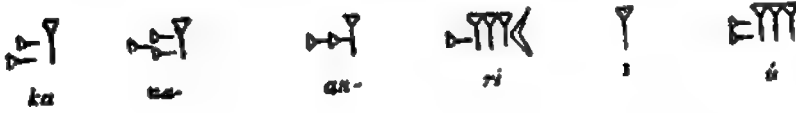
هذا ال

(غواماتا = كامادا)



الساحر

كذب



يقول هو :



(سميرديس = بيرتيا)

ابن



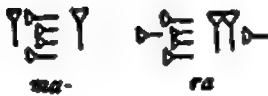
(قورش = قوراش)

انا



السلطة الملكية

أقيم



TUR و LUGAL - إيدجو غرامتان سومريتان - بابلتان

الشكل -41- نص مسماري عيلامي حديث من مدونة بيهستون مع تدوين لفظي وترجمة

فلنعد من جديد إلى اللغة العيلامية. كان نوريس خلال معالجة المادة يفترق من الكنوز

الفنية لأسماء الأعلام التي سمحت له بتحديد القسم الأعظم من الرموز المقطعة العيلامية. وعلاوة

على ذلك فإن الصيغة الفارسية القديمة كانت ملائمة لتحديد معاني الكلمات وصيغها النحوية.

ونقدم هنا نموذجاً من الكتابة العيلامية التي نسخت عن صخرة بيهستون، وهو واحد من النقوش التي أرفقت بتصوير شخصيات منفصلة فوق اللوحة البارزة وهي في حالتها هذه شخصية غاوماتا الذي أطيح به.

للأسف تبقى اللغة العيلامية حتى أيامنا هذه نوعاً من الابن المتبني لمعلم الآشوريات ولم ينته من دراستها حتى النهاية. ويظن أن هذه اللغة كانت تلاحق هذه اللغة حتى في تلك الأيام عندما كانت المهمة الأساسية تتحصر في الحفاظ عليها إذ إنه ليس لدينا أي أثر من تلك الكتابة من عصر ما بعد الأخمينيين رغم أنه بالإمكان الترجيح بأن تلك اللغة ظلت تلمب دور أداة التفاهم الحي حتى نهاية الألف الأول الميلادي.

بيد أنه بقيت هناك واحدة من حبات الجوز وهي أصلب واحدة مما دسّته المدونات الأخمينية للباحثين، فالكتابة المسامرية البابلية كانت في بداية عهدها تشبه قلعة لا يمكن قهرها تقاوم بعناد جميع محاولات فك الرموز. لكنها أخذت تفتقد مظهرها المخيف شيئاً فشيئاً بمقدار ما كان المحاصرون يقتربون منها إلا أنها كانت تتحول شيئاً فشيئاً إلى متاهة أكثر تعقيداً.

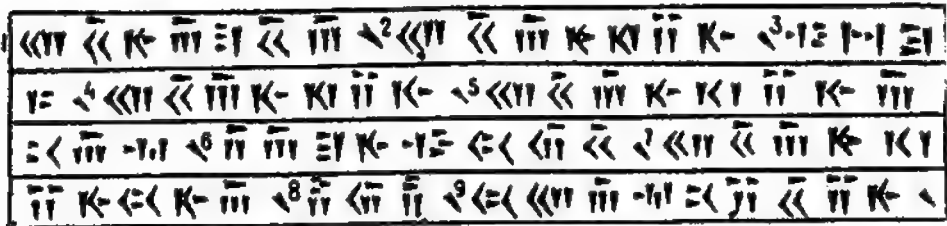
والحق أن الصيغة الثالثة من الكتابة ظلت، على مدى فترة زمنية طويلة إلى حد ما، تعتبر مطابقة للكتابة فوق الآثار البابلية التي كانوا يجيئون بها إلى أوروبا بأعداد متعاظمة أما أول أوروبي جزم بوجود كتابة حقيقية في الرموز المنقوشة على الاسطوانات الطينية وعلى قطع الأجر والأحجار السوداء فكان الكاهن بوشامب، وهو نائب الأسقف العام لبابل وقد طوّف في أرجائها في سنوات 1781-1785. وقام بإرسال قطعة قرميديّة من هذا النوع إلى صديقه الكاهن بارتيليمي في باريس. ومع كل هذا فإن الدفعة التي فاجأت الباحثين في ميدان الكتابة البابلية جاءت من جهة مغايرة تماماً وهو ما سبق أن توفرت المناسبة لذكره. ففي سنة 1839 وبعد بضع سنوات من المصراع التراجيدي للشباب كلاوديوس ريتش قامت أرملته بنشر مذكراته والصور التي استسخنها بنفسه. وبعد سنة من ذلك انكب المستشرق الفرنسي المشهور يوليوس مول على دراستها. فكان كلما ازداد تعمقاً في تلك المذكرات كلما زاد اهتمامه بنسخ المدونات القديمة وكلما تضاعف استسلامه لسحرها. وشيئاً فشيئاً تولدت فرضية تحولت فيما بعد إلى حقيقة مؤكدة وهي: إن ريتش قد اكتشف نينوى وإن صيداً أرخيلوجياً كبيراً يتجاوز أشد التوقعات جرأة بانتظار من يضع قدمه في ذلك المكان.

كان يوليوس مول أخصائياً يحظى باحترام كبير في ميدان بحثه. وكان ذا تأثير كبير في الأوساط الحاكمة. وبدعوة منه عينت الحكومة الفرنسية نائب قنصل في الموصل بمهمة شديدة الصرامة وهي جمع المخطوطات والمواد الأثرية.

أما ذلك النائب فكان طبيباً من تورين اسمه بول إيميل (باولو إيميليو) بوتنا وهو نفس ذلك الـ بوتنا الذي قام خلال بضعة أسابيع بالكشف في خورساباد عن القصر البديع للملك صبارغون الثاني الآشوري.

وحرمت أوصاف هضبة نمروود، التي قدمها ريتش، من الراحة رجلاً آخر كان من أبناء منطقتة، فقام بزيارة تلك الأصقاع مرتين بين 1840 و 1842. كما قام ذلك الفتى الذي كان يبشر بكثير من الآمال - والذي كان محروماً من الألقاب والأموال - بالتوجه مباشرة إلى السير ستراتفورد كائينغ، السفير البريطاني لدى الباب العالي الذي لم يكتف بأن استصدر له فرماناً سلطانياً بإجراء الحفريات بل ودعمه مادياً بأن خصص لذلك الهدف كمية يسيرة من المال. وقد تأكدت تلك الثقة وفاضت - وكان ذلك الفتى هو هنري أوستين ليبارد، الذي غطت شهرته كمكتشف لنمرود على شهرة بوتنا.

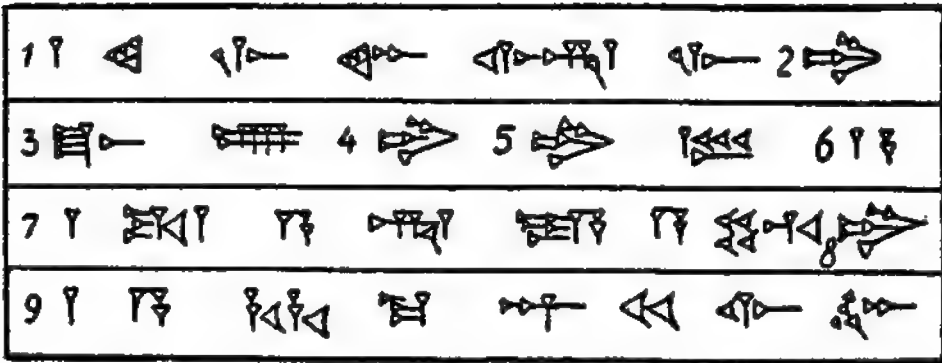
وهكذا قام بوتنا في خورسياباد وليبارد في نمروود خلال أربعينيات القرن التاسع عشر باكتشاف قصرين هائلين من قصور ملوك آشور وعثرا فيهما على مدونات كثيرة. وعندما وصلت هذه النسخ إلى أوروبا وطبعت منها النسخ الكثيرة على الفور تنامي الاهتمام بتلك الكتابة المسمارية التي كانوا يعتبرونها آنذاك خطأ «آخر كتابة مسمارية لم تحل رموزها». بيد أن تلك الكتابة ظلت تتشَبَّث بأسرارها بعناد صامت. ومنذ سنة 1850 كان رولينسون الشهير قد صرَّح وهو ينفذ يديه عاجزاً أمام النسخ التي قام بها ذات مرة بمساعدة الكردي الباسل، قائلاً إنني حاولت «مرات عديدة... أن أتخلى مرة وإلى الأبد عن الدراسة لأنني كنت قد فقدت آخر خيط من الأمل في الوصول إلى أي نتائج إيجابية مهما كانت زهيدة».



(أداء النص بالحروف) (1) $X(a)-\delta(a)-y(a)-e-r(a)-\delta(a)-a$ (2) $a(a)-\delta(a)-e-y(a)-\delta(a)-l-y(a)$
 (3) $a(a)-s(a)-r(a)-h(a)$ (4) $(\delta)(a)-\delta(a)-e-y(a)-h(a)-l-y(a)$ (5) $(h)(a)-\delta(a)-e-y(a)$
 $h(a)-l-y(a)-a-m(a)-e-m(a)$ (6) $u(a)-e-r(a)-y(a)-o(a)-h(a)-u-h(a)$ (7) $(e)-\delta(a)$
 $e-y(a)-h(a)-l-y(a)-h(a)-y(a)-a$ (8) $p(a)-u-(c)$ (9) $\delta(a)-e-(a-r-a-m(a)-n(a)-l-$
 $\delta(a)-l-y(a)$

(يقرا النص هكذا) *Xiayaria xiayalya uszria xiayalya xiayalyandam*
Darayawuwas xiayalyahya paza Hazdemoniliya

كسيركس، الملك العظيم، ملك الملوك، داريوس الملك ابن، الأخميني



(1) 'i-št.-ar-št (2) šarru (3) rabūš (4) šar (5) šarrānīMES.
 (6) mār (7) 'Da-a-ri-la-a-muš (8) šarri (9) A-ša-ma-an-niš-št.'

كسيركس، الملك العظيم، ملك الملوك، ابن داريوس، الملك

الشكل -42- مدونة كسيركس باللغة الفارسية القديمة (إلى الأعلى)
 وبالبابلية (إلى الأسفل) وفق التدوين اللفظي والترجمة

ويمكن فهم ذلك إذا ما أخذنا بالحسبان ضخامة مدونة بيهستون وعدد الرموز الذي يربو على الخمسة.

ولكن ألا يمكن أن يحدث أن يكون هناك، حيث تثير الوفرة الخوف، شيء تافه وغير ملحوظ هو الذي يبشر بأول النجاحات؟

ربما بهذه الطريقة أو بما يقترب منها كان يفكر السويدي ليفينستييرني الذي شرع سنة 1846 بالعكوف على دراسة مدونة كسيركس القديمة التي حملت في حينها نجاحاً هائلاً لغروتيفيند (انظر الشكلين 38 و 39 إلى الأسفل) إلا أن انتباه ليفينستييرني لم يتوقف إلا أمام القسم البابلي الذي راح يقارنه بالفارسية القديمة. إذ إنه كان يعتبر الأخيرة معروفة كلياً بمضمونها وأنها لا تتضمن غير اللقب واسم العلم (الذي كان غروتيفيند قد حدّده لكنه لم يقرأ بعد)، وبكلمة واحدة - كانت هذه الكتابة مادة ممتازة لينطلق منها.

وقد رأى ليفينستييرني ما لم يره أحد من قبله وهو ما يبدو لنا اليوم بسيطاً إلى درجة مضحكة، فقد لاحظ أن كلمة «ملك» الفارسية القديمة (الشكل 42 إلى الأعلى، أرقام 2، 4، 5، 7) وكلمة «ابن» أيضاً (الشكل نفسه رقم 8) يطابقتها في النص البابلي رمز واحد فقط («ملك» إلى الأسفل رقم 2، 4، 5، 8، و«ابن» - رقم 6). رمز واحد لكل كلمة. إن هذا يعني أن البابليين كانوا يكتبون بالكلمات - الرموز. فهل يعني هذا أن كتابتهم كانت أيديوغرافية؟

وهكذا، وعلى أساس من المقارنة بالنص الفارسي القديم حدّد ليفينستينرني وبصورة صحيحة كلا الرمزين - «ملك» و «ابن» (على الرغم من أنه لم يستطع بمد قراءتهما). وبرهن بهذه الطريقة على أن الرموز السامرية البابلية تعني في حالات محددة كلمة بكاملها وعليه يجب اعتبار الكتابة بمجموعها كتابة ايديوغرافية. ولكن أي كتابة هي في واقع الحال؟ بالرموز الخمسة تطابق تلك الرموز الساكنة الخمسة الموجودة في هذا الاسم، والتي، بالإضافة إلى اثنتين من الصوتيات، تميز الصيغة الفارسية القديمة. ولكن من المعروف أن الساميين هم الذين كانوا يكتبون بالسواكن فقط. ومن هنا، ومن مجموعة أخرى من المعطيات، يستنتج أننا نتعامل بصفة مؤكدة مع لغة سامية. وانطلاقاً من هذه التصورات عكف رولينسون منذ عام 1847 على دراسة اللغتين العبرية القديمة والسريانية وفي سنة 1850 قدم إلى الجمعية الآسيوية الملكية في لندن أول استنتاجاته وافترض فيها أنه حدد 80 اسم علم ونحو الـ 150 معنى لفظياً وما يقارب الـ 500 كلمة بابلية. إلا أنه كان باستطاعته التعرف من خلال أعمال هينكس على أن الحق في حل عقدة غوردديوس⁽¹⁾ والإشارة إلى طريق الهداية في متاهات تلك القراءات التي يناقض بعضها بعضاً يعود لذلك العالم الأيرلندي العبري.

فقد تبين فجأة أن الطريقة التي أعطت ثمارها بالنسبة لمديد من الكتابات لم تأت بأي نتيجة أثناء حل رموز الكتابة البابلية. فالمعاني اللفظية التي تم استنباطها من أسماء الأعلام لم تطبق بأي شكل من الأشكال على مفردات أخرى. فقد اتضح (وهو ما عدّ في بداية الأمر برهاناً مثبطاً للعزيمة على أن قراء الرموز كانوا يسبرون في طريق خاطئ) أن كل ساكن يعبر عنه عبر مجموعة من أكثر الرموز تبايناً، حتى أن عددها كان يصل أحياناً إلى ستة أو سبعة أنماط في اللفظ⁽²⁾ واستنتج عموماً أن كل رمز منفصل كان يمكن أن يشتمل على سبع دلالات لفظية وعلى العكس يوجد للتعبير عن لفظ بسيط واحد ومنه الـ ٢ بوجه خاص، سبع رموز دفعة واحد (وفق فرضية ليفينستينرني) ويمكن أن يسمع من بعضهم بأن التجريح اللاذع الذي وجهه فولتير إلى أوائل علماء المصريين بمناسبة شروحاتهم المماثلة التي

١- تقول الأسطورة اليونانية إن غوردديوس، ملك فريجيا، كان قد شدّ عريساً مركبة برباط ضخم بالغ التشابك والتعقيد سمي بـ «عقدة غوردديوس». وتنبأ العرافون بأن من يحلها يملك العالم وقد أعجز ذلك الكثيرين إلى أن جاء الإسكندر المقدوني فحلّ العقدة بضربة من سيفه (سنة 334 ق.م). ومن هنا جاء مصطلح «حل عقدة غوردديوس» ويعني تقديم الحل السريع والحاسم لمسألة معقدة متشابكة. (المترجم).

2- ك حرف S الذي يلفظ في الساميات: س، ث وص. (المترجم).


تفتقر إلى البراهين كان في الوقت نفسه حجراً موحهاً أيضاً إلى أوائل علماء الآشوريات أيضاً. ومهما يكن من أمر فإن محاولات التوصل إلى قراءة موحدة بالنسبة لجميع العلماء ومقننة ومدعمة بالحجج العلمية كان أمراً لا طائل وراءه.

ولا يمكن تصور تاريخ علم الآشوريات دون الحديث عن راعي الكنيسة إدوارد هينكس. كان راهباً ودكتوراً في اللاهوت وهو في صورة أقرب إلى العالم المنعزل منه إلى العالم الأثري الناشط في حقول التنقيب. والحق أن هينكس لم يزر منطقة الحفريات مرة واحدة طوال حياته. بيد أن ما كان يجري بين 1846 و 1850 فوق طاولة عمله كان معركة حاسمة من أجل حل رموز الكتابة المسمارية البابلية وقد خرج الراهب المهزول ذو النظارتين منها وقد حقق انتصاراً مجيداً.

إن سنة 1850، السنة التي أوشك رولينسون فيها على أن «يفقد أي أمل»، حملت أهم الكشوفات التي قام بها ذلك الإبرنندي والتي وضعت العلم الفتي أخيراً على قدميه. فقد أعلن هينكس أن الكتابة البابلية لا تعرف الرموز التي تعبر عن الألفاظ الساكنة البسيطة (يعني أنها لا تعرف الحروف المستقلة) بل هي تتضمن رموزاً مقطعية من نمط صوتي + ساكن مثل *ir, ab* وما إلى ذلك، ومن نمط ساكن + صوتي مثل *ki, da* وما شاكلهما (قراءات ليفينستيرني السبع ما كانت غير رموز مقطعية *(ru, ri, ra, ur, ir, ar)*: وبالإضافة إلى هذه الرموز المقطعية «البسيطة» كان هناك رموز «مركبة» متوضعة على نمط ساكن + صوتي + ساكن مثل *mur.kan* وما إلى ذلك. وهذه المركبات يمكن بدورها، وبهذا نصل إلى أهم الكشوفات، أن تتخذ صورتها في كتابة مركبة *(mur.kan)* وفي كتابة «مقطعة» متوزعة على جزأين: *(mu-ur, ka-an)*.

1. a) 

b) 

2. a) 

b) 

3. a) 

b) 

1. a) *šar*

b) *ša-ar*

2. a) *gir*

b) *gi-ir*

3. a) *lum*

b) *lu-um*

الشكل -43- خواتم الرموز المقطعية بطريقة الكتابة المركبة و «المقطعة»

وعلاوة على ذلك فإن هينكس من خلال استخدامه للأساليب الدقيقة في البحث (إذ إنه تخرج في مدرسة جديدة) اكتشف خاصية أخرى من خصائص المسماوية البابلية وهي أن الرمز نفسه يستخدم لـ أيديوغراما وكرمز مقطعي وكمحدد. وهكذا بدت الرموز المسماوية البابلية «متعددة المعاني».

ولم يكن هذا الاكتشاف في أول أمره إلا مساعداً بالكاد على تعميق الثقة بقراءة الرموز سواء في أوساط الإحصائيين أو في أوساط الهواة.

وفي الوقت نفسه تعرف هينكس على قسم كبير من المحددات وميزها. وأطرف ما في الأمر أنه كان منصرفاً بكليته لدراسة الهيروغليفيات ولعله ما كان ليشفل نفسه بالكتابة المسماوية لو لم يضعه على ذلك الطريق اكتشاف نينوى الذي أحدث دويماً هائلاً في أوروبا بأسرها.

أما الركنان الثانيان للصرح الذي أقيم لفك رموز المسماوية فقد وضعه اثنتان من الباحثين بينما تولت المصادفة السعيدة وضع الركن الثالث.

كان بوتنا أول الباحثين وعنه تحدث أحدهم بشيء من الحدة الزائدة مشدداً بصورة خاصة على أنه لم يكن عالم آثار. فذلك الرجل المتعدد الجوانب - الطبيب والدبلوماسي من ناحية الاختصاص وعالم الطبيعة من ناحية الميول يستحق بجدارة أن يوصف بأنه واحد ممن قاموا بفك الرموز. فقد كانت

أفكاره تدور دوماً حول نقوش قصر صارغون التي تم استساخها بأمر منه. وقد استرعى نظره أن كثيراً من النقوش كان وحيد المضمون على ما يبدو. ولكن عندما كانت تظهر أيديوغراما في إحدى المدونات كان يمكن أن يشاهد في المكان نفسه من مدونة أخرى مجموعات لفظية من الرموز. وقد مكنت مثل هذه التطلعات من توضيح لفظ



- 1 (أ) أيديوغراما isu «شجرة (مادة)».
 (ب) محدد يوضع أمام مسميات الأشجار والمواد الخشبية.
 2 رمز مقطعي iz (و is) وما أشبه ذلك
 2 (أ) أيديوغراما matu «بلاد» و «sadu» «جبل».
 (ب) محدد يوضع أمام أسماء البلدان والجبال.
 2 رمز مقطعي gin. nat. sat. mat. kur وغير ذلك.

الشكل -44- رمزان كان يمكن استخدامهما كأيديوغرامات. وكمحددات وكرموز مقطعية

أمثال هذه الكلمات - الرموز بصورة تدريجية، وتوصل بوتنا إلى استنتاج مهم مؤاده أن الكلمة الواحدة يمكن أن تكتب على صورة أيديوغراما أو بواسطة مجموعة من الرموز المقطعية.

وكان رولينسون، الذي توج سنة 1851 أبحاثه حول حجر بيهستون بنشر الصيغة البابلية، قد اكتشف، رغبة منه في الإسهام بشيء ما في تلك «المتاهة»، أن الرمز المقطعي الواحد يمكن أن يكون له عدة ألفاظ وبكلمة أخرى يمكن أن يكون «بوليفونياً». وكانت هذه هي البوليفونيا الحقيقية التي لا تترك مجالاً للشك والتي لا يحسن خلطها بالبوليفونيا المعتمدة على الاستنتاجات الأكثر قدماً وغير المقننة ولا بالرموز «متعددة المعاني» والمذكورة سالفاً والتي عرضت في (الشكل 44). ومن خلال المقارنات المتواصلة لنماذج المدونات تعرف رولينسون على البوليفونات في قسم كبير من الرموز المسمارية البابلية - الآشورية. وقد دعم نظريته بجدول مكون مما يزيد عن مائتي رمز، وهذا الجدول لم يفقد أهميته حتى وقتنا الحاضر.

تعدد المعاني، البوليفونيا، فهل من المستغرب بعد كل هذا أن تتواكب بكل خطوة تالية يقوم بها علماء حل الرموز بالشك والسخرية. ولم تغد القضية أقل تعقيداً عندما بدأ هؤلاء العلماء بإعادة تركيب المعاني التي تحصلوا عليها لتكون مجموعة رموز تحتوي، حسب رأي غروتينفيند، الاسم التوراتي نبوخذ نصر فحصلوا عوضاً عن الاسم المتوقع «نابو - قودوروي - أصر» (= «الرب نابو، أحم علامة حدودي») تحصلوا فجأة على عبارة لا معنى لها هي «اناكشادوشيش» وبدلاً من سالما نصر («شولمانو - اشاريد») تحصلوا على «ديمانوبار».



1. *ald, sah, ill* 2. *plš, glr* 3. *lat, llb, lab, pah, ner*

الشكل -45- رموز مقطعية بوليفونية

لم يسبق لرولينسون أن قال منذ حين: «لأنني كنت قد فقدت آخر بريق من الأمل»؟. وبقي الوضع بلا مخرج حتى تدخلت أخيراً نينوى بنفسها فبسطت أمام الباحثين، الذين أسبلوا أيديهم، ذلك الشيء الذي كان كل واحد منهم يحلم بأن يقوم بإعداده بنفسه ذات يوم من أجل مريديه وتلامذته - ألا وهو دفتر المعلم، وإن كان ذلك في صورة لوح طيني! وقد تم استخراجها من أرشيف كويونجين (في نينوى) حيث كانت تتواصل حفريات بوثا.

فمقابل المعاني اللفظية السومرية القديمة للأيديوغرامات والتي ما كانت تستخدم إلا في الأوساط الطقوسية والحقوقية، نقشت في هذه اللوحة وبصورة شديدة الوضوح الدلالات اللفظية السامية البابلية - الآشورية وظهرت فيها الألفاظ فيها أيضاً «آن - أك» = «نا - بي - يُم» (= «إله»)، «شا - دوه» = «قودوروي» (= «حجر الحدود، علامة»)، «شيش» = «نصر» (= «حسي»)، ومنه صيغة الطلب «نصر» (= «إحم»). وعلى هذا فإن «آن - أك - شا - دو - شيش» = «نابو - قودوروي - أصر».

إن تاريخ الكشوفات لا يعرف إلا حالات نادرة أثير فيها جهد العلماء المضي بمثل هذا السخاء.

ورغم كل ذلك لم يتسن التخلص من الشكوك المحيطة بالايديوجرافيا وقبل كل شيء من تلك البوليفونيا «السيئة السمعة» في الكتابة المسمارية ثم إخماد أصوات المتشككين. ولم يتم التوصل إلى تحطيم «المقاومة» إلا بفضل مناورة، بل وبما يبدو للوهلة الأولى ضرباً من الجنون، قرر العلماء في نهاية المطاف أن يقدموا عليها.

وكان من بين دارسي الكتابة المسمارية أيضاً شخصان لا يشابه أحدهما الآخر. كان أحدهما إنكليزياً، وتفوق شهرة ويليام هنري فوكس تالبوت (1800-1877) كعالم رياضيات مرموق ومخترع للتصوير (تالبوتايب) على شهرته كمستشرق وهو ما كان عليه بالفعل وهو لم يكن أول عالم إنكليزي يشتغل خلال «أوقات الفراغ»، بالدراسات الشرقية وإذا كان ابن بلاده يونغ، عالم الطبيعة والطبيب، قد توقف عند عتبة الدراسات المصرية فإن الأوساط الثقافية قامت بمبادهة من فوكس تالبوت بوضع سمة المصنوعات الجاهزة على فك رموز الكتابة المسمارية الأكاديمية.

كان تالبوت على علاقة وثيقة ب.س. بيورتنش، عالم المصريات في المتحف البريطاني (وقد تحدثنا عنه في الفصل الثاني). وكان المتحف البريطاني يضم بين العاملين فيه أدوين نوريس وهو القارئ الرئيسي للكتابة العيلامية. ومنهما تقدم فوكس تالبوت باقتراحه فاشتغل نوريس على الفور بهذه الفكرة - وأخذت الجمعية الملكية البريطانية التي كانت أمانة سرها تضع قضية الدقة في قراءة الرموز موضع التجريب. ولهذا وجهت إلى عدد من علماء الآشوريات في وقت واحد نصاً موحداً لترجمته أملاً في أن تحل نتيجة لجهودهم قضية موثوقية كل الأعمال التي أنجزت حتى ذلك اليوم في حقل حل الرموز وبالتالي مستقبل علم الآشوريات الضئي.

التحقق عن طريق التجربة! ولكن من الذي يتحقق؟ لقد كان رولينسون، هينكس وفوكس تالبوت، صاحب المبادهة نفسه، أفضل المرشحين. ولكن على الرغم من أن البريطانيين كانوا أوفر حظاً في المساعدة على تطوير علم الآشوريات فإن القضية لم تكن في الوقت نفسه مجرد عمل بريطاني داخلي. إذ كان من المستحيل غض الطرف عن واحد من سكان القارة هو العالم الفرنسي المتألق أوبرت.

ولد يوليوس (جول فيما بعد) أوبرت (1825-1905) في هامبورغ. وكان طريقه إلى العلم محفوظاً بالمنعطفات الحادة. ومن الطريف، أنه، شأن الكثيرين من علماء اللغويات، ومن المتخصصين في حقل الكتابة، قد وفد إلى هذا العلم قادماً من عالم الرياضيات وإن كان قد

حاول تجريب حظه قبل ذلك بدراسة الحقوق في هايدلبرغ. ومن هايدلبرغ اتجه إلى بون حيث كان ككريستيان لاسين نفسه يقوم بالتعليم. وهناك انفتح أمام الهامبورغي الشاب عالم جديد سرعان ما لقي فيه الاعتراف وحاز على سمعة لم يحظ بها غير القلائل.

إنه يتعلم السنسكريت والعربية ثم، بعد سنتين يقضيها في برلين، يتحصل على درجة علمية في كيلي إلا أن مرحلة بون لم تمض دون أن تخلف أثراً. ففي سنة 1847 صدرت دراسته حول «النظام الصوتي للغة الفارسية القديمة» وفيها يقترب من بعض الاستنتاجات المتعلقة مع ما كان قد تم التوصل إليه في دراسة صدرت سنة 1846 لرولينسون، وهو ذلك الرولينسون نفسه الذي أصبح فيما بعد أكبر صديق لأوبرت.

وكانت رحلة يوليوس أوبرت إلى فرنسا سنة 1847 مرتبطة بالاعتراف بالسمعة التي لا تجاري لهذه البلاد كجزرة للدراسات الشرقية في أوروبا. وبالطبع هو لم يسافر إلى باريس. لا، إذ إنه لم يكن مشهوراً على الإطلاق فلا بد له قبل ذلك من أن يبين ما هو قادر عليه، وهكذا يصبح سنة 1848 أستاذاً للغة الألمانية في ليسيه لافال ثم سنة 1805 في رابيس.

فأوبرت إذن أستاذ في الجمنازيوم، وهو شبيه بما كان عليه غروتينفيند. لكنه لم يكن مجرد أستاذ بسيط في الجمنازيوم بل إنساناً توجه إلى خارج الحدود حياً بالعلم وهناك توصل إلى منصب علمي مجيد.

لم يجلس أوبرت في وطنه الجديد مكتوف اليدين. فمنذ سنة 1852 لفت إليه أنظار الجيل القديم من العلماء الفرنسيين بدراسته التي صدرت في باريس عن المدونات الأخمينية. وعين في ذلك العام وبفضل تأثير أولئك الرجال المحترمين عضواً في البعثة الأثرية التي أرسلتها فرنسا إلى منطقة ما بين النهرين بإشراف فولفغينغسي فريسنيل الشهير. أما الدراسة التي أصدرها سنة 1860 في مجلدين (وخصصت لتلك البعثة) والتي اعترف فيها عموماً بقراءة رولينسون بعد أن حسن ووصوب في الوقت نفسه بعض تفاصيلها، فقد فازت بجائزة المعهد على الرغم من الهجمات العنيفة التي وجهها اللورد غوينو إلى منهجه.

ويتسم المنطف الجديد في حياة أوبرت العلمية برفضه قسم الدراسات السنسكريتية وانتقاله إلى قسم الدراسات الآشورية في الكوليج دي فرانس. وكانت هذه الخطوة الشكلية مجرد تنويع عام لذلك العزوف، الذي نضج في أعماق البروفيسور، عن الهند القديمة وانتقاله إلى معسكر علماء الآثار وعلماء اللغات المنصرهين إلى دراسة ما بين النهرين.

ومن المبهج الإشارة إلى أن أوبرت لم ينظر يوماً بعين الحمسد إلى توفيق زملائه ولا إلى نجاحاتهم العلمية أو الأدبية. حتى أنه بعد أن كسب احترام الجميع كأخصائي ثم بعد أن

شغل منصباً مهماً في ميدان تخصصه بقي محافظاً على أعمق العلاقات الروحية مع العلماء الشبان الذين كانوا يجرون في أعمالهم بعض التصويبات على دراساته الأولى الخاصة. وقد قال مرة لأحد تلامذته أثناء زيارته الأخيرة لهيدلبرغ وكان قد طعن في السن: «إن أحداً لم يعتبرني في أي يوم من الأيام قادراً على التشبث بمناد بفرضياتي المبكرة» وقد كتب ذلك التلميذ، وهو كارل بيستولد في رثائه له:

«إن أولئك.. الذين تسنت لهم بيننا سعادة إقامة العلاقات الشخصية مع ذلك العالم المرموق والإنسان الرائع يحتفظون في قلوبهم بصورته الجذابة. وهل كان لأحد إلا أن يؤسر لتينك العينين الألاقتين في وجهه الرائع وتلك القوة الفريدة وانطلاقة الروح في ذلك الجسم المليء بالحياة؟ ولو قدر لأي إنسان أن يسمع ذلك الحوار العلمي بين «المعلم» و «التلميذ»، بين الجنرال الإنكليزي المهيب الصامت والقيم على المتحف (رولينسون - المؤلف) وبين البروفيسور الباريسي المستمد دوماً للمناقشة، الدقيق اللسان، الفياض بسرعة البديهة والعضو العامل في المعهد لكان ذلك بالنسبة له حدثاً فريداً»⁽¹⁾.

والحق أن أوبرت كان أحياناً لا يتحفظ في كلامه فكان بذلك يحزن زملاءه وأصدقاءه. إلا «إن طبيعة العالم الخلاق المفتحة ذات المروءة» كانت حافلة بالنمط الأرفع مع الأضكار، ذلك النمط الذي يميزه كإنسان وكباحث. «إن كلاً منا لا يملك فقط الحق بل وأن من واجبه أن يكتب وأن يحفظ عنه هذا - وهذا فقط - أنه كان يعترف من تلقاء نفسه، بعد تصويب ما، بأن ذلك التصويب صار واحداً من فتاعاته الراسخة الخاصة»⁽²⁾.

وهكذا كان من الضروري بلا شك اجتذاب أوبرت إلى العمل الذي جرى التخطيط له. يضاف إلى ذلك أن المصادفة جمعت سنة 1857 بين رولينسون، هينكس وهوكس نالبت وأوبرت في لندن. وبكلمة أخرى فإن الجمعية الآسيوية الملكية بدأت عملها بوجود أمين سرها الناشط نوريس.

وفي مغلقات مغلقة أرسلت إلى الباحثين الأربعة نسخ من المدونة المسمارية الواحدة التي لم يكن ممكناً أن يعرف أي منهم مضمونها حيث إنها كانت قد اكتشفت نتيجة إحدى الحفريات. أما المدونة نفسها فكانت منقوشة فوق ثلاث أسطوانات طينية مشوية وتعود بتاريخها إلى عهد الملك الآشوري القديم تاغلات بالاصر الأول (1113-1074 ق.م) وكان على العلماء الأربعة أن يترجموا النص بصورة مستقل فيها أحدهم عن الآخرين ثم أن يعيدوا الترجمة.

1- C.Bozold. Julius Oppert,- Zeitschrift für Assyriologie , Bd 19.1905-1906, Ss, 169-173.

2- المصدر السابق

أما تالбот، هينكس ورولينسون فراحوا يعملوا على نص موحد مطبوع بالطريقة الليتوغرافية بينما قام اوبرت، ذو الطبيعة الخاصة، بإعداد نسخته بنفسه. وأعيدت الترجمات المختومة إلى الجمعية حيث نظرت فيها لجنة الحكام وقامت بعد ذلك بمعد اجتماعها المهم. واتضح أمام العالم كله على الفور أن علم الآشوريات الفتى يقف على أساس متين. فقد تطابقت الترجمات في جميع نقاطها الأساسية.

وكان لا بد من الاعتراف بالطبع بوجود بعض جوانب النقص. أما ترجمتا رولينسون وهينكس فكانتا أكثرها تطابقاً بينما استقرت بعض الأخطاء في ترجمة فوكس تالбот، أما الصيغة التي قدمها اوبرت فاشتملت على بعض النقاط المثيرة للشك. وعلى أي حال فقد استقر رأي لجنة الحكام على أن تلك هذه الرموز أصبح حقيقة واقعة.

قد يتراءى أن بالإمكان الآن الانتقال من الملماء الذين حلوا الرموز إلى نتائج بحثهم ولكن القيام بهذا العمل يعني التجامل بغير وجه حق لشخصية مثيرة وجديرة بأسمى واجبات الاحترام. وهذا الإنسان هو الذي سنتناوله بالحديث لا ينتمي إلى علماء حل الرموز بالمفهوم الضيق للكلمة (على الرغم من أنه شارك في فك رموز كتابة أخرى) إلا أن اسمه يرتبط بصورة لا فكاك منها بالدراسات في هذا المضمار.

فخلال تلك السنوات التي كان رولينسون يمارس فيها نشاطه كعميل سياسي في منطقة كانداغار ولد في تشيلسي، وهي ضاحية من ضواحي لندن، وفي أسرة أحد الفقراء، طفل أسموه جورج، جورج سميث (1840-1876) وقد ابتسم الحظ لذلك الطفل الذكي الذي ظهرت لديه سمات الموهبة الفنية. فعندما كان في الـ 14 من عمره قبل تلميذاً في شركة بريد بوري ويوهانس الواقعة في شارع باوفاري ستريت. وكانت متوقفاً له أن يصبح نقاشاً على النحاس، أخصائياً في وضع رسوم الرموز النقدية، وهذا يعني أن قطعة خبز لا بأس بحجمها ستكون مضمونة له في المستقبل.

بالإضافة إلى العمل الذي حقق فيه وبسرعة نجاحاً كبيراً كانت له «هوايته» الخاصة، وهي شاغل أثيرلديه، شاغل كان طبيعياً جداً في بلاد البريت الذين ما كانوا يدعون مناسبة إلا ويتحدثون فيها عن شغفهم التقليدي بالكتاب المقدس. وهكذا فإن قراءة الكتاب المقدس كانت هوايته وفيه كان يقرأ تواريخ العهد القديم بكثير من الاستمتاع. كما أنه قرأ جميع مؤلفات الآداب الشرقية التي كان بمستطاعه أن يحصل عليها وأن يتفهمها. أما في المتحف البريطاني فكان يتفحص بعيني الدهشة كل ما تصل إليه يده من المواد العائدة للماضي والتي كانت معروضة هناك بكميات كبيرة في تلك السنوات. «ومع

ذلك فالكتاب المقدس على حق، إن تلك العبارة أصبحت القوة المدافعة لأبحاث ذلك النقاش الفتي.

واتضح فيما بعد أن للطرق على النحاس وجهه الإيجابي. فهو الذي فتح الطريق أمام الشاب نحو الشهرة الأوروبية، ذلك الطريق الذي كان مقدراً عليه أن يُقطع في وقت مبكر وبصورة مأساوية. فقد تمكن سميث من المشاركة في نقش القوائم العائدة إلى عمل رولينسون الضخم في الكتابة المسماة الآشورية. فأتجه قلب الفتى المتعطش إلى المعرفة بقوة لا تقاوم نحو الرموز الجذابة، الغريبة والمنلفة بالأسرار. وراح، بكثير من الوحي والانبهار، يتأمل في روعة وتناسق ذلك المزيج المختلط من الأسافين والزوايا - فآثار ذلك الماضي السحيق بسطت عليه سلطانها السحري.

وقد اجتذب ذلك القارئ الذي لا يكل، التلميذ والشغال المهتم، إليه أنظار صمويل بيورثش الذي سلف ذكره والذي كان بحاثاً ثم حافظاً للمتحف البريطاني. ورأى بيورثش أن من الضروري التدخل في مصير الفتى الموهوب، وهكذا أصبح جورج سميث وهو في الـ 21 من عمره ثنائاً ترميم في المتحف البريطاني، مهمته أن يمدّ اللوحات العلينية من الشظايا المفتتة التي تم العثور عليها أثناء حفريات كويونجيك وهنا بالذات ظهرت فائدة تجربته فقد أبدى نجاحاً ملموساً في عمله. ولم يطل به الوقت حتى استوعب عادة قراءة الكتابة الأكادية المسماة الصعبة حتى تجاوز بعيداً العلماء والمتخصصين. وصار يقرأ بكل سهولة اللوحات بل و«يلتهم» مضمونها بالمعنى الحريج للكلمة. وما أسرع ما غاص ذلك الـ سميث الذي لا يكل في عمله على «الشظايا» وكم انهال بلغاته على ذلك الضباب اللندني اللعين والذي (ليأخذه الشيطان!) لا يسمح للإنسان بالمضي بعيداً في قراءة اللوحات. أما على ضوء المصباح (وما قيمة الضوء الذي يعطيه المصباح!) فقد كانت القراءة مستحيلة تماماً فكان لا بد من الانتظار إلى يوم يصحو فيه النهار إلى حد ما، وإلى أن يأتي ذلك اليوم.. فلا بد من الاستسلام للضباب.

ويبلغ نشاط جورج سميث أعلى ذراه في سنتي 1872-1873 أما مقدمة تلك الكشوفات الكبرى فكانت الحل الجزئي لرموز الكتابة المقطعية القبرصية والتي قام بها، كما يمكن القول، بطريقة جانبية، أما هذا فسيطور الحديث عنه في فصل آخر.

استقبلت سنة 1872 جورج سميث منكباً على لوحاته الإسفينية (التي كانت في هذه المرة قد أرسلت من قبل أورموزد رسام، وريث لبيارد، من نمرود) وفضة برز شيء ما شد إليه أنظار البحث، وتسارعت أنفاس سميث، فلم يكن ثمة أمامه جدول عادي بالمعدات ولا مدونة تتحدث عن بنيان ما بل قصة تقوح بأسفار الشرق وتغلفها أسرار آلاف السنين - ملحمة عظيمة في مضمونها - أغنية عن

أمجاد البطل جلجامش الذي انطلق باحثاً عن الخلود. ومن الغريب أن مضمون القصيدة يزداد تعقيداً كلما أمعن الباحث المحرّب في التوغّل ضمن متاهات الكتابة المسمارية.

وفي الوقت نفسه يبدو النص مألوفاً بالنسبة له إلى درجة عجيبة. فهو يقرأ عن البطل جلجامش، الذي ثلثاه للإله وثلثه للإنسان وقد أمر ببناء سور ومعبد لمدينة أوروك القديمة. فأهل المدينة يضحجون بالشكوى تحت وطأة العمل الشاق ويستصرخون الآلهة لتجدهم فيرق لهم قلب الإله أروو، وتخلق البطل أنكيبدو، وهو إنسان يغطي الشعر ويجوب الغابات ويميش برفقة الوحوش، وكان على أنكيبدو هذا، وهو الذي يضاهاى جلجامش، قوة أن يرغمه على رفع ذلك العمل المضني عن كاهل الشعب، ويصطرع أنكيبدو مع جلجامش بعد أن كان غرامه بماهرة المعبد قد روضه فينهزم في الصراع المشرف ويصبح البطلان صديقين، ويقهران معاً الشرير خومبابو، مالك غابة السرو وحامياها، ويقتلانه. ويلوح جلجامش برأس خومبابو، كما يصرعان معاً الثور السماوي، ذلك الوحش الخرافي الذي أرسلته الإلهة عشتار انتقاماً لحبها المرفوض، بعد أن شفقها جلجامش حباً. لكن ها هوذا الموت يخترم انكيبدو وينطلق جلجامش يطلب الخلود.

إنه يعرف من يسدي إليه النصح: إنه الجد الأول أوت - نايشتيم، وهو الوحيد الذي كان قد نجا من الطوفان الأعظم الذي أغرق الكون... الوحيد... الذي نجا من الطوفان الذي أغرق الكون...؟

إن جورج سميث لا يصدّق عينيه: هنا، في الألواح الطينية الآشورية طوفان يفرق العالم؟ ومع كل ذلك لا يمكن أن يكون هناك شك. ويواصل سميث قراءته بحمية وتسارع - هوذا أوت - نايشتيم يحدث جلجامش بذلك.

ولكن لم يبق هناك شيء فوق الألواح والشظايا التي يتفحصها ويدقق فيها ثم تتسارع فوقها أنظار ذلك الباحث المهتاج. لقد انتهت المقطوعة بعد أن خلّته في جهل مطبق بما حدث للأبطال. ولكن من أين جاءت هذه الألواح؟ من نمرود أو من قالة كما أسماها سفر «التكوين».

إن سميث، شأن الغالبية من معاصريه، ممن تربوا على الكتاب المقدس، يدرك أكثر فأكثر أن أمامه الكتاب الخلدني من «التكوين» وأنه يتضمن ما ينتظره العالم المتجمد دهشة: الإخبارية المتعلقة بالطوفان الأعظم.

في البداية «تجمد» أعضاء جمعية العاديّات التوراتية، الذين قدم إليهم سميث بتاريخ 3 كانون الأول (ديسمبر) سنة 1872 تقريره عن اكتشافه! فبما للخبر الذي لم يسبق له مثيل؟

وانتشر الخبر الخاص بالطوفان البابلي بسرعة البرق، وعندما عبر سميث عن فتاعته بأن القطعة المفقودة يجب أن يجري البحث عنها في المكان الذي عثر فيه على البداية - أي في خرائب نمرود، حيث كان يعمل اورموزد رساماً، لقي ذلك صدى تجاوز كل حدود المتوقع؛ فقد وضعت الـ «ديلي تلغراف» جائزة كبرى لذلك الذي يعثر على الألواح والقطع المفقودة.

وفي ذلك الوقت كان جورج سميث الوحيد القادر على القيام بذلك العمل. إذ كان أهم شيء هو التعرف على الألواح والقطع المفقودة بين جبل كامل من الكسور. وربما تكون قد أخرجت منذ بعيد إلى النور وشوه مظهرها ورميت في مكان ما إلى الجنب وربما شوه النص فيها إلى درجة أن أحداً لا يعيرها أي التفاتة.

كان جورج سميث الوحيد القادر على إيجاد ما كانت تنتظره إنجنتر المتوترة وعالم العلم بأسره وهواة العالم القديم وأوساط كبيرة ممن لا يعرفون عن ذلك إلا القليل. وقد عرف المتحف البريطاني بذلك فمنح جائزة لأفضل باحثيه دون أسف على ذلك.

وفي أيار (مايو) سنة 1873 كان جورج سميث يمسك بيديه ما كان يمثل هدف رحلته بطولها؛ قطعة تضم سبعة عشر سطراً مسمارياً؛ والطريف أنها السبعة عشر سطراً التي كانت سقطت من العمود الأول من الإخبارية البابلية عن الطوفان الأعظم.

الآلهة يفتقدون اجتماعاً برئاسة اينليل الرهيب. لقد فاضت خطايا البشر على آنية الصبر لدى الآلهة فلا يمكن غسلها إلا بمحق الجنس البشري. لكن قلب ايبا يرق على البشر فيرسل إلى صفية المحروس من قبله أوت - نابشتيم حلاً يعلم هذا بواسطته بالخطر المحقق بالكون. وتأمّر الآلهة أوت - نابشتيم بأن يبني فلحاً يُنجي فوقه نفسه وأهل بيته وريّانه و «بذور حياة كل نوع». وأطاع أوت - نابشتيم الذي يخشى الآلهة. ثم انشقت أبواب السماء وكل ما كان قبل ذلك إنساناً استحال «طيناً» أما أوت - نابشتيم فقد طاف في فلك النجاة فوق الأمواج المتلاطمة، طاف ستة أيام وسبع ليالٍ إلى أن انحسر الطوفان واستقرت سفينته على جبل نصير. وعلى نحو ما فعل نوح أنفذ أوت - نابشتيم «رسولاً» - حمامة بعد سبعة أيام. وبعد سبعة أيام أخرى أرسل قبرة وعاد كلاهما دون أن يرى أثراً للبابسة، ومضت سبعة أيام فأرسل غراباً فغاب الغراب ولم يعد، فأوقف أوت - نابشتيم السفين وقدم ضحايا الشكر إلى اينليل، فهدها اينليل وزوجه وريّانه إلى «مصب التيار» حيث صاروا يعيشون كالآلهة.

لم يقدر لسميث - شأن ما قدر لرولينسون، بوتاً وليبارد أن يجد لغة مشتركة مع أبناء البلاد الغريبة أو من كانوا يسمونهم آنذاك بـ «المتوحشين».

كانت غريبة عليه نفسية أولئك الناس الذين كان يقابلهم فعجبوا عنه ثقتهم ومنعوه ودّمهم. لقد كان على اطلاع على كتابة ولغة السكان الأقدمين في ما بين النهرين بل وعلى حياتهم الروحية إلا أنه لم يفهم نمط حياة أحفادهم ولا طراز تفكيرهم ولم يكن يلقي بالأى إلى أيديهم الممتدة نحوه تطلب «البخشيش».

أما رحلته الثالثة والأخيرة والتي منح السماح بها بفرمان خاص صدر سنة 1876 فقد بدأت بطالغ نحس. إذ كانت الكوليرا قد استشرت في حلب والحزازات القبلية قد مزقت البلاد. وأخيراً فقد قضى رفيقه وصديقه الفنلندي اينيبيرغ في بغداد.

بيد أن جورج سميت الهادئ المنطوي على نفسه لم يكن من ذلك الضرب من الناس الذين يمكن إدخال الهلع على قلوبهم وبخاصة إذا ما كان الحديث يتعلق بمعله المحبوب. وأحياناً ما كانت تحدث له أمور عجيبة فيتصرف كمن به مس، وكان أصدقاؤه القريبون منه على علم بذلك.

ففي ذات مرة في لندن وبينما كان يعالج قطعة كبيرة من لوحة طينية من مجموعة كوينجيك اكتشف أن أحد وجوه القسم الأهم من هذا النص مغطى بطبقة سميكة من مادة بيضاء شبيهة بالكلس، يصعب التخلص منها. وكان لا يمكن أن يقدم مساعدة في ذلك غير شخص واحد - هو فتان الإعادة ريدي الذي كان لديه مزيج للتخلص من الشوائب إلا أنه كان ينظر نظرة مفرطة في الشك إلى كل المحاولات الرامية إلى النفاذ نحو معرفة «وصفته». ولأسف سميت العميق كان ريدي مسافراً. ولكنه عاد بعد مضي بضعة أيام وأزيلت الشوائب بصورة في غاية الإتقان وسلمت اللوحة الأثيرة إلى سميت.

وفي ذلك الوقت كان سميت يعمل مع رولينسون في غرفة واحدة تقع فوق مكتب الجمعية الآسيوية الملكية. فأحضروا اللوحة واختطف سميت القطعة المنظفة بفارغ صبر وراح يتحصنها ويتلمس النص فوقها وتطلق صرخة فرح من صدر ذلك العالم: «إنني أول من يقرأ هذا بعد أن ظل منسياً على مدار ألفين من السنين!» وإذا بالجميع يستديرون ويندفعون نحوه. وكان رولينسون ومعاونوه على استعداد لتقديم تهانيم راضين في أن يعرضوا على ما أثار اندفاع ذلك السميت الكثير التبصر البالغ الهدوء. لكنه يضع اللوحة من يده ويبدأ وهو في هيجان الفرغ، يزرع الغرفة بخطى هائلة قاسية ثم يأخذ فجأة.. بالتجرد من ملابسه أمام «دهشة الحاضرين الكبيرة» على حد تعبير أحد كتاب السير الإنكليز.

وبهذه الخطى القاسية كان يضرب في أرجاء سوريا إبان رحلته الأخيرة إليها. كان يخطو تحت سياط الشمس المتلظية دون اهتمام بتحذيرات القنصل الفرنسي ودون أن يلقي بالأى

إلى كل النصائح الطيبة - إلى الأمام - وإلى الأمام فقط. ولم يكن يقتات إلا بالطعام المحلي الذي لم يكن يحتمله والذي لم يكن يمد جسده بالقوة.

أحس بالضعف. ربما كان يمكن أن أشفى لو وُجد طبيب هنا. لم يحضر. شيء مريب جداً؟ وإذا كان الموت، فوداعاً...

أعمالي كلها مكرسة للعلم.. أأمل أن يهتم الأصدقاء بأسرتي... واجبي أدبته بثبات... لا أهاب النهاية، لكنني كنت أود أن أعيش «من أجل الأسرة.. ربما تمر بسلام».

كان هذا كل ما استطاع أن يسجله في مذكرات يوم 12 آب (أوغسطس) سنة 1876. وجيء بجورج سميث وهو في مرض الموت، وقد هدّه الهزال، إلى منزل القنصل البريطاني في حلب حيث قضى في الـ 19 من آب (أوغسطس) سنة 1876.

ويوفاته تمت الأغنية البطولية لعلم الآشوريات في مرحلته الأولى، فهو يقف في نهاية القائمة بالنسبة لتاريخ قراءة رموز الكتابة المسمارية البابلية - الآشورية.

وربما كان من الواجب التعريف بالصعوبات التي ارتبطت بإيضاح اللغات الأخرى التي تم اكتشافها بفضل الكتابة المسمارية - كالحورية -، الأورارتية والعميلية القديمة. إلا أن ذلك يخرج عن نطاق كتابنا، كما أن الدراسات في جميع الميادين المشار إليها تسير بخطى ثابتة.

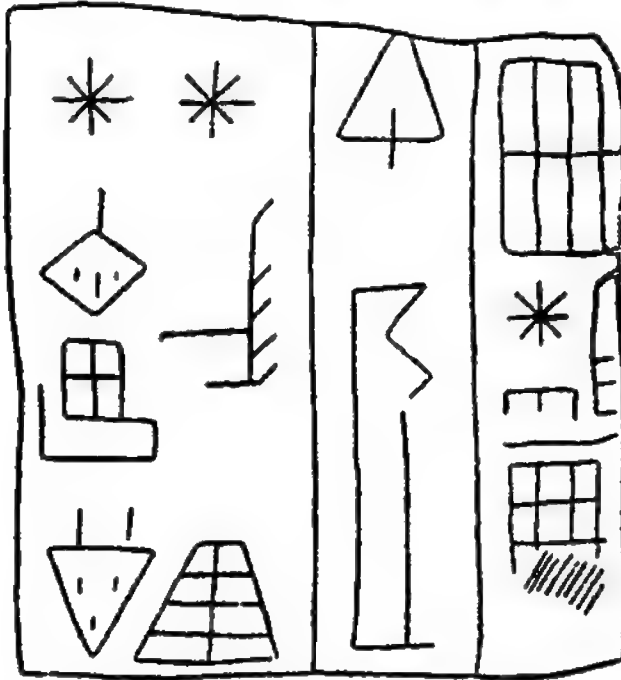
فلم يتبق علينا إلا أن نقدم جرداً ختامياً ووصفاً موجزاً لطابع المسمارية الأكادية وملامحها الخاصة.

أكدت الحفريات التالية الفرضيات التي طرحها كل من هينكس وأوبرت حول مصدر هذه الكتابة. فقد ثبت أنها ليست اختراعاً أكادياً أو بابلياً أو آشورياً. بل وأن مخترعها كان شعباً أكثر قدماً - هو شعب السومريين الذين لم يعرف موطنهم الأول حتى اليوم؛ ومنهم انتقلت الكتابة المسمارية إلى الأكاديين. فاللغة السومرية تلك التي تقابل اللاتينية الكنسية بالنسبة للشرق القديم⁽¹⁾ (إ. فريدريك) لم تكن بالكاد مفهومة من طرف كهنة بابل، وهو ما يفسر إعداد جداول المفردات والقواعد والترجمات البابلية للنصوص السومرية الكبرى. وبفضلها تمكنا نحن أيضاً من النفاذ في أسرار هذه اللغة الغابرة كما تمكنا بفضل الصيغ الأكثر قدماً من الكتابة المسمارية الأكادية أن نكتشف الصيغ السومرية الأقدم. وهنا

1- تركت اللاتينية الكنسية تأثيراً كبيراً على البناء اللغوي لكافة لغات أوروبا الحديثة وعلى نمطها النحوي وكتابتها، وقد تركت السومرية مثل هذا التأثير على لغات العالم الشرقي القديم (المترجم).

تمنى للباحثين أن يكتشفوا كامل طريق تطور الكتابة المسمارية - الطريق الممتد ومن الصورة إلى الحرف، ذلك الحرف الذي لا يمكن تصوّره بحيازتقا فقط على الأشكال الأكثر تأخراً من الرموز المسمارية، كما أن من المستحيل فهمه دون معرفة المادة المستعملة للكتابة.

فما بين النهرين - أرض طيبة، وقد سخّط الطبيعة هنا في تقديم المواد الخاصة بالكتابة، ولم يكن يلزم إلا أخذ هذه المادة وإعطاؤها الشكل المناسب. إنه الطين الطري (وفوقه كان يمكن ضغط الرموز الكتابية بواسطة عود من الخشب أو قصبه محدّبة ثم كانت اللوحات الطينية توضع بعد ذلك في الفرن حيث تكتسب صلابة إلى درجة يمكن معها أن تبقى لمدة آلاف السنين.



وفي الأزمنة الأبعد قديماً عندما كانوا «يكتبون» قليلاً وكان ما يكتبونه ينقش في أغلب الحالات على الحجر لم تكن تظهر إلا الخطوط المنثورة البسيطة. وعلى صورة هذه «المدونات» المنثورة وصلتنا أقدم «النصوص» السومرية التي يمكن تأريخها. وكشاهد على ذلك نقدم هنا في (الشكل 46) طبعة من خاتم قرميدي.

الشكل -46- طبعة من خاتم الملك نارام - سين على قطعة من الأجر عشر عليها في نيبور (2270-2233 ق.م)

ومما لا يدع مجالاً للشك أن الخطوط المستقيمة كانت ترسم في مثل هذا «النمط» من الكتابة بصورة أسهل بكثير من الرسوم المدوّرة. ولم تلبث المادة (وكانت لا تزال من الحجر) أن فرضت تأثيرها الأول التبسيطي والأسلوبى، وهو ما نلاحظه في هذه الأشكال الأقدم من الرموز، ذلك التأثير الذي أدى فيما بعد إلى التخلي عن الخطوط الدائرية

والانتقال إلى المستقيمة، ومع كل هذا فإن الطابع التصويري في مثل هذه الأشكال لا شك فيه.

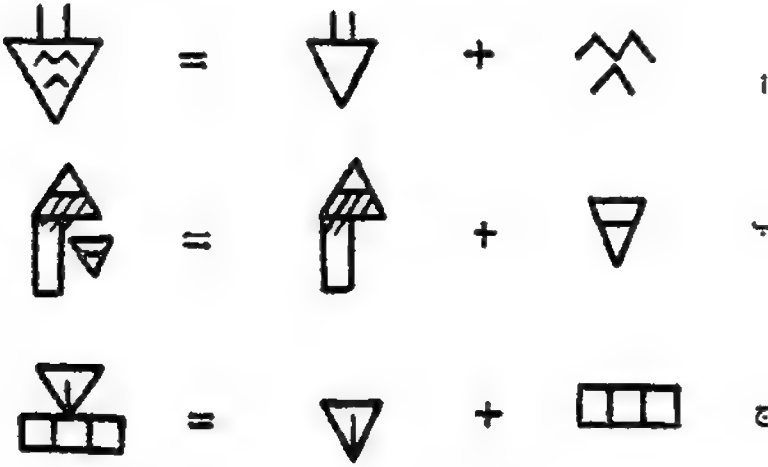
وقد بدأ السومريون يدخلون هذه الرموز التصويرية المبسطة في وقت مبكر جداً في تراكيب مختلفة وقبل كل شيء في الحالات التي يريدون فيها أن يمبّروا لا عن الأشياء المحددة بل عن المفاهيم المجردة الجديدة. فبالجمع بين رمزي «ثور» و «بلاد جبلية» ظهر رمز «الثور المتوحش» (الشكل 48 أ) ومن رمزي «فم» و «خبز» ظهر فعل «أكل» (الشكل 48 ب) ومن رمزي «امرأة» و «رداء» ظهر رمز «سيدة» (الشكل 48 ج).



الشكل -47- أقدم الأشكال الأيديوغرافية للرموز المسمارية

إلا أن تطور الرموز المكتوبة لم يتوقف عند الخط أو التشظية. فبازدياد انتشار الكتابة وبياعداد نفسها للتعبير عن الاحتياجات اليومية لأوسع الأوساط الشعبية بدأ الحجر والإزميل يدخلان غياهب التاريخ وأخذت الألواح الطينية والقصبه والعمود تحقق انتصارها الساحق.

وبنتيجة الإمساك بالقصبة والعود فوق سطح المادة التي يكتب عليها وفق زاوية معينة كان النصل ينضغط أعمق في الطين ويترك أثراً إسفينياً نموذجياً يميل في نهايته إلى الاتساع؛ وبهذه الطريقة بالضبط ظهر العنصر المميز الآخر للكتابة الإسفينية - وهو المثلث. وبهذه الطريقة ازدادت الكتابة بمرور الزمن عن الطريقة الرسمية الأولى في تصوير الرموز أما غير العارفين فبالكاد يستطيعون الآن أن يميزوا في الصيغ النهائية ذلك الشكل التصويري الثاوي في صلب كل منها. والمراحل المنفصلة من تطور الكتابة والتي تنعكس في الوثائق تسمح لنا بتتبع الكيفية التي أخذ بها الناس، وهم يكتبون من الأعلى إلى الأسفل، يحركون اللوح بمرور الزمن تسعين درجة نحو اليسار وذلك ليتمكنوا من الكتابة بصورة أسرع.



الشكل -48- رموز تصويرية مركبة

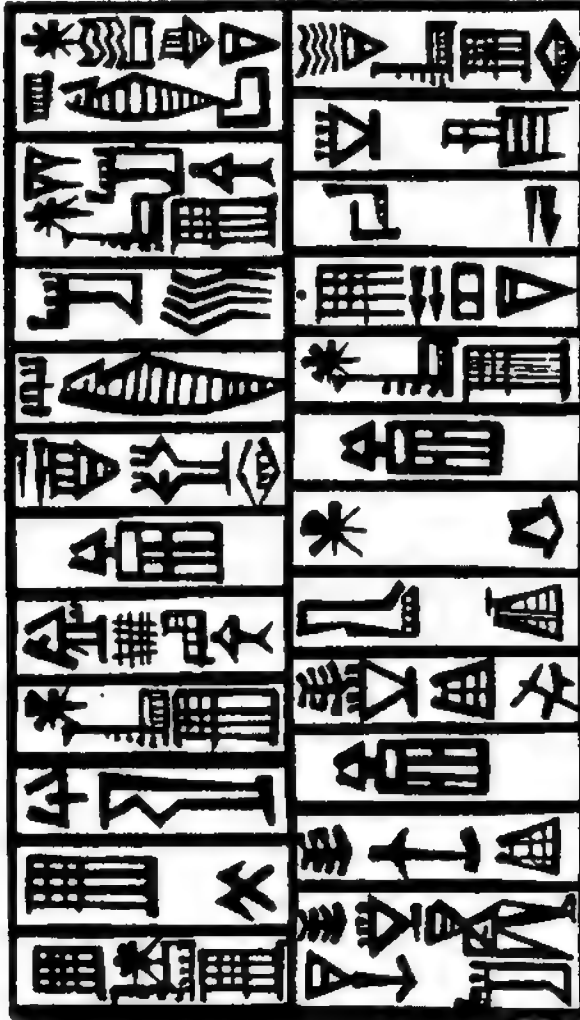
ولعل مدونة الملك شاركايشاري الأكادية القديمة (الشكل 49) أفضل ما يمكن أن يستعرض الانتقال من الصورة إلى الإسفين.

وهي مدونة معمارية للملك تتعلق ببناء معبد اينليل في نيبور وتتضمن الصيغة المؤلفعة للمنة التي تحل بمن يمد يده بالأذية نحو تلك الوثيقة.

وتظهر الفروق المحلية والزمانية في صلب الكتابة الإسفينية الأكادية أيضاً. والأنماط الأكثر قدماً (البابلية القديمة والبابلية الوسطى، الآشورية القديمة والآشورية الوسطى) هي أكثر تعقيداً من الكتابة البابلية القديمة والآشورية القديمة. وليس لدينا إمكانية التفاد في هذه التفاصيل الدقيقة بل وهي بالكاد تتميز عن بعضها بالنسبة لعين غير الأخصائي.

وبالإضافة إلى هذا قد لا يكون من الأمور المزعجة أن نحاول في نهاية هذا الفصل النظر إلى البناء الضمني للكتابة الأكادية المسمارية.

لا بد لنا وأن نعترف هنا بأن المظهر الخارجي لهذه الكتابة خادع إلى درجة أنه لا يشي بالشيء الأساسي، وهو التشابه المذهل (التشابه الضمني في بناء الكتابة وفي طابعها) بين الكتابة الإسفينية والكتابة المصرية.



الشكل -49- منقوشة معمارية
باللغة الأكادية القديمة

فهذه الكتابة أيضاً تتضمن ثلاث مجموعات من الرموز: الأيديوغرامات والرموز المقطعية والمحددات. ومثل هذا التركيب من الرموز يتخذ أيضاً تاريخه الخاص. فالسومريون كانوا قد استعملوا الكلمات - الرموز كرموز مقطعية أيضاً وهي عملية معروفة بالنسبة لنا من تاريخ الكتابة المصرية. فإذا كان رمز *wr* «السنونو» قد استخدم هناك للتعبير أيضاً عن *wr* «كبير» فإن رمز *an* «السما» في الكتابة السومرية (الشكل 50 أ)



الشكل -50- رمزان سومريان يستعملان في الوقت نفسه كإيديوغرامين ورمزين مقطعيين

كان يمكن أن يستخدم حيث «يستلزم استخدام المعنى اللفظي البسيط *an* أي كان يمكن أن يستعمل دون أي ارتباط مع معناه الأصلي كـ مفهوم؛ وكان رمز *mu* «اسم» يستخدم للتعبير عن مقطع *mu* المادي. وقد اكتفى السومريون بهذا الطابع لكتابتهم التي كانت تقوم على أساس الأيديوغرامات وكانت تستعين عند الحاجة بالرموز المقطعية.



الشكل -51- إيديوغرامتان سومريان تعنيان: «أب»، «أرض» و «جبل»

ولكن عندما استعمار الساميون - الأكاديون الكتابة المسمارية من السومريين - غير الساميين واستعملوها من أجل لغتهم الخاصة (وقد كانت هذه الكتابة بالنسبة لها شبيهة بعلامة البزة على رجل لم تفصل من أجله)، فإنهم أحدثوا في نظامها اضطراباً يصعب للوهلة الأولى تصديقه، مما دفع عالم الآشوريات الألماني إلى الحديث عن تلك «الإسفينية المرعبة» وقد بقيت هذه التسمية لاصقة بها. لكن الأكاديين سلكوا مسلكهم دون قصد وكانوا يسيرون بصورة طبيعية جداً.

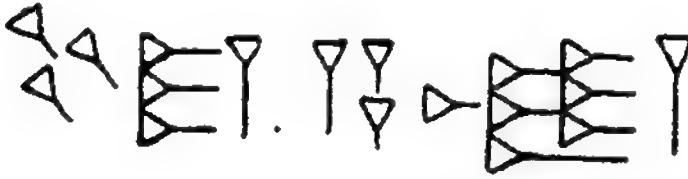
فقد استمار الأكاديون الكلمات - الرموز السومرية دون تغيير فيها ، ولكنهم ضمّوها لفظهم السامي الخاص وكان هذا طبيعياً أيضاً. فالرمز السومري الخاص بكلمة «أب» الشكل (51 آ) كانوا يلفظونه لا بالطريقة السومرية *ad* بل الأكادية *abu* ورمز «اسم» (الشكل 50 ب) لم يكن يلفظ كـ *mu* بل كـ *sumu* وهكذا.

وهنا بالذات بدأت الفوضى الحقيقية. فالأكاديون لم يطرحوا بصورة نهائية اللفظ السومري القديم للرموز وإنما احتفظوا به وإن كان ذلك فقط من أجل التمييز عن المعاني اللفظية للمقاطع. وعلى هذا فإن رمز *mu* الذي سلف ذكره كان يمكن أن ينظر إليه في الأكادية ككلمة رمز فكان يقرأ *Sumu* ويعني «اسم» وفي الوقت نفسه كان يؤخذ أيضاً على أنه رمز مقطعي ويلفظ في هذه الحالة على أنه مجرد *mu*.

ومن هنا كانت تتطوّر تلك التعددية في المعاني والتي كانت تتسم بكل تلونات المعنى واللفظ. فانظروا مثلاً إلى الرمز في (الشكل 51 ب). في السومرية يعني: (1) «أرض، بلاد» (*kur* أو *kin*) و (2) «جبل» *kur* - وهنا لا نأخذ معانيه الأخرى (ثم أضفى البابليون على هذا الرمز لفظهم السامي الخاص لهذه الكلمات فصار يعني أيضاً *matu* - «بلاد» و *irsitu* - «أرض»، «إقليم» «بلاد» و *sadu* «جبل». ولم يكتفوا بذلك فأبقوا أيضاً على معناه كرمز مقطعي بالنسبة لكلا المقطعين اللفظيين *kur* و *kin* وعلاوة على ذلك حوّلوه أيضاً إلى رمز مقطعي لمقطعي *Sadu, matu* المأخوذ من المقطعين الساميين *Sad* ,*mat*

وليس هذا سوى أفق واحد فقط من آفاق تعددية معاني الكتابة المسمارية. ومن الواضح إن كارل بيتسولد كان يعرف جيداً ما يعنيه بتسميته لها بـ «الإسفينية المرعبة» إلا أنه لم ينس بالطبع الخاصية الأخرى التي كانت تتصادف بشكل خاص في الكتابة الإسفينية البابلية الحديثة والآشورية الحديثة - فالرمز الواحد كان يمكن أن يتخذ عدة معانٍ مقطعيةٍ مستقل بعضها عن الآخر وتقصد بالحديث هنا ما اكتشفه رولينسون وما يثير الخوف في علم الآشوريات - وهو بوليفونيا الكتابة المسمارية التي دار الحديث عنها في ما سبق (انظر الشكل 45). وعلى قارئ المسمارية أن يحدس في كل مرة بماهية المعنى المقطعي المطلوب في كل حالة من الحالات وهو دوماً يصل إلى هدفه إذا كان على معرفة كافية باللغة في النص المعطى.

إلا أن أكثر ما يشير الدهشة أن هذه الكتابة بالذات، الكتابة الفامضة، المتعددة المعاني، وغير العملية قد لقيت اكبر انتشار إلى جانب اللغة البابلية - الآشورية التي توصلت في الألف الثاني قبل الميلاد إلى الحق في أن تسمى اللغة الدبلوماسية الدولية الحقة. فهذه اللغة صار فراعنة مصر وأمراء فلسطين يجرون مراسلاتهم، وهو ما تركه كشوفات تل العمارنة في مصر العليا والتي حققت شهرة عالمية. ونحن ما زلنا هنا لم نتحدث بعد عن حقيقة أن هذه الكتابة قد استعملت، وأن كان ذلك بصورة مبسطة، من طرف عدد من الشعوب التي لا تتكلم لغتها والتي كان من بينها الفرس، وقد سبق ذكرهم، وسيرد ذكر الآخرين.



mātu + ma + a + tu

الشكل -52- كلمة «بلاد» في كتابة مختلطة

والحق أن قدماء البابليين والآشوريين قد أدركوا سريماً أنهم قد توغلوا بعيداً في متاهات تعددية المعاني لرموزهم المكتوبة. فراحوا يتحرون الطرق من أجل التوصل بسرعة وسهولة إلى تمييز المسالك في هذه الفوضى التي صاغوها بأنفسهم. وهنا اصطدموا فجأة بنفس تلك الأداة المساعدة مثل المصريين القدماء وهي «الكتابة المختلطة» والمحددات.

فصاروا، إذا رغبوا مثلاً بأن تقرأ كلمة «أرض» التي كتبت بالرمز المطابق لها وهو *matu* (الشكل 51 ب) بلفظ *matu* وليس بلفظ آخر (وبأن يقضي على أي وجه للالتباس في ضجة مثل هذه القراءة) يعمدون إلى كتابته بصورة مختلطة أي كانوا يضيفون إلى الأيديوغراما كتابة لفظية أيضاً فتصبح *matu+ma-a-tu*.

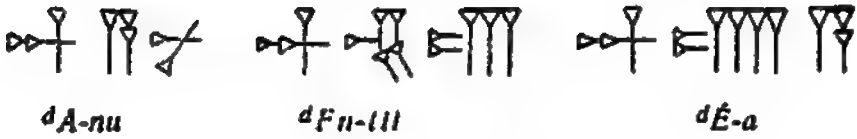
وإلى جانب كل ما سبق ذكره فإن هذا المثال ضروري لاستعراض الفرق الأساسي بين الكتابات المقطعية للمصريين والأكاديين: فالرموز البابلية - الآشورية تتضمن صوتياً واضحاً لا لبس فيه وهو لوحدته يكشف انحدار هذه الكتابة من كتابة

كانت مخصصة في وقت ما للغة غير سامية، وبالإضافة إلى ذلك لا يوجد فيها ذلك الرمز الذي يعبر عنه، كما في الكتابة المصرية، عن طريق ساكن بمفرده (دون صوتي).

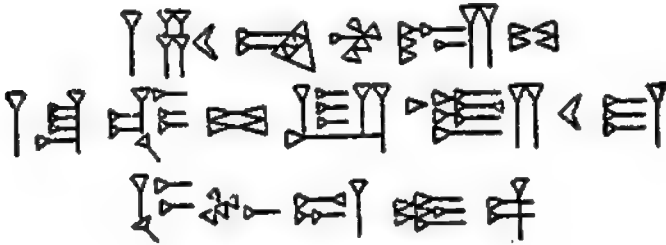
أما ما يخص المحددات التي تظهر في الكتابة الهيروغليفية للمصريين في نهاية الكلمة فإننا نجدها في الكتابة الإسفينية في بداية الكلمة في غالب الحالات (الشكل 53).

وبمساعدة هذه الرموز المساعدة والأيديوغرامات بسط قدماء البابليين والآشوريين كتابتهم إلى حدود بعيدة وسهلوا على قارئ الرموز في القرن التاسع عشر النفاذ إلى أسرار هذه الكتابة. وبما أن هذه الكتابة لقيت كما سلفت الإشارة انتشاراً واسعاً إلى درجة غريبة فوق كامل تراب الشرق الأدنى، وكانت، خلال عهد طويل، الواسطة الرئيسية للتفاهم بين أشد الشعوب اختلافاً، فإن ايديوغراماتها ومحدداتها التي بقيت في مختلف اللغات محتفظة بصورتها السابقة كانت تسترعي على الفور أنظار الباحثين الذين كانوا يتعاملون مع نصوص كتبت بلغة مجهولة. وكان من الطبيعي في تلك اللغة المجهولة أن تبرز أسماء الأعلام قبل كل شيء بفضل المحددات، - تلك الأسماء التي كانت تمثل العماد المتين الذي كان يتشبث به قراء الرموز كلما وجدوه.

ويظهر سؤال، لماذا لم يقم البابليون والآشوريون، شأن قدماء المصريين بالخطوة الأخيرة نحو الكتابة الأبجدية، تلك الخطوة التي كان من السهل جداً القيام بها انطلاقاً من الكتابة الأسفينية مثلما كان سهلاً القيام بها انطلاقاً من الكتابة المصرية. إن تلك الخطوة التي منع القيام بها في بلادهم تلك الروح المحافظة المميزة بالنسبة للشعوب القديمة جداً قد تمت في بلاد أخرى: فمن جهة تمت في وقت متأخر في إيران القديمة خلال عهد داريوس ومن جهة أخرى أنجزت في عهد أقدم. إذ نفذتها مدينة أوغاريت السورية وهو ما سيدور الحديث عنه في فصل خاص. لكن، على نحو ما كان الأمر في مصر، كانت جاهزة تلك الكتابة التي وضعت حداً نهائياً لجميع الكتابات المسمارية وما شابهها، وإذا كانت تلك الكتابة في مصر هي الكتابة اليونانية التي رافقت انتشار المسيحية المظفر، ففي المنطقة التي كانت تشغلها دولة فارس العظمى والتي كانت انتمت إليها فيما بعد بابل وفارس كانت قبل كل شيء الكتابة الآرامية الحرفية.

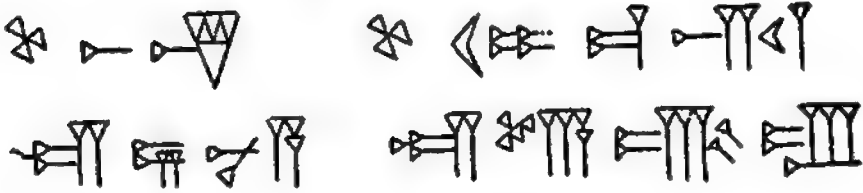


ثلاثة أسماء آلهة ومحدداتها



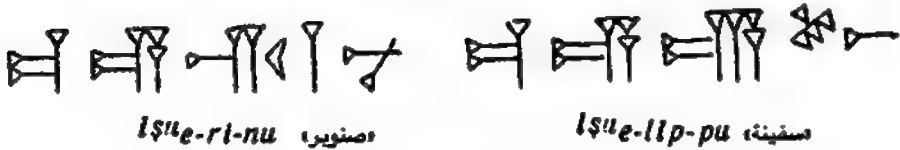
1. *Ḥa-am-mu-ra-bi*
2. *Šu up-pl lu-ll-u-ma*
3. *Fpu-du-ḥé-pu*

اسمان مذكران واسم مؤنث و محدداها



- | | |
|-----------------------------|--------------------------------|
| 1. <i>māt Aš-šur</i> آشور | 2. <i>māt Mi-iš-ri</i> مصر |
| 3. <i>alu Ni-nu-a</i> نينوى | 4. <i>alu Kar-ga-miš</i> كركمش |

اسما اقليمين واسما مدينتين ومحدداتها



شجرة وأداة خشبية ومحدداتها



معدن وأداة معدنية ومحدداتها

الشكل -53- مفردات تضيقها المحددات

إن نتائج الدراسات في حقل الكتابة المسمارية بدلت تصورنا عن مظهر الشرق القديم، فمنذ 100 عام فقط كان التاريخ بالنسبة لنا يبدأ بهوميروس أما الآن فهو يبدأ ببابل، آشور ومصر. فالدول العظمى والحضارات القديمة التي كنا لا نعلم عنها إلا من خلال الإشارات الشفوية أوقظت إلى حياة جديدة، وتمرت إلى أعماق بعيدة جداً جذور الحضارة الغربية، كما أن الدراسة المقارنة للأديان ودراسة اللغات وتاريخ العصور القديمة وضمت بمجموعها على أسس جديدة. واغتنى الأدب العالمي بكنوز لا يمكن تجاوزها. وقد مكنتنا الأرشيفات المسمارية بدورها، كما سنرى، من قراءة رموز عدد كامل من الكتابات ومن شرح لغات أخرى منسية أو مختفية.

«ولا يبقى غير متحول إلا الإنسان» وقد جعلتنا آثار الكتابة المصرية نتحقق من صدق هذه الكلمات.

ولن نُحدثنا الآن عن إنسان ما بين النهرين القديمة الأناشيد المرفوعة إلى الآلهة ولا سفر تكوين العالم ولا ملحمة جلجامش، لا بل سنقتطف مقطعين - مما يسمى السفر البابلي ومن نصيحة من النصائح. ويتعالى الصوتان في أذاننا من جديد - أحدهما محزون، مليء بالشجن والآخر مواسمٍ ومتكبر في آن واحد، يمثل هذه الحيوية والتعبيرية يصل إلينا هذان الصوتان اللذان تردداً في غابر الزمن صدى للانفصام في الروح الإنسانية ففي مواجهة اللحن الحزين «كل شيء سأم وقتاً» الصادر عن إنسان مضنَّ القدر يتعالى النداء المبارك الداعي إلى العدل والخشية من الله، وهو بأخلاقه الصارمة ولغته الواضحة، يذكر بالروح النفاذة في صلب العهد القديم هو ذا شيخ من بابل يشتكي قائلاً:

... ما الذي يبكيه أنا أيها الآلهة؟ الناس لا يتعلمون شيئاً فأصغ يا صديقي واحفظ وصيتي.

وصن هذا التعبير الرائع من كلامي

ما أعظم ما يرفعون من شأن ذلك المشهور الذي علم القتل؛

بينما يحقرون الضعيف من غير ذنب جناه.

ويشهدون الزور لصالح شرير لا تزيد امتيازاته على تدنيس المقدسات

ويدفون ذا الحق الذي يبحث عن النصيح لدى الآلهة

ويفمرون بالمعدن النفيس ذلك الذي اسمه - السارق.

ويجردون من الدخل ذلك الذي يسير طمامه

ويسلمون السلطان للمنتصر الذي كل حشوده أثم؛

يدوسون الضعيف ويضربون المهزول.
وها أنذا المستضعف يلاحقني صاحب الألقاب.
أما أوت - نايشتيم فيدعو إلى تعاليمه قائلاً:
«لا تسرُّ بالنعيمة ، قل ما هو جميل!
لا تطلق بكلمة الشر ، وادع إلى قول الحق!
فإن من يسير بالنعيمة وينطق بكلمة الشر
يقتص منه إله الشمس بطلب رأسه
لا تفتح فاك عريضاً ، أطبق شفقتك
ولا تخرج كل ما في صدرك من كلام دفعة واحدة
فإذا ما تسرَّعت بكلامك الآن رغبت في سحبه فيما بعد
عليك أن تروض عقلك على الصمت والتوقُّر
قدس إلهك كل يوم
بالأضحية والصلاة وبعمل الخير
بمقدورك أن تجعل قلبك متجهاً نحو إلهك
فهذا ما يليق بالإله.

مخافة الإله تضمن السعادة
والقربان يطيل العمر
أما الصلاة فتسقط الذنوب
والآلة لا تحط من قدر من يخشاها،

إسفين وصورة في بلاد الحثيين

قراءة لغة المدونات الحثية الإسفينية
وحل رموز النقوش الهيروغليفية الحثية

غامضة

كأنها غارقة في ضباب ذهبي في إشعاعات

الشمس السبارة

أزهرت أسيا

نافرة أمام العيون

فواحة بعبر آلاف القمم

هيلديرلين، باتموس

لعل التاريخ لم يعرف سراً غامضاً كهذا السر.

امتاز تاريخ دراسة النصوص المسمارية الحثية وحل رموز الكتابة الهيروغليفية الحثية بالإضافة إلى شروح اللغة التي وضعت بها هذه النصوص الهيروغليفية على تاريخ شروح الكتابة المصرية والمسمارية وقراءتهما بسمه واحدة على الأقل.

فقد وصلتنا معلومات متعلقة بالمصريين بعد أن عبرت آلاف السنين، كما أن الأدب والمسرح اليونانيين أقاما أنصباً أدبية خالدة للفرس بينما اكتشف الحثيون كمشعب لأول مرة.

ومن غير الجائز القول بأن اسمهم قد غاص في الأبدية وعفا بصفة نهائية من ذاكرة الإنسانية: لا، فقد حفظه الكتاب المقدس - كتاب الكتب وسفر البيانات المختلفة، وفيه ورد اسم هذا الشعب في أماكن متعددة، وإن كان ذلك بصورة عَرَضِيَّة.

وعلى أي حال فإن هناك في التوراة مقطعا لا بد وأن يثير اهتمامنا. ونقصد بذلك لوحة وفاة سارة ودفنها (التكوين. 23 وما يليه):

«وكانت حياة سارة مئة وسبعاً وعشرين سنة حياة سارة. وماتت سارة في قرية أربع التي هي حبرون في أرض كنعان، فأثى إبراهيم ليندب سارة ويبكي عليها، وقام إبراهيم من أمام زوجته الميتة وكلم بني حث قائلاً: أنا غريب ونزير عندكم. أعطوني ملك قبر لأدفن مهتي من أمامي.»

ووافق أبناء الحثيين، ثم نقرأ بعد ذلك «فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث وكلمهم قائلاً...»

يبتاع إبراهيم من عفرون حقلاً ومغارة بـ «أربعمئة شاقل فضة» في مسامح بني حث وتصيح المغارة مدفنه العائلي «لدى عيون بني حث.»

وهكذا فإن الحثيين أو سكان أرض الحثيين، كانوا أيام إبراهيم شعباً مستقراً وإنهم كانوا مسيطرين على كنعان. وبدا ذلك أمراً لا مندوحة من لفت النظر إليه، يضاف إلى أنه لم يكن وحيداً فالتوراة تشير إلى ذلك بصفة أكثر وضوحاً في القسم الرابع من سفر الملوك، الإصحاح السابع، التشديد السادس، حيث توصف حرب سماريا.

«إن الرب أسمع جيش الآراميين صوت مركبات وصوت خيل صوت جيش عظيم فقالوا الواحد لأخيه هوذا ملك إسرائيل قد استأجر ضدنا ملوك الحثيين وملوك المصريين ليأتوا علينا». فملوك الحثيين كانوا يمثلون إذاً، باتحادهم مع ملوك مصر، الفراعنة، أكبر قوة في ذلك الزمن، أما الحثيون بحد ذاتهم فكانوا قوة قاهرة وليس مجرد شعب صغير يتأثر ذكرهم في مقاطع مختلفة من التوراة بين الشعوب والقبائل الضعيفة المختلفة.

ومن الواضح أن المقاطع المقتطفة من التوراة كان من شأنها أن تصبح مادة للتفكير منذ عهد بعيد لو توفر شاهد واحد آخر من أي نوع من الآثار يتعلق بذلك الشعب الذي مضى، فقد كانت التوراة شاهداً مثيراً للريبة من وجهة نظر العلم في القرن التاسع عشر.

ومن الغريب أن نسمع عن هذه الريبة اليوم، بل وأنه لمن غير المفهوم كيف استطاعت أن تفرض نفسها في تلك السنوات من انطلاقة البحث العلمي والإنجازات الرائعة لعلم الآثار والفيلولوجيا. ولا يمكننا، إذا ما استقرأنا تاريخ الإنسانية، أن نشرح ذلك إلا بالتناقض في مخلفات عصر التوير الزاهر: بالطموح المتدفق نحو المعرفة والحقيقة متواكباً مع الاحتقار النقدي لكل ما كان ينظر إليه في يوم من الأيام كبقرة وحيدة للمعرفة والحقيقة.

اكتشف كولومبوس أمريكا ذات يوم دون أن يدري. وقد حدث أمر مماثل لذلك بعد 320 سنة وذلك بالنسبة لـ «مكتشف» الدولة الحثية، فقد توفى دون أن يخطر له أنه عثر على لقية كتب لها أن تهب العالم «عالمًا قديماً» جديداً.

كان يحمل لقباً يتمتع باحترام خاص في الشرق وهو لقب «حاجي» وتوفي حاملاً اسم «الشيخ إبراهيم» ودفن في مقبرة المسلمين في القاهرة بكل الإجلال الذي يليق بمعظم من عظماء العالم الإسلامي. بيد أنه ولد باسم يوهان لودفيغ بوركهاردت في الـ 24 من تشرين الثاني (نوفمبر 1784) في لوزان وكان ينتمي إلى أسرة بازيلية أنجبت عدداً من رجال الدين ومن العلماء. ودرس العلوم الطبيعية في لايبزيغ وغويتينغن ولندن لينطلق بعد حين إلى إفريقيا موفداً من قبل الجمعية الأفريقية الملكية البريطانية. وفي شباط (فبراير) 1809 صعد السويسري الشاب إلى ظهر الباخرة المتجهة إلى مالطة، فلما صار في الجزيرة لم تكن ملابسه الشرقية التي ارتداها بمهارة لتشي بالأصل الأوروبي لذلك الشاب الذي تهيئه مواهبه للكثير. وهناك زود برسائل عاجلة من شركة الهند الشرقية واتجه إلى حلب. ويمضي الفتى ما يزيد عن ثلاثة أشهر في سوريا متذكراً بزى تاجر في حلب بادئ الأمر ثم في دمشق وينصرف بكليته إلى دراسة تاريخ العرب وجغرافيتهم ولغتهم ويقوم برحلاته إلى لبنان وحوارن وشرقي الأردن. ومن القاهرة، حيث يقوم المصلح محمد علي (وكان مر ذكره في الفصل المخصص للكتابات المصرية) بتزويده بالتعليمات المطلوبة، ينطلق إلى النوبة، ويمود من هناك ولكن على غير إرادة منه (فقد هرب من برير النيل) إلى سواكن الواقعة على البحر الأحمر ثم يتجه إلى جده حيث تجتذبه مكة القريبة.

كان بوركهاردت «كافراً» بالطبع فلم يكن بمقدوره أن يزور المدينة المقدسة ولهذا يستدعي عالمين عربيين ليمتحناه جيداً في علوم الدين وشرعة النبي. وكان التقدير عالياً؛ فقد زار مكة دون مانع بل وقضى في المدينة الحرام أربعة أشهر وحج إلى جبل عرفات وفي سنة 1815 شهد المدينة. وبينما كان الطاعون يجتاح القاهرة سنة 1816 كان هو يقوم بدراساته لشبه جزيرة سيناء وقد توفي في السابع من تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1817 في القاهرة حيث كان يكرس كامل وقته للدراسة وتسجيل الملاحظات وهو بانتظار القافلة التي يخرج معها. ومن بين الآثار التي تركها اختارت الجمعية الجغرافية اللندنية مجموعة كبيرة من الأوصاف البالغة الروعة لرحلاته، تلك الأوصاف التي تمتاز ببساطة العرض مثلما تمتاز بالوثوقية والدقة وبمجموعة لا مثيل لها من الملاحظات القيمة وقد نشرت الجمعية هذه المجموعة. أجل، ولكن ما علاقة الحثيين بما قلناه؟ لقد سلف وأشرنا إلى أنه قد اكتشفهم عرضاً ودون أن يلحظ ذلك.

خلال إحدى رحلاته زار بوركهاردت البازار في مدينة حماة السورية وهي ابييفانيا (أفاميا) الهلينية على نهر الماصي. وهناك وقع نظره على حجر مجلل بخطوط غريبة. وهو

يشير بهذا الصدد إلى أن الأشكال الصغيرة والرموز تذكر بالهيروغليفات إلا أنها تختلف جذرياً عن الهيروغليفات المصرية.

تلقتي بهذه الملاحظة في الصفحة 146 من «رحلات إلى سورية والأماكن المقدسة» والتي صدرت بعد خمس سنوات من وفاته. وعلى الرغم من ذلك الكمال في المادة الجغرافية والثقافية - التاريخية والفيلولوجية⁽¹⁾ والأرشيولوجية الذي وضعه مؤلفات بوركهاردت بين يدي العلم فإن ذلك الكشف لم يثر الانتباه، بل ومن الواضح أن بوركهاردت نفسه لم ينجح في إعطاء المعنى الكامل والأهمية المطلوبة لتلك اللقطة ولهذا لم يفرد لها غير أسطر قليلة.

وقدر لحجر حماة أن يكتشف من جديد ولكن بعد مرور 60 عاماً. وكان ذلك في الوقت الذي توصل فيه الأمريكيون إلى القناعة القائلة بأن من غير المزعج بالنسبة لهم أن يهتموا بالعالم القديم. وهكذا قام أوغاستس جونسون، القنصل الأمريكي العام، برفقة صديقه المبشر الدكتور جسابا بزيارة لبازار حماة انطلاقاً من المعلومات المذكورة. وهناك شهد ما كان قد لفت انتباه الشيخ إبراهيم: حجر مغطى بالنقوش في زاوية البازار. وراح الشاهدان يدققان النظر في الحجر ويدرسانه في حدود الإمكان. ويسمعان من أهل المدينة أن مثل ذلك الحجر ليس وحيداً بل هناك ثلاثة أحجار مماثلة تقع بالقرب من ذلك المكان، بيد أن اللوحة سرعان ما تبدلت بمجرد أن بدأ «الكفار» بنسخ الكتابة. إذ لزم الصمت وأولئك المتحدثون الذين كانوا يتكلمون بإسهاب، واكتست وجوه الحاضرين بملامح التهديد وشيئاً فشيئاً أخذ يتحشد حول الفريبيين جمهور من أهل المنطقة يوجه نظراته العدائية. ولاحقاً في الجو دلائل الضرب فما كان من جونسون وجسابا إلا أن ينسحبوا من مكان العملية بسرعة أشبه بالفرار، ولم تكن معاملة أهل حماة أفضل من هذا بالنسبة لدريك وبالمير، ممثلي جمعية دراسة فلسطين وكانا قد زارا تلك المدينة في العام التالي وبالنسبة للقيب بارتون، ذلك الرحالة الشهير الذي نجح رغم ذلك، بتسجيله نقشين سريمين غير واضحين للحجر. ولم يزد هؤلاء جميعاً على إفساد العمل كله نتيجة اهتمامهم المتزايد فقد انتهى الأمر بأهل حماة، الذين اشتهروا بتعصبهم، إلى التهديد بتدمير الحجر وما عليه.

وكان من الممكن أن ينفذوا وعيدهم لو لم تقم السلطات العليا بالتدخل في ذلك المشروع، وكانت تلك السلطة ممثلة في شخص صبحي باشا، حاكم سوريا الجديد، الذي بدأ أعماله سنة 1872 وكان رجلاً مثقفاً إلى حد كبير ويمكن أن نقول متشبهاً بروح العصر.

1- الفيلولوجيا: philo، بالفونانية + لوجيا: وهي مجموعة تدرس الآخر والنصوص الكتابية التي

تتناول اللغة والأدب عند هذا الشعب أو ذلك

فلما سمع بقصة الحجر رأى أن من الممكن أن يتجه إليه بنفسه فاستدعى القنصل البريطاني في دمشق كوربي غرين والمبشر الإيرلندي ويليام رايت ليرافقاه في زيارته فوجدوا ذلك الحجر وعثروا على أربعة أحجار أخرى وكانت ثلاثة منها قد فتت أجزاء في مبان مختلفة. فالأول في جدار واحد من مباني حي النقاشين والثاني في جدار حديقة، والثالث: في جدار أحد الحوانيت القائمة في مواجهة مقر نائب القنصل الفرنسي. أما الحجر الرابع: فكان مرمياً لوحدته في حي النقاشين وكان يتمتع بإيثار خاص من قبل السكان الذين كانوا يمزون إليه قوة سحرية خاصة. وكان مرضى الروماتيزم أكثرهم إيماناً بقوة الحجر - فكانوا يتمسحون به - و «ببرأون» في ملح البصر خاصة إذا شفع عملهم ذاك بالدعاء إلى النبي أو إلى القديسين المسيحيين.

كان الكاهن ويليام رايت والحاكم يمرغان مسبقاً أن الحجر لن يقدم لهما طوعاً. ولكن ما معنى أن يكون صبحي باشا حاكماً؟ وما جدوى وجود المسكر لديه إذن؟ وأخيراً طوّقت ساحة العمل بعدد من الحرس الجيدي التسليح ونزعت الأحجار بيسير من الجهد ثم نقلت جميعاً بحراسة الجند وأعقب ذلك كله سلسلة من الأحداث المأسفة. فقد نقلت الأحجار إلى استنبول، عاصمة الإمبراطورية العثمانية (لم تكن حماه آنذاك إلا مدينة رئيسية في سنجق من ولاية سورية) أما الطبقات الجبسية التي تسنى لويليام رايت أن يأخذها عن رسوم تلك الأحجار فقد أرسلت إلى المتحف البريطاني في لندن.

وهكذا وصلت الأحجار الحموية إلى أيدي الباحثين الإنكليز ثم صارت بمتناول أيدي جميع العلماء الأوروبيين ونقل أوغاستيس جونسون خبرها إلى العلماء الأمريكيين، وأخذ السؤال المتعلق بمؤلفي هذه الكتابات يشغل العقول على شاطئ الأطلسي فترة طويلة، إلا أن الأجوبة الأولى لم تسمح لنفسها بأن تنتظر طويلاً.

فقد لفت العالم الأمريكي، الدكتور هيس وارد الأنظار إلى الختم المغلى بأمثال هذه الرسوم والذي كان ليبارد قد عثر عليه في نمرود سنة 1849. أما الكاهن رايت (وكان «بفعل وظيفته» أوسع إطلاعاً على الكتاب المقدس من سواه من البشر) فاقترح حلاً توراتياً للأحجية: إذ كان يرى أن ذلك ليس إلا لغة وكتابة الحثيين، ذلك الشعب الذي ذكر في التوراة، والذي كان يستوطن سورية ويقوم الصلوات مع الفراعنة.

وقبل أن نواصل حكايتنا هذه نود أن نذكر القارئ بأن عليه دوماً أن يضع في الحسبان الفترة التي تمت فيها هذه الكشوفات. فقد خلف علم الآثار وعلم اللغات وراهما انعطافاً شديداً يكاد يكون عمودياً تقريباً وأزدهر ازدهاراً لم يعرف له مثيل فيما مضى

وصارت الاكتشافات الجديدة في عالمي الدراسات الهيروغليفية والمسمارية تتوارد كثيراً لا ينقطع، وتأسس علم الدراسات المصرية والأكادية وتحولت الدراسات الشرقية بأسرها من نظام مغلق لتفتحو في متناول وعي الجمهور الواسع وكان ما يزال حياً ذلك الجيل الأكبر عمراً والذي يتذكر حل الكتابتين الهيروغليفية والمسمارية.

وبهذه العشرينات من السنين التي تحقق فيها حل الكتابة الهيروغليفية الحديثة واكتشفت كلتا الكتابتين «الحيثيتين» يرتبط نشاط ارتشيبالد هنري سايس الذي مهد من مسكر الدراسات الآشورية التي كانت ما تزال فتية متألفة بإشعاعات المجد.

وعلى الرغم من تأكيدات الكثيرين (بإستثناء البريطانيين) فإن سايس لم يكن إنكليزياً بل والياً ينحدر من أسرة والية معروفة وميسورة وكان يعتبر اللغة الوالية لغته الأم.

ومثلما هو الأمر بالنسبة لكل كلتي يحترم نفسه كان ذلك الباحث الخارق للمادة غير بعيد عن الرغبة في الفذلكة والتفلسف بل والاختلاق (وقد جرّت هوايته الأخيرة هذه عدداً من النوادر التي قيلت في حقه ضمن إطار العمل) وفي الوقت نفسه تميّز بمقدرته على إثارة حماس زملائه بأفكاره وكان يتمتع بانفعالية هائلة للعادة وهو ما يمكن أن يوصف به بنو قومه بكل حق، أما الإيمان الديني العميق والفضول العلمي الأصيل فكانا من السمات التي تفرد بها حتى نهاية حياته.

لم تكن الأحاديث المتعلقة بالحيثيين قد بدأت بعد عندما بدأ ذلك الطفل الصغير، المتقبل لجميع الأمراض، ذهابه إلى المدرسة في باتي. وقد بدأ بقراءة فرجيليوس وهوميروس وهو في العاشرة فلما بلغ الثامنة عشرة كان قد تعلم العبرية القديمة والقبطية والفارسية والسنسكريت. وفي العشرين من عمره نال منحة جامعة أوكسفورد وقبيل طالباً في تلك الجامعة فلما بلغ الثلاثين صار أستاذاً فيها وأمضى سنين طويلة من عمره في تلك الوظيفة: 15 منها في قسم اللغات المقارن تليها نحو الـ 30 عاماً في قسم الدراسات الآشورية. وتوفي سايس بعد أن تقدمت به السن، وكان ذلك في الرابع من شباط (فبراير) 1933 وكان عضواً في هيئة كلية كوينس لمدة 64 عاماً عاش خلالها في شقة متواضعة لم تتبدل.

لكن سايس أمضى غير قليل من حياته متنقلاً. فكان لا يرضن بوقته ولا بماله في سبيل توسيع معارفه التي كانت بلا حدود وكان مستعداً لتحمل كل المشاق في سبيل ذلك. ومن أجل ذلك الهدف ظل واقفاً ذات مرة وهو في آخر درجات الإعياء، والماء يغمره حتى وسطه في نفق سيلواح القديم بالقرب من القدس لكي يستسخ إشارات الري الكنعانية وبعد ذلك بعام واحد كان يتسلق هضاب صحراء جنوب الجزيرة العربية صموذاً ونزولاً وهو ينقل

الكلمات المحزوزة فوقها. وكان السكان الأصليون يميلون إلى ذلك الغريب ويسمونه «الملا الجنون» أو «بو العمامة المسطحة» أو «بو نضارة»... بل وحتى بـ «بو ذنب المصفور» الذي كان يذكر به ذيل مسوحة الديني الطويل إذ كان سايس لا يخلع ذلك الرداء حتى خلال رحلاته. وفي سنوات تالية جاب جزر المحيط الهادئ حيث مرض ذات مرة مرضاً شديداً؛ لكنه ما أن تمكن من الوقوف على قدميه حتى بدأ دراسته لحضارة البولينييزيين. أما حضارات جاوه وجزر بورنيو فقد اجتذبت انتباهه بنفس المستوى الذي اجتذبت به ديانات غينيا البدائية كما أن البوذية اليابانية ودخول المسيحية إلى الصين على أيدي النساطرة كانا من الأمور التي استمالت ذلك العالم الذي لا يعرف الكلال. وقد تأتي له أن يقوم بما لم يكتب لأي من قبله، بل وربما من بعده أيضاً إلا وهو إثارة الحياة في التاريخ الميت للشرقين الأدنى والأوسط وذلك في كتبه الكثيرة العدد.

وقد استدعي سايس، رغم حداثة سنه، للمشاركة في الجدل الذي أخذ يتردد من جديد بسبب الحثيين. ولم يكن لديه أدنى شك في أن الحديث يدور عنهم بالذات وكان يصبر على صواب فكرته هذه. ونذكر بهذه المناسبة أن اللوم كان يوجه إليه فيما بعد لأنه كان يغلب النظرة الجذرية على الرأي النقدي وذلك في المسائل المتعلقة بالمعهد القديم. وليس في ذلك شيء من الغرابة إذا وضعنا في اعتبارنا تقاينه بالنسبة للكنيسة الانغليكانية وبالنسبة للقبه كدكتور في اللاهوت. بيد أن ذلك العالم كان هو الذي وهب العلم تلك الملاحظات النفيسة التي كانت تتعارض تعارضاً كلياً مع كل المقترحات التي سلف تقديمها بصدد كتابات الحثيين. ويؤثر عنه أنه كان ذا إلمام بالكتابة المسماوية قبل دخول الجامعة، ولما كان في الثامنة عشرة من عمره أثار دهشة هينكس ونوريس بمقاله الذي تعرض فيه لتلك الكتابة؛ وكان هو الذي لاحظ، وليس أحد سواه، أن الرموز المسماوية التي كانت قد اكتشفت حتى ذلك الحين تتجاوز بمددها إمكانية أن تكون مخصصة لكتابة أبجدية، ورجح أن تكون تلك المدونات قد نقشت بكتابة مقطعية ممززة بالأيديوغرامات والمحددات على نحو ما كان الأمر بالنسبة للنصوص الأكادية المسماوية. وكان ذلك العالم نفسه وقد بلغ ذروة أمجاده وتقدم بمجموعة كاملة من الأبحاث الطريفة حول اكتشاف لغات وكتابات شعوب آسيا الصغرى وما بين النهرين وحل رموزها أيضاً ومن بينها مقال بالغ الأهمية حول اللغة السومرية، كان هو الذي وضع يده، بالإضافة إلى ذلك كله، على رمز وتعرف فيه على اللاصقة النحوية  التي ينتهي بها الاسم في الحالة الاسمية وهي: -S.

وكما سلف أن ذكرنا ، كانت المادة ما تزال ضئيلة جداً. وترتبط مضاعفة تلك المادة بملاحظة جملة المتحف البريطاني يشرح بحفرياته الأثرية الدورية سنة 1876. أما تلك الملاحظة فقام بها جورج سميث فدخل اسمه بواسطتها ، بطريق غير مباشر ، في تاريخ حل رموز وكتابة لغة جديدة كانت الثالثة مرتبة. فأثناء رحلته الأخيرة تمكن سميث (مثله مثل سكين ، القنصل الإنكليزي في سوريا) من التعرف فوق هضبة كبيرة تقع بالقرب من جرابلس عند انعطاف نهر الفرات على بقايا مدينة كركميش ، تلك الحاضرة المهمة التي كانت مركز العظمة الحثية في سوريا الشمالية وفق ما تذكره المصادر المصرية والسامرية فقد وجدت في ذلك المكان كتابات وضعت بنفس تلك الرموز التي عثر عليها فوق الأحجار الحثية. وبعد فترة قصيرة توصل المتحف البريطاني ، من خلال الحفريات التي أجراها إلى مدونات جديدة بل وعلى عدد من التماثيل المنحوتة.

والحق يقال إن التماثيل فتحت عيني سايس بصورة أكثر مما فعلته المدونات. فقد تذكر فجأة المكان الذي شهد فيه أشياء مماثلة لها: فهناك أسلوب مماثل بالضبط كان من الميزات الخاصة لمجموعة من التماثيل التي نحتت في الصخر والتي اكتشفها الرحالون في آسيا الصغرى دون أن تثير انتباههم. وقد تم العثور على تلك المجموعة في قرية بوغازكي التي تبعد عن أنقرة ، بنحو الـ 150 كيلو متراً. وفي يازيليك القريبة من تلك القرية كما وجدت في مرعش - الواقعة في سوريا الشمالية وفي قارايبيل الواقعة على الشاطئ الغربي من آسيا الصغرى. وقد كان ذلك بمجموعه يعني ، حسبما استنتج سايس (ونلاحظ أنه كان متمسراً في حكمه) أن الحثيين لم يكونوا مجرد قبيلة سورية شمالية صغيرة تعيش بين غيرها من القبائل، حسبما كانت فرضية الكثيرين، بل إن مملكتهم العظيمة كانت تمتد بين أزمير في الغرب وحماء على العاصي في الجنوب⁽¹⁾.

إن معبد يازيليك المنقوش في الصخرة ، والصخرة المغطاة بالنقوش ، والواقعة غير بعيد عن قرية بوغازكوي ، صارت بمجموعها معروفة مع تلك القرية بفضل الدراسة التي قدمها الرحالة الفرنسي شارل تيكسييه والواقعة في ثلاثة مجلدات بعنوان «وصف آسيا الصغرى» ومن المؤسف أن تلك المجلدات الثلاثة شهدت النور في وقت كانت الأنظار متجهة فيه بكل ما فيها نحو الهيروغليفية المصرية ونحو السامرية. ولهذا فإن ذلك العمل لم يثر الاهتمام الذي كان يستحقه على الرغم من الصور الإيضاحية التي تضمنها والتي كانت بديعة حسب مفاهيم ذلك العصر. وبين المجموعة النحتية في يازيليك كانت هناك لوحة للألهة بالغة الإحياء

1- Ch. Texier, Description de L'Asie Mineure, Paris, 1839-1849.

وقد عثر عليها في إحدى الحجرات الجانبية». وقد أرفق عدد كبير من شخوص هذه المجموعة بنقوش كتابية موجزة. (وهو شبيه بما عثر عليه في بيهستون) ولوحظ أن كلا من تلك النقوش يبدأ برمز (𐎠𐎡) وسرعان ما هب سايس، وقد تعمق في دراسة المسمارية، إلى المقارنة بين هذه النقوش وبين ما ترمز إليه وسرعان ما تعرف في ذلك الرمز على محدد (وبالتالي ايديوغراما) مفهوم «إله».

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من 1880 ومضت في ذهن سايس فكرة انتهت به إلى هذا الاكتشاف التالي الرائع. فقد تذكر أن قد سبق له الاطلاع في إحدى المجلات العلمية الألمانية على أسطوانة فضية طريفة وأن الكاتب قدم لها وصفاً بنفسه. أما صاحب تلك الأسطوانة، وبالأحرى صاحب اكتشافها العلمي، فكان الدكتور آ. د. موردتمان، وكان دبلوماسياً وباحثاً ومن مواليد هامبورغ وقد ركز أبحاثه على دراسة وشرح النصوص المسمارية الأورارتية القادمة من بحيرة وان.

وبالمناسبة فقد بدأ سايس أيضاً يتحرك بنجاح في ذلك الميدان. فاصطدم خلال أبحاثه بالوصف الذي قدمه موردتمان لتلك الأسطوانة الفضية.

كان ذلك «الخاتم ذو الإسفينات» والذي نظر موردتمان إليه على أنه «آخر فرع غربي من فروع الكتابة الأرمنية والمسمارية بوجه عام» يتألف من أسطوانة فضية غير شديدة السماكة لها شكل قلعة من دائرة $16\frac{1}{3}$ بالخط الإنكليزي (=3.3 سم) بقطر وارتفاع $4\frac{1}{3}$ خط (=0.7 سم) فكان من المفروض أن تشكل الدائرة بمجموعهما قطر قدره $19\frac{3}{4}$ إنكليزي (=4 سم) وكان التاجر، جامع الأثریات الكسندر إيفانوف قد حصل عليها في إزمير ولعلها الآن موجودة في المتحف البريطاني.

كان الوجه الداخلي للأسطوانة أملس لا يتميز بأي رسوم، اللهم إلا بعض الآثار التي تدل على أن الأسطوانة قد صهرت على مقبض. أما الوجه الخارجي فينقسم بمحيط وحيد المركز إلى قسمين: القسم الداخلي ويجسد محارياً واقفاً يتجه نحو اليمين، ويلبس رداء مطرزاً تجلج رأسه عمامة وينتمل حذاء تميل نهاياتها الأماميتان إلى الأعلى، ويقبض بيمنه على رمح بينما يمسك ثنية رداءه بيسراه، وأخيراً يظهر معه مقبض سكين أو خنجر من جهته اليمنى وهذه النقطة تؤكد لنا منذ البداية أننا أمام خاتم كما تظهر الرموز إلى جانبي المحارب»⁽¹⁾.

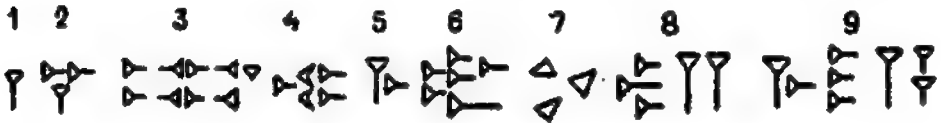
1- A.D. Mordtmann, Entzifferung und Erläuterung der armenischen Keitschriften von Van und der Umgegend, - Zeitschrift der Deutschen Morgenlan - dischen Gesellschaft Bd XXVI, 1872 S.625.

وقد كان لقراءة مورديمان للنص المسماري لذلك الخاتم من الأثر بعد ذلك ما يجعلنا نرى من الواجب تسجيله هنا. وقد تضمنت تلك القراءة ملاحظتين تركتا أثرهما على القراءة بمجموعها بعد ذلك وهما: أولاً: أساس الاكتشاف البالغ الأهمية الذي سيقوم به سايس وثانياً الخطأ الفادح الذي تمسك به أحد العلماء الألمان فيما بعد ودافع عنه بعناد شديد مع كل ذلك مما أدى وبصورة مشددة إلى عرقلة قضية حل الهيروغليفيات الحثية وتمثرتها خلال عشرات السنين.



الشكل -54- طبعة من خاتم تاركوموفا
الذي كان نقطة الانطلاق لقراءة رموز
الكتابة الهيروغليفية الحثية

فما هي أهم الأسس الواردة في مقالة مورديمان: «تحتوي الدائرة الخارجية على أسطورة كتبت بالخط المسماري وهي تتكون من تسع مجموعات مسمارية وتبدأ بالمكان الذي تشير إليه الشخصية بأصبعها. ولكن ما دام ذلك خاتماً فإن من الضروري أخذ بصمة منه تظهر الكتابة على أثرها في الصورة التالية».



أما المجموعات 1، 6، و 7 فهي ايديوغرامات، والمجموعة 1، 7 من بينها مكافئة في معناها لما يماثلها في نظم الكتابة البابلية والآشورية والأرمنية، ورقم 1 هي محدد لأسماء العلم، أما رقم 6 فهي ايديوغراما «ملك» في الكتابة البابلية أما رقم 7 فمحدد أسماء البلدان.

وعلى هذا يكون معنى الكتابة ما يلي: *NN* ملك بلاد *NN* فالحديث إذن يدور عن كيفية قراءة الاسمين. إن الاسم الأول منهما هو:

2 3 4 5
Tar ku dim mlá

بعد ذلك يتوصل موردمان إلى عدد من التصورات التي تقيم الدليل على حدة بصيرته ومقدرته الاستقرائية وفطنته، ونقدم في ما يلي ملخصاً لأهم هذه التصورات وأول الدوافع التي تحدوننا إلى ذلك هو أن المادة قد جرت، حتى في الأدبيات الرسمية، على تسجيل هذه الإنجازات لسايس الذي لم يزد على أن اقتبس فكرة موردمان بعد ثماني سنوات، وعليها من ناحية أخرى أن نشير إلى أن بذرة ذلك الخطأ الناعس الذي ربطوا أسبابه فيما بعد باسم الباحث الألماني بيتير ايونسين...

وهكذا، ومن خلال قراءته للأسطورة المسمارية يتوصل موردمان إلى اسم البلاد «طرسون» ومن ثم يختتم قراءة العبارة «تاركوديمي ملك طرسون» أما دليله على هذه القراءة التي يراها بنفسه «تبدو للوهلة الأولى أكثر من مجازفة» فيتجسد فيما يلي:

«إن آثار نينوى وبابل وبيرسبول إما أن تقدم الدليل النادر جداً من الأختام الماثلة أو هي لا تقدم شيئاً على الإطلاق...»

فإذا ما التفتنا إلى آسيا الصغرى وجدنا أنفسنا أمام مجموعة كاملة من الأشياء الماثلة. فالأحذية المعقوفة المقدمة مثلاً تظهر في تماثيل أويوك، بوغازكي وإيريفلي في كابادوكيا مثلما تظهر في آثار قارايبيل بالقرب من إزمير، ونجد شكلاً مماثلاً لذلك الخنجر في بوغازكي ولذلك الرمح في قارايبيل كما نلتقي فيها بصورة أمير حليق اللحية. أما التزيينات الوحيدة التي لا نلتقي بها في آثار آسيا الصغرى فهي الرداء المطرز والخوذة.

وهذه المتأثرات تجعلنا نتجه بأفكارنا نحو آسيا الصغرى أكثر من الاتجاه بها نحو منطقة ما بين النهرين أو فارس، وتدفعنا إلى أن ننسب الخاتم إلى مرحلة تسبق عصر الأخمينيين. وبالإضافة إلى هذا هناك إشارات مباشرة تؤكد عودة خاتمنا إلى منطقة كيليكيا⁽¹⁾.

ويعتمد موردمان على هيروdot الذي وصف المحاربين الكيليكيين الذين كانوا يخدمون في فرق كسيركس بقوله في الجزء الـ 91 من كتابه السابع:

1- المصدر السابق ص 627.

«الكيليكيون... كانوا يلبسون الخوذة الغريبة، ويحملون تروساً من جلود الثيران الشهباء بدلاً عن الدروع ويرتدون الملابس الصوفية الطويلة، وكان كل منهم مسلحاً بزوج من المزاريق ويسيف شديد الشبه بالمديّة المصرية».

ويوضح موردتمان قائلاً إن ذلك الوصف «يتفق بكل ما فيه مع ملابس تاركوديمي»، وبالإضافة إلى ما ذكرناه يمتد أيضاً على ورود ذلك الاسم في كيليكيا ويستخرج الاسم الذي ورد لدى هيرودوت بصيغة «تاركونديموس»، وهو يرى أن الظاهرة الأخيرة تؤكد أن اسم «تاركوديمي» فوق الخاتم قد سجل بصيغة محرّفة لدى المؤرخ اليوناني وأن ذلك الاسم كان يمكن أن يبقى حتى تاريخ قريب بهذه الصيغة.

إلا أن موردتمان يسقط بعد ذلك في الخطأ الذي سبق أن أشرنا إليه، فمن خلال محاولته التوقع المسبق لمختلف الاعتراضات التي يمكن أن ترتبط بحجّته الضعيفة المتعلّقة بقراءته لاسم طرسون يسارع إلى القول بمشروعية أمثال هذه الاعتراضات ولهذا يطرح اسم «توسون» كاختيار آخر وينظر إليه على أنه الصيغة الابتدائية لاسم سينييس الشهير. فمثل ذلك الـ سينييس قام سنة 600 ق.م. بالاتحاد مع لاينيت، ملك يابل. ومن الممكن الافتراض بأن يكون تاركوديمي المذكور في الخاتم هو بالذات ذلك السينييس⁽¹⁾.

لكنه «بالذات» لم يكن هو على الرغم من القول بذلك على مدى عشرات السنين وبالذات حتى سنة 1932.

ولكن لنعد إلى الخاتم، ما إن تذكر سايس تلك «الأسطوانة الفضية» حتى تقدم باستفسار إلى المتحف البريطاني. وهناك ردوا عليه بأن مثل تلك الأسطوانة قد طرحت للبيع على ما يبدو لكنها أعيدت إلى مالكتها بحجة أنها قد تكون مزيفة - لأن أحداً لم يسبق له أن شاهد مثيلاً لذلك! بيد أنهم لم يفوتوا على أنفسهم فرصة أخذ نسخة مغلفنة عنها «تحسباً لكل طارئ». وكان ذلك ضربة حظ وقد أرسلت تلك النسخة إلى سايس لدراستها.

وبواسطة تلك النسخة قام سايس باكتشافه المذهل الذي ربط اسمه وإلى الأبد بالدراسات الحديثة.

على منوال موردتمان أشار سايس إلى غطاء الرأس الذي كانت تتمرره شخصية ذلك الإنسان وإلى حدائنها المعقوف الرأس. وكانوا ينظرون إلى تينك القطمتين على أنهما من قطع المظهر الخارجي «الحثي» أما النص المسماري فقد قرأه بطريقة مغايرة بعض الشيء، فقال: *Tar-*

1- A.D.Mordmann, Entzifferung und Erklärung der armenischen Keil-schriften von Van und der Umgegend, s. 628.



rik-tim-me Š ar mat Er-me-e أي «تاركتيمي»، حاكم بلاد ايرمي، أما اليوم فإن الاسم يقرأ في كل مكان على أنه «تاركومووا»، بينما يقرأ النص على نحو ما هو في (الشكل 55).



بلاد Me-ra á ملك Tarku muwá «تاركومووا»، ملك بلاد ميراء

الشكل -55- القراءة اللفظية لخاتم تاركومووا

وعلينا هنا أن نضع فاصلاً واضحاً بين ما قدمه موردتمان وبين ما قدمه سايس، فما يتعلق بالإشارة إلى آسيا الصغرى وبالتحديد المكاني لكيليشيا وبالقراءة الصحيحة للأسطورة السامرية (على الأقل فيما يخص بناء الكتابة وطابهما). كان ذلك كله من نصيب العالم الألماني، إلا أنه لم يلحظ أهم نقطة في الموضوع، تلك النقطة التي كان اكتشافها من نصيب سايس دون شك.

فمن خلال اطلاعه على النقوش الحثية التي تم اكتشافها والتعرف على الرموز المخطوطة الخاصة بها بالإضافة إلى معرفته بالكتابة السامرية اشتبه سايس، ثم تيقن فيما بعد بأن تلك «الرموز» التي تحدث موردتمان عنها كانت رموزاً خطية - هيروغليفات حثية، وأن النص الذي كتب بها لا بد وأن يتسق مع الأسطورة السامرية. وفي الحقيقة فإنه عثر على رمزي  و  في كل من كركميش وحماه فإذا ما افترضنا أن النص الهيروغليفي في الخاتم يمثل موضوعاً موازياً للأسطورة السامرية كان على هذه الرموز أن تعني كلمتي «بلاد» و «ملك» وكان لا بد وأن يتبعهما رمز لـ tar. وعلى هذا تم التوصل إلى ابيدوغرامات وإلى إشارة مقطعية - فكان ذلك الألق الأول الذي أثار، إلى جانب ذلك، شيئاً بالغ الأهمية في طابع الكتابة الجديدة.




وكان من الممكن أن يطرح السؤال التالي: ألم يلاحظ موردتمان حقاً هذه الهيروغليفات؟ لا، بل إنه رآها وشرحها ومما يذكر أن شرّحها كان يبدو في ذلك الوقت شديد الإقناع، بل وهو يبدو مقنعاً حتى في وقتنا الحاضر.. بالنسبة لغير المتخصصين. «إن الرموز التي تظهر على الخاتم تشير إلى كيليشيا فرؤوس الماعز تعرفنا خاصة بالثروة التي تشتهر بها المناطق الجبلية من كيليشيا بينما يلمح الرمز التالي، مثله مثل حبات القمح، إلى شدة خصوبة سهول كيليشيا، أما الشواهد فهي رسوم دقيقة للمساکن التي كانت قائمة غربي قيصرية في كبادوكيا التي كانت آنذاك.. تابعة لكيليشيا.. أما

النخيل فكان يمكن أن يعتبر في تلك الحالة شعاراً لتلك المنطقة السورية. وبهذا يصبح الخاتم جميعه - مثلاً طريفاً للشمارات القديمة التي تصور الأراضي الخاضعة لصولجان الملك،⁽¹⁾.

إن مجرد النظر إلى هذا الإيضاح، الذي يبدو للوهلة الأولى مقنعاً، يجعل بالإمكان تقدير الأبعاد العظمى للخطوة الأولى التي قام بها سايس وتقديم مفزى تفسيره للخاتم، ذلك التفسير الذي كان حاسماً بالنسبة لحل الكتابة فيما بعد.

والحق إن تلك الكتابة كانت أكثر شحاً من أن تقي بالملوب، بل ولم تقدم أي مساعدة تقريباً من أجل تحديد المعاني اللفظية - فالأيدويوغرامات، كما هو معلوم، لا تقدم أي إيضاحات في هذا المضمار.

وفي ذلك الوقت تم العثور على آثار جديدة منها خاتم من نينوى ووعاء بأزليتي مغطى بالرسوم وكتابة في أحد مساجد حلب. إلا أنه يجب أن نشير قبل كل شيء إلى أنموذجين من بينهما يتميزان بروعة خاصة: كتابة منقوشة على حجر في بوث بالأناضول ونص مخطوط بأحرف بارزة كان يغطي ظهر وجانبي أحد الأسود التي كانت تزين بوابة مدينة مرعش في شمال سوريا.

في بادئ الأمر لم تدفع هذه المكتشفات قضية حل الخط دفعة قوية بالرغم من أنها كانت بمجموعها الأساس الذي بنى ويليام رايت عليه كتابه المشهور «امبراطورية الحثيين»⁽²⁾. وضمنه سايس الجزء المتعلق باللغة وقد نعى في ذلك الجزء نفيًا قاطعاً الفرضية القائلة بأن الحثية - لغة سامية وافترض بأن الحثيين جاؤوا إلى سوريا من الأناضول بهدف السيطرة على هذه البلاد التي بسطوا نفوذهم عليها في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد وفق ما تذكره المصادر المصرية ومصادر ما بين النهرين. ثم يقدم سايس بعد ذلك إسهاماً جديداً في قضية قراءة رموز الكتابة الحثية عندما يتعرف في الرمز  على النهاية K وهي نهاية الحالة الاسمية، وفي الرمز  على النهاية - نهاية حالة المفعول وعلى محدد «مدينة» في  ويشير أيضاً إلى أحد الأسماء وهو اسم الإله زانديس، الذي كانت له عبادته في طارس (في كيليكيا). وسيكون لهذا الإله الذي سيعمل اسم شانتاش شأن في تاريخ فك رموز الكتابة فيما بعد.

وكان من تلك الكشوفات المثيرة التي تمت في تلك السنين والتي قدمناها في ملامحها العامة بالإضافة إلى الارتباط الوثيق الذي بدأت تتضح ملامحه بين العاديات الآشورية وبين

1- المصدر السابق

2- W. Wrights, The Empire of the Hittites, (London), 1884.

الأثار الحديثة الاكتشاف أن أثارها بمجموعها موجة من زحف الرحالة والبعثات إلى آسيا الصغرى وهو ما أثمر عنه مجموعة من الكشوفات الجديدة القيمة. فقد عثر الإنكليزي السير ويليام راسي والألمانيان كارل هومان وأوتو بوخشتين والنمساويان فيليكس فون لوشاي واللورد لانكورونسكي والفرنسي شانتير والأمريكي وولف على تماثيل ونقوش جديدة. ولم تكن قد مرت غير ثلاثين سنة على اكتشاف حجر حماة، إلا أن ذلك كان يبدو عهداً بعيداً جداً. بل إن العالم الألماني ليوبولد ميسيرشميدت عندما أصدر مجموعته *Cropus Inscriptionum Hettitarum* سنة 1900 استطاع أن يجمع ويصطفي وينشر بصورة بديعة نحو مئة من النقوش المكتوبة من بينها 37 نصاً كبيراً من آسيا الصغرى وسوريا الشمالية (وقد أوصل عددها إلى 42 نصاً بفضل الإضافات والترميمات التالية).

وأدت هذه المجموعة من اللوحات المكتوبة إلى إثارة تناقض حقيقي بين أوساط عالم العلم على الفوص إلى درجة أعمق في أسرار هذه الأثار وفك رموز الكتابة وشرحها. ومن الجدير أن نشير هنا إلى بعض التقدم الذي تم إحرازه في ذلك المضمار في المرحلة السابقة أيضاً لذلك الاندفاع العام. فقد اكتشف البحاث الفرنسي ج. مينان سنة 1890 أن الرمز المرسوم الذي بدأت به كثير من الكتابات والذي يصور إنساناً يشير إلى نفسه إنما يعني «أنا» وهو يطابق الهيروغليف المصري المشابه في الشكل. أما سايس فقال بهذا الصدد أن الإنسان الذي صور بواسطة الرمز إنما يشير إلى فمه فالرمز يعني «أنا أقول» أو عن طريق ضمير الشخص الثالث «هو يقول».

وقدم عالم الآشوريات الألماني بايزر سنة 1892 بعض الإسهام في مضمار القضية العامة لقراءة الرموز فأشار في كتابه الذي لم يكن على مستوى عالٍ من العلمية، إلى أنه قد أشار إلى الفاصلة بين الكلمات) وإلى رمز «أنا» الذي قد يشير إلى وجود أيديوغراما.



الشكل -56- الرمز الهيروغليفي «أنا» في الكتابتين - المصرية والحثية الهيروغليفيتين

ولكن قبل أن يظهر الـ *Corpus* كتاب ميسيرشميدت، قام بالتمهيد للدعوة المعظمى من أجل الهجوم المشترك على الكتابة الحثية وفك أسرارها رجل في ألمانيا كان له أثره البالغ على كافة الأبحاث التالية. وقد انعكس ذلك الأثر في معنى مزدوج: ففي السنوات الأولى،

رقد تلك الأبحاث بنقض حاسم الأثر، إلا أن أبحاثه التالية تحولت إلى حجر عثرة أخرت مرحلة الحل عشر سنوات. كما أن كلماته التي كان يقولها عن زملائه وأعمالهم، والتي كانت مليئة بالتهجمات الشخصية أدت إلى جدال علمي، كان فيه من قسوة وحدة، يعيد إلى الأذهان الخصومات العلمية في القرن التاسع عشر.

كان بيتر اينسين آخر ممثلي الرعيل المجيد من علماء الآشوريات الألمان. كان ابناً لقس فرنسي وقطع نفس الطريق الذي قطعه جميع مستشرفي عصره تقريباً - من اللاهوت الذي بدأ اينسين دراسته في برلين، إلى الاستشراق. وفي سنة 1880 أصبح مساعد أستاذ في ستراسبورغ ودعي سنة 1892 استاذاً إلى ماريبورغ وفيها مارس نشاطه لفترة تزيد عن الأربعين عاماً. وقد كان واحداً من تلامذة العالم الكبير ايبيرهاردت شرادير ثم ما لبث أن أصبح استاذاً كبيراً بالنسبة للجيل الفتى واتصل تأثير شخصيته ونشاطه التعليمي حتى 1940.

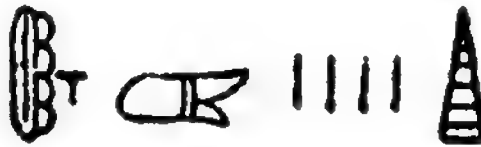
كان اينسين عالم آشوريات مئة بالمئة، وقد حقق أمجاده بأعماله في علم الأكوان عند البابليين وبدراسته للقصص البطولية والأساطير في «المكتبة المسمارية»، أما العمل الكبير الذي كان يرى أنه قد توصل به إلى ذروة نشاطه فكان «أسطورة جلجامش في الأدب العالمي»⁽¹⁾ في مجلدين ضخمين. وفيه حاول أن يؤكد أن كل القصص التاريخية التي وردت لدى الموسويين بالصيغة التي نراها في التوراة ما هي إلا تحوير محلي لأسطورة جلجامش، وأن الاختيارات الواردة في الأنجيل عن يوحنا المعمدان وعن المسيح وبولوس تعود إلى تلك التحويرات الموسوية لجلجامش، وبالإضافة إلى ذلك يرى أن القسم الأعظم من القصص اليونانية وحكايات الرومان في العهد القيصري والتقاليد المتعلقة ببوذا بالإضافة إلى الساعات الشمالية والقصص الهندي تعود إلى ذلك الأصل. ومن الواضح أن نظرية اينسين أثارت ردود فعل عنيفة وأدى الجدل بدوره إلى أن انقلب بنفسه انطوائياً عنيداً وحاد المزاج إلى أبعد الحدود - وبكلمة واحدة فقد اتخذ طبعه ملمحاً خاصاً جعل الكثيرين من زملائه يصلون إلى القول بأن الاحتكاك به كان يرتد عليهم بالأذية.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن الثقات اينسين إلى اللغة الحثية كان يمني بأفضل الوعود. فطريقته في البحث كانت تمتاز بالعمق والتأمل كما أن تعطشه إلى المعرفة وجلده الذي كان يمضي به على هدي الآثار التي تم اكتشافها أثارته فيه، ومنذ وقت مبكر، الرغبة في أن يجرب مواهبه في فك رموز الكتابات غير المعروفة - إلى جانب دراسته في الآشورية. فكرس عاماً كاملاً من حياته لدراسة الهيروغليفات المصرية. كما أن المكتشفات

1- Keilschriftliche Bibliothek, Bd VI.

الحثية اجتذبت انتباهه وكانت نسخة الجبس المأخوذة عن أسدي مرعش تزين مكتبه الذي يعمل فيه. وقد قدّم منذ 1894 (أي قبل أن يصدر ميسيرشميدات الـ «Corpus» بست سنوات)، مخططاً مدروساً بعناية لفك رموز الكتابة، ثم عمد فيما بعد إلى تقديم ذلك المخطط إلى القراء في كتابه المشهور «الحثيون والأرمن» وفي صورة أكثر تبسيطاً. إلا أن تسمية الكتاب نفسها كانت تشير إلى خطأ أساسي: فقد كان يرى أن لغة أورارتو المتأخرة كانت تستخدم الهيروغليفيات الحثية في كتابتها. ومع كل هذا، فإنه استطاع، انطلاقاً من تلك النتائج القليلة المؤكدة التي توصل إليها سابقوه ومنهم سايس بشكل خاص، أن يتوصل إلى القراءة الصحيحة لاسم مدينة كركمبش، والتي كثيراً ما كانت تصادف في الكتابات المكتشفة بين آثار المدينة. كما تمكن بعد ذلك من اكتشاف أحد الألقاب في هذه الكتابات بالإضافة إلى اسم الإشارة «هذا» كما لاحظ المجموعة المكونة من صورة الشمس المجنحة مضافة إلى الرمز الهيروغليفي «الملك» تحيط عادة باسم الملك وذلك على غرار الإطار الذي يحيط بأسماء الملوك المصريين.


أما ما يتعلق بالمنهج نفسه فإن آينسين اختار - خلال محاولته فك الرموز - طريقاً جديداً - كان يمكن له أن يكون الطريق الأمثل بالنسبة لقراءة الكتابة لو أن صاحبه سار فيه حتى النهاية على نحو ما فعل عالم آخر في وقت لاحق فأنثب على ذلك بالتوصل إلى أفضل النتائج، بيد أن آينسين ضل الطريق وراح يتخبط في الأخطاء دون أمل، وقد انطلق من مبدأ يقول بأن أقل ما يجب أن نصرف إليه اهتمامنا هو البحث عن الدلائل اللفظية - فقبل أن يصل الأمر إلى دراسة النص نفسه لا بد من فهم اللوحة المكتوبة انطلاقاً من معطياتها الخارجية وتقديم مضمونها المحتمل القائم على أساس تاريخي إذا لم نقل على أساس حدسي!.



الشكل -57- اسم مدينة كركمبش مكتوباً بالهيروغليفيات الحثية

ويبدو هذا مثيراً للريبة، وسيزداد شعورنا بالارتياح كلما زادت معرفتنا لتطبيقات آينسين لفرضيته في عمله. ولعل من المحتمل أنه كان واقفاً منذ البداية تحت تأثير تلك الحقيقة القائلة بأن جميع الرموز التي عرفت وتم اكتشافها بصورة صحيحة حتى ذلك اليوم كانت بصورة شبه مطلقة أيديوغرامات، وقد وقع آينسين في الخطأ بعد ذلك، إذ افترض أن

الرمز الذي اكتشفه سايس لا يمكن أن يكون إلا نهاية للحالة الاسمية فقط، فكان يرى حالة الإضافة في كل موقع يختفي فيه ذلك الرمز، وإذ تسلم بهاتين الفرضيتين المضللتين توصل بصورة طبيعية إلى تصور كاذب بأن جميع الكتابات قد أقيمت على أساس واحد منهم X، والذي Y (لواحد آخر) Z⁽¹⁾، وعلى هذا فإن جميع تلك الكتابات، بما في ذلك أطولها ديباجة، ما كان يمكن أن تكون نصوصاً قصصية أو وصفية؛ ولا يمكن أن تحتوي على جمل (ولا تحتوي على فعل واحد) - فما هي إلا جرود لمجموعات من الألقاب المتشابهة صيغة كتبت بواسطة هيروغليفيات يأخذ بعضها بخناق بعض وفق نظام لا ينجرح.

ومن المؤسف أن اينسين بقي حتى نهاية حياته يدافع عن فرضه ذلك بعناد لا يعرف مثيلاً وبحدة عجيبة، أما أخطاؤه التالية فإنها لا تستحق مجرد التوقف عندها. إلا أننا سنشرح واحدة منها فقط وهي التي سبق ذكرها وكانت تمثل كارثة بالنسبة لقضية قراءة الكتابة. تلك هي قراءة اينسين غير الصحيحة لمجموعة رموز  التي رأى فيها اسم «سبينيس» وهو لقب الملوك الكيليكين خلال العهد اليوناني. وقد وقع موردمان في مثل الخطأ بينما كان يتحرق شوقاً إلى معرفة الكلمة المكتوبة فوق خاتم تاركومووا.

ومن الواضح أن تلك الفرضية العقيمة التي تقدم بها مثل ذلك العالم المتخصص الشهير جعلت العلم الألماني يصاب بفترة ركود. كان من أهم نتائجها أنها أوقفت عملية اكتشاف الهيروغليفيات الحديثة. وقد عاشت الأبحاث دفعة جديدة من جانب آخر غير متوقع وكان ذلك شبيهاً بكشف حقيقي لم يكن أي إنسان يتوقعه، على الأقل من وجهة نظر كماله ووضوحه.

حفاً، إن «التباشير» الأولى لذلك الاكتشاف بدأت منذ بضع عشرات من السنين وكانت ترتبط بالاكتشاف الذي تم في تل العمارنة (مصر العليا) وعثر خلاله على أرشيف هائل من اللوحات المسماة الطينية التي كتب باللغة الأكادية. وكانت هذه اللقمة ذات قيمة خاصة بالنسبة لعلماء المصريين والآشوريين فقد كانت اللوحات تتضمن بقايا مراسلات ملوك آسيا الصغرى والفرعونيين أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع («الملك حامي العقيدة» الذي تمرضنا عليه في الفترة الخاصة بمصر والتي انتهت بصلاته إلى إله الشمس؛ وتل العمارنة تقع في المكان الذي أقام فيه إخناتون ولم تمش إلا فترة قصيرة بعد وفاة مؤسسها).

وكان هناك، بين هذه اللوحات، رسالتان وجههما «حكيم حثي»، الملوك الحثيون، ومن بينها بطاقة تهنئة ممن يسمى ب سوتيلوليومي بمناسبة جلوس إخناتون على العرش، يضاف إلى ذلك كله تقارير كثيرة عن التداير العسكرية للحثيين في سوريا الشمالية.

1- J. Friedrich, Entzifferungsgeschichte der hethitischen Hieroglyphen schrift. Stuttgart, 1939, S. 17.

وبهذا تم التوصل إلى معلومات في غاية الأهمية عن حياة الشعبين، إلا أن ذلك لا يحيط بكامل الأهمية الكبرى للكشوفات وبخاصة بالنسبة للدراسات الحثية على الرغم من أن ذلك الجانب من الكشوفات لم يُعطَ الاهتمام المطلوب خلال المرحلة الأولى من الكشوفات. والسبب في ذلك أن تلك الرسائل اللوحية كانت تضم بينها اثنتين وضعنا، شأن جميع الرسائل الأخرى، بكتابة يمكن قراءتها لكنهما صيغتا بلغة لا يمكن فهمها مطلقاً. ولكن الأهمية الجديدة لم تصمد طويلاً دون أن تحل، وعندما قام علماء البلدان الشمالية. إ. أ. كنودتسون، س. بوغوي وأ. تورب سنة 1902 بإصدار هاتين الوثيقتين اللتين سميتا باسم بلاد موجههما «رسالتان من أرتساوا» كان بإمكانهم آنذاك أن يفترضوا، وبكل ثقة، أن لغة هاتين الرسالتين - لغة هندوأوروبية وأنها أقدم لغة عرفت حتى ذلك الوقت من بين مجموعة اللغات الهندوأوروبية.

كان ذلك كثيراً وكان قليلاً في الوقت نفسه. فلم يكونوا قد توصلوا بعد إلى القراءة الموثوقة ولو لكلمة واحدة فكيف بجملته كاملة. نضيف إلى هذا أن علماء الهندوأوروبيات كانوا ما يزالون مهيبين على أساس كاف من الحذر... بل ومتوجسين من ذلك الكلام الفارغ غير العلمي والقائم على مجرد التشابه؛ (يقصد بذلك الفناعات القائمة على إيجاد الصلات بين المفردات على أساس مجرد التشابه في اللفظ)⁽¹⁾

ونتيجة لذلك وتحت نيران النقد الشديد الذي وجهه الأخصائيون إلى كنودتسون اضطر إلى التخلي عن نظريته.

وفي تلك السنوات، وفي بداية القرن العشرين، تشكل فجأة وضع خاص انقسمت الدراسات الحثية على أساسه إلى قسمين وكان يداً وجهت العمل المشترك في تيارين مختلفين، ذلك العمل الذي كان حتى يومناك يجمع بين العلماء الإنكليز والألمان خاصة والذي أثبت نفسه من خلال نتائجه الأولية. ومن الطبيعي أنه لم تكن للعلماء يد في ما حدث بل كان الوضع السياسي هو السبب في ذلك، إذ إنه حدث قبيل الحرب العالمية الأولى.

اتخذت البعثة الإنكليزية طريقها من ليفربول إلى آسيا الصغرى برئاسة جون هارستانغ وكانت تقف وراءها شخصية السير ارتشيبالد هنري سايس.

قل سايس سنوات طويلاً يهدد حلمه الذي لم يكن بحد ذاته جديداً؛ وهو القيام بالحفريات عند انعطاف غاليس بالقرب من بوغازكي، التي كانت معروفة، منذ أيام تيكمسييه، كمكان تقوم فيه الأتار الهائلة الحجوم وحيث عثر شانتز، منذ 1883، على

1- G. Herbig, Wege und Ziele der hithitischen Sprachforschung, Breslau, 1922, S.5.

اللوحات المملوكة، وكان الدلائل تشير إلى إمكانية تحقيق هذه الخطوة، وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر اقترح سايس ذلك المشروع على صديقه الألماني الذي كانوا يعتبرونه في كل مكان (ما عدا بلده حقاً) مجرد «حفار»، ونحن نتحدث هنا عن هنريخ شليمان، مكتشف طروادة. بيد أن ذلك الأخير لم يتمكن من تحقيق ذلك المشروع. فقد أهدرت سنون طويلة في المفاوضات المطولة مع الحكومة التركية وها هو ذا سايس يتسلم سنة 1905 الإذن لجامعة ليفريول بالقيام بالحفريات. وكان أعضاء البعثة في طريقهم عندما صعقتهم الأنباء القائلة بأن الأتراك قد سحبوا الإذن وأفردوا للإنكليز مكاناً جديداً للحفريات هو - كركميش. أما بوغازكي فقد خصصت للبعثة الألمانية التي أرسلتها الجمعية الشرقية الألمانية والتي كانت في حماية القيصر ويلهيلم الثاني نفسه. فلم يكن أمام الإنكليز سوى القيام بزيارة مجاملة إلى الألمان الذين كانوا قد وصلوا إلى بوغازكي ومن ثم مواصلة طريقهم إلى كركميش. غير أن نشاطهم لم يكن عديم الفائدة فقد استخرجت حفرياتهم نصوصاً هيروغليفية حثية جديدة أطوع للقراءة. أما ما هيأته الأقدار للبعثة الألمانية فكان في الحق حدثاً خارقاً للعادة.

كانت البعثة برئاسة هوغو فينكلير، وهو عالم آشوريات مجرب و«متمشياً للبابليين»⁽¹⁾ لا يجارى وكان إنساناً مليئاً بالتناقضات وقليل الاختلاط بالناس. وعند بدء رحلته إلى بوغازكي كعالم آثار كان قد خلف وراءه عدداً من الدراسات الجادة وكان يمكنه أن يعتمد على تجربته الخاصة في القيام بالحفريات.

ثم كل شيء دون صعوبات تذكر، وكان بمقدورنا في اليوم الخامس أن نحفل بوصولنا إلى بوغازكي. ولم يثر وصولنا اهتماماً خاصاً - فقد ألف الناس هنا رؤية السياح. يضاف إلى هذا أن الفلاح التركي أسمى تربية من أن يقف متفرجاً بفضول معيب على ما يحدث خارجاً عن المألوف. فمن شأن مثل هذه الظاهرة أن تكون سبباً في تحشد الجمهور لو حدثت في برلين، الأمر الذي من شأنه أيضاً أن يؤدي إلى تحرك قوات معتبرة من الشرطة. أما الإنسان الشرقي فإنه يرضع التربية الرفيعة الضمنية مع حليب أمه⁽²⁾.

وبعد الاستقبال الذي أقيم بكل الحرارة والفضامة الشرقيتين والذي نظمته ضياء بك، ممثل السلطات المحلية، لهوغو فينكلير انصرف هذا إلى أعماله. عثرت البعثة في المعبد الكبير في قرية بوغازكي التي تقوم مكان العاصمة القديمة لحانتوشاش على ما يزيد عن

1- أي أنه كان من أنصار الاتجاه الذي ظهر عند مطلع الدراسات الآشورية ويرى في الحضارة البابلية

الآشورية مهد الحضارة العالمية الحق

2- H. Winckler, (Nach Boghasköi!) - (Der Alte Orient), Jg 14, S.17f.

عشر قطع لوحية فخارية كانت تمثل الأرشيف الحكومي لدولة الحثيين ومن بينها مجموعة معتبرة من النماذج المحفوظة بصورة جيدة، وقد كتب معظمها باللغة الأكادية، وهو ما يشير إلى أن مجال تأثير اللغة الأكادية كلفة دبلوماسية كان يصل في ذلك الوقت حتى العاصمة الحثية. وقد استطاع عالم الآشوريات أن يقرأ الوثائق المستخرجة وهو واقف في ذلك المكان واستطاع من ذلك المكان أن يشهد تاريخ الشرق القديم في ضوء جديد تمام الجدة.

«كان هناك عرزال مغطى بأغصان الأشجار، وكان عليه لوحده أن يفمر بظله وبرودته دراساتي للألواح الطينية... وغير بعيد أقيم عرزال آخر أكبر حجماً وأكثر عمقاً في الأرض أنيطت به مهمة تأمين الحماية لخمس أنفس - ربما لم تمس في حياتها بطولها أجمل من تلك الأيام - وتلك كانت خيولنا ومن الطبيعي أن مثل ذلك الجوار قد أنتج فيضاً من الذباب وهو ما منحني بدوره كثيراً من اللحظات السعيدة عندما كنت أنقل النصوص من لوحاتي الفخارية وقد غمرت بالغطاء رأسي وارتديت قفازي وعندما كنت أنقطع عن الكتابة عند كل رمز لكي أكش عني تلك الحشرات الودودة التي كانت تظهر اهتماماً بالغاً بعملتي. ويضيف هينكلير ساخراً بعد ذلك، «يمثل هذا التوجس الكبير ينظرون في علومنا وكأنها محاولة للتجاوز على حقهم في الأولوية»⁽¹⁾.

لكن ذلك الساهر لم يكن منه إلا أن يخفف من حدة سخرته أمام تلك الكشوفات الرائعة التي قدمتها له أرض بوزغازكي فكان عليه أن يأخذ قلمه لكي يسجل هذه المرة المغزى التاريخي المهم لاكتشافه.

وسرعان ما ولدت النظرة الأولى إلى قطع اللوحات الفخارية التي وضعت باللغة البابلية اليقين بان البعثة تقف على أرض العاصمة القديمة «لحكام حثي، للملوك الحثيين وأنها وضعت يدها على الأرشيف الملكي الذي يعود إلى مرحلة قيام العلاقات الوثيقة بين الحثيين والمصريين. «لم تكن النماذج الأولى تحمل بعد أسماء ملوك تلك المرحلة... إلا أننا كنا إزاء وقوع حادث لم يكن ينتظره أحد بل ولم يكن يجرؤ حتى على أن يحلم به. ففي العشرين من آب (أوغسطس) وبعد عشرين يوماً من بدء العمل تحركت التلثة التي كنا قد أحدثناها في الجرف الجبلي ووصلت حتى جدار منطقة الحفر الأولى واكتشفنا تحتها لوحة في حالة رائعة من الحفظ وكان لها هيئة تبشر بالكثير من الأمان، كانت لحظة واحدة - وإذا بكل ما لدي من مقدرة على ضبط النفس اختزنتها خلال سنين طويلة، قد طارت في آنية واحدة، لقد

1- Ibid. S. 27f.

كان أمامي ما يمكن أن يحلم به الإنسان (أقول هذا مازحاً طبعاً) كهدية تنزل عليه من السماء، رمسيس يكتب إلى حاثو سيلبي... حول معاهدة بين الطرفين، حقاً كنا في الأيام الأخيرة نعثر على لوحات، تتزايد أعدادها، من القطع الصغيرة، يدور فيها الحديث عن معاهدات بين دولتين، لكن من خلال هذه اللوحة فقط، توصلنا إلى توكيد أن المعاهدة الشهيرة المعروفة في الخط الهيروغليفي والمنقوشة على جدار معبد الكرنك كان يجب أن يكون لها تصديق لدى الطرف الآخر صاحب المعاهدة. رمسيس، وقد ذكر بجميع ألقابه وأنسابه وبكل الدقة التي وردت في نص المعاهدة، يكتب إلى حاثو سيلبي... ومضمون الرسالة يتطابق حرفياً مع مقاطع المعاهدة...

من الصعب التعبير عن تلك المشاعر التي أخذت أنا، أنا لا سواي، أتفحص بها تلك الوثيقة. لقد مضت ثمانية عشر عاماً منذ أن تعرفت في متحف بولاق على رسالة أرتساوا والتي وجدت في العمارنة، إذ ذاك قدمت... افتراضاً بأن معاهدة رمسيس كان يمكن أن تكون قد وضعت بادئ الأمر بالإسفينية، وها أنذا أحمل بيدي واحدة من الرسائل، من المبادلات التي تمت بين الحاكمين وقد كانت مكتوبة بلغة بابلية جيدة وبإسفينيات رائعة المظهر! لقد كان ذلك مصادفة نادرة حقاً في حياة إنسان واحد: ذلك الكشف الذي تم عند أول خطوة على أرض المشرق في مصر يجد تأكيداً هنا في قلب آسيا الصغرى، كان ذلك اللقاء معجزياً شبيهاً بمصائر أبطال ألف ليلة وليلة. إلا أن العام الثاني قدم أحداثاً أكثر معجزية وأسطورية، عندما تم العثور على جميع الوثائق، وعندما خرجت من فلام المصور تلك الشخصيات التي كثيراً ما شغلت خيالي تلك الأعوام الثمانية عشر... أجل، كان ذلك سلسلة من أكثر الظروف غرابة في حياة الإنسان⁽¹⁾.

في الحق أن جميع الكشوفات لم تكن مفهومة... وكان كل شيء صحيحاً - إن الكشوفات التي لا تقدر بثمن وإن الإخباريات التاريخية التي تم التوصل إلى قراءتها قد حطمت الاستنتاجات والتصورات السابقة، وإن نتائج الحملتين الثانية والثالثة بين (1911-1912) واللتين شارك فيهما فينكلير، الذي صار إلى أقصى درجات المرض، كانت مذهلة... ومع كل ذلك كان القسم الأعظم من الأشياء التي تم العثور عليها ممتعاً على القراءة - اللهم إلا بعض الايديوغرامات الأكادية المنفصلة، (سبق أن أشرنا إلى الدرجة التي يسارع فيها الإسفين لنصرة الباحث فيسعه بالايديوغرامات والمحددات).

1- Ibid. S. 29f.

ومن الطبيعي أنه ما كان ليفيب عن أعين الباحثين أن الحديث كان يدور هنا عن اللغة التي مثلت أمامهم في «رسالتي أرتساوا» الفاضلتين. وبالإضافة إلى هذا كان من المفروض أن تكون تلك اللغة معادلة للغة البهروغليفات أو قريبة النسب منها وهذا ما افترضه كل من سايس ويايزير اللذين تعرّفا في وقتها على اللوحات التي اكتشفها شانترو.

تميزت السنوات الأخيرة قبيل بداية الحرب العالمية الأولى بالأبحاث الميدانية الناشطة، وعندما لعلمت الرصاصات في سيراييفو كان المحصول الذي أنهى من جنيه في حقول بوغازكي قد تجمع في متاحف برلين واستامبول.

وبعد وفاة فينكلير سنة 1914، وقبل أن تدور رحى الحرب قامت الجمعية الشرقية الألمانية بإرسال اثنين من العلماء الشبان وهما هـ. هـ. فيغول وبيدريج غروزني إلى عاصمة العثمانيين من أجل استساخ نصوص بوغازكي. أما الثاني منهما - وقد توفى منذ فترة قصيرة - فتيسر له أن توضع بحوزته النصوص الأطول ديباجة والأفضل حفظاً في متحف استامبول. وكان من نصيبه أن يكتشف ويشرح اللغة «المسمارية الحثية» وأن يبرهن أيضاً على أن الموضوع يدور في تلك الحالة عن لغة هندأوروبية على الرغم من أنها مجبولة جبالاً بكلمات دخيلة عليها يفترض أن تكون ذات مصدر من آسيا الصغرى.

ولد بيدريج غروزني عام 1879 في مدينة ليسا البوهيمية في الألب⁽¹⁾ ويعود بأصله إلى أسرة فسييس بروتستانتي تشيكي، وقد دخل المدرسة في مدينة كولين حيث لفت أنظار الدكتور يوستن فد براشيك، أستاذ التاريخ والجغرافيا الذي كان قد حقق شهرة في حقل العلم، فأحاطه باهتمام خاص. ويبدو أن غروزني قد خضع لرغبة أبيه فبدأ بدراسة اللاهوت البروتستانتي، تلك المادة التي نفخت فيه، مثلما نفخت في الكثيرين، حب الشرق القديم، وبعد قليل من التفكير، يقوم غروزني، وقد أنهى المدرسة وتعلم العبرية القديمة والعربية، بتبديل كليته ويكرس نفسه منذ 1897 لدراسة اللغات الشرقية القديمة في جامعة فيينا. وكان أستاذه فيها عالم الساميات د. ج. مولير وكان أستاذاً واسع الثقافة جديراً بالاحترام ولا يزال طلابه حتى يومنا هذا معروفين كممثلين مشهورين لتخصصهم، وقد ناقش عنده سنة 1901 أطروحة الدكتوراه بعنوان «النقوش العربية الجنوبية».

ومن الأمور المميّزة أن غروزني لم يكن في تلك السنوات المبكرة يلمح إلى أن يكون مجرد باحث بسيط في حقل اللغة، فقد بقيت دراسة النصوص وتفسيرها بالنسبة له حتى آخر

1- وليس في بولندا حسبما يفترض كورت ماريك كيرام في دراسته «الشرح الضيق والجبل الأسود»
C.W.Ceram, Enge Schlucht und Schwarzer Berg, Hamburg. 1955.S.73.

سني حياته مجرد وسيلة للوصول إلى هدف آخر هو التعمق في دراسة الحضارات الشرقية القديمة، ومن أجل ذلك كان على عالم الساميات أن يلم إلاماً كاملاً بواحد من أهم فروع اختصاصه - وهو اللغة الأكادية (السامية الشرقية) التي كانت تكتب بالخط المسماري يضاف إلى هذا أن الوصول إليها كان يجب أن يتم عن طريق المصادر الأصلية. ولما كان قسم الآشوريات لم يفتح بمد في فيينا فإنه توجه إلى برلين على أساس المنحة الخاصة التي قدمتها له النمسا، وهناك اتصل بـ فـ ديليتش ليتعلم من ذلك المعلم الذي تخرجت من عنده أجيال بكاملها، عادة قراءة الخط المسماري. وقد أكد غروزني للعالم بأسره فيما بعد أن المنحة لم تضيع سدى، فمند عودته شغل منصب أمين المكتبة في جامعة فيينا وفيها أصبح أستاذا مساعداً وعندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره عين أستاذاً فوق العادة (من خارج النصاب) في جامعة فيينا.

كانت أعمال غروزني في تلك الفترة تتسم بخاصية تميزها عن الأدبيات الآشورية ككل، فإذا كان معاصروه قد صبوا اهتمامهم كلياً على أساطير وديانات البابليين والآشوريين القدماء فإنه وجه كل اهتمامه نحو النواحي الاقتصادية من تاريخ هذه الشعوب وكان في هذه الناحية مجدداً تمام التجديد وهو صاحب الدراسة المثيرة للنقاش بعنوان «حول النظام النقدي عند البابليين» (1911) بالإضافة إلى دراسة يتردد ذكرها كثيراً بعنوان «زراعات الحبوب في بابل القديمة» وهو عمل بالغ الثراء مدروس الجوانب، إلا أنه بقي للأسف غير مكتمل. وكان المؤلف ينظر إلى هاتين الدراستين كمرحلة تمهيدية لكتابة بحث شامل بعنوان «تاريخ حضارة آسيا الصغرى». وهكذا، ومن خلال ذلك العمل الذي دام سنتين طويلة والذي قطع مرة واحدة فقط سنة 1904 عندما سافر صاحبه إلى المشرق برفقة إيرنست زيلين كانت تتعمق وتشتد معارف غروزني وتتدرب ذاكرته التي كانت، بشهادة معاصريه، خارقة للعادة. كما أنه زاد بنفسه من تعميق تلك المقدرة التي أكدها بصورة قاطعة في عمله على اللوحات المسمارية المنقولة من بوغازكي إلى متحف استامبول.

سبق وأشرنا إلى أن غروزني قد التقى هناك بنصوص مطولة من النوع الذي حفظ بصورة جيدة. وكوسائل مساعدة تذكر إلى حد ما بنصوص مزدوجة اللغة كانت هناك قطع من «المعاجم» أي الأدلاء، وهي شبيهة بالمعاجم السومرية - الأكادية التي التقينا بها في الفصل الخاص بالكتابة المسمارية في ما بين النهرين. وقد أضاف الحثيون إليها عموداً جديداً، حثياً. بيد أن ذلك لم يكن يقدم من العون إلا القليل، ذلك أن تلك المعاجم - الدلائل ما كانت تورد

إلا المفردات النادرة الاستعمال وكانت تترك الباحث، ضحية للأقدار كلما أراد أن يشغل نفسه؛ بالمفردات الأكثر استعمالاً ووروداً في النص.

لهذا انصرف غروزني، وبكل وعي منه إلى تركيز كل اهتمامه على النصوص وتعامل مع كل منها على أنه وحدة كاملة متكاملة أملاً في أن يستخرج منها المعلومات الخاصة ببناء اللغة نفسها.

وهكذا فإن حدسه الوليد وعبقريته الخلاقة وذكائه المشرق فيما يتعلق بالحقائق وضعت بمجموعها على محك التجربة كما أن هذه المادة خضعت بدورها لاختبار العالم، وكان اختباراً موضوعياً في الحدود الممكنة. والحق أن غروزني خمن في بداية أمره أن يكتشف اللغة القوقازية وكان تخمينه متسقاً مع مستوى العلم في ذلك الوقت.

كانت بعض الأيديوغرامات معروفة بالنسبة لغروزني إلا أنها لم تستطع في حد ذاتها أن تقدم أي دفع في ميدان شرح اللغة ما دامت لا تستطيع - كما هو معروف - أن تقدم لفظ الأحرف.

أما ما كان يثير أعرق التأملات فكان تلك التبدلات التي تحدث لنفس الكلمات وبخاصة منها ما يسمى بالنهايات المتحولة فقد كانت تطالب دوماً بالفرضيات القائلة بأن اللغة الحثية ذات صيغ قواعدية تقربها من اللغات الهندوأوروبية.

إلا أن غروزني لم يجرؤ على التصريح بذلك فمنذ فترة قصيرة كان يرى في ذلك تطاولاً وقد حاول كنودتسون أن يقوم بتأكيد مثل هذا التشابه من خلال «رسالي أرتساوا» فبماذا انتهى أمره؟ بالتنازل عن نظريته تحت نيران النقد التي وجهت إليه من كل صوب.

إلا أن هذه التصورات بمجموعها لم تعمق غروزني عن تسجيل ملاحظاته بصورة دقيقة وشاملة وأن يسير على أثر تلك الخطى التي قادته في ذلك الاتجاه. وأخذت هذه الملاحظات تتضاعف أمام عينيه حتى اتخذت تدرجياً صيغة سلسلة حقيقية من البراهين.

إلا أن ثقته الكاملة جاءت بعد قرأته لجملة واحدة فقط. وكان ذلك اكتشافاً انقض كالصاعقة على صاحبه، وهزه هزاً أحس إزاءه بالرعب. فقد كانت تلك القراءة حجر الزاوية بالنسبة لفك الرموز وهي تشترك في ذلك مع جميع النقاط الانعطافية المشابهة في أعمال فك رموز الكتابات (فلنستذكر - رسمي بطليموس وكليوباترة الشامليونيين ورسمي داريوس وكسيركس الفروتيينديين) وهو ما يبدو لنا الآن بسيطاً إلى حد لا مجال بعده.

أما الجملة التي اجتذبت انتباهه فجأة ولمدة طويلة فكانت تقرأ هكذا:

nu--an e-iz-za-at-te-ni wa-a-iar-ma e-ku-ut-te-ni

ف هي ايدوغراما سومرية - بابلية وهي كما هو معروف من خلال كتابتها اللفظية *ninda* وتعني الخبز، وعلى هذا فإننا إذا ما استبدلنا تلك الأيديوغراما بمعناها العربي وأحلنا جميع أشكال الكتابة المسماة المقطعية إلى اللفظ الحقيقي للكلمات المنفصلة توصلنا إلى القراءة التالية:

nu خبز - *an ezzā iteni wadar* - *ma ekuteni*.

فالحديث إذن يدور حول الخبز، وإذا ما أخذنا بالنهاية *an* لهذه الكلمة فإنها تؤدي وظيفة الأخبار في الجملة (وعلى فكرة، فإن هذا المثال يستعرض بأفضل صورة استعداد الإسفينية لتقديم العون للباحث في اللغة المجهولة). ولكن هل بالإمكان أن نجد فعلاً - خبزاً يتسق مع الكلمة المضافة «خبز» أفضل من فعل *أَكَلَ* *ezzā iteni*... وهل يصدق العقل أن يكون هناك حقاً شيء يتجاوز «الكلام الفارغ القائم على مجرد التشابه اللفظي، ليكون صلة نسب حقيقية؟ ويجول غرورني في ذاكرته بجميع المطابقات الهندوأوروبية التي تستيقظ في ذاكرته - فما هو ذا الفعل الألماني *essen* واليوناني *edein* واللاتيني *edere* والفعل الألماني الشمالي... هو ذا الفعل الألماني الشمالي القديم *ezzen*!

وتتسمّر أنظار غرورني المنفعل مرة ثانية على الجملة وكمتشرق مجرب يبدأ بتجربة «متانة البناء»... وأخيراً وجدت الثلثة!
ويقفز أمام عيني الباحث البناء المكون من شملرين والذي كان نموذجاً بالنسبة للغات الشرق القديمة:

nu خبز - *an ezzā iteni WĀ DAR* - *ma ekuteni*

ألا تتألف هذه «الجملة» يا ترى من جملتين متشابهتين في البناء (وإذا كان الأمر كذلك ألا يمكن أن تتطابق كلمة *WĀ DAR* مع كلمة *watar* الألمانية الجنوبية القديمة «ماء»؟ إذ ذلك يمكن لـ *ekuteni* أن يعني «شرب» وفقاً لقانون التشابه مع «أكل»؟
أما ما يخص النهاية الفعلية *teni* والظرف *un* والماطف *ma* المتصل بالكلمة السابقة فقد كان غرورني يفترض أن يتوصل إلى معناها جميعاً أثناء دراسته لأماكن أخرى في النص. وأمام البصيرة الروحية للباحث ويسرعة البرق بدأ يتوضع البناء ككله من حجيرات صغيرة وفي أذنيه بدأ يتردد صدى أول جملة تمت قراءتها وفهماها وكأنه يصل إلى سمعه من غياهب ما يزيد عن الثلاثة آلاف سنة: «والآن كلوا خبزكم».

كان غرورني يمي أن كشفه سيجذب إليه الأنظار ويثير الكثير من المعارضة - وبكلمة واحدة سيكون الهزة العلمية ذات الرقم - واحد. إلا أنه لم يستطع أن يحيد عن

الطريق الذي شقه ومهدته بنفسه - وأخيراً تجمع لديه من الشواهد التي تزيد نظريته الهندوأوروبية أو الهندوجرمانية، كما كانوا يميلون إلى تسميتها آنذاك، عدد اخذ بعضه يزحم بعضاً لكثرتة، وكان من بينها بعض الظواهر المدهشة كالتحول الطريف بين n و r في حالتها الاسمية والإضافة وهو أمر معروف من اللغتين اليونانية واللاتينية (قارن اليونانية *hydatos* في حالة الإضافة من *hydantos* «الماء» وقارن الكلمتين اللاتينيتين *femur* و *feminis* «حوض»، «فخذ» ويشير غروزني في هذا الصدد بقوله: «... كان من الصعب أن يتمنى المرء برهاناً أكثر قوة في صالح هندو-جرمانية اللغة الحثية»⁽¹⁾. وبالإضافة إلى ذلك تم التوصل إلى اكتشاف بعض التطابقات المذهلة في ميدان الضمائر وتصاريف الأفعال.

أما اليوم الذي قدم فيه غروزني تقريره عن النتائج التي توصل إليها إلى جمعية آسيا الصغرى في برلين وكان ذلك في الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1945م فكان «اليوم الحقيقي لميلاد علم الحثيات» على حد قول عالم الآشوريات الشهير إيرنست فيدنيبر في مقاله الرائع بمناسبة وفاة زميله المجيد.

وفي كانون الأول (ديسمبر) من نفس العام نشر التقرير الأولي لغروزني في «دوريات الجمعية الشرقية الألمانية» بعنوان «حل المشكلة الحثية» وبعد عامين صدرت الدراسة مزيدة في لايبزيغ باسم «لغة الحثيين، بناؤها وانتمائها إلى مجموعة اللغات الهندوأوروبية» وكانت تلك الدراسة الكلاسيكية تمثل دون شك قمة النشاط العلمي لغروزني. ولم يكن غروزني قد أتم بعد تحريره النهائي «للتقرير الأولي» عندما استدعى للخدمة العسكرية.

وقد واكب الحظ حقاً ذلك الغروزني ما دام قد لقي في الجيش «الإمبراطوري والملكي» المائد للإمبراطورية النمساوية القادة اللبقيين وذوي المروءة فلم يتسن له فقط كتابة «تقريره الأولي» ودراسته الأساسية «لغة الحثيين» بل وأن يقيم أسابيع بكاملها في متحف ستامبول دون أن يخرج منه وهو يقارن النصوص السامرية ويدرسها. ومع كل هذا فقد كانت أعمال غروزني تعاني من نقص واحد ذلك أنه قد عهد إليه في ذلك الوقت بدراسة نصوص بوغازكي كعالم آشوريات أي كمالم لغوي متخصص في الساميات؟ وإذا به يلاحظ، لمعظم دهشته، أن كافة المظاهر تتجه في صالح لغة هندوأوروبية (أي غير سامية). وإذا كانت قراءة النصوص السامرية تمثل اختصاصه الضيق فإنه لم يكن

1- Mitteilungen der Deutschen Orientgesellschaft- Bd 56, 1915, S.25.

متضلعاً في اللغات الهندوأوروبية. ولهذا يجدر بنا أن نكبر ما أنجزه في توضيح الظواهر التي اكتشفها، وبودنا أن نوكد هذه الخاصية بقوة أكبر الآن من أجل أولئك الذين يميلون كثيراً إلى أن ينظروا إلى غروزني في ضوء أعماله الأخيرة التي لم تصب الكثير من النجاح. بيد أنه كان يستجيب منذ بواكير أعماله لأغراءات اعتبار تلك العلاقات التي كان يبحث عنها في التشابه الصوتي للكلمات، أمراً واقعاً، ولهذا فإن اللوحة العامة لتلك اللغة الهندوأوروبية الميالة ميلاً شديداً نحو اللاهندوأوروبية والتي رسمها على هذا الأساس صحيحة في الأسس لكنها مفككة في التفاصيل.

وإلى تلك النقطة الضعيفة كانت توجه الطعنات الشديدة العنف وخاصة من جانب المختصين في الدراسات اللغوية المقارنة، والحق إنهم ما كانوا ينجحون دوماً في إصابة الهدف، وقد صفى غروزني حساباته مرة مع أحد معارضيه بتورية ساخرة في تقريره حول تاريخ النصوص الحثية وخطوات قراءتها والذي قدمه في السوربون في 14 آذار (مارس) 1931. فقد ذكر أن أحد العلماء الثقات عارض نظامه مؤكداً على أن *wadar* لا يمكن أن تعني «ماء» «فالصوتي الأول من هذه الكلمة طويل في اللغة الحثية وهو أمر لا يمكن حدوثه مطلقاً في اللغات الهندوأوروبية. من هذا نصل إلى الجزم بأن نظرية غروزني باطلة من أساسها».

ومن الطبيعي أن تلك النظرية لم تكن كذلك على الإطلاق، بل إن تلك النظرية كانت الأساس الذي لا يتزعزع والذي لا يترك مكاناً لأي ذرة من الشك إلا أنها كانت بحاجة إلى التقصي الفيلولوجي الصارم وإلى التمهيع من قبل الأخصائيين. وقد لذلك كل من الباحثين ف. زومير، ج. يخيولوف، إ. فورير، إ. فريدريخ، آ. غوتسي وإ. خ. ستورتيفانت وساروا بالعمل حتى نهايته معتمدين على اكتشافات غروزني. والآن يمثل علم الحثيات أمامنا علماً مستقلاً حتى وبالمفهوم الضيق للكلمة.

وهكذا مزق حجاب الصمت عن أرشيف بوغازكي بكامله فلم تنطق اللوحات الأكاديمية فحسب بل واللوحات الكهفية أيضاً. فقدمت إضافات مهمة جداً إلى معارفنا التاريخية وبخاصة ما يتعلق منها بتاريخ الشرق القديم. ولنا عودة إلى هذه النقطة فيما بعد.

ولكي نستعرض ذلك الخليط الطريف من الأيدوغرامات السومرية ومن الكلمات الأكاديمية والكلمات الحثية المكتوبة لفظياً والذي تقدمه النصوص الحثية المسماة نعرض في ما يلي نموذجاً يقدم للقارئ مثلاً واضحاً عن ما كان غروزني يصطرح معه. ويقدم هذا النموذج في العرض المبسط الذي قدمه إ. فريدريخ السالف الذكر، وهو مأخوذ من أحد بنود نص قضائي حثي.

«tá k-ku LÚ ULÚLU -an EL LUM QA AZ. ZU. na- aš -ma GÍ R-SU ku-iš -ki tu-wa-
ar-ni-iz-zi nu-aš -š e 20 GÍ N KUBABBAR -pa- a-i.»

«إذا كسر إنسان يد إنسان حرّ أو رجله، يعطيه 20 شاقلاً من الفضة» (إذا لإنسانٍ حرٍ

يُدّه أو رجله أحدهم يكسر، ف 20 شاقلاً من الفضة يعطيه).

في هذا النص قدم أساس كلمة «إنسان» بواسطة الأيديوغراما السومرية *Iu- ULULU*

وهي مكتوبة لفظياً وأضيفت إليها النهاية الحثية بحالة المفعول *an* أما *El- Ium* «حرّ» فكتبت

بالأكادية كما كتبت *QA.AZ.ZU* «يده» بالأكادية أيضاً بينما عبّر عن الأساس في كلمة

GÍ R-SU «رجله» بالأيديوغراما السومرية *GÍ R* وعبر عن النهاية بلاصقة «*SU*» -خاصته. وهي

لاصقة أكادية تعود إلى ضمير الملكية. أما مقدار العقوبة وهو *20 GÍ N KUBABBAR*

فكتبت بلفة سومرية صرفة وكتبت *takku* «إذا» *naš ma* «أو» *kuiš ki* «أحدهم»،

TUWARNIZZI «هويكسر»، *nu-š š e* «له إذن» و *piil* «هو يقدم» فكتبت بالكتابة الحثية

اللفظية⁽¹⁾

وكما نلاحظ فإن الحرب لم تقطع الأبحاث في معسكر دول المحور، بيد أنهم في

المعسكر الآخر لم يجلسوا مكتوب في الأيدي، إلا أن العلماء الحلفاء لم يكونوا مشغولين

بالكشوفات المسماة الحثية (فقد كانت لوقت ما في غير متناول اليد بسبب حفظها في

ألمانيا وستامبول)، إلا أنهم كانوا يعملون على حل الرموز الهيروغليفية التي تسبى لهم جمعها

قبل بداية الحرب مباشرة.

كان الإنكليزي ر. تومبسون قد أذاع على العالم قبل نشوب الحرب نبأ «حل جديد

للهيروغليفيات الحثية» وقام بمحاولة مبررة تماماً وإن كانت سابقة لأوانها من أجل استخدام

كافة الإمكانيات التي يمكن أن تضمها اللغة المسماة الحثية بين يدي الباحث لفهم

الهيروغليفيات. لكن المشكلة كانت تنحصر في أن تلك اللغة لم تكن قد قرئت بعد بل ولم

تكن معروفة إلا بصورة تقريبية في «رسالتي أرتساوا». وقد أصيب تومبسون بالخيبة لأن قسماً

من الكلمات الحثية في تينك الرسالتين كان قد قرئ بصورة خاطئة وكان القسم الآخر قد

استخرج بصورة خاطئة أيضاً. ومع كل ذلك فقد سجل في خانة المداخل الدائمة القراءة نصف

الصحيحة لبعض المراكز المأهولة بالسكان، تلك القراءة التي استقاها من المصادر الأشورية

كما سجل اكتشاف واحد من المحدّدات (التي لا توضع بصورة دائمة لأسماء الأعلام)،

ولكن قبل أن تجري التجارب الجديدة على الهيروغليفيات اندفع العالم اللغوي السويسري

إيميل فورير في التيار السريع للغة المسماة الحثية الحديثة الاكتشاف وقد نشر في «تقارير

1- J.Friedrich, Entzifferung verschollener Schriften und Sprachen, S. 60f.

أكاديمية العلوم في برلين، (وكان يعمل آنذاك في ألمانيا) مقالاً يحمل عنواناً صاعقاً هو «اللغات الثماني في كتابات بوغازكي» (1919).

كان اسم المقال غامضاً بادئ الأمر وهو أمر لا يمكن أن نقوله عن تلك الدراسة الفنية والمعتبرة. فقد وضع بين اللغات الثماني اللغتين السومرية والآكادية طبعاً وعلى هذا تبقى ست أخرى. وبالإضافة إلى ذلك تضمنت النصوص مجموعة كاملة من المصطلحات الهندية من ميدان تربية الخيول وترويضها. وعند دراسته لتلك اللغات الخمس يطرح فورير مفاجأة جديدة يمكن تلخيصها بهذه العبارة الموجزة: إن اللغة الحثية ليست حثية.

وفسر فورير نظريته بما يلي: إن الحثيين، وفق معطيات لغتهم، هنداً وأوروبيون. وهذا يعني أنهم، بناء على كل المعلومات التي نملكها حول هذه المجموعة، ما كان يمكن أن يكونوا من السكان الأصليين في آسيا الصغرى بل كان لا بد أن ينتقلوا إليها في يوم ما. أما اللغة التي تظهر الآن من خلال نصوص بعض اللوحات في بوغازكي فكانت لغة السكان الأصليين لتلك البلاد أما أماكن ورودها في النصوص والتي كنا نلتقي بها فكانت مميزة بـ «الحثيلي» أو «بالحاثية» أي باللغة الحثية وتلك الكلمة مشتقة دون شك من اسم البلاد - حثي، وعلى هذا فإن الناس الذين كانوا يتكلمون باللغة الحثية أو «الحاثية» كانوا الحاثيين أو الحثيين الحقيقيين. أما ما يتعلق بالكتابة «المسمارية الحثية» الهندوأوروبية والتي كانت تشغل أكثر من تسعين بالمئة من النصوص المسمارية فقد اقترح فورير لها اسم اللغة «الكانية» وذلك وفقاً لاسم إحدى المدن الحثية.

غير أن المصطلح لم يتأصل. إذ إن الشعب الهندوأوروبي الغازي (ونحن لا نعرف حتى الآن بماذا كان يسمى نفسه) يتلقى في الأوساط العلمية اسم «الحثيين». وقد ترسخ هذا المصطلح إلى درجة يصعب معها التخلي عنه بسهولة. ولهذا فقد اصطالحوا الآن على تسمية الشعب الذي كان قبل الحثيين باسم «ما قبل الحثيين» ولغته بـ «ما قبل الحثية».

أما فورير، الذي توصل إلى آرائه بنتيجة استقراء جميع النصوص البوغازكية فقد نال الاعتراف به من جانب البروفيسور غروزني بعد عام واحد.

ومن بين اللغات التي تم اكتشافها حديثاً والتي عثر عليها فوق الآثار الموهلة في القدم في بوغازكي يمكن الإشارة إلى اللغة الحورية أو الحوريتية («الحارية» سابقاً)، تلك اللغة الهندوأوروبية التي تكاد تكون غير مفهومة بعد؟ واللغة الشديدة القرب من الحثية المسمارية (النيسية) وهي اللغة اللوية الهندوأوروبية التي يمكن الآن على شرحها بنجاح في الفترة

الأخيرة، وأخيراً اللغة البآلية الهندأوروبية الطابع - لغة مدينة بالآ وضواحيها والتي لم تخرج دراستها عن طور المرحلة الابتدائية بعد.

تقدم فورير بكشفه الرائع الأول هذا سنة 1919 وفي سنة 1920 أكد غروزني ذلك بعد أن توصل إلى مثل هذه النتيجة بطريقة مستقلة عن فورير.

وتتطابق تلك السنة مع موعد المحاولة الجديدة لحل الهيروغليفيات (وإن يكن صاحبها قد فكر فيها قبل ذلك بعامين) وكان الذي قام بها من المستشرقين الإنكليزي آ. إ. كاولي وكان في دراسته قد أغفل، وبوعي كامل منه، الفرضية القائلة بالقراءة المحتملة فكيف بالتطابق الكامل، بين الحثية المسمارية والحثية الهيروغلفية، وذلك ما كان قد انتهى إليه من خلال آراء فورير وغروزني، فلم يمتد إلا على المادة التي أصدرها ميسيرشميدت وعلى الآثار التي تم العثور عليها في كركميش. كما عزف في أبحاثه عن الأخذ بتسمية تلك المدينة. وقد اشتملت دراسته على عدد من الإنجازات المحددة بالإضافة إلى ما فيها من أخطاء، فقد حدد رمز ① الذي كان غالباً ما ينظر إليه في السابق على أنه محدد «الإله» ②، بأنه حرف العطف المنتصق «و» والذي يقرأ الآن *ha* (ويطابق *que* اللاتيني) وقد افترض بعد ذلك بأن ما يسمى «بالشوكة» أي الشُرطة المنحنية المرسومة فوق العلامة يمكن أن تقرأ *r*.

وانطلق عالم الآشوريات الألماني كارل فرانك من منطلقات أخرى وكان قد شرع بدراسة الهيروغليفيات الحثية سنة 1923. وكانت دراسة الكتابات السرية والرموز والشفرات المستخدمة في الحرب العالمية الأولى قد بينت أن تسمية المواد المقدمة وتحليلها يمكن أن يعودا على عمليات قراءة الرموز بنجاح ممتول. وبكثير من الحذر والدقة أخذ فرانك يعد القوائم بأسماء الآلهة والأشخاص بالإضافة إلى أسماء البلدان والمدن، وتمكن بهذا من قراءة عدد من المسميات الجغرافية على الوجه الصحيح. إلا أن القناعة التي أخذت تلاقي انتشاراً وتقول بأن لغة المدونات الهيروغلفية لا تتطابق مع لغة النصوص المسمارية الحثية جعلت فرانك يعتبر مقولة فورير البسيطة مجرد فرضية واعتبر خطأ بأن لغة النصوص الهيروغلفية هي اللغة الحورية.

وبالإضافة إلى هذا كان بالإمكان توجيه اللوم إلى فرانك على أنه منذ البداية أعار اهتماماً زائداً لقراءة الأصوات واهتماماً أقل لإيضاح وفهم الرسوم كوححدات مستقلة متكاملة، ويمكن أن يسجل على حسابه عدد آخر من الأخطاء وهو ما قام به، للأسف الشديد، وبصيفة عثيفة ومهينة، بيتر اينسين الذي كان ما يزال يدرس الهيروغليفيات وينظر إليها، بحكم العادة، على أنها ملكه الخاص على الرغم من كونه لم يتدخل في عملية قراءة الرموز خلال عدد من السنين. إن ذلك العالم القديم الذي كان يسير في طريق لم يستطع، بل

ولم يبع أن يقتفي أثره فيها واحد من زملائه، انتهى إلى أن انهار وإلى أن نسي كل موضوعية علمية فانتقل إلى التهجم الشخصي واشتمل أحد هجوماته قوله: «لا يتبقى في أمثال هذه الحالة غير وضع القلم بعد أن يتضرج الوجه إحساساً بالعار، وقد قام فرانك بالتصدي لهذه الهجومات بأسلوب هادئ بادئ الأمر، غير أن صبره نفذ أيضاً عندما أخذ اينسين، من خلال عناده المعروف، يتفاخر بفهمه للهيروغليفات كايديوغرامات وكألقاب يتلو أحدها الآخر وكسلاسل بسيطة للألقاب فتسامل بلهجة لا تخلو من الغمز: اليس علينا أن نفهم كيف تظهر أمثال هذه الألقاب الملكية وكل تلك الأعداد الكبيرة من رؤوس الحمير والثيران بكل هذه الكثرة في النصوص الطويلة؟»

ومن المؤسف أن يكون فإن المرید الوحيد لاينسين والذي أخذ يشاركه مشاركة مباشرة وفعالة في أشد ضلالاته هو سايس - رائد كل عمليات قراءة الرموز وطليمتها، من رؤى أجيالاً من العلماء، وقد أخذ يواصل أعماله وينشر أبحاثه بعد أن تقدمت به السن بل وقام مرة بمحاولة الترجمة «الحرفية» المترابطة. إلا أن مقالاته التي كتبها بين 1920-1930 بقيت بالنسبة للرعي الفتي من العلماء الذين دخلوا علم الحثيات في تلك السنوات صدى شيوخته الشيباء.

وفي سنة 1930، وقبيل وفاة سايس (توفي في 4 شباط 1933 عن 83 عاماً من العمر) تحققت قفزة كبرى في ميدان العلم، على أيدي عدد من العلماء قام بها كل على حدة.

ونتيجة لهذا الإلحاح أقيم الأساس الثابت لقراءة رموز الهيروغليفات الحثية وبمقدار ما كان ذلك ممكناً على أساس المواد التي تم جمعها حتى ذلك الحين فإن ترجمات مهمة كان قد تم الحصول عليها. لقد حقق القفزة خمسة من العلماء يمثلون خمسة شعوب هي - الإيطالي والأمريكي والسويسري والألماني والتشيكي. وقد انطلق كل منهم في ميدان قراءة الرموز الذي مال إلى الركود بعد تلك الملاحظة المعيبة بين اينسين وفرانك. أما الرجل الذي قام بإزاحة الثلوج بضرية واحدة وأثار ذلك الانهيار الثلجي الضخم فقد كان من هامبورغ. لا فهامبورغ ليست وطنه. إنه ابن إيطاليا.

إننا نقصد بييرو ميريدجي الذي يعلم الآن في جامعة بافيا وهو عالم لغات عالمي الصيت، أحد قارئ الهيروغليفات الحثية وواضعي قواعد اللغتين الليكية والليدية وناشر النصوص الكريتية - الميكينية والباحث في كتابة وادي الهند الفامضة واللغة اللوية التي ما تزال غير معروفة بعد.

كان تشيزاري ميريدجي، أبو بييرو الصغير، ومعلم اللغة الإيطالية في بافيا، رجلاً متعدد المواهب، إذ كانت اهتماماته تشمل أكثر جوانب العلم تبايناً حتى أن علم الميكانيك لم يكن يشغل آخر ميادينه، والطريف أنه كان يندفع في كل فرع من فروع المعرفة بكل غيرة ومنهجية حتى أن ابنه يعدّه حتى الآن «أفضل أستاذ له في المنهج العلمي». وبالمناسبة إن فكرة اختراع اللغة العالمية كانت تشغل تشيزاري ميريدجي مثلما تشغل غيره من العلماء وكانت الدراسات اللغوية العامة أكثر القراءات إثارةً لديه. مثل هذا الجو المناسب الذي يعطينا كامل الحق أن نسميه جو التشيع المنزلي الذي نمت وترعرعت فيه مواهب بييرو.

وقد بلغ من تأثير هذا الجو على ميريدجي الشاب أن أخذ ذلك الطالب الضئي ينكب بعد نهاية الحرب العالمية الأولى على دراسة الفيلولوجيا الكلاسيكية وبخاصة اللغة اليونانية ويبدأ بالاستعداد لمناقشة بحث في اللغات المقارنة عند عالم السنسكريت ل. سوالي المتوفى حالياً، وكان قد لفت انتباه ميريدجي إلى دراسة عدد من الموضوعات التي كانت مثار الجدل آنذاك والمتعلقة باللغة الليكية، وبين له معالم الطريق نحو الشرق القديم، وعندما تلقى ميريدجي من سوالي بطاقة السفر نحو آسيا الصغرى (فليكييا - موضع يقع جنوب آسيا الصغرى)، كان أستاذه بل. فراكارو قد بدأ بقراءة محاضراته حول الحثيين.

كان ينظر إليهم آنذاك على أنهم الحديد الذي يجب أن يضرب ما دام ساخناً وما إن ذاعت قراءة غروزني حتى صارت موضوع أشد المناقشات حدة، لكن إذا كان بالإمكان القول بأن الكتابة الحثية السامرية قد قرئت فلم يكن ذلك ممكناً قوله بالنسبة للكتابة الهيروغليقية. وقد التفت بييرو ميريدجي إلى هذه الكتابة. والسبب في ذلك كما أشار فيما بعد يعود في الدرجة الأولى إلى أن دراسة علم الآشوريات، تلك الدراسة التي لا بد منها عند دراسة المسامريات الحثية، كانت مستحيلة المنال في إيطاليا. إلا أن من المحتمل الافتراض بأن ما أغراه قبل كل شيء كان الأمد التي لا نهاية لها. فبعد إنهاء المدرسة العليا عمل ميريدجي أستاذاً في مدرسة ثانوية لمدة عام واحد ثم تحول لتعليم اللغة الإيطالية في جامعة هامبورغ. وهناك كانت بانتظاره مجموعة من الواجبات غير المرهقة مما أتاح له الفرصة للعمل المستقل، وهناك، وبالعون العلمي الذي قدمه له العلماء الذائمو الصيت قام بإسهامه المهم في موضوع قراءة رموز الهيروغليقيات الحثية، ذلك العمل الذي صاغ له اسماً في عالم الفيلولوجيا.

بدأت قبل كل شيء بالهيروغليقيات، وقد انطلق ميريدجي من دراسة نمط الكتابة وذلك بعد تذكره سابقه. وفي أيلول (سبتمبر) من سنة 1927 وصلت بحوثه الدقيقة إلى نتائج رأى أنها جديرة بأن تنشر على أوسع نطاق. وفي بداية آذار (مارس) سنة 1928 زارغ. يخيولف

في برلين وأكد له ذلك بأن المظاهر التي اكتشفها تجد ما يوازيها في الحثية المسمارية. فشد ذلك من عزيمته فتقدم بدراسته أمام المحافل الاجتماعية. وقد كتب إ. فريدريخ سنة 1939 وهو يتذكر ذلك الحدث فقال: «عندما أعرب عالم اللغات الإيطالي الشاب سنة 1928 عن نيته في أن يدخل في جدول أعمال مجموعة المستشرقين الألمان في بون.. دراسة مسبقة.. جديدة لقراءة رموز هذه الكتابة (الهيروغليفيات الحثية - المؤلف) كان هناك رجل واحد على الأقل، وهو كاتب هذه الأسطر، ينظر إلى ذلك القرار بكثير من التشكك»⁽¹⁾ بيد أنه سرعان ما ظهر بأن ذلك التشكك عديم الأساس، وقد قام ذلك ال. إ. فريدريخ بنفسه بفتح الباب للشباب الإيطالي نحو «مجلة الآشوريات» الألمانية الرائدة حيث ظهر سنة 1930 تقريره الذي سبق أن قرأه في برلين، وفيه يناقش ميريدجي المسائل الأساسية باهتمام خاص. فهو يقدم دراسة إحصائية للعلامات الأساسية ويدرس توضعاتها في داخل الحدود التي ترسمها الفواصل بين الكلمات واتصالاتها عن طريق الـ «شوكة» وعند ذلك حاول ميريدجي تحديد طبيعة العلامات (أهي علامات لفظية أم أيديوغرامات). أما عند القراءة فاقرب من أسلافه فوقع في ريقة تصورات ايننسين الخاطئة حتى أنه لم يجرؤ على رفض قراءته بـ «سيينيس» بيد أنه أشار في ختام رسالته قائلاً: «أرى من الضروري أن أضيف في الختام وكجزء أساسي في هذا المقال إلى أنني قد حددت حسب رأي كلمة ابن في مجموعة من العلامات»⁽²⁾.

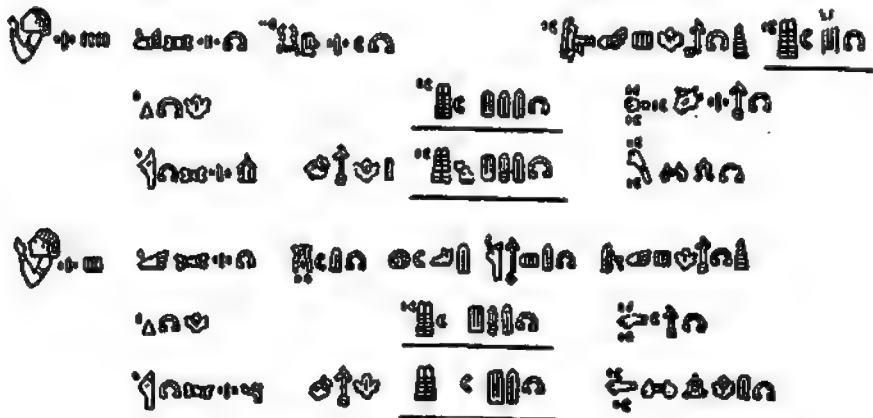
إن من يذكر الكيفية التي بدأ بها غروتيفيند بإمكانه أن يقدر الإمكانيات التي كانت تتوي في هذا الاكتشاف؛ فهنا تظهر نظرة جديدة نحو التعضي التركيبي للغة، وقبل كل شيء يظهر توضيح حقائق تاريخية بالغة الأهمية - فهذه الطريقة استسلمت للقراءة أسر لغوية وكان هذا يعني أنه صار بالإمكان، وبصورة علمية، تحديد أسماء سلالات من كركميش وحماء بتسلسل صحيح. كما أن ذلك الظرف الأخير قد مكن بدوره من مقارنة هذه السلالات بالأرتال المتسلسلة لأسماء الملوك والتي تم استنباطها من النصوص المسمارية ومهد الشروط للقراءة الصحيحة لأسماء الملوك.

كيف تصرف ميريدجي؟ لقد قام بكل دقة بمقارنة الجزئين الأولين من اثنتين من الرسوم وتحليلهما. وظهر أن في بداية كل منهما (كان النصان يعودان إلى كركميش وكانا في ذلك الوقت، أي قبل العثور على الثنائيات اللغوية، أطول نصين حاز عليهما العلم) تظهر ثلاثة أسماء، يتبع كل منها بصفات مختلفة كانت واحدة من بينها مشتركة بالنسبة

1- J.Friedrich, Entzifferungsgeschichte der hethitischen Hieroglyphenschrift, S.25.

2- P.Meriggi, Die hethitische Hieroglyphenschrift, - Zeitschrift für Assyriologie, N. F. Bd V (xxxiv), 1939. S.199.

للأسماء الثلاثة - وهو ما فسره ميريدجي بلقب «ملك البلاد»⁽¹⁾، أما بالنسبة للاسم الأول فقد ظهر (كما يظهر في الشكل 58) في نهاية اللقب بينما اختلف الأمر بالنسبة للاسمين الثاني والثالث. فقد أضيفت في كلا الحالتين كلمة تالية إلى لقب «ملك البلاد» كما أنهما بدأ بعلامة واحدة متشابهة، وهذا يعني أن الحديث يدور عن كلمتين من جذر واحد. وإزاء هذا التوضع للأمر كان من أسهل الأمور افتراض وجود كلمتي «ابن» و «حفيد» في كلتا الحالتين لا سيما وأن ما يدعم ذلك هو التجانس الواضح في الجذر بين هاتين الكلمتين⁽²⁾.



الشكل -58- بداية النصين في كتابتي كركميش.

والذين تعرف البروفيسور ميريدجي فيهما على كلمة «ابن». كل واحد من الصفوف الثلاثة يحسد في كلتا الحالتين اسماً وقد وضع خط تحت لقب «ملك البلاد» تلوته كلمة بمعنى «ابن» (الصف الثاني) و «حفيد» (الصف الثالث). ومن المهم لفت الانتباه إلى تحولات الرموز.

وعندما أكدت الرسوم التي جيء بها للمقارنة مثل هذه الفهم للنص بصورة ممتازة توصل البروفيسور ميريدجي إلى الاقتناع الكامل بصواب رأيه. وقد افترض العالم بكل تواضع في تقرير قدمه في فيينا منذ فترة غير بعيدة ما يلي: «كان يمكن لذلك الجزء المنهجي من مقالي الأول في ذلك الميدان والذي زحزح قضايا التركيب البنيوي للنصوص وفتح بذلك طريقاً مباشراً لفرض أمثال هذه الكلمات كـ «ابن» و «حفيد» وأمثالهما وتثبيت السلالات، أن تبدو أبعد ما يكون عن النضج» بيد أننا شاكرون لمؤلف ذلك العمل لفرضه الصحيح لمحددات الأشخاص والذي كان قد تحدث عنه تومبسون بصورة عامة وعلى

1- المصدر السابق ص 201

اكتشافه في ذلك العمل لصفة «صفيّ الألبه» ولقب «ملك البلاد» وكلمات «ابن» «حفيد» و «ابن حفيد» وما شابه ذلك. لقد كان في الواقع ما عبر عنه الباحث الإنكليزي ر. و. بارنيت «the last touch that starts an avalanche» الدفعة الأخيرة التي يبدأ بعدها التيهور وقد أثار التيهور كلاً من غيلب - فورير - بوستيرت.

ايفناتس د. غيلب بروفيوسور المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو. ولد في 14 تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1907 في بولندا في مدينة تارنوخا. واستحوذت عليه صغيراً المعارف المتاخمة لعلمنا أو المرتبطة به بصورة مباشرة فكان المجهول يفريه ويجتذبه ما لم يكتشف بعد. فلما صار في الـجمنازيوم كان يلتمهم الروايات بهمة لا تعرف الكلال، لكن أشد ما أثار انتباهه كان كتاب الكاتب المجري مافر يوكايب الذائع الصيت في عصره وفيه يجوب البطل باول باركو آسيا الوسطى بأسرها بحثاً عن الموطن الأول للشعب المجري. وتلقى بغيلب طالباً في فلورنسا ثم بعد ذلك في روما. أما أحلامه التي استسلم لها منذ كان تلميذاً فإنها تكتسب صورة أكثر ملموسية خلال مسيرة اهتماماته الذاتية الطامحة، حتى إذا بدأ سنة 1929 بالاستعداد للمناقشة للحصول على لقب دكتور في الفلسفة قرر أن يكون الطريق إلى ذلك أطروحة في التاريخ القديم لآسيا الصغرى.

غير أنه كان من المستحيل فصل معطيات الحضارة الحثية عن التاريخ نفسه، تلك المعطيات التي كانت أقل وضوحاً وأكثر غموضاً عما هي عليه الآن، وفي تلك السنة يبدأ الدكتور الشاب بالعمل على المشكلة الحثية ولكن في جامعة شيكاغو التي كانت في ذلك الوقت الحصن الأكبر للاستشراق الأمريكي الذي ساهمت في بنائه سواعد الباحثين الألمان والذي مارس إيميل فورير فيه نشاطه العلمي بعد بضع سنوات.

وظهر أن لدى القادم الجديد هنا من كثرة المشاغل وقلة الوقت ما يجعله يختص مادة حبه الخفي - الهيروغليفات الحثية - بساعات المساء والليل وعطلة الصيف فقط. ومع هذا فقد لقي استجابة حبه بعد أن قام بالعديد من المآثر في سبيله. فخلال سنتين أعد للنشر مخطوطته «هيروغليفات حثية» (Hittite Hieroglyphs I)، وصدرت تلك الدراسة في شيكاغو سنة 1931، آنذاك تم الإبلاغ عن نتائج السنتين من العمل المضني لغيلب إلى مؤتمر ليدن للمستشرقين، ذلك الاجتماع الجدير بالذكرى، والذي قدمت فيه مجموعة من البحوث التي كشفت طرقاً مجهولة في ميدان فك رموز الكتابات.

حقاً، لم يمض إلا القليل وينعطف غيلب نحو طريق سابقه. إن الكثير من محاولاته في قراءة الأسماء قد تم في الظلام، كما يقال، بطريق التلمس. إلا أن بإمكانه أن يضع في خدمة

العلم نتائج جديدة مهمة، فهو، أولاً قدم البرهان على ما كان فرضية قبل ذلك. وهو أن «الشوكة» تعبر عن حرف r وفوق هذا تعرف في مجموعة $\cap \cap \cap$ على فعل *a.i.e* «فعل» (وقد قرأه *a-wa.a*) ويكتسب هذا أهمية خاصة إذ إنه أشار إلى قرابة اللغة الحثية الهيروغليفية من اللويفية ومن الحثية المسمارية أيضاً. وبهذا كان غيلب أول من صار، بعد تومبسون، يقابل الحثية المسمارية بالهيروغليفية. وما دامت الحثية المسمارية اكتشفت ودرست إلى درجة من العمق فقد كان ذلك بداية حافلة إلى حد ما بالشار. وبالإضافة إلى هذا أظهر أن الصفائح القصديرية المغطاة بالهيروغليفات الحثية والتي تم العثور عليها حديثاً تحت أحد المنازل في آصور، وكان ينظر إليها على أنها شكل من أشكال التمام، ليست في حقيقتها سوى رسائل. وكان هذا ذا أهمية أيضاً لأننا، من خلال المقارنة باللغات الشرقية الأخرى نعرف بصورة تقريبية تلك العبارات التي ترد في مستهل الرسائل، وهي العبارات التي يجب البحث عنها في مثل هذه الحالة.

إلا أن أهم إسهام قدمته «*Hittite Hieroglyphs I*» في موضوع قراءة الرموز كان تأكيد حقيقة تنص على أن الكتابة التصويرية الحثية تتضمن، بالإضافة، إلى العديد من الأيديوغرامات، قرابة الـ 60 رمزاً يشتمل كل منها على مقطع من نمط ساكن + صوتي (وليست من نمط معاكس). وقد خطرت هذه الفكرة بصورة مفاجئة تماماً. وكانت تقوم على أساس التصور القائل بأن هذه الرموز الـ 60 تقريباً يمكن أن ينظر إليها كلها على أنها علامات لفظية. وانطلاقاً من هذا اتخذت الهجائية الحثية، من وجهة نظر التركيب، شكلاً مشابهاً إلى حد كبير، للكتابة الكريتية المقطعية (التي سيدور حولها الحديث في الجزء السابع من هذا الكتاب). وربما تتطابق معها بصورة تامة. ومن هنا تنطلق الفكرة التي تكاد تفترض بأن الكتابة التصويرية الحثية لم تكن شأنها شأن الكريتية، تفرق بين السواكن الصائتة والخرساء والانفجارية (مثل ب، پ وف).

وفي ذلك اليوم الذي خطرت له تلك الفكرة الحاسمة أتساءل نزهته المسائية أمن البروفيسور غيلب بوسيلة رائعة يمكن أن تقضي على جمود الفكر وتحرض على الكشوفات المفاجئة وظهور الأفكار الجديدة. والحق يقال أنه لم يستطع إقناع سدة الطب المحافظين بالأهمية الفائقة لهذه الوسيلة الاستشفائية.

بدأت اعتقد منذ ذلك اليوم بأن أفضل الأفكار وأكثرها مفاجأة تخطر لبعض الناس خلال نزهة المشي. وبدأت ازداد ثقة بصورة تدريجية بعد ذلك بأن الإنسان الذي يخطو إلى الأمام بصورة ناشطة وقد مال جسمه قليلاً إلى الخلف وراح يخطو على كعبيه بثبات فوق

الأرض لا بد وأن يتلقى نوعاً من النبضات الكهربائية من خلال عموده الفقري، تلك النبضات التي تثير فيه التفكير المثير الحي⁽¹⁾.

بيد أن هناك من المشكلات التي لا يمكن النفاذ إليها، للأسف، خلال النزهة ومنها مثلاً مشكلة قراءة ضمير الوصل في الحثية البروغليفية وتحديد وظيفته. وإلى يومنا هذا يصور البروفيسور غيلب حل تلك المشكلات (والذي كان أهم إسهام قدمه في حقل فك الرموز) على أنه ثمرة جهد دائب وشاق كان من نصيبه. في البداية كان لا بد، وبكثير من الجهد، من استيعاب تلك الأدبيات الشديدة الاتساع واللا متجانسة في النتائج التي توصلت إليها، واصطفاء النتائج التي توصل إليها الباحثون؛ وكان لا بد، إزاء ذلك من القيام بأعمال ثروضية للمخ، الأمر الذي كان يتطلب من الجلوس فترات تتجاوز ما كان صاحبها يرغب به. كان عمل غيلب يعني تقدماً واضحاً بصورة أكيدة وقد تلقى ذلك التقدم على الفور دفعة جديدة بواسطة دراستين من مستوى عال.

سبق أن أشرنا إلى ذلك الإنسان الذي اكتشف ثماني لغات في اللوحات الحثية - إنه عالم اللغات السويسري إيميل فورير الذي كان بروفيسوراً في برلين ثم في شيكاغو وهو الآن في سان سيلفادور. وقد شقت دراسته طرقاتاً جديدة نحو غوامض النصوص المسماة. ولا تقل أهمية عن هذا دراسته الأخرى التي قدمها بالنسبة لقراءة رموز البروغليفات بعنوان: «الكتابة الحثية التصويرية» (شيكاغو، 1932) والتي وصفها إ. فريدريك بأنها وضعت الأسس.

أما المنهج الذي طبقه فورير فيتخذ أهمية حاسمة بالنسبة لكل عملية قراءة الرموز حتى إننا نرى من الضروري وصفه ولو من خلال ملامحه العامة. كانت جميع المحاولات السابقة في فك الرموز (باستثناء محاولة اينسين التي أوضحناها فيما سبق) تضع نصب أعينها قراءة الرسوم المدونة على أساس الألفاظ، ولهذا فإنها لم تحرك القضية من مكانها تقريباً. بينما يجب علينا في الواقع، حسبما يوضح فورير، أن نطمح بادئ الأمر إلى فهم المدونة من وجهة نظر المضمون الموضوعي قبل كل شيء. ويشير إلى إيديوغرامات الكتابة الصينية التي تقرأ في اليابان - باليابانية وفي كوريا - بالكورية وفي آناما - بالأنامية ويذكر بالإيديوغرامات السومرية التي كانت تلفظ، حسبما نعرف، بالآشورية في آشور وبالحثية لدى الحثيين، ويشير الباحث إلى أننا نستعمل حتى في وقتنا الحاضر عدداً كبيراً من الإيديوغرامات التي، على الرغم من كونها لا تقدم معنى لفظياً فإنها مفهومة من قبل الجميع


1- رسالة البروفيسور غيلب إلى مؤلف الكتاب بتاريخ 14 آب (أوغسطس) سنة 1957.

بفضل كون كل قارئ يضيف عليها المعنى اللفظي البدائي ذا اللفظ المشترك. وذلك مثل الرموز النقدية £ و \$ و &. وعلى هذا فمن الضروري إعطاء فهم ماهية النص أولية على قراءته. ولكن كيف بالإمكان التوصل إلى ذلك الفهم لمهية النص إذا كان من المستحيل قراءة مقطع واحد من مقاطعه؟ يقول فورير إن هناك وسيلة مضمونة بصورة خارقة للعادة؛ وهي ملاحظة توارد ظهور المتناظرات. تلك المتناظرات يمكن أن تظهر واضحة فيما يلي:

1- بين الصورة والنص المرفق بها.

2- بين الشيء والتعبير عنه في النص المدون فوق ذلك الشيء.

3- بين الرمز المصور ومعناه.

إن أمثلة قصيرة لما ذكرناه يمكن أن توضح فكرة فورير. فنلتقي بالحالة الأولى إذا استعلمنا أن نعرف في شخص نقش بارز على الآلهة بسهولة من خلال الهيئة والملبس والقيافة، وإذا كانت صورة كل منهم ترفق بعلامة هيروغليفية واحدة؛ فيمكننا في هذه الحالة الخروج بنتيجة أن العلامة تعني «الآلهة»؛ ويزداد الأمر وضوحاً عندما يقوم الحاكم، كما هو الحال في نقش أسروي بارز في كركميش، يحمل صفيره على ذراعه وتظهر عبر ذلك الذراع بالذات عبارة «أحملة على ذراعي». وتظهر الحالة الثانية أمامنا إذا ما نقش فوق فأس الأضاحي مثلاً عبارة «فأس السادن الأكبر» (وسنتعرف على مثل هذه الأدوات الخاصة قريباً، في مناسبة مقابلة بعض الشيء). وأخيراً هناك الحالة الثالثة وهي تتخذ مكانها في واقع الحال في جميع تلك الإيديوغرامات التي لم تتخذ بعد صورة شرطية ولم تتعد كثيراً عن رسمها الذي انطلقت منه مثل العلامة السومرية المرسومة للشمس .

ويضيف فورير إن هذه المتناظرات بحد ذاتها تطرح عشرين بنداً من أجل وضع قاموس للغة المدروسة دون أي قراءة لأنفاظها كما تقدم (بمقارنتها ببعضها) أربعة أسس مهمة للقواعد. بيد أن هذا لا يستوعب كل الإمكانيات التي تقدمها ظاهرة المتناظرات. فهناك مفتاح آخر لا يمكن أن تقدر قيمته بثمن يطرحه التناظر المعروف بالنسبة للشرق القديم والقائم بين أجزاء متفرقة متشابهة من مختلف المدونات. ويشير فورير بخاصة إلى ثلاث حالات من هذه:

1- بداية المدونات الملكية (ومنها بالذات استتبط ميريدجي قراءة السلالات).

2- صيغ اللعنة.

3- افتتاحيات الرسائل.

تبدأ المدونات الملكية بصورة دائمة تقريباً، بألقاب الحكام وسلالاتهم وكثيراً ما ترتبط بأسماء الآلهة وأسماء الأماكن.

أما صيغ اللعنة فإنها تتضمن جملاً مطابقة بالنسبة للجمل التابعة التي يستعمل الفعل فيها في الزمن الحاضر أو المستقبل (من... يهدم أو يحطم... أو يلحق الضرر بشكل ما)، أي «من سوف يهدم أو سوف يحطم أو سوف يلحق الضرر»، بالإضافة إلى الجملة الرئيسية الواقعة في المرتبة الثانية والتي تتضمن لعنة الآلهة في صيغة الأمر («فلتنزل عليه سخطها.. الآلهة»).

وأخيراً فإن افتتاحيات الرسائل تبنى على أساس الصيغة الموحدة: «مثلما يقول آ يقول ب: أحوالي تسير على خير حال، أحوال منزلي (أسرتي) تسير على خير حال، أحوالك أيضاً يجب أن تسير على خير حال، وأحوال منزلك.. وما شابه.

وبالنتيجة يمكن من خلال هذه الملاحظات والمقارنات البسيطة استنباط الرموز الخاصة بنهايات الحالات الإعرابية وبالضمائر الشخصية واللواصق، بضمائر الإشارة، بالأسماء الموصولة، وأسماء الاستفهام فالظروف فأحرف الجر فأحرف العطف فجزئيات الكلمات منظومة تقاعدية وهي تظهر بالإضافة إلى الصيغ الفعلية، وبكلمة واحدة «الأجزاء الأساسية المكونة لكل قواعد والتي تبرز بادئ ذي بدء للمعين لا للأذن»⁽¹⁾.

من بين هذه المنطلقات النظرية التي تم وضعها، نستخلص واحداً، يظهر لنا بكثير من الوضوح الطريقة التي استخدم بها فورير فرضيته من الناحية التطبيقية، والتي تقدم في الوقت نفسه تصوراً عن حجم إسهامه في موضع قراءة رموز البيروغليفية الحديثة.

سلفت الإشارة إلى صيغ اللعنة التي كانت منتشرة في كل مكان في الشرق القديم، وقد غرق فورير في دراسة تركيبها البنوي ووصل إلى صيغة أوصلته إلى بعض الأثر.

إنها تشكل الجزء الختامي من المسلة المشهورة التي تحمل قوانين الملك البابلي حمورابي (1728-1686 ق.م) وكانت المسلة قطعة واحدة من حجر البازلت يضاها ارتفاعها المترين ونصف المتر، وقد نقش فوقها قانون يتألف من ثلاثمئة مادة تقريباً. ووضعت باللفة الأكادية وخصصت لتطبق في أرجاء المملكة الكبرى التي أسسها حمورابي، والتي كانت تشمل كل بابل وآشور. ويتناول القانون إلى حد ما قضايا القانون الجنائي والمدني ويختتم بالمعبارات التالية:

«إذا لم يحترم ذلك الإنسان كلماتي المنقوشة فوق مسلتي فيستهن بدعواتي ولا يخشى لعنة الآلهة فيغير قرار الحكم الذي قضيت به ويشوه كلماتي ويبدل ما رسمته ويسقطه ويضع اسمه في مكانه أو يلقن، خوفاً من هذه اللعنات، واحداً آخر...»⁽²⁾

1- E. Forrer, Die Entzifferung der hethitischen Bilderschrift- Forschungen und Fortschritte- Bd VIII, 1932, S.4.

2- Законы Вавилонии, Ассирии и Хеттского царства, пер. и комм. под ред. И.М.Дьяконова, "Вестник древней истории", 1952 №3.

ونورد الجمل التالية مرفقة بالنص الأكادي:

lū belum.

سواءً أكان مالكا

Samam habiat

أم حاكماً

Lū Šarrum

أم مالكا





lu šš akum

أم كان صاحب أي اسم يكون⁽¹⁾

وتواصل المدونة قولها: «فليسلبه أنو، أبو الآلهة الأعظم، أمجاد اسمه الملكي وليكسر صولجانه وليلمن مصيره».

عند هذه النقطة بالذات شك فورير طريدهته بالسُنارة. فالجملة المعطاة تتضمن كلمة «ملك ولقبين من ألقابه. وكان لقب «ملك» و «حاكم البلاد» معروفين على صورة ايديوغرامين من الكتابة الهيروغليفية الحثية.

وانطلاقاً من إيمانه بفرضية التناظر في الصيغ الشرقية للغة راح يبحث بالطريقة نفسها عن جملة مشابهة في المدونات الحثية المصورة، ووقعت عيناه على الجملة التالية:

			
<i>man</i>	<i>da-s</i> ملك	<i>ma-ba-wa-s</i> أم	<i>š</i> حاكم البلاد (حاكم البلاد)
أكان	ملكاً	أم	

وتلي ذلك الجملة الرئيسية، وهي تقرأ عند حمورابي هكذا: ليسلب أنو المجرم سلطته، ليكسر صولجانه وليلمن مصيره، وتلي ذلك 46 دعوة من مثيلات هذه الدعوة الطيبة. فالجملة التالية بعد ما ذكرناه كان يجب أن تكون «فلك... الآلهة أو هكذا يجب أن تكون. وانمكس في عيني الباحث على الفور المبتدأ في تلك الجملة والذي تجسده مجموعة رموزاً (𐀀𐀁)، تلك المجموعة التي نعرف جزأها الأول منذ زمن بعيد وهو محدّد الإله، وهذا يعني أن هي إشارة الحالة الاسمية للجمع. يلي ذلك أن الكلمة الختامية في تلك الجمل التي تتضمن صيغة اللعنة كانت تنتهي عادة بعلامة لفظية معروفة هي (𐀀) أو (𐀁) وهي *da* أو *tu* لكن من شأن *tu* أن تضفي على الفعل صيغة الأمر أو الرغبة، وذلك على نمط صيغة الأمر *esto* في الهندية القديمة، *é sto* في اللاتينية، *é stō* في اليونانية، و *nycmó* (1) في الروسية. وعلى هذا النحو بالذات استتبطلت نهايات الحالة الآلية والمبني للمجهول. أما رمز الذي كان

1- المصدر السابق

يُرى وفقاً لنظرية سايس - كاولي بأنه وحدة ملتصقة فقد تأكد فيه معنى جديد معروف في اللغات الهندوأوروبية وهو شبيه بـ «كل»، المعروفة في اللاتينية بـ *quisque*.
في التقريرين اللذين كتبتهما فورير عن نتائج بحثه (ضماً بعد ذلك في الكتاب الذي سلفت الإشارة إليه) واللذين قدمهما إلى اجتماع المستشرقين في ليدن وجنوه قام بضربة واحدة بنزع حجب الأسرار عن البناء القواعدي للغة الحثية المكتوبة و «لأول مرة سلط الأضواء في اللغة الحثية الهيروغليفية على بناء الجملة بكليته وبكل أجزائه»⁽¹⁾ وبالإضافة إلى ذلك قدم قراءة صحيحة للاسم الملكي مووأتاليس.

نال بحث فورير ذلك، وعن جدارة، أسمى درجات التقريظ بفضل طرافته وإيجاز عرضه ودقته في بسط الموضوعات وصواب حلها. ولم تكن تقل عنه طرافة وزخماً دراسة العالم الألماني هيلموت تيودور بوسيرت، والتي صدرت في وقت واحد تقريباً مع دراسة فورير. وصار اسم هذا العالم معروفاً الآن في مختلف الأصقاع، ويذكر عادة مقترناً بالكتابة الحثية التصويرية.

ارتبطت حياة بوسيرت بمختلف ألوان التبدلات والانعطافات، ويشتمل نشاطه العلمي على أشد الميادين تناقضاً وهو متلون إلى أبعد حد. بيد أن بالإمكان تلمس السمة الأساسية التي ظهرت لدى بوسيرت - الطفل وتركت ميسمها على بوسيرت - العالم حتى يومنا هذا وهي الاهتمام الشديد بالكتابة.

بدأ كل شيء بالاهتمام المضاعف لدى المؤلف نحو تحري أصوله الشخصية، نحو التقنيات في نطاق تاريخ الأسرة. فقد ولد في 11 أيلول 1889 في بلدة لاندوا، العائدة لأراضي رينيفالتس، وفي سنة 1902 (وكان قد صار تلميذاً في الجمنازيوم في كارلسروه) قضى العطلة الصيفية باحثاً عن آثار أجداده في الأرشيفات الريفية والمدنية. إلا أن قراءة الجرود والوثائق القديمة كانت تتزايد صعوبة كلما توغل عمقاً في غياهب الماضي. غير أن ذلك لم يدخل الرهبة في قلب الصبي، فقد يكون خياله قد غدا منذ ذلك الوقت أسير القوة السحرية للكتابات القديمة، تلك القوة التي ما زالت تبسط سلطانها عليه وقد أصبح عالماً ناضجاً.
وعلى أي حال فإن الأمر لم ينته عند حدود الاهتمام فقط، فإن بوسيرت لم يكن يقدم على أي عمل ليقف عند منتصفه بل يتعلم «صنعتة» من أسسها. فكانت الصعوبات تختفي خطوة بعد خطوة، وتتصاع مخطوطات الأرشيفات للقراءة. وقد شرع قبل كل شيء بالتمق في قراءة مخطوطات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - وحالفه الحظ آنذاك إذ وجد الحماة

1- J. Friedrich , Entzifferungsgeschichte der hethitischen Hieroglyphenschrift. S. 27.

الذين اتجهوا إليه بكل حب أبوي، فمهدوا أمامه السبيل نحو المعارف الواسعة، ووجهوه في الطريق الصحيح.

وكان من بين هؤلاء الفريد هولدير، عالم اللغات الكلتية الشهير وكان آنذاك مديراً للمكتبة الزراعية في كارلسروه، عالماً مرموقاً ورجلاً ممتازاً، وكان في الوقت الذي أنهى فيه بوسيرت المدرسة، عاكفاً على إصدار كاتالوج المكتبة الكنسية في ريخيناو وكان يدعو الفتى أحياناً للمشاركة في ذلك العمل. وقد بلغ من إتقان هذا الأخير لـ «صنفته» أن تجرأ على قراءة المخطوطات اللاتينية والألمانية العائدة إلى عهد الكارولينيين. وقدر هولدير إمكانات تلميذه حتى صار يسمح له بمساعدته في قراءة النصوص والباليمبسيست⁽¹⁾ التي تعرضت للتلغف. غير أن أصعب تجربة أقحم العالم تلميذه ومريده فيها كانت على ما يبدو «فك رموز» الرسائل التي أرسلها عالم الكلتيات الشهير إلى الجندي بوسيرت إلى الجبهة. وبلغ من صعوبة هذه الرسائل أن من أرسلت إليه كان، على الرغم من كل استعداداته السابقة، يضطر للجلوس ساعات بطولها وهو يعمن التفكير في «الخرشيات» الرديئة التي كان يخطها استاذة.

وكان من المستحيل لعالم المستقبل أن يتكهن لولا التأثير الأبوي الذي تركه عليه صديقه الثاني ماكس فينفيروت، العالم الشهير بتاريخ الفن. كان يعيش في منزل آل بوسيرت، وقد أيقظ في فؤاد بوسيرت الصغير الحب العميق نحو تاريخ الفن والآثار وذلك بالطبعات البديعة لمكتب مكتبته الرائعة. وكان فينفيروت أيضاً هو الشخص الذي ينصح الطالب بوسيرت دوماً بأهمية دراسة اللغات وضرورة ذلك. فبالإضافة إلى اللغات التي تعلمها إلزامياً في الجمنازيوم، وهي اللاتينية واليونانية والفرنسية، قام الصبي، وهو ما يزال تلميذاً بعد، بدراسة العبرية القديمة والإنكليزية وكان ينسخ النصوص الهيروغليفية المصرية التي لم تكن لديه إمكانية اقتنائها. وقام بوسيرت بدراسة تاريخ الفن، والآثار وتاريخ المصور الوسطى والفيولوجيا الجرمانية بنفس المستوى من الاهتمام وذلك في جامعات هايدلبرغ، ستراسبورغ، ميونيخ وفرايبورغ. وفضلاً عن هذه الاختصاصات الأساسية كان يتصرف بكل اهتمام وصميمية إلى «صنفته» فيدرس تلك النظم التاريخية المساعدة كالديبلوماسية والباليوغرافيا⁽²⁾ والهيرالديكا⁽³⁾ وعلم الأنساب وعلم الأختام. وعلاوة على هذا كله كان

1- الباليمبسيست: مخطوطة قديمة كتبت على رق مسح أو كشفت عنه كتابة سابقة

2- البليوغرافيا - دراسة الكتابات والنقوش القديمة

3- الهيرالديكا - علم شعارات النبالة

يقوم في ذلك الوقت بنشر مقالات قصيرة ودراسات أطول ديباجةً عن تاريخ الفن الألماني في المهود الفوتية المتأخرة (وقد ظهر بوسيرت بصفة مؤلف وهو ما يزال في الصفوف الأخيرة من الجمنازيوم). وبصورة عامة يستأثر تاريخ الفن في هذه السنوات باحترام خاص لديه ولهذا فإن أطروحة الدبلوم التي نشرها سنة 1914 في اينسبورغ كانت تحمل عنوان: «المذبح السابق للكنيسة الأبرشية لأمننا المحبوبة في شتيرتسينغ في تيروول»!

وماذا يمكن بعد هذا أن نقول، فالمسافة بعيدة جداً من شتيرتسينغ في تيروول حتى بوغازكي، حتى خاتوشاش، عاصمة الحثيين القديمة، والطريق طويل بين «أمننا المحبوبة» ومذبح القرابين النارية للإله الأسطوري مونسوس. والحق أن بوسيرت لم يكن يحسب أنه سيكون عليه هو أن يقطع ذلك الطريق. لقد كانت جامعة فريبورغ التي صار يشتغل فيها أستاذاً مساعداً متطوعاً تحت إشراف فينغينروت الذي كان في ذلك الوقت مديراً لمتحف الجامعة، هي «الأم المحبوبة» الحقيقية بالنسبة له، أما تاريخ فن العصور الوسطى - فصار ميدان المعركة التي قرر في ساحها أن يكسب لنفسه الحق في أن يسمى أستاذاً مساعداً.

لم تكن هناك غير أشهر قليلة تفصل بين دكتور الفلسفة الحديث العهد وبين الجندي الذي صار إليه في أول تشرين الأول سنة 1913 عندما استدعي للخدمة العسكرية، ولم تمض أيضاً غير أشهر على التحاقه بهذه الخدمة والوقت الذي نشبت فيه الحرب العالمية الأولى وكان ذلك قبل إحالته على الاحتياط بفترة سيرة، فحارب صاحبنا مدة أربع سنوات في جبهات مختلفة، وفي سنة 1918 قادته إجازته إلى برلين حيث عاش انعطافاً جديداً في حياته العلمية.

سلفت الإشارة إلى أن الاهتمام العلمي بالحثيين استيقظ مجدداً وفي مختلف الأوساط بعد الحرب العالمية الأولى، ذلك الاهتمام الذي صار قائماً الآن على مكشفات فينكلير وقراءات غروزني، وأدى إلى دراسات مثمرة في جميع أنحاء العالم. ولم يقف مؤرخ الفنون الفتي بعيداً عن روح العصر على الرغم من أن ما كان يأسر انتباهه لم يكن مشكلة الحثيين بقدر ما كان المشكلات المرتبطة بحضارة البحر الأبيض المتوسط القديمة. ومن جديد بدأ بوسيرت بصميميته المهودة في معالجة القضايا الجديدة بالنسبة له. كان قد شارف على الـ 30 من عمره عندما بدأ بدراسة الإسفينات واللغة القبطية. لكن كان لا بد له من الممل من أجل إقامة الأود، وهكذا يغدو المستشار العلمي لدار نشر «فاسموت» البرلينية ويعمل أحياناً في طبعات مشتركة وفي قسم الكتب في دار نشر «فرانكفورت تسايونغ» فلا يتبقى في نهاية المطاف من أجل الأبحاث الخاصة التي يقوم بها بصفة فردية غير الأسميات وفترات الأسفار

الطويلة إلى المكتب ومنها. ونحن لا نتناول بالحديث هنا الجهود الجبارة التي كان عليه أن يبذلها من أجل أن يتمكن من مواصلة أبحاثه، تلك الجهود التي لا يمكن أن يعرف قيمتها إلا من كابد مثل ذلك. بيد أن من الضروري الإشارة إلى أن مثل ذلك البرنامج اليومي كان، على فكرة، يعني العزوف الكامل عن استخدام المكتبات التي لم تكن تفتح إلا خلال النهار. ولهذا كان على بوسيرت أن يقوم بنفسه بالاشتراك في المجلات العلمية واقتناء جميع الطباعات الجديدة اللازمة بالنسبة له، وذلك ليكون دوماً في خضم الأحداث.

لمبت الكتابات غير المقروءة دور الدافع الخاص بالنسبة له، وكان من بينها... لا، لم تكن البيروغليفات الحثية بأي صورة بادئ الأمر بل الكتابة الكريتية التصويرية. فهو يجهد نفسه سنتي 1929 و 1931 من أجل قراءة تلك الكتابة «المينوسية»، ويبين السبيل لقراءة الأسماء الخاصة في الكريتية القديمة عن طريق سلسلة من المقالات.

ومتلما كان الأمر بالنسبة للعلماء الآخرين كان بوسيرت يميل إلى الاقتناع بأن هناك علاقات محددة بين كتابة كريت القديمة وبين الكتابة البيروغليفية الحثية، وكان يأمل في أن يصل عن طريق الأخيرة التي تمتلك عدداً أعظم من النقوش الكتابية إلى تفسير الكتابة الكريتية - الميكينية ولو بصورة جزئية. وقد قام بهذه المحاولة في كتابه «شانتاش وكويابا، نحو طرح جديد لقضية قراءة رموز الكتابة التصويرية الكريتية والحثية»⁽¹⁾ والذي أهده لميريدجي وسوندافال. وقد رحب بيرو ميريدجي بظهور ذلك الكتاب وأكد في أحد تعليقاته على أن الكتاب يوسع إلى أبعد حد معلوماتنا عن الكتابة التصويرية الحثية، ويفضل ذلك بلغت مشكلة هذه الكتابة أخيراً نقطة التحول، ولم يكن هناك من يجرؤ على الأمل بذلك بمثل هذه السرعة.

إذا كان سابقو بوسيرت قد انطلقوا من الكتابة اللفظية أو من قراءة المدونة من خلال ماهية مضمونها فإنه انطلق من... الدعوة التي وصلت إلينا من الكتابة المصرية والتي كان قد تعرف عليها، حسبما نعرف، من أيام الجمنازيوم.

ونقصد بكلامنا بردية طليية محفوظة في المتحف البريطاني، وتتضمن البردية رُقية طريفة إلى حد بعيد - رقية من مرض الآسيويين وضمت بلفة «القيفلوس» الذين كان يظن أن المقصود بهم قدماء الكريتيين، وكانت القولة تقرأ كالتالي:

sa-n-ti ka-pu-pu wa-i-ia-im-an ti-re-ka-ka-ra.

1- T. H. Bossert, Santes und Kupapa. Neue Beitrage zur Entzifferung der kretischen und hethitischen Bilderschrift, Leipzig, 1932.

وتعرّف بوسّيرت فيها على دعوة إلى الإله شانتاش (ساندون، سينديس) والإله كويابا، وانكب على البحث عن هذين الاسمين في النصوص الحثية الهيروغليفية. وهنا أفادته معلوماته الواسعة في ميادين علم الآثار وتعلّمه الباليوغرافيا. واستطاع انطلاقاً من التقويم النقدي لأسلوب ذلك العصر الغابر أن يصنف المدونات الهيروغليفية وفق نظام كرونولوجي متسلسل فقدم بذلك إسهاماً حاسم المفزى في علم تاريخ الكتابة - الباليوغرافيا. وقد وصف ر. د. بارنيت ذلك العمل بأنه «دراسة الباليوغرافية لأشكال الرموز لا تقدر قيمتها بثمن» ووافق على القراءات التي كان تم التوصل إليها لأسماء مدن كركميش، غورغوم (= مرعش) وحماة. وبالإضافة إلى هذا كان أول من قرأ اسم مدينة تيانا في آسيا الصغرى *Tu-wa-na-wa* بتطابق كامل مع صورتها المسمارية، وأخيراً أراح الخطيئة التي كان قد اقترضاها اينسين، والتي كانت لفترة طويلة تقف حجر عثرة في سبيل العمل وتحول دون التقدم في فك الرموز: فاسم ملك تيانا لم يكن «سيينيس» كما افترض اينسين بل *Wa-r-pa-la-wa-s*.



الشكل -59- اسم «أريالاواس» مكتوباً بالحثية الهيروغليفية

كان حل هذه القضية يتخذ أهمية كبرى بالنسبة للتاريخ وبالنسبة لقراءة الرموز. إذ سرعان ما تعرف بوسّيرت في «أريالاواس» على ملك تيانا الذي كانت تسميه المصادر الآشورية ايريال، والذي كان عدواً لتيفلات بالاسار الثالث ودافع الجزية له. من الصعب إيضاح قيمة الفنيمة الثمينة التي توصل إليها علم تاريخ الشرق القديم نتيجة لذلك. لقد كانت أيضاً تقدم الكثير من الوعود لذلك الميدان العلمي المتخصص في دراسة الدلالات اللفظية. فقد استطاع بوسّيرت أن يصدر في دراسته، المكونة من 88 صفحة مطبوعة، عدداً مهماً من الرموز الهيروغليفية التي أعيد ضبطها، ولم يكن إلا العدد القليل منها قد قرئ بصورة خطأ، فأعيد تصويبه من جديد. وقد لقيت دراسته في ميدان فك الرموز نجاحاً هائلاً، وسرعان ما تلا ذلك عرض تقدم به برونو ميسنير، عالم الآشوريات في برلين، يقترح فيه على بوسّيرت أن يأخذ على نفسه، بتكليف من أكاديمية العلوم البروسية، مهمة الإشراف على وضع المجموعة الجديدة من نصوص

«هياكل المدونات الحثية الهيروغليفية». وفي صيف عام 1933 قام بوسيرت برحلة إلى تركيا لكي يصور المدونات الحثية فوق الصخور. وهناك شارك في حفريات بوغازكي بدعوة من كورت بينيل، مدير الحفريات آنذاك. وعلى الرغم من أن بوسيرت كان قد زار كلاً من استامبول وإزمير سنة 1922، وكان قد تعرف أيضاً على المدونات الهيروغليفية في متاحف برلين وباريس ولندن، فإنه الآن فقط، وقد انصرف إلى العمل على مدونات نيشانتاش في بوغازكي وعلى النصوص المرافقة لصور الآلهة في يازيليك، اقتنع من خلال تجربته الخاصة بماهية الصموبات التي يسببها التعامل مع المدونات المنقوشة على الصخور.

بيد أن موضوع النشاط التالي لبوسيرت قد حُلَّ لا من خلال دراسته التطبيقية بمقدار ما حل بنتيجة مقابلة تمت في طريق عودته إلى أنقرة، فقد قدم إلى الدكتور رشيد غالب، وزير الثقافة، الذي كان منهمكاً آنذاك في إعادة تنظيم جامعة استامبول، والذي كان يتم على النهج الأوروبي بواسطة من كمال أتاتورك نفسه. وقدم الوزير لذلك العالم الذي كان يعمل بنجاح في ميدانه والذي لم يكن آنذاك مرتبطاً بأي من المؤسسات التعليمية، منصب الأستاذية في الجامعة الجديدة، فوافق. وهكذا صار منذ شهر نيسان سنة 1934 أستاذاً لغات آسيا الصغرى القديمة وحضاراتها في كلية الآداب بجامعة استامبول وفي الوقت نفسه مدير معهد دراسات الحضارات القديمة في آسيا الصغرى.

فرغنا حتى الآن من تقصي خط قراءة الرموز الكتابية حتى ظهور كتاب «شانتاش وكوبابا» وأثبتنا أن بوسيرت «أطاح» نهائياً بسينيس السابق ونصّب مكانه «أربالواس». وفي النهاية كان هناك حقل آخر تم تنظيفه واستطاع ميريدجي، الذي لم تكن دراسته الأولى بريئة من المعالجة الخطأ لذلك الرسم، أن يعكف الآن على التنظيم التالي للرموز اللفظية. وقد توصل في الأساس، في مجموعة من المقالات القصيرة، إلى نفس النتائج التي وصل بوسيرت إليها، إلا أنه، خلافاً للعالم الألماني الذي كان يعتبر لغة المدونات حورية، أخذ يزداد قناعة بالأصل الهندوأوروبي لهذه اللغة. وفيما بعد، ويهدف إيضاح التركيب البنيوي للغة، يقدم ميريدجي في عدد من الدراسات الأطول ديباجة، والتي نشرها في المجالات الفرنسية والألمانية، على تفسير نصوص بحكامها، تلك المحاولات، التي لا يمكن أن ننظر إلى عدد من نتائجها نظرنا إلى ما لا تجوز مناقشته، بيد أنها تتفق في خطوطها العامة مع محاولات بوسيرت. وعلى هذا أقيمت «القاعدة» العلمية العامة من قبل كلا العالمين وقد

دعماً بيدرجيخ غروزني بعد ذلك، وكان هذا الأخير قد انكسب على دراسة الحثية الهيروغليفية منذ سنة 1932 وتوصل في بعض قراءاته إلى نتائج واحدة بالنسبة «للقاعدة»، ويكلمة واحدة فقد ظهر ما يمكن وصفه بـ «الجهة الموحدة لبوسيرت - ميريدجي - غروزني» حسبما قال إ. فريدريخ بعد ذلك في معرض وصفه للحالة العلمية في ذلك الوقت، وبين أهم النتائج التي خرج بها غروزني يمكن أن نشير إلى العدد الواض من وجوه التشابه بين اللغتين الحثيتين - المسمارية والتصويرية وهو ما أدى إلى افتراض وجود علاقة القرابة الوثيقة بينهما.

وبينما كان الجيل الفتي من دارسي الرموز يقوم بتلك القفزة الناجحة الأولى فوق أرض القارة الأوروبية، كان ارتشيبالد هنري سايس، «سادن الحثيات الأعظم» في حينه، يلفظ أنفاسه الأخيرة فوق الجزء المقابل من البحر، في إنجلترا، عن عمر بلغ الثامنة والثمانين.

منذ حين من الزمن كان النجاح قد كف عن مواكبة تدخلاته الناشطة في مسيرة قراءة تلك الرموز، ومع ذلك فإن تلك الذاكرة الرائعة والنفاذ العقلي اللذين امتاز بهما شيخ علماء الحثيات، واللذين احتفظ بهما حتى آخر أيام حياته، ما كانا إلا ليثيرا إعجاب الجميع. لقد واطب على متابعة النشاط العلمي حتى آخر أيامه بانتباه مركز، وتأتى له في الأسابيع الأخيرة من حياته أن يدرس نصاً فينيقياً من رأس الشمرة (سنسمع عن ذلك فيما بعد) وأن يعرّزه بملاحظات ذات طابع ليكسيكولوجي (مفرداتي) مع أمثلة في صيغة مفردات من الفينيقية والعربية والأكدية والقبطية والعبرية القديمة وغير ذلك من اللغات القريبة في النسب، واستخلص كل ذلك من ذاكرته فقط دون غيرها، ولم تصدر عنه في أي مرة أي كلمة في حق نقاده الذين كانوا إلى حد بعيد يناصبونه العدا. وكان آخر سؤال طرحه وهو في وعيه الكامل قبيل وفاته سؤالاً متعلقاً بالعلم إذ قال: «متى يقوم فيرولو بإصدار نصوص جديدة من رأس الشمرة؟».

«النصوص الجديدة» - كان ذلك ما يطالب به علماء الحثيات أيضاً. فبعد 1933 أيضاً لم يركن الباحثون إلى الراحة والخمول. قاموا في البداية بإعداد كل المادة التي بين أيديهم للنشر فصدرت طبعات نصوص غروزني، ميريدجي وغيلب - ثمار السنين الطويلة من العمل في صمت المكاتب والأسفار الطويلة في البلاد. ففي سنة 1932 و 1935 قام البرفيسور

غليب برحلتين إلى تركيا من أجل أن يكتشف آثاراً هيروغليفية حديثة هناك وهو يقول في هذا الصدد: «كانت تلك الساعات التي أمضيها ضارباً في بلاد الحثيين القدماء فوق ظهر الحصان أو البغل أسعد ساعات حياتي»⁽¹⁾ وكان من الطبيعي أن يبحث عن طريدته في طرق خاطئة أحياناً. بلى، بلى، لقد اتجه إليه أهل المنطقة أكثر من مرة قائلين بأنه هنا، في مكان قريب جداً من القرية (بل ويقولون في غالب الأحيان إنه على بعد بضعة أميال) توجد رسوم شبيهة بما يبحث عنه. وكان غليب ينطلق في الاتجاه المشار إليه. هو ذا وقد وصل المكان ليوقف أمام الصخرة التي كتبت فوقها «العلامات الخطية» بأنامل الماء والهواء بفعل عوامل الحث الاعتيادية في الطبيعة. والحق يقال أن غليب قد أثيب مع ذلك كله بواقر من المكتشفات البديعة كان من بينها مدونة اكتشفها في قلعة بيلانكال الصليبية القديمة الواقعة بالقرب من سيركيلي في كيليكييا. مثل ذلك أيضاً مدونة من كوتيوكالا اضطر غليب من أجل الحصول عليها إلى خوض مبارزة حقيقية كانت قد انهزمت فيها بعثتان سابقتان له، حيث قامتا دون جدوى بحصار تلك الصخرة القائمة بصورة عمودية تقريباً وقد كانت رغبة الأمريكي، الواسع الحيلة، شديدة في الحصول على صور تلك المدونة ونسخها.

ومع كل ذلك استطاع اقتحام تلك القلعة المنيعة مستعيناً بخدمات فرقة كاملة من عمال الطرق المسلحين بالديناميت والذين أقنعهم بأن يشقوا له ممراً نحو المدونة المنشودة. وكما هو الأمر بالنسبة للآخرين فإن غليب لا يني يتذكر، ويكثر من الامتنان، روح الضيافة التي كان يقابل بها في جميع القرى التركية واستعداد الفلاحين الأتراك للنهوض لمساعدة ذلك السائح في كل لحظة. وقد بلغت دهشته أشدها عندما اتجه بسؤاله المألوف إلى أهالي قرية أمير غازي خلال رحلته الثانية في الجزء الأوسط من الأناضول، فوجد تعبيراً مستغلقاً على وجوه محدثيه الذين فتر حماسهم نحو الاستمرار في الحديث بصورة مفاجئة. وأمام إلحاحه جاء الرد بأن المنطقة خالية من النقوش وأنها، فيما لو كانت موجودة، فإن الأهالي لن يسلموها أبداً وتحت أي ظروف. لأن في تسليمها كارثة تحيق بهم. فمذ نحو الـ 30 عاماً عشروا في هذه القرية على نقوش هيروغليفية حديثة ونقلوها إلى استامبول لتوضع في المتحف. فما الذي حدث؟ إنها ما كادت تختفي حتى حل بالقرية الوياء.)

1- من رسالة للبروفيسور غليب إلى مؤلف الكتاب بتاريخ 14 آب (أوغسطس) 1957.

وانكب البروفيسور ميريدجي على تصنيف المادة التي تم جمعها فقدّم سنة 1937 أكمل جدول للرموز (حتى ذلك الحين) وهو يعد حتى يومنا هذا جدولاً يصعب الاستغناء عنه في العمل. وكان العالمان الألمانيان ك. بيتيل وه. غوتيربوك قد نشطاً قبل ذلك، سنة 1934، عمليات الحفر في بوغازكي فاكتشفا في القصر الملكي قاعة لحفظ المون عثر فيها على ما يقرب من 300 ختم كان 100 منها تقريباً مزدوج اللغة (رغم أنها شديدة القصر ومعطوبة جداً في معظم الأحيان) تتضمن، كما كان معروفاً بالنسبة لخاتم تاركو مووا المعروف منذ زمن بعيد، اسم الملك بالكتابة المسماوية والصورة الهيروغليفية. وفي سنة 1939 قام الأثريون الألمان بكشف أختام جديدة. والحق، وبفضل الطابع الخاص للمواد المكتشفة أن الفائدة الوحيدة من ذلك الكشف لم تكن تتمثل في اكتساب معلومات جديدة في ميدان اللغة، بل في كون العلماء آنذاك قد تعرفوا على الصورة الهيروغليفية لكتابة أسماء القسم الأعظم من ملوك الحثيين. وللأسف كانت هذه الأسماء مكوّنة في معظم الحالات من الأيديوغرامات. ولهذا فإنها لم تقدم إيضاحات للفظ الأصوات، إلا أنه عثر في الوقت نفسه على بعض الأسماء التي دوّنت بكتابة مقطعية (ومن بينها اسم الملكة بودوهيبا الذي قرأه بوسيرت سنة 1933).

أما الأهمية الكبرى بالنسبة للأبحاث التاريخية عامة ولتأريخ النقوش الصخرية بصورة خاصة فقد لعبه اكتشاف اسم الملك سوبيلوليوما.

في سنة 1944 صار الخاتم الذي يحمل اسم ذلك الملك موضوع دراسات خاصة من قبل بوسيرت، طرح خلالها سؤالاً طريفاً حتى أبعد حد إذ قال: ألا تتخذ الرموز التي ينظر إليها على أنها رموز مقطعية معنى الأيديوغرامات في الوقت نفسه؟ وفي ضوء هذه الفرضية أخذ يدرس اسم سوبيلوليوما، لكن شرحه لم يلاق بعد اعترافاً من جميع العلماء.

وبنتيجة الدراسات التالية التي قام بها غيلب (1935 و 1942) توصل العلم إلى المعاني اللفظية الحقيقية لعدد من الرموز التي كانت لا تزال موضع الشك حتى ذلك الوقت. كما أنه تقدم بجدول آخر جديد للرموز اللفظية عدّت موضوع نقاش في حينها، مثلما كان الأمر بالنسبة لفرضيته حول الصوتيات الأنفية. وانطلاقاً من تواريخ المنشورات التي سلفت الإشارة إليها نلاحظ أن عدداً من العلماء واصلوا أبحاثهم خلال الحرب العالمية الثانية أيضاً. ومع هذا فإننا لا يمكن أن نحكم على النتائج التي تم التوصل إليها عند نهاية الحرف إلا بما قاله إ. فريدريخ عن وضع الدراسات بالنسبة لسنة 1939 إذ أشار إلى أن «قارئي الرموز الهيروغليفية» كانوا يقفون «على الطريق الصحيح فيما يخص الأطروحات الأساسية والقراءة»⁽¹⁾.

1- J. Friedrich, Entzifferungsgeschichte der hethitischen Hieroglyphen-schrift , S. 37 f.



ب- اينديليما



أ- تاركوموا (ملك)



د- بودوهيا (ملكة) حائي



ج- تابارنا (ملك) حائي

الشكل -60- أختام هيروغليفية ومسمارية حثية

في واقع الأمر كان قد عرف طابع الكتابة وكان قد تم التوصل إلى التحديد الصحيح لنحو الـ 50 رمزاً مقطعياً وهي عادة من نوع ساكن + صائت. وكان العلماء قد توصلوا فيما يخصها إلى رأي موحد تقريباً. غير أن هذه الرموز كانت تقابل بعدد أكبر بكثير من الأيديوغرامات التي لم تستسلم بعد للقراءة اللفظية. وكان الباحثون يرون أن الرموز المقطعية كثيراً ما تستعمل كـ «مكملات لفظية» أو إضافات لفظية، لا تختتم

بواسطتها فقط الكلمات المخبوءة خلف الأيديوغرامات، بل وغيرها من أجزاء المفردات (ويتم ذلك بطريقة عشوائية). ومن الطبيعي أن الفرضية كانت تقول بأننا في اللغة الهيروغليفية الحثية نتعامل مع لغة هندأوروبية، إلا أنه لم تكن توفرت بعد البراهين المقنعة على ذلك.

لا بد من فحص هذه القراءة أو تلك مجدداً ومجدداً وتصويبها بين الفينة والفينة، ومن الممكن أن تقدم لنا المكتشفات الحديثة مفاجآت طريفة. إلا أنه بالرغم من ذلك كله لا يمكن لنا أن نعتبر الكتابة الهيروغليفية الحثية بعد هذا مستحيلة على القراءة أو بكلمة أدق غير قابلة للقراءة⁽¹⁾.

عندما كان الحديث يدور عن «المكتشفات الحديثة» كان يقصد بذلك، قبل كل شيء، مدونة كبيرة محفوظة بصورة جيدة مزدوجة اللغة، فذاك حلم اللغويين وعلماء الآثار والمؤرخين والذي كان سائس يتضرع إلى الآلهة من أجل تحقيقه. ومن الصعب أن نجزم بما إذا كان الآلهة قد سمعوا ضراعات العلماء، لكن العلم نال المدونة المزدوجة اللغة المرتجاة وقد كشفها للعالم ذلك ال هيلموت تيودور بوسيرت نفسه.

كان بوسيرت قد قام عام 1945 برحلة إلى الجزء الجنوبي - الشرقي من تركيا بتكليف من جامعة استامبول لبحث عن آثار الحضارات القديمة في تلك المنطقة. وفي حديث له مع الرجل سمع بصورة ما عن «حجر الأسد» الذي يفترض أن يكون قائماً غير بعيد، في ضواحي مدينة قادرلي.

لكن الأسد - واحد من أكثر الحيوانات الرمزية إيثاراً عند الحثيين وأكثرها حضوراً في آثارهم... وقد أثار ذلك بوسيرت فبدأ بحثه في شباط سنة 1946. ومن المحتمل أنه ما كان لينجح في إيجاد الحجر لو لم يوصله إليه المعلم التركي أكرم كوشتشو، وهو الوحيد في المدينة، من كان يعرف بوجود الحجر وكان قد زار مكانه عدة مرات. وجد بوسيرت «حجر الأسد» (وعلى فكرة تبين أن الأسد كان ثوراً) واكتشف أنه كان قاعدة لتمثال. أما التمثال الذي تمرض للتشويه البالغ فقد كان مطروحاً غير بعيد وعليه نقش باللغة الفينيقية (السامية). تم الاكتشاف فوق «الجبل الأسود» - قره تيبى الذي كان يسمى في السابق أصلان طاش ويقع على نهر كبخان المسمى قديماً نهر بيرام في

1- Ibid , S. 38.

الجزء الجنوبي من تركيا (كيليكيا القديمة)، في ذلك المكان نفسه وعند أول بحث سطحي كان محدوداً جداً من الناحية الزمنية، استطاع بوسيرت أن يجد قطعاً ذات كتابة حثية.

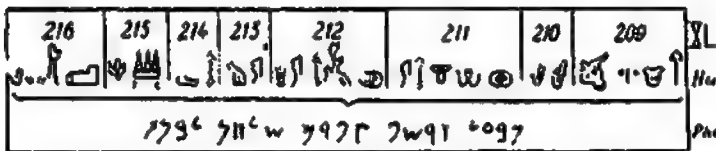
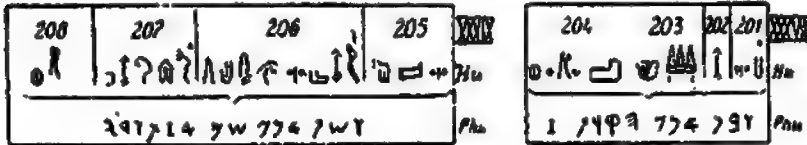
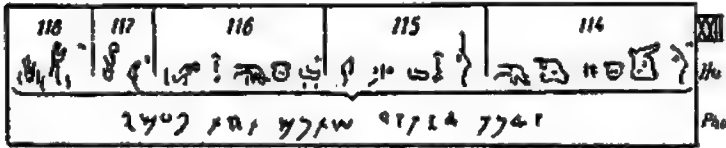
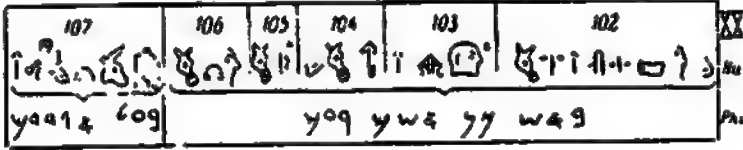
كتابة سامية وهيروغليفات حثية - إنه بريق جديد للأمل! قلم «الجبل الأسود» يخفي نصوصاً كتبت بكلتا هاتين الكتابتين لكنها تحمل مضموناً واحداً، وهل قدر له أن ينتزع من ريقة الأسر «الأسود» شيئاً منها... لا لا، إنها هي نفسها تلك المدونة المزدوجة اللغة.

وفي العام التالي عاد بوسيرت إلى ذلك المكان وأمضى أربعة أسابيع منقباً برفقة مساعده الدكتور باهدير ألكيم، الأستاذ الشاب في جامعة استامبول والواسع الثقافة.

وكان من حظه أنه عشر على ما كانوا بانتظاره مدة تربو على الـ 70 عاماً وما كان بوسيرت دوماً ينتظره في سره بغض النظر عن كل النجاحات التي حققتها، - لقد كانت شطيحة مسطحة من الحجر تتصب عمودياً، وقد حفظت بصورة جيدة وظهر فوقها تماثيل ونقوش بالكتابة الفينيقية والهيروغليفية، وبكلمة واحدة كانت مدونة - ثنائية اللغة.

«لقد وجد ثنائية»، ما أسهل لفظ هذه العبارة ولكن كم سبق ذلك الكشف المثير على حد تعبير يوهانس فريدريك من الأيام المليئة بالعمل الدؤوب، من الأيام الحافلة بالحرمان والصعوبات وخيبة الأمل. كم جرى قبل ذلك من الأحداث المساوية ولعل من الجدير أن نعرف أيضاً كيف ظهرت ربة الحظ اللعوب لفرانس شتيفير، مساعد بوسيرت، في المنام وكيف أمرته بأن يتعرف على الثنائية في المدونات المكتشفة... وبكلمة واحدة: خاتمة جديرة بعمل جدير.

أحياناً يقارنون نقوش قره تيبى بحجر رشيد، وهذا ليس عدلاً. فإذا أريد المقارنة بآثار الكتابة المصرية كان الأنسب أن يؤخذ قانون كانوبا، إذ إن ثنائية قره تيبى لعبت في علم الحثيات الدور الذي لعبه ذلك القانون في علم المصريين؛ فقد صار حجر المحك الذي على أساسه ثبتت صحة الكشوفات الكبرى في ميدان فك الرموز و«الخاتم الرسمي» الذي ختم العلم به وثيقته المؤكدة بأن الأعمال التي تم إنجازها حتى ذلك الوقت لم تكن ضريباً من العبث.



الشكل -61- الجمل 19-22 و 38-50 من ثنائية قره نبيي

أما ترجمة المدونة (وفق النص الفينيقي) فتقرأ كما يلي:

19- وواقمت القلاع الحصينة في كل مكان على الحدود حيث كان الأشرار ورؤوس المصابات، الذين لم يكن أحد منهم يلتزم بخدمة بيت MPS (سلالة ازيثافادا) لكن أنا ازيثافادا وضعتهم تحت قدمي.

38- وبنيت هذه المدينة وأعطيت لها اسم أزيثافاذية حيث إن بعل (هيروغليف حثي «إله العواصف») وطائر - ريشيف (هيروغليف حثي «الإله - الوعل») أرسلاني لأبني لها⁽¹⁾.

من الطبيعي أن الثائية لم تؤكد فقط ما كان معروفاً قبل ذلك، فإن مجرد كون الشكل الحثي الهيروغليفي قد نقش في صيغتين، مكّن عن طريق المقارنة من استخراج معاني 11 رمزاً لفظياً ونحو 25 ايديوغراما، وفضلاً عن ذلك تم التوصل إلى أسس جديدة للمعاني اللفظية لـ 8 رموز و 16 ايديوغراما، وقدمت الثائية عدداً كبيراً من الايديوغرامات الجديدة. وبنتيجة ذلك كله تم التوصل لأول مرة إلى قراءة أكثر من 40 كلمة، أما قراءة المفردات الأخرى الـ 20 والتي كان ينظر إليها على أساس أنها فرضية، فقد تأكدت الآن. لكن الأمر لم يمض دون مفاجأة طريفة. فقد تبين أن بعض الايديوغرامات يمكن أن تلعب دور «الصوتيات» أو الرموز المقطعية في وسط الكلمة؛ بل وثبت وجود «البوليفونيا» رغم أنها مناقضة بصورة كلية لتلك البوليفونيا التي كنا نلتقي بها في الكتابة المسماوية؛ ففي الكتابة الحثية التصويرية كان المعنى اللفظي الواحد يمكن أن يعبر عنه برموز مختلفة. وبالإضافة إلى ذلك كله مكّن الاكتشاف من النفاذ بصورة أعمق في تركيب اللفظ، كما ساعد إلى حد بعيد، على فهمها. فقد ظهر أنها لغة تقترب بنسبها من اللغة اللوفية إلى حد بعيد وإن كانت لا تتطابق معها ولا مع اللغة الباليائية بل ولا مع الحثية المسماوية؛ لكن كان موطنها الجزء الجنوبي - الشرقي من الأناضول.

وصار بمستطاعنا بفضل تعميم المادة والدراسة التي قام بها بوسيتير لمعطيات هذه اللغة بعد اكتشاف الثائية أن نعلم اليوم وبكل ثقة بأن تلك اللغة قد دانت للقراءة رغم أن أعمالاً ليست بالقليلة ما زالت بالانتظار.

وإذا كانت المدونات قدّمت بعضاً من خيبة الأمل فالسبب في ذلك أنها لم تكن غنية بالمضمون بالقدر الذي كان يأمله المؤرخون.

لم يكن مؤلفها فينيقياً. كان يحمل اسماً أناضولياً هو أزيثاوطاس، ويسمى نفسه ملك دانانيا، وتاباً لأفاركوس، أحد الملوك الكيليكين الذي كانت النصوص المسماوية تسميه اوريكي أو اورتايك، وكان في حينه قد ألقى السلاح أمام تاغلات بلاصر الأشوري. وكانت دولة دانانيا، حسب نقش قره تيبى، تشمل وادي أضنة. وفي النقش الذي سلفت الإشارة إليه يتحدث أزيثاوطاس عن إقامته مدينة سماها باسمه (ومن المحتمل أن تقارن تلك

1- J. Friedrich, Entzifferung verschollener Schriften und Sprachen, S. 83.

المدينة بالخرائب في منطقة قره تيبلي)، ويتحدث عن إخضاعه البلاد كلها من الشرق إلى الغرب، وإقامة الحصون المنيعة.

في ضوء هذه الحقائق يجب العودة بهذه النقوش إلى القرن الثامن قبل الميلاد. ولكن كيليكيا كانت منذ 1000 سنة قبل الميلاد ميدان امتزاج الحضارتين الحثية والفينيقية ومن وجهة النظر التاريخية تعتبر أقرب إلى أن تكون الوريث المفضل لدولة الحثيين القوية التي كانت مزدهرة ذات يوم (الدولة القديمة - تقريباً بين 1600-1470 ق.م، «الدولة الحديثة» - تقريباً بين 1440-1200 ق.م) من هذا يتضح لنا السبب الذي جعل الفتيمة إلى حد ما تثير الشعور بخيبة الأمل في نفوس المؤرخين.

غير أن الثنائية كانت مع ذلك تتضمن إشارة ذات أهمية بالغة بالنسبة للفيلولوجيا الكلاسيكية. فآزيتافاناس، حسبما ورد في ترجمة النص الفينيقي التي قدمناها، ينسب نفسه إلى آل *MPS* وهذا ما يدفع إلى إعمال الفكر والتأمل.

بالطبع سرعان ما استقر الرأي على أن الدانانيين يمكن أن يكونوا هم أنفسهم الداناويين أو الـ *dmwn* الذين اهتموا مصر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وهناك رسالة من أرسيف تل الممارنة تشير إليهم بصيغة «دانون» وتسميهم شعباً من كنعان. ويشير هذا المصدر نفسه إلى أنهم استقروا في كيليكيا أو غير بعيد عنها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وهنا يضاف تصور جديد استقي من المصادر اليونانية.

فهوميروس يسمي اليونانيين السابقين لمرحلة طروادة بـ «داناواي» الداناويين، ويشير القصص اليوناني إلى أن هذا الاسم يعود إلى داناوس، الجد الأول لسلالة أرغوس الشرقية. ويشير القصص إلى أن داناوس كان ابناً لبييلوس. واسم بييلوس يتطابق مع اسم الإله السامي بعل (*Ba'al*)، وهذا يعني أن ذلك الذي كان يحمل اسم بييلوس (*-os* مجرد نهاية يونانية) - هو ابن الشرق وآزيتافاناس يسمي نفسه سليل *MPS*. وقد اتفقت أحكام عدد من العلماء على أن هذا الاسم لا يخفي تحته إلا اسم موبسوس الذي لم يكن عاطلاً من الشهرة، والذي ذكره القصص اليوناني، إذ نلتقي بعرفين خرافيين كانا يحملان ذلك الاسم. أما الذي يرتبط بآسيا الصغرى منهما فيبدأ واحداً من بناء مدينة مالوس في كيليكيا حيث لقي مصرعه حسبما تشير الأساطير.

غير أن كيليكيا تتضمن أيضاً مدينة كانت تحمل اسماً أبلغ تعبيراً، وهي تقع على نهر كيخان، الطريق القديم من قارص إلى أيسو. وهي الآن تحمل اسماً تركيا هو ميسيس، بينما كانت تسمى في السابق موبسوغيستيا، وهذه الكلمة يونانية وتعني «المحرقة» أو «مذبح إحراق (أضاحي) موبسوس».

وبالإضافة إلى هذا تشير المصادر الآشورية إلى أن الملك الآشوري آشور ناصر بعل الأول أخضع في القرن الحادي عشر قبل الميلاد بلاد داونون واستولى فيها على خمس مدن. وما دام نقش قره تيبى يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، إلى العصر الذي وضع ازيثافاتاس فيه نقشه ، يكون قد مضى 300 سنة على سلالة موبسوس وملكها. وهكذا تتوضع أمام أعيننا صورة موبسوس نفسه فيظهر أمامنا شخصية تاريخية بفضل شهادة نقوش قره تيبى. وقد قابل البروفيسور بوسيرت هذه المعطيات الجديدة بخبر آخر قدمته نصوص قره تيبى ويؤكد أن باهري كانت مدينة مهمة في الدولة الحثية وأن قلعة قره تيبى كانت تعتبر حصنها الخارجي فلم يتبق سوى أن نثبت أن موبسوغيستيا ، مدينة موبسوس ، كانت تسمى في العهد الفابرة باهري.

وقد قام بوسيرت بهذا من خلال تثقيبه في مدينة موبسوغيستيا القديمة. وفي سنة 1956 تم التوصل إلى كشف الأرضية الموزاكية للكنيسة القديمة - مقر أسقف موبسوغيستيا ولا زالت التثقيبات جارية...

بقي علينا الآن أن نقدم للقارئ وصفاً للكتابة الهيروغليفية الحثية التي ظهرت من الإسفينية ومن الهيروغليفات المصرية. فنحن هنا أمام هيروغليفات ولكن ما أغربها وما أبعدا إذا ما قورنت بالهيروغليفات المصرية المألوفة جيداً بالنسبة لنا! أما من وجهة نظر الفن فالهيروغليفات الحثية تتراجع أمام المصرية دون شك. ولكن إذا كانت الأخيرة تمتاز بمحدودية الشكل وبالتناسق والنظام في الكتابة ، وهو ما كان يخدع كل من تصدى لدراسة نقوش المصريين ، فإن ما يأسر الانتباه هنا وبصورة غريبة هو ذلك اللا اعتناء ونوع من اللا اكتمال وذلك الغموض المثير. «لو أنكم قارنتم الهيروغليفات الحثية بالمصرية لبدأ لكم أن ليس هناك من أساس لمثل هذه المقارنة. فالنقوش الحثية مكتوبة بطريقة البوسترافيدون أي كما يدور نير الثورين وهو يحرت الأرض. ففي نهاية السطر تتحرك الكتابة في الاتجاه الماكس شبيهة بالمحراث ، الذي يشق خط الفلاحة بمساعدة الثورين. لم تكن هناك حاجة للقفز إلى الوراء نحو بداية السطر ، كما نفعل نحن ، ويفضل ذلك تتخذ الكتابة صورة شيء ما متسارع بصورة مستمرة ومتماوجة. كانت يد الكاتب عند الحثيين تتحرك في واقع الحال مسرعة في مختلف الاتجاهات وكانت تتقاذف بحرية كبرى نحو الهوامش ، نحو زوايا الحجر ، نحو الحجر المجاور وتكتب فوق كامل جسم الحيوان - في كل مكان يروق للكاتب. فمن يستطيع القول عن الكتابة المصرية بأنها «تسارع». فالمصري عندما يكتب فإنما يقوم بمعمل مقدس ، وما يشغله قبل كل شيء هو الشكل والتكوين ككل. فعمله - متعة للنظر وهو ما يهتم به أكثر بكثير من اهتمامه

بالمضمون المادي المتكون بتشكيلة موحدة، أما الحثي فهو إنسان حي اجتماعياً. إن الشعور الذي يفعم قلبه يتطلب الانفجار فهو يكتب، يكتب من أجل المضمون، أما الشكل الذي تتخذه كتابته فلا يشغله كثيراً. بل أن بعض الأحرف لم تتحدد بالشكل المعروف⁽¹⁾. وحتى في الوقت المتأخر لم تكن هناك ضرورة على الإطلاق، وحتى في المدونات المنقوشة على التماثيل، لوضع فارق بين الشكل التصويري الأول وبين مختصره المائل (الجزئي أو الكامل) - بل كان الذوق الشخصي للكاتب هو الذي يفرض نفسه. ويمكن القول إن الرموز كانت أقرب إلى أن تسبح في فراغ محدد من أن تتحدد وفقاً للأسطر. ولهذا السبب نطلب الأمر تجربة كبرى من طرف علماء الحثيات من أجل التمكن من قراءتها بالصورة المتسلسلة الصحيحة⁽²⁾.

وكما هو ملاحظ من خلال العرض نلمس في الهيروغليفيات الحثية تلك الملامح التي كانت تجسد ماهية الكتابة المصرية والأكدية المسمارية؛ - أي الأيديوغرامات والرموز اللفظية والمحددات التي كانت تظهر قبل الكلمة المحددة أحياناً وأحياناً بعدهما. ولهذا كانت تجري مقابلة الكتابة الهيروغليفية الحثية بالمسمارية الأكادية (لا بالكتابة المصرية بأي شكل) وحتى في اشتغال رموزها المقطعية على صائت محدد. وعادة، ولكن للأسف ليس دوماً، كانت الفاصلة (C) توضع بين الكلمات. وبالإضافة إلى الكلمات - الرموز التي كانت تقترب بدقة نقشها من الآثار الفنية الصغيرة، كانت تستعمل إشارات كتابية عادية أميل إلى البساطة.



الشكل -62- مدونة هيروغليفية من كركميش

1- تظهر الأشكال المختلفة للرموز التصويرية بصورة جيدة في الشكل 58 (الرسم التوضيحي لقراءة

ميردجي).

2- M. Riemschneider. Die Welt der Hethiter (Grosse Kulturen der Fröheit), Stuttgart, 1954, S. 93f.

ففي النقش العائلي النافر من كركميش (الشكل 58) يمكن أن نشاهد بوضوح معدد أسماء الأعلام على خط مائل مرسوم فوق الجزء الأيسر من مقدمة الاسم (ست مرات يرسم الخط الواحد تحت الآخر) وهو منسوخ على ما يبدو من الإسفين العمودي، الذي كان يستخدم في الكتابة المسمارية البابلية أمام أسماء الأعلام المذكورة. ومن مميزات هذه الكتابة أيضاً أن تلك الرسوم الطبيعية الدقيقة التي نلتقي بها غالباً (وتتميز رؤوس الحيوانات من بينها بروعة خاصة) كثيراً ما تقابل برموز وصلت إلى درجة من التجريد يستحيل معها التعرف على الرسم الأوكلي فيها. وأفضل نموذج لهذا رمزا «بيت» و «شمس» بالإضافة إلى رمز الآلهة الغامض والذي يظهر هنا، مثلما يظهر في النقش المسماري في دور محدد وايديوغراما في الوقت نفسه.



الشكل -63- رموز هيروغليفية حثية

كانت تعني مفردات «بيت» و «شمس» و «إله»

استعمل الحثيون الهيروغليفية والكتابة الإسفينية في عهد ما يسمى بالدولة القديمة (1600-1470 ق.م) ولم يكن ذلك قاصراً على الكتابة التدوينية بل وشمل المراسلات الخاصة أيضاً، ومن الطبيعي أنهم لم يكونوا يرسمون الإسفين على لوحاتهم الخشبية التي سيرد ذكرها بعد حين. وعلى هذا فإن الإسفينات كانت تستعمل خلال فترة قيام الدولة الحثية بطولها (من 1600 حتى 1200 ق.م تقريباً) وذلك في الصورة التي ظهرت بها أمامنا في أرشيف بوغازكي مثلما كانت الهيروغليفيات أيضاً ملائمة للنقوش التذكارية وللمراسلات الخاصة حسب أكبر الاحتمالات.

لكن الهيروغليفيات الحثية لم تختف بسقوط الدولة الحثية سنة 1200 قبل الميلاد. فمن المحتمل أن تكون قد عاشت مرحلة من التكامل في دويلات الديادوخ الحثية الجديدة في الأناضول الجنوبي، وفي سوريا، وذلك بفضل الحفاظ الدقيق على التقاليد القومية، ونحن مدينون لهذه الدويلات الوارثة الصغيرة بتلك المكتشفات البالغة الأهمية بالنسبة لقراءة الرموز مثل نقش حجر حماة ونقش كركميش وأسود مرعش وثنائية قره تيبلي.

ولعل من الطريف أن تلقى في الختام نظرة أخيرة على شطر صميمي من المشكلة. لقد لاحظنا السهولة النسبية، التي حل بها العلماء رموز اللغة الحثية المسمارية. وقد حدث ذلك بفضل عبور فينكلير على أرشيفات الألواح الطينية إذ فتح الطريق نحو العرق الذهبي الذي لم تكلف قراءته جهداً كبيراً بسبب سهولة قراءة الكتابة نفسها. وقد بينا أيضاً أن قراءة النقوشات الهيروغليزية الحثية ظلت تتواصل نحو الـ 80 عاماً، فكان تقدمها يسير بطريق التلمس تقريباً وما انفك يتمثر بالصموقيات إلى أن ظهرت الثائية الكبيرة، ولكن ما السبب في ندرة ما اكتشف من النصوص الهيروغليزية الحثية؟

إن النقوش التي تظهر في الأشكال المصورة في كتابنا تتخذ في الأساس رموزاً منقوشة نافرة بارزة. وهذا بالطبع لا يعني أن الكتابة ما كانت توجد بغير هذه الصورة، إذ تم العثور على نقوش محفورة حفرأ في الصخر ومن المحتمل أنها تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وأنها كانت شائعة الاستعمال في كركميش ومنها أخذت بالانتشار في المناطق الأخرى على ما يبدو إلى أن توقف استعمال الكتابة الهيروغليزية الحثية بفعل الاحتلال البابلي في القرن السابع قبل الميلاد. بيد أن النصوص الأقدم تشير بمجموعها إلى أن الحثيين كانوا يفضلون الرموز الكتابية النافرة.

إلا أن مثل هذه التقنية الكتابية لم تكن مكيفة لتستخدم مع المادة النسخية التي يمثلها الحجر. فالكتابات على الحجر كانت تنقش في العادة بالإزميل، وإذا كانت جميع رموز الكتابة الحثية تظهر أمامنا على هيئة مصورات نافرة على الحجر، فإن ذلك يسمح بالخروج ببعض النتائج. فالرموز كانت في بادئ الأمر ترسم بوسائل تقنية أخرى على ما يبدو، ثم بدأ النقاشون على الحجر يقلدون ما كان ممكناً أدائه في شروط مغايرة، شروط الحفر النافر على الخشب. وفي الحقيقة كان الخشب مادة الكتابة الأساسية في العصور الأكثر قدماً؛ وبالطبع فإنه كان يعامل معاملة خاصة من أجل ذلك وهو ما تبيّنه صور الأدوات والمواد الكتابية التي تظهر على التماثيل.

«كان الحثيون يكتبون بالريشة والحبر فوق ألواح خشبية تلف بالقماش وتطمر في الكلس، حتى إن ذلك الكاتب، الذي كان، وفقاً للمنهج البابلي، يضغط الرموز الإسفينية فوق لوح الطين الطري، كان يسمي نفسه كاتباً على لوح الخشب وكان الإسفينات لم تكن بالنسبة له إلا عملاً عادياً، أما الفن الحقيقي فكان - الكتابة الهيروغليزية. وكانوا يتعلمون الكتابة أطفالاً. فذلك الطفل الجالس على ركبتَي أمه وهو يمسك بمصفور مربوط،

وقد طرح بجانبه دفتر التلمذة وقارورة مليئة بالحبر⁽¹⁾! وذلك الدفتر الحقيقي، وإن كان من الخشب، كان يتألف من لوح مطوي ذي عرى عند جوانبه وكان مثل هذا اللوح يستعمل على ما يبدو كرسالة (ذات مغلف أيضاً) على الرغم من أن الرسائل كانت تكتب في العادة، على ألواح الرصاص التي تدرج بعد ذلك في لفافات جميلة. مثل تلك الألواح كان يمكن استعمالها عدة مرات إذ إن الحروف المحفورة فيها كان يمكن أن تمسح بسهولة. أما الاتفاقيات الدولية فكانت تملق على الفضة أو الحديد أو الرصاص. ومن الناحية النظرية لم يكن هناك ما تستحيل فوقه الكتابة أو الرسم بالريشة إلا أن مادة الكتابة الأولى كانت، للأسف - الخشب. ونقول للأسف إذ إن أي أنموذج من نماذج الكتابة الحثية الهيروغليفية لم يستطع الصمود فوق تلك المادة القصيرة الأجل والوصول إلينا بعد ثلاث آلاف من السنين⁽²⁾.

لهذا السبب لم يصل إلينا إلا النذر اليسير من الأدب الحثي. وهذا النذر اليسير يصور لنا لوحة أبعد ما تكون عن الكمال لكنها مفعمة بالطرافة - لوحة حياة ذلك الشعب القوي والمعاض، الميال إلى التحديد الحقوقي الواضح لحياته وطرائق سلوكه. كان ذلك الشعب محباً للحياة ومسرّاتها، وكان يمتاز بمرحه المفوي لكنه كان قادراً على إيجاد الكلمات التي تهز الخيال في وصفه للكوارث والمصائب التي كانت تنزل به. فما أشد ما تؤثر في النفس ضراعة مورسيليس الثاني من أجل الخلاص من الطاعون الرهيب الذي تقشى في بلاده: «يا إله العواصف في البلادا حائي، سيدي، وانتم يا آلهة حائي الآخرين، سادتي لقد أرسلني مورسيليس، الملك الأعظم، عبدكم: لوقال، امض وخبر اله العواصف ليه بلادا حائي، سيدي، والآلهة الآخرين، سادتي، بما يلي. هو ذا ما فعلتموه: أطلقتكم الطاعون في بلاد حائي فأنزل الطاعون مصائبه على بلاد حائي بقسوة.

وهكذا راحوا يموتون خلال حكم أبي وخلال حكم أخي، وهاهم يموتون أمام عيني منذ اليوم الذي صرت فيه سادن الآلهة، وهذه هي السنة العشرون. هو ذا الموت يخيم على البلاد والطاعون ولم يزاها بعد من البلاد. لكنني لن أجعل الآلام سيّدة قلبي. ولن أجعل للخوف سلطاناً على روحي بعد الآن⁽³⁾»

أ- يقصد بذلك أحد النقوش النافرة في كركميش وقد صورت فيه الملكة أو المرضعة ومعها ولي العهد نارغوميباس.

2- M. Riemschneider, Die welt der Hethiter... S. 93.

3- Ibid, S. 110.

«إله العواصف الحثي، سيدي، وانتم الآلهة، سادتي، هاكم:الكثيرون) يرتكبون
المعاصي.

وأبي أيضاً كان يرتكب المعاصي وقد عصى أمر سيدي. ملك العواصف الحثي،
لكن أنا لم أجن ذنباً قطً.

كذا: ذنوب الأب تنتقل إلى الأبناء.

والتي انتقلت خطايا أبي.

كذا الآن وأمام إله العواصف الحثي، سيدي، وأمام الآلهة، سادتي، أعترف: كذا،
نحن قمنا بذلك.

وبما أنني أعترف بخطايا أبي، فلتهدأ من جديد روح إله العواصف الحثي، سيدي
وأرواح الآلهة، سادتي. ولتشملي برحمتها من جديد وتدفع الطاعون بعيداً عن بلاد حائي.

.....

وإذا كنت اضرع إليكم، فلتسموني لأنني لم أجن أي ذنب.

ومن بين أولئك الذين أخطؤوا وارتكبوا المعاصي لم يبق أحد.

لأنهم هلكوا جميعاً منذ زمن بعيد، ولكن بما أنه قد انتقلت إليّ جرائم أعمال والدي
فها أنا ذا أريد، في سبيل بلاد لي وسبب الطاعون، أن أقدم لكم، أيها الآلهة، سادتي،
قرايين التضحية.

فلتقلعوا المصائب من قلبي ولتزعوا من روحي الخوف...⁽¹⁾.

1- Ibid, S. 37c.

الفصل السادس

«رأس الشجرة» في «مينة البيضاء»

وجبيل، مدينة الزرق

قراءة رموز رأس الشجرة وجبيل

كم رموز من الليالي الساهرة

ادوارد دورم

تقع رأس الشجرة، كما تسمى عادة أو بكلمة أدق رأس الشجرة، على بعد كيلو متر واحد من الجنوب الشرقي من «مينة البيضاء» - «الميناء الأبيض» في سوريا، ومن الصعوبة بمكان إيجاد ذلك الرأس وذلك الميناء على خرائطنا، ولكن لنحاول أن في نمذ في الخيال خطأ يتجه بصورة مباشرة إلى الشرق من الجهة الشمالية - الشرقية من نهاية قبرص، فإذا ما عبر البحر قطع الساحل السوري عند تلك الـ «مينة البيضاء» الخاملة الذكر، والعارية من الأهمية في وقتنا الحاضر، وعلى بعد 12 كيلومتراً إلى الجنوب منها تقوم مدينة تظهر عادة على الكثير من الخرائط هي مدينة اللاذقية، لاوديكي القديمة.

أصبح كلا المكانين، الرأس والخليج معروفين لدى علماء الآثار منذ فترة لا تزيد عن الثلاثين عاماً، لكنهما خلال هذه الفترة القصيرة حقاً أكبر شهرة ممكنة وذلك بأغنائهما معارفنا بفيض من الكشوفات الجديدة والمثيرة إلى درجة تهز الخواطر. وبواحد منهما ترتبط الكتابة الجديدة.

في شهر آذار من عام 1928 كان أحد الفلاحين يحرث حقله في «رأس الشجرة» فوقع على جبانة مجوفة. وبسرعة البرق انتشر نبأ المواد الجديدة المهمة التي تم العثور عليها في ذلك المكان وبلغ مسامع حاكم دولة العلويين التي كانت رأس الشجرة تدخل في أراضيها. ونقل الحاكم ذلك النبأ بعد ذلك إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية في بيروت وسرعان ما هرع إلى

مكان الاكتشاف البروفيسور فيرولو ، مدير أعمال التنقيب التابعة للمفوضية العليا في سورية ولبنان برفقة مساعده ، وهناك قام الباحثان باستخراج عدد من القطع السيراميكية ، واستدعي عالم الأثرية المشهور موريس ديونان لتقدير قيمتها العملية. وقد انتهى فحص المكتشفات إلى نتيجة اتفق عليها الجميع وهي: إن الحديث يدور عن فازات قبرصية وميكينية من القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد.

فالمواد ، بناء على هذا ، كانت مجلوبة. ومن ذلك لم يكن من المستبعد الافتراض بأنها وصلت عن طريق مينة البيضاء لكن ذلك يعني أن مينة البيضاء كان يجب أن تكون ، في السابق ، نقطة استيراد وتصدير مهمة ومركزاً تجارياً في المهود القديمة ، وأنها كانت على ما يبدو تقيم علاقات حيوية مع قبرص وبحر إيجه. وما إن توصل ديونان إلى هذه الاستنتاجات حتى أخذ بالتوسط لدى الأكاديمية الفرنسية للثقافة المكتسبة لإيفاد بعثة إلى مينة البيضاء ورأس الشجرة. وقد ووفق على ذلك ويوشر بالحفريات سنة 1929 بإشراف له. شيفير وج. شيني وهي لا تزال مستمرة حتى الآن ، ويمكن أن ننظر إليها على أنها واحدة من أوفر البعثات التنقيبية نجاحاً في العصور الحديثة والمعاصرة.

لقد وضعت هذه الحفريات في أيادي العلماء مجموعة كبرى من أكثر الحقائق مفاجأة ، وأنارت مجدداً تاريخ المدينة القديمة المكتشفة بالقرب من رأس الشجرة ، والتي كانت رسائل تل الممارنة قد أشارت إلى وجودها وإلى اسمها - أوغاريت. بالطبع كان عالم العلم ينتظر قبل كل شيء معلومات جديدة عن سوريا القديمة ، ولتكن معلومات غير صاعقة ، إذ سبق أن دُرُس ذلك الميدان بصفة جيدة نسبياً ، لكنها معلومات يمكن أن تتخذ قيمة ملموسة على الأقل. وعلى الرغم من أن علماء الآثار قد منبوا بخيبة أمل في هذا المضمار فإن مكافأة مضاعفة أضعافاً كانت بانتظارهم على صعيد آخر. فتلك الأشياء التي أرغمت على لزوم الصمت آلافاً من السنين ، والتي أخرجت إلى السطح ، نطقت فجأة ويا لفصاحة اللفه التي تكلمت بها. كان أول ما قدمته للباحثين من معلومات هو أن التأثيرات الأجنبية كانت قوية جداً في تلك المدينة الواقعة في الشمال السوري والتي كانت زاهرة وثرية في يوم ما. وقد لوحظت اللكنة المصرية واضحة فيها ، لكن التأثير الإيجي زاد عليها حتى وصل حداً جعل الحفريات ، وبخاصة في الطبقة المتأخرة ، تقدم انطباعاً كاملاً عن مستعمرة إيجية.

أشارت الطبقة الأكثر قدماً إلى تاريخ الألف الثالث قبل الميلاد. وتحت الطبقة الثانية (القرن العشرون - القرن السادس عشر ق.م) والواقعة تحت معبد رأس الشجرة الكبير والذي كان قد بني في فترة لاحقة ، اكتشف مدفن أو مقبرة قديمة. وقد مكن انضمام السيراميك

القبرصي بين موجودات الدفن من القول باستحالة الحديث عن التأثير الحضاري القبرصي في تلك الفترة. وكان الأمر أكثر وضوحاً بالنسبة للطبقة الأعلى (القرن الرابع عشر فالثاني عشر ق.م). ففي مكان المدفن القديم انتصب معبد كبير، تم اكتشافه عام 1929 وقد عدّوه آنذاك خطأً القصر الملكي وكانت آثار الحريق تدل على أنه كان ضحية النيران حتى في العهود القديمة. في ذلك المكان وبالقرب من التماثيل المصرية، وإلى جانب نقش كتابي إهدائي كتب بالمصرية أيضاً، وجدت صور إلهين من الآلهة المحليين يمثلان عن حق مدينة أوغاريت - تلك البوتقة التي انصهرت فيها أكثر الحضارات اختلافاً: - تمثال إلهة بملابس مصرية ومسلّة محفوظة بصورة جيدة لذلك الذي كان يسمى «الإله ذو التاج الريشي». أما أسلوب الصورة الأخيرة فلا يمكن إخضاعه لتفسير دقيق بما فيه الكفاية، فهو يمثل شخصاً واقفاً يمسك بيسراه رمحاً وباليمنى صولجاناً مستقيماً، وهو رمز السلطة الذي كان النحاتون والرسميون المصريون يختصون به الملوك الأجانب (أما ملوكهم، الفراعنة، فكانوا يقبضون على صولجانات معقوفة الطرف)، أما رأس ذلك الشخص فيزيّنه تاج طريف من الريش، أما المثز الأمامي ذو الحزام والخنجر ذو المقبض والحذاء المدبب الرأس، وهي ذات نمط حثي دون شك، فكانت تكمل ملابس التمثال.

لا يمكن أن ينظر إلى هذا التمثال الذي يمسك ملامح متفرقة من التأثيرات المصرية والسورية والدخيلة من آسيا الصغرى على أنه نتاج إحدى هذه الحضارات الثلاث المشار إليها. إن من الأدق الحديث عن حضارة مختلطة، أما التمثال نفسه فيمكن اعتباره رمزاً لأوغاريت - «بوتقة انصهار الحضارات». ونحو الاتجاه نفسه تسير بنا لقيه أخرى وقعت في أيدي علماء الآثار سنة 1932 وهي ما يسمى بـ «بعل رأس الشمرة» - قطعة حجرية محفوظة بصورة جيدة يبلغ ارتفاعها متراً ونصف المتر تقريباً، وتمثل الإله بعل في هيئة إله الريح، تقبض يده اليمنى بقوة على دبوس بينما يغمد باليسرى سنان رمحه في الأرض وقد التصق بشجيرة تتحول في الأعلى إلى زخارف من الأوراق. وغطى رأسه بخوذة عالية يزيّنها قرنان، أما ملابسه فتتألف من مثز بحزام يتدلى منه خنجر في قراب معقوفة ويمكن أن نعيّن أمام الإله صورة صغيرة لرجل في ملابس سورية ولعلّه هو الذي قدم المسلة - ملك المدينة.

غير أن اللؤلؤة الحقيقية التي تم العثور عليها بين ممدّات الدفن الوهيرة العدد والتي اكتشفت في مدفن مينة البيضاء المجاورة - كانت غطاء صندوق بيضوي الشكل من العاج نقش فوقه صورة بوتتيا تيرونا، إلهة الخصب الكريتية - الميكينية. كان الجزء الأعلى من جسم الإلهة عارياً وغطى الجزء الأسفل بتثورة طويلة وكانت تحمل في يدها حزمة بينما ظهر

على كل من جانبيها جديان على خلافتيهما. لقد كان كل من مينة البيضا ورأس الشمرة يخفي في أعماقه بضعة مقابر كبيرة للموك كريتيين - ميكينيين. وبصورة عامة فإن موجودات جميع تلك القبور المكتشفة قدمت الكثير جداً من أجل استعادة لوحة شاملة للتداوب الواضح بين الحضارات المتجاورة التي تآتى لأوغاريت أن تكون مسرحاً لها ذات مرة؛ عدد كبير من الأختام الأسطوانية وغيرها من المواد الأخرى التي كانت ترافق المتوفى إلى حياته الثانية، وتعود بأصولها إلى مصر وما بين النهرين وآسيا الصغرى أو جزيرة قبرص أو كريت وكانت تغفو في ذلك المكان إلى جانب هدايا أخرى تعود إلى الطابع المحلي التوليفي. غير أن أرض رأس الشمرة، منذ أول ضربة بالمعزقة قُدمت، لعلماء الآثار وللمؤرخين وبخاصة «للمارفين بالكتابة» في جميع أنحاء العالم، هدية أخرى أعدت من أجلهم وتحتل المكان الأبرز بين جميع المكتشفات.

ففي سنة 1929، وخلال الحفريات التي كانت تجري في رأس الشمرة في المبد الأكبر، الذي كان معتقداً آنذاك أنه القصر الملكي، وجد الأثريون أنفسهم أمام عدد كامل من الحجرات البالغة الصغر والشبيهة بالممرات، وكان يمكن لأمثال هذه الحجرات أن تؤدي في القصر الملكي وظيفه مخازن المؤونة فقط. بيد أنه في الرابع عشر من أيار من ذلك العام نفسه -1929- وجهت أول ضربة إلى مثل هذا التفسير - ففي ذلك اليوم وفي زاوية أحد تلك الممرات وبين النفايات والأثرية المتراكمة تم العثور على لوحات مسمارية، وقد أدرك العلماء فيما بعد، وبعد أن اغتسى العلم نتيجة لحفريات 1930-1932 بمكتشفات نصوص مسمارية جديدة وأكثر أهمية، أنهم قد عثروا في تلك الحجرات على مكتبة المبد وعلى مدرسة للكتابة. وظهر أن تلك اللوحات هشة جداً - إذ إنها كانت شواهد حريق هائل وقد تعرّضت لتأثير النار المدمر. لهذا كان لا بد قبل كل شيء من إعدادها بحذر شديد لشحنها ومن ثم الشروع بدراساتها. وعندما تم التعرف على بعضها بصورة أقرب اتضح أنها شبيهة جداً بلوحات تل العمارنة، المكتوبة بالمسمارية البابلية. وعثر أيضاً على جداول بالمفردات كانت معروفة من النصوص البابلية المسمارية - وكان هذا ما دعا إلى القول بوجود مدرسة للكتابة. بيد أن القسم الأساسي من اللوحات سلك مسلكاً أشد غرابة مما قامت به مكتشفات أرشيف بوغازكي منذ عشرين عاماً، لقد تم اكتشاف صاعق: فتلك اللوحات كانت تتضمن نصوصاً مدونة بكتابة مسمارية لا يمكن قراءتها بأي حال وغير مفهومه على الإطلاق، كتابة اختفت وغابت في طيات النسيان منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة!...

لكن آلهة أوغاريت القديمة، الذين غمروا علماء الآثار في القرن العشرين بحفريات كاملة من هداياهم، زادوا في هباتهم، إذ تقدموا في الوقت نفسه بما يشبه المفتاح لسر تلك اللوحات المدهشة - فمنذ الحفريات الأولى تم العثور على بضعة مستودعات للأسلحة البرونزية كان من بينها خمسة فؤوس حربية مغطاة بتلك الكتابة المسمارية الغامضة.

تعد حفريات رأس الشمرة صفحة مشرقة في التاريخ الحافل لعلم الأثرية الفرنسي. ويسجل للباحثين الفرنسيين فضل لا ينكر في حل الأحجية الغامضة المرتبطة بتلك الحفريات - وذلك في فك رموز الكتابة المسمارية الأوغاريتية المجهولة ولغتها المجهولة. فهنا، في بيروت، غير بعيد عن مكان الحفريات، كان الأخصائيون المحنكون يعملون وكلهم اعتماد للاستجابة السريعة لكل جديد يظهر إلى النور في أوغاريت. فخلال حملة الحفريات الثانية كان شيفير وشيني يكشفاً ويرسلان الكونز، واحداً تلو الآخر، ويقومان بإنقاذه من يد الزمن التي تدمر كل شيء، وكان فيرولو الحذر يقوم بإصدار النصوص المسمارية الأولى وبعد النصوص التالية للنشر. وفي الوقت نفسه وفي مدينة عالية الهميدة (فوق زحلة) كان أحد العلماء الألمان منكباً على عمله في مكتبه بكل نشاط ودأب. ولم يكتف فقط، وهو منقطع في مكتبه، بتحريك قضية قراءة رموز الكتابة الجديدة وشرح لغتها الجديدة فقط بل واستطاع إلى حد ملموس وصميمي أن يسير بتلك القضية إلى نهايتها.

ولد هانس باوير، وهو ابن مهندس زراعي من غروسمانسدورف الواقعة قرب بامبيرغ، في السادس عشر من كانون الثاني سنة 1878. وفي سني دراسته الأولى كان يتردد على الجمنازيوم في بامبيرغ وبعد أن اجتاز امتحانات الكفاءة بنجاح دخل الفريغوريان - الجامعة البابوية في روما، وهناك انصرف إلى دراسة الفلسفة واللاهوت والعلوم الطبيعية واللغات (رغم أنها لم تكن اللغات الشرقية بعد)، حتى إذا عاد إلى بلاده أمضى مدة عامين كاهناً في المستشفى العمومي في بامبيرغ. ولم يشرع بدراسة اللغات الشرقية إلا سنة 1906 في برلين، وكان من بين أساتذته هناك الأستاذ ديليتش، الذي كان في حينه أستاذاً لفروزني، وقد واصل باوير دراسته في لايبزيغ بإشراف تسميرين، وفي سنة 1910 ناقش أطروحته في برلين وفي سنة 1912 نال لقب أستاذ مساعد في غالباً.

وقد كان هانس باوير، الذي نال في نهاية المطاف شهرة المتبحر الكبير في لغات الشرق، عالماً لغوياً مجرداً، بخلاف الغالبية العظمى من معاصريه الذين ربطوا مصائرهم بدراسات تاريخ الفكر في البلدان الشرقية. ومما يذكر أن أعماله اللغوية المجردة تشير إلى أنه كان يملك منهجاً حمل إليه فيما بعد شهرة قارئ الرموز.

كان يتمتع بقدرة متطورة جداً على تكوين التراكيب الذهنية، ويحدس لا مثيل له في الدقة في تلمس العمليات الحياتية التي تحدث داخل اللغة، أما عبقريته في صياغة التراكيب فكانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بميله الواضح نحو الرياضيات. وبالمناسبة، علينا أن نذكر أنه كان يميل إلى جميع تلك المعارف المختلفة التي جمّعها من خلال دراساته والتي لم يكن علماء السمايات، بصورة عامة قد تسلّحوا بها. فقد كان ذا اطلاع كاف على علم الفلك وعلم الحيوان ولم تكن العلوم الطبية بغيرية عنه، كما كان يعدّ خبيراً كبيراً في فلسفة العصور الوسطى. وكان قد تعلم بصورة متممّة جميع اللغات السامية الرئيسية (وهذا حقل واسع جداً لا ينجح في فلاحته جميعه الآن إلا عدد قليل جداً من علماء السمايات) وكان يقرأ بجميع اللغات الأوروبية تقريباً كما درس عدداً كبيراً من اللغات غير الأوروبية ومنها الصينية ولفة الملايو والكورية. وقد منحه ذلك كله امتيازات خاصة في الدراسات المقارنة في ميدان علم الدلالة.

وكان من حق هانس باوير، وقد تزود بكل هذه المعارف، أن يسمح لنفسه بالسير في الطريق المجهول. وعلى الرغم من أن الكتابين القواعديين اللذين وضعهما - قواعد العبرية القديمة وقواعد آرامية التوراة - لم يستقبلا بالاعتراف الشامل فإن هذين العملين بالذات كانا يمثلان اقتحماً جريئاً في الميادين الأكثر ظلاماً في تاريخ اللغة، ويقدمان أنموذجاً لطرح جديد تمام الجدة لموضوع زمني الفعل السامي وتطورهما. وقد هاجم باوير هذه القضية من مواقع محفوفة بالخطر. إلا أنه بالإضافة إلى إمكاناته التركيبية على ما يبدو، كان معرّزاً في تلك المعركة بذلك الحدس الذي سلفت الإشارة إليه وهو حدس المعارف بالحياة الضمنية للغة وبأعمق قوانينها الضمنية الخفية. ذلك الزخم المشترك من الحدس التركيبي واللغوي هو الذي أدى بعد وقت قصير إلى واحد من أكبر الانتصارات غرابة في تاريخ القراءات الحديثة بصورة عامة: إلى قراءة باوير للإسفينات التي عثر عليها في أوغاريت وإلى اكتشاف لغة جديدة - لغة هذه الآثار. ويزيد من أهمية ذلك الانتصار في ضوء الحقيقة القائلة بأن باوير، ذلك الشخص المسرف في الانفلاق على نفسه وعزوفه عن معاشره الناس، قد حقق تلك المأثرة العلمية وحيداً.

فلنتابع الآن أعماله ونقفو عملية قراءة الرموز، معتمدين على الوصف الواضح والمفهوم والمقدم من قبل باوير نفسه⁽¹⁾.

1- H. Bauer, Die Entzifferung des Keilschriftalphabets von Ras Schamra, - Forschungen und Fortschritte, Bd VI, 1930, Ss. 306-308.

كان قد لوحظ في مكان الكشوفات أن الكتابة الجديدة تتضمن عدداً قليلاً من الرموز إلى حد ما (عرف آنذاك 27 رمزاً والمعروف الآن 30 وهناك عدد من الباحثين الذين يميزون 32 منها) وقد قام بتلك الملاحظة إنسان دعي خصيصاً من أجل ذلك وهو شارل فيرولو. وفي الوقت نفسه أنهى ملاحظته بقوله بأننا أمام كتابة أبجدية - فذلك العدد المحدد من الرموز لم يكن يسمح حتى بفكرة وجود كتابة مقطعية أو ايديوغرامات.

وهكذا ما كان للحديث يمكن أن يدور إلا حول كتابة أبجدية شبيهة بالفارسية القديمة - وهذه الكتابة كانت مثل الفارسية النجل الأخير لمسمارية ما بين النهرين، إلا إنها كانت تتسب لفرع أقدم عهداً وأقدم عمراً من الكتابة الفارسية بفترة تزيد عن الألف عام. وفضلاً عن ذلك فإنها انبثقت من منطقة استحدثت مفخرة أن تسمى الموطن الأصلي لجميع الأبجديات الحرفية بما في ذلك الكتابة الحرفية الفينيقية، التي كانت تعتبر في ذلك الوقت أقدم أبجدية سامية. ومن الواضح أن فيرولو، وقد كان واقفاً تحت التأثير الشديد للاكتشافات الأخرى، طرح فرضية أن تكون لغة الأثار الجديدة للكتابة لغة قبرصية أو حتى لغة ميثانية عرفت في رسائل تل العمارنة.

غير أن باوير اقتنع عند إلقائه أول نظرة على هذه الكتابات، بحتمية أن تكون وراءها لغة سامية. واتخذ من تلك الفئاعة التي لم تكن في ذلك الوقت أكثر موثوقية من اثنتي عشرة من مثيلاتها، فرضية عمل بالنسبة له... ولم يخطئ.

حتى السابع والعشرين من نيسان سنة 1930 - وذلك خلال بضعة أيام فقط - استطاع باوير وحيداً دون ثنائيات ودون محدّدات أو ايديوغرامات ودون تلك الأسماء الأعلام التي سرعان ما تهرع لمساعدة العلماء، أن يفك رموز الكتابة التي وقعت أمام ناظره لأول مرة عندما تسلّم النصوص التي نشرها فيرولو في ذلك الشهر نفسه - نيسان.

أما المنهج الذي سار عليه عالم الساميات الألماني فقد تجلّى فيه بأوضح صورة ما كنا قد أشرنا إليه سابقاً وهو الجمع الموفق بين القدرات التركيبية والمعارف اللغوية.

كان باوير، كما ذكرنا، قد انطلق من فرضية تقول بأن هناك لغة سامية تثوي خلف تلك الكتابة. وانطلاقاً من هذه الفرضية طبق على النصوص المطروحة أمام ناظره القوانين التي تحكم بناء اللغات السامية.

أما نقطة الانطلاق الوحيدة فكانت اشتغال النصوص على الفاصلة بين المفردات وهي خط عمودي. فقد عثر باوير بين أمثال هذه الفواصل على رمز مسماري يقف بطريقة واحدة ويتردد بصورة متوالية بكثرة. فأنار ذلك في خاطره الفكرة القائلة بأن الحديث يدور عن

المفردات «وحيدة الحرف»، وهي تعتبر خاصة لا بد منها في اللغات السامية التي تقتصر في كتابتها على السواكن، كما هو معروف. وقام في الوقت نفسه، ومن خلال الملاحظة البسيطة للمظهر الخارجي للكتابة، باستنتاجه الثاني: إن الفواصل بين الكلمات تقين، على غير إرادة منها، ببدايات الكلمات ونهاياتها ففي بدايات الكلمات وفي نهاياتها تظهر السوابق واللواحق. والسوابق في اللغات السامية الغربية يمكن أن تكون «e» (وهي لفظ حلقي يجيء قبل ساكن) ثم *n, m, j* و *i* كما يمكن أن تكون *b, h, k, L, w*؛ أما اللواحق فيمكن أن تكون *h, k, m, n*، وقد تكون *w* و *i*، وقد تكون *w* و *j*؛ وأما الكلمات الوحيدة الحرف فهي *L* و *m* وقد تكون *k, b* و *w*.

وهكذا، ومنذ البداية الأولى حدد وبصورة صارمة اختيار المعاني اللفظية وذلك من أجل بعض الرموز المسماة المحددة وبالذات من أجل الرموز المائلة في بدايات الكلمات وفي نهاياتها. وبفضل ذلك تحرك باوير بصورة أقرب نحو قراءة النصوص.

وقد انتهى بتلك المعاني اللفظية، والتي كان يُنظر إليها، بناءً على التراكم التي

أوردناها، على أنها معانٍ لرموز محددة، إلى اللوحة التالية:

في اللغات السامية يمكن أن نلتقي بالألفاظ التالية:

كسوابق	كلواحق	ككلمات وحيدة الحرف
I	D	III
ء		
S		
j	b	L
M	k	m
N	m	(b)
I	n	(k)
(b)	t	(w)
(h)	(w)	
(k)	(j)	
(L)		
(w)		

والتفت باوير بعد ذلك إلى الوسيلة السهلة المجربة جيداً، إلى الدراسة الشاملة للنصوص

من وجهة نظر تردد استعمال الرموز المنفردة. واصطدم آنذاك بحقيقة أننا كثيراً ما نلتقي في

جميع الوظائف القواعدية المطابقة للصفوف الثلاثة المشار إليها (1، 2 و 3) برمزين مسماريين معدّين. فصار على أثر ذلك يبحث عن الرموز التي تظهر في الوظائف الثلاث جميعاً وقد عثر على ثلاثة منها هي w و m و k (ويمكن أن نحددها على الفور إذا ما ألقينا نظرة سريعة على جدولنا) وبالإضافة إلى هذا يسارع باوير إلى إسقاط k نظراً لندرة استعماله في الوظائف القواعدية المشار إليها، وهذا يتبقى لديه m و w .

وقد بينت الدراسة التالية للنصوص، أن الرمزين الآخرين، اللذين نلتقي بهما بصورة متكررة جداً، ونقصد بهما الإسفينيين الأفقيين وأحدهما منفرد والآخر ثلاثي، يظهران بصفة سابقتين ولاصقتين، ولا يظهران بصفة كلمات وحيدة الحرف بمعنى أنه كان يجب أن يظهرأ فقط في الصفين 1 و 2؛ وقد كان مثل هذا الشرط ملائماً، كما نلاحظ، لحرفي n و z ؛ وعلى أي حال ليس لنا أن ننسى أن باوير، وقد وصل إلى هذه المرحلة من براهينه لم يكن يعرف بعد أي من الرمزين المشار إليهما يعبر عن m وأي عن w ، ولم يكن يعرف أيضاً أي رمز من الزوج الثاني يعبر عن n وأي عن z . فالجدول كان يفترض الاختيار في الحالتين بالنسبة لكل زوج. لكن الرموز الأربعة كانت مع كل ذلك محصورة فقط ضمن معانٍ لفظية أربعة وما كانت تسمح إلا بإمكانيتين للاختيار، الأمر الذي سهّل على الباحث أن يتعامل مع هذه الرموز الكثيرة المتواردة.

إذ ذاك استعان هانس باوير بالوسيلة التي قدمها إليه ناشر النصوص شارل فيرولو، فقد لاحظ هذا أن المجموعة ذات الرموز الستة، والمطروقة على الفؤوس البرونزية العديدة، التي تم العثور عليها أثناء الحفريات، تشاهد أيضاً في مستهل إحدى اللوحات المسمارية وإن كان يتقدمها هناك رمز واحد. وقد استنتج فيرولو من هذا أن مجموعة الرموز المنقوشة على الفؤوس كانت تمثل اسم علم لشخص وأن بداية النص المكتوب على اللوحة المسمارية - هي الأسطر الأولى من رسالة موجهة إلى ذلك الشخص. لكن ذلك الرمز الإفرادي الواقع أمام هذه المجموعة من الرموز كان يمكن أن يعني - برأي فيرولو - حرف الجر الذي يوضع في اللغات السامية وعدد من اللغات الأخرى أمام الاسم وهو يطابق حرف الجر الأكادي *anu* (ويمبر عن مثل هذه العلاقة في اللغة العربية بحرف لـ).

وقد استغل هانس باوير هذه الملاحظة بمهارة، فاتجه تفكيره إلى أن حرف الجر *ana* الأكادي (السامي الشرقي) يقابله حرف *L* (لـ) في اللغات السامية الغربية وهكذا يكون الرمز الواقع في بداية الرسالة المسمى إليها هو حرف *L*.

ويعد أن تسليح باوير بذلك الرمز حامل المعنى اللفظي L وبالشكلين المحتملين لـ m اتجه كرياضي إلى مساعدة ما يمكن تسميته بـ «نظرية الاحتمالات» والتكافؤ بأحد المجاهيل. كانت نظرية الاحتمالات تعني، في تلك الحالة، تصوراً لا يساوي بالنسبة للأخصائيين في الساميات دانتقاً واحداً. أما بالنسبة لغير الأخصائيين فإنه يولد لديهم انطباعاً بأن «الكتابة السامية عن طريق السواكن فقط» والتي تبدو لنا أبعد ما تكون عن الكمال، تحمل في الوقت نفسه وجهاً إيجابياً. فقد اتجه باوير إلى البحث عن الكلمة التي تحمل نصيباً من احتمال الوجود في النصوص وهي كلمة «ملك» mlk في اللغات السامية الغربية (وستعرض لهذه الكلمة مجدداً في الفصل الخاص بكتابة قبرص). وجرب في البداية أحد شكلي حرف m ، وقد وقع نظره في أحد النصوص على كلمة توصل من خلال قراءتها، وفي ضوء تلك النظرية، على ml بالإضافة إلى رمز واحد مجهول عبّر عنه باوير وفق طريقته المحبوبة بـ «x» ولكن أكانت $k = x$ وهل كانت الكلمة هي mlk «ملك» فضلاً؟ لقد تحولت الفرضية إلى أمر مؤكد ككل التأكيد بمجرد أن وجد في نص آخر صيغة $mlxx$ التي كان يجب أن تعني «ملكك» وهكذا توصل إلى الاقتناع بأنه عشر على رمز جديد لـ k وأنه حدّد m بصورة نهائية⁽¹⁾.

وخطا باوير بعد ذلك بضع خطوات إلى الأمام فوق ذلك الطريق - طريق البحث عن المفردات المحتمل وجودها ضمن النصوص. وكان أقرب أهدافه كلمة $bm =$ «بن» وفي البداية لم تأت أبحاثه عن هذه الكلمة بأي ثمرة إلا أنه في النهاية وجد على لوحة كانت تتضمن، وفق أقرب الاحتمالات، سجلاً بأسماء من بينها رمزان تردد وجودهما 15 مرة قبل غيرهما من مجموعات الرموز التي كانت تتبدل كل مرة دون أن تفصل عن هذين الرمزتين بفواصل. كان أحد ذينك الرمزتين - وهو الثاني في المرتبة ويتخذ شكل إسفين ثلاثي أفقي - شيئاً معروفاً

أ- وفاء للحق نعرض فيما يلي إلى أي درجة من النتائج الخاطئة يمكن أن تؤدي حتى تلك التكوينات الذكية التي لا تضمن صحتها غير التجربة الطويلة للباحث ذلك أن باوير قد أخطأ في هذه النقطة وسرعان ما صوبه دورم فحرف k الذي قال به تبين أنه في الواقع m وتبين أن الـ m هي k ، إذ إن باوير لم يضع في اعتباره (وكان مجبراً على ألا يفعل ذلك على ما يبدو في المرحلة الأولى من أبحاثه) أن الكاتب القديم لم يستخدم الفواصل بين الكلمات قبل الكلمة الموصوفة، فكان ذلك يعني أن تركيب الرموز الذي اعتبره باوير لاصفة كان في الحقيقة كلمة وحيدة الحرف وكان من الطبيعي أن يجر هذا الخطأ أخطاء من بعدد ومع هذا فإننا سنواصل في عرضنا هذا براهين باوير بسبب كمال صحتها في الأساس وكونها المنهج الذي وصل به إلى الهدف.

بالنسبة لباوير؟ فوقاً للجدول الذي وضعه كان لا بد لذلك الرمز من أن يُمَبر عن l أو n ؟ كما أن الرمز الأول كان مما التقى به أيضاً في صيغة المفردات وحيدة الحرف، وقد أكدت مجرد نظرة إلى الصف الثالث أن الحرف هو b . وهكذا تم العثور على كلمة «ابن» وحدد حرفان هما b و n .

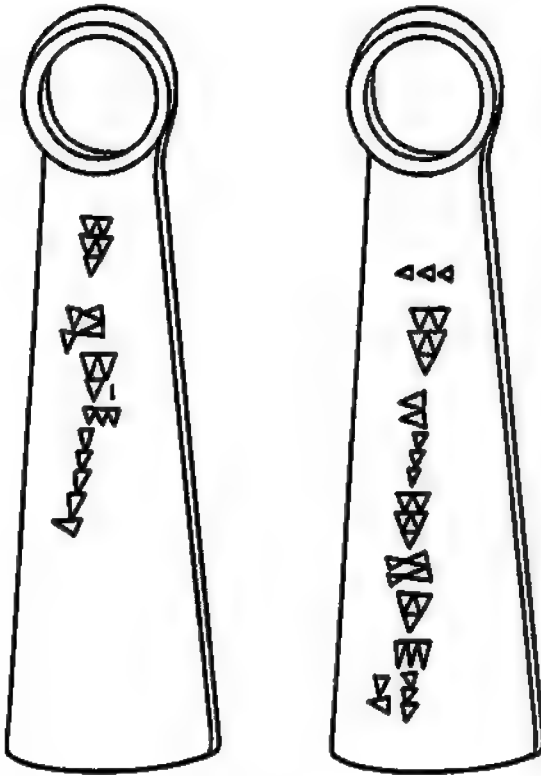
ولعل من غير الفائض عن الحاجة هنا أن نقطع استعراض مسيرة القراءة لكي نمبر عن المشاعر التي تعترينا: فنحن نسترق الخلى إلى جانب الباحث كالصيادين الدهاء وتنكش قلوبنا في كل مرة ينجح فيها - وليسامحنا على هذه المقارنة الفظة - في «اقتناء الأثر» أو ينصب فخاخه ليقع فيها الحرف الجديد. ولنقل بصراحة إنه بالإضافة إلى حرف b وقعت في يد باوير الطريدة الثمينة: حيث يجتمع b مع l وهذا يعني أن كلمة ($Ba'al$) - بعل لم تعد بميدة. فهذه الكلمات تحتوي في اللغات السامية على ثلاثة سواكن كما نرى، إذ إن الحرف الذي تؤديه الكتابة التحليلية ب (،) هو الحرف الحلقي الانفجاري عين. وهكذا انتهى باوير إلى العثور على تركيب الأحرف التالية $b-x-l$. وعلى الرغم من أن اللوحة كانت صغيرة فقد ترددت تلك الكلمة فوقها سبع مرات! وهكذا تم تحديد حرف عين.

وانطلاقاً من أمثال هذه المحاككات استطاع هانس باوير أن يحدد في دراسته الأولى 17 رمزاً. أما هو فقد قرر بأنه قد ناقش بصورة صحيحة 20 رمزاً، وأنه يشك في صحة تحديده لـ 5 أخرى، كما أن 2 منها بقيت بميدة عن التفسير بسبب ندرة ورودها. وقد أشار باوير أيضاً إلى أن التفسيرات سارت بطريقة تغاير الوصف الذي قدمناه والذي سرنا فيه على خطى وصفه الخاص لمنهجه، والذي قدمه في مرحلة متأخرة. ومن الواضح حتى ومن دون هذا أن تلك الثمرة الفكرية الباهرة التي صيغت في غضون بضعة أيام فقط لم تسقط من السماء؛ فنحن أمام نتيجة عمل متصل على امتداد ما لا يقل عن عشرين سنة في دراسات مشكلات الكتابة. بيد أن من الطرافة بمكان بل ومن المفيد أيضاً أن نساير عمل باوير في تلك الحالات التي أخطأ فيها.

أولاً، ارتكب باوير خطأ في أحد الصفوف عند وضعه للجدول الذي ذكرناه آنفاً والذي يجمع الرموز المسماة وفقاً لوضعها في النص (السوابق واللواحق والمفردات وحيدة الحرف) - وذلك في المكان الذي عمد فيه قدماء الكتبة، بمكر ودون قصد، إلى السخرية منه عندما كانوا يرمطون بين الكلمة وحيدة الحرف بالكلمة السابقة لها دون وضع فاصل بينهما. ولما لم يكن باوير يرتاب في شيء من ذلك اعتبر تلك الكلمة لاصقة وصنفها خطأ في العمود الثاني، وهكذا يكون قد حددها خطأ و «استبطل» من ذلك أيضاً بضمة معان، مماثلة لذلك في الخطأ.

ثانياً، تلك الفؤوس البرونزية التي ذكرناها آنفاً - ذلك المفتاح الذي أنزلته آلهة أوغاريت من أجل فك الرموز، والذي قام باوير باستعماله، - لم تكن أيضاً أقل مكرراً من سواها. بل أن اثنتين منها صارتا بالنسبة للباحث تجسيدا للشجر المالح. وقد قمنا بمرضهما هنا ليس فقط بهدف استعراض ذلك الخطأ بل وأيضاً من أجل أن نمكّن القارئ من قراءة النص الأوغاريتي المسماري الأصيل حرفاً بعد حرف.

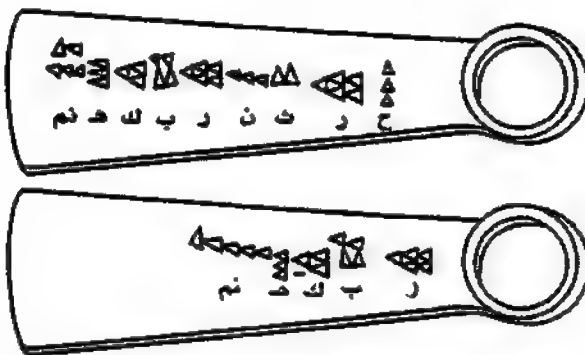
تظهر على أحد الفأسين (من اليسار) ستة رموز مسمارية، وتحمل الأخرى أيضاً تلك الرموز الستة لكن أمامها (أي فوقها على الشكل) تظهر أربعة رموز أيضاً. (وإن من يحاول العثور على تلك الرموز الستة فوق الفأس اليمنى سيكتشف أن قراءة حتى هذه الكتابة البسيطة ليست بالأمر السهل). وهكذا فإن المجموعة نفسها من الرموز الستة منقوشة على كل من الفأسين، وقد افترض باوير أن تكون متضمنة اسم صاحب الفأسين: أما ما يتعلق بالمجموعة الأقل عدداً من الرموز الأربعة فإنه توقع، وبصورة صحيحة إلى حد بعيد، أن يعثر



الشكل -64- فأسان طرقت عليها كتابة أوغاريتية

على كلمة «فأس» (من وجهة نظر المنهج يكون بهذا قد طرح موضوع التناظر بين الشيء وبين النقش الذي فوقه أي يكون قد سار على نفس النهج الذي نجح إيميل فورير في استخدامه أثناء عمله على حل رموز الهيروغليفات الحثية). ومن بين الرموز الأربعة التي كانت تعني، حسب فرضية باوير، كلمة «فأس» كان هناك رمز قد سبق التعرف عليه ونقصد بذلك الرمز رقم 4 وهو الإسفين الثلاثي الأفتي وهو « (من الضروري إماله الشكل نحو اليسار بدرجة 90 إذ إن النقش مكتوب من اليسار إلى اليمين). أما معنى الرمز رقم 2 فكان

باوير قد انتهى إلى تحديده من خلال المقارنات الأخرى؛ وهو حرف *r*. وهكذا تفدو



مفهومه قناعة الباحث بأن

أمامه الكلمة العبرية

«مارس» بمعنى «فأس» وقد

كتبت على شكل *grzn*

وقدر بأنه بمستطاعه أن

يضيف إلى الرموز المجهولة

كلاً من رقم 1 ورقم 3 من

هذه المجموعة وذلك بمعنى 8

و ٢. ولما انتهى من ذلك اتجه

نحو مواصلة العمل على

مجموعات أخرى من الرموز

الكتابة مطروقة من الأملى إلى الأسفل ونرى من الأكثر
منطقية قراءتها من اليمين إلى اليسار فالنص المكتوب على
الناس اليمنى، يقرأ هكذا: ح ر ت ن ب ك ه ن م، والآخر
يقرأ هكذا: ر ب ك ه ن م (المترجم).

مستخدماً، بصورة طبيعية، الماني التي يتحصل عليها مجدداً فيكون بذلك قد عمق
الخطأ الذي وقع فيه.

وكانت القضية برمتها تنحصر في كون اللفظة الاوغاريتية، على ما اظهرت
الدراسة التالية لأبجديتها بعد حين، ابعد ما تكون عن التطابق مع العبرية القديمة. فقد
كانت هذه لغة سامية مستقلة بذاتها، رغم اتصالها بالأخيرة بصلة النسب. و فأس لم
تكن في الاوغاريتية *grzn* بل كانت *hrsn*، أما الكتابة المطروقة على الفأس اليمنى
فكانت بمجموعها تقرأ *hrsn rb khnm* حرثن رب كهنم وهي تعني فأس الكاهن
الأكبر، أما الكتابة الأقصر ديباجة فوق الفأس اليسرى فكانت *rb khnm* أي
«الكاهن الأكبر».

سبق أن قلنا إن هانس باوير أنجز في نهاية نيسان سنة 1930 دراسة نتائج أبحاثه
وفي الرابع من حزيران من ذلك العام نشر في «صفحة التسلية»، ملحق «فوسيشي
تسايتونخ» إخبارية تمهيدية عن قراءته للرموز و تتضمن تحديداً لأربعة أحرف هي:
الهمزة، ت، ر و ن وقراءة للإلهة عشير، عشقارته وبعل ورموز الآلهة ايل وايلواه بالإضافة
إلى الأعداد «ثلاثة» و «أربعة» وأشار في الوقت نفسه إلى أن للهمزة رمزين مختلفين عن
بعضهما. ثم ظهرت بعد ذلك إخبارية قدمها باوير للجمهور الواسع من القراء حول
منهجه في القراءة وظهرت في العشرين من آب سنة 1930 في مجلة «فورشونفين أونند

فورتشرشي، وفي بداية تشرين الأول من عام 1930 ظهر أول أعماله الكبرى بعنوان «قراءة رموز اللوحات المسماوية من رأس الشمرة». وكان عمله ذلك يتضمن كتابة تحليلية شاملة لجميع النصوص التي كانت قد صدرت حتى ذلك الوقت (وقد رأينا أنه لم يكن معصوماً بصفة كلية عن الخطأ في تفسيره لأبجدية أوغاريت) كما ظهرت «التتمة المهمة». وكانت تلك التتمة مهمة لأنها وضّحت المرحلة التالية الحاسمة من مراحل فك الرموز وعززت التوضيح بالتصويبات التي لم يكن منها بد للنظام الذي صاغه المؤلف مع الكشوفات العلمية الجديدة التي قام بها زملاء أستاذنا، ابن مدينة غالاً.

وفي نهاية نيسان (سنة 1930) وقبل أن تظهر على صفحات ملحق «فوسيشي تسابتونغ» الإخبارية التمهيدية لـ «قراءة رموز الكتابة الجديدة» كان البروفيسور باوير قد أخبر السيد رينيه ديوسو، مدير القسم الشرقي في متحف اللوفر بباريس (كناشر مجلة «سوريا» الاستشرافية، حيث كانت تصدر النصوص الأوغاريتية) بأنه قد تسنت له القراءة المبدئية للنصوص، وبعد بضعة أيام أنهى إليه النتائج المتفرقة والأكثر ملموسية من عمله. وتقدم رينيه ديوسو بتقريره حول هذه النتائج في الثالث والعشرين من أيار (مايو) خلال جلسة الأكاديمية الفرنسية للنقوش الكتابية حيث قوبلت بما تستحقه من استحسان. وقد توافقت إرسالية باوير لديوسو تقريباً مع الإخبارية المسبقة في «فوسيشي تسابتونغ» والتي وقعت في يدي إدوارد دورم، أستاذ المدرسة الإنجيلية والأثرية في القدس (وسنتحدث عنه بتفصيل فيما بعد) وعندما بدأ ذلك العالم بدراسة الدلالات اللفظية المطروحة في ذلك العمل الذي قدمه باوير لم يكن فقط مسلحاً بالمعرفة المتممة لعمله بل وكان يملك تلك التجربة العملية لقارئ الرموز والتي تحصل عليها خلال الحرب العالمية الأولى.

تمكن دورم من إيصال عدد الرموز المقروءة إلى العشرين كما تمكن في الوقت نفسه من التخلص من بعض أخطاء باوير التي كانت محفوفة بالنتائج الخطيرة. وقد قام دورم بإخبار زميله الألماني بالنتائج التي توصل إليها بطريقة ما كانت إلا لتدل على اللباقة العلمية الرفيعة لدى ذلك العالم الفرنسي، فقد وضع بين يدي العالم الذي من غالاً، مقاله الذي أعده للمجلة التي كان يقوم بنشرها بنفسه وهي «ريفيو بيبليك» وكان المقال آنذاك على صورة بروفات للتصحيح فاستطاع باوير، على الأقل، أن يعرّز كتابه، الذي كان قد فرغ من طبعه، بـ «التتمة المهمة» التي أشار فيها إلى الدلالات اللفظية وإلى قراءات دورم. والعمل الذي قدمه دورم، مضافاً إلى بعض المعطيات التي توصل إليها بنتيجة نظرتة الجديدة إلى المادة،

انتهى بباوير إلى ما يسمى بـ «أبجدية الـ 5 من تشرين الأول سنة 1930، والتي كانت تتضمن 25 رمزاً من الرموز التي تم تحديدها بدقة. وهكذا تمكن هانس باوير وإدوارد دورم خلال فترة لا تتجاوز نصف العام من انجاز فك الأبجدية في الأساس؛ وكان ذلك فقط بواسطة النصوص التي اكتشفت سنة 1929 وعن طريق بعض الجداول غير البليغة والمتضمنة أسماء المدن التي لا تقدم إلا النذر اليسير من أجل فهم اللغة⁽¹⁾.

وكما سبق وقلنا، فإن القراءة «المبدئية» في الأساس» كانت بذلك قد أنجزت، لكن بعض الدلالات اللفظية كانت لا تزال محتجبة وكان بعض آخر قد تكشف بصورة غير واضحة تماماً.

أما قضية إتمام فك رموز الكتابة الأوغاريتية فقد أخذها على عاتقه البروفيسور جان شارل غابرييل فيرولو الذي سبق أن ذكرناه أكثر من مرة. (ولد في 2 تموز سنة 1879 في باريبيزيه، شارانتا).

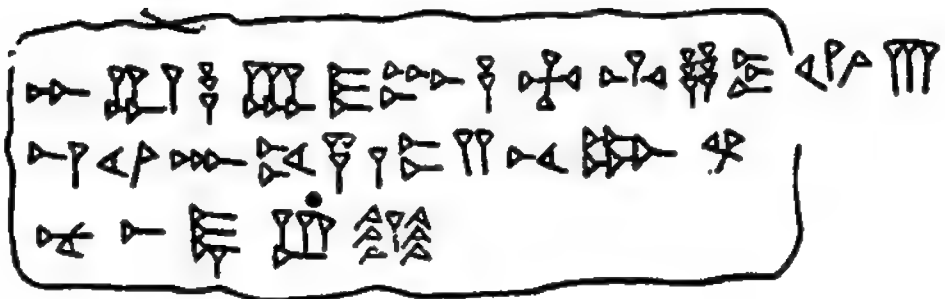
كان دكتور الفيلولوجيا في المستقبل ومدير المدرسة التطبيقية للدراسات العليا التابعة للسوربون (*Ecole pratique des hautes etudes*) يهتم منذ صغره بدراسة اللغات الشرقية.

حتى الوقت الذي عين فيه فيرولو مشرفاً على أعمال التقيب في سوريا ولبنان (في 1 تشرين الأول سنة 1920) وخلال عمله في ذلك المنصب، قام بنشاط وافر الثمار إذ سبق له أن قام بعمل كبير في مجال دراسة اللغتين العربية والفارسية وتاريخ الشرق القديم وجغرافيته وآثاره، وقام بأبحاثه في متحف لندن واستامبول كما طاف آسيا الصغرى وإيران. وقام بتنظيم جميع البعثات الأثرية التي سافرت إلى هناك والتي أسهمت إسهاماً لا ينكر في دراسة التاريخ القديم لتلك المنطقة من الأرض، وبمبادأة منه وضع الأساس لعدد من المتاحف التي كان من بينها متحف بغداد ومتحف دمشق ومتحف حلب (وقد تحولت فيما بعد إلى مراكز للأعمال الدراسية الناشطة).

1- من الجدير القول بأن «أحقر» وثيقة من أمثال هذه الوثائق يمكن أحياناً أن تكون ذات قيمة كبرى فإثناء عمليات فك رموز الكتابة الأوغاريتية تبين أن أكبر وثيقة صاعدة لاختبار صحة القراءة هي جدول صغير عشر عليه فيما بعد، وكان قد وضع بالأبجدية المسمارية الأوغاريتية. وهو بعد المراكز المأهولة بالسكان ومقدار ما تورده من الخمور. والطريف أن عدد الدنان كان مذكوراً بأرقام أوغاريتية كتبت من خلال بنائها اللفظي. وكان حاصل جمع تلك الأعداد يسوي 148 دناً بينما ذبل ذلك الجدول بهامش كتب باللغة الأكادية ينضمّن: «148 (بالأرقام) دناً من الخمر»، انظر:

J. Friedrich, Entzifferung verschollener Schriften und Sprachen. S. 71. F.

1		a	16		m
2		e(i)	17		n
3		u	18		s
4		b	19		z
5		g	20		'
6		d	21		g
7		h	22		r
8		n	23		s
9		z	24		z
10		h	25		q
11		h	26		r
12		l	27		s
13		y	28		t
14		k	29		l
15		l	30		t



الشكل -65- أجدية رأس الشمرة.
 في الأعلى - وفق الشكل الذي يراه العلم الحديث.
 في الأسفل - كما تظهر فوق لوحة فخارية من أوغاريت.

وعندما قام شيفير وشيني في ربيع سنة 1930 بضرب المعاول في تراب أوغاريت حالهما الحظ من جديد ، لكن اللقبة في هذه المرة تجاوزت بقيمتها كل ما سبق أن عثر عليه في الماضي. فاللوحات الفخارية التي تم اكتشافها لم تكن تتضمن مجرد جداول أو جرود بل نصوصاً طويلة ذات طابع سردي مكنت أخيراً من إنجاز قراءة الرموز. وهكذا استطاع فيرولو أن يعطي أبجدية رأس الشمرة مظهرها الأخير. وما أن تقدم فيرولو بإخباريته الشاملة عن العمل الذي أنجزه⁽¹⁾ حتى ظهر أنه قد تعرف أيضاً على رمزين آخرين فوق ما حدده باوير ودورم وهما: الرمز الخاص ب z والرمز الثالث للهمزة. وبهذا ألقى الضوء النهائي على طابع تلك الكتابة وبنائها.

إن طريق شارل فيرولو كعالم يوضح معالم شخصيته وإلى حد كبير كإنسان أيضاً. فالجزء الأساسي من دراساته التي كرس لها حياته بطولها يتعلق بتاريخ الدين، وفي هذا يكمن جذر كشوفاته وبذرتها وفي هذا أيضاً يثوي المفتاح نحو فهم شخصيته. فعلى سؤال طرح عليه ذات مرة حول الفترة المبكرة من إنتاجه وحول البواصت والحوافز الضمنية لنشاطه أجاب ذلك العالم بإيجاز قائلاً:

«حول ما يخص اهتماماتي بمكنني أن أقول إنني، وقد كنت صبياً في السابعة عشرة، اتخذت قراري بدراسة اللغة العبرية القديمة. والسبب في ذلك أنني كنت آنذاك قد قرأت في «أفكار» بليز باسكال الكلمات التي كنت وما أزال اعتبرها مثيرة وهي: «أرى من طبائع الأمور أن الناس يطمحون لا إلى التعمق في تعاليم كويرنيك...»⁽²⁾.

لقد عاش هانس باوير، الألماني، الذي قام بالعملية الأساسية في فك رموز الأوغاريتية، حتى الوقت الذي لقي فيه عمله الاعتراف الكامل بعد أن أكمله كل من الفرنسيين دورم وفيرولو. وقدر له أن يعيش مع الجميع سعادة استنباط النتائج الرئيسية الأولى لنشاط العلماء والأثريين والتقييم الكامل لمغزى الكشوفات الأوغاريتية وحدث ذلك قبيل موته بوقت قصير (فبعد مرض مزمن توفي في غالباً عن 59 سنة من العمر).

تمثل الكتابة الجديدة أمامنا كتابةً حرفية صرفة، شأنها شأن الكتابات السامية الشمالية الأخرى، فهي لا تعرف الرموز المقطعية ولا الأيديوغرامات ولا المحددات. بل أمامنا

1- Syria-i. XII, 1931, pp 15-23 وقد نشرت في المصفاة 194 من المجلد نفسه لوحة الأبجدية في

صورنها الجديدة

2- بواصل باسكال: «بل إلى شيء آخر - أن ما هو مهم إلى درجة حاسمة بالنسبة للحياة كلها هو معرفة ما إذا كانت الروح هانية أم خالدة». (الأفكار، المقطع 218).

نوع من التوليف بين المبدأ الأبجدي ذي الحرف الواحد وبين الصيغة المسمارية، كان ذلك ثمرة الاختلاط، مثله مثل حضارة أوغاريت، المدينة - الدولة، كلها. ومن المعلوم أن الكتابة الفارسية القديمة وضعت وفقاً لهذه الوصفة. إلا أننا نعرف أيضاً ثمرة لا تقل طرافة عن هذا لتزاوج النظم المختلفة من الكتابة - وهي كتابة ميروي التي كانت تستعمل أيضاً الصورة الظاهرية للرموز - ويكلمة أدق الهيروغليفات المصرية التي كانت في بداية الأمر غريبة تماماً عن لغة ميروي. ومثلما كان الأمر بالنسبة لميروي فإن أوغاريت، إنان صياغة كتابتها الجديدة، آلت بعيداً بالأيدوبوغرامات وبالرموز المقطعية والمحددات، واستخدمت رموز كتابة كانت تعد في البدء نموذج الكتابة القائمة على مبدأ معمول به في كتابة أخرى، مبدأ الكتابة السامية الحرفية عن طريق السواكن (أما ميروي فاتخذت مبدأ الكتابة الحرفية اليونانية).

ومما يسترعي النظر أن الكتابة الأوغاريتية تتضمن ثلاثة رموز للهمزة دفعة واحدة. وكما ظهر في الجدول الجردى (الشكل 65) يتبين لنا حرف الألف قبل *h* وقبل *e* وقبل *i* وقبل *u*، *أ*، *إ*، *أ*. وعلى أساس هذه الظاهرة الطريفة إلى حد ما طرحت مجموعة كاملة من الفرضيات المتعلقة بأصل أبجدية أوغاريت⁽¹⁾.

منذ سنة 1935 كان هانس اينسين قد وصف مشكلة أصل مسمارية أوغاريت بأنها مشكلة لم تحل بصورة نهائية بعد. ويبقى أن نعرف بأن حل هذه المشكلة لم يتقدم إلى الأمام منذ أن ظهرت تلك الفرضية. وقد حاول مختلف الباحثين أن يفسروا تلك الأبجدية بواسطة أكثر الشروح تناقضاً: كتقليد للأبجدية السامية الشمالية أو كتطور لها أو كثمرة لتأثير ما يسمى بكتابة سيناء بل وكتابة ظهرت بنتيجة تبسيط الرموز البابلية المقطعية وتقسيمها إلى قسمين، إلا أن ما هو أكثر احتمالاً على ما يبدو هو نظرية أخرى تتمتع في وقتنا الحاضر باعتراف واسع وهي تقول بأن كتابة رأس الشجرة المسمارية ليست كتابة مستعارة من مكان

1 - المعلومات التي يوردها المؤلف في هذا المقطع وسابقه تثير مجموعة من التأملات فمن المستغرب أن يقارن المؤلف بين تجربة كتابة أوغاريت الحرفية والكتابة الفارسية القديمة وهو الذي يؤكد، منذ صفحات قليلة، على أن الأولى قد سبقت الثانية بألف عام! أما أن الأبجدية الأوغاريتية استخدمت مبدأ الكتابة الحرفية السامية عن طريق السواكن فأمر مردود لأن الأوغاريتية نفسها هي الكتابة الحرفية السامية عن طريق السواكن. وأخيراً فإن الألفات التي يتحدث عنها المؤلف ويصل بعدها إلى الأربع ليست إلا تحولات لكتابة الهمزة *أ*، *إ*، *و* ومن المستغرب أن يلقي هذا الحرف ظلاً على أصالة الأبجدية الأوغاريتية وأن يطرح المؤلف بناء على ذلك مجموعة من الفرضيات المتعلقة بذلك الأصل (المترجم).

آخر ثم خاضعة بعد ذلك للتقحيح، بل هي نتيجة لإبداع مستقل واختراع إنسان مستقل كان يعرف الأبجدية السامية الشمالية، ومن هنا يظهر نظام الكتابة التي لم تكن تعرف الصوتيات (قارن أيضاً الشكل 65 من الأسفل). وبالإضافة إلى ذلك فإن ذلك الإنسان وقد تعلم الكتابة بالعصية الصغيرة فوق اللوحة الطينية، وهو ما لم يكن مساعداً بالطبع على رسم الحروف الخملية، كان عليه أن يلجأ إلى الإسفين المنقذ. بل وقد كان هانس باوير ميالاً إلى القول بأن كتابة أوغاريت اخترعت بادئ الأمر من أجل كتابة غير سامية. وانطلق في ذلك من كون هذه الكتابة تعرف ثلاثة رموز للألف ومن العثور في رأس الشمرة على لوحات وضعت بنفس تلك الكتابة لكنها كانت باللغة الحورية التي تكاد تكون قرابتها أمراً مستحيلًا.

وقد عادت اللقى والكشوفات التي تمت في رأس الشمرة بمعلومات غزيرة وجديدة حول تاريخ دولة أوغاريت وفنها واقتصادها وكتابتها ولغتها. فبمساعدة تلك المادة المكتشفة صار بالإمكان رسم لوحة مملوسة لحياة تلك المدينة - الدولة السورية الشمالية في القرن السادس عشر قبل الميلاد. وقد وقعت أوغاريت تحت السيطرة العليا لمصر، إلا أنها كانت تمثل مجتمعاً غنياً وزاهراً. وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد دخلت تلك الدولة في صراع مع شعوب البحر التي أخذت تهاجمها من الشمال الغربي. وقد أشرنا إلى أن الآثار الفنية الثمينة التي عثر عليها والتي تشهد بالتطور الرفيع للحضارة المحلية هناك تكشف إلى جانب ذلك الملامح المميزة الخاصة للحضارات المصرية والقبرصية والميكينية والحثية والبابلية. وكانت المدينة مركزاً مهماً على الطريق التجاري بين الشرق والغرب، والذي كان يمتد من بحر إيجه وعبر قبرص نحو الشرق إلى الفرات وما بعده.

وهكذا اكتشفت أبجدية مسمارية ما زال أصلها غامضاً تراقفها لغة كانت حتى ذلك الوقت لغة سامية مجهولة تتميز بخصائصها المميزة على الرغم من صلة نسبها باللغات السامية الأخرى المعروفة.

إن من الصعوبة بمكان إعطاء القيمة الحقيقية لأهمية هذه الكشوفات بالنسبة لتاريخ الدين. فقد عثر على نصوص طقسية، يدور الحديث فيها عن الآلهة وعن القرابين وعن النذور المتعلقة بالتطهر من الذنوب، بالإضافة إلى جرود مختلفة من المعابد. وكان هناك مجموعة أخرى من الألواح تتضمن نصوصاً ملحمية أطول ديباجةً تحكي عن المارك بين الآلهة وعن ولادات أطفالهم وما شابه ذلك. كما أن الكشوفات عرضت الديانة الفينيقية - الآرامية في الألف الثاني قبل الميلاد في ضوء جديد تمام الجدة، وكشفت بصفة نهائية تلك التربة الكنعانية التي نزعرت فوقها ديانة قدماء الموسويين. فإن الأسس الأولى لتلك الديانة لم

تكن بعد قد كشفت بمثل هذا العمق والشمول. فألقاب الآلهة، الذين نعرفهم من «المهد القديم» ظهرت كأسماء أصلية لهم. وتناولت هذه الألواح قصص آلهة الزراعة والخصب، الذين يموتون ويبعثون من جديد، تماماً كما سيرد في الأساطير اليونانية. بل وإن بعض المعلومات مكنت من الوصول إلى استنتاجات جديدة حول أصل الأسبوع ويوم السبت. وأخيراً أظهرت تطابقات مذهلة بين عالم آلهة رأس الشجرة وبين البانتيون الهومييري. وهكذا تأكدت فجأة التقاليد القديمة حول التأثير الفائق القوة لتعاليم الفينيقيين حول أصل العالم والآلهة على أساطير اليونان. لكن أثنى شيء بالنسبة لمؤرخي الأديان كان ما وجدوه في النصوص من بحث ملحا وحار عن المفهوم المتسامي للألوهية وبكلمة أخرى - عن فكرة «الإلهي» الشاملة لجميع الناس. ومن يعلم ربما كان سايس يحدس بذلك الشيء بالذات عندما هتف وهو على فراش الموت.... «متى يقوم فيرولو بنشر نصوص جديدة من رأس الشجرة».

إن هذه التتفة من النص المتعلق بأسطورة موت وعليون بعل، التي نعرضها أمام القارئ كنموذج للأدب الأوغاريتي، لا تتضمن في الحقيقة أي إشارة إلى ذلك التطلع الأبدي إلى «الإلهي» غير أنها مفعمة بتعابير تأسر الروح ببلاغتها وسحرها الشعري الذي لا يجارى. وهذا الأنموذج من التراث الحضاري الأقدم يعرفنا على الخلق الديني للساميين الشماليين الغربيين. «مضى يوم وتالت الأيام وفاض قلب عناة بالحب. كقلب البقرة (التي تحن) إلى عجلها، كقلب النجمة الأم (التي تحن) إلى حملانها الصغيرة، هكذا كان قلبها يحن إلى بعل فقبطت على موت... ورفعت صوتها وصاحت... «أنت يا موت، أعد إلي أخي!» وأجابها موت ابن الآلهة. «ماذا تريدان أيها الفتاة عناة؟» مضى يوم وتالت الأيام، وبعد مضي الأيام وبعد مضي الشهور فاض قلب عناة بالحب. كقلب البقرة (التي تحن) إلى عجلها، كقلب النجمة (التي تحن) إلى حملانها الصغيرة، هكذا كان قلبها يحن إلى بعل. فقبطت على موت ابن الإله، بالسيف شطرته، بالمدق دقته، بالنار أحرقتة، دقيقتاً طحنته، وفي الحقل ذرت جسده لكي تتوشه الطيور وبهذا ختمت حياته».

وعند هذا المكان يفسد النص وتصعب قراءته. ويمكن أن نلمس من الأعمدة التالية أن عليون بعل ظهر مجدداً، غير أن عدوه موت يمود إلى الحياة من جديد بفض النظر عن نهايته الرهيبة.

وقفنا وجهاً لوجه بتلظيان كالجمر، موت القوي وبعل القوي وتصادما كوحشين كاسرين، موت القوي وبعل القوي، وتماهشا كتمبانين، موت القوي وبعل القوي واصطرعا كجوادين، موت الماكر وبعل الماكر... وصاح *ps* ك سبش بموت قاتلاً... «اسمع يا ابن الإلهة

موت، كيف استطلعت أن تقاتل عليون بعل، كيف أظفصم أبوك الثور إيل مسامعه عنك.. وليخرب ملكك، وليحطم صولجان مجدك»⁽¹⁾.

علينا أن نتحدث الآن عن الباحث الثالث الذي عمل على فك رموز كتابه أوغاريت ولفتها، عن إدوارد دورم، خاصة وأن الحديث سيدور بعد هذا عن الكشف العلمي الذي قام به بصورة مستقلة تماماً.

إدوارد دورم، أخصائي في ميدان اللغات المقارنة. كان منذ نعومة أظفاره مأخوذاً بالقوة السحرية للكلمة. فقد كانت تثير خاطره، وهو تلميذ في الجمنازيوم، اللغة اللاتينية واليونانية - تانك اللغتان الميتان والمفعمتان في حقيقة الحال بالحياة والقادرتان دوماً على إثارة الحياة الجديدة. لكن عالم اللغات في المستقبل بدا أيضاً تحت سيطرة اللغات الحية وبخاصة منها الإنكليزية والألمانية.

ومع بداية القرن الجديد بدأت الحياة المستقلة للعالم الفتى (ولد سنة 1881 في أرماتنتير). وفي سنة 1905 وبعد دراسة جديدة للغات ذهبي إلى المدرسة الإنجيلية، في القدس حيث راح يزاوّل نشاطه كأستاذ وكباحث. فكرس نفسه لدراسة اللغات السامية - العبرية القديمة والآرامية والعربية مثلما كرسها بصورة أكبر للعمل على النصوص المسماة السومرية والبابلية والآشورية. وكان أهم عمل قدمه في ذلك الوقت هو «نصوص آشورية بابلية مختارة» ونشره عام 1907. وقد مالت به الاهتمامات العلمية والنشاط التعليمي في المدرسة الإنجيلية إلى تجريب قواه في ميدان آخر غني بالدراسة، ميدان الدراسات الإنجيلية، كما أن العمل على تفسير العهد القديم أيقظ فيه، إلى جانب اللغات السامية، دراسة الكتابات السامية أيضاً. وقد لخص نتائج أعماله في كتابه المشهور «اللغات والكتابات السامية» (*Langues et écritures semitiques*) الذي نشر سنة 1930.

بالطبع ما كان للأعمال التي ذكرناها أن ترى النور لو أن السلطة العليا لمؤلفها لم تكن منبسطة على الميادين الأخرى للمعرفة، وعلى اللغات المقارنة أيضاً. فدورم - الباحث كان يعتمد دوماً على التجربة الكبرى لدى دورم - العالم الأثري الذي كان قد قام بعدد من الحفريات في فلسطين على نهر الأردن وفي شرق الأردن وفي مصر وفي سيناء وفي لبنان وفي حوضي دجلة والفرات أيضاً.

نضيف إلى هذا أن دورم كان خبيراً في ميدان يبدو للوهلة الأولى بعيداً كل البعد عن عالم العلم مما يعني أنه بعيد أيضاً عن علم اللغات والآثار إلا أنه في الوقت نفسه يطرح

1- J Fiedrich. Ras Schamra. Din Überblick über Funde und Forschungen - Der Alte Orient . Bd 33 , Hft 1/2 , Leipzig , 1933 , S. 32 f.

إمكانات خاصة للتدريب بالنسبة لقارئ رموز الكتابات المجهولة. فخلال الحرب العالمية الأولى وبعد العودة من الحملة العسكرية الفرنسية إلى الدردنيل وماكدونيا أخذ على عاتقه تنفيذ المهمات المتعلقة بفك رموز شفرات البرقيات التي تلتقط من العدو. وكان هذا العمل يتجاوب بصورة رائعة مع الميول الخاصة لدورم، وكما يؤكد ذلك العالم حتى الآن فإنه مدين لها حتى يومنا هذا بالتوجيهات المنهجية الثمينة في حل رموز الكتابات المجهولة⁽¹⁾.

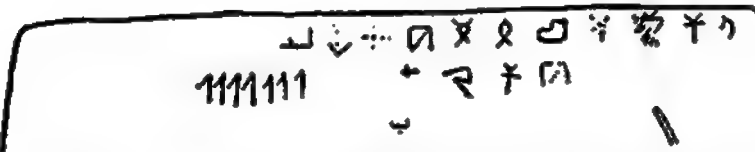
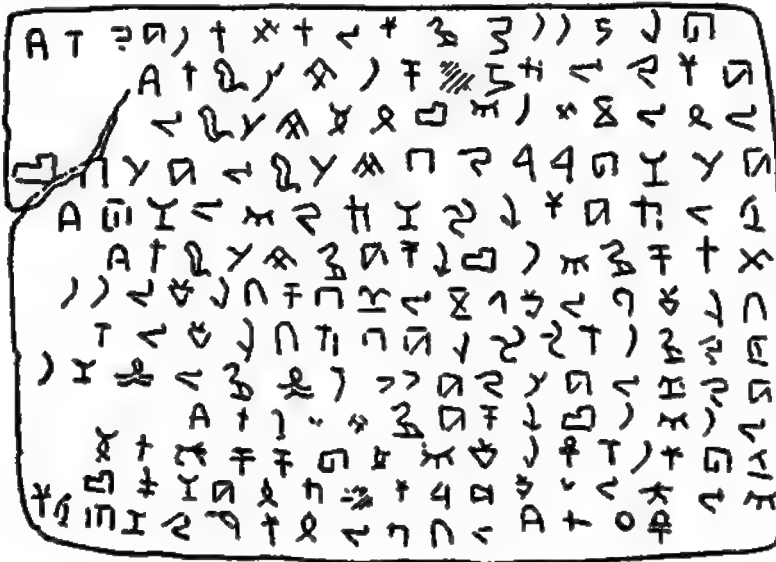
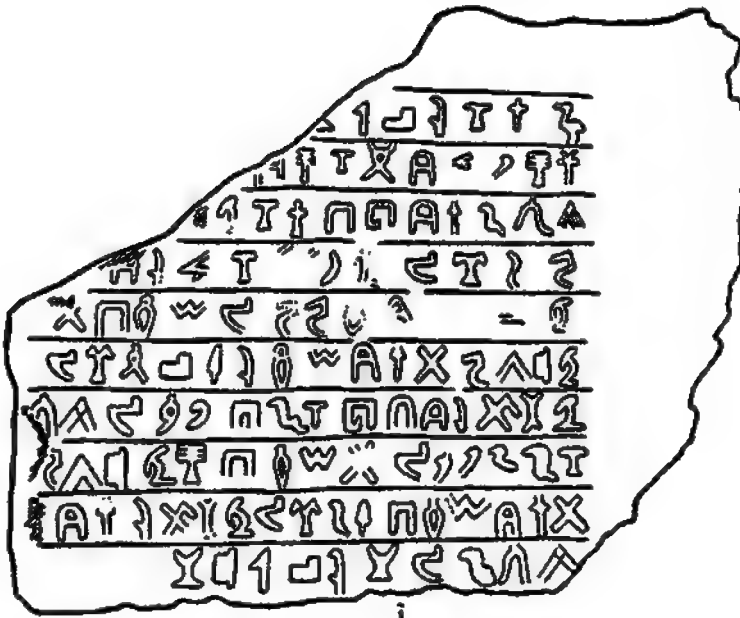
ويعد أن أنهى دورم نشاطه التعليمي في القدس أسندت إليه مهمة الأستاذية في المدرسة التطبيقية للمعارف العليا في السوربون، والتي كان مديرها، كما نعلم، شارل فيرولو. وفي سنة 1945 صار دورم أيضاً أستاذاً في الكوليج دي فرانس.

لقد رأينا فيما سبق كيف تألق المستشرق دورم كخبير في فك الرموز على الفور بعد الحفريات الفرنسية سنة 1929 وذلك عندما استخرجت من رأس الشجرة الألواح ذات الكتابة المسمارية المجهولة. وقد كان دورم في المكان المطلوب عندما تم أيضاً اكتشاف عدد كامل آخر من اللقى الرفيعة المستوى حتى أبعد حد. ونقصد بهذا نتائج الحفريات الفرنسية الحافلة بالجنى في مدينة جبيل الفينيقية القديمة. فبين الكشوفات الأخرى تم العثور هناك على مسلتين حجريتين وعلى لوحين برونزيين وبمض الفؤوس وعدد من شظايا الألواح الحجرية - وكل ذلك مغطى برموز كتابية لم يشهد لها أحد مثيلاً قبل ذلك! فالحديث في هذه المرة لم يعد يتناول الإسفينات بل رموزاً تتشابه مع الهيروغليفات المصرية حتى أطلق عليها بنتيجة ذلك تسمية لم تكن موقفة إلى حد كبير وهي «كتابة جبيل شبه الهيروغليفية».

وجبيل نفسها - واحدة من أقدم المراكز الحضارية لفينيقيا إلا أن اسمها الأوروبي، بيبيل، ليس قديماً بقدم المدينة، فهو ينبثق عن اليونانية بيبيلوس (وصيفته الأقدم «بويلوس») أي الورقة، وقد أطلقه عليها اليونانيون - فمن ذلك المركز التجاري العظيم كانوا ينقلون الورق من مصر⁽²⁾ ولكن بما أن المدينة كانت في بادئ أمرها تحمل اسم جبلة (الآن جبيل) فإن لفظ بويلوس - جبلة كان يمكن أن يلعب دوراً واضحاً أثناء تغيير اسم المدينة. ومن اسم «جبلة» اشتق مصطلح «الكتابة الجبلية» وقد بدأ باستعماله انطون بيركو، عالم الساميات من بون. ومن الأفضل أن يعطى هذا المصطلح الأفضلية على أمثال مصطلحي «شبه الهيروغليفية» و«كتابة «ما قبل جبيل».

1- من رسالة العالم الى المؤلف بتاريخ 11 آذار (مارس) سنة 1957.

2- الحديث يدور عن البابيروس طبعاً وهو البردي.



الشكل -66- آ- بلاطة حمل نقشا تذكاريًا بكتابة جبيل. ب- لوحة برونزية مغطاة بنقوش من جبيل؛ الى الأعلى - وجه اللوحة. الى الأسفل. الوجه المقابل

إن تلك المكتشفات الأثرية الجديدة في جبيل، والتي تعود إليها، كما هو معروف، أقدم الكتابات بالفينيقية الحرفية (القرن العاشر تقريباً قبل الميلاد) قد تم جمعها ونشرها في كتاب عنوانه «*Biblia Grammata*» أصدره في بيروت، سنة 1945، ديونان، عالم الآثار الكبير ومدير الحفريات. وما هي إلا سنة واحدة حتى قدم إدوارد دورم القراءة الجاهزة لها لنشرها في «تقارير» الأكاديمية الفرنسية للنقوش (عدد آب، أيلول سنة 1946) في مجلة «سوريا» العدد XXV، 1946-1948).

انطلق دورم في بحثه من فرضية واحدة وملاحظة فريدة. إذ افترض أن اللغة التي أمامه - لغة سامية وبكلمة أدق - فينيقية. فتاريخ جبيل الذي درس بصورة جيدة يدل على انعدام أي تأثير غير سامي على هذه المنطقة.

أما ما يخص الملاحظة، فإنها كانت نتيجة لاستخدام تلك القاعدة الأساسية نفسها في فك أي رموز، والتي كان الباحثون يواظبون على استخدامها: فقد بدأ دورم بإحصاء الرموز التي أمامه فتحصل منها على ما يزيد عن الـ 70 (وعلى فكرة فإنه لم يحسب الأشكال المختلفة للرمز الواحد) وانتهى به ذلك إلى القول بالطابع المقطعي لتلك الكتابة، فمن المعلوم أن 70 رمزاً هو رقم كبير جداً بالنسبة للأبجدية وزهيد جداً بالنسبة لكتابة أيديوغرافية.

ومع كل هذا فإن دورم لم ينتقل على الفور إلى البحث عن الدلالات اللفظية للمقاطع. فلو قامت في أساس هذه الكتابة المعطاة لغة فينيقية - كما افترض دورم، لكان بمقدوره على الفور أن يصل إلى إمكانية قراءة المدونة بمجرد الكشف عن «الهيكل» البسيط للنص، والمتكون من السواكن بمفردها. وعلى هذا فإن دورم على الرغم من أنه كان يتعامل فقط مع رموز مقطعية (من فئة ساكن + صائت *bu, bi, ba* أو صائت + ساكن - *ub, ib, ab*) كان يكفي في المرحلة الأولى أن «يعيد» من كل رمز مقطعي مماثل الساكن الثاوي فيه ليكون بإمكانه القراءة عن طريق هذه السواكن فقط على نحو ما هو معمول به في أي لغة سامية. وقد لقيت ملاحظات دورم فيما بعد تجسيدها المادي في جدول الرموز المكتشفة (الشكل 67) حيث جمعت الرموز عنده لا وفق لفظها المقطعي (مثل *bu, ba, bi* أو *mu, ma, mi* وما شابه ذلك) بل فقط كـ *b2, b1, m* أو *m2, m1, m* وهكذا.

Y, Y	o
Δ	o ₁
⊗, ⊙, ⊕	o ₂
⊖	o ₃
⊗	o ₄
X	o ₅
⊖	o ₆
⊕	o ₇
∇	o
∩	o ₁
∪	o ₂
X, X	o ₃
∩	o
∪	o ₁
∩	o
∪	o ₁
∩	o ₂
∪	o ₃
∩	o ₄

»	w ₁
F, ±, †	z ₂
⊕	z ₁
⊖	z ₂
⊗	z ₃
⊙	h
⊕	h ₁
⊖	h ₂
∩	j
∪	j ₁
∩	j ₂
∪	j ₃
X, X	k
∩	k ₁
∪	k ₂
∩	k ₃
∪	l
∩	l ₁
∪	l ₂
∩	l ₃

⊕	l ₄
∩	m
∪	m ₁
∩	m ₂
∪	m ₃
∩	n
∪	n ₁
∩	n ₂
∪	n ₃
∩	c
∪	c ₁
∩	c ₂
∪	p
∩	p ₁
∪	p ₂
∩	p ₃
∪	p ₄
∩	f
∪	k
∩	r

4, 1	r ₁
∩	r ₂
∪	r ₃
∩	l
∪	l ₁
∩	l ₂
∪	l ₃
∩	l
∪	l ₁
∩	l ₂
∪	l ₃
∩	l ₄

الرقم 1 = I

من المحتمل ان L1, L2 يتخذان معنى واحداً

الشكل -67- جدول رموز جبيل الكتابية

ولنتقل الآن إلى وصف القراءة نفسها، ولو تقرينا باحثين عن مكان يناسب ما يسمى بيضة كولومبوس⁽¹⁾، لما وجدنا أكثر ملاءمة من هذا. ولكي تسهل علينا متابعة أفكار الباحث يجدر بنا أن نضع أمامنا مجدداً الوجه المقابل للوحة البرونزية (ج).

ربما يتنبه القارئ على التو إلى «الوحدات» السبع المطروقة على الجهة اليسرى من (الشكل 68) وقد ثبت دورم عليها نظرتة المجرية. وسرعان ما خرج باستنتاج ما كان أهونه! فسبع وحدات يساوي سبعاً.

وهكذا فسّر الوحدات السبع القائمة إلى جانب رمز آخر على أنها «سبعة» ولكن إذا كان هذا رقماً فربما يكمن في هذا المكان تاريخ.

أما الرقم سبعة أي إلى اليمين منه (فالمدونة يجب أن تقرأ من اليمين إلى اليسار) توجد أربعة رموز Δ γ δ ϵ أولها أي الأيمن من بينها Δ معروف من الفصول السابقة - وهو أحد أشكال حرف b وربما يعني ذلك، حسبما فكر دورم، بأن الحديث يدور عن تاريخ السنة؟ «سنة» وهي بالفينيقية m b - f أي انه يعبر عنها من خلال أربعة سواكن؛ ولكن هنا أيضاً، أمام الرقم، تقف أربعة سواكن ربما يكون الأول منها b لا يمكن أن تكون Δ γ δ ϵ مطابقة لـ m b - f لو أن الأمر كان كذلك لوضعنا أيدينا على معاني أربعة سواكن دفعة واحدة.

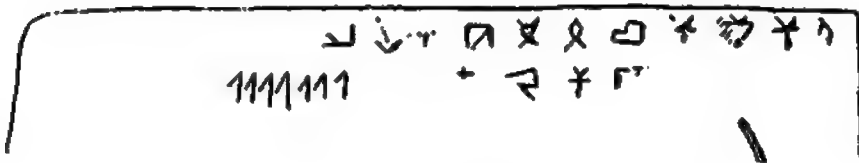
اتخذ دورم، في بادئ الأمر، من هذه المماني الأربعة أطروحة عمل وراح يبحث عما يؤكدها. وإلى جانب هذا تعرف في تلك المدونة نفسها على مجموعة رموز تظهر في الترتيب X - f - m - وساعدته في ذلك فرضية انطلقت من أعماق خبرته الطويلة كعالم (وقد كان

1- في مقال للأديب المؤرخ الكبير الدكتور شاكور مصطفى بعنوان «هذا الثالث الماسي الذي انكسر» ورد ما يلي: «وذاث مرة كان في الحانة وسمع قائلاً يقول: وماذا فعل كولومبوس؟ إنه لم يزد على أن ابجر غرباً غرباً حتى وصل! ولم يمر كولومبوس أذنه للاستهزاء المرير. ووقف على منضدته وقال: إنه تعلم في البلاد الجديدة لعبة وتحدي من يستطيعها، واتى ببيضة وتحدي من يستطيع إيقاف البيضة على أحد راسيها. وحاول الجميع ذلك عبثاً. حين فشلوا أخذ كولومبوس البيضة وضربها على وجه الطاولة فانكسرت ووقفت على قاعدتها وصاح الجميع: ولكن هذا سهل، كل إنسان يستطيعه! قال: حسناً، ولكن هل فكر أحدكم فيه؟» مجلة العربي العدد 343، حزيران، 1987، ص 33 (المترجم).

فوزير يعتمد على مثل هذه الفرضية في قراءة رموز الهيروغليفيات الحثية) - ونقصد بها فرضية الترابط المتناظر بين ما هو مكتوب على الشيء وبين الشيء نفسه. لقد كان النص منقوشاً على لوحة برونزية. وفي اللغات السامية هناك كلمة «ن ح ش» mhs بمعنى «البرونز»، «النحاس». ومعنى هذا أنه صار بالإمكان افتراض معنى آخر هو h الذي ساعد بدوره على قراءة كلمة «مذبح» - $mzbh$ بمعنى «منبر»، «مذبح». وقد كان اكتشاف m ذا أهمية خاصة بالنسبة لدورم من أجل التوصل إلى الإثبات الأول لفرضيته. وبمساعدة هذا الرمز استطاع بعد ذلك أن يكشف في السطر 14 (السطر الأول من الوجه المقابل للوحة، والتي كان سطرها المقابل الثاني، أي الخامس عشر، يتضمن الإشارة إلى العام) تاريخ الشهر $b-imz$ «ب ت م ز» أي في لشهر تموز، وفي الوقت نفسه ظهر رمز z الذي حدده دورم على أساس أنه zi .

وهكذا تم تحديد الشهر والعام، والآن، ألم تبدأ البحوث عن تاريخ الشهر بالمطالبة بالبحث عن نفسها في صيغة اسم العدد؟
لنلق نظرة ثانية على السطر 14. إن الرموز الأربعة الأخيرة (أقصى اليسار) وبالذات رموز z لا تتضمن، بناء على ما سبق السواكن $ZIm-b$ أو $b-imz$ حسبما اعتدنا أن نقرأ ونكتب، أي في لشهر تموز؛ وهكذا يكون ما يظهر أمامها، وبكلمة أخرى ما يقف إلى اليمين منها، يمكن أن يكون العدد الصحيح.

يظهر الرمز ψ الذي كنا قد تعرفنا عليه في السطر الأخير ك z مرتين وبين هذين الرمزتين هناك رمز لم يعرف بعد، لكن عالم الساميات المحنك لم يكن بحاجة إلى أن يصدع رأسه طويلاً في البحث عن حل تلك الأحجية. فقد قرر على الفور بأنه أمام كلمة dz «ش د ش» التي تعني ستة و «السادس» وواصل بحثه فوجد بعد تلك الكلمة (أي إلى اليسار منها) كلمة $m-jm$ «يوم» والطريف أنه اكتشف صورتين لرمز m .



الشكل -68- الوجه المقابل من اللوحة البرونزية من جبيل.

وهكذا أنجزت قراءة الوجه المقابل للوحة البرونزية b-šdsš jm-m b-tmz- bšnt7 أي في اليوم السادس من تموز في السنة السابعة.

يمكننا أن نتخيل ما حدث آنذاك في أعماق نفس ذلك الباحث: «إن أجمل يوم في حياتي العلمية كقارئ للرموز كان يوم اكتشفت «الأبجدية» الفينيقية في نصوص رأس الشمرة و «المقطعية» الفينيقية في لوحات جبيل شبه الهيروغليفية. ولكن كم من الليالي الساهرة من العمل على قراءة تلك الرموز قد سبقت «هلوياس» ذلك الاكتشاف»⁽¹⁾

واستوجب الأمر بعد ذلك كثيراً من العمل الدائب ومن التصويبات المتكررة قبل أن يتمكن دورم من التقدم بنتائجه إلى الأكاديمية الفرنسية للنقوش في الثاني من آب (أغسطس) سنة 1946. وفي مقالته «قراءة رموز كتابات جبيل شبه الهيروغليفية»⁽²⁾ قدم قراءات مقننة لجميع النقوش المكتشفة والتي كان ديونان قد نشرها قبل عام من ذلك كما قدم للعلماء براهين مقننة في صالح دقة فكاه للرموز وصواب قراءاته.

لكن، على فكرة، كان أحد البراهين المقننة ينحصر في مضمون القراءة الأولى للوحة «ب» نفسها (الشكل 66 ب). فالحديث فيها لم يتناول الآلهة ولا الملوك ولا قضايا الحرب والسلام، بل لو كان الأمر على هذه الشاكلة - لتطرق بعض الشك في أي يكون صاحب القراءة قد قام، قبل استخراج تلك الإخبارية من النص، والمتشابهة بصورة عامة بالنسبة لجميع اللوحات ب «إسقاطها» على النص دون إرادة منه. لكن الأمور كانت مغايرة لذلك بالنسبة للمدونة التي قرأها دورم: إذ إنها كانت، بناء على تفسيره، تتضمن إخبارية النقاش القديم، عن العمل الذي أنجزه ورفاقه من أجل تزيين المعبد. وكان هذا الموضوع مفاجئاً إلى درجة أنه قطع على الفور كل لوم يمكن أن يوجه إلى القارئ على أنه قادر على تضمين النص تفسيراً يجعل الباحث ينطلق من واقع الحال فيقرأ فيه ما يريد لاما هو مشتمل عليه في الحقيقة.

1- من رسالة إلى المؤلف بتاريخ 11 آذار (مارس) سنة 1957.

2- E. Dhorme, Déchiffrement des inscriptions pseudo- hieroglyphiques des Byblos -Syria- t.XXY , 1946-1948 , pp. 1-35.

أما البرهان الحاسم الثاني فهو: إن دورم قد استطاع لتوّه، وعلى أساس المدونة المنقوشة على اللوحة البرونزية الأولى وبه أن يقرأ المدونة الأخرى الأطول ديباجة بكثير فوق اللوح البرونزي الثاني الكبير! وكانت بدورها تحمل مضموناً مماثلاً.

ثالثاً - وفجأة وجد في هذه المدونة الأخيرة عدد خارق للمعادة من أسماء الآلهة المصريين. وعلينا أن نفترض أن صاحب القراءة ما كان يفكر بذلك عندما بدأ قراءته. وتؤكد دقة الحل الذي طرحه دورم أيضاً بعدد وافر من المعطيات الفيلولوجية، وبخاصة منها المعطيات القواعدية لكننا لن نتوقف عند هذا.

وعلى هذا فإننا نستطيع أن ننظر بكل ثقة إلى هذا التفسير الذي قدمه إدوارد دورم للكتابة. وكتابة جبيل ليست بعد الوسيلة الكتابية المثلى لنقل الأفكار. ومن السهل فهم ذلك. فمما لا شك فيه أن مخترع الكتابة (وتعود آثارها إلى 1700-1900 قبل الميلاد) وضع نصب عينيه الإسفينات الآشورية - البابلية، ومن هنا جاء الطابع المقطعي للكتابة، إلا أن الرموز المقطعية الأولى أخذت، بفعل خاصية اللغات السامية، تفقد مبكرة تمايزها، فصارت تستعمل غالباً دون تمييز فيما بينها بل من خلال ما تشتمل عليه من سواكن وتمكس هذه المرحلة من تطور الكتابة بصورة كافية إلى حد ما في جدول الرموز المكتوبة (الشكل 67) الذي صورت فيه الصيغ المتكررة للسواكن.

سبق أن عرضنا على القارئ أكثر من مرة أمثلة من اللغات والآداب التي صارت بمتناول أيدينا بفضل قراءات الكتابة. فكانت في بعض الحالات تفتح أمامنا شخصية هذا الشعب أو ذاك، حامل اللغة ومخترع الكتابة - وكانت في حالات أخرى تقترب من القارئ المعاصر بفضل مغزاها البليغ وبفضل الطابع الإنساني الشمولي للأقوال الحكيم التي تشتمل عليها، أولم تكن نادرة تلك الحالات التي فعل فيها هذان العاملان فعلهما. وهكذا سمعنا كلمات الحكام وسمعنا الضراعات والأساطير حول الآلهة والكهانات. أما هنا، وكممثل لمدينة جبيل القديمة فيتكلم عامل بسيط، إنه ذلك العامل الذي ألقى بنظره ذات مرة، وبكامل الإحساس بالغبطة، إلى ما أبدعته يده فنقش إخبارية عن إنجازته الناجح فوق لوحة برونزية، دون أن يخطر له أنه قد قبيض لها أن تكون، بعد ما يقارب الأربعة آلاف من السنين، مفتاح فك لرموز تلك الكتابة الموهلة في القدم والتي عفت آثارها منذ آمام بعيدة.

«ليل: طرقت نحاس توييت. بسنان الحديد نقشتها، هذه الأشياء، أما مفتاح المعبد
لفطرقته) لأكارين ونقشت فوقه سمة وكتبت اسماً، ثم وضعته، ذلك المفتاح، عندما نقشت
تاج... المذبح، هذا العمل على شرف أسرتي، عملته لليل... أنجزت ذلك في عهد الحاكم
ايوش في اليوم السادس من تموز في العام السابع»⁽¹⁾.

1- A. Jirku, Wortschatz und Grammati des gublitischen Inschriften,-Zeit-schrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, Bd. 102, 1952, S. 206 f.

من الضروري ان نشير بالنسبة لأولئك القراء الأقرب إلى هذا الموضوع ان المؤلف يدرك جيداً وجود
العلاقة الوثيقة بين كلا الكتابين الحديثي الاكتشاف، واللذين كاننا موضوع هذا الفصل وبين
مشكلة كتابة سيناء ومشكلة ظهور الأبجدية ككل ولكن، بما ان دراسة القضية الأخيرة تخرج عن
إطار هذا الكتاب، وبما ان الفرضيات المتعلقة بالمشكلة لا تزال قيد الأخذ والرد فإن المؤلف مضطر
إلى عدم التوقف عند هذه القضايا.

آلهة و نجار

فك رموز الكتابة المقطعية القبرصية

واحد من أعظم اكتشافات العصر الحديث

موريس شميدت

في تعليقه على دراسة يوهانيس برانديس

«أما إحصاء المشاعل فكان من عمل زوفار... ميجالوفيروس وفيلودام، أما حساب ما جمع من تبرعات فكان من عمل زوفار وافروديسيوس». ذلك ما ورد في منقوشة إهداء عشر عليها شمالي قبرص.

وتعود المنقوشة إلى القرن الخامس قبل الميلاد. ومن الواضح أن سكان الجزيرة لم يكونوا يقومون بأعمال هذه الحسابات الدقيقة في ذلك الوقت فحسب بل وفي وقت أبكر من ذلك أيضاً. وعلى فكرة فعلى أساس الاكتشافات التي عثر عليها في قبرص عرف أن الجزيرة كانت مأهولة في الألف الثالث قبل الميلاد وأنها في الألف الثاني قبل الميلاد كانت تقوم بتجارة ناشطة مع مصر وفلسطين. وكانت «المركز الكبير للمتعددين في الشرق القديم» (ديرينغير) ونقطة الارتكاز المأمولة من طرف آسيا الصغرى وسوريا في البحر الأبيض المتوسط، إذ لم تكن تفصلها عن مصر وكريت غير بضعة أيام من السفر. وربما استوطنها اليونان عند تخوم الألفين الثاني والأول قبل الميلاد - وتم الأمر دون احتلال أو قفزة بالسلاح، فالواضح أنه قد تسنى لهم الانتشار في الجزيرة بطريقة سلمية، لكن التجانس التدريجي الذي قام به السكان قبل اليونانيين أدى إلى اضمحلال الفن والثقافة المحليين. وأعد القدر للجزيرة الواقعة في مركز تقاطع ثلاثة تأثيرات ثقافية (ثقافة آسيا الصغرى - الثقافة السورية - الفلسطينية والثقافة المصرية) تاريخاً يتسم بالكثير من التعقيد والتشابك. ففي الجنوب حيث البلاد الجبلية تتعدر انحداراً مائلاً نحو البحر مشكّلة السهول

والأماكن المناسبة لإقامة المدن بدأت تظهر مستعمرات الفينيقيين منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد، ثم تبدأ مرحلة سيطرة الآشوريين منذ نهاية القرن الثامن. وقد شهدت قبرص قدوم الفرس والمكدونيين وخروجهم وشهدت سلطان الرومان والبيزنطيين من بعدهم. ونجد بين حكامها أيضاً ريتشارد قلب الأسد - أول إنكليزي - حاكماً على القبارصة، وقد استقر هنا مدة قرن كامل قبل أن يعمد أحفاده سنة 1878 إلى اكتراء الجزيرة من الأتراك الذين بقيت الجزيرة في قبضتهم ما يزيد عن 300 سنة. وقد استأجرها الإنكليز بادئ الأمر بهدف حماية قناة السويس وطرق الهند ثم ضمّوها إليهم بصفة نهائية سنة 1913⁽¹⁾. إلا أن الإغريق استطاعوا المحافظة على الطابع الوطني للجزيرة. ويشهد على ذلك الأثر الذي لعب دوراً حاسماً في تاريخ فك رموز الكتابة القبرصية. ونقصد بحديثنا تلك المدونة التخصيصية العائدة إلى القرن الرابع قبل الميلاد والتي خلفها أحد أعيان الفينيقيين وكان يعيش في عهد حكم ملك فينيقي على المدينة. وقد وضعت المدونة بالفينيقية وباللغة اليونانية (وضع النص اليوناني بالكتابة المقطعية القبرصية) وبذلك أصبحت تلك الشائبة المنتظرة نفسها، المفتاح إلى فك رموز الكتابة.

إن من الصعوبة بمكان القول أن من الأمور الطبيعية أن لا يتعرّف العلم على المنقوشات والقطع النقدية والميداليات التي حضرت فوقها رموز الكتابة القبرصية المقطعية إلا في عام 1850. فالحديث هنا يدور حول قبرص التي تحتفظ بأعداد كبيرة من العاديات بفضل تاريخها العاصف! وقد وجه الكثير من اللوم إلى الإنكليز الذين لم يقوموا إلا بالنذر اليسير من أجل دراسة تاريخ الجزيرة. وهذا اللوم لا مبرر له في الحقيقة إلا بصورة جزئية.

ومهما يكن من الأمر، فإن الباحث الأول في البلاد لم يكن إنكليزيا كما لم يكن قبرصياً يونانياً أو تركياً بل كان فرنسياً اسمه: أونوريه تيودور بول جوزيف دالبير، دوق لوبن (1802-1876) وهو عالم آثار وجامع قطع نقدية مشهور، عاش فترة طويلة في نابولي وخلال زيارة شامبليون لإيطاليا قام الدوق بعدة زيارات إلى روما إكباراً لابن بلده العظيم واختصه بأعمق واجبات الاحترام. ومما لا شك فيه أن هذه اللقاءات تركت أثراً عميقاً في نفس الدوق. يضاف إلى هذا أنه كان رسّاماً ممتازاً، وعين الفنان تستقطب بكل وضوح أشكال الرموز الكتابية - فكثير من قارئي الرموز كانوا يرسمون جيداً.

1- حصلت قبرص على استقلالها سنة 1960.

كان الدوق لوين أول من أيقظ الاهتمام في العالم المنحضر نحو بقايا الكتابة القبرصية. ففي سنة 1852 أصدر في باريس مقالة «علم النميات والنقوش الكتابية القبرصية» (*Numismatique et inscriptions chypriotes*)، حيث قدم وصفاً مسهباً لجميع الصور والآثار التي وجدت هناك حتى ذلك العصر. وكانت المجموعة تضم عدداً كبيراً من النقود القديمة والنقوش الكتابية ومن بينها واحدة كادت أن تصبح شيئاً مصيرياً بالنسبة للعلم. وتمثل نقشاً كتابياً يتضمن 31 سطراً مطروقاً على لوحة برونزية عثر عليها في أرض إيداليون القديمة. ويبدو أن حجم المدونة الكبير من الناحية النسبية كان سبباً في أن الدوق، الذي كان قد عزز دراسته بتقديم دليل لجميع الرموز المعروفة بالنسبة له، قد أهاب بالباحث الألماني ريوت لمحاولة فك رموز الكتابة القبرصية. ولم يسمح هذا الأخير لنفسه بأن يهدر الآخرون وقتاً طويلاً لإقناعه... وبذلك اقتراف خطيئة كبرى أمام الفكرة الأساسية لأي شكل من أشكال قراءة الرموز. فكيف كان يمكن الشروع بحل تلك الرموز في وقت لم تكن قد عرفت بعد لا نوعية الكتابة ولا لغة الآثار! من الطبيعي تبعاً لذلك أن تنسب نتائج جهوده إلى حقل «العجائب في عالم العلم» كما أشار برانديس، المتخصص الألماني في علم المسكوكات (بلهجة ملطفة إلى حد كبير).

أما ريوت، الذي كان دون شك على علم بالحقبة الفينيقية في تاريخ قبرص المتعدد الألوان، فقد افترض أن بإمكانه أن يتوصل بطريق مقارنة ما يزيد عن 50 رمزاً من رموز الكتابة القبرصية بـ 22 حرفاً من حروف الأبجدية الفينيقية، إلى تحديد الدلالة اللفظية للمجموعة الأولى. ومن خلال السير عبر هذا الطريق، والانطلاق أساساً من الأشكال الظاهرية للرموز، راح يقارنها بالحروف الفينيقية وبهذه الطريقة توصل إلى كلمات «تعرف» فيها على التو (أو، في الحقيقة، أجبر نفسه على التعرف عليها) على صيغ سامية. وكانت ترجمته على حد تعبير برانديس نفسه «استهتاراً بكل لون من ألوان المعارف البشرية»⁽¹⁾ وهي تؤخذ دوماً على أنها الأنموذج الخالد لما يجب التوقي منه.

1- من اللوحة التي ذكرناها سابقاً والمستخرجة من دالي (إيداليون) استنبط ريوت بيان الفرعون المصري اماسيس (ياخموس، 568-525 ق.م) ومما يذكر ان الدوق كان منقفاً معه في ذلك



الشكل -69- الثنائية الفينيقية - القبرصية. وثيقة ايداليون

وفي تلك الأونة بدأت فترة النشاط العاصف للإيطالي بالم دي تشيستول، الهاوي، جامع التحف، الذي كان سنة 1865 يعيش في قبرص كقنصل أمريكي. أما المجموعة التي جمعها (35 ألف قطعة) فهي محفوظة الآن في متحف الفنون الجميلة في بوسطن. كما أن دبلوماسياً آخر، هولينغ، القنصل الإنكليزي في لارناكا، عثر في مكان غير بعيد عن ايداليون على ذلك النقش الكتابي السالف الذكر، وهو الثنائية المكتوبة باللغتين «القبرصية» و«الفينيقية». وعلى الرغم من أنها لم تكن كاملة إلا أنه كان يمكن أن تكون أساساً لحل الرموز ونقطة انطلاق لها.

أما نقطة الانطلاق التي اعتمدها لينغ فكانت «التقارير» العلمية للجمعية اللندنية لعلم الأثرية التوراتية. وقد أظهر جورج سميث، وكان واحداً من أوفر الأعضاء توفيراً في تلك الجمعية، (وقد ارتبط اسمه، كما نعلم، بالكشوفات في حقل الكتابة المسمارية)، اهتماماً حياً بالكشوفات الجديدة فأنبت أن أباه بالمعمودية في العلم كان رولينسون؛ إذ انصرف إلى الثنائية الفينيقية - القبرصية بنفس الطريقة التي انصرف بها أستاذه إلى دراسة اللغة الفارسية في مدونة بيهستون.

فهو في بداية الأمر يريد أن إلى مجموعات الرموز، التي يمكن أن تتضمن أسماء أعلام. أما لقب الملك ميلكايتون واسمه فقد سبق للينغ أن افترض وجودهما في مجموعة واحدة. وكان الاسم نفسه متضمناً أيضاً في الصيغة الفينيقية وإن كانت قد تعرضت لكثير من العطب كما يظهر في (الشكل 69). إلا أن بالإمكان، بمساعدة مدونات مشابهة أخرى، التوصل إلى وضع تصور عن مضمون الجزء الساقط. وهكذا فإن الصيغة الفينيقية كانت تخبر بأن الوجيه الفينيقي بعلروم، ابن عبدملك، أقام في السنة الرابعة من حكم الملك ميلكايتون، ملك كيتيون وايداليون، وكآية للشكر، تمثلاً لمعبوده ريشيف المكني (الأبولون الأميكلي، ففي اللغات السامية لا يكتبون الصوتيات) فالمدونة بناء على ذلك قدمت، في مجموع ما قدمته، أسماء أعلام: ميلكايتون، ايداليون وكيتيون. وبعد ذلك قام سميت بتطبيق المعاني اللفظية لمجموعات الحروف الفينيقية على تلك المجموعات من الرموز القبرصية التي تكمن وراءها، برأيه، تلك الأسماء الأعلام. ومن خلال تجريته القبرصية كباحث في الكتابة الإسفينية عرف سميت أنه في حال وجود 55 رمزاً لا يتبقى هناك مجال للحديث عن كتابة أبجدية. فلا يدور الحديث إلا عن كتابة مقطعية. وهكذا فهو يكتشف مقطع (ك) *li* من كلمة ميلكايتون (ف *mi-li-ki-ja-to-no-se* في الكتابة القبرصية هي حالة الإضافة لاسم علم) في *e-ta-li-o-ne* «ايداليون»!

وعندما وصلت الدراسة إلى هذه النقطة تدخل مستشار سميت وصديقه القديم والذي سبق أن ذكرناه عرضاً، وهو صمويل بيورثش، وهمس لعائلنا المنكب على فك الرموز، والذي كان معلوماً أنه انصرف في شبابه إلى دراسة الحفر على المعدن لا إلى دراسة اليونانية - بأن كلمة *mlk* «ملك» الفينيقية يجب أن تقابلها كلمة *basileu s* اليونانية. إذ ذلك التفت سميت إلى مجموعة الرموز القبرصية التي تشمل، حسب فرضيته، على أثر لينغ، كلمة «ملك». وكانت هذه الكلمة موجودة في مكانين ولكن بنهايتين مختلفتين. وقد أصاب في اعتباره إحدى الكلمتين في صيغة الإضافة بينما أخطأ في اعتبار الأخرى - صيغة الاسمية.

وعلى هذا فإذا انطلقنا من فرضية الطابع المقلمي للكتابة فإن الكلمة القبرصية يجب أن تبدل الصوت قبل الأخير فيها. لكن الأمر نفسه يحدث في كلمة *basileus* اليونانية إذ إن حالة الإضافة منه تلفظ *basileō s* ومن ذلك توصل سميت إلى استنتاج متمرع بعض الشيء إلا أنه، على ما يحدث عادة في مثل هذه الحالات، كان صحيحاً، وهو أن لفة المدونات القبرصية لا بد وأن تكون يونانية!

وبهذا الاكتشاف وقع مفتاح النقوش في يد سميث. فأسماء الأعلام المشار إليها وكلمة *basileus* أعطته 18 معنى لفظياً. وعلى الفور راح يطبقها على النقوش القصيرة المحفورة على الميداليات، فإذا كان لا بد من البحث عن أسماء الأعلام اليونانية الأخرى، على ما هو متوقع، فإنها لن توجد إلا في هذه الأماكن. وفي واقع الأمر فقد وجد فوق هذه الميداليات مجموعة كاملة من الأسماء المذكورة. ورغم أنه لم يقرأها جميعاً بصورة صحيحة فإن من بين الأسماء التي أصاب في قراءتها كان اسم الملك ايفاغوراس، حاكم قبرص الذي امتد حكمه بين 411-374 ق.م واسمه لا يزال حياً في الموروثات الشعبية.

ونتيجة للكشوفات التي تمت استفد سميث كل إمكاناته أو من الأفضل القول، كل معارضة في حقل اللغة اليونانية. ونحن نذكر أن سنوات المدرسة قد مضت بالنسبة له في ورشة للحفر والنقش، وتلك المعارف الزهيدة في حقل اللغة اليونانية والتي كانت لديه لم تسمح له بالخروج أبعد من نطاق البحث في أسماء الأعلام. يضاف إلى هذا أن اكتشاف ملحمة جلجامش والمعلومات المتعلقة بالطوفان كانا في العام الذي انكب فيه سميث على دراسة الشائبة القبرصية، قد رفعاه إلى ذروة علم الآشوريات، وهو ما يفسر عزوفه عن محاولة الغوص في القضايا المرتبطة بكتابة قبرص القديمة.

وهنا تدخل صمويل بيورتش في الموضوع من جديد إذ قدم البراهين المقنعة على أن اللغة القبرصية، رغم كل التوقعات، يمكن أن تكون يونانية، لا سامية ولا مصرية. والحق أن اللغة اليونانية في النقوش القبرصية التي تم إخراجها إلى الضوء كانت تبدو بريرية إلى حد ما وغريبة ولكن كانت هناك أسس لذلك كله.

أولاً، من السهولة بمكان، وخلال المرحلة الأولى من فك رموز الكتابة المقطعية، الوقوع في الأخطاء، إذ إن عدد الرموز هنا تجاوز إلى حد كبير عدد الرموز في الكتابة الحرفية. ثانياً، لا يمكن الجزم بأن اللغة القبرصية لم تختلف إلا اختلافاً بسيطاً عن لهجات اللغة اليونانية المعروفة آنذاك. ثالثاً، إن للكتابة القبرصية طريقة خاصة في الإملاء تشهد بصورة جلية على أن هذه الكتابة لم تستبطن بصفة خاصة من أجل اللغة اليونانية، بل استعارها المستعمرون اليونان من قدماء سكان قبرص غير اليونانيين. ولإيضاح ذلك نقارن بين وضع كلمات قبرصية وبين الصيغ المقابلة لها (ونقدم التدوين الكتابي لهذا وذلك):
في *pa-ta* = الكلمة اليونانية *pà nta* «كل شيء»، و *te-o-l-se* = *theols* «للآلهة» و *a-ra-ku-ro* = *argyrō* (من *argyrou*): «فضة».

إن من السهل الاقتناع من خلال هذا المثال بمدى نقص وسيلة الأداء في كتابة ما إذا لم تكن قد صيغت بطريقة مقصودة لهذه اللغة. ففي بعض الحالات تحرمنا هذه الخاصية عموماً من إمكانية الحصول حتى على أدنى تصور مهما بلغ من تهاوته عن هذه الكلمة أو تلك. ويشير إ. فريدريك بهذا الخصوص إلى أن كلمة *a-tro-po-se* القبرصية مثلاً تقرأ بأشكال مختلفة هي *à nthropos* «إنسان» و *atropos* «غير متحول»، و *atrophos* «غير بدين» وأخيراً *á dropos* «غير شعبان»⁽¹⁾. ولو أننا حاولنا أن نسردها هنا القواعد المقعدة للإملاء والذي كان على اليونانيين أن يستعملوها من أجل أداء لغتهم عبر هذه الكتابة المقطعية لمضى بنا الطريق شوطاً بعيداً، فنكتفي بإيراد مثال واحد *A-po-ro-ti-ta-i* تعني «الأفروديتا».

وفي سنة 1872، وعندما رأى جورج سميث أن من الضروري تزويد «تقارير» الجمعية اللندنية لعلم الآثار التوراتية بنتائج عمله، كان قد حدد 33 رمزاً مقطعياً، ويرهن بذلك على الطابع المقطعي للكتابة القبرصية. وقد سبق لنا أن أوضحنا أنه لم يستطع بسبب عدم تسلّحه بصورة كافية بمعرفة اللغة اليونانية أن يصل إلى نهاية الطريق الذي شقه بنفسه. ما أغرب لعبة الأقدار! فما حرّمته أحدهم وهبته واحداً آخر وهو لا يزال في مهده بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة.

ولد يوهانس برانديس سنة 1830 في بون في أسرة أستاذ في جامعة رين الحديثة الافتتاح. كان أبوه عالم فيولوجيا وقد اشتغل بدراسة الفلسفة وهو ما حدّد المنحى الأكاديمي لابنه منذ صغره. إلا أن الأب استدعي سنة 1837، بواسطة من شيلينغ، ليشتغل منصب المستشار الشخصي للملك الهلينيين أوتو الأول، وريث العرش البافاري، فسافر مع ابنه إلى اليونان. أما سنوات طفولة يوهانس المحاط بحنان الأبوة، والذي كان شديد الانتباه إلى تعاليم معلمه المنزلي إيرنست كورتسيوس، الذي غدا فيما بعد رائد الحفريات الألمانية في أوليمبيا والمشرف عليها وعالم آثار ومؤرخاً مشهوراً، فكانت مليئة بالانطباعات التي لا تمحى عن أثينا وآثارها، وعن الشعب اليوناني ولغته.

إن السنوات التي مضت في هيلادا: النزاهات بحثاً عن شظايا من الأواني الفخارية الجذابة، الصيف في كيفيزيا، والسباحة في بحر إيجة بين أبراج المراقبة القديمة في مرسى بيروس - كانت تنتمي، خلال حياة برانديس بطولها، إلى قائمة أحب الذكريات إلى نفسه.

1- J.Friedrich, Enzifferung verschollener Schriften und Sprachen, S. 104.

وكان لا يزال طالباً في بون عندما اجتراً فشارك في المسابقة التي أعلنت عنها كلية الفلسفة لنيل جائزة لقاء دراسة تتعلق بالمقارنة بين عادات الأقدمين وبين الكشوفات الأثرية لبوتيا وليبارد. وقد فاز بالجائزة فقدم له ذلك سنة 1854 منصب أمين السر الشخصي لبونزين، صديق أبيه (ونعرف أنه كان حامي ريكارد ليبسيوس وصديقه) بالإضافة إلى زيارة لندن حيث كان بونزين يعمل آنذاك، وهناك تعرف برانديس على بورتش ونوريس.

إن دراسة علم الآشوريات التي بدأها برانديس منذ أن أخذ بإعداد بحثه لنيل الجائزة أوصلته إلى دراسة التاريخ القديم. بل إن تعيينه لمنصب السكرتير الخاص للأميرة البروسية لم ينجح في الحيلولة دون مواصلة أبحاثه الدقيقة وخاصة في حقل تاريخ نظام الأوزان والمشكلة التي ترتبط به وهي قيمة القطع النقدية. وقد توج دراسته حول تلك القضية في بحثه المدعّم بالحجج والذي صدر سنة 1866 حول النظام النقدي ونظم المقاييس والأوزان في آسيا الصغرى القديمة.

وعند ذلك بالذات كان على برانديس أن يقوم بدراسة تاريخ قبرص بصورة جادة. وعندما بلغته الإخبارية المتعلقة بمثور ر. لينغ على الثائية كان في أوج قواه الإبداعية. أما عن اتساع معرفته العريضة بالأدبيات المتعلقة بهذا الموضوع فتشهد على الأقل تلك الحقيقة القائلة بأنه هو بالذات من أنطق المعجم القديم لغيسيكوس الاسكندراني، الذي وضع في نهاية القرن الرابع نوعاً من الموسوعة التثقيفية العامة التي، وإن وصلتنا بصورة بالغة التشوه، إلا أنها المصدر الذي يتضمن معلومات عظيمة الأهمية لا بد من معرفتها سواء بالنسبة لفهم المؤلفين اليونان ونقدمهم أم بالنسبة لدراسة اللهجات اليونانية القديمة. وفي مؤلفات غيسيكوس هذا بالذات كان يستتر، مثلما تختفي حصة من حصى الموزاييك، خبر يقول بأن حرف العطف «و» كان يلفظ لدى قدماء سكان قبرص لاجد Kai، مثلما يلفظه جميع اليونانيين الآخرين، بل بـ Kas. وكانت صحة هذه الملاحظة الصغيرة موضع جدل بين كثير من العلماء المتخصصين غير أن برانديس أمسك بها وأصبحت بالنسبة له المفتاح الأساسي لقراءة الرموز.

إن هذه الكلمات الصغيرة من أشباه «و» كثيرة الورد بالطبع. وبالمقارنة بين المدونات بلغتين تعرف برانديس على كلمة Kas في مجموعة رموز $\text{K} \text{A} \text{S}$ (تقرأ من اليمين إلى اليسار، $\text{I} = \text{Ka}$)⁽¹⁾. وكانت هذه الـ Ka بالنسبة له الحجر الذي أثار من بعده الانهيار الجارف.

1- كان المكتوب في الواقع هو Ka.se إذ لم يكونوا يستعملون في الكتابة القبرصية غير الرموز المشطعية وكان من بينها ما يتكون من صوتي واحد، ولكن في الوقت نفسه لم تكن تستعمل أبداً تلك الرموز المكونة فقط من السواكن، وهو ما لم يكن برانديس يعرفه بعد.

وفي ذلك الوقت كان قد عثر في ايداليون على مدونة طويلة وحيدة اللغة نقشت فوق لوحة برونزية، تتميز على جميع الآثار الأخرى بميزة خاصة: إذ كانت قد حفظت بصورة رائعة. فاصطفاها برانديس موضوعاً لجميع دراساته القادمة. وفيها كان منتظراً أن تجرى أولى التجارب على رمز *Ka*.

اكتشف فوق اللوحة مجموعة كبيرة من الرموز التي ترددت في المدونة بضع مرات. وكانت تبدأ بلقب ملك (كان قد تم التعرف عليه نتيجة لدراسات سميث) يرد بمده الـ *Ka.s* اللذان سلفت إليهما الإشارة يتلوها عدد كبير من الرموز. وبما أن *Ka.s* كانت قد اكتشفت من قبل برانديس فقد كانت المجموعة الغريبة من الرموز يجب أن تتمكنك إلى كلمات *basiLeú s kas agotó Lis* فيرانديس، الذي كان منذ طفولته على معرفة باليونانية ولهجاتها تعرف من توه على *basiLeú s kas (h) a gó toLis* وكانت الكلمة الأخيرة تلفظ بصورة واضحة وكأنها ليست باليونانية، لكن سرعان ما نجح برانديس في التنازل في سرها. إذ إن هذه الصيغة كانت تستعرض بصورة جيدة قانون التناغم اللفظي في اللهجة القبرصية الذي كان بالإمكان شرحه على أساس موازنته باللهجات اليونانية الأخرى فـ *gotó lis* لم تكن غير *ptó lis* «مدينة»، أما الصيغة التي ترددت ست مرات فكانت تعني «الملك والمدينة».

الخطوة الأولى - ويظهر بالحل المقنع إقناعاً جدياً للمشكلة: فالمدونة وضعت في إحدى المدن - الدُول. وبالطبع لم يتوقف برانديس عند هذا فمفتاحه *ka* كان ملائماً بصورة جيدة للمجموعة الأخرى من الرموز التي كانت تقابل في الفينيقية كلمة «هو بنى». ومقطعاً بعد مقطع انكشفت الكلمة اليونانية *Katé stase* «هو بنى»، وبعد قليل برزت *Kasignetos* «أخ» ولعبت الكلمتان الأخيرتان دوراً بالغ الأهمية في مقارنة جدول المقاطع القبرصية الكامل. وفي الوقت نفسه تم الحصول على مجموعة كاملة من الماني المقطعية.

صبَّ برانديس النتائج الأولية لما أنجزه من عمل في مقال «محاولة فك رموز الكتابة القبرصية»، لكنه لم يتمكن من تقديمها إلى أكاديمية برلين على نحو ما كان مخططاً. فقد كان يقف على مشارف جني حصاده عندما انقضى حصان آخر على ذلك الباحث الذي لا يكَل، فتوفي يوهانس برانديس في الـ 8 من تموز سنة 1873 في لينتس على الدانوب في طريق عودته من فيينا وهو في أوج ازدهار قواه ونشاطه العلمي والعملية. وبقي على أستاذه السابق، صديقه ومنفذ وصيته أرنيست كورتمسيوس، حق تقديم التقرير إلى الأكاديمية المذكورة عن الكشف الذي تم.

والحق أن الموت حمل برانديس وهو في أواخر عمله، ولهذا فإن نتائج بحثه لم تكن كاملة، ولم تكن صحيحة بصورة لا لبس فيها على الإطلاق.

وبين الزملاء الألمان، الذين كان من نصيبهم تفسير دراسة برانديس وتكملتها، كان عالم اليونانيات موريتس شميدت الذي وصف عمل العالم المتوفى بأنه «واحد من أعظم كشوفات العصر الحديث».

ولم تكن هذه العبارة من شفتي شميدت مجرد عبارة إطراء، فهو نفسه كان طفلاً - نابغة بطريقته الخاصة، قام بأول قراءة في فترة أبكر مما قام به الصغير شامبليون، في الثالثة من عمره.

فقد ولد «مور» الصغير، حسبما كان يسميه أقرباه، في الـ 19 من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1823، في أسرة موريتس ويلهيلم ادوارد شميدت، مستشار المحكمة العليا بالمنطقة. وقد تميّز الصغير بنمو عقلي خارق للعادة. ويروون كيف بدأ الطفل ذو الأعوام الثلاثة يتعلم القراءة وكيف كانت العمّة جولبيتا تساعد في ذلك بتزويده بأحرف كرتونية مقصوصة كانت تصنعها بنفسها، وكيف قام الطفل الذكي بعد حين بطرحها بعيداً ليمسك بكتاب التهجئة الذي كان مزيناً برسوم «المفريه» فصار لهذا السبب أثيراً على قلب الطفل «مور».

وعندما نقل أب موريتس إلى شفيدنييتس، حيث أصبح رئيس النيابة بالمنطقة، كان من حظ الصغير أن يتحصل على تعليم ممتاز لدى المدرسين الممتازين في الجمنازيوم المحلي. فقد كان المدير هو كارل شينبورن، الذي لعب أخوه، أوغسطس، دوراً مرموقاً في تاريخ حل رموز اللغة الليكية (وقد نشر شميدت تراث ذلك العالم فيما بعد)، وقام أستاذاً آخر في الصفوف العليا من الجمنازيوم بإعطاء التلميذ الذي كان تطوره العقلي يفوق عمره، معارف ذات مستوى عال في اللغة العبرية القديمة حتى صار قادراً بعد عامين على قراءة العهد القديم في أصله بل وفي الطبعة الأصعب، دون الحركات التي تعبر عن الصوتيات!

وسارت دراسة موريتس شميدت بنفس المستوى من النجاح. إلا أن عائقاً وحيداً وقف في سبيله - وهو صغر سنه. فقد كان عليه أن ينتظر مدة سنتين حتى يسمح له بدخول امتحانات شهادة بلوغ الرشد، ثم كان عليه أن ينتظر مدة ثلاث سنوات ليسمح له بشغل منصب المعلم في الجمنازيوم. ثم قدر له أن يدخل جامعة برلين في الوقت الذي كانت تلك المؤسسة في أوج ازدهارها. وكانت الأقسام تحت إشراف كبار المرشدين

من أمثال بيوكغ ولاخمان اللذين أقام شميدت معهما على الفور معرفة شخصية. وبالإضافة إلى ذلك فإن زيارة «حلقة الأحد» حيث كان شميدت يقضي أوقاته برهفة تيودور فونتان وموريتس، لسورد شتراخفيتس تركت أثراً فعالاً جداً على التربية الجمالية للفتى.

وعليناً، بسبب ضيق المكان، أن نضرد من بين أعمال الفتى العلمية، دراستين فقط تمكسان المستوى الأعلى لنشاطه كقارئ للرموز. ويبدو للوهلة الأولى أن لا علاقة مشتركة بين هاتين الدراستين إلا أنهما في الواقع مترابطتان جداً. أما دراسته الأساسية في حقل الفيلولوجيا اليونانية (فقد كان منذ سنة 1857 يشغل منصب الأستاذية في بيتنا بعد أن أمضى ثماني سنوات منصرفاً بكل نقاء ضمير إلى تعليم الأطفال في الجمنازيوم) فكانت إعادة تنقيح طبعة درة المعارف، وهي موسوعة غيسيكويس التي صدرت في بيتنا في طبعتين - الكاملة (في خمسة مجلدات) والموجزة (في مجلدين).

ويمكن القول بكثير من الثقة أن انتباه برانديس إلى المعاجم القديمة قد أثار اهتمام موريتس شميدت الخاص عندما قام هذا بإعداد مقالات برانديس والتعليقات عليها للنشر فبعد أن ألهمت روحه هذه الأعمال واتفق مع نتائجها الأساسية (بغض النظر عن استطراداته النقدية بالنسبة لبعض النقاط) فلم يتبق على شميدت إلا أن يقوم بخطوة صغيرة نحو دراسته الخاصة في فك الرموز. فانصرف إلى دراسة ما رفضه جورج سميث وما تركه يوهانس برانديس غير مكتمل.

ودون دخول في التفاصيل نقول إنه أشاح بوجهه عن كلمة *ptolis* أو *gotolis* وعن *Kasignetos*، إلا أنه، وقد سار في الطريقة التركيبية، توصل إلى نتائج تفوق في أهميتها ما توصل إليه عالمًا فك الرموز السابقان بكثير. وفي كانون الثاني من عام 1874 كان شميدت المتميز بقدرته الخارقة على الصبر والجلد على العمل، قد فك رموز الجدول المقطعي القبرصي بكامله. وفي العام نفسه أصدر النقش الكبير المحفور فوق اللوحة البرونزية من ايداليون والتي سبق ذكرها. وقد ألقت دراسته التي قام بها للنص الواضح النهائي على طابع الكتابة القبرصية: فهي لا تتضمن أي شيء سوى الرموز المقطعية (قارن بهذه المناسبة التدوين اللفظي الذي استخدمه برانديس)، هذا وإن أمثال هذه الرموز تمبر عن المقاطع المفتوحة (أي المقاطع من نمط ساكن + صوتي) وعن الصوتيات البسيطة.

صوتيات	*(X J) e	*(F * +) e	X X i	z (z) l o	γ u
r	o r o	z r e	-	-	-
v	u x v a	I v e	l v i	f (f) v o	-
r	∇ (∇) ∑ r a	∧ (∧) ∏ r e	∫ (∫) ∫ r i	∫ (∫) r o	l r u
l	∞ l a	8 (8) ∞ l e	∞ l i	+ l o	∞ l u
m	l x m a	x x i m e	∫ (∫) ∫ m i	∞ (∞) ∞ m o	x m u
n	∞ n a	∞ (∞) ∞ n e	∞ n i	l n o	∞ n u
شفويات	∞ o o	∞ p e	∞ ∞ p i	∞ (∞) ∞ p o	∞ p u
بين الأسنان	f (f) l a	∞ (∞) l e	∞ l i	F (F) ∞ l o	∞ (∞) l u
حلقية	∞ (∞) k a	∞ (∞) k e	∞ k i	∞ (∞) ∞ k o	∞ (∞) k u
s	v y s a	∞ ∞ ∞ ∞ s e	∞ ∞ s i	∞ ∞ s o	∞ s u
z	∞ z a	-	-	∞ z o	-
x	∞ x a	∞ x e	-	-	-

الشكل -70- رموز الكتابة القيرصية المقطعية

أما الحجر الأخير في المبنى الذي تم خلال هذه الفترة القصيرة (في الأساس من 1872 حتى 1874) فقد وضعه الباحثان الألمانيان ديكي وزيغيموند. إذ اكتشفا الرموز المقطعية التي تبدأ بصوتي زو w وقضيا بذلك على العقبات التي لم تكن قد أزيلت بعد من طريق قراءات النصوص.

واتضح أن لوحة ايداليون البرونزية المذكورة - تتضمن اتفاقية عقدت بين الملك والمدينة من جهة، وبين أسرة أطباء من جهة أخرى، وبموجبها يستعاض عن المستحقات التي تدفع نقداً لهؤلاء الأطباء بوقف معين وخراج لبعض الأراضي يعطى لهم ولأحفادهم من بعدهم.

وهكذا فإن نتيجة كل الجهود التي بذلت والكثير من التراكمات الناجمة كانت
مملة إلى حد كبير بغض النظر عن قيمتها التاريخية غير المشروطة.

Ⲡⲓⲁ ⲛ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ

ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲓ

الشكل -71- رموز كتابية قبرصية - ميكينية.

والكتابة القبرصية المقطعية لا تزال تتسبب بأسرارها. ففي سنة 1910 مثلاً
اكتشفت بعض النقوش التي وضعت بالكتابة القبرصية ولكن ليس باللغة اليونانية. ولم
تكتشف هذه النقوش في الجزيرة بل في متحفين - ايشموليان في اوكسفورد واللوفر حيث
كانتا تستقران دون أن تلفتا نظر أحد، بل إن ايرنست زيتينغ، بروفيسور تويينغين
الراحل، اكتشف منذ فترة قصيرة في أمافا في كريت ثانية حقيقية - نصاً مزدوج اللغة
ولكنه، للأسف، قصير جداً، وقد كتب بالمقطعية القبرصية وبالكتابة اليونانية
الحرفية العامة. ومن السهل الإشارة إلى أن المادة التي توصل إليها العلم زهيدة جداً من أجل
الكشف والتوضيح الكامل للغة القبارصة القدماء، المخفية على الرغم من أن الجهود قد
بذلت في هذا السبيل. ونأمل في أن تؤدي دراسات الباحثين في المستقبل القريب إلى نتائج
سارة إذ إن الكتابة القبرصية المقطعية تتحدر، وفق الرأي المتفق عليه، من الكتابات
الخطية الكريتية التي حلت إحداها منذ فترة، وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك أيضاً
كتابة أطلق عليها اسم الكتابة القبرصية - المينيوسية أو القبرصية - الميكينية
«الانتقالية» (وهي لم تقرأ بعد) ولعلها تمثل حلقة الوصل بين القبرصية والكريتية الخطية.
ومن يدري فلعل هذه الكتابات الأخيرة تلقي الضوء على الكتابة القبرصية المينيوسية
وعلى لغتها المجهولة، ومن بين حروفها الـ 26 وأرقامها الـ 5 المعروفة حتى الآن في الكتابة
القبرصية - المينيوسية، هناك 10-12 رمزاً فقط تتطابق مع رموز المقاطع القبرصية
الكلاسيكية، وعلاوة على ذلك كان يمكن تحديد 8 أخرى. والحق أن من غير المنتظر
الآن التوصل إلى نتائج ذات أهمية خاصة في حقل الكتابة القبرصية حيث إن الكتابة
القبرصية - المينيوسية غير معروفة بالنسبة لنا إلا من خلال بعض النقوش القصيرة فوق
الأواني، وحتى لو تسنى لنا قراءة هذه النقوش فإنها لا تكاد تقدم شيئاً يتجاوز ذكر
محتوى الأواني أو أسماء أصحابها.

مضت حتى الآن 80 سنة منذ اكتشاف كتابه «الجزيرة النحاسية» في البحر المتوسط الشرقي، قبرص القديمة. وعلى مسافة بضعة أيام منها (إذا ما انطلقنا على متن سفينة شراعية) كانت تبسط أرض كتابة أكثر قدماً، ومنذ فترة قصيرة توج العمل عليها بانتصار لامع في حقل قراءة الرموز. إنها كريت، جزيرة المينوطور، وأريادنا، ذلك المهدي الذي يهدمه البحر بحنان، مهد الحضارة الروحية الأوروبية الأصيلة.

عربة حربية وكأس

قراءة رموز كتابة «ب» الكريتية - الميكينية الخطوطية

ووضعت إزانهما كويماً أغرُ
وهو على قائمتين انتصبا
كان لدى نستور من قبل السفر
وبه سامير النضار الثعبا

هوميروس الألياذة 11-411-412⁽¹⁾

بدأ كل شيء بحادث إحضار غريفيل تشيستير، الرحالة الإنكليزي وخبير الأثرية الشهور، إلى متحف ايشموليان في أوكسفورد، عام 1889، بضع قطع من آثار الماضي كان من بينها خاتم عقيقي، وقد نقشت على حوائج الخاتم الأريمة رموز مبسطة تذكر بالهروغليفات. أما الخاتم فبدأ وكأنه قد جيء به من اسبارطة. أما الإنسان الذي جيء إليه بالهدية فكان ارتور ايفانس، حافظ المتحف.

وعلى الفور استرعى أنظار هذا الأخير التشابه بين رموز الختم والهروغليفات الحثية، ذلك التشابه الذي كان يبدو أكثر وضوحاً عند النظر إلى تصوير رأس الكلب أو الذئب ذي اللسان المندلق (في الشكل الثالث). إلا أن التشابه ينتهي عند ذلك؛ ولم يكشف أي شيء آخر في أي من مناطق الحضارات القديمة في العالم، ولهذا لجأ ايفانس إلى معونة أشد الفرضيات تضارياً حول مصدر الختم، بما في ذلك الفرضية القائلة بمودته إلى يونان «ما قبل التاريخ».

وبعد مضي أربع سنوات، في ربيع عام 1893 اتجه ايفانس شطر بلاد اليونان، وهنا في مدينة أثينا عشر، خلال بحوثه، على بضعة نماذج من الختم شبيهة بالأول. وتأتى له أن يجمع اختاماً رباعية أو ثلاثية الجوانب وقد تثبت طولانياً من معاورها. أما استفساراته حول مصادرها فكانت تلاقى رداً واحداً يقول: لقد جيء بها من كريت. وعندما توجه بسؤاله إلى

1- من ترجمة «اللياذة هوميروس» لسليمان البستاني النشيد الحادي عشر، الأبيات 411-412 (المترجم).

متحف برلين تلقى من هناك نسخاً من مجموعة كاملة من أمثال هذه النماذج وأضيفت إلى ذلك كلة قطعة من حجر الدم كان آ. غ. سايس قد عثر عليها في أثينا. وبعد العودة إلى إنجلترا تمكن ايفانس في تشرين الثاني سنة 1893 من أن يتقدم إلى الجمعية البريطانية لهواة العاديات الهلينية بتقريره حول اكتشاف ما يقارب الـ 60 من الرموز الهيروغليفية التي تعود ، على ما هو ظاهر ، إلى الكتابة التصويرية التي كانت منتشرة ذات يوم في جزيرة كريت. وفي العام التالي نزل بنفسه على تلك الجزيرة.



الشكل -72- الختم العقبي الرباعي الجوانب من جزيرة كريت (من سبارطة)

قام ايفانس بزيارة الجزء الداخلي والشرقي من الجزيرة. وقد تأكدت توقعاته فيها وتحققت آماله. إذ تبسّر له جمع كمية كبرى من المواد التابعة لتلك الحضارة الغابرة التي تغنى بها هوميروس - حضارة عهد كريت ذات المدن المنة - مملكة مينوس. إلا أن لقيه واحدة أدخلت فرحة خاصة على قلب جامع التحف المتحمس وأكدت توقعاته: فقد وجد في هذا المكان، في كريت، نسخة من ذلك الختم العقبي نفسه (من إسبارطة) وكانت هذه النسخة تعود لنفس المالك السابق.

إذا كانت خشية رايت، عند اكتشافه حجر حماه منذ خمسين عاماً، لم تقتصر فقط على إمكانية الحفاظ على الحجر، بل وامتدت إلى الخوف على حياته شخصياً، وهو يتوقع هجوماً مباشراً من طرف أبناء سوريا المنمصين، فإن تعصباً لا يقل رسوخاً كان يخيم هناك في كريت، وقد هب - ذلك التعصب - لمساعدة ايفانس. فبعد أن قضى كل وقته في بحث مضمّن عن الأختام الحجرية وأحجار الدم (وكانت بأجمعها مثقوبة) سيطرت عليه دهشة مفرحة إذ اكتشف أن فلاحات كريت بل والنساء الريفيات بصورة عامة كن يولين احتراماً خاصاً للحلي والتماثم التي تعود إلى هذه الطائفة من المواد المثقوبة، التي

كان من السهل حملها بواسطة خيط أو سلسلة. أما القيمة الأساسية لهذه التماثيل فكانت تكمن في كونها «غالوبيتراس» أي «أحجار الحليب» أو «غالواوايسيس» - أي «مدرات الحليب» أو «معمليات الحليب» : وكانت تحظى بإقبال شديد عليها وبخاصة لدى الحوامل من النساء.



















ويعد أن علم ايفانس بذلك شرع بعملية «تطهير» منظمة للقري ؛ فراح يزور المنازل والأكوخ، واحداً بعد الآخر، ليبدي إعجابه المستديم بحلي الفاتات الريفيات، ويتحصل بهذه الطريقة على إمكانية الاطلاع بنظرة على النماذج البديعة من الأختام المثقبة المائدة للمصور الكريتية القديمة. أما بالنسبة للمتقدمات في السن وللمعائز من الفلاحات، اللاتي كان من الطبيعي أن يتخلين بسهولة عن «أحجار الحليب» فكان يمد بكثير من اللباقة والفطنة إلى إثارة رغبتهن في بيع هذه الطلاسم. بل وإن النساء الشديديات التعلق بكنوزهن كن يضحين بها لصالح الإنكليزي، ودون تردد، عندما كان يتقدم إليهن بعرض حجر آخر مثقوب أيضاً ولكنه يتفوق بجماله بل ويحمل بالضبط نفس اللون الأبيض - الحليسي الذي كان موضع تقديس خاص. فإذا ما قامت مالكة «العلوقة»، ذات القوة السحرية، برفض التخلي عن حليتها لسبب من الأسباب كان على ايفانس أن يكتفي بنسخة منها. وإلى جانب ذلك وقع في يديه كثير من الأشياء الأخرى المفطاة بالنقوش إلا أنها كانت تختلف عن اللقى الأولى برموز الكتابة «الخطية» أو «الظاهرية»؛ وهكذا علم جامع التحف بوجود النظامين الأقدم للكتابة المحلية - البيكتوغرافية والخطوطية. وكان ذلك كشفاً بلغ من الأهمية والخطورة حداً جعل ايفانس يقرر على الفور البحث عن إثبات له. إلا أن ذلك كان يستلزم القيام بالحفريات في كريت.

الحفريات في كريت. لقد جاء القرار من تلقاء نفسه. بل وكان ايفانس يعرف المكان الذي تفرس فيه الفأس فتأهب للشروع بالعمل.

وكان عليه أن يحقق الأمر الذي كان هنريخ شليمان⁽¹⁾ قبل وفاته يعتبره حلماً خارقاً للمادة يمكن أن يتوج حياته بطولها. وقد كتب ايفانس: «كان هدفي الرئيسي هو كُنوس - مدينة مينوس، ذلك المكان الملقب بالأساطير، حيث يقوم القصر الذي أقامه البناء

1- هنريخ شليمان (1822-1890) عالم آثار ألماني جمع ثروة كبيرة عن طريق التجارة التي تخلى عنها سنة 1863 لينجبه إلى التنقيب عن الآثار اليونانية القديمة التي وردت في المؤلفات الهومييرية فقام بحفرياته في هسارليك، في ميكينا وتبرينف وأسهم في الكشوفات الأجيبة ويعود إليه الفضل الأكبر في البرهان على أن ملحمة هوميروس فكانت ذات أسس تاريخي واقعي (المترجم).

دايدالوس⁽¹⁾، القصر ذو الآثار الفنيّة البديعة والمحتوى على قاعة رقص أريادنا وعلى اللابيرنيت، فقد كان ذلك كله يلوح أمام عيني⁽²⁾.

	ربما كانت مالك أو صاحب		غصن
	عين		جبل ، بلاد
	ذراعان متقاطعان		غصن
	رجل		سفينة
	خنجر		أداة معدنية
	فك		يد
	فأس ذات حدين		قوس
	باب		أظفي
	رأس ثور		هلال

الشكل -73- بعض الهيروغليفات الكريتية التي تعرف إيفانس عليها إلى جانب معانيها للفرضية. وقد عرضت الأشكال الأكثر قدماً من بينها (ذات الطابع التصويري الواضح) إلى جانب الأشكال الأكثر تبسيطاً.

1- تروي الأساطير أن دايدالوس كان اعظم مصور ونحات ومعماري في أثينا، لكنه خاف منافسة ابن أخته له فقتله وشر إلى جزيرة كريت، وهناك الجاء ملكها مينوس؛ فبنى دايدالوس للملك قصر اللابيرنيت (المتاهة) الشهير بمعايره المتداخلة التي تجعل الخروج أمراً مستحيلاً على من يدخلها، وهناك حبس مينوس ابن زوجته، المينوطور الرهيب، الذي كان له جسم إنسان ورأس ثور. ولما كان الأثينيون قد قتلوا ابن مينوس فقد فرض عليهم إثاوة دامية يؤدونها كل تسع سنوات، وهي أن يرسلوا إليه سبعة من شبانهم وسبعاً من صباياهم ليطرحوا جميعاً في اللابيرنيت حيث يلتهمهم المينوطور، فسار البطل تيسيوس في عداد الضحايا المرسله إلى كريت وهناك تمكّن، بمساعدة أريادنا، ابنة الملك التي وقعت في هواه، أن يقضي على المينوطور وأن يعود بأريادنا وبشبان أثينا وصباياها إلى بلاده (المترجم).

2- A. J. Evans, Scripta Minoa I, Oxford, 1909, P. 16.

كان معروفاً أين يجب البحث عن كنوس. فقد كان بونديلمونته قد أشار إلى مكانها منذ القرن الخامس عشر. ففي مكان المدينة القديمة كانت تقوم قرية ماكروتيجو أو ماكروتيجوس («الجدار الطويل») التي كانت تمتد في وادٍ منغلقي يؤدي إلى عمق البلاد على بعد ستة كيلومترات إلى الجنوب من كانديا (وهي هيراقليون الآن).

لكن العلاقات السائدة هناك (وكانت الجزيرة خاضعة آنذاك للسيادة التركية) كانت تقصر حق الحفريات على مالك الأرض وحده؛ وقد سبق لشليمان أن تأكد من ذلك بنفسه من خلال تجريته الخاصة. والحق أنه كان قد سبق لمينوس كالوكايرينوس، القنصل الإسباني، وابن كانديا أن حفر سنة 1877 قبواً لتخزين المؤونة، فمثر هناك على أوان فخارية ضخمة («بيفوسات») وعلى لوح مغطى بالكتابة. وبعد ذلك تسلم الأمريكي فد. ستيلمان بموافقة الباب العالي ليقوم بالحفريات لكن كان عليه أن يتوقف عن ذلك سريعاً لأن الفرمان لم يصدر وتم المدول عن إعطاء التصريح. ومع كل ذلك فإننا نذكر قبل كل شيء اسم هنريخ شليمان الذي رغب، سنة 1889، في أن يشتري أرض «كيفالاتسيليمي» أو «هضبة الحكام» من جميع ملاكها الكثيرون المدد، لكنه باء بخيبة أمل كاملة، إذ اصطدم بجشع ملاك الأرض، وعراقيل الموظفين العثمانيين فعدل عن مشروعه.

هل من الضروري أن نشير إلى أن مثل هذه العراقيل كانت تقطع الطريق على أيفانس أيضاً. إلا أنه وهو يعمل في البحث عن «حجر الحليب» استطاع أن يؤمن لنفسه قطعة أرض على الـ «كيفالالا». فمئداً غادر الأتراك كريت بصفة نهائية سنة 1899 اشترى مجموع الأرض هناك وراح يعمل من أجل الحصول على رخصة التنقيب.

إن اسم السير ارثور أيفانس معروف الآن بالنسبة للجميع؛ فالمناثرة التي قام بها في سبيل العلم - وهي الحفريات عن «قصر مينوس في كنوس» - مطروحة في الأدبيات العلمية أو المبسطة وهي الآن في متناول أيدي كل العالم المثقف.

لقد أصبح أيفانس المكتشف الأول للكتابات الكريتية القديمة. فقد عثر في كنوس على كمية كبيرة من اللوحات الفخارية المغطاة بكتابة «خطوطية» بالإضافة إلى نسخ من الأختام الحجرية من نمط «أحجار الحليب» وفي سنة 1909 أصدر في أوكسفورد *Scripta Minoa I* - في مجلد كبير يديع الرسوم مخصص لأثار الكتابة الكريتية. وكانت تظهر في ذلك، وبصورة خاصة، النقوش الهيروغليفية إلا أن المؤلف كان قد وعد في مقدمته

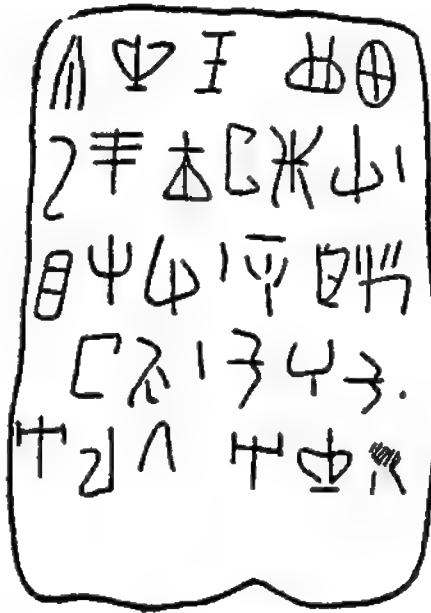
بأن ينشر في المجلدين الثاني والثالث آثار الكتابة الخطوطية التي كان قد صنفها إلى فئتي أ و ب.

والحق أن دراسة ايفانس «*Scripta minoa I*» إلى جانب آثار الكتابة الهيروغليفية كانت تتضمن نماذج كنوسية من الكتابة الخطوطية أ بالإضافة إلى 14 لوحة مغطاة بكاملها بكتابة ب الخطية. ومع كل ذلك كان يجب أن تمضي 26 سنة قبل أن يفي ايفانس، ولو جزئياً، بوعدده، وهكذا فإنه نشر سنة 1835 في الجزء الرابع من «*Palace of Minos*» نحو 120 لوحة دونت نصوصها بالكتابة الخطوطية «ب» بينما كان العدد الذي اكتشف منها يزيد عن 12800 ولهذا لا يمكننا إلا أن نعترف بعدالة اللوم الذي وجهه في حق ايفانس بسبب إهماله شخصياً العمل على إصدار النصوص وعدم تكليفه شخصاً آخر بذلك. كما يمكن أن تسجل في سجل تقصيره تلك العشرات السنين من الركود - من 1909 حتى 1952 (ففي سنة 1952 صدرت أخيراً «*Scripta Minoa II*» وكان قد نفعها السير جون مايرز، التلميذ الأسبق لايفانس) - تلك السنوات التي لم يود فقدان المادة إلى مجرد شل أعمال البحث وسيرها في الطريق الخطأ، بل وإلى توقيفها عن سابق وعي وتدبير. بل إن يوهانيس سوندهال، الباحث الفنلندي المشهور ونسطور⁽¹⁾ الدراسات الكريتية الحالية، والذي غامر سنتي 1932 و 1939 باستتساخ 38 لوحة جديدة، قد عانى من تقدير ايفانس أيضاً.

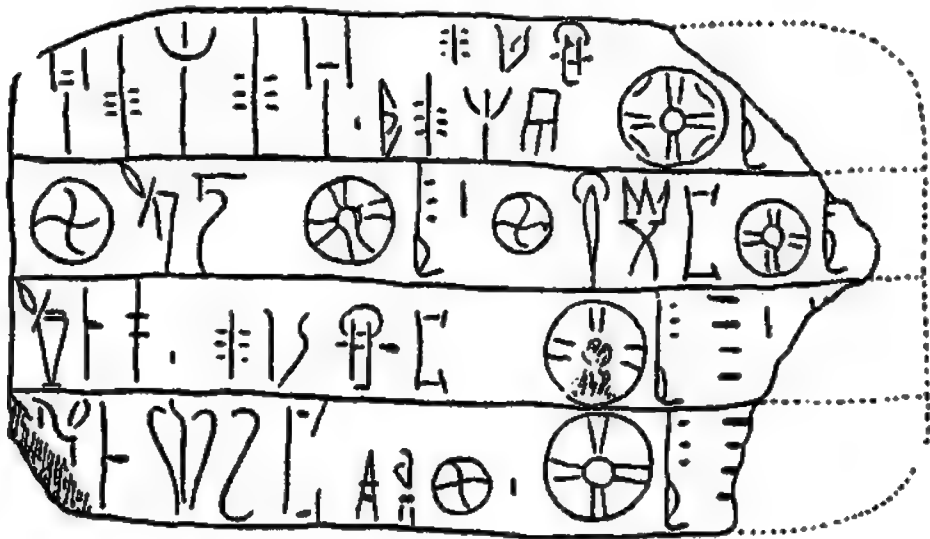
وبهذا تفدو مضمومة بالنسبة لنا كلمات فينتريس وتشيدويك، الباحثين الإنكليزيين اللذين قالوا بأن «جيلين من العلماء قد حرما عمداً إمكانية العمل المثمر على القضية⁽²⁾» في الكتابة الخطوطية «ب» وان الاهتمامات التي تاججت حول مشكلة حل رموز هذه الكتابة على مدار نصف قرن من الزمن، من 1900 وحتى سنة 1950، تقنعنا بصورة واضحة بصواب ما وجه إلى ايفانس من لوم.

1- نسطور، ملك بيلوس. اتجه اليه منييلالوس وأغا ممتون يطلب اشتراكه في الحملة اليونانية على طروادة من أجل استرداد هيلين التي خطفها باريس، ابن ملك طروادة على حسب ما تزعم الأساطير اليونانية كان نسطور شيخاً حكماً عجمت عوده النجارب في الحياة وفي الحروب وكان يعد حكيم القوات اليونانية والشيخ الذي تنتظر منه المشورة (المترجم).

2- M.Ventris, J. Chadwick, Documents in Mycenaean Greek, Cambridge. 1956,2 P.II.



ا

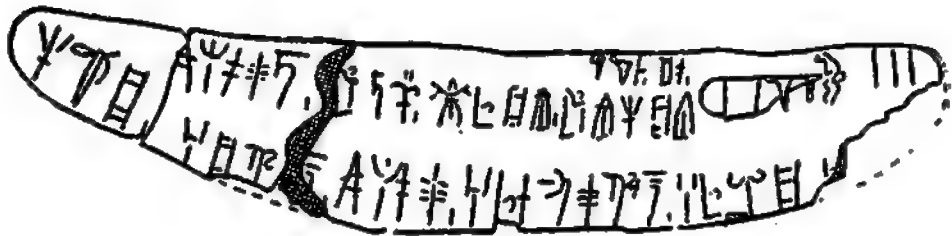


ب

الشكل -74- لوحتان كريتبتان من كنوس، أ- كتابة خطوطية ب- كتابة خطوطية

ومن الطبيعي أن الآثار الفامضة للمهود القديمة قد اجتذبت إليها المعارضين بالأمور ومن لا دخل لهم بذلك من العلماء المبجلين وعباقره الهواة بالإضافة إلى مختلف

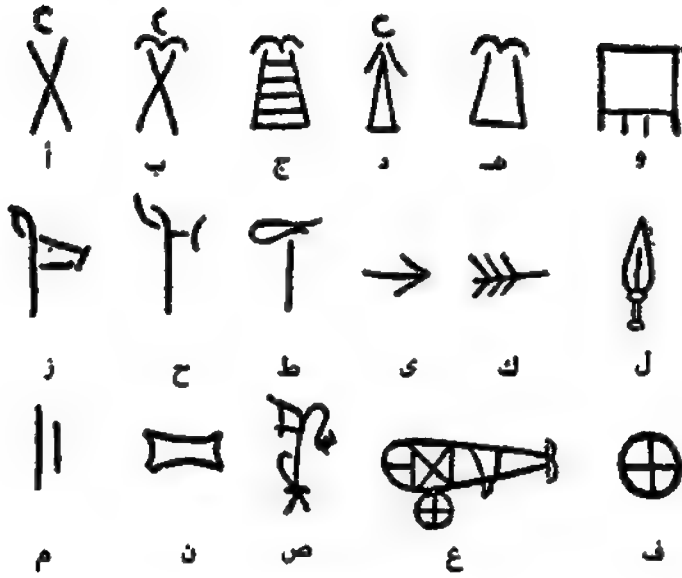
ضروب أولئك الممثلين المتفهمين الخارجين من الميادين ذات العلاقة الجانبية بعلم الآثار والتي تغدو الآثار بالنسبة لها ضرباً من الهذيان⁽¹⁾، فقد أكد بعضهم من بعد ايفانس، على أن في أساس جميع الآثار الكتابية المكتشفة تشوي لغة واحدة فقط، واتجه آخرون إلى قوائم الكتابة المقطعية القبرصية الكلاسيكية وانشغل ثالثون بالبحث في مختلف أنحاء العالم عن الشعب المحتمل - مخترع هذه الكتابة وكان لا بد إزاء ذلك من تحمل أشد شعوب العالم القديم تضارباً: الحثيون والمصريون، الباسكيون والألبان، السلافيون والفنلنديون، السومريون والوبرانيون. وكان أكثر من تخبط في هذه المتاهة في السنوات الأخيرة من عمره بيدرجيخ غروزني الشهير المتوفى سنة 1952. إن شيئاً لا يمكن أن ينتقص من الخدمات الجليلة التي قدمها ذلك الإنسان للعلم، إلا أنه بين 1940-1949 كان ضعيف لونه خطير من ألوان «مرض المهنة» الذي لا يمكن أن ينجو منه أي عالم في فك الرموز؛ فالقدرة على المحاكمة النقدية، تلك المحاكمة التي طالما أثبتتها بصورة رائعة، تخلت عنه بصورة كلية، فاندفع في زحف عام على كتابات العالم القديم التي لم تقرأ رموزها بعد. فكان ما اقترحه كحل لمشكلة الكتابة الخطوطية بخليطاً فوضوياً من المفردات الحثية والبابلية، خليط متشابك ويسير الدحض.



الشكل -75-1

1- «العربة الحربية» من كنوس.

1- Ibid.



الشكل -75-2

2- بعض ايديوغرامات الكتابة الكريتية - الميكينية:

أ- رجل. ب- محارب. ج- درع. د- امرأة. هـ- فستان. و- فماش. ز- خنزير. ح- عجل.
 ط- خروف. ي- رمح. ك- سهم. ل- سيف. م- برونز (?). ن- سبيكة نحاسية.
 ص- نحاس. وهو مؤلف من رمزين مقطعين هما me-ri (باليونانية meli). قارن ذلك باللاتينية mel). ع- عربة حربية. ف- عجلة.

أما ارتور ايفانس، الذي كانت المادة كلها في حوزته فكان الوحيد القادر على الاستمتاع بترف عدم السماح لنفسه بالتحليق عالياً بين السحب. لقد راح بكل دقة وتمحيص يقارن بين الحقائق التي تحصل عليها من ملاحظته الخصائص الظاهرية للمصادر الكتابية. ولاحظ أن اللوحات تمثل جروداً بالأدوات وهوائيم بأسماء الناس وإحصائيات لحيوانات وأشياء، أما «الأيديوغرامات» المرسومة بأشكالها العينية في نهاية كل مجموعة أو سطر فكانت تحدد ما يدور حوله الحديث في كل حالة من الحالات بينما كان العدد المطلوب يحدّد وفقاً للنظام العشري. وفي بدايات الأسطر كانت تظهر مجموعات مكونة من رمزين أو أكثر (حتى السبعة) تصوّر على ما يبدو كلمات من اللغة «المينوسية» ويقدم (الشكل 75) تصوّراً عن الكيفية التي توصل بها ايفانس إلى نتائجه. ففي الرسم (الشكل 75، 1) تظهر اللوحة التي وجدها ايفانس سنة 1904 في «ترسانة الأسلحة» أو «المستودعات الكنوسية» وهي تتألف من 12 كلمة (يسهل التمييز بينها بفضل الفواصل بين الكلمات والتي ترسم بصورة

عمودية)، ولها في نهايتها (إلى اليمين من الأعلى) كتابة تصويرية لا شك فيها لعربة حربية (المنظر مأخوذ من الأعلى) ويظهر إلى جانبها مباشرة الرقم «ثلاثة».

ولا بد من الإشارة إلى آ. إ. كاولي كواحد من العلماء الذين عملوا في سني الركود على الكتابة الميكينية، وقد تعرفنا عليه بمناسبة فك رموز البيروغليفيات الحثية. وسبق له أن لفت أنظار الباحثين منذ سنة 1927 إلى ستة رموز ثلاثة منها ضمن مجموعتي ٩ و ٢٧ وكانت تتردد أمام الإشارة إلى الحاصل العام في جرود الأدوات. أما بالنسبة للثلاثة الأخرى فكانت تدخل في مجموعتي ٩ و ٢٧ وقد اقترح كاولي لها معنى «طفل»، «صبي»، ٩ و «وينية» ٩، وقد تأكدت فروضه فيما بعد.

بيد أن ذلك كله لم يكن يعني أن رحلة التيه انتهت، إذ مضت فترة طويلة من التخمينات. وبالإضافة إلى اللغات التي مر ذكرها فقد سجلت للألواح الكريتية لغات «ما قبل اليونانية» و «البيلاسية» بل وحتى «اللهجة الإيجية - الآسيوية القريبة من اللغة الحثية». إلا أن شاباً إنكليزياً، طالباً في الثامنة عشرة من عمره، تجاوز الجميع وكان سنة 1940 قد درس الألواح بهدف البرهنة على مصدرها الإيتروسكي. وقد ظل طالبنا مصراً على رأيه الخاص بكل عناد وتشدد حتى سنة 1952 عندما تمكن... في الواقع من حل رموز كتابة ب الكريتية - المينوسية الخطوطية.

ومع ذلك فإن الآلة التي عرفت عليها القطعة الموسيقية الخاصة بفك الرموز كانت فأس العالم الأثري، فعلى مدى عشرات السنين كانت آثار هذه الكتابة التي ندرسها معروفة أيضاً من خلال الكشوفات التي عثر عليها في اليونان القارية، في ميكينا وطيبة، في تيرينف، ايليفسين واورخومين. إلا أن تلك الكتابة كانت معروفة آنذاك بـ «المينوسية» ولهذا فإن ايفانس عد الميكينيين، بكل بساطة، غزاة كريتيين ومستعمرين في القارة، أما علماء الفيلولوجيا فحاولوا، حسبما رأينا، أن يلصقوا بها، وبصورة دورية، أسماء البيلاسيين مرة والإيتروسكيين مرة ثانية والأيليريين أو الحثيين في مرة ثالثة وهكذا وهلم جرا...

إن الطريق المسدود الذي انتهت إليه دراسة آثار الكتابة «المينوسية» قد بني إلى حد بعيد بيدي ايفانس نفسه وأيدي أنصاره الذين بسطوا هيمنتهم على هذا الميدان العلمي، وقطعوا السبيل على كل نظرة نقدية إلى موضوعه. ووصل الأمر إلى درجة أن العلامة أ. و. ويس كان مجبراً على التخلي عن منصب إدارة المدرسة البريطانية - وهي معهد الآثار البريطاني في أثينا، ليُخلى ميدان المعركة لايفانس.

إلا أن اتجاهاً جديداً، مدرسة جديدة صارت تشق طريقها بالتدريج، وتزيح من أمامها مقاومة الأخصائيين المحافظين الضارية، وبدأ أنصار هذه المدرسة يدركون شيئاً فشيئاً أن الميكينيين ربما كانوا يتكلمون باللغة اليونانية بل وربما كانوا يكتبون بها. ونال تطور هذا الاتجاه دفعة ملموسة بفضل جهود البعثة الأثرية اليونانية - الأمريكية سنة 1939 في ميسينا الغربية. ففي آنو اينجليانوس، الواقعة هناك، تعرف الأمريكي كارل أ. بليغين على بقايا القصر الميكيني الضخم واعتبرها مقر الملك نسطور القديم الذي وصفه هوميروس في النشيد الثالث من «الأوديسية»، فبعد أن قام بليغين ببضع حضرات تجريبية شق، ولضرب سعادته، طبقة عثر فيها على أرشيف يحتوي على 600 لوحة فخارية! وقد أحضرت اللقية إلى أثينا ونظفت اللوحات من الشوائب ولصقت القطع المتناثرة. وعندما كانت آخر باخرة أمريكية تغادر مياه البحر الأبيض المتوسط عائدة إلى الوطن في حزيران سنة 1940، بعد أن أعلنت إيطاليا الحرب على الحلفاء، كانت اللقية التي تم العثور عليها تُعْمَل إلى أمريكا تحت رقابة مسز ويس المشددة. وفيما بعد نشرت تلك الألواح بإشراف الباحث الأمريكي الشاب ايمينت د. بيثيت.

لكن القضية كانت تنحصر كلية في كون كتابة الألواح المستخرجة من بيلوس، من المقر القديم لنسطور تتطابق تطابقاً كاملاً مع الكتابة الخطوطية «ب»! أحدث كشف بليغين أصداء مختلفة تماماً. فبعض العلماء وجدوا في مواد المكتشفات الجديدة مواد استحضرت من كنوس، ولهذا عدوا تلك الكشوفات برهاناً على نظرية ايفانس القائلة بـ «مركزية كنوس»؛ إلا أن القلائل فقط افترضوا إمكانية أن تكون الألواح البيلوسية والكنوسية قد كتبت بلغة يونانية.

وهكذا ظهر من جديد، مثلما كان يحدث في كثير من الأحيان عند المراحل الأولى من حل الرموز، أن التحفظ الشديد كان ضماناً للوصول إلى أول النتائج الملموسة.

في الـ 16 من أيار سنة 1950 توفيت أليسا د. كويير في بروكلين. وكانت سنة 1932 قد ناقشت أطروحة في الرياضيات في جامعة كولومبيا وحصلت على لقب الدكتوراه. وكانت إلى جانب عملها المباشر تشتغل بشغف شديد في حقل الدراسات اللغوية. وقد وضعت السنسكريت والحثية والفارسية القديمة وغيرها من اللغات الهندوأوروبية الأخرى في دائرة اهتماماتها بالإضافة إلى اللغات السامية وأخيراً السومرية والباسكية. كما أثارَت مشكلة الكتابة الكريتية الميكينية لديها اهتماماً بالغ الشدة.

عندما كان الحديث يدور حول تلك الكتابة كانت أليس كوبيير لا تفتأ تكرر أن من المستحيل فك رموز أي شيء من لا شيء، ولكن كم كان من الطريف أن يمنّ القدر عليها بالذات بمئة وضع الأسس الثابتة الأولى من ذلك «اللاشيء».

«عند محاولة القيام بحل رموز الوثائق المجهولة اللغة، والمدونة بكتابة مجهولة، تنحصر الخطوة الأولى في تحديد تلك الحقائق التي تبرز من تلقاء نفسها عند دراسة الوثائق التي بين أيدينا. وتتحصر الخطوة الثانية في أن يكشف الباحث، عن طريق التحليل الدقيق الشامل والاستقراء المنطقي، تلك النتائج التي يمكن استخلاصها من تلك الوثائق الأساسية⁽¹⁾، ذلك كان البرنامج الحذر والواعي الذي كان من شأنه أن يوقف عالم فك الرموز وبصورة واعية عن اتخاذ الخطوة الحاسمة - وهي إسقاط الدلالات اللفظية.

وانطلاقاً من هذا البرنامج بدأت أليس كوبيير بوضع جدول بالرموز يصلح للاستخدام العملي ويمكن التمويل عليه في ذلك، ثم انتقلت بعد ذلك إلى مقارنة المفردات المكتوبة. وعلى ذلك الطريق قامت بأول كشوفها المهمة: فقد أفرزت الكتابة لغة كان من خصائصها اشتغالها على التحول النحوي وفقاً لمواقع المفردات من الجملة.

أما الخطوة التالية فكانت اصطفاة تلك المفردات، التي يلتقي بكل واحدة منها في الحالات الإعرابية المختلفة الثلاث، وبكلمة أخرى المفردات التي تسترعي النظر باشتغالها على مجموعة واحدة من الرموز باستثناء الرمز الختامي أو بضعة الرموز الختامية، وتكون بذلك مختلفة عن بعضها في النهايات فقط. وإن وجود جميع تلك الصيغ الثلاث في وثيقة من الوثائق أو التردد المتواصل لهذه الصيغ في داخل المجموعة الواحدة من الألواح وفي نفس التوضع ضمن النص كان يجب أن يكون برهاناً على أن الحديث في جميع هذه الأمثلة يدور، في كل حالة من الحالات المنفصلة، حول تحولات ثلاثة للكلمة الواحدة نفسها.

	A	B	C	D	E		
الحالة الأولى:	٣٧٨١١	١٧٨١١	٧١١١١	٩٧٢١١	١١٢٢١	٢١٢١	١٢١
الحالة الثانية:	٣٧٨٢	١٧٨٢	٧١١٢	٩٧٢٢	١١٢٢	٢١٢٢	١٢٢
الحالة الثالثة:	٣٧٢	١٧٢	٧١٢	٩٧٢	١١٢٢	٢١٢	١٢

الشكل -76- مجموعات أليس كوبيير الثلاثية.

1- Ibid., p. 15.

وهكذا فإن أليسا كويبير قد وضعت من المفردات التي أخضعت للمقارنة لوحة منظمة أخذ فيها بالحسبان طابع الوثائق التي يلتقي فيها بهذه المفردات (فقد حددت الأنماط وفقاً لضمون الوثيقة والهدف من وضعها ، وكان أساس ذلك يتحدد انطلاقاً من مكان العثور على المكتشفات ، ومن البيكتوغرامات وغيرها من المعطيات القرينة).

وهكذا تتفتح أمامنا من جديد إمكانية النفاذ إلى «مختبر» العالم وتحديد مسار تفكيره. وإنما على ثقة من أن أحداً من القراء لا يمكن أن يقاوم المنطق الحديدي لتلك المحاكمات ، والأدهى من ذلك أن القارئ ، وهو يمود من نتائج الأبحاث إلى نقطة الانطلاق ، وينقل خطواته فوق الطريق الذي مُهد ، سيلاحظ دون شك ، وكما هو مهود في كثير من الأحيان ، تلك «البساطة» المتناهية للطريق الذي قطعته الباحثة.

فالقائمة (الشكل 76) تطرح ثماني مجموعات ثلاثية؛ اثنتان من نمط A ، ثلاثة من نمط B وواحدة من كل من أنماط C ، D ، E. وهذه المجموعة الثلاثية تتضمن نفس الكلمة في ثلاث حالات إعرابية مختلفة يمكن التعرف عليها من خلال النهاية المتغيرة. أما الحالة الإعرابية الثالثة فتتميز في كل واحدة من المجموعات بأنها أقصر صيغة للكلمة؛ أما في الحالة الإعرابية الأولى فيضاف دوماً الرمز الختامي □ ، بينما يضاف في الحالة الإعرابية الثانية رمز آ وفضلاً عن هذه الإضافات في الحالتين الأولى والثانية يخضع للتغيير أيضاً ذلك الرمز الذي كان يؤدي في الحالة الإعرابية الثالثة دور الرمز الختامي آ في نمط A يتحول إلى M و 7 في نمط B يتحول إلى M ، ونلاحظ تحولات محدّدة في أنماط C ، D ، و E.

إن هذا التغيير في الرمز يمثل ، بحد ذاته ، شيئاً بالغ الطرافة لأنه يتطابق وبصورة تامة مع تلك التبدلات التي تحدث في اللغات المتغيرة النهايات كما في تصريف الاسم مثلاً. وكمثيل مشابه على ذلك قدمت الباحثة الأمريكية المفردات اللاتينية: *servus* «عبد» و *amicus* «صديق» و *bonus* «جيد» العائد إلى التصريف الثاني.

ويعد أن صرّفت كل واحدة من هذه المفردات وفقاً لجميع الحالات الإعرابية الأربع (*nominativus, genetivus, dativus, accusativus*) وقسمتها إلى مقاطع إذ كان لا بد من احتساب الطابع المقطعي للكتابة في الأثار الميكينية ، أضافت إلى لوحاتها المتضمنة

المجموعات الثلاثية المجموعات اللاتينية الرباعية التالية:

ser-vu-s	a-mi-cu-s	bo-nu-s
ser-vu-m	a-mi-cu-m	bo-nu-m
ser-vi	a-mi-ci	Bo-ni
ser-vo	a-mi-co	Bo-no

وبالمقارنة الدقيقة للوحة أليسا كوبيير الميكينية مع اللوحة اللاتينية المعطاة يقدو بإمكاننا التكهن بالخطوة التالية التي قامت بها الباحثة.

فلنحاول مقارنة $ser-vu-s$ مع الصيغة الأولى من نمط A ، وذلك بأن تنحصر المقارنة في الطابع فقط دون أن ن فكر بأي صورة من الصور بالدلالات الصوتية الواقعية للرموز المقطعية الميكينية (ونضيف إلى هذا ملاحظة أخرى: مادام قد قدر لنا أن نبدأ الطريق الذي قطمته الباحثة من نهايته. فلنبدأ المقارنة أيضاً من نهايتها أي من طرفها الأيمن).

وبالنتيجة سنتوصل إلى المتطابقات التالية: $S = \square$ ، $vu = \wedge$ ، وبقايا الكلمة الميكينية

$\text{ser} = \text{sv}$ = بقايا الكلمة اللاتينية ser وعلى نفس المنوال تكون $ser-vu$ مكافئة لـ $\text{sv} \wedge$

ولكي نجعل المثال أكثر وضوحاً سنحاول عرض التكافؤ المفترض عن طريق سطرين

أحدهما تحت الآخر:

$ser - vu$	s	$ser - vu$
$\text{sv} \wedge$	\square	$\text{sv} \varepsilon \text{f}$

الشكل -77- المكافأة التجريبية.

فالمقلمان vu و vo يقدمان لنا نقطة انطلاق؛ وهما يحتويان نفس الساكن المشترك. وهو في المثال اللاتيني v أما ما يطابقه فغير معروف. وبما أننا لا نعرف بمد أي صوت من أصوات الرموز المقطعية الميكينية، فلنلجأ إلى الوسائل المساعدة فنسمي v من المثال المعطى بـ «الساكن 1» و vu بـ «الصوتي 1» و o «الصوتي 2». وبتلخيص تصوراتنا المبدئية يمكننا التوصل إلى الجزء التالي من اللوحة:

الصوتي 1	الصوتي 2
\wedge الساكن 1	f

والآن نحن نعرف أن كلا الرمزتين المقطعيتين هنا يتضمنان ساكنات متطابقة وصوتيات مختلفة. وهذا بالطبع ليس كثيراً لكن كل أخصائي مجرب سيخبرنا فور نظرتة إلى هذه القطعة بأن البداية ليست رديئة، بلى، بلى، إنها بداية اللوحة التي ينتظرون بفارغ الصبر أن يكملوها.

فلننظر الآن إلى العمود الواقع في أقصى اليمين «الصوتي 2». أن الصوتي 2 كان 0.

فكلمة $\text{sv} \wedge$ التي وازناها بـ $ser-vu$ (وكان يمكن أن نقوم بالعمل نفسه بالنسبة لـ $ser-vi$)

تقع في الحالة الإعرابية الثالثة من نمط A. فإذا ما نظرنا الآن إلى السطر الأخير من اللوحة اللاتينية، أي إلى ما يطابق الحالة الإعرابية الثالثة، لوجدنا هناك (ser)vo, (ami)co, (bo)no أي المقاطع التي تتضمن الصوتي 2 ويمكن افتراض حدوث الأمر نفسه على ما يبدو بالنسبة للمقاطع الختامية لجميع المفردات الميكينية الواقعة في الحالة الإعرابية الثالثة وبالذات بالنسبة لـ f, ٦, ٧, ٨ و ٩ فجميعها تتضمن الصائت 2، إلا أنها جميعاً تتضمن سواكن مختلفة. وهكذا نبدأ بملء لوجتنا بعمود «الصوتي 2» كما سبق أن قلنا وعليه فإنها ستتخذ الصورة التالية:

	الصوتي 2	الصوتي 1
الساكن 1	٨	f
الساكن 2		٦
الساكن 3		٧
الساكن 4		٦
الساكن 5		٨

وبما أن القارئ قد أوضح لنفسه على ما هو بين مبدأ تنظيم اللوحة فإن الأمور ستسير بصورة أسرع بالنسبة لنا. ففي العمود الذي ما يزال فارغاً يجب أن تظهر الرموز المتضمنة الصوتي 1 وبكلمة أخرى الـ u وفقاً لما افترضناه. وهي في النظام اللاتيني مقاطع *nu* و *su* و *vu*، أي الرموز التي تظهر في الحالتين الإعرابيتين الأولى والثانية من القائمة الميكينية، سابقة للرموز الختامية من المفردات المختلفة. وهكذا نجد هنا رموز ٨ (من نمط A)، ٨ (B)، ٢ (C)، ٧ (D) و ٨ (E) فلنضعها الآن في القائمة لتتضح الصورة كاملة.

هذه القائمة هي النواة التي ولدت خلية القراءة المقبلة للرموز، أو ما يسمى بـ «الشبكة» أو «الشبكة التسميكية» في حالها الأولى التي لا يزال علماء حل الرموز الإنكليز وزملائهم الأمريكيان يفيضون في الحديث عنها بكل رغبة. ومن الواضح أن شبكة التسميق التي نظمت وفق المبدأ، الذي سبق أن فصلنا في عرضه، يمكن أن تتواصل في أي اتجاه يراد.

	الصوتي 1	الصوتي 2
الساكن 1	ʔ	ʕ
الساكن 2	ɣ	ʕ
الساكن 3	ʕ	ʕ
الساكن 4	ʕ	ʕ
الساكن 5	ʕ	ʕ

والحق انه لم يقدر لأليسا كويبير التي توفيت في سن مبكرة أن توسع تلك الشبكة أو، إذا تحدثنا بلغة البلاغة، لم يتح لها أن تبسط شبكتها بحيث «تقع» فيها جميع الصوتيات والسواكن المجهولة، بل والدلالات اللفظية الحقيقية للرموز. وبالإضافة إلى ذلك فإنها أضافت سنة 1949 إسهاماً مهماً في قضية قراءة الرموز، إذ أثبتت أن مجموعات الرموز التي سبق أن أشار إليها كاولي^٥ ʔ ʕ ɣ ʕ إنما هي صيغ المذكر والمؤنث لمفردات واحدة. وبالإضافة إلى كل ما سبق كان ذلك إشارة قيمة بالنسبة لتحديد طابع تلك الكتابة الغامضة، إذ إن اللغات التي تبدل صوتي المقطع الأخير من أجل التعبير عن جنس المذكر والمؤنث (بدلاً من إضافة مقطع جديد) هي لغات هندوأوروبية بصورة كلية تقريباً.

ربما يتراءى أن أليسا كويبير قد تركت لمن جاء بعدها حلاً جاهزاً للمشكلة، وإن مهمتهم كانت تنحصر في إتمام هذا الحل ومن ثم استخدامه. وإن أفضل دحض لهذه الفكرة هو أن أحداً لم يتمكن حتى سنة 1950 من أن يقرأ ولو مقطعاً واحداً أو كلمة واحدة دونت بتلك الكتابة المجهولة. واحتدمت كالمسابق المجادلات العنيفة حول اشد الاقتراحات تضارباً لتحديد طابع لغة الآثار، ولم تدخل أي تبديل على القضية تلك الدراسات الرائعة من أمثال أطروحة الدكتوراه التي تقدم بها الأمريكي ايميت ل. بينيت الصغير (سنة 1947) وعالج فيها مادة بيلوس وفق المبادئ التي طرحتها أليسا كويبير بالنسبة للوحات كنوس ثم نشره لألواح بيلوس (1951) وكنوس (1953) ثم الشروح والتعليقات التي قدمها ذلك المؤلف نفسه للمقاييس والأوزان (1950).

ومهما يبدو الأمر غريباً فإن الدفعة الحاسمة نحو حل الرموز قام بها السير ارتور ايفانس، وإن كان قد فعل ذلك دون وعي منه و «دون قصد». وعلى أي حال فإن ايفانس لم

يكن قادراً على أن يتبأ بأن عالم فك الرموز في المستقبل سيكون جالساً أمامه أثناء إلقاء تقريره حول الآثار المينوسية، والذي قرأه في المعرض البيبيلي للمدرسة الاثينية البريطانية سنة 1936 في لندن، وأن ذلك الفتى كان يلاحق بكل توتر كشوفاته. وهل كان بمقدور ايفانس حتى أن يفكر بأن ذلك التلميذ ذا الأربعة عشر ربيعاً، والذي كان بكل ذهول يصني اليه، وهو الذي كلال الشيب رأسه، سيقوم بعد 16 عاماً بفك رموز الكتابة الخطوطية الكريتية - المكنية ب!

إن مايكل فينتريس (1922-1956) لم يكن في ذلك المكان مجرد زائر، حضر عَرَضاً بدافع من حب الاستطلاع، ليستمع إلى التقرير العلمي وإلى رؤية حبيب الجمهور، الرجل الذي اكتشف قصر كَنُوس. لقد أبدى منذ طفولته حباً جارفاً نحو اللغات المعروفة قليلاً والكتابات الغامضة. أما في صباه فكان يذهل أصدقاءه ومعارفه باستعداداته اللغوية الخارقة للعادة كما انه احتل قلوب الغرباء، وهو يتحدث إليهم بطلاقة وحرية بلغاتهم الأم.

واستقرت الكتابة «المينوسية»، وكانت تسمى بهذا الاسم في كل مكان آنذاك، في قلب الفتى وهو في سني الدراسة لكي لا تبارحه بعد ذلك أبداً. وفي سنة 1940. وبعد أن غادر الفتى المدرسة وانصرف إلى دراسة الفن المعماري أصدر، وهو في الـ 18 من عمره، «المدخله إلى الكتابة المينوسية» حيث أخذ يطالب بإخضاع اللوحات لامتحان في اللغة الإيتروسكية، وعلى الرغم من أن اللوحات بقيت مصرةً بعناد على صمتها فإنه لم يتنازل عن ذلك المطلب إلا بعد 12 عاماً.

وقطعت الحرب أعمال فينتريس. فخدم مدة أربع سنوات ضابطاً ملاحاً في القوات الجوية العسكرية الملكية البريطانية ثم في قوات الاحتلال البريطانية في ألمانيا. وكان خلال هذه السنوات بطولها يحمل معه صور آثار الكتابة المينوسية ونسخاً شمعية لها. وفي سنة 1946 وبعد أن نضا عن كاهله معظم مليكه الرمادي وعاد إلى دراسة الفن المعماري اكتشف أنه قد أتم الـ 24 من عمره. وسرعان ما تأقلم الطيار المجرب مع محيطه الجديد، فراح يشارك أشد مشاركة في جميع المؤسسات الطلابية وصارت رسومه وتخطيطاته المعمارية تستأثر بالانتباه وتؤمن له المنحة الدراسية على مجرى العامين الأخيرين من دراسته.

لقد وقع اختيار فينتريس على العمارة بالذات كمهنة له، ويبدو لنا أن من الصعب أن تتطابق مع الواقع تلك الفرضيات التي جاء بها بمض من كتب سيرة حياته، ممن رغبوا بتصوير الأمر وكأن العمارة كانت مهمة عابرة بالنسبة له بينما كانت جميع أفكاره تنصب في ميدان الكتابة الكريتية. وعندما حصد منجل الموت في أيلول سنة 1956 في وقت «مبكر جداً»، أبكر مما فعل بالنسبة لشامبليون، ذلك الباحث اللامع وعالم فك الرموز، قامت

الدوائر الرسمية والخاصة المنطلقة من أوساط الفن المعماري بنمي مايكل فينتريس - كواحد من أوفر المعماريين عبقرية وأحفلهم وعداً بالمستقبل الإبداعي بين الجيل الفتي.

كان بيثيت قد نشر في مقاله الذي سبق ذكره سبع لوحات جديدة من بيلوس، وبذلك زادت المجموعة الأثرية ثراء، وهو ما أهاب بفينتريس إلى الإقدام على سلسلة من المحاولات الجديدة، وأغرق نفسه في الدراسة التفصيلية للكتابة بعد أن ألقى عنه، ودون ندم، جميع قناعاته الخاصة السابقة. وهكذا كان عليه أن يمضي الليالي بطولها عاكفاً على العمل، كان يعمل على وضع تصميمات الأبنية المدرسية بطلب من قسم البناء المعماري في وزارة التربية، ونضيف بالمناسبة انه كان سنة 1952 قد بنى منزله الخاص الذي كان باعتراف الاختصاصيين «شرة معمارية بسيطة، متكاملة بصورة منطقيّة، مبهجة للعين ومجردة من كل ما لا ضرورة له». وقد عرض فينتريس نتائج سهراته الليلية بصورة مفصلة في «ملاحظات عمل» (*Work Notes*) التي طبع منها نسخاً عديدة ووزعها على أشخاص معينين، ثم وزعها، بين كانون الثاني سنة 1951 وحزيران سنة 1952 على الأخصائيين والمهتمين بهذا الموضوع. وبعد أن قام بإيضاح أفكاره وبحوثه قام بدعوة الآخرين إلى المساهمة في ذلك العمل المشترك.

والحق أنه، في «ملاحظات العمل» تلك، كان لا يزال يسير بادئ الأمر في الاتجاه الخطأ. ففي البداية كانت تدرس وتقابل إمكانية القراءة «الإيجية» والإيتروسكية للمضردات - فإن مجرد التكبير في اللغة اليونانية كان يعدّ في مفهوم التاريخ وعلم الآثار المدرسين أمراً يقترب من الهرطقة. ومع كل ذلك كانت الملاحظات ذات الأرقام 2، 8، 10، 11 و 12 تتضمن البذور الجينية لفك الرموز المقبل، إذ كانت تتضمن الملاحظات والمقترحات التي كان قد قال بها، إلى حد ما كل من أليسا كويبر، وجون تشيدويك عالم الفيلولوجيا الكمبيوترجي الشاب واليوناني ك. د. كنيستوبولوس والأمريكي ايميت ل. بيثيت. أما الملاحظات ذات الأرقام 1، 13 و 14 فكانت مكرّسة لأسماء الأعلام وقد طرحت على الأقل ستة «تصاريض» تم التعرف عليها من خلال صوتي المقطع الأخير من الحالة الاسمية. وإلى هذا راح فينتريس يوسع من شبكة أليسا كويبر. أما الألواح الأخرى، وهي التي كانت تتضمن معطيات رقمية فقد أعطته المفتاح لفهم الفروق بين صيغ الجمع والمفرد. وفي الملاحظة رقم 9 يحاول من جديد أن يشرح الملاحظات التي تم التوصل إليها بواسطة الصيغ الإيتروسكية للتصريف إلا أن تحقيق هذه الفكرة كان يتجه إلى أن يكون أصعب فأصعب في كل مرة. وأخيراً فإن الملاحظات ذات الأرقام 1، 15 و 17 تستعرض مراحل وضع شبكة فينتريس واحدة تلو الأخرى، تلك الشبكة اتخذت في شباط سنة 1952 الصورة التي يظهرها (الشكل 78).

كان ذلك إنجازاً يعتمد إلى حد كبير عن الكمال. فالصورة تبين أن عدد الصوتيات

1 Γ₂ Γ₃ Γ₄ Γ_?
-a? -e? -i? -o?

لا يزال قيد الفرضية، وعلاوة على ذلك فقد وضعت بعض الرموز في خانتين مختلفتين من اللوحة إذ إن فينتريس كان يمتد آنذاك بإمكانية وجود معنيين في مثل هذه الحالات.

C1	𐤛		𐤛		
C2	⊕	𐤀	𐤁		
C3	𐤃 𐤄			𐤅	
C4	𐤆	𐤇			
C5	𐤈	𐤉	𐤊	𐤋	
C6	𐤌	𐤍 𐤎		𐤏	
C7	𐤐	𐤑	𐤒	𐤓	
C8	𐤔	𐤕	𐤖	𐤗	
C9	𐤘	𐤙	𐤚		𐤛
C10		⊖		𐤜	𐤝
C11	𐤞		𐤟		𐤠
C12	𐤡	𐤢	𐤣	𐤤	𐤥
C13	𐤦	𐤧	𐤨	𐤩	
C14		𐤪	𐤫	𐤬	𐤭
C15	𐤮	𐤯	𐤰	𐤱	𐤲
C?		𐤳	𐤴		

وبالرغم من كل شيء فإن ذلك المخطوط الأولي، ثمره العمل المضمي كان يتسم بميزتين كبيرتين، ونريد على التو أن نوجه إليهما انتباه القارئ المشدد آخذين بالحسبان تلك الهجمات التي وجهت فيما بعد إلى نتائج فينتريس. والسبب في ذلك أن مادة البناء التي استخدمت من أجل تلك الشبكة الناقصة، والتي لم تكن دقيقة إلى حد كاف، كانت مقصورة على الملامح الموضوعية التي تظهر من تلقاء نفسها للعيان عند رؤية الآثار المكتوبة؛ وبكلمة أخرى فإن الشبكة التي استعرضناها كانت قائمة فقط على تلك المعطيات التي يمكن التوصل إليها عن طريق تصنيف الألواح انطلاقاً من مكان العثور عليها وغير ذلك من قرائن اكتشافها، بالإضافة إلى طريقة

الشكل -78- «شبكة» فينتريس التي أجزها في شباط (فبراير) سنة 1952 قبل عملية فك الرموز

الإحصاء المادي لرموز الكتابة والمقارنة بينها. إن أيّ نظرية متعلقة بنوعية اللغة الثاوية في اللوحات ما كانت لتلقي ضوءاً على هذا البنيان ولم يكن هناك أي خط قد وضع أو أُكمل بهدف التوصل إلى نتائج أفضل وفقاً لنهج لغة محدّدة ما!

ويجب الإشارة إلى هذا بشكل خاص، لأن على رأس النقاط، التي تعرّضت للهجوم ضد نظامه فيما بعد، كانت الفرضية القائلة بأن آثار الكتابة الخطية «ب» لا تشترك بأي شيء مع اللغة اليونانية، أما «اليونانية» التي يمكن قراءتها ضمن تلك الكتابة فقالوا بأنها من تضمين فينتريس نفسه.

وفي ذلك العام تراجع فينتريس عن النظرية الإيتروسكية، وقد اتجه في ذلك الطريق بكثير من الشعور بالرغبة والتشكك، إلى أن قامت الحقائق المتميّزة كما هو معروف بكثير من العناد والإصرار بإجباره على الاعتراف بأن الحديث يدور حول لغة يونانية.

وفي شباط من سنة 1952 قام بروفييسور جامعة اوكسفورد السير جون مايرز، كما أسلفنا، بإصدار «*Scripta Minoa II*» وهي تلك الألواح الكنوسية التي خلفها ايفانس وكانت تمثل مادة بقيت 50 سنة على الرف. وهل من الضروري القول أن مايرز قد شرع بعمل يتطلب الكثير من التوضيح، وإن طريقه كان أبعد من أن يكون منطقياً بالزهور. ولعل هذا هو السبب الذي جعل عمله غير مبرراً من جملة من النواقص التي لفت إليها النظر بينيت وتشيدويك في سنوات 1952، 1954، 1955.

أما بالنسبة لفينتريس فلم يكن ينتظر من المنشورة الجديدة غير شيء واحد: التأكيد الإضافي لدقة شبكته.

ويعد المقارنة بين المفردات المأخوذة من اللوحات التي أعيد طبعها واللوحات التي كانت بين يديه توصل فينتريس إلى فكرة كانت فيما بعد حاسمة بالنسبة لعمله في حل الرموز.

وفقاً للشبكة التسميكية السابقة (الشكل 78) والتي سببت لوضعها كثيراً من المتاعب، مثلما سببت لآخرين ما لا يقل عن ذلك من الشكوك، بسبب الاختفاء الكامل للتناظر فيها، كانت بعض المفردات الوحيدة النمط تُختتم في نهاياتها بكتابات يمكن فهمها على أنها نهايات إغريقية. وفي الوقت نفسه كانت بعض كلمات النمط نفسه تتسم في كتابتها بتغيرات ملموسة لا يمكن فهمها وليس لها أي ضرورة إذا ما حكم عليها من خلال النص. فأين هو الخطأ؟ إنه بالطبع لا يكمن في الألواح. ومن جديد أمسك فينتريس بالشبكة. وكان لا بد من العودة إلى الفرضية التي سبق لفنتريس أن رفضها وهي فرضية التكافؤات الأربعة للرموز ومعانيها، وخاصة بالنسبة لفرضية أليسا كويبر، فلو كانت هذه

التكافؤات صحيحة لأمكن إضافة عناصر ملموسة إلى التناظر الذي تتضمنه الشبكة، ولا ترتفع إلى حد كبير مستوى صلاحيتها.
وها هي ذي تلك التكافؤات:

$$\tau = a, \quad \square = ja, \quad \boxminus = o, \quad \uparrow = jo$$

فلو كانت هذه صحيحة لكان من الصعب تعداد جميع النتائج التي تتبثق عن ذلك، ولكانت النهاية التي كثيراً ما نلتقي بها في أسماء الأعلام المذكورة في حالة الإضافة وهي \uparrow أو \uparrow تلفظ على أنها $jojo(i)$ و $jo(o)$ ولتطابقت في هذه الحالة مع نهايات الصيغ القديمة مثل *Autolykoio* و *Ikarioio* التي كانت معروفة قبل ذلك بكثير من أعمال هوميروس؛ ولكانت النهاية المفترضة لحالة الإضافة لجمع المؤنث \boxminus هي $(ja-o)$ ، ولتطابقت مع الصيغ القديمة *theá δ n* و *gaiá on* فإذا وضعنا هذه المعاني في مجموعات أليسا كويبر الثلاثة لوجدنا الخمس الأولى من بينها (نمطا *A* و *B*) تكوّن هياكل لكلمات مكونة من صوتيات وأنصاف صوتيات متلاحمة، ولتحدثت هذه الكلمات على الفور بلفة رموز لا تتطلب الكثير من الخيال من أجل ترميم السواكن الناقصة منها، ولوجدنا أسماء المدن الأكبر في كريت القديمة متوضعةً بترتيب دقيق ومن بينها اسم عاصمتها ليكتوس، فيست، تيليس، كنوس وأمنيس {انظر الشكل 76، الحالة الإعرابية الثانية، نمطا *A* و *B*، ففي الكتابة الأصلية غير الكاملة، التي تذكر بكتابة قبرص، تلفظ أسماء هذه المدن هكذا *ru-ki-to*: (الـ *r* تحل محل *l* وهي في اليونانية القديمة = *y*)، *ko-no-so*، *tu-ri-so*، *pa-ito*، *a-mi-ni-so*.

ولكن لو كانت تلك المعاني صحيحة لظهر التفاعل المتسلسل بصورة لا مندوحة منها في الشبكة ولاتخذ ما لا يقل عن الـ 31 رمزاً معناه الأصلي والدقيق. وعلى الرغم من هذه المادة «الفاضحة» فإن فينتريس كان يميل في ملاحظة العمل الأخيرة لديه، ذات الرقم 20 إلى الفكرة القائلة بأن ذلك كله ما هو إلا ضرب من خداع النفس. ولكن ما كاد البريد يوصل هذه الملاحظة المرسلّة في الـ 2 من حزيران سنة 1952 إلى الأشخاص الموجهة إليهم حتى كان فينتريس الذي انكب من جديد على عمله يطرح المعاني اللفظية الجديدة كضرب من التجريب في هذه اللوحة أو تلك وحتى أدرك أن اللغة اليونانية هي التي تؤدي إلى حل المشكلة، بل إنها كانت تطالب بأداء مثل هذا الدور. وهكذا بدأت الكلمات تطفو بصورة أكثر فأكثر من غياهب الظلمات وتستيقظ من سبات آلاف السنين فظهرت *po-me* وهي حالة الإضافة من *po-me-no* (وهي *poimé n* في اليونانية الكلاسيكية) وتعني «راع» و *ka-ke-u*

«حائك» (*gnapheú s*) *ka-na-pe-u* و «خاري» (*kerameus*) *ke-ra-me-u* و «حداد» (*chalkeú s*) وبالطبع فإن كلمتي (*hiereus*) *i-je-re-ja* و (*hié reia i-je-re-ja*) وتعني «كاهن» و «كاهنة» لم تسمحا بانتظارهما طويلاً!

ولكن في ذلك الوقت بالذات تكشفت انفصامات هائلة بين طريقة كتابة المفردات في الألواح الكريتية وبين صيغ اللغة اليونانية الكلاسيكية التي وصلت إلينا. وكان الكريتيون يكتبون اللفظ المقطعي والصوتي وكان اللفظ النهائي للمقطع يسقط ف *pa-te* كان يمكن أن تعني *pater* «أب» وأيضاً *pantes* بمعنى «كل شيء»؛ وكانت *stathmó s* «إسطبل» تكتب *ta-to-mo* (سقطت ال *s* في بداية الكلمة). وبالإضافة إلى ذلك لم يكن هناك أي رمز للتعبير عن السواكن المنفصلة، وقد يتراءى أنه كان يجب أن تطبق القاعدة نفسها في حالة ورود ال *th* قبل ال *m*، بيد أن الأمور كانت تسير على عكس ذلك، وكانت ال *th* تتلقى بالإضافة إلى ذلك الصوتي *o*. أما السواكن الطويلة والقصيرة فلم تكن تختلف فيما بينها، مثلما لم تكن تميز ال *b* عن ال *p*؛ ال *ph* عن ال *g*؛ ولا ال *k* عن ال *chk*؛ وقد اقتعنا مثال اسمي مدينتي ليكتوس وتيليس حتى بأن *r* و *L* قد تطابقتا!

إن فينتريس، الذي كان معمارياً في اختصاصه، ولم يكن بأي حال عالم لغات، قد أدرك على الفور أن بالإمكان في مثل هذه الحالات حدوث الكثير جداً بل وكل شيء بيد أن ذلك ال «كل شيء» الذي هو، أقرب ما يكون إلى ال «لا شيء»! وقد وعى بصورة جيدة بأن عليه أن يستدعي لمساعدته عالماً لغوياً حقيقياً مختصاً بصورة متمعة في اللغويات.

كان عليه أن يتجه بطلب النصيحة إلى السير جون مايرز، الذي ساعده بالتعرف على شاب كان قد أنهى جامعة كمبريدج ثم اشترك في وضع المعجم اللاتيني وإصداره في أوكسفورد حيث تعرف على مايرز. وبعد حين، في بداية سنة 1952 استدعي إلى جامعة كمبريدج كأستاذ مساعد في قسم الفيلولوجيا الكلاسيكية. وهكذا تألف ذلك الثنائي المرموق - مايكل فينتريس وجون تشيدويك. وهذان الاسمان يترابطان، أحدهما بالآخر، وبقراءة رموز الكتابة الخطوطية ب.

كان جون تشيدويك، المولود سنة 1920، ينحدر من أسرة أحد المستخدمين في الدولة. وكان يتردد في سني طفولته على كلية القديس بافل الشهيرة في لندن ثم انتسب إلى جامعة كمبريدج. وعلى الرغم من أنه كان يكبر فينتريس بعامين فإنه لم يتفاد المصير المشترك بينهما - فقد قطعت الحرب دراسته الجامعية أيضاً، فاستدعي إلى القوات البحرية المسلحة البريطانية حيث خدم مدة خمس سنوات.

وعلى نحو ما كان فينتريس كان تشيدويك يضمن اهتماماً حياً نحو اللغات، وقد استطاع د. بين، أستاذه المبدع للغة اليونانية في الكلية، وهو الآن أستاذ في استامبول، أن ينمي القدرات الوليدة لدى ذلك الطفل الموهوب.

لكن اللغات الغربية لم تكن كل ما يشغل طالبنا، فالكتابات المجهولة أو المعروفة قليلاً كانت تشده بجاذبية لا تقاوم. وإذا كان فينتريس ذو الثمانية عشر ربيعاً، قد انكب سنة 1940 على تفحص الألواح الكريتية من خلال ما أسماه بمضمونها الإيتروسي فإن تشيدويك كان قبل عامين من ذلك الموعد قد انكب على دراسة اللغة التيبثية. «كنت خلال الحرب أستغل كل دقيقة فراغ من أجل دراسة اليونانية الحديثة والسنسكريت. كما أن الحرب هيأت لي فرصة دراسة اللغة اليابانية، وقد دفعتني معرفة هذه الكتابة (فهي كما أشرنا في الفصل الأول تعتبر أنموذجاً للكتابة المقطعية - المؤلف) واللفة إلى إعادة النظر في فتاعاتي المسبقة وقدمت لي عوناً كبيراً أثناء مجابهتي للغة مكتوبة بكتابة ايديوغرافية أو مقطعية⁽¹⁾».

وفي سنة 1945 ودّع تشيدويك، ذو الستة وعشرين عاماً، السلاح وعاد إلى كمبريدج وفي العام التالي اجتاز بامتياز امتحانات التخرج في اختصاص الفيلولوجيا الكلاسيكية. في ذلك العام نفسه بدأ بمعينة اثنين من رفاقه في الجامعة «وعن طريق الجهد الشخصي» بدراسة النصوص الكريتية. ولم تجر الأمور على ما يرام في بادئ الأمر وسرعان ما انصرف الزميلان الآخران عن القضية. لكن انصرافهما لم يوهن من عزيمة جون تشيدويك، فراح يواصل نشاطه رغم أن دراسته لم تكن مقترنة دوماً بالتخطيط والمنهجية. فكان يتسقط مختلف المقطعات والملاحظات، ويقدم في بعض الأحيان على استنتاجات ذات حظ كبير من الجراءة، وكان في الأساس ينتظر ظهور المادة الجديدة، وعلى الرغم من أنه كان يقول في بداية عمله سنة 1946 بإمكانية وجود اللغة اليونانية في الألواح الكريتية فإن ذلك لم يسر به نحو أي نتائج ملموسة.

وقد باغتت الإخبارية المتعلقة بفك الرموز، والتي أرسلها فينتريس سنة 1952، تشيدويك الذي كان غارقاً بصورة كلية في اهتماماته الجديدة في القسم وعلى الرغم من أنه كان خلال السنوات الست الماضية قد انصرف بصورة مشددة إلى دراسة الكتابة الكريتية - الميكينية.

1- رسالة جون تشيدويك الى المؤلف بتاريخ 22 شباط سنة 1957.

أطلع السير جون مايرز تشيدويك على آخر «ملاحظات عمل» قام بها فينتريس. ولم تكن هذه قد تركت انطباعاً عميقاً في نفس مايرز كما أن تشيدويك نظر إليها نظرة ريبة بادئ الأمر على الرغم من أنه كان ينتمي إلى صف القائلين بالتفسير اليوناني للنصوص المينوسية وهو ما يعني أنه كان مهياً لقبول استنتاجات فينتريس. وقد مكّن مايرز هذا زميله الشاب من استتساخ شبكة فينتريس في صورتها الأولى.

«كانت الأيام الأربعة التالية أشد الأيام توتراً في حياتي. فقد انغمست في العمل إلى درجة أنني نسيت بصورة نهائية يوبييل زواجنا وهو ما لاحظته زوجتي بكثير من الملامة⁽¹⁾».

كان أول ما قام به تشيدويك هو أن ضمن في النصوص تلك المعاني التي اقترحها فينتريس وإذا به، ولدهشته الكبيرة، يكتشف أيضاً من المفردات اليونانية (وفق «كتابة» فينتريس) ألفت مجرد التفكير بأي شكل من أشكال المصادفة؛ واصطدم في الوقت نفسه بعدة معان كانت أفكارها قد لمت في ذهنه أثناء دراساته الشخصية. إلا أن أكبر برهان على صحة استنتاجات المعماري الشاب كان التقاء تشيدويك بمجموعة كاملة من الصيغ «غير الكلاسيكية»، وهي بالذات تلك التي أثارت الشك عند فينتريس، بينما كانت منذ النظرة الأولى واضحة ومألوفة جداً بالنسبة لتشيدويك، الملامّة في حقل اللهجات اليونانية. فهل من حقنا أن نتدهش بعد ذلك لتلك المراسلة الحية التي توثقت عراها على الفور بين الباحثين (وقد صارا فيما بعد يتراسلان أحياناً بالكتابة التي فكاً رموزها معاً) والتي لم تقطع إلا بالنهاية المساوية التي انتهت إليها فينتريس. أما تشيدويك فقد افترض من جانبه الدلالات اللفظية بالنسبة لعدد من الرموز التي لم تقرأ؛ فكانت الملاحظة الواحدة تكمل الملاحظات الأخرى أو تجر وراءها مجموعة كاملة من الملاحظات الجديدة. وبالمناسبة فقد كان تشيدويك أول من قدر له أن يقرأ أسماء الآلهة فوق واحد من الأنواع الكنوسية. وبالمناسبة فقد كانت تلك واحدة من المناسبات القليلة التي كان فينتريس في بدايتها ينظر بعين الشك إلى ما تعرّف عليه صديقه.

«حاولت دوماً أن أؤكد أن فتح الثغرة كان من إنجاز فينتريس بمفرده، أما دوري فكان شبيهاً بدور فرقة المشاة الأولى وهي تتجه إلى توسيع الثغرة، أو إلى ذلك الدعم الضروري للهجوم الذي تقوم به طليعة الدبابات. فالتحديد البسيط للدلالات اللفظية لم يكن إلا البداية أما المهمة الصعبة إلى درجة خارقة للمادة - وهي ترجمة الكلمات المقروءة إلى لغة يونانية مفهومة - فقد عملنا عليها كشركيين متكافئين. فكنا دوماً نتبادل المقترحات عن

1- المصدر السابق

طريق المراسلة. وكثيراً ما كنا نتوصل إلى نفس الفكرة بصورة يستقل فيها أحدنا عن الآخر...

كان العمل مع فينترس متعة كبيرة، وحتى عندما كنا نختلف في نقطة من النقاط كان يتاح لأحدنا ودون أي صعوبة أن يفهم وجهة نظر الآخر وأن يقترح قراراً قائماً على التنازل أو نعرض وجهتي نظرنا المتضاربتين⁽¹⁾.

a	τ	a ₂	τ	e	Α	i	Ψ	o	Ϝ	u	Ϝ
ai	Χ			je	Χ			jo	Ϝ		
ja	Ϝ			we	Ζ	wi	Α	wo	Α		
wa	Ϝ										
da	τ			de	Χ	di	τ	do	Ϝ	da ₂	Ϝ
xa	⊕			ne	Χ	xi	τ	no	Ϝ	xu	τ
ma	Ϝ			ne	Ϝ	mi	τ	mo	Ϝ		
na	τ			ne	τ	ni	τ	no	Ϝ	nu	τ: nu ₂ ? Χ
pa	τ pa ₂ ? τ			pe	Ϝ	pi	Ϝ	po	Ϝ	pu	τ
				ge	⊕	gi	τ	go	τ go ₂ ? Ϝ		
ra	τ ra ₂ ? Ϝ			re	τ	ri	τ	ro	τ ro ₂ Ϝ	ru	τ
sa	τ			se	Ϝ	si	Ϝ	so	τ		
ta	τ ta ₂ ? Ϝ			te	τ pre Ϝ	ti	Ϝ	to	τ	tu	Ϝ
				z?e	Ϝ			z?o	τ z?o ₂ Ϝ		

الشكل -79- الجدول الأساسي للرموز المقطعية (مأخوذ عن الـ «Evidence»)

حتى نهاية 1952 كان فينترس وتشيدويك قد أنجزا أول منشور كبير وهو مقال

بمنوان: «شاهد على اللهجة اليونانية في الأرشيفات الميكينية»

في «Evidence for Greek Dialect in the Mycenaean Archives» وقد ظهر في العام التالي في

«The Journal of Hellenic Studies (vol.LXXIII, 1953, pp. 84-103)» وكان ذلك منشوراً

رائعاً، تميز بجودة المضمون ودقة السبك، وقد صمد بصورة رائعة أمام نيران النقد، واستدعى

خلال العامين التاليين ظهور نحو 100 دراسة عملية أخرى تتعلق بلغة اليونان الميكينيين وهو ما

يؤكد من الناحية الظاهرية أيضاً أهمية الكشف⁽²⁾.

1- المصدر السابق

2- H [ugo] M[ühlestein]- Basler Nachrichten , 20 Sept. 1956, Beilage No 400.

كانت المقالة تتضمن مفتاحاً للكتابة لكنها لم تكن مجرد جداول عديدة اللون تتضمن الصوتيات والسواكن المرموز إليها بالأرقام، بل جرداً بالدلالات اللفظية المجددة لـ 65 رمزاً مقطعيّاً (من 88 كانت قد حددت حتى ذلك الحين). إنها «الشبكة التجريبية» المعروضة في (الشكل 79) في صورتها الأولى التي لم تكن قد اكتملت بعد.

كان فينتريس وتشيدويك قد قاما بإذاعة قراءتهما للرموز في عدد من التقارير، وأرسلا موجزاً قصيراً لدراستهما وحظيا بأنصار بين مشاهير علماء إنجلترا والسويد. وكان ر. و. بارنيت و.إ.د. غيلب، المعروفين لدينا من الفصول السابقة، من أوائل مؤيديهما.

إلا أن فئة صغيرة المدد فقط انضوت تحت لواء الـ «Evidences» بينما بقي الجانب الأعظم من العالم العلمي يلعب دور المراقب البارد المتحفظ وفتح النقد نيرانه وكان الأمريكي كارل أ. بليغين من بين علماء الآثار الذين وافقوا على نظرية فينتريس - تشيدويك من ناحية المبدأ، ووقفوا بحذر ورغبة كبيرين من الحل المحدد الذي طرحاه. وقد شرع في صيف سنة 1952 بالحفريات من جديد في بيلوس فمثر فيها على ما يزيد عن 330 من الألواح الجديدة. وبالطبع لم يكن هناك حتى مجال للحدث عن تحديد أهمية اللقبة على الفور وفي عين المكان، وهكذا عاد بليغين ربيع سنة 1953 إلى اليونان حيث انكب على الدراسة المفصلة للألواح وإعدادها للنشر.

ويجدر هنا أن نتذكر ذلك الفوز الذي هزم به ليبسيوس أولئك الحساد والمتشككين الذين ارتابوا في صحة قراءة شامبليون عندما قدم لهم قرار كانوب وبأي طريقة رائعة تأكدت الدراسات في حقل الهيروغليفية الحثية بعد كشوفات هـ. ت. بوسيرت في قره تيبى.

إن قرار كانوب وثانوية قره تيبى كانا بالنسبة للكتابة الكريتية - الميكينية ب لوحة صغيرة من بيلوس. وفي أيار من سنة 1953 كان لـ إ. بليغين يجلس أمامها ممتلئاً بالدهشة المتشككة وينظر إليها بانفعال متعاطف.

كانت اللوحة تبدو هكذا:



الشكل -80- لوحة الأدوات المتزلية من بيلوس.

وفي 16 أيار سنة 1953 جلس بليغين يخط رسالة إلى كلا الباحثين في فك الرموز فأنهى إليهما أنه عثر على لوحة وان الحديث «يدور فيها على ما هو واضح عن أوان لبعضها ثلاثة أرجل ولأخرى أربع أذان وثلاثة ثلاث أذان وإن أخرى عديمة الأذان. أما الكلمة الأولى (وكان بليغين يقصد الايديوغراما - المؤلف) فهي وفقاً لنظامكما، تعني، على ما يبدو *ti-ri-po-* ، وهي تتردد مرتين كـ *ti-ri-po* (في المفرد؟). أما الإناء، ذو الأذان الأربع فتسبقه *qe-to* ، وذو الأذان الثلاث *ti-ri-o-we-e* أو *ti-ri-jo-we* وتسبق الإناء عديم الأذن *a-no-we* ، وهذا كله يبدو أروع من أن يكون حقيقة، وربما لا يعدو الأمر مجرد الصدفة⁽¹⁾.

لا لم تكن هناك صدفة. ويمكن الاقتناع بذلك إذا ما تتبعنا الباحث الفييني ف. ميرلينغين، الذي وُزَع الكتابة على اللوحة وفقاً لنظام فينتريس ثم كتبها وفقاً للتدوين اللفظي، وللصيغة اليونانية الكلاسيكية والترجمة الألمانية⁽²⁾ (الشكل 79).

وليحاول القارئ أن يعيد هذه المدونة وان ينفذ، مسترشداً في الحالات المرعبة بجدول الرموز المقطعية (الشكل 79)، أول تمرين له في قراءة الكتابة الخطية ب. لقد كان ذلك تأكيداً رائعاً وفي الوقت نفسه برهاناً قاطعاً لا يدحض، وأخيراً فإن النصر الذي تحقق تحت راية الـ «Evidence» أخرج أخيراً عالم العلم من حال التشكك والريبة المتحفظة. ولم يتلصك العلماء الموقرون من جميع أنحاء العالم في الاعتراف بالمنتصرين فاستقبلوهما برغد من التصفيق حتى أن أشد المتشككين عبروا عن موافقتهم «المبدئية» فقط بالطبع. ومن بين من وقف إلى جانب القراءة الجديدة للرموز سواء بصورة «مبدئية» أو بلا تحفظ كان كل من يوهانيس فريدريك، بيرو ميريدجي، ويوهانيس سوندفال الممثل الممتاز للعلم الفنلندي، وايرنست زيتنغ، بروفيسور توينغين، وكان قد حاول دون أي نجاح حل رموز اللوحات عن طريق المنهج الكريبتوغرافي - الإحصائي الذي صيغ خلال الحرب العالمية الأولى؛ وقد تراجع عن نظريته وأعطى تأكيداً جديداً لنظرية فينتريس إذ حدد في إحدى اللوحات حيث تظهر بجانب الايديوغراما (*di-po a-no-wo-to* قراءة *depas anouaton* «إناء عديم الأذن»، أي نفس ما كان يعني في اللوحات الأخرى «دون أذان».

1- M. Ventris , J. Chadwick , Documents in Mycenaean Gaeek , P. 25.

2- W. Merlingen, Die Kretische Schrift entziffert , - Der Mittelschullehre- und die Mittelschule , No 9 , wien , 1954 , S. 12.

رقم السطر من اللوحة	التدوين اللفظي والترجمة	الايديوغراما
1	<i>ti-ri-po-de ai-ke-u ke-re-si-jo we-ke</i> <i>tripode Aigeüs kresios (w)érge</i> ثلاثي الأرجل، أيوس صنم (؟)	 ثلاثية الأرجل : 2
1	<i>ti-ri-po e-me po-de o-wo-we</i> <i>tripous hent podi oi(w)ðwēs</i> ثلاثي الأرجل، على رجل واحدة وبذراع واحدة	 ثلاثية الأرجل : 1
2	<i>di-pa me-zo-e ge-to-ro-we</i> <i>dépas me(l)zon tetrowes</i> إناء كبير ذو أربعة آذان	 اوان ذات أربع آذان: 1....
2	<i>di-pa-e me-zo-e ti-ri-o-we-e</i> <i>dépas nelzoe triōwes</i> إناء (ان): مكبيران ذو ثلاث آذان	 اوان ذات أربع آذان: 2
	<i>di-pa me-wi-jo ge-to-ro-we</i> <i>dépas melon totrowes</i> إناء: صغير ذو أربع آذان	 اوان ذات أربع آذان: 1
3	<i>di-pa me-wi-jo ti-ri-jo-we</i> <i>dépas melon triōwes</i> إناء: صغير ذو ثلاث آذان	 اوان ذات ثلاث آذان: 1
3	<i>di-pa me-wi-jo a-no-we</i> <i>dépas meton anōwes</i> إناء: صغير دون آذان	 اوان دون آذان: 1

وفي سنة 1954 قام فينترس وتشيدويك بصورة مشتركة بوضع خطة عمل كبير يتشعب إلى ثلاثة أقسام. وكان مفترضاً أن تدرس في الأول القضايا المتعلقة بالكتابة واللغة والثقافة الميكينية، أما الجزء الأساسي من الكتاب، أو ما يسمى بعموده الفكري، فكان الفصل الثاني وكان مزجماً أن تنشر فيه 300 لوحة مختارة بصفة خاصة من كنوس، بيلوس وميكينا بكل

ما تستلزمه من تدوين لفظي وتعليقات: أما بالنسبة للفصل الثالث فكان المفروض أن يتضمن معجماً ميكينياً وفهارس مختلفة. وقد تضمن الكتاب مقدمة بقلم البروفيسور آلان فايس. وفي نهاية 1955 كان قد تم إعداد الكتاب بكامله على هيئة مخطوط وتضمن، إلى جانب مذكراته، مفتاحاً مزيداً ومنقحاً لقراءة الكتابة. ولم يبق بعيداً عن التفسير إلا عدد قليل من الرموز، وذلك بسبب الندرة الكبيرة لاستخدامها في الألواح التي تم اكتشافها.

استقبل فينتريس - المهندس المعماري عام 1956 وهو غارق في دراسة قضايا الهندسة المعمارية. إلا أنه تلقى في عيد الفصح أثنى هدية بالنسبة لفينتريس - قارئ الرموز وهي الدعوة للمشاركة في المؤتمر «الميكيني» نظم في جيف - سور - إي فيت قرب باريس من طرف المركز القومي للبحوث العلمية. وتسنى لفينتريس وتشيدوفيك أن يتصلا هناك بصفة شخصية مع أشهر العلماء الماملين في ذلك الاختصاص. ورسخ ذلك اللقاء وإلى الأبد في ذاكرة العلماء الصورة الرائعة لفينتريس - العامل الذي لا يكل في حقل العلم.

وفي الـ 6 من أيلول سنة 1956 وفي غيتفيلد، القريبة من لندن، قتل فينتريس في حادث سيارة وهو في الـ 34 من العمر.

المعاني الأساسية							الأومقونات				
•	π	•	A	•	ψ	•	Π	•	Ϝ	a, (he)	π
de	†	de	ϛ	di	̄	do	ϙ	du	ϛ	di	ϛ
je	⊖	ju	ϛ	-		jo	ϙ	ju		di, j	<
ku	⊕	ku	ϛ	ki	∇	ko	ϙ	ku	ϙ	ui, j	>
me	M	me	ϙ	mi	∪	mo	ϙ	mu	π	me (kue)	⊖
ne	̄	ne	ψ	ni	∪	no	ϙ	nu	⊖	nue	ϙ
pe	‡	pe	⊖	pi	∪	po	ϙ	pu	∪	pe	ϙ
-		pe	⊕	pi	ϙ	po	π	-		pu, j	∪
re	⊖	re	π	ri	ϙ	ro	†	ru	π	pe	∪
se	ϙ	se	Ϝ	si	∪	so	ϙ	su	⊖	su, j	ψ
te	∪	te	ϙ	ti	∪	to	π	tu	∇	te, (ti-ju)	∪
ue	∪	ue	∪	ui	∪	uo	∪	-		te, (tai)	ϙ
zo	†	ze	∪	zi		zo	↑	zu	ϙ	zo, (zi-jo)	∪
•12	π	•47	ϛ	•49	∪	•53	∪	•54	∪	•85 (zi-jo)	∪
•65	∪	•71	ϙ	•82	∪	•83	∪	•86	∪	•85 (zi-jo)	∪

الشكل -81- الفهرس القطعي الميكيني وفقاً لكتاب فينتريس وتشيدوفيك. «Documents in Mycenaean greek»

«كانت سمته المميّزة هي التواضع. فهو لم يكن أبداً يبيح عن الشهرة وكان يتكلم من دون رغبة عن الأجداد التي كانت من نصيبه (ولم يكن عددها قليلاً). وكان دوماً قاسياً على نفسه وغير عابئ بالتضامات، أما طبيعه الوديع وحده ذكائه ومرحه فجعله على الدوام محدثاً ورفيقاً محبوباً. لقد كان على استعداد دائم لتقديم مساعدته للآخرين دون أن يرحم قواه أو وقته. ولعل من عرفوه فقط يمكن أن يدركوا عمق الكارثة التي وقمت بوفاته» (جون تشيدويك في «التايمز» بتاريخ 17 أيلول سنة 1956).

«إن شخصية فينتريس الألاقة ذات سحر خاص. لقد قدر لكاتب هذه الأسطر أن يلتقي به في نيسان من هذا العام... في جيف - سور - إيفيت قرب باريس. ففينتريس الذي لوحته الشمس، كان قد جاء مباشرة من تسييرمات - إن ذلك الهاري المشغوف برياضة التزلج كان صديقاً كبيراً لبلادنا التي ارتبط بها منذ طفولته. كان بسيطاً وعضوياً في علاقاته وكان يميز عن أفكاره بوضوح ودقة، ولم يكن أبداً يرفض الأفكار المناقضة لرأيه. وكان يتحدث عن أبحاثه الأخيرة بكل تفصيل، وكان يقدم نصائحه حول مختلف الموضوعات بكل سرور، ويقوم بذلك كله على أنه الشيء الاعتيادي ودون أدنى أثر من التكبر. وأكثر ما يثير الدهشة معارفه العميقة والأصيلة في حقل الفيلولوجيا اليونانية، وهو المهندس المعماري، وتلك السرعة الدهشة والدقة التي كانت يمسك بها بمهامية المشكلات الجديدة التي تنجم أمامه. ذلك المحدث البارغ، كان بتلك الجاذبية التي تخصه وحده، يتحدث بكل سحر إلى اليوناني باليونانية الحديثة وإلينا بالسويسرية - الألمانية. انه تزواج رائع بين حيوية الشباب والعقل الناضج - هو ذاك الانطباع الذي يحمله كلٌّ من لقائه مع ذلك الإنسان. لقد بقي حتى نهاية أيامه أنموذجاً للنبل السامي على الرغم من أنه بلغ في فترة مبكرة قمة المجد بفضل أعماله العبقريّة» (ايرنست ريش في «نبي تسورخير تسايونج» بتاريخ 26 أيلول سنة 1956).

وفي مجلة «كاتيميرني» الأثينية كتب البرفسور الآن فايس، معلم فنتريس وحاميه، «إن مايكل فينتريس قد حقق خلال حياته القصيرة، التي انتهت بهذه الصورة المفاجئة الفاجعة، الخلود بقراءته لرموز الكتابة الميكينية ب واكتشافه لأقدم صيغة معروفة للغة اليونانية التي كانوا يتحدثون بها منذ 700 سنة قبل هوميروس».

ومن المستحيل الآن تخمين كل أهمية تلك القراءة.

والحق يقال إنه، وهذا ما يمثل خيبة أمل كبيرة بالنسبة للعلماء، هواة العالم الكلاسيكي القديم، لم تكن هناك آثار أدبية كبرى بين المواد المكتشفة، بل وإنا بأنفسنا قد اضطررنا إلى التراجع عن فكرة تزويد القارئ بنماذج أطول ديباجة مما تمت

قراءته من جداول وجرود من بقايا تلك الأعمال الحسابية الضخمة. ولكن حتى بالنسبة لما تبقى منها نحن مدينون للظروف التي نعتبرها حتى في وقتنا الحاضر ظروفًا مأساوية. فالحقبة أن اللوحات في مجموعها - هي بطاقات مؤقتة مساعدة، ومن الواضح أن مضمونها كان يُدخّل خلال فترات زمنية مؤقتة (لعله كان يتم عند نهاية كل عام جردي) ضمن جداول وجرود. أما اللوحات فكان يصار إلى إتلافها ولم تصل إلينا إلا بنتيجة الدمار المفاجئ للقصر، وهو ما قام به الأعداء حسب أكبر الاحتمالات، بل وقد بقيت في بيلوس آخر الأوامر المتعلقة بالتعبئة الشاملة لسكان المدينة من أجل صد زحف الأعداء إلى أن ما هو رئيسي ولا جدال فيه هو كوننا نقف أمام شواهد جديدة لم يسبق لها مثيل للعهد القديم من التاريخ الأوروبي وشهاداتها أقرب من شهادات جميع الآثار المشهورة لبابل ومصر وهي ترتبط بصورة أكثر مباشرة بميلاد ما نسميه بـ «العرب»⁽¹⁾.

فلنتقل الآن إلى بقية الكتابات المينوسية، التي سبق أن تحدثنا عنها في بداية الفصل فكل الكتابتين لم يقرأ بعد.

إذا كان الباحثون قد التفتوا في البداية إلى الكتابة الخطية ب، فلأن أسباباً منطقية مشروعة كانت تدفعهم إلى ذلك. فقد نقشت هذه الكتابة في وثائق أوفر عدداً وأجود نوعية من ناحية مستوى الحفاظ عليها مما هو عليه الأمر في الكتابة الخطوية آ وفي الهيروغليفات الكريتية - الميكينية.

إن أول آثار الكتابة الخطوية آ - لوحات وأدوات أخرى مغطاة بالنقوش (ونشير من بينها إلى الكروس التي نقشت على وجوها الداخلية كتابات بالحبر) كان إيفانس قد عثر عليها في كنوس. ومن الواضح أن هذه الكتابة كانت منتشرة بصورة أكثر اتساعاً من الكتابة الخطوية ب وإن كانت المكتشفات بكتابة آ لا تشكل في كنوس إلا جانباً زهيداً بينما يعود القسم الأعظم إلى كتابة ب الخطوية. ولكن في مقابل ذلك عثر الإيطاليون في قصر صغير في مدينة آغيا - تريادا الواقعة غير بعيد عن فيست في الجزء الجنوبي من كريت (حيث لا يزالون يكتشفون حتى يومنا هذا مواد أثرية وافرة) على آثار مكتوبة بالكتابة الخطوية آ على لوحات وأقراص فخارية. وفي سنة 1923 اكتشف الفرنسيون في ماليا أرشيفاً كاملاً من اللوحات الفخارية حيث عثر إلى جانب «الهيروغليفات» المتأخرة على الصيغة الأولى للكتابة الخطوية أ. كما إن الكثير من مناطق الجزيرة وضع في أيدي العلماء مجموعة كاملة أيضاً من الكشوفات المنفصلة. وهذه الكتابة تكتسب

1- W. Merlingen , Die kretische Schrift entiffert , S. 12.


طرافة خاصة وذلك على الأقل لأنها تقترب في جانب من جوانبها بصفة نسب لا شك فيها من الهيروغليفات الكريتية القديمة، ويجب من جهة أخرى أن ينظر إليها على أنها سابقة للكتابة الخطوطية ب أو شقيقة لها. وفي الواقع فإن هاتين الكتابتين تتضمنان 48 رمزاً مشتركاً من بينها 20 واحداً تنحدر من الكتابة التصويرية القديمة. وفي العادة تورخ مكتشفات الكتابة الخطية آ بزمن يعود إلى سنة 1650 قبل الميلاد؛ أما ازدهار هذه الكتابة فيفترض أن يعود إلى سنة 1550، وربما تواصل استعمالها حتى سنة 1350 قبل الميلاد، والمعمول به الآن أن أساس الكتابة الخطوطية آ هو اللغة ما قبل اليونانية، لغة الشعب الأقدم في جزيرة كريت. ويرتبط هذا الرأي بالفرضية القائلة بأن الكتابة الخطية ب قد ظهرت على الأقل بصفة منفردة من الكتابة الخطوطية آ، وهي إلى جانب ذلك «تتلاءم» مع اللغة اليونانية الميكينية القديمة بنفس الرداءة التي تتلاءم بها بذلة أخذت عن كتفي شخص آخر.



الشكل -82- رموز مكتوبة بالخير على الوجه الداخلي لكأس من كُنوس.

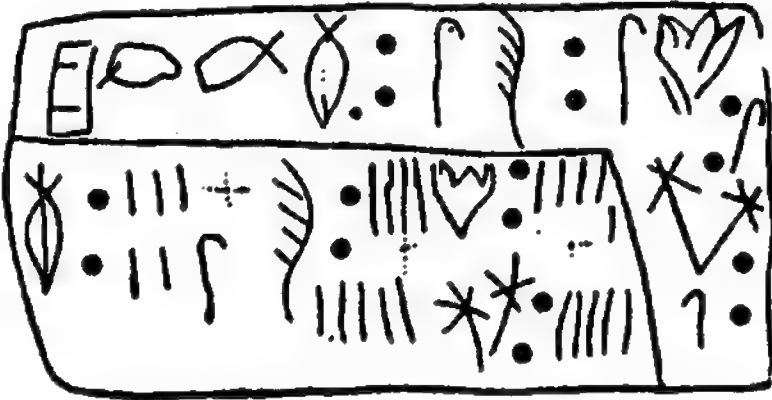


الشكل -83- لوحة فخارية صغيرة ذات مدونة بالكتابة الخطوطية أ. عشر في أغيا - تريادا.

فلنلنقت الآن إلى «البيروغليفات» الكريتية التي دار الحديث عنها في بداية هذا الفصل وهي تقف في مستهل كل تطور الكتابة الكريتية. و (الشكلان 72 و 73) يعرضان أمام أنظار القارئ نماذج من هذه الكتابة كما تُعرض في (الشكل 84) لوحة «هيريوغليفية» للأدوات. ويمكن أن نفترض أن السطر الأسفل يتضمن عشرين «وحدة» ونصف من كل من الفئات الأربع من المواد المعروضة التي تظهرها، كما يزعمون الايدوغرامات:  وهي، حسبما هو محتمل، القمح والزيت والزيتون والتين.

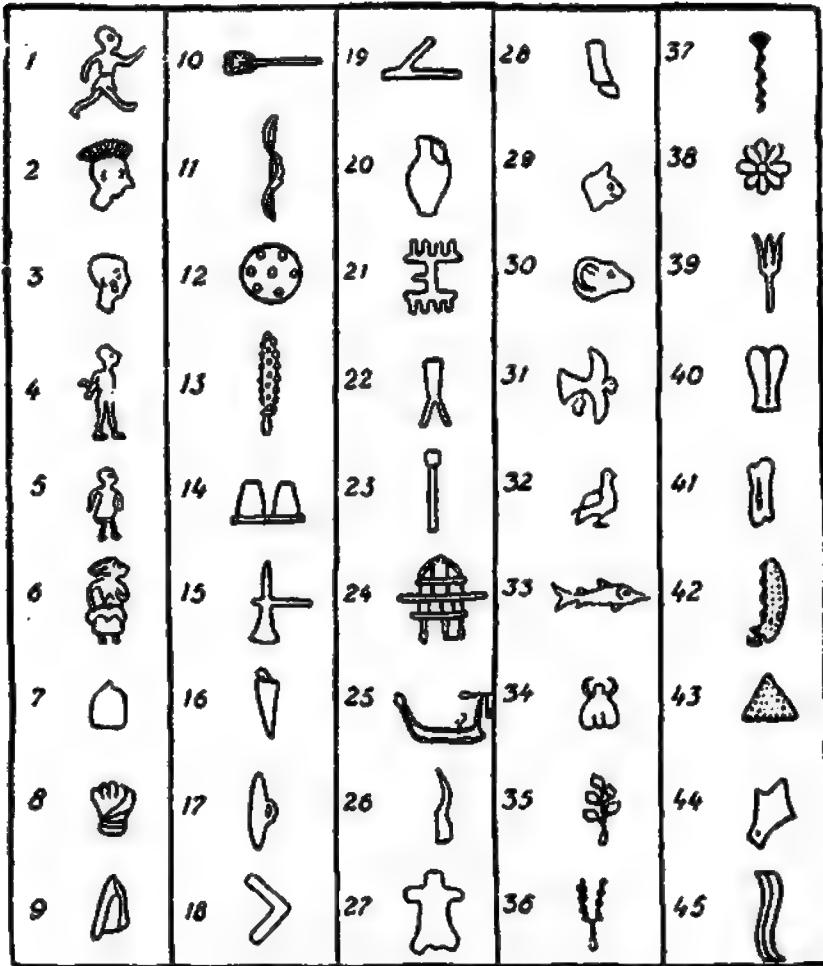
لو تيسرت قراءة الهيروغليفيات الكريتية الخطوطية آ لأمكن بهذه الطريقة حسم الموضوع المتعلق بلغة شعب كريت الأصلي القديم، الغامض المفقوف بالأساطير، ذلك الشعب المتحضر الذي كان يعيش على تلك الأرض قبل زحف اليونان الميكينيين عليها. وهناك لقية لا تزال حتى الآن مستحيلة على القراءة؛ فما هي ذي منذ 50 عاماً تجتذب إليها الأنظار وبصورة دائمة، ولكنها لا تزال حتى يومنا هذا غامضة مثلما كانت في يومها الأول.

لقد كان اكتشاف هذه اللقية الفريدة من ضريات الحظ السعيد للبعثة الأثرية الإيطالية سنة 1908 التي كان يرأسها البروفيسور ف. هالبيغز والتي كانت، حسبما سبق أن ذكرنا، تعمل بالقرب من أغيا - تريادا. وقد تم الأمر على النحو التالي. في صيف 1908 اكتشف ل. بيرنييه، عضو البعثة، تحت طبقة من التراب في أحد مباني القصر حجرة مربعة لتخزين المون وفي ذلك المكان التقط ل. بيرنييه في الـ 3 من تموز وإلى جانب لوحة مكسرة مغطاة بالكتابة الخطوطية آ، ذلك الشيء الغامض - وهو قرص فيست، الفريد من نوعه.



الشكل -84- جرد أدوات هيروغليفي عشر عليه في فيست.

كان القرص مصنوعاً من الفخار رفيع النوعية - يقول الأخصائيون إنه ليس من جزيرة كريت، والقرص لا يتخذ شكلاً دائرياً، فأبعاده أقرب إلى أن تكون غير صحيحة. وأقرب الاحتمالات ان الرموز قد ضغطت فوقه بأختام - قوالب خاصة ومن الواضح أن قالباً خاصاً كان قد صب لكل واحد من الرموز. ومجموع عدد الرموز 45 وهي تظهر في (الشكل 85).



الشكل -85- الرموز المرسومة على قرص فيست

إننا إذا ما نظرنا إلى الأديبات المتخصصة لانطلقت منها، مثلما تتطلق من قرن الخيرات، الفرضيات والمحاولات الرامية إلى تفسير كل واحد من الرموز الـ 45 تقريباً. ويفرد في ذلك كله دور خاص لغطاء الرأس المذكّر الطريف (رقم 2 في الشكل 85). ومن خلال احتساب عناصر الخوذة الحربية التي اكتشفها السير ارتور ايفانس في ذلك الغطاء (وبالمناسبة فإن بالإمكان ملاحظة هذه العناصر ودون التمتع بخيال خاص) ومن خلال بعض الملامح الأخرى لوصف الأعمال الحربية التي صورت في مختلف الرموز التصويرية، توصل إلى القول بأنه يمثل نشيد نصر، وافترض أن هذا النشيد يحمل طابعاً ملقسياً.



الشكل -186- قرص فيست. الوجه الأمامي.

ومنذ أيام ايفانس لم يجر التقدم خطوة واحدة نحو الأمام من أجل حل تلك الأحجية الكريتية القديمة (هذا إذا كانت كريتية، فهذا نفسه موضع جدل) وقد وضع في الحسبان المصدر أو التأثير الفلسطيني، الليكي، الكاري، القبرصي، الليبي، الأناضولي بل وحتى السامي⁽¹⁾. والقرص لا يزال ينتظر، وجانباه لا يزالان

1- عبارة «وحتى السامي» تحمل معنى الاستبعاد الإنكاري للتأثير السامي على الجزيرة ويصعب علينا هنا أن نجاري المؤلف اندفاعه الشديد نحو تجريد كريت، وقبرص أيضاً، من هذا التأثير. ذلك أن تاريخ الجزيرتين وما حولهما يبدأ بالساميين، وبيلوس الذي يرد اسمه في هذه الفصلة هو الإله «بعل» السامي، وإشرافات الحضارة السامية وترسخها في كريت هو الذي جعل من هذه الجزيرة المهده الحضاري له ميلاد ما نسميه بالغرب - حسب تعبير المؤلف (المترجم).

يستأثران بالنظر ويستدعيان الأخصائيين للمشاركة في محاولة جديدة للتفسير،
ويهيبان بغير ذوى العلم ممن لم تتشبع أدمغتهم بمختلف نظريات الانطلاق وتصويراته،
إلى تذوق المتعة العظمى - متعة الخوض في لجة التفكير والتخمين. فانظروا كم يبدو
هذا القرص بليفاً وراغباً بالكلام! بيد أنه كان أخرس ويظل أخرس حتى هذه
اللحظة!.



الشكل -86- قرص فيست. الوجه المقابل.

إننا نتقدم بكل وجهي القرص إلى كل من يود أن يجرب فيه مواهبه في التجميع
ويجرب حدة ذكائه وحظه.

من الممكن أن يقوم عاجلاً أو آجلاً واحداً من «أساطين» «ورشة» البحث المجيدة بوضع التاج الذي وعدت به هذه القطعة الفخارية المدورة الفامضة والمحفوظة حالياً في متحف مدينة هرقليون. وربما ينفذ هاوٍ عبثيٌّ في أسرار هذه الأشكال اللولبية المغطاة بالرسوم، في هذه المتاهة من جزيرة مينوس، ويهتدي، ككتيسيوس جديد، للوصول إلى مخرج منها.

ولكنه ربما كان مقدراً له أن يبقى على مدى العصور أثراً غامضاً أبكم من آثار ذلك العالم الذي تتضاعف أمامه صعوبات الاحتفاظ بأسراره؟

الأهر كبول نيكين، بيلكي خاقان وطونبوكوك الحكيم

قراءة رموز الكتابة النيوركية الرونية القديمة

أنا خاقان النيورك، الشبيه بالسماء، ولبد السماء.
قد ناستمت الآن [العرش]. فأصغوا إلى
خطابي...

مدونة اورخونية

كانت تسمية «نيورك» أو «تيوروك» تعني في بادئ الأمر «القوة» أو «القلعة»⁽¹⁾.

إن ظهور ذلك الشعب الذي اتخذ لنفسه تلك التسمية - ولم يكن هذا دون ميور وهو ما يؤكد تاريخه المبكر - فوق مسرح التاريخ لا ينعكس لأول مرة في صفحة التقاليد التاريخية إلا في منتصف القرن السادس للميلاد تقريباً، وأثاره المدونة لا يمكن أن ترقى بأعمالها إلى درجة أن تقارن بتلك الشواهد على تاريخ الشرق القديم الممتد عبر آلاف السنين، تلك الشواهد التي تحدثنا عنها فيما سبق حتى الآن، لكن هذه الآثار تنطلق من المنطقة التي تعتبر بالنسبة لكافة الحضارات الغربية «عالمًا غريبًا» يمتد إلى قلب آسيا ويتصل بشعب بقينا زمنًا طويلًا لا نعرف عنه أي شيء بل وإننا حتى الآن لا نعرف إلا القليل جداً، - وهذا ما يكسب تلك الآثار طرافة كبيرى.

وإذا كان مصدر هذا الشعب ومصيره وطابعه قد بقي مدة طويلة بالنسبة لنا، نحن الأوروبيين، كتاباً مخبئاً تحت سبعة أقفال، فلا بد أن نوضح ذلك قبل كل شيء بكون

1- هذا واحد فقط من تفاسير المصطلح الإثني، «تورك» انظر:

Всемирная история, т. 3, М., 1957.

المصادر نفسها التي تفصلنا عنها جغرافياً مسافات كبيرة كانت ولعلها لا تزال إلى حد بعيد محجوبة عن مجال رؤيتنا.

إن المعهد الذي برز فيه قدماء التيورك ليظهروا على مسرح الحياة التاريخية، وعصرهم المشرق الأول السابق للإسلام، والذي تشكلت دولتهم خلاله، انمكسا في الأدبيات الصينية القديمة الثرية التي تكتسب أهمية خارقة للمادة بالنسبة لمجموع التاريخ القديم لآسيا الوسطى، لكنها تكاد تكون مجهولة بصفة كلية بالنسبة لنا. أما المعلومات المتعلقة بهذه الفترة فيمكن أن تُستمد من المصادر التاريخية البيزنطية المتلونة والفنية بالعبر، والتي لا تقل ثراء عن سابقتها، تلك المصادر التي تُمِش الآن «اكتشافاً ثانياً» وتدخل الاستعمال في السنوات الأخيرة فقط.

إن الشعب الذي نجمه تحت كلمة واحدة هي «التيورك» كان منذ أقدم العهود يستوطن المناطق القاصية في آسيا الوسطى. وكان يمثل قبائل رحل متفرقة ضعيفة الارتباط فيما بينها، تقتصر آفاقها على الخيمة والمرعى. ومن المحتمل أن تكون إحدى هذه القبائل أو أن يكون أحد رؤسائها لُقّب نفسه باسم «هوه»، «قلعة». ومن الصعب الجزم فيما إذا كانت هناك أصول لذلك اللقب. وعلى أي حال فإن الحديث قد دار حول التيورك لأول مرة عندما كانوا خاضعين لشعب كان قوياً في عهده هو الشعب الذي يسميه المؤرخون الصينيون بالجوجان ثم سمي بعد ذلك بالجوان - جوان.

وحل عام 546 والإمبراطورية الصينية منقسمة إلى شمال وجنوب. أما في الشمال حيث تحكم أسرة ويّ فإن هنّ النعت البوذي في المعابد الكهفية يعيش أول فترات ازدهاره، أما في الجنوب، وخلال حكم أو - دي من الأسرة الليانية، فيبدأ ازدهار لم يعرف له مثل في حقول الأدب والفلسفة البوذيين؛ الإمبراطور جوستينيان وزوجته الملكة تيودورا يقبضان بيد من حديد على مقاليد الأمور في الدولة والكنيسة البيزنطيين، وفي ذلك العام نفسه يتجرأ التيورك لأول مرة على الوقوف في وجه سلطان طغاتهم الجوان - جوان. فالقبائل التيوركية التي كانت تعيش في الشمال ويطلق الصينيون عليها اسم تي - لي تهاجم المناطق الجنوبية. لكن التيورك أيضاً كانوا يعملون في خدمة الحكام الغريباء ولهذا نراهم يتصدون لأشقائهم، وقيادة طومين يردونهم على أعقابهم. وفي الوقت نفسه أيقظ الانتصار في نفوسهم الشعور بقوتهم الخاصة، فلم تمض إلا بضعة سنوات حتى انتفضوا من جديد يقودهم طومين نفسه (حسبما يسميه الصينيون، أما المدونات التيوركية فتسميه بومين) فأطاحوا بسادتهم جوان - جوان الذين أخضعوهم ذات يوم. وهكذا أضى طومين - بومين مؤسس الدولة التيوركية القديمة. وتحت

السلطة العليا للأخ الأكبر شاركه الحكيم أخوه الأصغر، حاكم التيورك الغربيين ومؤسس أسرتهم الحاكمة. وكان الصينيون يسمونه شي - دي - مي أما المدونات التيوركية فأسمته بـ ايسيمي.

وفي 552، وبعد وفاة بومين، تناوب العرش من بعده أولاده الثلاثة واحداً تلو الآخر. وبرز من بينهم مو - خان وهو أبرز اسم بين جميع الخانات التيورك، كان قائداً عسكرياً وغازياً، ضاعف مساحات ملكه وأقام دولة أوصلها إلى درجة من الازدهار لم يعرف لها مثيل حتى عهده. فبعد أن أخضع الايفتاليين أو «الهون البيض» وسّع من حدود إمبراطوريته العظيمة، ففي الغرب امتدت حدود دولته بعيداً بعد أن عبرت حدود دولة الصفديين القديمة فوصلت إلى نهر ياكسارت (سر - دار) الذي كان التيورك يسمونه بينتشو - أوغوز أو «نهر اللؤلؤ» وحتى «البوابات الحديدية» - أي الممر المعروف منذ القدم بين سمرقند وبلخ، أما في الشرق فأوصل حدود سلطانه إلى الأرض المسماة حالياً بمنشوريا.

لقد تمكن هذا الشعب، الذي ترعرع من خلال التفاعل الدائم مع الشعوب المتحضرة القديمة، من الوصول في القرن السادس إلى مستوى مذهل من التطور. فهو يكف عن ممارسة سياسة الغزو القصيرة النظر ويستبدلها بسياسة إقامة العلاقات الطيبة مع جيرانه. فإيسيمي من الناحية الشكلية تابع لأخيه أما في الواقع فهو الحاكم المطلق الصلاحية في المناطق التيوركية الغربية فهو، كحاكم مستقل، يقيم العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية، رامياً من وراء ذلك، إلى تركيز تجارة الحرير في يديه، تلك التجارة التي كانت قبل ذلك قصراً على «الهون البيض».

وأمام السفارة البيزنطية التي وجهت في آب سنة 568 م، بهدف دبلوماسي وتجاري، من طرف الإمبراطور جوستيان الثاني، ظهرت لوحة شديدة الحيوية والبهجة، تتحضر طويلاً في الذاكرة، تمثل خليطاً باهراً من الوحشية البربرية والخرافات الوثنية ومن الأبهة الشرقية المدققة والبذخ المغالي فيه. والمقطع التالي الذي يتحدث عن تلك السفارة إلى بلاد التيورك (وكانت برئاسة الوجيه البيزنطي العالي المقام زيمارخ) مأخوذ من الأثر الأهم في الأدب البيزنطي وهو - «التاريخ» لمؤلفه ميناندر - بروتيكتور.

«امتدت رحلة زيمارخ ومرافقيه طويلاً. وما إن وصلوا إلى بلاد الصفديين وترجلوا عن خيولهم حتى تقدم بعض التيورك الذين نصبوا عموداً في ذلك المكان على ما يبدو، فمضوا على زيمارخ أن يشتري منهم حديداً، وأعتقد أنهم فعلوا ذلك لكي يبيتوا للروم أن بلادهم تحتوي على مناجم الحديد، إذ يُشاع في العادة أن من الصعب عليهم الحصول على الحديد.

ويمكن التكهن بأنهم تظاهروا أمام الرومان بتفاخرهم هذا بأن أرضهم تنتج ذلك المعدن. كما أن بعض أبناء تلك القبيلة القادرين، حسبما كان يؤكد، على التخلص من الشرور تقدموا من زيمارخ فتناولوا المتاع الذي كان يحمله الروم فكدسوه بعضه فوق بعض ثم أشعلوا النار بعيدان من شجر لبنان، وهمسوا ببعض الكلمات البريرية بلغة الصقالبة بينما راحوا في الوقت نفسه يقرعون بالأجراس ويضربون الطبل فوق الأحمال. وبعد ذلك أخذوا يدورون بغصن ذكي الرائحة يتلأمر منه الشرر. وظهروا وقد أوصلوا أنفسهم إلى الهوس، وراحوا يطلقون التهديدات وكأنهم يطردون الأرواح الشريرة. إذ يقال إنهم يملكون القدرة على طرد هذه الأرواح وتخليص الناس من الشرور. وبعد أن أنجز طقس التخلص من جميع الشرور، حسب رأيهم، أخذوا زيمارخ نفسه فمبّروا به اللهب وبذلك كانوا قد طهروا أنفسهم أيضاً، وبانتهاه هذه الطقوس سار زيمارخ بمعية من ضم إليه من التيورك إلى الجبل المسمى إكناغ وهو ما يعني بالهيلينية «الجبل الذهبي»، حيث يقيم الخاقان نفسه⁽¹⁾.

أما «الجبل الذهبي» وهو في الحقيقة «الجبل الأبيض» (أقداغ) فيجب البحث عنه في منطقة الطاي.

فلنسمع الآن كيف استقبل السفراء ذلك الخاقان المسمى سيزابولوس أو سيلزيبولوس - فهذا الاسم لقب هنا إيستيمي، وهو ما نعرفه من إخباريات المؤرخ البيزنطي فيوفيلاكنت الذي كان يعرف ذلك الحاكم باسم «ستيميز - خاقان».

«ما إن وصل زيمارخ ومرافقوه إلى وادي الجبل الذهبي حيث كان يقيم سيزابولوس حتى أحضروهم بين يديه للتو واللحظة. وكان الخاقان داخل خيمة يجلس على سرج ضخم ذي عجلتين تجرّه فرس عندما يراد ذلك. وبعد أن حيا زيمارخ الملك البريري حسب العادة قدم الهدايا التي تم قبولها من طرف من كانت مخصصة لهم، ثم قال: إن ملكنا العظيم، وقد جعلني رسولاً له، يرجو لك، يا ملك جميع هذه الشعوب، أن تظل السعادة ميثالة دوماً إليك ومتجهة نحوك، وإن يتجه قلبك بالمودة نحو الروم. فلتكن دوماً منصوراً على أعدائك ولتجمع الأسلاب من مناوئيك! وليتعد عنا كل حسد يمكن يؤدي إلى حل عرى صداقتنا⁽²⁾ وإن قلبك يود قبائل التيورك وكل من هو خاضع للتيورك! وإن مودتنا نحوكم لن تتغير أبداً. قال زيمارخ هذه الكلمات. فرد سيزابولوس بتحيات مماثلة، ثم بدؤوا بتناول الطعام، وأمضوا ذلك اليوم

1- انظر: المؤرخون البيزنطيون ديكسيب، ايفنابيوس، اوليمبيودور، مائخ، ميناندر، كاننيد، فونوس و فيوفان البيزنطي في ترجمة س. ديستوبينسون عن اليونانية سانت بطرسبرغ 1860، ص 375-376.

2- المصدر السابق 376-379.

بطوله في مأدبة داخل تلك الخيمة نفسها؛ وكانت مصنوعة من الأقمشة الحريرية المرقشة بمختلف الأصباغ. وشربوا خمراً يختلف مذاقه عن خميرنا المعصور من المنب. فالمشروب الذي يشربونه بريري، إذ إن أرض التيورك لا تنبت أشجار الكرم؛ وهذه النبتة غير معروفة عندهم. وبعد ذلك انتقل الروم إلى حيث كانت مهياً إقامتهم. وقد نقلوا في اليوم التالي إلى خيمة أخرى مغطاة ومرقشة أيضاً بالأغطية الحريرية وفيها كانت تقوم أصنام مختلفة الأشكال. وكان سيزابولوس يجلس على أريكة من الذهب الخالص. وفي وسط ذلك المكان توجد أوان ذهبية وحوض للفسيل وبراميل من الذهب أيضاً. فأدبوا مرة ثانية وتبادلوا الأحاديث، أثناء شربهم، حول ما كان ضرورياً، ثم تفرقوا. وفي اليوم التالي دخلوا خيمة أخرى تقوم فيها العمدة الخشبية المغطاة بالذهب وفيها الأريكة أيضاً مذهبة وتقوم على أربعة طواويس من الذهب. وأمام الخيمة وعلى مساحة كبيرة ووفق ترتيب طولاني كانت تقف العريات المحملة بكميات كبيرة من الفضة والأواني والسلال وكثير من أشكال الحيوانات ذوات الأربع وهي مصنوعة من الفضة وهي لا تقل في دقة صنعها عما يصنونه في بلادنا. وفي هذا يكمن ترف الخاقان التيوركي.

وبعد سبع سنوات اتخذت الأمور منعطفاً يناقض هذه الصورة مناقضة تامة. فعقدُ الإمبراطورية الرومانية الشرقية الصلح مع الأفار، الذين كانوا لفترة قصيرة قبل ذلك خاضعين للتيورك، أثار حفيظة هؤلاء على بيزنطة وعندما وصلت إليهم السفارة البيزنطية الجديدة سنة 575 برناسة فالنتين ثم استقبلها أسوأ استقبال: «قطع الروم كثيراً من الطرق الصعبة فوصلوا أخيراً إلى تلك الأرض التي كان توركسانف، أحد أمراء التيورك، يضرب فوقها راياته الحربية. أما أولئك الذين وقع عليهم حظ حكم القبيلة التيوركية فقد قسموا الممتلكات ثمانى مقاطعات ويلقب أكبر حاكم للتيورك بأرسيل. وعندما وصل فالنتين إلى توركسانف الذي يصل المسافر إلى أرضه قبل أراضي غيره من الأمراء قدم إليه، فطلب من الأمير التيوركي أن يقدم تهانيه إلى القيصر الرومي الجديد... وإذا بتوركسانف يفاجئه بقوله: أستم أولئك الروم الذين تستخدمون عشرة السنة ونفاقاً واحداً؟... وأنتم يا من تقفون أمامي في أردية الكذب، بل وإن من أرسلكم إلي منافق مثلكم. سأقتلكم على الفور دون أدنى تردد، فالكذب بعيد عن التيوركي وليس من شيمه. أما قيصركم فسينزل به القصاص في القريب العاجل... أما أنا فستخضع لي الأرض بطولها بدءاً من أول مشارق الشمس وحتى مغاربها. فانظروا أيها الناعسون إلى شعب آلان، وإلى قبائل اوتيفور الذين استسلموا لتهورهم المندفع، وغررتهم

قوتهم فتجروا على الوهوف في وجه شعب التيورك الذي لا يقهر، لكن خابت آمالهم
فهم عبيد لنا الآن»⁽¹⁾.

ويستجمع رئيس البعثة البيزنطية، ذلك الدبلوماسي الرشيد، الذي حنكته تجارب
التعامل مع التيورك، قواه لأجل تهدئة المهتاج. فينير توركسانف (وقد وصلنا اسمه أيضاً في
صيغة «توركسانف» وهذه الكلمة التي تفهم خطأ على أنها اسم علم هي لقب تورك - شاد أي
«رأس التيورك») لهجته ويوجه إلى السفراء الروم الشرقيين دعوته للمشاركة في الطقوس
الطريفة (من وجهة النظر الايتوغرافية) التي سيكتشف نظيرها المطابق فيما بعد في المدونات
التيوركية. فيصرح لهم بقوله:

«بما أنكم بوصولكم إلى هنا قد وجدتموني أسير حزن شديد بسبب وفاة والدي
سيلزيبولوس منذ فترة قصيرة، فإن عليكم أيها الروم أن تجرحوا وجوهكم بالخناجر جرياً
على عادتنا في تأبين الموتى». فسارع فالنتين ومرافقوه إلى حرّ خدودهم بخناجرهم. وفي أحد
أيام حزن توركسانف جيء إليه بأربعة من الهون المقيدين بالأغلال ليقدّمهم وخيولهم ضحايا
لأبيه المتوفى. ويسمى التيورك طقوس الجناز لديهم بلغتهم بـ دوخيا. وقد أمر توركسانف
أولئك الهون التاسعين بلغته البربرية عند وصولهم إلى العالم الآخر أن يبلغوا سيلزيبولوس، أباه
أي... (انقطاع في النص).

وبعد أن أنهى توركسانف الطقوس المتبعة لدفن أبيه تحدث ملياً مع فالنتين ثم أذن له
بالتوغّل في البلاد ليصل إلى شقيقه تاردو المقيم على جبل ايكتيل، وايكتيل تعني
«الذهبي»...⁽²⁾.

وخلال عهد تاردو، خليفة سيلزيبولوس - ايستيمي (وهو بالصينية تا - تاو)
انشطرت دولة التيورك العظمى إلى شطرين - الشرقي والغربي. وكان الصينيون، الذين
قدر عليهم أن يعانوا الكثير بسبب غزوات النهب المتكررة من جانب التيورك، يعملون
بكل سبيل على إذكاء نار الشقاق بين شطري الدولة، وبفضل هذه السياسة الذكية
الخبیثة وصلت قوى التيورك إلى درجة من الانهيار حتى أن أراضيهم أصبحت في منتصف
القرن السابع ضواحي للإمبراطورية الصينية. إلا أن واحداً من المنحدرين من الأسرة
القديمة تمكن بعد 20 سنة من التوصل إلى مركز خاقان مستقل للتيورك الشرقيين -
وكانوا يسمونه بـ كوتلوغ، «السميد» وبـ «ايلتيريش - خاقان» أي «خاقان التجميع» (أو

1- المصدر السابق ص 418-420

2- المصدر السابق ص 421-422

تأسيس الدولة») وقد تسنى له بعد عدد كبير من الحروب المظفرة والإجراءات الحاسمة أن «يجمع» الدولة ويقوي أوامرها.

وتوفي ايلتيريش - خاقان في حمأة هذا العمل البناء مغلفاً ولدين لم يدركا سن الرشد ، فلم يكونا قد بلغا الثامنة والسادسة من العمر. فبدأ أخوه كاباغان - خاقان بالإحساس بأن يديه مطلقتان. وكان واضحاً أنه غير راضٍ عما تمّ إنجازُه، فكان يهدد آماله العظيمة بدولة تيوركية قوية ومزدهرة شبيهة بتلك التي كانت قائمة ذات يوم، وكان، شأن أجداده، يرغب في بسط سلطانه حتى إيران نفسها وفي أن يخضع لسلطته أولئك الأتراك الغربيين المتمردين الذين انقطعوا عن إخوتهم الشرقيين ثم انفصلوا عنهم بالصين. بيد أن كاباغان - خاقان لم يكن يملك لتحقيق هذه المطامع البعيدة حتى ولو بصفة تقريبية تلك الصفات التي يجب أن تتوفر في رجل الدولة اللائق الذي كان يمثله أخوه المتوفى. فقد كانت أعمال كاباغان - خاقان تتسم بالقحة والفظاظة حتى أنها صرفت عنه تابعيه المخلصين الذين كانوا يتدافعون جماعات لينضموا لجانب الصينيين. فلما قتل سنة 716 على أيدي الثوار دقت تلك الساعة العظيمة بالنسبة لنسبته لنسبته الفتيين، ولدي أخيه ايلتيريش خاقان ووريثه الشرعيين فتسّم الابن الأكبر كاتلوغا العرش باسم بيلفي - خاقان «الخاقان الحكيم» ووقف إلى جانبه شقيقه الأصغر كيول تيغين (الأمير كيول) العاقل والممتلئ قوة والذي كان من الطبيعي أن يأمر بالقضاء على كل عائلة عمه الضخمة بما في ذلك، وبشكل خاص، أولئك الطامعين بالعرش - وهم أبناء عمه. ولم تشمل الرحمة أحداً من بين الحرس السابق غير واحد هو تونيوكوك الذي كان متميزاً منذ عهد ايلتيريش - خاقان. وكان في الوقت نفسه حمياً لبيلفي - خاقان ولعله أصبح في نهاية حياته مستشاره أيضاً. أما بيلفي خاقان، «صنو السماء، وليد السماء الخاقان التيوركي الحكيم»، فقد استحق عن جدارة ذلك الاسم. إذ أكد نفسه حاكماً لِبِن الجانب حذراً وحكيماً. فعاد القسم الأكبر من التيورك الفارين إلى بلادهم. وقد عقد أوامر الصداقة مع الإمبراطور الصيني، أما شقيقه كيول - تيغين الذي ربما كان يمتاز بطبع أشد قوة من طبع الحاكم نفسه فقد كان عماد العرش سواء في الحرب أم في السلم، فلما توفي ذلك الأمير الضئي سنة 731 انقضت تلك الكارثة ضربة هائلة على كاهل الأخ الأكبر.

ولم يمّر بيلفي - خاقان طويلاً بعد الأمير. فقد توفي سنة 734 مسموماً بيد صفيه الخاص، وحدث ذلك بالذات في تلك الفترة التي كان الإمبراطور الصيني قد وعده بتزويجه من إحدى بناته. وما هي إلا 11 سنة حتى استحال كل العظمة التيوركية السابقة إلى تراب - والطريف أن الضربة القاتلة لم توجه إليها من جانب الصينيين - فقد تمكن بيلفي - خاقان في

حينه من تحقيق صداقتهم بمهارته - بل من جانب شعب تيوركي آخر هو الاويغور - الذين كانوا ينتوون أن ينقلوا إلى أيديهم أئنة القيادة في آسيا الوسطى، وكان حكم بيلفي خاقان المعتدل البعيد النظر والحكيم سبباً في تحقيق الازدهار الأخير لآخر دولة تيوركية. ومثلما يدين له مواطنوه بالشكر فإن علمنا أيضاً مدين بالشكر لسياسته البعيدة النظر على ما تركته للعلم من إرث ثمين.

عندما توفي كيول - تيفين لم يكن أخوه فقط من خلف ذكراء. فانطلاقاً من علاقات الصداقة القائمة بين الدولة التيوركية العظمى، وبين صين الأسرة الثانية، أمر الإمبراطور الصيني بأن يقام على ضريح المتوفى نصب تذكاري مهيب، فلما لحق بيلفي نفسه بأخيه قام ابنه، بمعية الإمبراطور الصيني، بوضع نصب رائع ضخم، كشاهد فوقه.

وكان هناك كتابة على كلا النصبين وكانا نفس النصين اللذين مكنا سنة 1896 من قراءة رموز الكتابة التيوركية القديمة.

ظل النصيان قائمين مدة ألف عام تقريباً منسيين شأن غيرهما من النصب في أصقاع أخرى من الإمبراطورية الروسية التي أخذت مع الزمن تبسط نفوذها على المناطق التي كانت مواطن للتيرك القدماء ذات يوم. ولم يثيرا انتباه أحد حتى ذلك اليوم الذي حرك فيه بطرس الأعظم روسيا باتجاه التقدم. هبات الحياة بالتيقظ تدريجياً أيضاً حول ذينك الشاهدين من شواهد التاريخ البعيد. فبين 1719 و 1727 قام المسمى دانييل غوتليب ميستيرشميدت، وهو عالم طليمة من داننزيغ برحلة في أرجاء سيبيريا بمهمة من بطرس. وتسنى له أن يقطع المسافة من نيرتشينسك وحتى نهر آرغون - كيرولين المتاخم لمنجوريا. وإلى جانب ذلك فإنه شاهد في وادي نهر بينيسي الأعلى، وغير بعيد عن الضريحين القديمين على ضفة النهر صخرتين عجيبتين تغطيهما النقوش والرسوم الكتابية، وكانت الرسوم النافرة تمثل لوحات للصيد ولتقديم الضحايا وللحيوانات ووجوه الناس وتزيينات. أما بالنسبة للنقوش الكتابية فإن الأخيرة كانت تتكون من رموز تذكر بالرونات الشمالية. وفيما بعد فإن الصور التي استسخت من هذه النقوش وغيرها، والتي كانت تعدّ صقلبية في ذلك الوقت وصلت إلى أوروبا بفضل أحد سفراء كاترين الثانية ونشرت هناك.

وعند بداية القرن التاسع عشر كانت أمثال هذه اللقى تزداد عدداً، ويدووا في باريس، عاصمة الاستشراق آنذاك، يدركون بالتدريج أهميتها بالنسبة لتاريخ آسيا الوسطى بأسرها. ويحل عهد المحاولات الأولى الباسلة لقراءة الرموز وتلقني بين الرواد بـ آ. ريميزا و ي. كلابروت المعروف بالنسبة لنا، وهو معاصر شامبليون ومناوئه. إن أعمالهما وجهودهما لا تزال

بعيدة عن الكمال، وتبدأ مختلف الفرضيات بالتجمع حول الكتابة الجديدة؛ فهي تحول مرة إلى كتابة صقلية وطوراً إلى كتابة شمب تشود، وتبدو مرة أخرى نسيبة للرونات الشمالية، بل وتتجه بآخرين نحو الكلتيين والقوط. إلا أنه في نهاية الأمر ونتيجة لكون جميع محاولات التفسير قد بقيت دون نتيجة فإن الاهتمام بتلك الآثار صار يميل شيئاً فشيئاً إلى الاضمحلال، وهكذا غرقت من جديد في طيات النسيان.

وكان العالم الفنلندي م. آ. كاسترين واحداً من العلماء الذين قاموا في النصف الأول من القرن التاسع عشر بدراسة تلك الآثار ونشر الكتابات المنقوشة فوقها وخطوا أول الخطى في ميدان إيضاح مصدرها ولفتها، وقامت الجمعية الأثرية الفنلندية بمواصلة جهوده، وفي سنة 1875 أوفدت إلى ميتشورينسك بعثتها مرتين بهدف البحث عن هذه المدونات ودراستها. أما نتيجة ذلك العملين فكان الطبعة البديعة التي صدرت سنة 1889 في غيلسينغفورس بعنوان *Inscriptions de l'États* («نقوش بينيسي الكتابية») وكانت تحتوي 14 صورة إيضاحية معززة بنصوص و 32 لوحة نقش كتابي و 8 صور فوتوغرافية. ويمد ثلاث سنوات زيدت تلك الطبعة وعززت بالمفردات والمصطلحات التي تم العثور عليها فصارت تشمل كل ما كانت تطمح إليه روح العالم الأثري. كل شيء باستثناء شيء واحد - وهو قراءة الكتابة.

ومع كل هذا فإن تلك الدراسة التي قدمت للقارئ وصفاً رائعاً للآثار التي تم العثور عليها أدت، إلى جانب نشر اللوحات الإيضاحية البديعة، المهمة الرئيسية الثانية التي تشوي في صلب ككل طبعة معاتلة؛ وهي إحياء الاهتمام الحي بتلك الآثار.

وما هي إلا فترة وجيزة حتى قام ن. يادرينتسيف في المؤتمر الثامن لعلماء الآثار في عموم روسيا، بلفت أنظار المشاركين إلى أن منطقة الحدود في منشوريا، والتي قام بزيارتها، غنية بمختلف القطع الأثرية وخاصة بتلك النقوش الكتابية التي عثر عليها في تلك المنطقة وفي وادي نهر اورخون على الخصوص. وبعد ذلك قام الباحث الفنلندي أ. فيكل برحلة إلى اورخون سنة 1890 فوصل، برفقة زوجته وأخيه إلى المجرى القديم لنهر اورخون، وعثر هناك في مكان غير بعيد عن بحيرة كوشو - تساي دام (جنوبي الهايكال) على نصبين أثرت بهما الرياح ويمثلان منظرًا بالغ الجمال. كان الدمار قد لحق بهما بصورة جزئية ولفهما النسيان عبر ألف من السنين وكانا مجهولين بصورة تامة من جانب العلم الأوروبي.

كانت هناك قطعة صخرية هائلة الحجم - كان من الواضح أنها صخرة شاهدة قد سقطت من فوق قاعدتها وتمثل قطعة واحدة مخززة من جوانبها الأربعة، وهي من نوع من أنواع الحجر الكلسي أو من المرمر السين غير النقي. كان ارتفاع الحجر يصل إلى 3.5 متراً ويبلغ

عرضه في الأسفل 1.32 م وفي الأعلى 1.22 م أما جوانبه الضيقة فكان عرضها يتراوح بين 44 و 46 سم. وقد تعرض جانبان منه للعت الشديد وانتهت الصخرة المحدبة نحو الأعلى بتزيينات لعلها كانت تصويراً رديئاً إلى حد بعيد لتنينين. أما الجانبان المريضان فقد توضع فوقهما لوحات صغيرة مغمسة الزوايا وذات نقوش كتابية. أما الصخر نفسه فكان ينتهي في أسفله بزائدة طويلة وقوية تتطابق تمام التطابق مع الثقب المنقور في القاعدة التي لا تزال باقية حتى الآن والتي أعطاهما النحاتون هيئة السلحفاة. وكان المظهر العام وطريقة أدائه يحملان السمات المميّزة بالنسبة للنصب الصينية المعاصرة لذلك النصب، فالعمل كان صينياً دون شك.

وكانت جوانب النصب بكاملها مغطاة بالنقوش الكتابية. أما الجانب المنحج نحو الغرب فكان يحمل نقشاً صينياً كبيراً، ونقشت على الجوانب الثلاثة الباقية كتابات وضمت بالأبجدية الرونية التي كانت معروفة من المكتشفات البيينية وغيرها.

وعلى بعد 40 متراً تقريباً من الحجر كان ينصب محراب أو مذبح كبير مربع الشكل، ويفصل بينه وبين النصب حاجز أرضي منخفض بطول 25 متراً يكشف عن خرائب مبنى كان يقوم تحته ذات يوم.

وبالفحص الدقيق تبين أن الحاجز كان بقية جدار أقيم بالقرميد الصيني. وبالقرب من ذلك المرتفع الترابي اكتشف الباحث سبعة تماثيل مرمرية صينية الصنع دون شك، وتدل ملابس الشخص المنحوتة عليها وتوابعها على أنها تمثل تيوركا، وكانت رؤوس التماثيل مقطوعة. وإلى الجانب الآخر من الأثر كان هناك هيكلان لحيوانين لحق بهما دمار شديد، وقد تقابل رأساهما ولعلهما كانا يمثلان مدخلاً إلى مبنى. وبداية من المدخل يبدأ خط مثير للنظر من الأحجار يمتد بطول 4.5 كيلو متراً (1) يمثل أشكالاً بشرية رقت بمسافة يعتمد أحدهما عن الآخر ب 10-12 متراً وتتجه وجوهها نحو الشرق. وقد مكنت الملاحظة من الاستنتاج بأن المبنى كان مكاناً للدفن أما القطع الحجرية فكان يجب أن تصور الأعداء الذين قضى عليهم الأموات خلال حياتهم.

وعلى بعد كيلو متر واحد من ذلك المكان عشر غيكل ومرافقاه على نصب آخر مماثل للأول وأعظم منه حجماً، وكان واضحاً أنه تعرض في حينه لأشد مما تعرض له الأول - فلم يكن قد سقط فقط عن قاعدته بل، وللأسف، كان قد تحطم إلى عدة قطع. أما النص المنقوش فوقه فكانت الرياح فقد فعلت فعلها في كثير من مواضعه فأحى، أما ما تبقى منه فكان أيضاً منقوشاً بالهيروغليفات الصينية وربما صار مألوفاً من تلك الرموز الكتابية «المجهولة»، وفي المناطق المحيطة بذلك النصب عشر على منشآت شبيهة بما كنا قد شاهدناه عند «تخص» النصب الأول.

كان غيكل ومرافقاه يقفون، دون أن يعرفوا، أمام ضريح كيول - تيغين وأخيه بيلفي - خاقان. وفي سنة 1892، وفي غيلسينففورس، أصدروا النقوش الكتابية التي عثروا عليها. ولكن قبل عامين من عودة غيكل من سيبيريا كان العالم اللغوي الروسي الشهير ف. رادلوف قد قدم لأكاديمية العلوم الروسية مخططاً مفصلاً لدراسة المناطق التي عثر فيها على المكتشفات، وفي العام التالي ترأس بنفسه بعثة توجهت إلى هناك كان من بين أعضائها ن. يادرينتسيف الذي سلفت الإشارة إليه ود. كليمينتس المتخصص بالدراسات السيبيرية. واتجهت البعثة من كياختا إلى منغوليا بهدف دراسة الخرائب القديمة في حوض الأورخون وروافده ومعرفة الروابط التي كانت قائمة بين الكتابات الينيسية وتلك الكتابات المنغولية. وعند قره بالفاسون وحيث كانت تتألق قره قوم، عاصمة الخاقانات المنغوليين العظمى ذات يوم، اصطدموا بنصب غرانيطي هائل الحجم نقشت فوقه ثلاث كتابات: إحداها بالصينية والثانية بالايغورية وكانت الثالثة منقوشة بالرموز الرونية «السيبيرية».

وفي سنة 1892 اتخذت نتائج هذه البعثة هيئة طبعة ضخمة وجيدة النوعية، وفي الـ 15 من كانون الأول سنة 1893 تقدم العالم الدانمركي ف. تومسين إلى الجمعية العلمية الملكية الدانمركية بـ «تقرير أولي» (لا يزيد حجمه عن خمس عشرة صفحة) بعنوان «*Dechiffrement des inscriptions de l'Orkhon et de l'Ié nissei*» وكان يتضمن في الأساس القراءة الكاملة لرموز الكتابة الجديدة بالإضافة إلى أبجدية لها!

لدى ترجمة المدونات الأورخونية الصينية وشرحها من قبل غ. غاييلينتس طفت على السطح تلك الظروف التي ارتبطت بها أيضاً إقامة ذينك النصبين المذكورين. وتقصّد بذلك نقشي الضريحين: كان الأول منهما وهو الذي حفظ بصورة أفضل - لمن يسمى بـ كوي - تي - غين، ابن غو - دو - لو كي - خان والأخ الأصغر لمن يسمى بـ بي - كيا كي - خان «الحاكم الحالي». وفي الأسماء الصينية المذكورة يمكن، ودون عناء، التعرف على الحاكمين اللذين سبق ذكرهما وهما كوتلوغ «السعيد» وبيلفي - «الحكيم»، والأمير كول - تيغين. ومما يذكر أن الأدب الصيني يشير إلى إقامة هذين الضريحين. وفي مكان بعيد نسبياً عن النصبين عثر فيما بعد على نقش كتابي حفر على ذكرى الوجيه الكبير، القائد الحربي الثيوركوي تونيوكوك وقد نقش فوق عمودين حجريين لم يكونا قد سقطا حتى أيام الكشف.

ولكن من أين كان لعلماء الآثار أن يعلموا، قبل قراءتهم للمدونات الصينية بطقوس الدفن المتعلقة بالشواهد التي اكتشفوها؟ إن علينا، انطلاقاً من هذا أن نلقي بأنظارنا إلى

أغوار التاريخ القديم، فهي وحدها القادرة على أن تمرض أماننا، وبالضوء الصحيح، ماهية تلك العادات البربرية الشرسة التي كونت التربة التاريخية التي قامت عليها المنشآت الضرائحية التي تم العثور عليها في منفوليا. إن ما تحدى تنالي مئات السنين هنا في حوض الأورخون متجسداً في الصخر الأصم العنيم الحسن - ما هو إلا صدى ذلك الزمن الغابر الذي كانت نصب الأموات فيه لا تصاغ من قطع الحجر بل تقد من لحوم البشر.

أما كيف كان يتم ذلك فنعرفه من هيروودوت. فهو يصف في كتابه الرابع (الفصلين 71-72) ملقوس الدفن الملكي عند الصقالبة (وهذه التسمية تشمل لديه أشد الشعوب تباعداً واختلافاً). ولنقارن هذا الوصف لدى هيروودوت بالإخبارية التي تعرفنا عليها لدى ميناندر حول الدفن الذي أعده لأبيه الابن توركسانف، ابن سيلزيبول - ايستيمي، ولنتذكر في الوقت نفسه المدافن الأورخونية، التي تتحدث أحجارها الصماء بكل بلاغة عن تلك المادة نفسها. ويفدو كل شيء مفهوماً من توه على الرغم من الألف السنة التي تفصل بين عهد هيروودوت وعهد إقامة النصب الأورخونية، تلك السنون التي جردت عادات الأجواء الوحشية من تلك الفضاءة البدائية المتوحشة التي كان توركسانف ممن دفعوا لها الضريبة.

وهكذا فإن هيروودوت يتحدث عن الصقالبة بما يلي:

يقع مدفن الملوك في غيرا التي تصلها السفن بطريق بوريس - فينيس، وهناك يمددون فور وفاة الملك إلى حفر حفرة كبيرة مربعة الأضلاع وبعد أن ينتهوا منها يأخذون الميت فيغطون جسمه بالشمع، ولكنهم قبل ذلك يشقون بطنه وينظفونه ويملونه بالطيب المسحوق والبخور ويحب الكرفس واليانسون ثم يخيطنونه ويحملونه في عربة إلى الشعب الآخر، فيقوم الشعب التالي الذي وصل إليه الميت بالعمل نفسه الذي قام به الملوك الصقالبة، أي هناك أيضاً، يقطع الناس جزءاً من آذانهم ويحلقون شعورهم بكاملها، ويجرحون أذرعهم، ويخدشون جباههم وأنوفهم، أما أذرعهم اليسرى فيغمدون فيها السهام. ومن ذلك المكان ينقلون جثمان الملك إلى الشعب الآخر الخاضع لهم بينما يقوم الشعب الذي سبق أن جاءوا إليه بالسير وراء الجنازة. وبعد أن يطوف ملوك الصقالبة بالمرور على جميع الشعوب يصلون إلى أراضي أبعد الشعوب الخاضعة لهم وهم شعب الغير حيث يقوم المدفن. وهناك يدفنون الجثة فوق مفرش من العشب وعلى كل جانب من الجثة يغمدون رماحاً ويضعون عليها العوارض المتقاطعة ويغطون ذلك بقماش البياض. وفي بقية المنتسح من القبر يدفنون واحدة من جواربه بعد خنقها بالإضافة إلى ساقيه وطياخه وسائس خيله ووصيفه المقرب ورسوله وأخيراً خيوله والأفضل من كل نوع من الماشية وأوان ذهبية - فملوك

الصقالبة لا يستخدمون الفضة والنحاس على الإطلاق. وبعد ذلك يقوم الجميع معاً بإقامة رابية ترابية ضخمة ويبدلون جهداً خاصاً لتكون من أكبر الأحجام.

وبعد مرور عام يقوم الصقالبة بما يلي: يختارون ممن تبقى من الخدم خمسين شخصاً مناسبين للملك، وهؤلاء من الصقالبة فيبناء على أمر الملك لا يقوم على خدمته إلا أمثال هؤلاء وليس لديه خدم مشترون بالنقود، كما يختارون أيضاً خمسين من أجود الخيل، ويقومون بخلق أولاء وأولاء ويخرجون أحشاهم وينظفون بطونهم ويملأونها بالنخالة ويخيطونها ثم يضربون في الأرض عمودين ويثبتون عليهما نصف عجلة بشكل يكون الطوق فيها متجهاً نحو الأرض ويثبتون النصف الثاني من العجلة على عمودين آخرين. وبعد ذلك يولجون في الخيل وبصورة طولانية رماحاً ثخينة تصل حتى الأعناق، وعلى هذه الحالة يرفمون الخيول على أطواق العجلات بشكل تكون أكتاف الخيل على الأنصاف الأمامية وعلى الأنصاف الخلفية تكون الأجسام من عند أصل الفخذين، وذلك ليكون كل زوجين من قوائم الخيل مدلى إلى الأسفل دون أن يبلغ الأرض، وأخيراً يطرحون على الخيل الألجم والأعنة... أما الشبان الخمسون... فيركبون واحداً واحداً على الخيل بالطريقة التالية: يولجون في جثة كل شاب وبطريقة طولانية، رماً مستقيماً بطول العمود الفقري حتى يصل إلى العنق ثم يدخلون الجزء السفلي البارز من ذلك الرمح في الجزء المفرغ من الرمح الآخر الذي يخترق الحصان وبعد أن يضع الصقالبة هؤلاء الفرسان حول القبر على هذه الصورة يتفرقون»⁽¹⁾.

إن أولئك الفرسان هم أجداد ذلك الحرس الحجري المائل بالقرب من المدافن الأورخونية.

لم يقدر لأي واحد من العلماء الذين أنفقوا الكثير من الجهود المضنية من أجل اكتشاف وتجميع آثار الكتابة الرونية أن يقرأ تلك الكتابة فلم تقترب من الهدف إلا بعض الملاحظات العامة التي قام بها رادلوف. أما بالنسبة للقراءة نفسها، والتي دخلت تاريخ العلم على أنها الصورة الأكثر نموذجية لقراءة من خلال «جلسة واحدة» (إلى طاولة العمل بالطبع) والتي تعدّ حتى وقتنا هذا، مثالاً للمأثرة العلمية الألافة التي يقوم بها عالم واحد بمفرده، فقد بدت وأنجزت وأعطيت صورتها العامة على يد أكبر الباحثين الإسكندنافيين.

بدأ ويلهيلم لودفيغ بيتر تومسين (1842-1927) وهو ابن تومسين، مأمور البريد في رانديرس، حيث أمضى طفولته وسني صباه المبكر، وحيث كان يحضر دروس المدرسة اللاتينية في المدينة، خطه الجامعي، شأن الكثيرين من علماء جيله، بدراسة اللاهوت، إلا أنه

1- Геродот, История в девяти книгах, пер. Ф.Г.Мищенко, М., 1888.

سرعان ما انصرف عنه. وكان يتردد ، في بداية عهده ، بين دراسة اللغات والعلوم الطبيعية وبقي علما النبات والفيزياء يستميلانه على مدى فترة طويلة ، إلا أن الناصر كان في نهاية المطاف إلى جانب علم الكلمات الأثير إلى النفس فكرس حياته كلياً لذلك العلم ، وقد التقى ذلك الطالب بالأعلام من الأساتذة الذين لم ينجحوا فقط في اجتذابه إلى دراسة هذا الميدان من المعرفة بل وفي أن يمنحوه تلك الأسس من المنهجية الممتازة ومن المعارف الواسعة التي ميّزته بدورها بين زملائه الكثيرون المدد في العمل ، تلك المعارف التي كان دوماً يحاول إثراءها وتعميقها كرحالة وبحّاث وعلامة. فقد قام مادفيغ الذي لا يزال يعد حتى الآن معلماً مرموقاً بين أعلام الفيلولوجيا الكلاسيكية مثلما قام ن. م. بيترسين ثم ك. لينغبي من بعده ، بإثارة حب تومسين نحو دراسة الفيلولوجيا الإسكندنافية ، كما إن فيستيرهارد ، المشارك في حل رموز المسماة الميلامية ، وسميث ، عالم اللغات السلافية كانا في عداد أساتذته في الوطن. وفي وقت مبكر بدأ الشاب الإسكندنافي في إبداء الاهتمام نحو الشعب المجاور - شعب الفنلنديين ولغته. ووليت إحدى الأعمال التي كتبها في هذا الموضوع وأصدرها عام 1869 الشهرة لاسمه على الفور. وقد قادته رحلاته خارج الوطن إلى برلين ، لايبزيغ وبراغ (فقد راح يدرس التشيكية في براغ) وقد واصل دراساته في حقل اللغات السلافية تحت إشراف ميكلوشيتش في فيينا حيث عاش فترة لا بأس بطولها. كما إنه تحايل في الوقت نفسه من أجل تلقي دروس في اللغات العربية ، البولونية والمجرية. وينتقل تومسين بعد ذلك إلى بودابست حيث يواصل معارضة في هذه اللغات حدّ الكمال ، وقد اتسع مجال اهتماماته ليشمل العربية والفارسية والفجرية ثم اللغات اليابانية والصينية والتاميلية التي راح يدرسها تحت إشراف بريال في باريس. ولم يترك اللغات التوركية جانباً - بل إن هذه اللغات بدأت تثير اهتمامه بقوة متعاظمة.

وعلى الرغم من أن تومسين قد حقق الشهرة لاسمه وهو في سن الفتوة ، فإنه ظل يعمل بداية من سنة 1870 عندما عاد إلى الوطن وحتى سنة 1878 مدرساً لللاتينية واليونانية ، ثم اخذ يشغل وحتى سنة 1887 ، منصباً رفيعاً ولكن ضمن الإدارة المدرسية. وفي سنة 1887 أصبح أستاذاً في قسم اللغات المقارن في جامعة كوينهاغن ولم يخلع مسوح الأستاذية حتى سنة 1913. وعندما أصدر تومسين سنة 1877 دراسته التاريخية حول علاقات روسيا القديمة بإسكندنافيا وأصل الدولة الروسية ، كان أكثر ما يشغل اهتمامه القضايا المرتبطة باكتشاف الآثار الكتابية في سيبيريا الجنوبية - وهي الآثار البيبسية وغيرها مما عثر عليه في منغوليا وحوض الأورخون ، والقضية أن هذه الآثار كانت تتجاوب بصورة لا مثيل لها مع ميوله واهتماماته في موضوع تاريخ اللغة والثقافة.

وبما أنه قد تم التعرف وبصورة لا بأس بها من السرعة على أن الرموز المجهولة المستحضرة من بينيسي وأورخون - تمثل شكلين للكتابة «السيبيرية» الواحدة (كما كانوا يسمونها آنذاك بل وما زالت تسمى عند بعضهم حتى الآن) فإن تومسين قد ركز اهتمامه على أكبر النقوش الكتابية حجماً وأشدّها اكتمالاً والتي تُعدُّ أكثر من غيرها بنجاح كامل في العمل. وكانت النقوش الضرائحية الأورخونية لكيول - تيفين وبيلفي من ذلك الطراز. أما التصوّرات التي وضعها تومسين إبان دراسته لتلك الرونات السيبيرية فإنها تذكرنا في كثير من وجوهها بالمراحل الابتدائية لغيرها من القراءات الناجحة.

فأول ما قام به هو أنه حدّد اتجاه الكتابة (وهو ما بدأ به غروثيفيند) وأوضح بذلك القضية المتعلقة بطريقة قراءة المدونة. وكان ف. رادلوف، ناشر النقوش الكتابية بنفسه قد ارتكب خطأ في ذلك. واستطاع تومسين، عن طريق المقارنة المنطقية المقننة بين قطع كاملة من النص وأسطر منفصلة منه، البرهنة على أن قراءة الكتابة يجب أن تتجه لا من اليسار نحو اليمين على نحو ما نجد في المنغولية مثلاً (حسبما افترض رادلوف)، بل من اليمين نحو اليسار حسبما تقرأ الأسطر العمودية من الكتابة الصينية.

وتتمثل الخطوة التالية في حساب «الحروف» فكانت النتيجة عدداً طريفاً هو - 38. وقد حدد ذلك بوضوح مكان هذا النظام الكتابي وهو مكان وسط بين الكتابة الأبجدية البحتة والكتابة المقطعية. فلنتذكر أن الكتابات المقطعية التي دار الحديث حولها حتى الآن كانت تتضمن كقاعدة عامة 50 رمزاً على الأقل بينما لم تزد رموز الأبجديات عن - 30 رمزاً. ومن ذلك توصل تومسين إلى نتيجة ذات أهمية كبرى: أننا، حسب أقرب الفرضيات تتعامل مع كتابة أبجدية تتبدل هيئات بعض رموزها الخاصة بهذا اللفظ أو ذاك وفقاً لبعض المنطلقات المحددة - أي وفقاً للصوت الذي يسبق ذلك الرمز أو يأتي بعده. وبعد أن درس تومسين المظهر الخارجي للكتابة أجرى تلك الدراسة التي كان من شأنها أن تظهر أن هذه أو تلك من السواكن تغير هيئاتها تحت تأثير ما يسبقها أو ما يليها.

وفي أساس تلك الدراسة كان يكمن تصوّر في غاية البساطة، فقد قال تومسين لنفسه: إن من بين سلسلة الرموز س ع س وبكلمة أخرى - من مجموعة الرموز التي يفصل فيها بين رمزين متكافئين برمز ثالث مختلف لا بد أن يكون س ساكن ويكون ع على عكسه صوتياً أو يكون ع ساكناً فيكون س صوتياً. وانطلاقاً من ذلك أجرى دراسة شاملة لأمثال هذه السلاسل من الرموز وتوصل في هذا الطريق إلى أول أهدافه. فميّز الصوتيات في رموز > و M. والحق أنه لم يتم تحديد كل شيء بالصورة الصحيحة ففي البداية فهم >، وهو

o/ü على أنه *o /ü* وفهم الـ *o /ü* أي *ü* على أنه *o*. وبصورة صحيحة فهم على الفور *ü* على أنه *o* إلا أنه كان عليه أن يتخلص من سلسلة من الأخطاء قبل أن يتوصل إلى تمييز الصوتي الرابع *o/ü* في رمز *ü*.

ولكن لم تكن هناك بعد البراهين القاطنة بصحة النتائج، والشكوك المتعلقة بنقاء المعادلات التي تم وضعها - وهي شكوك ذات أساس بلا شك - لم تتخل عن ذلك العالم. ولكي يتوصل تومسين إلى مثل هذه البراهين لجأ إلى الطرق الأثيرة والمجرية التي طالما استخدمت خلال جميع قراءات الرموز، فشرع بالبحث عن أسماء الأعلام وبخاصة منها تلك التي كان مصادقاً عليها، ولو عبر الأداء الصيني، بنقوش كتابية صينية فوق النصب. وكان لا بد من توقع أن تتخذ أسماء الأعلام هيئات مجموعات مقلدة من الرموز (أما بالنسبة للفواصل بين الكلمات المتخذ هيئة النقطتين فقد لفت إليه النظر مكتشفو النصين أنفسهم) فلا بد أن يلتقي بها في النص بصورة أكثر تردداً أو أن تكون أبرزت بطريقة أخرى وفقاً لتوضعها في النص مثلاً - في بداية المقطع الجديد.

ولم يكن على العالم الدانمركي أن يشغل نفسه طويلاً في التمييز فأول ما استرعى انتباهه مجموعة *h ʃ ʒ ʒ* التي كثيراً ما كانت تظهر في كلا النقشين الكتابيين الأرخونيين. أما نقطة الانطلاق للبحث فكان الرمز الأخير، الرابع، في مجموعة الرموز (وهو الأخير إلى اليسار إذ إن اتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار) وهو *ü* وكان تومسين على ثقة من أن دلالة اللفظية هي *ü*. أما كثرة التردد التي تلاحظ بالنسبة لهذه المجموعة من الرموز، ومكانها واحتواؤها على الصوت الأخير، فدفعت بتومسين نحو خطوة جريئة إلى حد ما، فاستنتج بأنه أمام نعت يستخدم لتبجيل اللقب الأميري أي أمام كلمة مألوفة بالنسبة للغة المنغولية وجميع اللهجات الفورية وهي تعني «سما» أو «إله». وإلى جانب ذلك فإنه على أساس من جميع التصورات والاستنتاجات السابقة والتي تم التوصل إليها بمناسبة دراسة عدد رموز الأبجدية سمح بالافتراض بأن بالإمكان أن يكون الصوتي قد أهمل لفظه فاستبعد. فطابق انطلاقاً من هذه النقطة بين مجموعة *h ʃ ʒ ʒ* و *i-r-ng-d i* أي مع كلمة *id ngri* (على نحو ما يجب أن تقرأ به، وهي «سما» أو «إله»).

كان يمكن قبول هذا التطابق في البداية على أنه فرضية ليس أكثر، وتواصل البحث عن أسماء أعلام جديدة. وقد استرعت اهتمام تومسين بشكل خاص مجموعة أخرى من الرموز هي *h ʃ ʒ ʒ* فقد ترددت عدة مرات فوق الحجر الأول لكنها اختفت بصورة تامة من الحجر الثاني. لماذا يا ترى؟ لم يكن هناك غير قرار واحد: هو أن تكون تلك

بتضمنين المعاني التي تم التحصل عليها في كلمات أخرى وأن يُميد الأبجدية كلها خطوة بعد خطوة، منتزعا إياها من مخالب النسيان المتشددة. وقد تَوَجَّأ أعماله بعد ثلاث سنوات بدراسة «*Insriptions de l'Orchon dechiffrees*» (النقوش الكتائية الأورخونية المقروءة؛ غيلسينغفورس، 1896) حيث وضع في أيدي العلماء لا الأبجدية فقط بل وترجمة للنقوش كاملة وممززة بالتعليقات.

الكتابات السيبيرية		البهلوية الأرشاكية		الكتابات السيبيرية		البهلوية الأرشاكية	
البيهنسية	الأورخونية	اللفظية الدلالة	الرموز	البيهنسية	الأورخونية	اللفظية الدلالة	الرموز
25X	5	a, a	254	u	5Y	Y	قبل أو بعد a, a, a, a, a
567	5	قبل أو بعد a, a, a, a, a	5	b	567	567	m
Y421	4	ng	Y >	g))	قبل أو بعد a, a, a, a, a
3333	33	قبل أو بعد a, a, a, a, a	33	d	3333	3333	قبل أو بعد a, a, a, a, a
X(77	7	قبل أو بعد a, a, a, a, a	7	k	X(77	X(77	z
7444	4	قبل أو بعد a, a, a, a, a	7444	h	7444	7444	s
>>^	>	o, u	> 7	w	7 7	7	p
1	1	5 e, i, a, a, a	1	z	1 1 1	1	قبل أو بعد a, a, a, a, a
NNN	N	قبل أو بعد a, a	NNN	t	Y 7	Y	5 a, a, a, a, a
^ 7 7	7	قبل أو بعد a, a, a, a, a	^ 7 7	r	↑ ↓	↓	قبل أو بعد a, a
0 5	0	nd, ni			Δ	Δ	قبل أو بعد a, a
777	7	i, y	777	j	444	4	قبل أو بعد a, a, a, a, a
999	9	قبل أو بعد a, a, a, a, a			Y Y	Y	قبل أو بعد a, a, a, a, a
000	0	قبل أو بعد a, a, a, a, a			444	4	f
ε	3	الأقصى			λ λ	λ Y	c
777	77	o, u			{321}	}	nc
9294	9	قبل أو بعد a, a, a, a, a	9342	k	h h h	h	قبل أو بعد a, a, a, a, a
B B	B	قبل أو بعد a, a, a, a, a			X +	X	قبل أو بعد a, a, a, a, a
5 5	5	قبل أو بعد a, a, a, a, a	5 5	l, r	M		ld, ll

الشكل -87- الأبجدية الرونية لقدماء التبورك

تم النظر إلى ذلك الكشف اللامع من وجهة نظر تاريخ الكتبة على أنه مفتاح بالغ الأهمية بالنسبة لفهم تاريخ آسيا الوسطى بطوله. وقد اعتمدت هذه النظرة على الواقع الذي كان سابقاً، والقاتل بأن الكتابة من حيث مصدرها نسبية للكتابة البهلوية الارشاكيدية (الفارسية الوسطى) التي تنطلق بدورها من الكتابة الآرامية. ومثل هذا التطور حافل بالمبرر بالنسبة لفهم تاريخ الثقافة، إذ إن الرأي الذي كان دارجاً في السابق كان يقول بأن مصادر هذه الكتابة تعود إلى فترة النشاط التبشيري للمانيين. أما فيما يخص علم اللغات فإنه مدين لتومسين قبل كل شيء بالتوسع المفاجئ في معارفه، إذ إن الكتابة التي أعيد اكتشافها بما فيها من غنى في تلون رموزها (ال 338) كانت أقدر إلى حد كبير على أداء الألفاظ الصوتية للغة التيوركية القديمة من الكتابة الأويغورية ذات الحروف الـ 20 والتي زحمت كتابة قدماء التيورك بصورة نهائية سنة 800 م.

ونحن حتى في يومنا هذا لا يمكن أن ننظر نظرة لا مبالاة إلى لغة الأثار التيوركية القديمة وسواء أتجه الملك بيلفي - خاقان باستملاء نحو شعبه أم راح يكابد لواعج الحزن بسبب موت شقيقه، سواء أتماظم الشيخ الوجيه تونيوكوك بما لديه من جاه والذي لم يدخر وسماً في أن يسجل على شاهد قبره أحجام تلك الكوارث الرهيبة التي كانت ستزل بشعب التيورك لو لم يكن هو، تونيوكوك الحكيم، موجوداً في هذا العالم - فإن جميع هذه الأقوال قريبة إلى نفوسنا على الرغم من أنها تعود إلى ذلك الزمن الذي لم يكن فيه الشعب التيوركي يعرف الديانة السماوية.

لقد هتف توركسانف ذات يوم برسلة بيزنطة قائلاً: «تخضع لي الأرض بطولها، وبهذه اللغة نفسها تحدث بيلفي - خاقان بعد مرور 160 عاماً فقال:

«أنا خاقان التيورك، الشبيه بالسماء، وابن السماء قد تسنمت الآن للعرش فأصغوا إلى خطابي لأنتم! أيها السائرون بقيادتي، أنسبائي الفتيان والشبان لوأنت! أيتها القبائل والشعوب المتحالفة معي...»

عندما خلقت هناك في الأعالي السماء الزرقاء لواء في الأسفل الأرض المظلمة خلق بينهما! أبناء البشر. وعلى أبناء البشر نصب جداي بومين - خاقان وايسيمي - خاقان فلما جلسا على العرش دعما اتحاد القبائل وتكون الشعب التيوركي. كانت أركان العالم الأربعة أعداء الهما؟ فزحفا بجيشهما وأخضعا جميع الشعوب التي تمش في الأركان الأربعة وأرغماها جميعاً على التسليم. وأرغما كل ذي هامة على أن يحني لهامته وكل ذي ركبتين على الركوع بركبتيه...»

أخي الأصغر كيول تيفين توي في فمترتي الأحران، فكأن عيناى المبصرتان كفتا،
وكأن ذهني المفكر تبلد أماا أنا فاستسلمت للأحران. الأعمار تقررها السماء لولكن مهما
يكننا فإن أبناء البشر جميعاً ولدوا لكي يموتوا»⁽¹⁾.

«أنا الحكيم تيونيوكوك تلقيت تربيته بتأثير من آداب شعب تابغاتش (حيث إن جميع
الشعب التيوركي كان خاضعاً لدولة تابغاتش... فلتكن السماء رحيمة: إنني إلى شعب إيها
التيوركي لم أوجه الجيوش المسلحة اجيداً ولم أرسل الخيالة المدججة بالسلاح. ولو أن
ايلتيريش - خاقان لم يحاول أن يمتلك ولو أنني لعلى أشرما لم أحاول أن أمتلك لما وجدت
الحكومة ولا الشعب... أما أنا فقد طعنت في السن وارتقيت. ولو كان الخاقان في أرض من
الأراضي الخاضعة للخاقانات لواحداً من الكسالى فما أشد مصيبة لذلك الشعب.
أنا تيونيوكوكوك الحكيم، أمرت بنفش لهذا من أجل شعب يليني - خاقان
التيوركي»⁽²⁾.

وقد كان لتاريخ الرونات التيوركية القديمة تكملة مفاجئة لا تخضع حتى الآن
لتفسير مقبول ولا تزال المساجلات العلمية الكثيرة العدد تدور حولها.

فمنذ ما يربو عن الـ 50 سنة صعقت الأوساط العلمية بفعل كشف المستشرق
فيورتسبورغي (الميونخيني فيما بعد) فرانس بابينغير. ويرتبط هذا الاكتشاف مخطوطه عشر
عليه في الأرشيف المائلي والإداري لأمرأ ولوردات فوغير في أوغسبورغ: أما المخطوطة فكانت
تمثل وصفاً رحلة قام بها هانس ديرنشام الفراديتشيني، الوكيل التجاري للفوغير خلال
سنوات 1553-1555، وقد تم التوصل إلى أن مؤلف المخطوطة بوهيمي من مدينة موستا وأنه
تعلم في فيينا ولايبزيغ وأنه بقي على ذلك وعلى مدار 35 عاماً مديراً المناجم الفوغيرية في
بانسكا بيستريتسا. وقد دخل ديرنشام هذا في عداد السفارة الشهيرة التي وجهها فرديناند
الأول إلى قصر السلطان سليمان الأول، تلك السفارة التي ترأسها فيما بعد أوجي جيسلان دي
بوسبيك، وهو نفس ذلك البوسبيك الذي اكتشف لأوروبا ذلك الأثر الأدبي الشهير
Monumentum Ancyranum، الذي كان يتضمن إخبارية عن أعمال الإمبراطور أوغسطس.
وقد راح ديرنشام، طالب جامعة فيينا وخريج جامعة لايبزيغ، ينحو بكل غيرة منحى رئيسه،
فاستطاع أن يجمع ويستسخ عددًا لا بأس به من المدونات اليونانية واللاتينية الثمينة، التي

1- С.Е.Малов, Памятники древнетюркской письменности.Тексты и исследования. М.-Л., 1951.

2- المصدر السابق ص 64، 69-70.

لولاه لراحت ضحية الضياع حسب أقرب الاحتمالات، وفي نهاية المخطوطة المذكورة أعلاه يقدم ديرنشام بكل موضوعية عدداً من النقوش الكتابية الرومانية واليونانية التي استسخها في استامبول. إلا أن الشيء الأساسي الذي استأثر باهتمام بابينغير، الذي اكتشف هذه الآثار ثانياً، من أجل العلم كان نقشاً منقولاً ذا مظهر غير طبيعي تماماً؛ ضاع بين النقوش الكتابية الرومانية، ويؤكد ديرنشام أنه قدر له استساخه من جدار الإسطلب الذي كان تابعاً لبيت السفراء في استامبول وهو ما يسمى بـ «خان السفراء» الذي سمي فيما بعد بتسمية جديدة هي «خاني تانار». وكان ذلك المبنى في بداية عهد مجرد سرايا للقوافل كان سلطان التيمورك المطلق في المهود السابقة يؤدي فيها سفراء كافة الدول الأوروبية أمراً بالتخفظ عليهم كأسرى. وقد عاش بوسبيك أيضاً في ذلك المبنى؛ الذي أزيح من مكانه في القرن التاسع عشر بعد حريق. وبعد أن فرغ ديرنشام من وصف ذلك «الخان الصغير» واصل حديثه قائلاً: «والكتابات المعروضة بعد كل هذا قد نسخت من قبلي عن حجر مرمرى وقد ضرب هذا الحجر في جدار الإسطلب ويمكن أن يقرأ بصورة جيدة جداً»⁽¹⁾.

ولم يستطع فرانس بابينغير بأي صورة من الصور أن يفهم الكيفية التي وصلت بها هذه الكتابات - الرونية إلى استامبول، وأرسل صورة فوتوغرافية منها إلى قارئ الرموز الأشهر ويلهلم تومسين في كوينهاغن. وتعرف تومسين بدوره في النسخة على ما يسمى بالكتابة الهونية - الصقلية باللغة المجرية. وتسنى له أن يميز بعض المفردات والمعنى التقريبي العام للمدونة أما بابينغير فإنه أنجز بالتعاون مع الباحث المجرى إ. شيببستين فك رموز المدونة وقراءتها. ونصّها يلقي ضوءاً ساطعاً على حدث تاريخي معروف بصورة جيدة من المحفوظات المجرية القديمة ويرتبط بمصير السفارة التي كان الملك البوهيمي لاديسلاف الثاني الذي كان بين 1490 و 1516 حاكماً على المجر أيضاً، قد أرسلها إلى بلاط السلطان سليم الأول (1512-1520). وقد كان على هذه السفارة، المكونة من خمسة أشخاص برئاسة بارانابا من بيل، أن تتفق مدة عامين على ساحل القرن الذهبي في المداولات الكلامية أما «كتابات الكفار» غيور يازيجي، التي نسخت من الحجر المضروب في جدار أحد إسطلبات العاصمة السلطانية فلم تكن سوى صرخة استغاثة صعدتها أولئك الذين كانوا من الناحية الواقعية أسرى في «خان السفراء» وهم رسل ملك بوهيميا والمجر!

1- F. Babinger, Eine neuentdeckte ungarische Kerschrift aus konstantinopel vom Jahre 1515, - Ungarische Rundschau für historische und soziale Wissenschaften, III Jg., 1914, S. 44.

وقد وجد هذا النص الذي نصح ودون كتابياً وترجم من قبل فد باينغبير⁽¹⁾ مكاناً في كتابنا (الشكل 88) وإن انظار القارئ الشديد الملاحظة لا بد وأن تتوقف أمام حقيقة ككون الصوتي في هذا النص أيضاً قد استعمل وأهمل على نحو ما هو الأمر في الكتابة التيوروكية القديمة.

إن مدونة استامبول التي نسخها ديرنشام لم تكن؛ بالمناسبة، الأثر الوحيد المعروف من آثار الكتابة الرونية التيوروكية القديمة، التي تشوي الحزوز والتشريحات في أساس كتابتها، فهناك عدد كبير من أمثال هذه الآثار الكتابية معروف الآن على مدار مئات السنين وقد عثر على أقدمها في سنة 1501 في تشيكوسلوانيا كوشبي. والحق أن إخبارية الملك لاديسلاف تميز عن جميع الوثائق الأخرى بكونها مكتوبة من اليسار نحو اليمين بينما كتبت جميع المدونات الأخرى - من اليمين نحو اليسار. وعندما قام المؤرخ المجري تيليفدي سنة 1598 بكتابة دراسته عن لغة الهون («*Rudimenta priscae hunnorum linguae...*») رأى من الضروري أن يقول كلمته حول تلك الرموز دون موازية فقال بأنها كتابة قدماء الهون. وهذا الرأي ليس خاطئاً كما يمكن أن يتراءى للوهلة الأولى. والقضية أن جميع البقايا المعروفة لهذه الكتابة تنطلق من منطقة واحدة وهي - بلاد السيكيل في سيميغراد أما السيكيل فقد عدوا أنفسهم منذ عهد بعيد (بل ويعُدونها حتى الآن) الأحفاد الحقيقيين للهون.

· N · X · T · P · N · T · H · C · X · F · K · X · X · C · N · J · F · A · P · I · A · C · O · T · N · P · O · X · Y · O · M · V · Y · P · P · M · J · Y ·
١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١

القديمة ، كان طبيعياً أن يكون ذلك ضربة قوية للمشاعر الوطنية الهونية - المجرية الشديدة الاحتدام لدى سكان ترانسيلفانيا الأماجيد!

تم إثبات التشابه بين الكتابتين سنة 1890 بواسطة الآثار الأقدم عهداً وكان جارحاً إلى درجة أنه لم يترك مجالاً للمناقشات.

هناك على الأقل أربعة حروف (حسبما يظهره الجدول المقارن) قد صدرت من الكتابة اليونانية واثنان من الأبجدية السلافية القديمة ، الفلاغوليتسا.

يبد أن ذلك الوضع ، الذي يبدو واضحاً للوهلة الأولى ، بقي في واقعه غامضاً إلى حد كبير. والحق أن وجود الحرفين السلافيين القديمين يمكن أن يفسر بتأثير الجيران السلافيين ، أما استخدام الرموز اليونانية فلا يزيد على أن يبرهن على أن النظام الأولي للأحرف قد تكامل في أوروبا الشرقية على حساب الثقافة اليونانية ، وهذا كله لا يستدعي صعوبات خاصة. ولكن ها هي تلك الرموز التي ينعدم أي مثيل لها تجبرنا على التفكير ملياً. أما المشكلة الأساسية التي لم تحل بصورة مرضية فتشكل في الوحدة التسلسلية فجوة حدثت بين المدونات التيوركية القديمة المائدة إلى القرن الثامن وبين الرونات السيكلية التي ظهرت للمرة الأولى في بداية القرن السادس عشر. وقد جرت محاولة لتفسير الكتابة المجرية القديمة بالحزوز على أنها كتابة السيكيل القديمة التي ظلت محروسة بكل غيرة كي لا تتسرب فتصبح في متناول الفئات العريضة من الناس. ولكن من الصعب أن نفترض أنه قد تسمى للسيكيل وعلى مدار مئات كاملة من السنين أن يحتفظوا ، وبهذه الصورة الرائعة ، بكتابتهم سرّاً.

هنالك شيء واحد ثابت وهو أن الحديث لا يمكن أن يتناول هنا كتابة الملك أتيليا وقطمانه البشرية وهو ما لا يؤكد أي واحد الآن بصفة جدية. إلا أن هناك نظريتين لا يمكن اعتبارهما بمنأى عن الطعن ، تقول إحداهما بأن السيكيل - أحفاد الخزر التيورك الذين أخضعهم المادباريون (المجر) في القرن التاسع أي في تلك المرحلة الحرجة التي كان من الممكن خلالها تقبل الكتابة المائدة إلى الآثار الأورخونية (القرن الثامن!) وتتجسد الفرضية الأخرى بالاتجاه الذي يقف على رأسه العالم المجري ب. مونكاتشي؛ ويقول أنصارها بأن الوسطاء بين قدماء التيورك وقدماء المجرين كانوا هم الكومان وهم أقرب جيران السيكيل خلال القرنين الثاني عشر - الثالث عشر. وينحدر هذا الشعب من الأوغوز الذين كثيراً ما يرد ذكرهم بدورهم في المدونات التيوركية القديمة إما كخاضعين للخاقان أو كأعداء له ، وبناء على هذه المدونات كان الأوغوز منقسمين إلى قبائل «الأوغوز التسعة» و «الأوغوز الستة» و «الأوغوز الثلاثة».

الدلالة اللفظية	المرونت المجرية القديمة	كتابة سبيريا	حروف يونانية أو غلاغوليتسا	الدلالة اللفظية	المرونت المجرية القديمة	كتابة سبيريا	حروف يونانية أو غلاغوليتسا
a, d	99		يوناني Δ	m	8		
b	X	X X O		n)) y	
ca = ts	↑			ny = n	D		
ca = c	h			o, o	o		غلاغوليتسا 9
d	+	X »		o, b	Z	X K M N	
e, e	z		غلاغوليتسا 3	p	≡ E	1	
f	⊗ ⊕		يوناني ⊗ = p	r	H /	44	
g	^	FF		s = f	^	^ y	
gy = d'	≠ ≠			sz = s			
h	X X		X = z يوناني	t	y		
i, i	1 1 1 1 k			ty = t'	X X		
j	T 1	9		u, u	⊗		
k	◇	D ↓ ↑		u, u	⊗ فيما بعد	4 M N	
k(a-), (a-a)k	Z Z	N N N		v	M		
l	^			z	≡		
ly = l'	o			zs = z	Y	Y (e)	

الشكل -89- الرموز الرونية في الكتابة المجرية القديمة بالمقارنة مع الرونات التيوركية القديمة ومع الحروف اليونانية والغلاغوليتسا.

وعلى أي حال فإن الكشوفات في ميدان تاريخ الكتابة والتي تمت نتيجة المآثر العلمية التي قام بها قراء الرموز من أمثال ماثرة المبقرى ويهيلم تومسين تظهر لنا، نحن الأوروبيين، العلاقات والروابط التاريخية التي كانت حتى الآن مجهولة بصورة تامة. وهذه الكشوفات لا تزال تشد فقط تلك الخطوط الغامضة التي تربط الشرق بالغرب وتلاحق تلك التيارات تحت المائبة العميقة في الحياة المشتركة للشعوب التي تلعب هنا وهناك دوراً غير ملحوظ لكنه مهم - وهي تلعبه الآن وقد لعبته في تلك الأيام التي قام خلالها بومين - خاقان وايسيمي خاقان «باخضاع شعوب الأركان الأربعة القائمة بين السماء والارض المظلمة في الأسفل...»

الفصل العاشر

قراءة الكتابات الفديهة نحدأ

كتابة الإيتروسكيبين ووادي الهندوس وجزيرة الصيام

ما أفل ما بئناج إليه الناس الكلمات. فالعاني
التي ننضمنا بنقبأونها دون نفاكير.

غوثة، فاوست

نكاد نلك المشكلة الطافية على السطح من فاع
نهر الهندوس أن نكون بلا أمل وذلك على
الأقل من حبت قراءتها.

بيرو ميريدجي⁽¹⁾

ورفعوا الصلوات إلى الإله رانغبينا.

منقوشة على لوحة من جزيرة الصيام

لترجمة عن توماس بارتيلميو

نود، ونحن نختتم هذه الدراسة الموجزة للأحداث المهمة في تاريخ مملكة «الرموز
والمعجزات» أن نعرف القارئ بكبيريات المشكلات التي لا تزال حتى يومنا هذا ممتعة بهذه
الصورة أو تلك على الدراسة. واثنان منها - وهما الإيتروسكية ومشكلة قراءة كتابة جزيرة
الصيام - قلعتان منيعتان وإن كانت بعض الثغرات قد أحدثت في جدرانها وقد استسلمت
مواقعها المتقدمة وسقطت أبراجها الخارجية ومع ذلك فإنها لا تتويان التسليم. أما المشكلة
الثالثة فهي مشكلة كتابة حوض نهر الإند - وهي لا تزال قلعة صامدة استطاعت أن تصد
الهجمات المنفردة مثلما نجحت في صد الهجوم المشترك لجميع محاصريها. ولا تزال هذه

1- P. Meriggi, Zur Indusschrift, - Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, Bd
87 (N. F. Bd 12), 1934, S. 198.

المشكلات أحجيات وتبدو كمتاهات متداخلة لا أمل في حلها إلا أنها ستحل غداً وبذلك تثري معالم البشر عن بني البشر وتزيدها عمقاً.

وهناك واحدة من هذه الأحجيات تمتاز عن غيرها بكونها استطاعت أن تقاوم بعناد جميع محاولات القراءة واحتفظت بسرّها على الرغم من أنها ما زالت وعلى مدار أكثر من ألفين وخمسمئة سنة تنفخ في شغاف قلب الحضارة القديمة، إنها أحجية «الأحاجي الإيطالية» - لغة الإيتروسكيين. ونقصد بالحديث اللغة الإيتروسكية بالذات وليس الكتابة فالكتابة نعرفها ونعرفها منذ زمن بعيد جداً. والحق إن رموز كتابة هذا الشعب المتحضر القديم الذي اقتبس عنه الكثير، وبلا حدود، جيرانه الأقربون الرومان (ولعلمهم اقتبسوا أكثر مما هو معروف بالنسبة لنا) قد انتزعت من مخالب النسيان العاتية في عصر اليقظة. ومنذ ذلك الوقت أخذ العلم ينتزع خطوة بعد خطوة رموزاً جديدة بعد رموز إلى أن تمكن ريتشارد ليبسيوس من تكملة الأبجدية التي تم التحصل عليها بواحد من أهم الأحرف وأخرها. وبذلك كانت عملية قراءة الرموز قد امتدت على مدى مئات السنين!

كانت الدفعة الأولى نحو الطرح العلمي للموضوع المتعلق بالكتابة الإيطالية القديمة هو أحد الكشوفات التي تمت سنة 1444. ففي ذلك العام وبصورة عرضية تماماً اكتشف في غوييو، وهي ايفوفيا القديمة التي كانت قائمة في اومبريا التي تضاهيها قديماً، وفي غور تحت الأرض، سبع لوحات برونزية نقشت بعض أجزائها من وجهيها؛ وفيما بعد أحضرت اللوحات لتحفظ في مبنى البلدية. وكان خمس منها يتضمن نقوشاً باللغة الأومبرية كتبت بالكتابة الأومبرية نفسها. وكانت رموز هذه الكتابة العامة بالنسبة لجميع الأبجديات الإيطالية القديمة الأخرى مدينة بوجودها لكتابة اليونان ولوساطة الإيتروسكيين الثقافية، وكانت تكشف أصولها بصورة كاملة. وكانت لغة المدونات تقترب بنسبها من اللاتينية. ومع ذلك فعلى الرغم من هذه المنطلقات في البحث ومن الوسائل المساعدة فإن قراءة رموز الكتابة الأومبرية وفوق ذلك تفسير تلك اللغة، واللذين لم يضمنا في حينهما لليبسيوس، ذي الاثنتين وعشرين سنة، قبة الدكتور فقط بل وأمجاد القارئ الشهير للرموز، يبقيان مع كل ذلك مهمة لم تحل بعد وذات أهمية من الدرجة الأولى.

وفي القرن الخامس عشر بل وبعد ذلك بزمن بعيد وبدراسة اللوحات الايفوفية انطلق العلماء من فرضية تجزم بأن ما أمامهم ليس أبجدية أومبرية بل كتابة الإيتروسكيين القديمة وهذا ما أحدث بالطبع ارتباكاً كبيراً في قراءة الرموز. وفي 1539 فقط تمكن تيزيو أمبروجو من بافيا وهو عالم مستشرق وكاتب كبير (*famoso autore*) من القيام بإسهام ملموس في دراسة اللغة الإيتروسكية. ففي دراسته الموحية بالاحترام والمكتوبة باللاتينية تحت عنوان: «مدخل إلى اللغات الخلدية والسريانية والأرمنية وعشر لغات أخرى» والتي صدرت قبل عام واحد من وفاة المؤلف كان

من بين ما طرحه فكرة ثمينة نثرت في طيات البحث ويمكنها أن تدفع إلى الأمام قضية حل مشكلة الكتابة واللفة الإيتروسكية، وهي تُطابِقُ رمز ϵ مع حرف r وقد رفضت هذه الفرضية فيما بعد وأدخلت غياهب النسيان ثم عادت لتميش ميلادها الثاني. فبعد ما يقارب من 200 سنة ظهرت في فلورنسا دراسة «*Museum Etruscum*» لمؤلف اسمه انطون فرانتشيسكو غوري؛ وكانت تتضمن الأبجدية الإيتروسكية التي تم فيها تمييز 15 حرفاً والتعرف عليها بصورة صحيحة. وفي 1789 طابق الراهب لويدجي لانسي بصورة صحيحة بين رمز M و S وذلك في كتابه المؤلف من ثلاثة مجلدات وبعد ما ينوف على الخمسين سنة استطلاع ريتشارد ليبسيوس أن يبرهن على أن حرف l ، المعروف من الصيغة الإيتالية التي وصلنا لاسم اوديسيوس لا يعني x . بل t . ففي السابق كان هذا الاسم يقرأ خطأً وذلك انطلاقاً من صيغته اللاتينية *Ulix*، فبرهن ليبسيوس على أن الاسم في هذه الكتابة التي يبدو الأصل اليوناني أقرب إليها، يلفظ كـ *Ulix* وفيما بعد، وبالاستناد على المعارف التي تم التوصل إليها والمتعلقة بالصيغ الأكثر قدماً لمختلف الأبجديات اليونانية تم التوصل إلى مطابقة \downarrow بـ x اليونانية (*ch*) ثم الكشف أخيراً في المدونات عن الرمز الخاص بـ q (1880) والذي طالما طال انتظاره، وهكذا فرغ من قراءة رموز الكتابة الإيتروسكية وذلك على الأقل بالمعنى الحرفي للكلمة. ومنذ القرن التاسع عشر وبالخصوص خلال القرن العشرين لم تتبق غير مهمة تفسير تلك اللفة. لكننا، بالنسبة لتلك الجبهة من جبهات العلم، لا يمكننا الإشارة إلا إلى الهجمات المنفرقة وإلى إنجازات المخابرات العسكرية؛ أما المواقع الرئيسية للخصم فلا تزال مموهة بصورة جيدة ولا سبيل إلى القضاء عليها.

وتظهر الأبجدية الإيتروسكية مجموعة كاملة من السمات المميزة. ولعل أكثرها وضوحاً رمز δ المعروف بـ δ في الأبجدية الليدية العائدة لآسيا الصغرى، وهذا واحد من الحجج التي تدعم النظرية القديمة المنسوبة إلى هيرودوت والقائلة بأن الإيتروسكيين نزحوا من آسيا الصغرى وأنهم ليسوا السكان الأصليين لإيطاليا. وقد كف الإيتروسكيون في كتابتهم عن استخدام الرموز القديمة χ و θ و κ و ν أما الـ h فظلوا يكتبونها بصورتها القديمة θ وتخفي لديهم الرموز الخاصة بالصائتات الانفجارية b و d و g كما أن الكتابة تستخدم أحرف Φ و Θ و \downarrow (*th* و *ph* و *kh*) للتعبير أيضاً عن أصوات t و p و k - وأخيراً فإن اتجاه الكتابة (وهو في العادة من اليمين إلى اليسار) يشير إلى أن الأبجدية الإيتروسكية قد انحرفت عن البداية اليونانية منذ عهد مبكر لعله كان القرن الثامن قبل الميلاد أي في الفترة التي كانت الكتابات اليونانية تتجه في معظمها من اليمين إلى اليسار. فما هو السبب في كون الباحثين الذين بدؤوا بقراءة كل كلمة مكتوبة بالإيتروسكية ما زالوا يفهمون بصعوبة شديدة - والأصوب أنهم لا يفهمون تقريباً - هذه اللفة.

الشكل العادي للحرف	الصور الأكثر قديماً القرن 5-7 ق.م	الصور الأكثر تأخراً القرن 1-4 ق.م	الدلالة اللفظية	الشكل العادي للحرف	الصور الأكثر قديماً القرن 5-7 ق.م	الصور الأكثر تأخراً القرن 1-4 ق.م	الدلالة اللفظية
'A	A	A	a	⊕			(s)'
B			(b)	○			(o)
Γ	⋈	⋈	c(k)	∟	∟	∟	p
D			(d)	Ⓜ	Ⓜ	Ⓜ	š
Ε	ε	ε	e	φ	φ		q
Ϝ	Ϝ	Ϝ	v	∂	∂	∂	r
I	I	⊥	z	ζ	ζ	ζ	s
Θ	Θ	Θ	h	⊥	⊥	⊥	t
⊗	⊗	⊙	θ(th)	Υ	Υ	∨	u
ι	ι	ι	ι	χ	χ, †		š
κ	κ		k	φ		⊙	φ (ph)
↓	↓	↓	l	↓		↓	χ (ch)
μ	μ	Ⓜ	m		ϑ	ϑ	f
ν	ν	Ⓜ	n				

الشكل -90- الأجدبة الأيونوسكية

هناك رأي واسع الانتشار يتهم في ذلك الكمية الزهيدة المدد من الآثار اللغوية التي تسنت دراستها. فلدينا 9000 نقش كتابي إيتروسكي وإن كان أربعة أخماسها يمثل نصوصاً لشواهد ضريحية قصيرة جداً لا تعطينا إلا أسماء الأعلام وبعض المصطلحات المتعلقة بالأنساب. أما بين الآثار الكبرى فعلياً أن نشير إلى اللوحة الطينية العائدة لسانتا ماريا دي كابوا وهي من القرن الخامس قبل الميلاد وتتضمن نحو 300 كلمة، ثم تلك المدونة (الأحدث عهداً) على الحجر وهي (*Cippus Perusinus*) المحفوظة في متحف مدينة بيروجيا والمتكونة مما يقارب الـ 120 كلمة، وتينك اللوحتين المتضمنتين اللعنات، وكعبي اللعاب المتضمنتين أرقاماً من «واحد» إلى «ستة» وبالإضافة إلى اللوحة الرصاصية الطريفة من ماليانو (القرن السادس ق.م) والتي يشتمل نصها على 70 كلمة على الأقل متوضعة على هيئة لولبية؛ وأخيراً الكبد البرونزية الشهيرة التي كانت تستعمل، على ما هو واضح، «وسيلة إيضاحية» للمنجمين المبتدئين؛ وكثيراً ما يقارنونها بأشباهها من المواد العائدة للبابليين والحثيين. وهذه النقوش الكتابية منقوشة بمجموعها فوق الحجر، الفخار أو المعدن.

كما أن هناك مخطوطات، وهي في الحق مخطوطة واحدة إلا أنك لن تجد لها مثيلاً! وهي «الخرقة الزغربية» الشهيرة التي تكتسب أهمية كبرى ليس فقط بالنسبة للدراسات الإيتروسكية بل ولتاريخ الكتابة العام، إذ إنها النموذج الأوحى المتبقي لـ *liber linteus* أي الكتاب المكتوب بخط اليد فوق قطعة من القماش. وكانت المخطوطة تتخذ في بادئ عهدها شكل اللقافة ثم قسموها بعد ذلك إلى شرائط واستخدموها لتقميمط مومياء امرأة مصرية توفيت في القرن الأول قبل الميلاد على وجه التقريب؛ هذه المومياء العائدة لمصر الوسطى جرى تقديمها هدية إلى متحف زغرب من طرف رحالة كرواتي. وهناك «اكتشف» إ. كرال سنة 1872 هذه الكتابة على اللقافة. والنص الإيتروسكي المخطوط عليها والمتضمن ما يزيد عن 1500 كلمة - يمد أطول نص لدينا.

وهكذا يمكن القول إن لدينا ثروة كاملة وإن أكبر قطعة «رسمية» فيها هو النص المتضمن 1500 كلمة ويزيد، في حين فكت رموز كتابات كانت «مزاياما» أكثر تواضعاً من هذا بكثير - ولنتذكر على الأقل مدونة جييل! بالإضافة إلى ذلك صورت «الخرقة الزغربية» سنة 1932 بالأشعة تحت الحمراء ويمكن الآن قراءة حتى تلك الأماكن الباهتة في المخطوطة النفيسة!

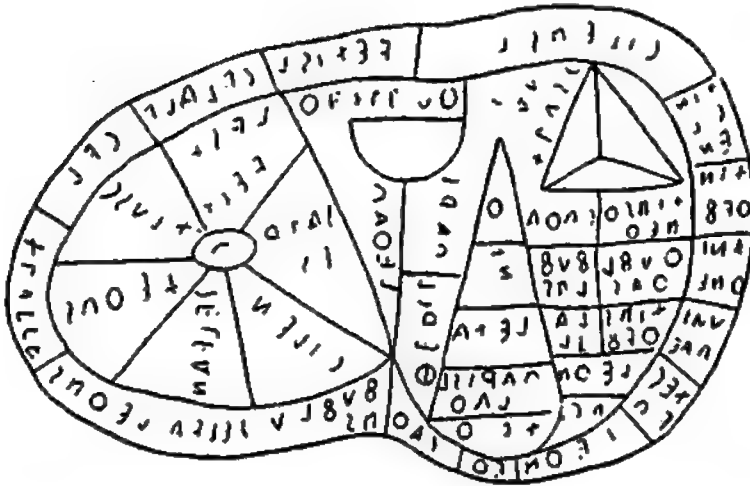
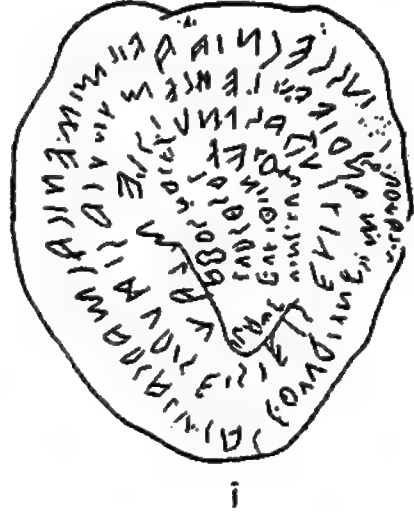
وهكذا فإن بين أيدي علماء الإيتروسكيات عدد معتبر من الآثار المخطوطة. إذن يمكن القول إن هناك، مع ذلك، عقبة تتحطم فوقها محاولات تفسير لغة الإيتروسكيين؟ بلى هناك مثل هذه العقبة وهي ليست وحيدة.

أولاً: جميع النصوص الكبيرة وحيدة اللغة. فالثنائيات اللغوية التي عادة ما «تقدم محصولاً وثيراً» في تاريخ فك الرموز لا تمثل هنا إلا في بعض المدونات اللاتينية - الإيتروسكية القصيرة أو البالغة القصر، فبالكاد يمكننا أن نجني من أغصانها المهيضة شيئاً غير أسماء الأعلام ومصطلحات الأنساب وألقاب المناصب والتواريخ وعبارة «توفي» أو «عند وفاته» التي تتردد بصورة دائمة. إن احتجاب النص اللاتيني - الإيتروسكي والحافل بالثمار، والطويل بصورة كافية يعد واحداً من الأسباب الرئيسية التي تحول حتى الآن دون تقدم علم الإيتروسكيات نحو الأمام على الرغم من جميع محاولات الباحثين التصدي للنصوص وبخاصة «للخرقة الزغرية» معززين بكل أسلحة العلم.

ثانياً: استخدم حتى الآن وما يزال يستخدم منهجان رئيسيان في قراءة الرموز وهما المنهج التركيبي من ناحية، وهو الذي أكد نفسه في المرحلة المبتدئة من مجموعة كاملة من القراءات الناجحة، وهو أسلوب تفسير وشرح النقوش الكتابية على أساس القوانين المحددة المستنبطة من نص هذه النقوش نفسه، ومن الناحية الأخرى الأسلوب الأيتيمولوجي المقارن مع اللغات القريبة حسبما هو مفترض. وفي هذا تكمن العقبة الأساسية.

وبالأخذ بالحسبان ذلك الشيء اليسير الذي تسنت معرفته عن لغة الإيتروسكيين لا بد لنا من اعتبارها لغة منعزلة بصورة تامة لا تجد لنفسها مثيلاً لا في إيطاليا ولا في غيرها من المناطق (ويجمع بعض الباحثين بقراءة هذه اللغة من الليدية، بيد أن هذه اللغة أيضاً هي أقل وضوحاً بالنسبة لنا من أن تكون قادرة على مساعدتنا في العمل). وهكذا لم تقع في أيدي العلماء تلك الأداة الشاملة - ذلك المفتاح الذي كان يفتح بهذه الطريقة أو تلك، ولكن بصورة محتمة النجاح، ولدى جميع القراءات المهمة، الطريق نحو الأسرار الكامنة في الكتابات، ومثل هذا المفتاح هو معرفة ما هي بالذات تلك اللغة التي يمكن أن تكون قريبة بنسبها إلى اللغة المطروحة للتفسير، أو حتى الفرضية البسيطة فيما يتعلق بتلك اللغة. لقد كانت هذه اللغة هي القبطية بالنسبة لشامبليون وهي الأفستية بالنسبة لغروتيفيند أما هانس باوير وادوارد دورم فتسلعا بفرضيات انطلاق استمدأها من ميدان علم اللغات السامية العام. ولكن حتى في تلك الحالات التي انكشفت فيها أسرار اللغة بصورة مفاجئة أمام قارئ الرموز وقد خطفها بريق الحدس كما حدث بالنسبة للغة

الهندأوروبية في الحثية المسمارية لدى غروزني وبالنسبة للغة اليونانية في المدونات القبرصية لدى سميت أو الكتابة الكريتية - الميكينية لدى فينتريس - وحتى هناك فإن هذا المفتاح كان يلعب بمجرد وقوعه في يد الباحث دوراً حاسماً في مواصلة العمل وإنجازه.



الشكل -91-

إلى الأعلى - لوحة مالبانو الرصاصية. كتب النص عليها بطريقة لولبية:

أ- الوجه الأمامي ب- الوجه الخلفي

إلى الأسفل-الكبد البرونزية المكتشفة في بيانتشبتسا

هو ذا ما تحطمت عليه حتى الآن كل المحاولات، هي ذي العقبة التي لا يمكن أن يساعد الباحث على تخطيها لا أسماء الآلهة والبشر ولا ألقاب المناصب ولا مصطلحات الأنساب. وقد تم التوصل إلى تجميع هذه المادة المعجمية اليسيرة قبل كل شيء بطريقة ذلك المنهج التجميعي و «الثنائي» أي بطريق المقارنة الدقيقة الشاملة بين النقوش الكتابية الإيتروسكية والنقوش اللاتينية واليونانية المماثلة لها في المضمون والغاية والشروط الأرخيولوجية. وهناك تتقفل الدائرة التي لا مخرج منها حتى الآن.

وأعجب ما في أحجيتنا هذه هو ذلك النسيان الشامل الذي لفاً، كما ذكرنا، وعلى مدار آلاف السنين، لغة الإيتروسكيين الذين سكنوا منطقة تحتل المركز في العالم الكلاسيكي القديم ثم ابتلهم وبصورة نهائية شعب ودولة الرومان. بل إن الرومان أنفسهم بما أثر عنهم من حب واهتمام في رعاية الآثار القديمة، والذين كانوا يحافظون بكل فخر على شواهد ماضيهم، قد حفظوا أيضاً الآثار الروحية التي كانوا يجلبونها كثيراً لمعلميهم - الإيتروسكيين. وهناك ما يكفي من المعطيات الدالة على أن الحضارة الإيتروسكية لم تغرب في روما حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس وعلى أنهم كانوا يقرؤون بالإيتروسكية في معسكرات الجند الروماني حتى وبعد سنة 400. وإذا كانت اللغة الإيتروسكية قد ضاعت بالنسبة لنا فالذنب يقع في ذلك على نساخي العصور الوسطى الذين كانوا بصورة مبدئية، ينسخون ويتركون للأحفاد النصوص اللاتينية قبل كل شيء واليونانية في حالات نادرة ولم يكونوا يميزون أي اهتمام إلى ما عدا ذلك. والحق إننا لو أخذنا مثلاً على ذلك ميتسينات، الصديق الواسع التفوذ للإمبراطور أوغسطس والذي دخل الأمثال، حامي كبار شعراء روما، والذي كان شخصياً ينحدر من جنس الإيتروسكيين. فلو أنه أولى تراث آبائه - لغة الأجداد - على الأقل نصف ذلك الكرم والرعاية اللذين أولاهما للشعر والفن الرومانيين لكان بالإمكان إنقاذ نصيب أكبر من مجرد هذا التصور السطحي عن تلك اللغة. وعلى أي حال فإن الوضع الآن بالنسبة ليومنا الحاضر هو أن علم الإيتروسكيات لا يزال يتعطش رغبة بانتظار تلك اللحظة التي يمسك فيها أخيراً بتلك الشائبة المرغوبة - المدونة اللاتينية - الإيتروسكية الكبيرة ذات اللغتين. وقد سبق لماسيمو بالوتينو الأخصائي الكبير في الدراسات الإيتروسكية في جامعة روما أن قال بهذا الصدد عام 1956: «إن اكتشاف واحدة فريدة فقط من أمثال هذه المدونات من شأنه أن يترك تأثيراً تثويرياً على الدراسات التي تجري في جميع ميادين الإيتروسكيات. فالمعطيات الخارجية التي يُحصل عليها نتيجة لهذا الكشف وذات الأهمية الكبرى لفهم

النصوص بإمكانها وفق أكبر الاحتمالات أن تحل مرة وإلى الأبد القسم الأعظم من مجموع
ركام الأسئلة التي تكدست على مر مئات السنين⁽¹⁾.

فهل نجد بعد هذا من ذلك الإصرار الذي يندفع به العلماء الإيطاليون مرة تلو المرة في
البحث عن أمثال هذه المدونات. ففي شباط (فبراير) سنة 1957 ظهرت إخبارية تقول بأن المفتاح
المنشود لحل الأحجية ربما يوجد، برأي الأثريين الطليان، في أسوار مدينة فولتشي
الإيتروسكية القديمة الواقعة عند ذيل بركان مونتي - أمياتا الخامد جنوب توسكانا. وفي
حدود معرفتنا فإن الحفريات ما زالت جارية، وجمع الآمال التي لا يزال يعيها الأخصائيون
على حد تعبير بالثينو، رهينة بأن تكشف فأس الحفار أخيراً لا تلك المدافن التي لم تقدم حتى
الآن أي شيء ملموس لحل الأحجية، بل الفوروم - مركز الحياة السياسية والاقتصادية
والثقافية للمدينة القديمة.

إن على من يريد التعرف بصورة أصدق على شعب الإيتروسكين الغامض، ويعرف
أكثر عنه وعن سماته المميّزة، أن يكتفي حتى الآن بالفن الطريف الذي حفظته توابيت
القبور والتي لم تعط الأهمية التي تستحقها إلا الآن. وقبل كل شيء تلك اللوحة الجدارية التي
لا نظير لها والتي نشرت أمامها منظر المرح الذي لا تشوبه شائبة والذي غطته مسحة من الحزن
وأوصلت إلينا رسالة وداع، ملوك إيطاليا الوسطى⁽²⁾ الذين كانوا جبابرة ذات يوم!

ولكن لقد حان الوقت للانتقال إلى الأحجية الثانية في الكتابة وهي تشير الانتباه -
على فكرة - بكون جميع الآثار المتبقية من هذه الكتابة تتخذ هيئة الأختام والتماثيل
المصنوعة من السيتياتيت (الحجر الصابوني) وهي في كثير من الحالات روائع فنية حقيقية.
وعلى، في هذه الحالة أيضاً، أن نقوم بقفزة هائلة، في المكان، من إيطاليا إلى الهند الشمالية
الغربية، وفي الزمان من منتصف الألف الأول قبل الميلاد إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.
إن عشرين سنة من الحفريات والبحوث والدراسات زادت تاريخ الهند غنى بألفين من السنين -
وهو الإنجاز الذي يمكن أن ينظر إليه على أنه الأكبر في علم الآثار⁽³⁾ أما الخمس والمشرون
السنة الحاسمة والتي يدور حولها الحديث فكانت تلك الواقعة بين 1922 و 1947. فخلال هذه
الفترة القصيرة إلى درجة مذهلة اكتشفت حضارة جديدة تمام الجودة وهي ما تسمى بحضارة
الهارابا وموهينجو - دارو التي كانت سائدة ذات يوم في حوض الهندوس.

1- M. Pallottino, The Etruscans, Pelican Book A3102, London, 1956, P. 241.

2- Tarquinia. Wandmalereien aus etruskischen Grabern. Aufnahmen von W. Drayer, Einführung
von M. Pallottino, München, 1955, C. 48.

3- D. Diringes, The Alphabet, London, 1949, p. 81.

إن الهضبة الهائلة الواقعة في البنجاب والتي تنتصب على قمته بلدة هارابا الصغيرة، مخفية خرائب السكان الأقدمين، قد اجتذبت إليها الأنظار منذ سنة 1820 وصارت في سنة 1853 مادة للدراسة، وفي سنة 1875 نشرت بعض الأختام التي تم العثور عليها هنا عبر عشرات السنين (وهي عادة تتضمن صور حيوانات ورموز كتابية تصويرية فوقها)، وقد أثار التعرف الأول عليها موجة من المشاعر المتحمسة الصادقة، وكان ذلك بالطبع ما دفع إلى طرح أشد الفرضيات جرأة فيما يتعلق بمصدر تلك المكتشفات. ولقد لقيت إحدى هذه الفرضيات - وهي القائلة بضرورة التماس جدّة الكتابة البراهمانية الهندية القديمة في هذه الكتابة المكتشفة - دفاعاً عنها إلى أحدث أيامنا من طرف بعض الأخصائيين (وإن كان ذلك لا يعد بأي أمل في النجاح).

وللأسف فإن هدايا هارابا لم تبدُ في أول عهدنا على ذلك المستوى من الثراء الذي كان متوقفاً وكان عليها أن تقاسم مصير جميع المناطق الكلاسيكية للحضريات تقريباً؛ إذ إنها على مدار فترة طويلة من الزمن كانت مقلع حجارة للمدن والقرى المجاورة، وفي سنة 1856 عندما شرع الإنكليز ببناء الخط الحديدي كراتشي - لاهور صارت خرائب البلدة القديمة تستخدم في رصف ذلك الخط فصار تدمير الآثار، التي لا تقدر بثمن، يجري على أوسع نطاق، و فقط في كانون الثاني سنة 1921 وبإشراف راي باهادور دايا رام ساهني بدأت الحفريات المبرمجة والقائمة على أساس المنجزات العلمية في ميدان علم الآثار فحققت بذلك نجاحاً ملموساً ثم تواصلت فيما بعد خلال سني 1926-1934 وبصورة أكثر نجاحاً على يدي مادهو ساروب واطسون.

وندين للمصادفة في العثور على المكان الثاني للمكتشفات وهو الذي أعطى فيما بعد الاسم لتلك الحضارة المخفية. فعند الحفر في سنة 1922 عن قدم بوذا (وهو معبد على هيئة برج) والدير التابع لها، والعائدين بتاريخهما إلى القرون الأولى الميلادية اكتشف ر. د. بينارجي أن هذه المنشآت القديمة تقوم بدورها على هضبة من الركام المعماري يتكون من نثرات وشظايا أكثر قدماً تعود إلى «ما قبل التاريخ». وعلى الفور أدرك السير جون مارشال مدير أعمال الحفريات الأثرية في الهند أهمية ميدان الكشوفات الجديد والمعروف باسم موهينجو - دارو أي «دار الموتى» (في السند الوسطى وعلى بعد 600 كم تقريباً إلى الجنوب الغربي من هارابا وعلى بعد 40 كم عن لاركانا). وبعد أن أدرك السير جون ذلك لم يتردد في أن يتراس بنفسه الحفريات التي راح يقوم بها منذ 1922 وحتى 1927 ثم تواصلت على يدي إ. مكّي الذي عمل في ذلك المكان منذ 1927 وحتى 1931. وكانت منطقة تشاهنو - دارو (جنوب موهينجو - دارو) أكثر الأماكن أهمية بين غيرها من المناطق الأقل أهمية. أما ثمره نشاط الباحثين فكانت بضع دراسات ممتازة:

J. Marshall, Mohenjo-Daro and the Indus Civilization Vol. I-III, London 1931:
E.J.H. Mackay

كما تعود لقلم الأخير منهما دراسة

The Indus Civilization, London, 1935 ...Futter Exavations of Mohenjo-Daro, Delhi,
1937-1938

وبعد فترة قصيرة أضيفت إلى هذه الأعمال دراسة هنتر المهمة وهي

G. R. Hunter, The Script of Harappa and Mohinjodaro and its Connection with
other Scripts, London, 1954.

تقدم هذه الأعمال الكثير دون شك إلى كل من يرغب في أن يدرس بتعمق كل مجموعة الظواهر التي فتحت أمام أعيننا عظمة الحضارة الهندية القديمة. وسنقوم في هذه المجالة بالتمرض فقط للكتابة فهي لم تقرأ بعد.

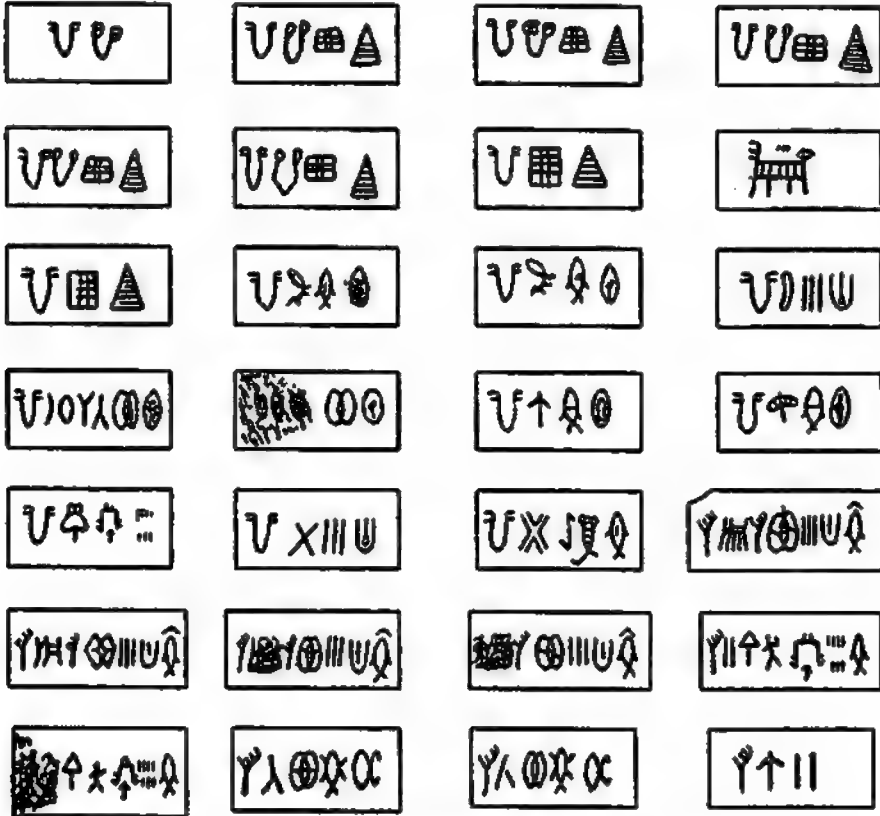
لقد سبق أن قلنا إن نماذج هذه الكتابة تتجسد فقط في الأختام. ويرى مكّي أن هذه ما دامت مثقوبة فقد كان ممكناً أن تستخدم كـ «تائم» أيضاً والحق أنه لم يحدد بعد السبب في إحداث هذه الثقوب؛ أهى من أجل حملها أم هي من أجل تثبيتها على المواد والأكياس وغيرها من الأشياء وبالإضافة إلى هذا فإن هذه النماذج تبدو إما مجرد نقوش كتابية أو كتابات مقرونة بصور الحيوانات.

وهذا الذي ذكرناه يسمح لنا أن نفهم سبب الفشل في قراءة هذه الكتابة الغامضة حتى الآن. إن العقبة الجديّة الآن - هي قصر جميع النقوش الكتابية التي اكتشفت حتى الآن. ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن الرموز التي عثر عليها كثيرة العدد ومختلفة الأشكال وإن العلماء لم يتمكنوا حتى الآن من التوصل إلى رأي موحد حول عددها. فبعض الباحثين يميز 400 رمز بينما يرى هنتر السالف الذكر العدد الكبير منها صيفاً للرموز الأصلية التي يحصيها بـ 150 رمزاً. أما أنا فإنني أفترض، على أثر بيروميريجي، بأن الحقيقة تقف في مكان متوسط ويصبح عدد الرموز في هذه الحالة 250 رمزاً على وجه التقريب.

والتعرف السريع على هذه الرموز يظهر أنها تتخذ طابع الكتابة التصويرية المبسطة أو الطابع الخطي. فإذا ما أخذنا بالحسبان عدد الرموز الذي يتجاوز بعده إمكانية السماح بالحديث عن كتابة مقطعية والذي يبدو قليلاً جداً بالنسبة للكتابة «المفردانية» المجردة فإن من الطبيعي أن يفرض علينا نفسه الاستنتاج القائل بأن الحديث لا بد وأن يدور عن مزيج بين الأيديوغرامات والرموز اللفظية.

ومع هذا فإن أكبر معوق في وجه القراءة المقبولة والمقنعة لرموز الكتابة وقراءة النصوص ليست هي ندرة عدد الآثار الكتابية المكتشفة بل وليس ذلك القصر في نصوصها. بل إن العقبة الأكثر جدية هي جهلنا الكامل بلغة هذه الكتابة.

وكما تضامنت كمية المعلومات الإيجابية كلما تزايد القوت لأجل أشد الفرضيات استحالة. فمثلاً وصول بعض المواد على ما هو واضح إلى منطقة ما بين النهرين بنتيجة التبادل التجاري استدعى نظرية خيالية بكل معنى الكلمة. كما إن التشابه الكتابي الظاهري البسيط بين بعض الرموز ورموز نظم أخرى من الكتابة كان نقطة انطلاق جديدة نحو فرضيات لا أساس لها. فبيدرجيخ غروزني، الذي تمرّضت لغاراته جميع الكتابات غير المقروءة، لم يحرم بالطبع مشكلة الكتابة ما قبل الهندية من عنايته. وكانت محاولته التي اقترحها لقراءة الرموز (فيما يخص الانتقال الأقدم للشوموب ونحو مشكلة الكتابة ما قبل الهندية - براغ - 1939) تقوم أيضاً على أساس التشابه الظاهري المجرد لرموز الأختام ما قبل الهندية مع الهيروغليفيات الحثية، وتتمثل في كون غروزني قد «قرأ» هذه الرموز طبقاً للدلالة اللفظية لما في الكتابة الحثية. ولكن... القراءة العجيبة للكتابة ما قبل الهندية، لم تكن، وبإدهشته، قراءة!



الشكل -92- نقوش كتابية ما قبل الهندية نقشت على أختام

ولعل الدراسة التمهيدية الجادة الوحيدة حتى الآن، وحسبما يرى يوهانيس فريدريك بكل موثوقية هي الدراسة الشاملة التي قام بها بيروميريجي لتلك الآثار⁽¹⁾.

علينا أن نتعرف بإيجاز على مسيرة دراسة ب. ميريجي ما دام من الضروري اعتبارها، حسبما يبدو، دراسة أنموذجية إذا ما ضرينا صفحاً عن النتائج المحددة التي تم التوصل إليها والتي من الصعب، على الأقل، مناقشتها. والقضية أن المؤلف قد حصر نفسه منذ البداية بالمنهج التركيبي أي منهج تفسير النقوش الكتابية على أساس قوانينها الضمنية وتسليح، كنقطة انطلاق له، بالفرضية القائلة بـ «انعدام الأمل» في محاولة القراءة اللفظية للنصوص. ولكن بما أن هذه المحاولة لم تتوج بالنجاح حتى الآن فلا بد لنا من التسليم بـ «انعدام الأمل» في الكتابة نفسها. ومع هذا فإن دراسة ميريجي هي، على ما هو واضح، نموذج للطريق الذي يمكن أن يؤدي إلى قراءة الرموز. والحق أن هذا الطريق ليس الوحيد ولكننا لن نتحدث الآن عن الطريق الآخر - الذي يتصف إلى حد بعيد بالطرافة والجدة، والذي لا يزال يبدو بالكاد مطروحاً وما زالت ملامحه ترسم في ضباب التخمينات.

ينطلق ميريجي في دراسته من الملاحظات التي سبق ذكرها والمتعلقة بطبيعة الرموز وعددها ويخرج من ذلك بالنتيجة المتصلة بالنظام الأيديو - فونوغرافي المختلط. ويعترف مع غيره من الباحثين بوجود الرموز العددية التي تلعب إزاء بعض الظروف دور الرموز اللفظية على ما هو واضح. ويلخص في الختام تلك النتائج التي يعتبرها موثوقة: أولها معنى الرموز المساعدة (كالفواصل بين الكلمات ومحددات الأيديوغرامات)، ثانيها - اكتشاف الرموز الخاصة بالنهايات الثلاث الأكثر تردداً بالنسبة للأسماء، وثالثها - تفسير (لا قراءة) - عدد كامل من الرموز المنفصلة.

ومن هذا «الحاصل» لا بد من تخصيص البندين الثاني والثالث على أنهما الإرشاديين من وجهة النظر المنهجية.

1- J. Friedrich, Entzifferung verschollener Schriften und Sprachen, S. 137; P. Miriggi, Zur indusschrift, S. 198; P. Miriggi, Über wichtige Indusstegel aus vorderasien. Orientalistische Literaturzeitung 1937.

وعلى نحو ما قامت به أليسا كويبر عندما وضعت شبكتها الأولى للكتابة الكريتية - الميكينية ب، أخذ ميريدجي يقارن مجموعات الرموز التي تتميز عن بعضها فقط بالرموز الختامية، وهو في الوقت نفسه يحدد النهايات الأكثر وروداً بالنسبة للأسماء القواعدية وهي رموز ψ و ϕ و λ التي يدونها، انطلاقاً من تصورات تقنية فقط على أنها a و u و ψ (وننبه على الفور إلى أنه لا يجوز على الإطلاق أن نقول بأنه أعطى لهذه الرموز المشار إليها الدلالات اللفظية $(a, u$ و l أو $ps)$. أما الآن وعلى أساس من تفسيره لمعطيات علماء الآثار (القائلين بأن الأختام وثنائق للجرود الإدارية) وهي نوع من وثنائق «الدُخُل والخروج» من دون ذكر لأسماء الأعلام، ينتقل قبل كل شيء إلى البحث في النقوش الكتابية عن الحالات الثلاث. وكان على الحالة الأولى منها - حالة الاسم - أن تشير إلى المادة التي يدور الحديث عن تسجيلها، وعلى الثانية - حالة الإضافة - أن تشير إلى الملكية والاستحواذ (أو إلى الكمية في صيغة حالة الإضافة - التخصيص) وأخيراً الحالة الثالثة وهي حالة المقصود وكان يجب أن تشير إلى الهدف أو تابعة المادة المعطاة. ويرى أن نهايات هذه الحالات الثلاث بالذات هي التي عُبر عنها في الرموز الثلاثة المشار إليها ($A =$ الاسم، $U =$ الإضافة و ψ = المقصود).

هي ذي السمات العامة لمسار تصورات ميريدجي القائمة على العمليات الموضوعية، فقد قادته هذه التصورات إلى افتراض اشتغال النقوش الكتابية على تلك الروابط التي يعبر عنها في القواعد بحالات الاسم والإضافة والمقصود. فلم يبق إلا تدعيم وعرض المنطلقات الأساسية بواسطة مركب آخر - وبالذات بطرق توضيح الرموز الأساسية. وهنا يحاول البروفيسور ميريدجي أن يعتمد التفسير الأكثر قرأً ومناً لدلالات بعض الرموز التصويرية وأن يحاول على أساس هذه الدلالات، أن يربط مجموعات رموز كاملة بصورة منطقية وقواعدية.

والأمثلة التي نعرضها فيما يلي للمقارنة بين الرموز الكتابية وشروحها يجب أن توضح الطريقة التي فسّر ميريدجي بواسطتها دلالات الرموز التصويرية.

إن أهم التكافؤات يظهر بالصورة التالية:

⊕	سمة (دمفة)
∩	جرن (ومدفة)، حبوب
∪	حمل
∩	حمل من أربع قطع
∩	حصان
∩	فأس
∩	منجل (حصند)، معصول
∩	حصاد، جاني المحصول
∩ ∪ ∩	رجل يدق بالجرن، طحان

نهاية حالة الإضافة ١

⊕	حبوب، غلال
∩	بنور، بذار
∩	بقول، ثمار
∩ ∩ ∩	مسكر
∩	بيت
∩ ∩	معبد
∩	منضدة
∩	رجل
∩	نابل، محارب
∩	حارس
∩	ضابط، قائد عسكري، موظف

وبمساعدة هذه التكافؤات يمكن التوصل إلى قراءة مقنعة إلى حد بعيد. فمجموعة

الرموز التي نلتقي بها مرتين وهي $\text{∩} \text{∩} \text{∩}$ تعني وفق تكافؤات ميريدجي قمح - ضابط -

معين - منضدة فهي حسب تفسيره: «قمح لطعم فئة الضباط» (٤).

ومن الطبيعي أن هذه الدلالات المستنبطة من الطابع التصويري للرموز لا تبرر إلا بصورة

جزئية، إلا أن هناك شيئاً واحداً يضاعف على ما يبدو من صواب مثل هذا الفهم للنصوص.

فحيثما وضعنا المماني التي يقترحها ميريدجي نجد أنها ملائمة وذلك على الأقل لأنها بتركيباتها لا تناقض العقل السليم. وعلاوة على هذا فإن مضمون جميع النقوش الكتابية الذي تم التوصل إليه نتيجة لتطبيق مبادئ ميريدجي يعود إلى الميدان نفسه من ميادين المعرفة - ميدان المصطلحات الزراعية المعبّر عنها بدقة، بداية من الحبوب والبذار والبقول وحتى المنجل والفاس والرحى والجرن.

إلا أن أكبر اعتراض على مثل هذا الفهم يمكن أن يكون التالي: ما دامت هذه الرسوم أقرب إلى التبسيط فمن الطبيعي أنها تسمح بالعديد من التفسيرات. ولكي نقدم مثالا واحداً على هذا يكفي أن نعود إلى غروزي الذي كانت «بقول» ميريدجي بالنسبة له مجرد تصوير لخاتم ذي شريط.

إن واحدة من أهم صعوبات قراءة الرموز تتمثل، حسب ما ذكرناه، في أن أحداً لا يعرف اللغة التي يجب التعامل معها في هذه الحالة. أما الأقدم من بين تلك اللغات الآرية المعروفة حتى الآن في الهند - وهي الويدية والسنسكريت - فإنها تسقط منذ البداية بسبب أن بقايا كتابة وادي الهند تعود إلى عهد يسبق النزوح الآري بزمان بعيد. كما أن استشهاد السير جون مارشال بلغة جزيرة براغوي الدراويدية (الدراوية) المجاورة لا يقدم جديداً. فبين لغة براغوي المعاصرة، ولغة النصوص المكتشفة في هارابا وموهينجو - دارو ثوي خمسة آلاف سنة - وهي هوة لا يمكن تجاوزها ولا يمكن أن تصل بين حافظتها حتى تلك الروابط التي كانت قائمة ذات يوم في الواقع، لا سيما وأن لغة البراغوي مشوبة بالكثير من العناصر الأجنبية.

حملت سنة 1934 إلى الاستشراق، الذي يمتاز تاريخه ودون ذلك بالفرضيات والنظريات المتطرفة، واحدة من أجرأ الفرضيات بل ويمكن القول واحدة من أكثرها تشبهاً بالمجازفة. ونسارع إلى لفت انتباه القارئ إلى أن غالبية الباحثين لا تزال حتى الآن ترفض هذه الفرضية باعتبارها ثمرة خالصة من ثمار الخيال وهو ما يعني أنها لا تكتسب أي معنى بالنسبة للهواة. ولا تتخذ هذه الفرضية المغامرة، هذه النظرية الخيالية بكل ما فيها، إلا صورة فرضية متواضعة - ونستعرض فيما يلي ذلك «الاثبات» الذي صمق الجمهور، والذي لا يمكن للوهلة الأولى دحضه، والقاتل - بأن النظامين الكتابيين المقارنين في (الشكل 93) لا بد وأن يرتبطا بصلة النسب. ومن يستطيع أن يرفض ذلك إذا ما نظر إلى الرسم 15

إن التشابه بين الرموز التي تم جمعها للكتابة الهندية وللرموز التي قورنت معها في كتابة جزيرة الصيام يبدو للوهلة الأولى على درجة من الوضوح والثبوتية حتى أنه يلغى أي ظل

من ظلال الشك. فما الذي يجعل الباحثين «لا يصدقون أعينهم»، لماذا ينظرون، على الأقل حتى الآن، نظرة سلبية إلى هذا الإثبات الذي لا يمكن دحضه على ما يبدو.

لكي نفهم هذا لا بد لنا من إلقاء نظرة تفصيلية بعض الشيء على مشكلة كتابة جزيرة الصيام.

وعلى نحو ما كان يحدث كثيراً في تاريخ قراءة الرموز فإن مصادفة سعيدة أوصلت العلماء إلى الوثائق الطريفة لهذه الكتابة الخاصة. أما القسم الأعظم من النقوش الكتابية «للشجرة الناطقة» - كوهواو رونفو رونفو فقد تم تدميره في العشرينيات الأخيرة من القرن الماضي (التاسع عشر) وذلك برعاية المبشرين الفرنسيين والبلجيك، المجتهدين في الدين الحق، والذين باشروا أعمالهم في هذه المنطقة بعد أن أوصلت الإبادة الجماعية سكان هذه الجزيرة إلى ما يقل عن 200 شخص. بيد أن بعض الألواح الخشبية المغلفة بالرموز الكتابية شقت، بالرغم من ذلك، طريقها إلى جوسين، أسقف جزيرة تاهيتي، الذي عرف قيمتها التاريخية، وبذل الكثير من الجهود في سبيل أن يقرأ ويترك للأجيال القادمة مخلفات حضارة أزيلت عن وجه الأرض. وقد كلف ذلك الكثير من المساعي والصعوبات بالطبع وبخاصة إذا أخذنا بالحسبان أن السكان المحليين الذين كانوا يعرفون الكتابة كانوا قد هلكوا عن بكرة أبيهم تقريباً. ولكن عند ذلك الوقت بلغت مسامع أسقفنا أن في تاهيتي نفسها يعيش ساكن وقد إليها من جزيرة الصيام وأنه من أصل معروف، فأمره أمير الكنيسة بالمثل بين يديه وطالبه بقراءة النصوص. فطالفت ابتساماً الترفع على وجه ميتورو الفتي عندما وقع نظره على النقوش الكتابية المألوفة، وأمسك باللوح المقدم إليه وراح يقرأ بنوع من الإحساس بالسّموم. والحق أن «القراءة» سرعان ما اتخذت منحى الترنيل الدوري. وكان ميتورو يتتبع السطر بإصبعه الذي كان عند بلوغ نهاية السطر يعود في الطريق المعاكس. أما الأسقف جوسين فبادر إلى تسجيل ذلك الفناء وبدا أن كل شيء على ما يرام... إلا أن محاولة فهم ما تم سماعه وترجمته إلى اللغة الفرنسية باءت بفشل ذريع: إذ لم يكن بالمستطاع استنباط أي معنى من تلك الصيغة البولينية. ولم يتبق أمام الأسقف إلا تسجيل الكلمات حسبما استطاع فهمها ثم صياغتها بمساعدة مختلف التخمينات وغيرها من الوسائل، في هيئة ترجمة شعرية ذات معنى، إلى اللغة الفرنسية. فذلك الماجد ميتورو وقد أخذته العزّة بتلك المعارف التي تحصل عليها، والتي نسيها بصورة جذرية، قد أدى المهمة المشرفة التي ألقبت على كاهله بالصورة التي استطاعها، لكن القضية لم تمض على ما يبدو دون شيء من العبث، ولعله بالكاد كان يعي ما قام بتنفيذه.

I	II	III	IV	V	VI	VII	VIII
𐤀	𐤁	𐤂	𐤃	𐤄	𐤅	𐤆	𐤇
𐤈	𐤉	𐤊	𐤋	𐤌	𐤍	𐤎	𐤏
𐤐	𐤑	𐤒	𐤓	𐤔	𐤕	𐤖	𐤗
𐤘	𐤙	𐤚	𐤛	𐤜	𐤝	𐤞	𐤟
𐤠	𐤡	𐤢	𐤣	𐤤	𐤥	𐤦	𐤧
𐤨	𐤩	𐤪	𐤫	𐤬	𐤭	𐤮	𐤯
𐤰	𐤱	𐤲	𐤳	𐤴	𐤵	𐤶	𐤷
𐤸	𐤹	𐤺	𐤻	𐤼	𐤽	𐤾	𐤿
𐥀	𐥁	𐥂	𐥃	𐥄	𐥅	𐥆	𐥇
𐥈	𐥉	𐥊	𐥋	𐥌	𐥍	𐥎	𐥏
𐥐	𐥑	𐥒	𐥓	𐥔	𐥕	𐥖	𐥗
𐥘	𐥙	𐥚	𐥛	𐥜	𐥝	𐥞	𐥟
𐥠	𐥡	𐥢	𐥣	𐥤	𐥥	𐥦	𐥧
𐥨	𐥩	𐥪	𐥫	𐥬	𐥭	𐥮	𐥯
𐥰	𐥱	𐥲	𐥳	𐥴	𐥵	𐥶	𐥷
𐥸	𐥹	𐥺	𐥻	𐥼	𐥽	𐥾	𐥿

الشكل -93- لوحة مقارنة بين الرموز والكتابة لحوض الهند
وبين رموز جزيرة الصيامة. الأعمدة I, III, V, VII كتابة حوض
الهند و II, IV, VI, VIII - رموز جزيرة الصيامة

ومن الطبيعي أن المعجم القائم على مثل هذا المصدر والذي وضعه الأسقف جوسين بكل ذلك الحماس ما كان يمكن أن يهدي الباحثين إلا إلى الطريق الخاطئ. وسرعان ما فقد أيضاً أصل النص الذي غناه ميتورو دون أن يخلف أثراً.
وفي سنة 1954 جاء العالم الاتوغرافي الهامبورغي الشاب توماس بارتل إلى روما للعمل في أرشيف جمعية الرهبان التي كان الأسقف جوسين ينتسب إليها. وقد قادته إلى ذلك

المكان ففكرة البحث عن آثار ذلك النص واستقصاء ما إذا كان يتضمن شيئاً ذا قيمة. وهكذا، وفي كتاب مهممل غطاء الغبار، اكتشف أخيراً «ثانية» جوسين - وهي أغنية ميتورو التي دونها الأسقف الناشط باللغتين البولنيزية والفرنسية.

وبإكتشافها فهم بارتل الشيء الذي سبب كل تلك الصعوبات لسابقه: ف «الثانية» لم تكن في واقع الحال ثانية. وبالإضافة إلى ذلك كانت تعطي بعض نقاط الانطلاق للبحث ويودنا أن نبين للقارئ وبإيجاز الطريقة التي توصل بها العالم الألماني الشاب إلى أول النتائج المترابطة.

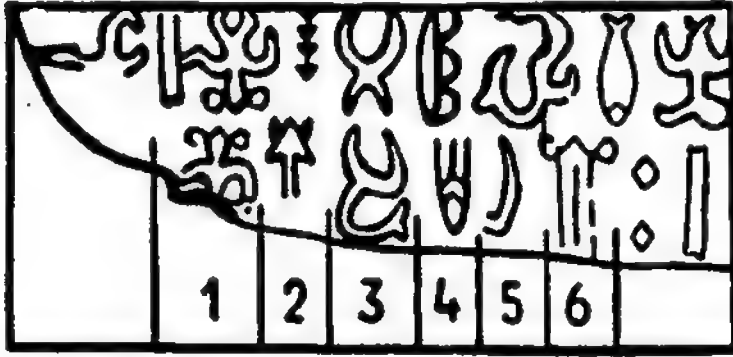
إن كتابة جزيرة الصيام التي تتضمن حتى الـ 500 رمز التي جمعها بارتل ودرسها على مدى سنين بطولها - تقوم على ما يبدو في القسم الأعظم منها على المبدأ المعروف جيداً للنظام اللفظي. ففي أحد النصوص مثلاً وذو المضمون الديني (وهو ما تؤكد ترجمته الفرنسية والصيغة البولنيزية السابقة لتلك الترجمة) يوجد تصوير مكيف ومبسط جداً لصدفة مفتوحة الجانبين وكلمة «صدفة» تلفظ في اللغة البولنيزية *pure* و *pure* تعني أيضاً «الصلاة».

وبنتيجة العمل المضمني بل والذي يقترن في دقته بأعمال الصاغة، وعن طريق المقارنة المتأنية والشاملة بين الصيغتين اللغويتين للنص التصويري في «الشجرة الناطقة» تمكن توماس بارتل حتى بداية عام 1955 من أن يتوصل، حسب رأيه، إلى التركيب الأساسي الموثوق للرموز التي لم يكن عددها كبيراً.

ويظهر (الشكل 94) الاقتراح المترجم الأول المعروض من جانبه.

إلا أن أكبر نتيجة مثيرة من نتائج قراءة بارتل كانت قراءته للعبارة التي تتردد كثيراً وهي «ورفعوا الصلوات إلى الإله رانفتيا» ولكن «رانفتيا» أو «الحقل الأبيض» هو اسم يطلق على إحدى جزر الوداد التي تبعد عن جزيرة الصيام بـ 3000 كم! فلو تأكدت هذه القراءة لحلت لأول مرة وبصورة محددة مشكلة أصل سكان جزيرة الصيام وهو الموضوع الذي ما يزال يناقشه كثيراً وبحماس، على مدار عشرات السنين، علماء الآثار والمؤرخون والجغرافيون! وهنا لا نتحدث عن القضايا المرتبطة بهذه المشكلة والخاصة بسكان بولينيزيا بشكل عام وقضايا العلاقات القديمة بين جزيرة الصيام وتلك البلاد الواقعة إلى الشرق - وهي بيرو الأتلك - التي تقول نظرية أخرى بأنها كانت المصدر الذي انطلق منه أحفاد السكان المعاصرين في الجزيرة. بلى، كان لهذه المشكلة أن تحل، فعالم الاختصاصيين أبعد ما يكون عن الرأي الموحد في كلمته الفصل في قراءة بارتل.

من المؤسف أننا لا نستطيع إلقاء الأضواء على هذه الأسئلة إلا في أضيق صورة. فلا يتبقى سوى أن نوضح، من وجهة نظر تاريخ الكتابة، ذلك التشابه المذهل حقاً بين رموز كتابة حوض الهند وبين بعض الرموز الكتابية في جزيرة صيام.




الشكل -94- «رونغو، رب السماء والأرض، الذي خلق الكون» -
 بداية نقش كتابي فوق لوحة من جزيرة صيام. أخذت الترجمة
 عن نوماس بارتل، 1- رب، 2- السماء، 3- رونغو (اسم الإله).
 4- الأرض، 5- خلق، 6- الكون.

إن الفرضية القائلة بالعلاقة المباشرة أو غير المباشرة بين الكتابتين تصطدم بمقبات لا يمكن التغلص منها تقريباً، أما من لا يفكر بالعلاقات المختلفة الخارقة للمادة فالأفضل له أن يضع في اعتباره أن التشابه الظاهري بين كلتا الكتابتين هو لمبة الصدفة⁽¹⁾، فلنبدأ، كما يقولون «بكشف قناع» أول الإثباتات التي تبدو قتالة للوهلة الأولى. في (الشكل 93) تم عرض ومقارنة 48 رمزاً فقط من رموز الكتابتين. ولكن مئة من الرموز التي انتقاها صاحب النظرية فد. فون هيفيسي⁽²⁾ من أجل هذه الغاية لا تمثل إلا جزءاً ضئيلاً، الخمس فقط من المجموع العام لرموز جزيرة صيام. وعلاوة على هذا فمن أجل المقابلة تؤخذ جميع الرموز الملائمة بشكل من الأشكال للمقارنة. وأحياناً ما يكون في ذلك مخاطرة من وجهة النظر العلمية إذ يحدث بالنتيجة انتقاء مفضل للرموز دون احتساب مدى تردد استعمالها واحتمال الأشكال النموذجية للرموز المنفصلة. أما في الحالات التي يلجأ فيها، جرياً وراء البراهين، إلى الأشكال المحوَّرة التي لا يلتقى بها إلا نادراً وفي حالات فردية، فإن مثل هذه المقارنة تفقد قدرتها الإقناعية.

1- J. Friedrich . Entzifferung verschollener Schriften und Sprachen , S. 140.

2- W. von Hevesy , Osterinselschrift und Indusschrift, - Orientalistische Literaturzeitung, 1934.

وحتى فيما لو أخذنا دون نقاش بوجود التشابه الظاهري فإن قضية معنى الرموز ولفظها لا تحل. ومن الرموز التي تتصاع بكيفية رديئة للبراهين ذلك الرمز الذي لقي انتشاراً واسعاً والذي يبدو مقبولاً ومفهوماً بصورة واسعة وهو الرمز الدال على الرجل، الإنسان، فإن هذا الرمز كلما ازداد تبسيطاً كلما قلت الإمكانيات الخاصة بتفسيره: «ساقان، ذراعان ورأس فوقها»، وهذا في نهاية المطاف يتعلق أيضاً بالمناطق الشمالية، كما يتعلق بالمناطق الاستوائية؛ والرمز دوماً يظهر هكذا  أو بصورة تماثل ذلك

بل ويبدو من المستحيل قيام أي علاقة أمام وجه هذا البون الشاسع في الزمان والمكان والذي يفصل بين الكتابتين. ففي منتصف القرن التاسع عشر خبا استعمال كتابة جزيرة الصيام ومعرفتها بينما كانت كتابة حوض الهند مزدهرة منذ 2500 سنة قبل الميلاد! وهنا نلتقي بهاوية واسعة تمتد على مدار 4500 سنة! وحتى لو نظرنا بكثير من التسامح إلى آخر الإخباريات التي لم تتأكد بعد والمائلة بأن قديم كتابة جزيرة الصيام يمتد إلى 1000 سنة لبقى أمامنا فترة زمنية تمتد إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة. ويبحث العلماء عن الوسائل الكفيلة بالتغلب على العقبة الرئيسية الأخرى التي اصطدمت بها نظرية التقارب - وهي التباعد الجغرافي. إلا أن الفرضيات المختلفة الطراز والتي ينتظر منها أن تسعف الموضوع لا تستطيع حتى الآن أن تستقطب حولها الملاحظين غير المقتنعين.

وإذا لم تكن كتابة وادي الهند ضمن المحتمل أن تتضح رموز كتابات «الشجرة الناطقة» في المستقبل القريب من أجل القراءة المقنعة والنهائية. وهامو ذا توماس بارتل يقيم في جزيرة الصيام منذ شهور عديدة ويستفهم من الجميع عمّن بمقدوره أن يحل هذه الأحجية - من «الشجرة الناطقة» ومن المغائر والرسوم على الصخور وأخيراً من الأصنام الصخرية الشهيرة، على مستوى العالم بأسره، في أريكما وموهايا - أحجية سرّ جزيرة المحيط الهادي الصغيرة.



قمنا برحلة غير قصيرة من ضفاف النيل وحتى شطآن الجزيرة الصغيرة الضائفة في المحيط، وأمام أعيننا ظهر عدد غير قليل من البلدان والشعوب: سومر وجزيرة مينوس، بابل ومدافن الإيتروسكيين، مصر ووادي الهند، آشور وقدماء التيورك - فتلك هي المراحل الأساسية لهذا الخط غير المحدد الملامح والنافذ عبر الزمان والمكان. وما أكثر ما بقي جانباً دون نقاش! هناك الجزء الشرقي من آسيا الوسطى بمكتشفاتها التي تأسر النظر وهناك الشرق الأقصى، موطن ومهد حضارة كتابة لا يمكن أن يوجد لها مثيل وذات الطريقة الطريفة في الكتابة. وهناك أيضاً الوجوه المقطبة للهيروغليفات الأمريكية القديمة، بقايا

الحضارة ما قبل الكولومبوسية، وهناك أفريقيا الشمالية والداخلية، وأخيراً الجزيرة العربية التي تروّت رمالها المتلظية بدماء الباحثين البواسل الذين راحوا هناك يبحثون عن النقوش المدونة أو عن أثر للكتابة «أم الناظقين وأب الحكماء» حسبما يقول المثل السومري. ولكن يكفي إلى هنا ⁽¹⁾ «*non multa, sed multum*» - كما كان يقول الرومان. وسيراً على هدي هذا القول المأثور المجيد فإننا بدورنا لا نحاول أن نحشو رأس القارئ بخليط من النظم والرموز الكتابية فما أردناه هو أن تكون تلك النماذج القليلة والأكثر وضوحاً بالنسبة لنا، نحن الأوروبيين، قد أنارت الطريق نحو وعي تلك المعجزة التي تجسدت في تلك الرموز من أجل أن تسمح بالنظر إلى ذلك المعين الذي لا ينضب من المداخل التي أودعها الروح الإنساني أثنى ما اختزنه. إن هبة الكلام، اللغة، تميّز البشر عن الحيوانات وتسمو بهم عالياً فوق المغلوقات الأخرى على الأرض. لكن اللغة نفسها - ما هي إلا نفس نفحه الروح الإنساني صوته. فكان ذلك الصوت يتمالي ثم يخبو لأنه لم يكن يُمسك ولم يتم أحد بحفظه، وظل ذلك متصلاً حتى الوقت الذي قامت فيه الكتابة، ذلك الوعاء البديع، بحفظ اللغة وبقائها على مدى اتصال الأجيال.

1- ليس بالكثير إلا أنه كثير (بغللاتينية)، أي ليس بالكثير في حجمه إلا أن كثير في معناه (المترجم).

فراءة الكتابات واللغات الفديهة في مظهر الوافع العربي الراهن

تمهيد

منذ قرابة نصف قرن (عام 1957) نشر الأستاذ الجامعي، الباحث النمساوي الكبير أرنست دوبلهورفر، كتابه المشهور «رموز ومعجزات»، وهو وفق ما يشير الجانب التوضيحي من عنوانه: «دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتب واللغات القديمة»، وسرعان ما ترجم الكتاب إلى عدد كبير من اللغات الأجنبية كان من بينها اللغة الروسية التي صدر بها الكتاب عام 1963 بعنوان «Знаки и чудеса»، وعن هذه اللغة كان لكاتب هذه السطور شرف نقل الكتاب إلى اللغة العربية وتقديمه إلى الأستاذ الدكتور خليفة محمد التليسي، الأمين العام «لدار العربية للكتاب» في الجماهيرية العربية الليبية، والذي تفضل بنشره عام 1983.

ويشهد مترجم هذا الكتاب، والذي كان له شرف نشر مجموعة من الكتب المؤلفة والمترجمة في «الدار العربية للكتاب» بأن الأستاذ الدكتور التليسي، الشاعر، الأديب، المفكر، الناقد، المؤرخ، اللغوي، والذي ساهمت مؤلفاته الأدبية، اللغوية، النقدية والتاريخية، بنصيب راجح في الفكر العربي المعاصر، قد كان في إدارته «الدار» وفي تعامله مع من نشروا أعمالهم عن طريقها، المثل الأعلى للمثقف الأصيل الصادق النبيل، الذي يعرف الحق وينصره، ويعين في الوصول إليه.

ومنذ أن نشر الكتاب، سواء في أصله الألماني أم في ترجمته العربية، جرت مياه كثيرة واغتنى علم الآثار الذي ينتسب إليه الكتاب، بدراسات ومعلومات جديدة، لم تؤثر على فراءة الكتاب في ميدانه. أما على الصعيد المالي فيمكن الإشارة إلى تبدل واضح

وعلني في حركية التاريخ الحديث. فقد تعرضت المفاهيم والمسلّمات السابقة إلى خلل يكاد يعصف بما تواضع عليه البشر من قيم وأعراف يستقر عليها البنيان الخلقي للعامل المعاصر.

فبعد انتهاء ثنائية القطبين وبداية الاستقطاب الواحد تدفق سيل «الأفكار» الجديدة المتجهة نحو الترسيم الجديد لخارطة العالم وفق أساس جديد تفرضه «الجيوبوليتيكا» حول ثروات الأرض فريسة في أيدي الأقوياء وبدئ بتلميع أفكار جيوبوليتيكي القرن التاسع عشر وبدايات العشرين: ف. راتسيل، ه. ماكندر، ك. هاوسهوفر، أ. ماهان، ك. شميدت وسواهم وتستوقفنا من بينها قوانين ف. راتسيل السبعة والتي عدت في حينها «الدليل المرشد للإمبرياليين» وينص السادس منها على أن «الباعث على التوسع يأتي من الخارج، إذ إن الدولة تثار للتوسع على حساب الدولة «أو الأراضي «ذات الحضارة الأدنى»⁽¹⁾. وطرحته مفاهيم العولمة الجديدة و«المليار الذهبي» من البشر - وأخذت تتردد «القيم الأمريكية» و«نمط الحياة الأمريكي» واستيقظت نظرية التفوق وما تجره ورامها من التوجهات العنصرية ورفض البعض ما اتفقت عليه الأغلبية الواسعة من دول العالم بل وأعلنوا حصانتهم من العقاب في حال ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، كما أعلن «صراع الحضارات» ولتحويل العالم إلى دوائر حضارية متجاورة ومتصارعة على مستوى الثقافات لإخفاء الصراع حول المصالح والثروات⁽²⁾، ووزعت خرائط جديدة على العالم يهمنها من بينها «ما نشرته جريدة يديموت أحروروت الإسرائيلية يوم الأربعاء 30-7 بأن الرئيس الأمريكي بوش قد أهدى رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون خارطة «للأراضي المقدسة» تعود إلى 1678 وتشمل العديد من دول المنطقة». وقد عبر شارون فور وصوله إلى البيت الأبيض عن شكره لبوش على الخارطة التي تظهر فيها أيضاً بابل وقال: «يمكنني أن أؤكد لكم سيدي الرئيس أن هذه الخارطة كانت ستحصل على موافقة حكومتي بدون مشكلة⁽³⁾. وتعالى الدعوات على تحرير الإنسان من القيود التي زعم أنها تكبل انطلاقته فتبين أن ذلك لم يكن إلا تحريراً للجانب الفريزي البهائمي فيه وتوجهاً إلى القضاء على المثل والأخلاق وعلى روح التسامي التي توصلت البشرية إلى زرعها في الإنسان على مدى مئات القرون من التطور. ولم يتحرج

1- الكسندر دوغين أسس الجيوبوليتيكا لـ د عماد حاتم دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004 ص97

2- د حسن حنفي الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية مجلة المعرفة دمشق، شباط، 2004 ص 64.

3- د بئينة شعبان خارطة قديمة قديمة صحيفة «تشرين»، زاوية «أفال»، دمشق 4-12-2003.

بعضهم من أن يعلن «نهاية التاريخ» وكان التاريخ قد تحقق والزمن قد انتهى والقيامة قد قامت»⁽¹⁾.

كانت حرب أمريكا على العراق آخر الممارسات التطبيقية لهذه المنظومة من التفكير الجديد وأشدّها ضراوة وقتكاً، وقد خرجت مظاهرات شعوب العالم ضد تلك الحرب حتى قبل أن تشتغل. فآية علاقة لهذا كله بكتاب ينطرق للكشوفات الأثرية في أعماق التاريخ السعيدة؟

الأسلاب والغنائم، الأولى للحرب الأمريكية تستعرض هذه الملاقة، وتبسط دوافعها وأهدافها وأولوياتها التي لم تخطر على بال أحد. إننا نتذكر «الإرهاصات» الأولى والخطب المسعورة التي رافقت الاستعدادات المبكرة لتلك الحرب، والحماسة المتطرفة، الشبيهة بالجذب الصوي في نداءات المتدافعين لتخليص البشرية من أسلحة الدمار الشامل في العراق ورفع راية الديمقراطية خفاقة على ريوحه! ولكن لم تمض إلا الأيام الأولى على هذه الحرب حتى سقطت الأتمة والذرائع ووجدنا بلاد الراهدين تخوض حرباً لا تختلف بأي شيء عن حرب الصهاينة ضد «الإرهاب» في فلسطين بل وتكرر كل ما فيها من وحشية ومناقة للمنطق، «فالحرب على العراق كالحرب على فلسطين، حرب صهيونية في جوهرها، قاتلة وحاقدة ومدمرة في أحداثها ووقائعها اليومية»⁽²⁾.

في رسالة من باريس كتبها الدكتور غسان الرفاعي ونشرت في «تشرين» بتاريخ 29-3-2003 تحت عنوان «أمريكا العالم لا عولة أمريكا» استهلها المؤلف بنوبة الضحك الهستيري الذي استقبلت به مذيعة تلفزيون إسرائيلية قصف بغداد بالصواريخ، ثم قامت «بانجاز حضاري آخر بعد ليلتين من القصف المتواصل لمعالم بغداد الحضارية، إذ قدمت للمشاهدين مصمم مدن إسرائيلياً يفاخر بأنه قد تبرع بتقديم خرائط مفصلة عن الأماكن الأثرية الحضارية في العراق إلى طياري التحالف دون مقابل وتوجهت إلى المشاهدين قائلة: «ينبغي أن يبادر طيار التحالف على قصف هذه الأماكن الأثرية من البر والبحر والجو لأنها أخطر من أسلحة الدمار الشامل. لا يمكن التخلص من الإرهاب الشرقي إلا بتدمير كامل للتاريخ. احرموا سكان هذا الجزء من العالم من تاريخهم الحضاري الكامل وحرروهم من تراثهم. ثم يشير الدكتور رفاعي إلى مثقف أمريكي جديد يجري تلميحه بدأب واهتمام، ومن أهم مقولاته: «الذاكرة

1- د حسن حنفي الهامش رقم واحد، ص 63

2- د بشينة شعبان حربان ومحوران صحيفة «تشرين» زاوية «الفاق»، دمشق 29-3-2003.

الوطنية هي سلاح التدمير الشامل الذي يتوجب القضاء عليه. أتساءل لماذا لا نكون فريقاً من المفتشين على غرار مفتشي الأسلحة النووية للكشف عن أماكن اختباء هذه الذاكرة الوطنية،⁽¹⁾ 5.

ولم يمض إلا يومان على الإعلان الرسمي لاحتلال بغداد حتى تشكل هذا الفريق من أرتال من اللصوص والمشبوهين قاموا جميعاً، وتحت حماية القوات الأمريكية، باقتحام «مخابئ» الذاكرة الوطنية في المتاحف وحقول التنقيب، وهذا ما سيجري الحديث عنه في الجزء الرابع - التوثيقي - من هذه الدراسة والذي يتناول المصير الذي انتهت إليه الآثار المجيدة التي خصص لكتابتها المسماة جزء من هذا الكتاب. أما بقية الأجزاء فيتناول أولها «الرموز ومناهج قراءة الكتابات القديمة» والثاني «المركزية الغربية وقراءة الكتابات القديمة» ويتطرق الثالث إلى «المعاني البعيدة للكشوفات الأثرية».

1- د. غسان الرفاعي أمريكية العالم لا عولمة أمريكا. صحيفة «فشرين» دمشق 29-3-2003.

الرموز ومناهج قراءة الكتابات القديمة

اغتنى التاريخ الإنساني في القرنين الأخيرين بأسفار معرفية جديدة ومهمة ويرجع الفضل في وجودها لقراءة الكتابات واللغات التي كانت مجهولة قبل ذلك أو كان ينظر إلى نقوشها كمجموعة من الأحاجي التي يعد مجرد التفكير في حلها ضرباً من التعامل مع المستحيل، ولذلك كان حل تلك الرموز وقراءة نصوصها ميلاداً جديداً للتاريخ البشري.

وإذا كانت هذه الكشوفات والقراءات بالغة الأهمية بالنسبة للتاريخ الإنساني فإنها تكتسب أهمية مضاعفة بالنسبة لتاريخنا العربي، فأهم الكتابات الدارسة وجدت في منطقة ما بين النهرين ووادي النيل وأوغاريت وجبيل وبوغازكوي وجميها تصلنا بخيوط كثيرة بأول المناهل التي استقت منها شخصيتنا الكثير من مقوماتها عبر التاريخ.

وإذا كان الباحثون العرب قد احتجبوا لأسباب كثيرة عن هذه الكشوفات والقراءات ولم يشاركوا في حل رموز تلك الرقم والنقوش والمدونات التي خطها الأجداد، فإنهم احتجبوا أيضاً عن التأريخ لهذه الإنجازات العلمية الكبرى والتعريف بها والكتابة عنها، فلم يصدر وحتى الآن - في حدود علمنا - الكتاب الذي يتناول بالدراسة تلك الموضوعات المهمة، وهو ما يعد نقصاً في المكتبة العربية، استطلاع أن يعرض بعضه كتاب العالم النمساوي

أرنست دوبلهوفر⁽¹⁾. الذي عرض فيه لتاريخ الكتابة الإنسانية وطبيعتها كمنشأة بشري ثم تناول قراءة ثماني كتابات هي المصرية القديمة، الفارسية والبابلية المسماريين، الحثية - المسمارية منها والهيروغليفية - الفينيقية من خلال أبجديتي رأس الشمر وجبيل، المقطعية القبرصية، كتابة «ب». الكريتية الميكينية والتوروكية الرونية القديمة، ثم ختم كتابه بفصله عن مستقبل الكتابة. وينهج المؤلف في كتابه المنهج التاريخي، ولا يقصد بذلك فقط أنه يتتبع مصير كل رقيم مكتوب منذ أن تم العثور عليه وإلى أن قرئ، بل ويحاول أيضاً أن يلاحق مسيرة التفكير لدى كل عالم، فيواكب خطواته ويدخل بنا مختبره العلمي ويجعلنا نلمس الصعوبات المتلونة التي كانت تمتعض قراءة الكتابة الغامضة وتعايش الجهود المضنية والليالي الساهرة، التي انتهت ببعض العلماء إلى اليأس واعتزال العمل بينما انتهت بآخرين إلى تحقيق النصر العلمي العظيم.

1- نأمل ان تكون قد وفقنا إلى نقل الكتاب إلى اللغة العربية بكل ما تتطلبه الأمانة العلمية من دقة ونزاهة، وأن تكون نجحنا في جملة مستأنفاً بالنسبة للقارئ العربي ولا بد من الإشارة إلى أننا أبقينا على بعض المفردات العائدة إلى ميدان الدراسات اللغوية دون ترجمة وذلك بسبب ألفها وترسخها في تلك الميدان كمصطلح «الكتابة البيكتوغرافية» (الكتابة بطريق الصور) و«الإيديوغرافية» (الكتابة بطريقة نقل كلمة أو فكرة من خلال تصويرها) كما أبقينا على كلمتي جمنازيوم وليرسيه بسبب شيوع استعمالهما بلفظهما هذا في اللغات الأوروبية واستحالة إيجاد المعاهد التربوية المطابقة لهما بصورة كلية في بلدنا. أما كلمة «محدد» فهي ترجمة لكلمة Determinative التي تكرر ورودها في الكتاب لتعني ذلك الرمز المساعد الذي كان يضعه قدماء الكتبة أمام كلمات كثيرة التردد مثل «إله»، «بلاده» و«ملك بغية تحديد معناها وتمييزها عن الكلمات الأخرى. كما ترجمنا كلمة Bilingua بكلمة «ثنائية» ويقصد بها تلك المنقوشات التي كانت تتضمن نصوماً بلغتين أو أكثر (كحجر رشيد مثلاً) وكانت ضاللة كل قارئ للرموز والمعنى ما يتطلع للتوصل به في عملية قراءة الرموز المطروحة أمامه كما أننا لم نتقيد في الترجمة بمصطلح واحد «الإسفيني أو المسماري» حيث إن ذلك المصطلح لم يستقر بعد في الأدبيات العربية هذا ولما كانت كل كتابة خطية في حد ذاتها قد استعملنا مصطلح «الخطوطية» في الفصلين السابع والثامن للإشارة إلى الكتابتين القبرصية والكريتية - الميكينية اللتين تقومان على نقاط خطوط وحزوز معينة بأشكال مختلفة وألوان استعملنا هذا المصطلح رغم معرفتنا بصرامة القاعدة التي تفرض النسب إلى المفرد لا إلى الجمع. أما الفصل الحادي عشر الذي أضيف إلى المتن فقد بدئنا بكون مقدمة للكتاب. إلا أن تداعيات الأحداث المعاصرة وما استدعت من التأملات والخواطر وتزايد الاهتمام بالكنوز الأثرية العربية وجلال مناسبة صدور هذه الطبعة من رموز ومعجزاته لم تلبث أن تحولت بالمقدمة لتصبح فصلاً مستقلاً يجدر به أن يقرأ بعد الفراغ من قراءة الكتاب (المترجم).

ولهذا فإننا نحبي الجهد الكبير الذي بذله أرنست دوبلوفور في كتابه ، ونقدر له بكل إكبار ما اتسم به من دقة المحاكمات وجاذبية العرض. على أن وقتنا هذه ليست عرضاً للكتاب ولا نقداً له (وقد أغنتنا عن ذلك مقدمة الأكاديمي ف. ستروجي للطبعة الروسية للكتاب) بل هي وقفة سرية أمام ما يمكن أن نسميه «ما بعد القراءة» أي أمام بعض الخواطر التي أثارها قراءنا للكتاب وبخاصة في هذه الظروف الراهنة التي تمشيها أرضنا العربية وبصفة خاصة العراق، أرض المراقبة الحضارية وموطن واحدة من أهم الكتابات الإنسانية، وقد اختص المؤلف قراءتها بالفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب.

إن مرحلة الكشوفات التاريخية في الزمان، والمرحلة السابقة لها، وهي الكشوفات الجغرافية في المكان، ترتبطان في التاريخ الأوروبي بمرحلة «النهضة»، والتي كان من سماتها يقظة الوعي والتفكير والمغامرات العقلية الجريئة والبحث عن المناهج العلمية الجديدة والاستزادة من المعارف والتوصل إلى التراكم المعرفي الذي تمخض فيما بعد عن الثورة الصناعية، التي كانت في وجهها الإيجابي تنويجاً للفكر الإنساني إذ طبقت العلم على الصناعة، لكنها لم تلبث أن اتخذت وجهها السلبي إذ كانت واحداً من أهم الأسباب التي مهدت للاستعمار بمعناه العسكري ويوارجه ومدافعه وعنصرته وما جره من مأس على القسم الأكبر من الكوكب الأرضي.

وكيفما كانت نظرتنا إلى هذه المرحلة التي كشفت صفحات مشرقة في تاريخنا القديم فإننا لا نستطيع أن ننسى ارتباطها بظاهرتين تقضي كل منهما على الأخرى وتكملها: بالاستعمار في صورته المباشرة المجردة من الأتمة. وبالتراكم المعرفي الذي أفاد العلماء من ذخائره حتى توصلوا إلى كشوفهم التي تثير الإعجاب. ولدوبلوفور في كتابه عبارة تصف شركة الهند الشرقية التي أسهمت بدور ملموس حتى في الكشوف فهي «منظمة قوية لا تقصر حاجتها على قطاعي الرؤوس السفلة والمغامرين، وكانت تقوم بنفسها على تربيتهم بكل اهتمام، بل وعلى رجال الفكر أيضاً». ويبدو لنا أن هذا الوصف يسم الاستعمار كله الذي اشتملت جيوشه على ضربين من الرجال: القتل والعملاء، ولكل منهم ميدانه ومهمته. فعندما تنتهي مهمات قطاعي الرؤوس المذكورين وتنتهي فترات الاستباحة ويرفع السيف عن المناطق المنكوبة بالفزاة، كانت تجمع النحف والكنوز والنفائس والأثار الفنية والمعمارية.. وتوجه جميعاً في موكب حربي عجيب يبدأ في الأرض المسلوية وينتهي في عاصمة المحتلين»⁽¹⁾.

1- د. عماد حاتم الكتاب وطموحات الواقع العربي مجلة الناشر العربي طرابلس (ليبيا) العدد 1، 1983 ص 23

وقد لا يكون ثمة جديد في كل ما ذكرناه فالآلة الاستعمارية هيمنت في حينها على كل ما سواها من النشاطات الأخرى، ومن ذلك النشاط الاستشراقي الذي لقي تطوراً واسعاً في ظل الاستعمار وكان من نتائجه قراءة الرموز الكتابية. وقد أغناها كتاب «الاستشراق»⁽¹⁾ للدكتور إدوارد سعيد وأساطير أوروبا عن الشرق⁽²⁾ لرنا قباني عن البحث في هذا الارتباط المضوي بين الاستعمار والاستشراق⁽³⁾ إذ بينا الآفاق الواسعة التي كان يفتحها النشاط الاستعماري أمام المستشرقين⁽⁴⁾، وهو ما أكدته كتاب دويلهوفر أيضاً وأضاف إلى ذلك الارتباط بين الدراسات اللاهوتية وهذا النشاط إذ كانت دراسة اللاهوت تفضي بطبيعتها إلى دراسة اللغات الشرقية. ومهما يكن من أمر فإن أي استعراض لتاريخ الاستعمار لا بد وأن يمر بلوحات أولئك المكتشفين والجنود المجهولين وكان بينهم الباحث والمبشر والمسكري والتاجر والمغامر والعالم والباحث عن الأحاسيس المنيفة والرسام والمالم الاجتماعي.. فكانوا يقطعون المسافات الطويلة ويخوضون ضروباً من المغامرات.. على أنهم كانوا حريصين جميعاً على تسجيل المذكرات ورسم الخرائط وتقديم النصائح والمشورات للهيئات المختصة، وقد دون

- 1- إدوارد سعيد، الاستشراق ترجمة د. كمال ديب، ط 4، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1995.
- 2- رنا قباني أساطير أوروبا عن الشرق، فرق تسد. تر. د. صباح قباني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1988.
- 3- يتحدث دويلهوفر بكثير من التعاطف والإعجاب عن سلفستر «دي سامي العظيم» الذي كان مظهره يوحى بالإخلال بما يشع به من الإلهام وهو في تلك يجازي العلماء الغربيين الذين يشيدون دوماً بجهده في ميادين الاستشراق بينما يتحدث إدوارد سعيد عن سلفستر دي ساسي أبي الاستشراق الفرنسي هيرزه رمزاً مبكراً للتملوع بين المستشرق وجيوش الغزو. لقد شغل دي ساسي منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية، وكان يستشار بانظام في المسائل المتعلقة بالشرق في تلك الوزارة إلا أن جهوده لم تقف عند محض الاستشارة وإنما تعدتها إلى أمور أخرى كان فيها المستشرق الكبير ضالماً في أعمال الغزو. فقد جمع دي ساسي إلى وظيفة المستشرق وظيفته المترجم، ذي المكانة العالية، وساهم بوظيفته هذه في توجيه الحملة على الجزائر عام 1830، وترجم بيانها الموجه إلى الجزائريين. وقبلها، عام 1806، كان دي ساسي قد ترجم بيان نابليون الذي أريد به استئثار العصبية الإسلامية ضد الروس الأرثوذكس كجزء من حرب الإعلام التي رافقت حملة نابليون على روسيا. هادي العلوي، الاستشراق عارياً، مجلة الكرمل نيقوسيد العدد 10، 1985، ص 185.
- 4- أما الانحرافات الفكرية العنصرية التي تمخضت عنها أعداد كبيرة من الدراسات الاستشراقية المضللة فربما كان الدكتور محمد نجيب البهيتي واحداً من أفضل من تصدى لها في أعماله الصادرة عن «دار الثقافة» - الدار البيضاء ومنها: «المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ، القسم الأول والثاني، 1981، المعلقات سيرة وتاريخاً، 1982 المدخل على دراسة التاريخ والأدب العربيين، 1985».

هؤلاء انطباعاتهم وأوصافهم ومشاعرهم ومذكراتهم في مجلدات كبيرة كانت جليلة الفائدة بالنسبة لعلماء الاجتماع والجغرافيا ودارسي عادات الشعوب ومخططي الحملات العسكرية، فكانت بمجموعها تصليح بالصيغة النفعية وتستظل برأية المد الاستعماري⁽¹⁾.

وكثيراً ما كانت العلاقات بين الغزاة المستعمرين - والتي تقلب بين التهاش والتعاون - تنعكس على مصير التحفة الأثرية. فمن الأمور ذات الدلالة أن مكتشفي حجر رشيد، مفتاح قراءة الهيروغليفية، كانوا جنوداً في الحملة الفرنسية على مصر يحفرون خنادقهم القتالية. أما وصوله إلى المتحف البريطاني بعيد اكتشافه فيعكس الصراع الفرنسي - الإنكليزي على تلك الأرض وإصرار الإنكليز على سلب المهزومين الفرنسيين أسلابهم في مصر وقد عدوا ذلك الحجر - حسب تقريرهم - «مفخرة أسلاب السلاح البريطاني الذي لم يؤخذ عن طريق نهب السكان العزل من السلاح بل عنوة في حرب شريفة!». أما «حجر حماة» مفتاح قراءة الحثية، فقد لفت أنظار رحالة ألماني قديم كتب عنه، ثم التفت إليه القنصل الأمريكي وأخيراً جاء دور صبحي باشا الحاكم العثماني، والكلمة لمؤلف الكتاب إذ يقول: «فلما سمع بقصة الحجر رأى أن يتجه إليه بنفسه فدعا القنصل البريطاني في دمشق كوريي غرين والمبشر الإيرلندي ويليام رايت ليرافقاه في زيارته فوجدوا ذلك الحجر وعشروا على أربعة أحجار أخرى. وكان الكاهن ويليام رايت والحاكم يعرفان مسبقاً أن الحجر لن يقدم لهما طوعاً. ولكن ما معنى أن يكون صبحي باشا حاكماً وما جدوى وجود المسكر لديه إذ؟ وأخيراً تم تطويق ساحة العمل بعدد من الحرس الجيدي التسليح ثم نقلت إلى اسطنبول ونقلت نسخ منها إلى المتحف البريطاني. وتتصل كشوفات ما بين النهرين اتصالاً مباشراً بالغزو الاستعماري الإنكليزي. أما رولينسون الذي ساهم في قراءة الفارسية القديمة فكان له إسهامه في عدد من المذابح الاستعمارية الكبرى في أفغانستان وسواها، والتتقيات عن أوغاريت وجبيل جرت في فترة ما يسمى بالانتداب الفرنسي على سورية. وقد زحف القارئون المبشرون على جزيرة الصيام في رحلة مشابهة ولكن بعد أن كانت حراب الاستعمار وبنادقه قد أجهزت على أهل الجزيرة حتى كادت تنتهي بهم إلى الصفر، وهو ما يموق حل رموز كتابتهم حتى الآن.

1- من مقدمة د. عماد حاتم لكتاب: «البروتو مورافيا. رسائل من الصحراء»، دار الفرجاني طرابلس، ليبيا.

أما التراكم المعرفي فتقصد به ذلك التحشد الكمي الكبير لمختلف أنواع المعرفة (واللغويات من بينها) والذي أدى إلى تحول نوعي في مختلف ميادين العلم وإلى ظهور مناهج جديدة في الدراسة أدت في مجموعها إلى ما نسميه الثورة العلمية التي نشهد آثارها اليوم. فقد كانت المحصلة العلمية المتزايدة سببا في ظهور مناهج جديدة في الدراسة ومنها «المنهج المقارن» الذي ترك أثره في مختلف العلوم، فبتأثير منه ظهر جدول مندليف للعناصر وأفاد منه داروين في كتابه المشهور «أصل الأنواع»، أما في ميدان الدراسات الإنسانية فالمنهج المقارن بدل من نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى حضارته بصورة عامة، وقد جرى تطبيقه بصفة خاصة في علوم الكتابة والتراكيب الكتابية والبيروغرافيات والبنية اللغوية، ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان واحداً من الأسباب الرئيسية التي انتهت بتحقيق «معجزات قراءة الرموز».

ومن المتفق عليه أن الكتابة نقلة للإنسان من الهمجية إلى مرحلة الحضارة، مكنته من نقل تجاربه إلى الأجيال التالية التي أهادت من التجربة ورغدتها بإسهامها لتورثها من يأتي بعدها. ولدينا في العصر الحالي ما يقارب الأربعمئة نمط من أنماط الكتابة، وقد توقف المؤلف بشيء من التفصيل أمام المراحل الأساسية التي مرت بها الكتابة فأعاننا بذلك على فهم عملية تفكيك رموزها المكتوبة فيما بعد. أما المرحلة الأولى مما يمكن أن نسميه «التدوين» فتمت باستعمال الأشياء، البيركا وصولجانات الرسل والشرائط والمسابع والكيبو وما سوى ذلك.

وقد نجح المؤلف في عرض الصور التي اتخذتها الكتابة لدى الإنسان خلال تاريخه الطويل - الكتابة التصويرية، الإيديوغرافية، الكتابة بالكلمة اللفظية ثم الانتقال إلى الكتابة المقطعية وهكذا، وبذلك هيأ القارئ لفهم المراحل التي مرت بها عملية فك كل من الرموز ومنطقية تلك المرحلة. على أن ما سجله المؤلف في كتابه من «رموز ومعجزات» علمية فما كان له أن يتحقق لولا توفر العنصر البشري الذي اجترح هذه المعجزات عن جدارة. ومهما كان نظرنا إلى المهود الاستعمارية وأسبابها ونتائجها فلا يمكننا إلا أن نضع في الحسبان قبل كل شيء - الاستعدادات العلمية الكبرى التي تسلم بها العلماء قبل أن يواجهوا الرقم الكتابية القديمة، وما قدمته لهم سلطاتهم من تسهيلات حتى حققوا مآثرهم. ولعل معجزتهم الأولى جميعاً هي الخلفية المعرفية الواسعة التي دخلوا بها عالم اللغات. كان كل منهم يبرف أعداداً من اللغات وعندما كانت قناعة أحدهم توصله إلى ضرورة معرفة المزيد كان لا يتردد في تعلم مجموعة جديدة من اللغات بدءاً من حروفها الأولى. يضاف إلى هذا أنهم كانوا مدفوعين إلى كشف أستار المجهول متشوقين إلى الترحل والاكتشاف واختراق حجب الزمان والمكان.

واستعراض حياة مجموعة قليلة من هؤلاء العلماء يؤكد لنا ما كان يضطرم في قلوبهم من حب المعرفة وما تزودوا به من معارف؛ فحياة شامبليون مثال نادر لتكريس الذات من أجل الغاية العلمية التي تطلع إلى تحقيقها. نشأ بين الكتب، بدأ يكتب وهو في الخامسة من عمره، تعلم اليونانية واللاتينية صغيراً واستظهر هوميروس وفرجيليوس وفي الثانية عشرة من عمره بدأ تأليف كتاب عن مصر واختارته أكاديمية غرونوبل للعلوم عضواً فيها وهو في السادسة عشرة من عمره إذ نظرت بعين التقدير لا إلى ما حققه بل إلى ما سوف يحققه في ميدان العلم، تعلم العربية حتى حسبوه من أبنائها، وعدداً كبيراً من لغات الشرق.

البروفيسور إيبينسين - تعلم الألمانية وعدداً من اللغات القريبة منها بالإضافة إلى عدد من اللغات الأوروبية قبل أن يبلغ العشرين ثم درس اللغات الهندية والإفريقية ولغات البولونيز ثم الفارسية القديمة أما اللغات الإفريقية فلم يكن مطلعاً فقط على عدد منها بل وكان يتكلمها بطلاقة. جورج سميث الذي بدأ طارفاً على النحاس في المتحف البريطاني، تعلم قراءة الرقم الآشورية واكتشف سطور ملحمة جلجامش. أرتسيبالد سايس - تعلم العبرية القديمة والقبطية والفارسية والسانسكريت وصار أستاذاً في جامعة أكسفورد. أمضى حياته في الأسفار العلمية فهو يستسخ تارة إشارات الري الكنعانية في القدس ثم كتابات الجزيرة العربية ثم يجوب جزر المحيط الهادي لدراسة حضارة البولونيز وتجذبته حضارات جاوة، وديانات غينيا والبوذية في اليابان ودخول المسيحية إلى الصين على أيدي النساطرة وآخر سؤال طرحه قبل وفاته كان يدور حول صدور نصوص جديدة من رأس الشمرا، وأمثال هذا كثيرون... تلك هي إذا نوعية الشخصيات التي ساهمت في قراءة الرموز القديمة ونوعية الخلفية المعرفية التي أهلتهم لدخول عالم القراءات الصعب المليء بالمشقات. والكتاب يتناول كل واحدة من هذه القراءات بمفردها ويبين ما تعرض له العلماء من صعوبات وخطوات الخطأ والصواب التي سلكوها وما عاشوه من آمال ومعينات جعلت الكثيرين منهم ينصرفون عن هذا النشاط يائسين. فقد كانت الرموز المعروضة للقراءة تتحدى معارف العلماء وثقافتهم المتلونة وحماسهم للعمل، وقد فرضت كل كتابة تحدياتها الخاصة وكان من الضروري استنباط منهج لكل قراءة، والمراحل التمهيديّة، العامة لقراءة الرموز كانت تمتد أحياناً عشرات السنين، وكان قطع كل مرحلة فيها يعد انتصاراً علمياً في حد ذاته. كان لا بد في البداية من البرهان على أن النقش المطروح للقراءة ليس مجرد نقش جمالي بل كتابة تحوي نصاً إخبارياً ذا مضمون. ثم يتم الانتقال بعد ذلك إلى التعرف على طريقة القراءة وإثبات الاتجاه الذي تسير فيه، أنتجه بطريق عمودي أم أفقي، من اليمين إلى اليسار أم من اليسار إلى

اليمين، ما نمط الكتابة وما الأسرة المحتملة التي ينتمي إليها النص، فتحديد الأسرة سيؤدي إلى التنازل بالحصول على حروف ساكنة فقط (كما في الساميات) أو حروف ساكنة وصائتة (كما في الهندوأوروبيات مثلاً) وما النصوص التاريخية التي تعين على تحديد ذلك؟ وكانت هذه الأمور وما يليها تستغرق مناقشات طويلة بين العلماء وقد تفضي إلى عقد المؤتمرات العلمية.

وطالما شغلت اهتمام العلماء قضية الرموز التي أسماها شامبليون بالمحددات وهي تلك الرموز التوضيحية المعينة على فهم الكتابة، وكانت واسعة الانتشار في الكتابة الأكادية أيضاً. كما أفادوا من الخصوصية التي اتخذتها بعض المفردات في النص المكتوب، فأسماء الملوك في الكتابة المصرية تحاط بأطر خاصة. وقد يستوقف نظر العالم تكرار كلمة معينة (الكلمة الثلاثية الأحرف في نص من رأس الشمرا، وقد خمن باوير فيها اسم بعل وصح تخمينه). كما أن توضع السوابق واللواحق في الكتابة العربية السامية والحروف الوحيدة الحرف كـبعض حروف العطف والجر والتشبيه أمان باوير نفسه على قراءة النص الأوغاريتي الأول. وأفاد العلماء حتى من توضع الرسم المجهول الهوية واتجاه نظرة العين في الكتابة المبهمة المعززة برسم أحد الملوك لمعرفة كيفية قراءة النص المرسوم كما حدث بالنسبة لخاتم تاركوموا الحثي، واستمانوا بالنمطية المتكررة في افتتاحيات الرسائل وتكرار ألقاب الملوك وديباجات القوانين ونوعية «الدعوات» التي يستزلونها على الجناة، فكانت في مجموعها عوناً على القراءات، كما وضع العلماء في الحسبان الإخباريات التاريخية التي دونها الأقدمون والتي ساعدت على إعطاء الجو العام للنصوص كإخباريات هيروودوت التي لعبت دوراً حاسماً في قراءة الفارسية القديمة ومعلومات المصادر الصينية التي لعبت ذلك الدور في قراءة الرونية التيوركية القديمة.

توقف المؤلف بالتفصيل المطلوب أمام كل كتابة تصدى لها في دراساته، وناقش بكثير من المنطقية الخطوات التي سار عليها القارئون حتى توصلوا إلى النتائج العلمية المهمة، ولا يمكننا إلا أن نجازي المؤلف أسفه لأنه لم يتمكن من التوقف أمام مجموعة غير قليلة من الكتابات في أمريكا (قبل كولومبوس) وفي أفريقيا الشمالية وجزيرة العرب والشرق الأقصى بالإضافة إلى كتابة موهينجو - دارو وما يوافقها من تشكيلات كتابية في جزيرة الصيام. وربما عوضتنا عن ذلك كله تعليقات المؤلف على بعض الأحداث التي أدت إليها كشوف الكتابات القديمة والتي لم يكن الكاتب ملزماً بإيرادها، إلا أنها أضفت على كتابه طرافة وأهمية كبيرتين وبينت مدى خطورة العمل الذي تم إنجازه بقراءة الرقم والرموز القديمة.

الهركتبة الغربية وقراءة الكتابات الفديهة

على الرغم من القيمة العلمية الكبرى لكتاب أرنست دوبلهوفر الذي تتضمن الكثير من المواد المعرفية مضافة إلى لحظات الدهشة التي ترافقت مع إنجاز كل من الاكتشافات وإلى تقييم كل منها في الميزان العلمي فلا يمكن للقارئ إلا أن يلاحظ تحيز المؤلف المبالغ فيه للمركزية الغربية موقفه الخاص من العرب والذي يصل حدود التحامل إذا لم يتجاوز ذلك. ويتجلى هذا في موقف المؤلف من الدراسات العربية ومن كل ما جاء لدى الرحالة العرب في هذا السياق. فبشيء من السخرية يستعرض في كتابه ما يسميه - بـ «أكثر التخيلات هذياناً» وذلك «الفيض من شبه العلمية» لدى عدد من الأوروبيين ويسوق آراء متباينة تتنافس في قصورها ومحدوديتها بدءاً بتصورات غورأبولون، فالمستشرق جوزيف ديغين الذي قال بأن «الصينيين - مستعمرون مصريون» وكوخ الذي استنتج استخدام المصريين لأبجديات خمس! فالكونت بالين الذي جاء بـ «النتائج الباهرة في ترجمته لحجر رشيد»! أما المؤلفات العربية في هذا المضمار فيدحضها جميعاً بعبارة واحدة تقول: «لعل النقوش على الآثار استرعت أنظار العرب أكثر من مرة غير أن تفاسيرها لم تكن تخرج عن حدود الأخيلة الخالية من المعنى» ويمكن للباحث المدقق في هذا الموضوع أن يتلمس الجهود الجادة للعلماء العرب في مؤلفاتهم التي نقل معظمها على اللغات الأوروبية وأحمد بن وحشية واحد من هؤلاء، وقد تحدث عنه ابن النديم في «الفهرست» بكثير من التفصيل. والدراسة المفصلة التي نشرها الدكتور عكاشة الدالي تحت عنوان «مصر في المؤلفات العربية في العصور الوسطى» تذكر أعداداً من كبار الجغرافيين العرب كالإدرسي والمسعودي والفرناطي والقزويني والمقرئزي والصاوي وسواهم والدور المميز الذي احتلته مصر في مؤلفاتهم جميعاً حتى إن الإدرسي، الذائع الصيت يصف أرض الأهرامات بالقدسة ولهذا كانت فيها مدافن الضراعة. أما اهتمام العرب بالأهرامات

فتزكده الحادثة التالية: تحدث الإدريسي عن فقيه اجتمع في مصر مع رجل «من فضلاء المغاربة، كان يختلف في بلاده إلى أحد العلماء لطلب الحكمة والأدب، ثم ودعه ليسافر لقضاء فريضة الحج، فلما عاد حضر مجلس شيخه العالم الحكيم، قال: «فتلقاني بالترحيب والإكرام والتوجيب. ثم قال:

«حدثني عن أهرام مصر بما رأيته واضرب صفحاً عما من أخبارها رويته. فقلت له يا أستاذ ما عندي من المعاينة فيها ما أرويه وأسوق إليك حديثاً صحيحاً فيه. فقال: أخس بهمة لطالب علم وحكمة لا يثبر من عزمه لرؤية مثلها ساكناً ولا يهيج من تشوقه وتشوفه إلى معاينة ما يمكنه معاينته من عجب كامناً. وهل كان بينك وبين الإخبار عنها والشهادة عندي بما شاهدته منها، سوى ركضة راكب أو دفعة قارب، واخلى بكل ساقط الهمة ألا يكون أهلاً لتقليد جواهر الحكمة، فلا تمد بعد يومك هذا إلي، لقراءة كتاب من كتب الحكمة والأدب علي! فرحلت على الفور إلى مصر لا لفرض أرمي إليه من قوس المرام، سوى رؤية الأهرام»⁽¹⁾.

وإذا كانت كتابة النص الواحد بأكثر من لغة عاملاً حاسماً بالنسبة لقراءته، وهو ما دلل عليه حجر رشيد بصفة خاصة، فالحقيقة التي يقدمها الدكتور عكاشة الدالي في نهاية دراسته تطرح أجراً الفرضيات في أن يكون العرب قد قرؤوا المصرية بصورة من الصور إذ يقول ما ترجمته: «شمة احتمال ممكن جداً أن يكون أكثر من واحد من النصوص المصرية القديمة قد تمت معرفته من قبل عرب القرون الوسطى المبكرة. فهناك عدد وفير من المواد والنصوص القديمة التي تحمل كتابات مصرية هيروغليفية أو من الموضوعات التي تتضمن واحداً أو أكثر من النقوش القبطية، اليونانية، الكارية، اللاتينية، العبرية، الآرامية، الأكادية، الميلامية والفارسية القديمة وهو ما قد يكون واحداً ممن يعرفون أي واحدة منها من تجريب فك رموز المصرية القديمة. والمواد المشتملة على النقوش تتراوح بين نصوص طويلة مثل حجر رشيد (بالهيروغليفية، الديموطيقية واليونانية) وبين مزق صغيرة كالرقع التي كتبت لترافق المومياء (بالديموطيقية واليونانية) أو لوحات تأسيس البناء (بالهيروغليفية واليونانية - الإمبراطورية 97:1998) وهناك أيضاً نصوص مصرية بحروف يونانية. والأمثلة الأخرى على النصوص المتعددة اللغات تتضمن رقبة المقرب حيث كتب النص بالديموطيقية

1- الشريف أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الحسيني الإدريسي أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام تحق الريش هارمان بيروت 1991. يطلب من دار النشر فرانكس شتاينر. شتوتكرات ص 15.

مع عناصر عربية يسهل التعرف عليها (بورتين 1992)، والبردية الرباعية اللغات وتضمن اليونانية واللاتينية والديموطيقية وكتابة لم يجر التعرف عليها (كوليس 1981) كما استعملت الهيراطيقية المصرية أحياناً مع العبرية (أهاروني 1966)⁽¹⁾.

ولا يختلف عن هذا موقف المؤلف من كبار العلماء الجغرافيين العرب - ياقوت والاصطخري وابن حوقل. كما يظهر تحيزه للمركزية الغربية في موقفه من المعلومات المتعلقة بدهن الملوك وما يتبع ذلك من دفن للبشر والحيوانات والتي قدمت فائدة ملموسة في كشف الكتابة الرونية التهوركية القديمة في سيبيريا فالمؤلف يعود فيها إلى هيروdot الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد واستمدها من مصادر سماعية وتعلق بشمب يسميه (الصقالبة) وهي تسمية غير واضحة لدى هيروdot، بينما وردت هذه المعلومات بتفاصيل شديدة لدى عالين عربيين شاهدي عيان (وهما ابن فضلان - القرن العاشر الميلادي وابن بطوطة - الرابع عشر الميلادي) والكتابان منشوران بعدد من اللغات الأوروبية، وقد لقي كتاب ابن فضلان اهتماماً استثنائياً من طرف الباحثين الأوروبيين⁽²⁾. أما رحلة ابن بطوطة فربما لا تنافسها في شعبيتها لدى الأوروبيين إلا ألف ليلة وليلة.

كان مما رآه ابن فضلان في رحلته مشهد إحراق ملك الروس داخل سفينته: «فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه من يموت معه فقالت إحداهن أنا فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكت حتى إنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما، ثم جعلوا للملك قبة على السفينة وأحاطوه بمظاهر التكريم» وجاؤوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بيد يديه وجاؤوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجمعوه إلى جانبه، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرفتا ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما في السفينة ثم جاؤوا ببقرتين فقطعوهما أيضاً وألقوهما فيها، ثم أحضروا ديكاً ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها... أما الجارية التي تريد تقتل فقد أخذ ستة رجال الجارية ثم أضجموها إلى جانب مولاها وأمسك اثنين رجليها واثنان وجعلت المعجوز التي تسمى ملك الموت

1- Okasha EL-Daly. Ancient Egypt in medieval Arabic Writings in: The Wisdom of Egypt - changing vision through the Ages UCL Press. Institute of Archeology, University College, London 2003, p59.

2- ا. ب. كواليفسكي كتاب احمد ابن فضلان عن سياحته لنهر فولغا 1921-1922، خار كوف، دار جامعة خار كوف للنشر، 1956، Ingvar Andersson. A Historg of Sweden. Natur OCH Kultur. Stockholm. Second Edition. 1970. من كتاب

في عنقها حبلاً. ثم راحت تطعننها بخنجر عريض النصل والرجلان يخفقانها بالحبل حتى ماتت»⁽¹⁾.

ويقدم ابن بطوطة هذه اللوحة بصورة «أكثر غنى، وتفصيلاً فيقول إنه وصل إلى خان بالق في الصين وكان «القان» غائباً في الحرب: «ولما خرج خالف عليه أكثر الأفراد واتفقوا على خلعها لأنه كان قد غير أحكام السياق، وهي الأحكام التي وضعها جنكيز خان، جدهم الذي خرب بلاد الإسلام. فمضوا إلى ابن عمه القائم، وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه وتكون مدينة الخنسا إقطاعاً له، فأبى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل. وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك، فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق والأنفار، واستعمل اللعب والطرب مدة شهر. ثم جيء بالمقتول وبنحو مئة من المقتولين، بنى عمه وأقاربه وخواصه. فحفر للقان ناووس عظيم وهو بيت تحت الأرض، وفرش بأحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحه، وجعل معه ما كان في داره من أواني الذهب والفضة، وجعل معه أربع من الجواري وستة من خواص الممالك معهم أواني الشراب. وبني باب البيت، وجعل فوقه التراب حتى صارت كالتل العظيم. ثم جازوا بأربعة أفراس فأجروها عند قبره حتى وقفت، ونصبوا خشباً على القبر وعلقوها عليه، بعد أن أدخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه وجعل أقارب القان المذكورون في ناووس ومعهم سلاحهم وأواني دورهم، وصلبوا على قبور كبارهم، وكانوا عشرة، ثلاثة من الخيل على كل قبر، وعلى قبور الباقيين فرساً. وكان هذا اليوم مشهوداً، لم يختلف عنه أحد من الرجال ولا من النساء المسلمين والكفار. وقد لبسوا جميعاً ثياب العزاء. وهي الطيالة البيضاء للكفار والثياب البيض للمسلمين. وأقام خواتين الخان وخواصه في الأقبية على قبره أربعين يوماً، وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة. وصنعت هناك سوق يباع فيها ما يحتاجون إليه من طعام وسواه. وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة فعلها سواهم في هذا العصر»⁽²⁾.

وهكذا فقد كان من الأكثر موضوعية بالنسبة لدويلهوفر أن يعتمد شهادتي ابن فضلان وابن بطوطة فهما أحدث عهداً وأكثر مصداقية إذا اعتمدنا على المشاهدة العينية وارتبطت الثانية منهما ارتباطاً مباشراً بالمعادن النيوركية القديمة.

1- من كتاب أحمد بن فضلان بن العباسي بن راشد بن حماد، رسول المقتدر إلى ملك الصغرى (مصدر سبق ذكره) ص 314

2- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. مؤسسة الرسالة بيروت 1401 هـ، 1981 م ج 3 ص 2، ص 735-736 (وخانث بالق هي بكين حالياً والخنسا هي هناك شو).

وأخيراً فربما كانت هذه «المركزية الغربية» هي التي صرفت ذهن المؤلف عن نقطة أساسية في معرفة وقراءة معظم اللغات التي تناولها كتابه وهي معرفة القارئ للغة العربية كطريق إلى فك رموز الكتابات القديمة فوق أراضيها. فهو يلح على معرفة هؤلاء بالمصرية والقبطية والسريانية ولا يذكر العربية إلا عرضاً. وقد أثبتت قراءة شامبليون للهيروغليفية المصرية وباوير للأوغاريتية ودورم لأبجدية جبيل وقراءة البابلية القديمة والحثية أن معرفة العربية كانت القاسم المشترك بين جميع القارئين. وبتبها لنا أن المستشرقين قد أدركوا هذه الحقيقة عندما فتحوا القمم فسارعوا إلى إغلاقه بمجرد أن أدركوا ما يحتوي عليه من قوة وجبروت، وحاولوا ترويض «المارد» أو توجيهه الوجهة التي يريدون وبخاصة من ذلك وضع الفاصل الذي يلغي أي علاقة بين العربية وهذه اللغات القديمة على العموم، وبين المصرية القديمة بشكل خاص، وقد أثبتت التحليلات السياسية المعاصرة أن أهم ما تسمى الأوساط الاستعمارية إلى تحقيقه هو إحداث أكبر فجوة بين مصر والعرب.

فعلى الرغم من أن اكتشاف المصرية قد تواكب مع بدايات التنافس على الثروات العربية (والأثرية من بينها) فقد اتفق المستعمرون جميعاً على ضرب الحصار على المصرية وإعلانها لغة فريدة متفردة نبتت وأورقت وأزهرت ثم قضت وبادت ضمن حدود وادي النيل⁽¹⁾. والمعجم الرائد الذي كتبه العالم المصري أحمد كمال شاهد على هذا الحصار. لقد تعلم أحمد كمال في مدرسة الألسن وعمل في مصلحة الآثار حتى أصبح أميناً للمتحف المصري ودرس المصرية القديمة ونال عضوية المجالس اللغوية، وقد أعلن في بداية هذا القرن الأصل الواحد للمصرية والعربية. وبدأ كتابة معجمه الذي استغرق عشرين سنة من البحث وأخرجه في 22 جزءاً يتضمن كل منها أحد الحروف

1- لإضفاء المزيد من الخصوصية على المصرية القديمة وقطع علاقتها بالعربية تعلن الأدبيات الأوروبية، والدراسات المصرية الدائرة في فلكها، أن هذه اللغة تعود إلى الأسرة السامية - الحامية أو هي تحتوي عناصر من اللغات الحامية (على حد تعبير الأكاديمي ف. ستروفي في مقدمته لهذا الكتاب). وقد نصدت دراسة الدكتور على فهمي خشيم «آلهة مصر العربية» لهذه الأقاويل ودحضتها فأثارت بذلك ولا تزال تثير عواصف من الاستنكار لأنها قلبت الدراسات السابقة رأساً على عقب أي بمعنى آخر - أعادتها إلى نصابها وأعادت المصرية إلى أرومتها الأولى وافترضت أنها ربما كانت المنبع الأول للغات العربية انظر دراستنا حول الكتاب في مقال: «آلهة مصر العربية»، أو «رحلة البحث عن الجذور والأصل الواحد» مجلة الموقف الأدبي، دمشق 1994 العدد 279 ص 46-22

البيروغليافية، أما حرف السين فتضمن المجلد الخاص به 1072 صفحة من القطع الكبير حافظة بالمعلومات والمقارنات والملاحظات ودفع بالمعجم لوزارة المعارف لطبعه فأحيل جزء منه (وهو المتضمن حرف القاف) على مدير المطبوعات، وكان إنكليزياً فأحاله إلى كبير الأبناء بمصلحة الآثار وكان إنكليزياً وأشرك في الموضوع عالماً فرنسياً كان يشتغل في مصلحة الآثار، فكان ذلك كله سبباً في القضاء على المعجم وطيه في زوايا النسيان⁽¹⁾. بل لقد عوقب المؤلف نفسه بالنسيان والإهمال، وعندما توفي سنة 1923 تفردت دمشق بتأبينه وإحياء ذكره، بينما تواصلت الجهود من أجل إعادة الحياة إلى عمله العلمي الجليل. وقد نشرت «الأهرام» بتاريخ 12-3-1992 رسالة في صفحة «بريد الأهرام» بعنوان «نداء الأحفاد» وهذا نصها: «ترك المرحوم أحمد باشا كمال، أول عالم آثار مصري، قاموساً أجدباً لكلمات اللفظة البيروغليافية ومعانيها باللغتين العربية والفرنسية يشتمل على أكثر من عشرين جزءاً. ورغم مضي وقت طويل على وفاة المؤلف ما زال القاموس مخطوطاً. ويعلم العديد من علماء الآثار المصريين بوجود هذا المخطوط ويدركون أهمية نشره.

ويقتضي نشر هذا المخطوط مراجعته في ضوء ما حدث من تقدم في علم اللغة المصرية القديمة منذ تأليفه وحتى الآن، كما يقتضي توفر التحويل اللازم. ولا يمكن أن يتولى هذا الأمر سوى جهة قادرة علمياً ومالياً على تحمل أعباء نشره. وقد رحبت بعض الجهات الأكاديمية بنشره، غير أن عدم توفر التمويل اللازم لديها وقف عقبة في سبيل النشر. ويهيب أحفاد المؤلف رحمة الله عليه، بالجهات المعنية أن تبادر إلى تحمل مسؤولية إخراج هذا العمل العلمي الضخم الذي بذل المؤلف في إعداده ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً ليخرج إلى حيز الوجود خشية اندثاره.

من الأحفاد

هدى عمر البارودي

ثم ظهرت بشائر هذا «الإحياء» في أعمال ندوة «الوحدة والتنوع في اللغات العربية» التي عقدها مجمع اللغة العربية الليبي في طرابلس بتاريخ 25-28-2004 في الورقة التي تقدم بها الدكتور لزي محمد سعيد محمود (مصر) بعنوان «أحمد كمال باشا ومنهجه الرائد في

1- النظر: د. علي فهمي خسيم؟ ألها مصر العربية المجلدان 1-2، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ودار الأفاق الجديدة - الدار البيضاء، ط 1، 1990، ص 190-193.

التقريب بين العربية والمصرية القديمة؛ ثمن فيها عالياً جهود العالم الكبير واتساع علومه ونفاذ نظركه، كما أكد على الأهمية الخارقة للعادة للعمل الكبير الذي قدمه والذي، على الرغم من توالي السنين، لم يطبع منه إلا الجزء الأول فقط. وقد حمل الباحث نسخة منه ليقدّمها إلى الندوة.

ومثلما طمس كتاب أحمد كمال طلمست أي فكرة للعودة بالمصرية إلى أصولها المنطقية وعكف العلماء على دراستها كنبت عجيب لا علاقة له بما يجاوره. وساعد على ذلك، أو أسس لذلك، الهمنة الطاغية للدراسات الأوروبية «وقد بلغ من سيطرة اللغات الأوروبية على البحث في تاريخ مصر وحضارتها أن المجلة الرسمية التي تصدر عن هيئة الآثار المصرية في القاهرة تنشر البحوث فيها باللغات الأوروبية، وبأقلام دارسين عرب حتى يومنا هذا. وقد اعتبر تقديم ملحق قصير بالعربية ليمض ما نشر من دراسات في هذه المجلة «ثورة» جديدة بالتقدير والإعجاب¹». وهكذا صارت الرموز الهيروغليزية التي تكتب من اليمين إلى اليسار أو من الأعلى إلى الأسفل تكتب من اليسار إلى اليمين وهو ما عكس صورها، وأبدلت ضادها وظاؤها بالدال والزاي.

وبما أن المصرية تعتمد في كتابتها - شأن جميع الكتابات العروبية - على الصوامت فقد حرك العلماء الأوروبيين هذه الصوامت على هواهم. أما الأسماء العروبية العريقة فأسقطت عليها طرق غريبة في اللفظ وصيغت صياغة يونانية فرع - مس (ابن الراعي) وازر وعزة ومنف وحر أصبحوا بمشينة العلماء الأوروبيين ومن جر جرهم من محبي الجرس «الخواجاتي» من العلماء العرب رمسيس، أوزيريس، إيزيس، منفيس وحورس حتى لو سمعها أصحابها القدماء لسألونا مستنكرين: ما المقصود بهذه الأسماء؟ ومع توالي السنين ترسخ في أديباتنا وعقولنا ما يشبه المسلمة وهي أن المصرية لفة غريبة عنا، ذاتية في ذاتها، ننظر إلى نقوشنا بإعجاب ودهشة وإنكار دون أن نشعر بأنها جزء منا. فكان ذلك بمجموعة أساساً للنظرية «الفرعونية» التي حاولوا غرسها في التراب المصري وغرس «الفينيقية» على الساحل اللبناني.

والغريب أن هاتين المنطقتين من أقصى المناطق عروبية إن صح التعبير فالتوضع الجغرافي وحقائق التاريخ تثبت أن الأرض الأكثر عروبية فوق خارطة العربية هي مصر، فهي تقع من الجسد العربي في الصميم، ولعها الأرض الوحيدة التي تحيط بها الأراضي العربية من جميع

1- د علي فهمي خنيم، آله مصر العربية (مصدر سبق ذكره)، المجلد الأول، ص 8.

جهاتها، ومع ذلك فلعالم الغربي الذي يقطع، في تحليل كلمة من اللاتينية أو الإنكليزية، مسافة تمتد من لندن أو باريس إلى كلكتونا بحثاً عن الأصل السنسكريتي للكلمة، يستقل قطع هذه المسافة القصيرة بين مصر وجارتها في ليبيا أو اليمن أو الشام لتحقيق الهدف نفسه وهو البحث عن أصل الكلمة المصرية. أما بالنسبة للمناحل اللبناني فإن قارئ كتابته (في جبيل) انطلق من مسلمة لم يعرضها لي نقاش، وهي أن المنطقة سامية أصيلة لم تخضع لأي تأثيرات غريبة وانطلاقاً من هذه المسلمة استطاع قراءة الحروف العربية لأبجدية جبيل في أيام معدودات.

ومما يستوقف النظر في قراءة الأبجديتين - الأوغاريتية وأبجدية جبيل - هو السرعة القياسية التي تمت بها تلك القراءة، والذي يحيي في الذاكرة كتاب كبير المؤلفين العرب في تاريخ الكتابة وفنونها، أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، المصري (1355-1418 م) الذي عاصرت حياته شواهد الحضارة المصرية العريقة ومناظر كتاباتها ونقوشها الجميلة، وفيها ألف كتابه الأشهر «صبح الأعشى في كتابة الإنشاء» في أربعة عشر مجلداً، وهو «موسوعة» وافية بكل ما يتعلق بالكتابة، بداية من المواد المستعملة فيها وحتى فنونها البلاغية والأسلوبية وقد نشر الكتاب سنة 1913، أي قبل زمن طويل من قراءة الأبجديتين المذكورتين.

وفي المجلد التاسع من «صبح الأعشى» يطرح المؤلف قضية «افتراضية» تتعلق بكيفية التصرف إزاء نص كتب بحروف مجهولة ويسمي ذلك بالتممية⁽¹⁾ ويعتمد فيه على ابن الدريهم، وسواء أكانت كتابة النص حديثة أم انتهت إلينا من خلال الحفريات الأثرية فهي قد أنجزت - وفق تعريف القلقشندي - «بقلم اصطلح عليه المرسل والمرسل إليه لا يعرفه غيرهما⁽²⁾». وقبل أن يستعرض المؤلف مناهج قراءة النص يتوقف بكثير من التفاصيل أما «مذاهب التعمية» وطرقتها كـ «أن يكتب النص بالأقلام القديمة التي ليست متداولة بين الناس ص (231) أي ما نسميه بالأبجديات القديمة أو أن يصطلح الإنسان مع نفسه على قلم يبتكره (ص 232) الخ. ويرى أن الناظر في الحل يحتاج إلى أصلين: الأول معرفة الأس الذي يترتب عليه الحل (ص 234) وهو ما يحتاج إلى سبعة أمور وتبدأ بمقادير حروف الكلمة

1- القلقشندي كتاب «صبح الأعشى». المجلد التاسع. دار الكتاب الخديوية طبع بالمطبعة الأميرية (1330

هـ. 1913 م). ص 230

2- المصدر السابق، ص 231

صُدَّ عَنِّي فَلَا تَلْمَ يَا عَذُوْبِي لَسْتُ أَسْلُوْهُ هَوَاهُ حَتَّى الْمَمَاتِ
لَا تَقْلُ قَدْ أَسَاقَيْ الْوَجْهَ مِنْهُ حَسَنَاتٌ يَدْهِنُ بِالسَّيِّئَاتِ
هذا البيان لمصنف هذا الكتاب، علي بن الدريهم الموصلية⁽¹⁾.

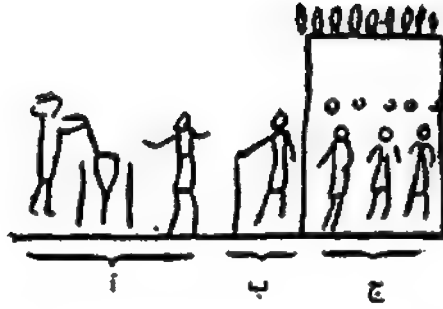
ويضيق بنا المجال عن إيراد تفاصيل ما ذكره القلقشندي حول هذه النقطة في كتابه، ويمكن لمن يأنس في نفسه الرغبة في الاستزادة من هذه التفاصيل العودة إلى المصدر المذكور لكننا نؤكد - ونحن نؤذي اصدق واجبات الاحترام والتقدير لكل من العلماء الأجلاء باوير وفيرولو ودروم الذين حدسوا منذ البداية بأنهم يتعاملون مع لغة سامية - على أن مناهج قارئي الأبجديتين القديمتين - الأوغاريتية وأبجدية جبيل - قد تشابهت حتى حدود التطابق تقريباً مع الطريقة التي نصح بها صاحب «صبح الأعشى» لقراءة النص المعنى الافتراضي المكتوب بالعربية - اللغة السامية في أعلى ذرى تطورها. فهل يفسر هذا بالمصادفة أم بالتداعي أم بوقوع الخاطر على الخاطر وقوع الحافر على الحافر؟


الأبجدية هي المرحلة الختامية في مراحل تطور الكتابة الإنسانية عبر العصور. وكان الوصول إليها انعطافاً حضارياً بالغ الأهمية، فتحدد هذا العدد القليل من الرموز المعروفة بالأحرف يسر الكتابة ومكن بالتالي من تدوين المعرفة الإنسانية وتوريثها للأحفاد ليستفيدوا منها ويطوروها ويضيفوا إليها معارف وخبرات جديدة جيلاً بعد جيل، وبهذا يتحقق التراكم العلمي المعرفي - أساس التقدم الحضاري الإنساني. وبهذا يكتسب ابتكار الأبجدية أهميته وخطره. وإذا كان يبدو لنا الآن أمراً في غاية البساطة التي تجعل بعضهم يسميه «اكتشافاً» فإن في ذلك سر عبقرية ذلك الابتكار المصيري الذي يتوحد، في بساطته وعفويته، مع البدايات الكبرى التي قامت عليها أهم النظريات العلمية. يقول الباحث العالمي جورج بيرو إن اكتشاف الأبجدية كان حدثاً مهماً جداً لا يمكن مقارنته بأي حدث آخر من تاريخ الجنس البشري وهو أعظم من ابتكار الطباعة، إذ إن تحليل الكلام وإرجاعه إلى عناصره الأولية، يحتاج إلى عمل فكري عظيم⁽²⁾.

والحق إن هذه العملية بإرجاع الكلام إلى عناصره الأولية يمثل آخر عمليات التجريد في مسيرة التطور الطويلة التي قطعها الكتابة منذ بواكير المرحلة التصويرية (البيكتوغرافية) وحتى مرحلة التحليل الذي عبر عن الصوت برمز.

1- المرجع السابق، ص 244.

2- أبجدية اوغاريت، حدث مهم في تاريخ البشرية «تشرين»، دمشق، 28-4-2004.



ويحفظ أوفر من التبسيط يمكننا أن نمثل على ذلك بالنسبة لكتاباتنا المحلية بالصورة المعروضة في الكتاب، والتي تم التمييز فيها عن إخبارية «بنى كبير الموظفين قاعة» بتصوير النشاط نفسه أي (بالكتابة التصويرية الأولى، انظر صفحة 102 من الكتاب). وبعد تطور امتد أحقاباً زمنية طويلة اتخذ التعبير عن هذه الإخبارية صورة أخرى لدى تحليل أصوات هذه العبارة وإعطاء كل صوت رمزاً خاصاً به بحيث يتكرر هذا الرمز نفسه في الكلمات المختلفة كرمز الباء في كلمتي «بنى» و«كبير». وذلك هو المنطلق الأساسي لابتكار الأبجدية التي تقلصت رموزها إلى عدد قليل جداً يعادل الأصوات المنطوقة في اللغة، ويفض النظر عما إذا كان الرمز الذي يمثل الصوت المنطوق واحداً في اللهجات أو التنوعات المختلفة للغة الواحدة. فالكنمانية الواحدة في أوغاريت وجيبيل اتخذت أبجديتين، والمصرية القديمة المرتبطة بأشد أواصر القربى بالكنمانية اتخذت لأبجديتها رموزاً خاصة أيضاً فاتخذ حرف الباء هذه الصورة  في الأوغاريتية  في أبجدية جيبيل وهذه  في المصرية. كما صارت الأبجدية الواحدة تستخدم في عصرنا لكتابة أشد اللغات اختلافاً كالأبجدية اللاتينية (المنحدرة من الكنمانية القديمة) التي تكتب بها الإنكليزية والتيوركية والفيثامية وما يعادل ثلث كتابات العالم.

غير أن ما يجب مراعاته هنا هو أن هذا التحليل الذي «يحتاج إلى عمل عظيم» لم يكن طفرة مفاجئة ولا حدث بالمصادفة، بل قام على أساس من التجارب والخبرات الطويلة وعلى «أكوام» لا نهاية لها من المخطوطات التي كتبت أو نقشت على الحجر أو الخشب أو المعدن أو الطين المشوي أو ما لا نعلمه من مواد كتابية أخرى «تراكمت» فوقها تجارب الكتابات التصويرية فالإيديوغرافية فالمقطعية وما سواها حتى انتهت بالكتابة الأبجدية التي ظهرت في فترات متقاربة لدى أجدادنا في مناطق مختلفة من الأرض العربية،

وكانت تنوعات لكتابة عريقة واحدة تعود بدورها إلى تنوعات لهجوية للغة العروبية القديمة الأولى.

كان من الصعب أن يتحقق كل هذا التراكم إلا لدى أمة عريقة تمد الكتابة والتوثيق ونقل التجارب إلى الأجيال واحداً من أسباب وجودها ولهذا ولدت الأبجدية أو «الأبجديات» في أرض العرب فكانت الحصاد الحضاري لجهود كثيرة تواصلت عبر الزمان. وبهذا يلتقي ابتكار الأبجدية بسبب من الأسباب مع ابتكار الصفر الذي كان بدوره خلاصة جهود طويلة بذلها الأجداد في تطوير العلوم وبخاصة الرياضيات. ومنذ نهاية عهد ما قبل التاريخ عكف علماء مصر على هذا العلم وكانت مشكلاتهم الرياضية عملية قبل كل شيء، وبدا التعميم والتجريد لديهم منذ أوائل معلوماتهم الرياضية خلال زيارتهم لمصر. واستطاع المصريون بطرقهم الخاصة حساب حجوم الأهرامات وحسبوا مساحة الدائرة وعرفوا ال π وطبقوا الرياضيات على العلوم الفكرية، وخطا علماء ما بين النهرين خطوات واسعة في هذا المضمار وتوصلوا إلى ما اصطلح عليه بنظرية فيثاغورث وحلوا قبل أكثر من ألف سنة من مولد ذلك العالم اليوناني الجليل، وعرفوا بدقة الأشكال الصحيحة المتعددة الزوايا وحلوا من خلالها عدداً من مشكلات الهندسة، واقتربوا من فهم الصفر في الترقيم ودرسوا جبر المعادلات الخطية والتربيعية، ولا يزال نظامهم الستيني في حساب الكسور وتقسيم الدائرة. ثم تواصل ذلك التراكم المعرفي الكبير في جهود العلماء العرب المسلمين الذين جعلوا العلم نوعاً من العبادة. أما من الناحية العملية فقد كانت الدواوين المتطورة وحركة التجارة العالمية الواسعة وأعمال البناء والزراعة والري تتطلب جهوداً رياضية كبرى.

وتميزت مدرسة بغداد الرياضية بكونها المركز الذي تنتهي إليه مساهمات أعداد كبيرة من مشاهير العلماء. وبهذه المدرسة يرتبط النظام العشري للأعداد ويعد واحداً من أكبر إنجازاتها. وينسب رسم الصفر في صورة دائرة صغيرة «0» لأبي عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي (787- حوالي 850 م). وكان وضع الصفر حجر الأساس في ترسيخ النظام العشري الذي يقوم عليه نظام الترقيم العالمي الحديث.

ف «ثورة الصفر» في الترقيم شبيهة بـ «ثورة الأبجدية» في الكتابة بفضل ما وصل إليه كلاهما من التجريد. وبفضلهما صارت الكتابة مبسطة مكثفة تستخدم أعداداً محدودة من الحروف والأرقام تقل بكثير عما كان معمولاً به في السابق. ومما يشار إليه بهذه المناسبة أن التعمص كان أحد الأسباب التي أخرت استخدام الترقيم العربي الجديد في أوروبا إلى أن قام العالم الإيطالي ليوناردو البيشاني (1180-1240 م) والمعروف باسم فيبوناتشي (*Fibonacci*)

ابن بونانشي)، وقد ولد في بيزا، المركز التجاري الكبير في تلك الأيام. وفي نهاية القرن الثاني عشر كان أبوه تاجراً في بجاية (بالجزائر)، وهناك تعلم ليوناردو الرياضيات على أيدي المعلمين العرب، وزار بعد ذلك مصر والشام وبيزنطة وصقلية، وكان مؤلفه الأساسي الأول *Liber abaci* وقصد به «كتاب الحساب» وجملة وسيلته لنشر علم الحساب الجديد وغيره من المعلومات الرياضية في أوروبا. ويتضمن خمسة عشر فصلاً خصص الخمسة الأولى منها للحساب على أساس الترقيم الجديد، ولكي يطلع المؤلف قارئه على أفضليات هذا الحساب قدم بعض الأعداد المكتوبة بالطريقة والأرقام اللاتينية التي تعبر عن العشرة بـ X والمئة بـ C والألف بـ M بالطريقة العربية:

MI	MMMXX	MCXI	MMMMCCXXI
1001	3020	1111	4321

فكيف إذا كانت الأرقام بالملايين⁽¹⁾.

وأخيراً فقد تعرض أ. دوبلهوفر في كتابه هذا للكشوفات الأثرية في أراض يقع معظمها في بلاد العرب وتطرق للغات أعانت اللغة العربية على اجتلاء أسرارها، ولهذا نتساءل عن سبب هذا الموقف المتحامل الغريب الذي يقفه المؤلف من العرب. وإذا كان المؤلف، على العموم يبدي إعجابه وتعاطفه مع تربية الإنسان الشرقي فإنه يقصر الجانب التطبيقي لهذه التربية على الإنسان التركي أو الإيراني. وإنما نقر المؤلف على ذلك التوكيد على التربية الخلقية الإسلامية التي تلقاها إخوتنا في تركيا وإيران وتتجلى في مسلكهم نحو الغريب. ولكن أتختلف تربيته العربية حقاً عن تربية جيراننا وأبناء أرضنا وإخوتنا في الدين؟ وما الذي يدفع المؤلف إلى تبديل لهجته بمجرد أن يتحدث عن أرض العرب التي يصف أبناءها - في سورية ومصر - بالتمصب الشديد، ويصف جزيرة العرب بالأرض غير المضيفة والموصدة الأبواب أما عرب ما بين النهرين فيشير إلى أيديهم الممدودة بطلب البخشيش بينما يميز اليمن بعدوانية سكانها المحليين، ولهذا الأسباب لا يخرج - في رأيه - غير رحالة قلائل من «جحيم» الجزيرة العربية. وفي الصفحة الأخيرة من الكتاب يودعنا بصورة «الجزيرة العربية التي تروت رمالها المتلظية بدماء الباحثين البواسل، وهذه الصفات والمواقف التي وسمنها المؤلف بها وسجلها علينا تتناقض مع كل شهادات الزوار والأوروبيين إلى بلادنا في

1- انظر الفصول الثلاثة الأولى «عهد ما قبل التاريخ»، «مصر القديمة وبابل»، ما بين النهرين القديمة من الباب الأول، والفصلين الثالث «بلاد الإسلام، الخلافة العربية»، والرابع «أوروبا العصور الوسطى» من الباب الثاني في المجلد الأول من: تاريخ الرياضيات في ثلاثة مجلدات (بالروسية). دار نشر «ناووكا»، موسكو، 1970.

العصر الحديث، ومن كتبوا عنها حتى إبان الحروب الصليبية، مثلما تتفاقم جذرياً مع رقة وشاعرية وأخلاقية المقتطفات الموجزة التي أوردها في كتابه هذا عند ختام كل فصل فتحدثت عن الأجداد في مصر، ما بين النهرين أوغاريت، وأسست لـ «مكارم الأخلاق» منذ أقدم العصور. أما الباحثون «البواسل» الذين تروث رمال جزيرتنا بدمائهم فالكاتب لم يكلف نفسه ذكر اسم واحد منهم على الأقل، أما نحن فننتذكر جيداً أن لقاءات العرب بهؤلاء «البواسل» لم تتفصل عن لقاءاتهم بجميع الحملات الفريية التي ابتلينا بها منذ بدايات العصر الحديث، وبدأت بالفزو النابليوني لمصر لتتواصل في كل المذابح التي أسس لها «وعد بلفور» وتضاعفت ضراوتها بعد «وعد بوش» وأخيراً فيما يجري في العراق حيث تختلط مذابح البشر بمذابح الآثار.

الكتشفات الأثرية ومعانيها البعيدة

كانت «المركزية الغربية» حاضرة في كتاب أ. دولهوفر وفي موقفه من العرب، لكنها لم تلبث أن تراجعت بعد قراءة الأثار المكتشفة وبعد أن تبين أن هناك مركزية أخرى يمكن أن نسميها «مركزية الشرق العربي» التي تفرض نفسها بتلقائية وموضوعية عندما يدور الحديث عن الإشرافات المبكرة للحضارة والبدائيات الأولى للتاريخ الإنساني. ويضيق المجال إذا ما أردنا الحديث عن الإسهام المصري في الحضارة الإنسانية، عن أصالة ذلك الإسهام واعجازه. حسبنا القول إن هناك من يلتمس لذلك تفاسير «انتحارية» وصلت إلى القول باحتمال أن تكون ثمة مخلوقات كونية أعلى قد هبطت إلى الأرض فأقامت حضارة مصر ثم غابت. أما ما بين النهرين فهـ إذا كانت الرياضيات والمجلة.. والشكل الأول للكتابة.. قد ولدت في سومر، فإن تنظيم الإمبراطورية إدارياً وتعيين الحكام والولاة كان من نصيب الآشوريين. أما البابليون فقد أورووا الإنسانية أول شريعة في العالم⁽¹⁾.

وقد صارت هذه الحقائق من المسلمات ومن الحجج التي يتقدم بها العقلاء عندما يضطرب ميزان العدل وتعمي القوة عيون البعض عن رؤية الحق. فقد قدم السيد دوفيلبان نصيحة ثمينة للإدارة الأمريكية في «مشروع الديمقراطية» لمنطقة سميتها «الشرق الأوسط الكبير» وذكر في مجموع ما قاله «بأن قيم الديمقراطية عريقة في الثقافة العربية نضيف إلى ذلك أن حضارة ما بين النهرين وبلاد الشام أسست للحضارة القديمة التي تلتها. فحجر حمورابي المروض في متحف اللوفر يسجل أول القوانين الإنسانية، وملحمة جلجامش تسجل

1- جوان فارشاك عشية غزو العراق العراق بين الأثار واللصوص. ترجمة عبود كاسوحة مجلة «الآداب الأجنبية» عدد خاص عن حضارة العراق دمشق، العدد 116، خريف 2003، ص 157.

أسطورة الطوفان، وفي متحف بغداد شواهد عن دراسة المثلث قبيل فيثاغورث وعلى حساب محيط الدائرة⁽¹⁾. أما أوغاريت فعلى وفرة ما عثر عليه من مكتشفات أثرية في أرضها. فقد تميزت بمآثرها الكتابية، ومكتبتها العامرة ووفرة نصوصها الدينية والأدبية والعلمية والحقوقية والدبلوماسية الذي يعد تكريماً للمدينة المجيدة التي امتدت مملكتها على الساحل الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. تحدثت هذه النصوص بموثوقية وصدق بحقائق قلبت فيما بعد الكثير من المسلمات والمفاهيم وأثبتت «أن الكنعانيين هم أسمى من أن يكونوا مجرد رجال تجارة وملاحة كما كان الاعتقاد سائداً حتى اليوم⁽²⁾. لقد كانوا أهل فكر وتأمل وعلم وشعر. ومآثرهم لا تنتهي أيضاً عند حدود الكتابة الأبجدية على الرغم من عظمة هذه المأثرة وأهميتها في تاريخ البشرية الحضاري فـ «الأطفال اليوم في عدد كبير من بلدان المعمورة يتعلمون استظهار الأبجدية بالترتيب الذي اختاره لهم كاتب من أوغاريت منذ أربعة وثلاثين قرناً⁽³⁾».

كما أن نصوص أوغاريت العريقة كشفت أيضاً «وبصفة نهائية تلك التربة الكنعانية التي ترعرعت فوقها ديانة قدماء الموسويين وبكلمة أدق انكشف المصدر الأول والأساس الفكري والفني لما كان يعد بداية كل البدايات وهو «العهد القديم» وكان المؤرخ فيليب حتي قد أشار إلى ذلك في كتابه (تاريخ سوريا) بقوله:

«... الكثير من خير ما تركه الأدب الكنعاني اقتبسه العبرانيون ودخل في كتاباتهم المقدسة. وينطبق هذا خاصة على القطع الفنية والحكم التي استعارها سفر المثل والمزامير وتشيد الإنشاد... ولم يكن هذا الأمر معروفاً إلى أن اكتشفت أوغاريت⁽⁴⁾».

وقد تبه العالم الفرنسي هـ. أ. ميديكو إلى هذه الحقيقة منذ أول كشوفات أوغاريت، وعلى أساسها ألف كتابه «التوراة الكنعانية Bible Cananneene» وقدم له ر. جويلان أستاذ تاريخ الحضارة البيزنطية في السوربون. ويقول المؤلف في مقدمة كتابه: «لم يكن السبب في اختيار عنوان هذا الكتاب يكمن فقط في أن العديد من المواد الواردة في كتابات رأس شمرا عادت ووردت في التوراة العبرانية. لم يكن هذا وحده هو السبب، بل لوحظ أن الكاتب

1- د. ناديا خوست نصيحة ثمينة صحيفة «نشرين»، زاوية «أفاق»، دمشق 28-2-2004.

2- جبر الجبل سعادة أبحاث تاريخية وأثرية. ثر سلمان حرشوش دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

دمشق 1982 ص 88.

3- المصدر السابق ص 94.

4- أخذ المقطع من كتاب: هليز مقدسي، بعل وموت (ترجمة). دار الأبجدية، دمشق 1990 ص 26.

الكنعاني كان يعتبر، على الأغلب، أن هذه النصوص تشكل توراة. فهناك ملاحظة تقول إن هذه النصوص كتبت «لكي يتعلم الشباب»⁽¹⁾ أي ذلك الكتاب الموجه لتعليم الشبيبة وتحديد مسلكها نحو مختلف مواقف الحياة وقضاياها من العمل والعبادات والحرب والسلام والمسكن والخدمة والملابس والحلي والزواج والولادة والموت وتقديم القرابين ومن الأطعمة والأشربة والأسفار وما إلى ذلك وهو ما يؤكد الأصل الكنعاني لا للنصوص المأخوذة فقط بل وللجنس الفني نفسه. وهذا ما يدخل بمجموعه في سياق ما استقاه أو انتحله أو سطا عليه اليهود ثم ادعوه لأنفسهم ضمن ما ادعوه من الإرث العروبي القديم، وقد نبه اكتشاف أوغاريت إلى ذلك بصفة لم تعد تناقش في «لم يتردد مؤلفو الكتاب المقدس، حسبما تشير الترجمة المسكونية للكتاب المقدس.. أن يستقوا معلوماتهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من تقاليد الشرق الأدنى القديم، ولا سيما من تقاليد ما بين النهرين ومصر والمنطقة الفينيقية الكنعانية»⁽²⁾، وهذا الأخذ أبعد من أين يكون اقتباساً لفكرة. يقول كرامر، أحد أكبر المختصين في هذا الموضوع، إن «المطابقة بين نشيد الإنشاد وأصوله السومرية - الكنعانية ليست إجمالية أو عمومية بل تمس طبيعة الجمل والصور والموضوع والفكرة»⁽³⁾. وهذا ما يفسر ظاهرة أخرى تتمثل في الحكم والأمثال والصور والتشابه الفنية التي نلتقي بها على صفحات هذه الأسفار الدينية القديمة ونستغرب لماذا تبدو لنا مألوفة مأنوسة فإذا تعمقنا في محاولة تحليل ذلك تبين لنا أنه الموروث الشعبي الأوغاريتي القديم الذي لا يزال حاضراً في تكويننا الروحي والمعرفي توارثناه عبر الأجيال مثلما لا تزال حاضرة في لهجتنا تراكيب ومأثورات ومقولات وأمثال لا تزال مستخدمة منذ آلاف السنين كخصوصية استخدام الجمع السالم (المذكر والمؤنث) وضمير أنت بدلاً من أنت وأسم بت بدلاً من بنت وأفعال عين بدلاً من نظر وظفر بمعنى طرد وشلح بمعنى خلع وزت بمعنى رمى ولطش بمعنى ضرب ومثل الأرض البعلية أي غير المروية والتي تعتمد في ريعها على الرب بعل القديم، وما ذقت الدجن منذ الصباح، هو القمح، وكان له إله، بمعنى: ما ذقت قمحاً أو شيئاً من مشتقاته وهكذا.

1- انظر هـ. ا. ديل مبيدكو «التوراة الكنعانية» (من خلال النصوص المكتشفة في رأس الشمرة)، تر جهاد هوش وعبد الهادي عباس دار دمشق دمشق 1988 ص 27 وقد وجدنا عنوان الكتاب بالفرنسية (مع اغفال عام النشر) في الهامش رقم 58 من ترجمة فايز مقدسي (بعل وموت) انظر الهامش السابق، ص 63 وهو Le Bible Cananeenne H.E Del Medci. Payot Paris

2- عن فايز مقدسي بعل وموت (المرجع السابق) ص 26-27

3- (المرجع السابق) ص 34

والعودة إلى الموروث الشعبي، المخزون النفيس العريق الباقي من تاريخ الأجداد الطويل، تمثل لفظة بالدلالة وردت في دراسة الباحث الدكتور خالد النايف ضمن حديثه عن تفرد الفريين، ولفترة طويلة، ببحوث وادي الرافدين، وهو ما تمخض عنه ألوان من المعرفة «غير أن هذه المعرفة كانت نتاج الدراسات الغربية، ولم يكن للمراقبين أو للعرب إلا دور ضئيل في الضلوع بها. ربطت حضارة وادي الرافدين في هذه الدراسات بالحضارة الغربية، ولا شك أن جزءاً من هذا الربط جاء بتأثير الإيديولوجية المسيحية، التي استوعبت أيضاً، تراث المهد القديم، أي عملياً التوراة، وبالتالي كثيراً ما تقيم حضارة وادي النهرين من هذا المنظور، وبالأخص فيما يخص الجوانب الفكرية، من باب المقارنة، وأحياناً التفضيل، كالتوحيد أمام تعدد الآلهة، ومن خلال التفسيرات اللغوية. باستخدام المبرية القديمة في الدرجة الأولى، وإلى حد أقل بكثير المبرية الفصحى. وكثيراً ما يخرج المرء بانطباع أن الصورة المركبة الناتجة هي ما يريده الغرب لحضارة وادي الرافدين أن تكون، في حين أنه لا تجري قط أي مقارنات مع التراث الشعبي العراقي أو اللهجة المحكية في العراق»¹.

ويعد كتاب أ. دويلهوفر «رموز ومعجزات» شاهداً محزناً على المركزية الغربية التي أشار إليها الباحث وعلى مركزية المهد القديم فيها. أما المخزون التراثي الشعبي الذي أشار إليه فهو النبع الأصيل الذي كان له دوره في تحديد الشخصية الحضارية لما بين النهرين على قرون طويلة، والذي تسري سماته وملامحه، كالتنسغ الخفي، في الأجيال عبر القرون. وربما بهذا السبب يجري تجاهله من قبل الفريين الذين يمرضون جيداً قيمة شهادة التراث الشعبي ورجاحتها. وتترك أمر مقارنة التراث الأثاري بهذا التراث الشعبي، باللهجة المحكية لأشقائنا في العراق لأنهم الأقرب إليهما. لكن من الصعب إلا تقفز إلى الأذهان بعض اللوحات التراثية التي دونها المؤرخون بالفصحى عندما يدور الحديث في هذا المضمار.

تتحدث الصحفية، باحثة الآثار العراقية، جوان فارسك، عن كبار ملوك آشور القديمة وعن التركيبة النفسية التي ميزت تصرفاتهم، وحددت طرقاتاً معينة في تعاملهم مع الغرباء ومسلكهم نحو زوارهم، وبعد أن تعدد أسماء كبار ملوك آشور وصورة من حملاتهم الحربية حتى بنوا أول إمبراطورية في التاريخ تقول: «وتميز الآشوريون بميلهم إلى البذخ، فكانت قاعات قصورهم ومعابدهم ذات أبعاد هائلة. أما النقشيات التي تصور شجاعتهم في الحروب وقوتهم في نزعات الطرد والقنص فقد نحتت من الرخام الأخضر أو الحجر الكلسي

1- د خالد النايف دالات العوان على الجذور الحضارية للعراق الأجنبي، دمشق، العدد 116 ص 22

الأبيض. وكانوا يضعون نصب أعينهم بث الرعب في قلب زائرهم وجعله يرى مدة قوة السلامين الكبار، وكان هؤلاء وعائلاتهم يرفلون في أبهى الحلل المزركشة والموشاة بالجواهر الثمينة والعاجيات الجديدة التي كأنها صنعت على أيدي أعظم الحرفيين المهرة في عصرنا. وعلى كل حال فإنهم كانوا يستقدمون الحرفيين من المدن السورية الفينيقية لإنجاز تلك الأعمال الفنية الصغيرة لصالح العائلات الملكية. إلا أن الثيران المجنحة تظل العناصر المعمارية النموذجية لفن هذه الحضارة. فقد كان من شأن الكائنات الأسطورية، وهي توضع عند مداخل المدن، أن تؤمن حمايتها من كل هجوم، حسب معتقدات تلك الشعوب⁽¹⁾.

وربما كانت هذه اللوحة من أحداث سنة خمس وثلاثئة من تاريخ «البداية والنهاية» لابن كثير الصورة التطبيقية لتفاصيل ما كان يقوم به الأشوريون لتحقيق غاياتهم التأثرية. فبعد آلاف السنين استخدم الخليفة العباسي المقتدر، في بغداد، الطريقة التي ورثها، ولو من خلال التراث الشعبي المختزن في العقل الجمعي الباطن، عن ملوك آشور، فيستعرض المشهد البالغ التنوع والثراء المؤدي إلى «بث الرعب» و«الإرهاب» في نفوس الزائرين. والذي تتضافر لصياغته العناصر الكثيرة المتنوعة من البشر والجيوش والأسلحة والمدة التامة والمراكب النهرية وارتال السباع والأهبال والزرافات والملابس المترفة والمفارش والآلات ومختلف الآنية المصنوعة من الذهب وعناقيد الجواهر الفاخرة ودقة الصناعة والتركيب في كل شيء وتقنية تسليط المياه على السحرية، كل ذلك مضافاً إلى تسيير الحوار ومخاطبة الضيوف قبل أن تجري الخلع عليه وإكرامهم:

«وفيها قدم رسول ملك الروم في طلب المفاداة والهدنة، وهو شاب حديث السن، ومع شيخ منهم وعشرون غلاماً. فلما قدم بغداد شاهد أمراً عظيماً جداً، وذلك أن الخليفة أمر الجيش والناس بالاحتفال بذلك ليُشاهد ما فيه من إرهاب الأعداء، فركب الجيش بكامله وكان مئة وستين ألفاً، ما بين فارس وراجل، غير المساكير الخارجة في سائر البلاد مع نوابها، فركبوا في الأسلحة والعدد التامة وغلما ن الخليفة سبعة آلاف... وهم في غاية الملابس والعدد والحلي والحجبة يومئذ سبعة مئة حاجب، وأما الطيارات التي بدجلة، والسمريات فشيء كثير مزينة، فعين دخل الرسول دار الخلافة انبهر وشاهد أمراً أدهشه، ورأى من الحشمة والزينة والحرمة ما يبهر الأبصار، وحين اجتاز الحاجب ظن أنه الخليفة فقيل له: هذا الحاجب. فمر بالوزير بأبته فظنه الخليفة، فقيل له: هذا الوزير. وقد زينت دار الخلافة بزينة لم يسمع

1- جوان فارشاند عشبة غزو العراق (مصدر سابق) ص 159.

بمثلتها، كان فيها من الستور يومئذ ثمانية آلاف ستر، منها عشرة آلاف وخمسمئة ستر مذهبة، وقد بسط اثنان وعشرون ألف بساط لم ير مثلاً، وفيها من الوحوش قطمان مستأنسة بالناس، تأكل فيها ماء من أيديهم ومئة سبع من السابعة. ثم أدخل إلى دار الشجرة، وهي عبارة عن بركة فيها ماء صاف وفي الأغصان الشماريخ والأوراق الملونة من الذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت، وهي تصوت بأنواع الأصوات من الماء المسكوب عليها، والشجرة بكما لها تمايل كما تمايل الأشجار بحركات عجيبة تدهش من يراها، ثم أدخل إلى مكان يسمونه الصردوي، فيه من أنواء الفارص والآلات ما لا يحد ولا يوصف كثرة وحسناً. وفي دهاليزه ثمانية عشر ألف جوشن مذهبة. فما زال كلما مر على مكان أدهشه وأخذ يبصره حتى انتهى إلى المكان الذي فيه الخليفة المقتدر بالله، وهو جالس على سرير من أبنوس، قد فرش بالديبقي المطرز بالذهب وعن يمين السرير سبعة عشر عنقوداً معلقاً وعن يساره مثلها وهي جوهر من أغزر الجواهر، كل جوهر يملو ضوءها على ضوء النهار، ليس لواحدة منها قيمة ولا يستطاع ثمنها. فأوقف الرسول ومن معه بين يدي الخليفة على نحو من مئة ذراع، والوزير علي بن محمد بن الفرات واقف بين يدي الخليفة، والترجمان دون الوزير، والوزير يخاطب الترجمان والترجمان يخاطبهما، فلما فرغ منهما خلع عليهما وأطلق لهما خمسين سقراً في كل سقر خمسة آلاف درهم، وأخرجنا من بين يديه وطيف بهما في بقية دار الخلافة، وعلى حافات دجلة الفيلة والزرافات، والسباع والفهود وغير ذلك. ودجلة داخلية في دار الخلافة. وهذا من أغرب ما وقع من الحوادث في هذه السنة⁽¹⁾.

وتزداد الصورة اكتمالاً إذا أضفنا إلى هذا ما كان يختلقه الآشوريون من القصص المبالغ فيها حول ضراوتهم وقسوتهم التي لا ترحم في التعامل مع الأعداء، وحرصهم على إذاعة هذه القصص المخيفة وتناقلها لتؤدي دورها في ترهيب النفوس قبل بدء المعارك. وهي الطريقة التي قد يكون استخدمها أيضاً المعتصم العباسي، جد المقتدر قبل أن يغزو عمورية ليحظى بمدح أبي تمام الفريدي «السيف أصدق أنباء من الكتب» ويرصمها البيت التالي الذي ربما اغترفه الشاعر من مخزون التراث الشعبي المتراكم عبر آلاف السنين:

لم يفرز قوماً ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمه جسيم من الرعب
فلنعد إلى أوغاريت قبل أن تذهب بنا بعيداً هذه التأملات.

1- الحافظ بن كثير. البداية والنهاية أحداث سنة خمس وثلاثمئة المجلد 11، مكتبة المعارف، ط 2،

بيروت، 1977، ص 127-128.

يقول أ. دولهوفر: الكشوفات الأثرية الأوغاريتية أظهرت تطابقات مذهلة بين عالم آله رأس الشمرأ وبين البانثيون الهومييري. وهكذا تأكدت فجأة التقاليد القديمة حول التأثير الفائق القوة لتعاليم الفينيقيين المتعلقة بأصل العالم والآلهة على أساطير اليونان¹ وفي هذا شيء من «تجاوز الخوط الحمراء» بالنسبة «الأولوية» الحضارة اليونانية وآلهة اليونان وأساطيرهم بدءاً من أكثر الأسماء اليونانية حميمة - بوسيدون - أبو الصيد، أثينا - الإلهة الأنثى، هيا - الإلهة هي، هرمس - حرمس: ابن الحر، وصولاً إلى زيوس، كبير الآلهة الذي لا يزال بعض العلماء ينفقون الوقت في تحليل اسمه وكان الأولي لو عادوا إلى الكلمة الكنعانية الأصيلة ضوء، ضياء والتي سمي بها هذه «الإله» المخلد².

ومؤلف «رموز ومعجزات» يختم الفصلة الخاصة بقراءة البيروغليزية الحثية بتعليق طريف ومهم ناول الصيغة لنص قره تيببي ويسارع إلى مصادرة توهمنا حول مؤلف النص أزيئا وطاس فيقول: «إنه لم يكن فينيقياً». لكن جميع الدلائل التي يقدمها الكاتب تشير إلى عكس ذلك. فأزيئا وطاس من الداناويين (الدانون «الذين تشير إليهم رسائل تل العمارنة») أي من الصميم الفينيقي و«هوميروس يسمي اليونانيين السابقين لمرحلة طروادة بداناواي، الداناويين وجدهم داناوس (مؤسس سلالة أرغوس وكان ابناً لبيولوس) عند حذف السين اليونانية يتبقى اسم بيل أو بعل). وأزيئا وطاس ينسب نفسه إلى MPS وهو اسم يحمله عرافان في الملحمة اليونانية، فهو إذاً شخصية تاريخية تثبت مدونة قره تيببي وجوده. وهذه المعلومات تجعل من أرغوس امتداداً لدانون وتحيل الحرب الطروادية إلى صراع داخلي بين هؤلاء الداناويين الفينيقيين (الكنعانيين) وبين أبناء طروادة وتبين أن المنطقة الممتدة من البحر الأسود وإلى الجنوب كانت كنعانية أو شدة التأثير بالكنعانية. فأغا ممنون (ويشي اسمه بأصله الكنعاني) هو ملك أرغوس التي أسسها داناوس أو دانون بن بعل، فهو داناوي أيضاً، وهو الذي رفض رد الفتاة السبية إلى أبيها خريس، كاهن أبولون، على الساحل الطروادي وسخر من صولجانه، بل وزاد على ذلك فحذره الاقتراب من أسطول الداناويين وقال له بأن ابنته (أي ابنة الكاهن) ستعامل في قصر أغا ممنون بأرغوس معاملة السبايا، وبذلك استنزل غضب أبولون على أبناء داناو الكنعانيين، فكان ذلك فاتحة أحداث طروادة. كل ذلك في اللوحة الطويلة التي يمبر عنها النشيد الأول من الإلياذة إذ جاء خريس يفقدي ابنته من أغا

1- انظر: د. علي فهمي خشيم، زيوس عربياً، في كتاب: د. علي فهمي خشيم، بحثاً عن فرعون العربي ودراسات أخرى، الدار العربية للكتاب طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية 1985 ص 111-128.

ممنون بالهدايا النفيسة، فبعينه آغا ممنون بكلام قاس جملة يخرج من المجلس صامتاً ليبتهل بعد ذلك للإلهة أبولون ويستعديه على الداناويين، ويذكره بما قدمه له في الماضي من خدمة واضاح. يبدأ الموقف بكلمات آغا ممنون:

قَالَ: يَا شَيْخُ فَاحْذَرِ الْقَرَبَ مِنْ قَدْ
لَيْسَ فِي الصُّوْلُجَانِ هَذَا وَلَا فِي
لَنْ تَسَالَ الْفَتَاةَ بَلْ سَوْفَ تُبْقَى
تُدْرِكُ الْعَجَزَ وَهِيَ تَسُجُّ قَمَلْنَا
وَتَلِي مَضْجِعِي قَمِّمَ وَأَخْشَ عَيْظِي
ذِعْرَ الشَّيْخِ فَانْتَبِئِي وَاجْمَأِ فِي
نَمِّ فِي عُرْزَلَةِ دَعَا وَدَعَا
رَبِّ يَا ذَا قَوْسِ اللَّجَيْنِ⁽¹⁾ اسْتَجِبْنِي
يَا وَلِيَّ السَّمِئْتِ يَا عَوْنَ كِلَا
إِنْ أَكُنْ قَدْ زَيْتَتْ هَيْكَالَكَ الْوَهَا
وَلِسَوْقِ السَّخَالِ وَالنُّوْرِ زَكِيَّ
فَبِأَبْنَاءِ دَانَوِ تَبْلُكَ الصُّ

كَي سَوَاءَ رَجَمْتَ أَمْ أَنْتَ بَاهِي
ذِي عَصَابَاتٍ رَتَهُ لَكَ وَأَقِي
بِبِلَادِي أَرْغُوسَ مِثْلَ الْبَوَاقِي
ضَمَّنْ صَرْحِي بِعُرْيَةٍ وَأَنْسِجَاقِي
إِنْ تَرَمُّ أَمِنَا لِحَاقِ الرَّفَاقِي
جُرْفِ بَحْرِ يَفْجُ فِي الْأَفَاقِي
لَا بِنِ لَأَطُونَةَ أَفْلُونِ رَاقِي
حُوقِ مَوْتِي تَبِينْدَسِ إِحْقَاقِي
وَحَرِيْسِ يَا رَبِّ خُذْ بِنَطَاقِي
جَ أَوْ مَا ضَمَّحْتِ بِالإِخْرَاقِي
سَتْ فَسَالَتْ بِشَخْمِهَا الْمُهْرَاقِي
سَمُّ لِبُقْتُكَ بِدَمْعِ هَذِي الْمَاقِي

وهذه القصة تنتهي بنا على التساؤل حول حجم الإسهام الكنعاني في النشاط اليوناني كله، وإلى أي درجة كانت الثقافة اليونانية امتداداً للكنعانية القديمة، لقد رمى الكاتب اليوناني الكبير كازنتراكي «بالتنكر للتراث القومي» عندما أعلن حقيقة الحرب الطروادية. فلنقرأ ما جاء في مذكراته عندما أشرفت مهمته في القوقاز على نهايتها: «وفيها كنت على وشك الصعود إلى السفينة جامني عجوز من بونتوس.

- قيل لي إنك مثقف يا ريس وأحب أن أسألك سؤالاً إن لم يكن لديك مانع. هل كان

الليديون الذين شاركوا في حرب طروادة يونانيين؟

1- ذو قوس اللجين: لقد من القاب أبولون، هذ بنطالي: اعني واجرني. ولي السمنت من القاب أبولون والسمنت (سمنتا) بدمع كلاً وخريسا - بلدتان، ويقول سليمان البستاني بعد ذلك «أراد بأبناء دانوس - جماعة اليونان. وسبب ذلك هو ان الكشوفات الحديثة لم تكن قد عرفت بعد. الأبيات مأخوذة من الأبيات هو مبروس معركة نظاماً بقلم سليمان البستاني الأبيات 19-30 من النشيد الأول نشر دار أحياء التراث العربي بيروت. لاث ص 208-209.

صعقت. لم أحلم أبداً أن يكون هذا الأمر بين الأمور كلها مشكلة تعذب الرجل.
أجبت «يونانيين؟ لا. أبداً. كانوا ليديين من آسيا الصغرى».

هز العجوز رأسه: «كان الآخرون على حق إذ حين أخبروني أنك تتنكر لتراثنا القومي، وداعاً!»⁽¹⁾.

ويبدو أن ذلك العجوز قد عبر عن رأي الكثيرين ممن لا يقبلون - حتى الآن - بأن تتحول حرب طروادة عن سمت المركزية الغربية الذي رسم لها.

تلك هي بعض التداعيات التي تثيرها الكشوفات القديمة في أرضنا العربية المترامية الأطراف، والحية أبداً بنبض التاريخ، تمد أنبائها دوماً بالقوة والثبات وتثبت في نفوسهم مشاعر الأصالة والتجدد. وهناك أمر كنا نتردد في تسجيله ويتعلق باللغة الإيتروسكية التي تقنعنا حجج أ. دويلهوفر بالصعوبات الكثيرة المختلفة التي تقطع الطريق على قراءتها. على أن عودة للغات التي تحدث الكتاب عنها وبدت مذهلة في صعوبتها ثم استسلمت للقراءة تدفعنا للتساؤل: ألهذه الدرجة تبدو الإيتروسكية منيعة على الحل أم ثمة سبب آخر يشير إليه اكتشاف ثم موثوقية عودة اللغتين التيوركية والمجرية المعاصرة إلى أرومة واحدة، وهو ما أثبتته القصة التي أوردها المؤلف في كتابه وختمها بتورية ساخرة قائلاً: «وعندما تبين أن الرونات السيكلية تعود بمصدرها دون أدنى شك إلى الرونات التيوركية القديمة كان طبيعياً أن يكون ذلك صدمة قوية للمشاعر الوطنية الهونية - المجرية الشديدة الاحتدام لدى سكان ترانسلفانيا الأماجيد»!

فهل نستعصي الإيتروسكية حقاً على القراءة أم يكتنف قراءتها شيء من التلكؤ تفرضه المركزية الأوروبية لاتي قد تؤذيها نظرية «هيرودوت» والقائلة بأن

1- مذكرات كازنتزاسكي 2- تقرير إلى غريكو. ترجمة ممدوح عدوان الجندي للطباعة والنشر. لا تاريخ. لا مكان للنشر الكتاب الثاني ص 160 وفي هذه الترجمة الجيدة للأديب المبدع نسب الليديون سهواً إلى آسيا الوسطى والصواب «آسيا الصغرى» فليديا القديمة تقع غربي آسيا الصغرى، خضعت بين القرنين السادس والرابع ق م للفرس ثم دخلت إمبراطورية الإسكندر المقدوني. ثم كانت - ككل سورية - جزءاً من الدولة السلوقية ومن طرائف المصادفات أن آخر الكشوفات الأثرية لهذه الدولة (السلوقية) كانت في 11-5-2004 بقرب إدلب ومن أهمها سراج نقش عليه شعار الدولة السلوقية - مرسة سفينة وسنبلة «قمح» انظر: «علام العبد. اكتشافات أثرية جديدة في كفر نبل بإدلب» «تشرين» دمشق 15-5-2004، ص 3.

الإيتروسكيين نزحوا من آسيا الصغرى وأنهم ليسوا السكان الأصليين لإيطاليا، وثبتت «دور الإيتروسكيين ذوي الأصل الشرقي»، والذي أكد عليه كبار المؤرخين في «.. تمدين وعمران إيطالية»⁽¹⁾ واستيطانها. وربما كان في هذه المودة إلى الأصول «صدمة لمشاعر» الذين يضحون في هذه المرحلة التاريخية الحاضرة حضارة «روما الأوروبية» وإرادتها وحبذا لو تأملوا قليلاً في مصدر ومعنى اسمي «روما» و«أوروبا» وفقاً للمناهج العلمية التي وضعها العلماء الأوروبيون لدراسة اللغات والحضارات القديمة.

1- د. محمد محفل عولمة أمريكا وحدادة إنسانية، مجلة المعرفة دمشق شباط 2004 من 140.

جربة الفرن

أكان الكاتب الكبير مؤنس الرزاز يسبر الزمن ويرى إلى ما سيجري بعدما يقارب العشرين عاماً عندما نشر قصته النبوية الطريفة «حياتي العاشرة»⁽¹⁾ في مجلة الكرمل عام 1986 في عمله هذا يستلهم الكاتب القصة المعروفة التي وردت بين الآيتين الـ 65 و 82 من سورة الكهف في القرآن الكريم ومزودها أن النبي موسى كان قد رافق عبداً صالحاً ليتعلم منه بعد أن وعده ألا يسأله عن أي شيء، لكن حب الاستطلاع مضافاً إلى استكثار ما رآه غلباً على المتعلم وحالاً دون التزامه بما وعد، فقد خرق مرافقه سفينة كان أصحابها قد أكرموهما، وقتل غلاماً وأقام جداراً متداعياً في قرية كانا قد استطلعا أهلها فأبوا.. وقد اعتمد فولتير هذه القصة القرآنية في فصل «الناسك» من روايته المشهورة «صديق»⁽²⁾ وضمناها بعداً فلسفياً عميقاً مؤكداً في ذلك على العبرة القرآنية وهي - قصور الإنسان عن إدراك ما تضمه العناية الإلهية وما تخبئه المقادير. كما أبقى على السمت الأساسي للقصة وهو أن القدر يجري على سنة العدل، والنتائج التي نراها أمام أعيننا تتطابق والأفعال التي تأسست عليها بغض النظر عن تقبلنا أو استكثارنا.

أما الرزاز فقد صاغ قصته بطريقة مغايرة تحدد بعدها الفلسفي منطلقات واقعنا الفاجع المعاصر: مجموعة تسير خلف «سيد» تآمر بأمره وتلتزم بطاعته ولا تسأله عما يفعل. ويكشف المشهد الأول في القصة عن بلاد الرغد والخير والأمن والسعادة. «المرأة تمشي من بيتها وعلى رأسها إناء، فلا تصل إلى بيت جاريتها إلا وهو ملآن بالفواكه و«رأينا قوماً مسالمين.. تصدح حناجرهم بالفناء ويضيء وجوههم ألق البهجة». يعمد السيد إلى تدمير ذلك العالم عن

1- مؤنس الرزاز. حياتي العاشرة مجلة الكرمل، نيفوسيا، شهر ص. العدد 19-20، 1986، ص 245-249.

2- فولتير. صديق أو القدر. ترجمة يوسف منصوب اللجنة النولية لترجمة الروائع ببيروت، 1961، ص 94-100.

آخره فلم يصادف صرحاً إلا هدمه ولا طريقاً إلا أخفى رسومه ولا قصرأ إلا معا أعلامه ولا شجراً إلا اقتلمه. أما القوم فقد أحاطهم قتلاً وذبحاً وأسرأ وسبيأ، ثم فرقهم في الأرض ببدأ، وترك ديارهم خراباً يباباً، ثم أرم بقتل المحتج على ذلك فصدعت المجموعة بالأمر وقتلت المحتج وتابمت طريقها «.. حتى أدى بنا المطاف يوماً إلى مفازة مترامية الأطراف، وقد أجدبت أرضها.. مد كل منا بصره فإذا بصبية كالدرة السنية تنفي عن القلب كل هم وغم ويلية، تجلس تحت شجرة عارية عبوس. وكانت تغرد بصوت فائن رقصت له وحوش القفار وضواربها. ودنا منها السيد فتبعناه. تأملنا الصبية عن قرب فإذا هي حامل في شهرها التاسع وضيئة الوجه..

لما رفعت عينيها ورأت السيد انتفضت كالملسوعة، ولاح في نظرتها رعب غريب.. لكنها واصلت الغناء الفئان السحر.. حاولت أن تنهض.. فما كان من السيد إلا أن شهر مسدساً كاتماً للصوت وأطلق رصاصة أشبه بنحلة هامسة وشوشت ثم عتمت بطن الصبية، فإذا بها تسقط مضرجة. وإذا بصوتها يتساقط فوقها ثم ينقطع.. وإذا بوحوش البرية التي كانت تتمايل طرأ وتردد.. آه.. آه تهرب ثم تختفي». وعندما استنفض أحدهم فعلة السيد وأمر بقتله فقتل.

تحتم القصة بالمشهد الثالث: ثم رأينا السيد يفتح فتحة في الأرض ويهبط إلى سرداب مظلم فهبطا وراءه. لفحت وجهينا ريح باردة رطبة، وبأغتتا ظلام. أشعل السيد شمعة، فرأينا بعدما اعتادت عيوننا على الظلام نقوشاً بابلية، وفرعونية، وسومرية، ونبطية، وفينيقية، وعربية على جدران السرداب، ولاح لنا السيد وهو يحو هذه النقوش والكلمات فيبدلها تبديلاً، ويزورها تزويراً، ويزيفها تزيفاً.

ثم هبطنا إلى دهليز سحيق، ففاصت أقدامنا في غبار غابر وشقت خطواتنا طريقها ببناء بين الجثث المحنطة والكتب القديمة، وسمعنا زعيقاً مرعباً، ورأينا أشلاء غيلان الدمشقي وفرج الله الحلو وجسد صبية كان قد وئد ورأينا آلاف الأجساد المحنطة لأبطال قتلوا وجبناء عاشوا.

وضع السيد شمته جانباً وبدأ ينقل أجزاء الجثث. رأس هذا الجسد لذلك، وسيف ثان لكفن ثالث، وعينا رابع يزرعهما في وجه خامس، وهكذا وأصل التزوير والتعريف وراح يطلق ضحكة مجلجلة ويقول: تاريخنا سحيق.. سحيق.

ولما احتج الأول ورفض الثاني منتعباً قتل أخيه وطلب تبرير ما حدث أطلق السيد رصاصة على الجميع، والذي هالهم في تلك اللحظة أنه «لن يبقى ثمة رفيق ليسمع المبرر في نهاية الرحلة. لن يبقى أحد».

لكل قصة فنية من التأويلات ما يبادل قارئها عدداً. أما تفسير القارئ العربي لهذه القصة فلا بد أن يتأثر بالمسلك الصهيوني نحو فلسطين؛ لقد فرغ الصهاينة من تمزيق فلسطين وتشيتت الأجيال الأولى من أهلها ثم التفتوا إلى الجيل الثاني الفتى «فبرعوا» في تقتيل أطفاله بأسلحة «ذكية» لا تخطن وتكفلت الآليات الجبارة بتدمير البيوت وتقطيع الأشجار وتجريف الأراضي ومصادرة المستقبل أمام صمت العالم الذي قد يستمتع بالفناء الجماعي ويشارك فيه، لكنه سرعان ما يختفي في ساعة المحنة. وقد آن أوان الآن للخطورة الثالثة - خطوة نحو التاريخ بتزويره، بتسفيبه، بتشويهه باقتلاع كنوزه الروحية المكنونة في الصدور وفي أعماق الأرض. وما أدق ملاحظة الكاتب عندما أشار إلى عمليات التبديل والتزوير والتزييف بدأت بالطبقات الأولى من التاريخ، بالنقوش البابلية والفرعونية والسومرية والنبطية والفينيقية والعربية قبل البدء بتاريخ غيلان الدمشقي (العصر الأموي) وفرج الله الحلو (العصر الحديث) لأن الاقتلاع الاستثنائي الشامل يبدأ بالجذور، ويسهل بعدها اقتلاع الطبقات التالية، فإذا ما ألفي التاريخ ألفي كل شيء، ولا تعود ثمة حاجة لإطلاق الرصاص الأخيرة، إذ لن يبقى شئ ليم الفناء. وإذا كانت مهمة الفن تنتهي في العادة عند وصف الظاهرة والتبنيه إليها فإن مؤنس الرزاز لم يتوقف عند ذلك. بل حاول إيجاد حل لهذه المسألة المصيرية في الرسالة التي وجهها إلى الشيخ حسن نصر الله عندما لم يكن قد بقي إلا القليل على بداية القرن الحالي. فكتب في زاوية «ضوء» في صحيفة «الرأي» الأردنية بتاريخ 10-10-2000 «رسالة إلى الشيخ نصر الله». أناشدك بفتح باب التطوع للمقاتلين العرب والمسلمين! أعرف أنكم غير محتاجين إلى العنصر البشري، وأن أبطالكم «يكفون ويوفون».. لكننا نحن العرب بحاجة إليكم، لعل تطوعنا يحورنا من الإحساس بالمعجز والذنب والتقصير!

فضيلة الشيخ المناضل: من حقكم أن تعترضوا وتقولوا لنا: ولماذا لا يفتح العرب غير اللبنانيين جبهاتهم فيتطوع شباب كل دولة عربية ليقاتلوا من حدودهم؟ تعلمون يا سيدي أن هذا المطلب شبه مستحيل لأسباب خارجة عن إرادتنا. من حقكم أن تقولوا لنا: هذه مشكلتكم لا مشكلتنا. لكنني لا أتكلم عن حقكم وحقنا وواجبكم وواجبنا.. وإنما أناشدكم مساعدتنا، نحن العرب والمسلمين المقيدون بمعجزنا، المضرجين بوجعنا، ساعدونا علينا.. يا سيدي.. وافتحوا لنا باب التطوع من أجلنا لا من أجلكم فأنتم لستم بحاجة لنا. سيدي فضيلة الشيخ المناضل: أنقذونا منا.. وافتحوا باب التطوع!⁽¹⁾.

1- صحيفة الرأي عمان، 10-10-2000.

هل كان الأديب الكبير يرى بميئته آنذاك أحداث الأسبوع الثاني من نيسان من العام الماضي 2003 في بغداد، وهل كان يسمع بأذنيه الضحكة الهستيرية فرحاً بقصف بغداد تطلقها المنذبة الإسرائيلية التي عبرنا بها في بداية هذه الدراسة والتي قدمت للمشاهدين إسرائيلياً يفاخر بأنه تبرع، دون مقابل بتقديم خرائط مفصلة عن الأماكن الأثرية الحضارية في العراق لطيارتي التحالف الصهيوي - أمريكي لشن الحرب الأولى على الماضي العربي العريق قبل شنها على الحاضر الراهن. هناك «تواريخ» قشرية هشة يسهل اقتلاعها كـ «تاريخ» الصهاينة في فلسطين، مخترعوه أول المقتنعين بكذبة وتهافته، وهناك التاريخ - التاريخ، الأصيل المتجذر في أعماق الوعي واللاوعي، المكان والزمان، وهو ذلك الذي لا يؤمن غير المغرورين بالقوة بإمكانية اجتثائه بقنابل النار والحقد وغطرسة العنصرية، بينما لا يزداد أبناء ذلك التاريخ إلا تمسكاً وإيماناً به وانتفاءً لأرضهم وتذواًباً معها. لهذه الأسباب جميعاً دارت الأحداث التالية التي نكتفي بسردها في صفحات قليلة تتضمن مقتطفات قصيرة اجتزأناها من شهادات وأقوال شهود عيان مضافة على تحليلات لبعض الباحثين المتخصصين في الآثار العراقية ووردت في مجلة «الأدب الأجنبية» (مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب)، دمشق العدد 116، خريف 2003.

في دوامة الاستعدادات الأمريكية لحرب العراق صرح مسؤول عراقي بقوله: «لا يطمع الأمريكيون في نفلنا فقل بل يطعمون في تاريخنا أيضاً. إنهم بحاجة إلى روايتنا الجديدة كي تمتلئ بها متاحفهم، كما أظهرت جامعاتهم، وما تزال، اهتماماً خاصاً بحضارات ما بين النهرين»⁽¹⁾، ولم يمض إلا قليل من الوقت على ذلك التصريح حتى «نشر مقال» في مجلة أخبار الفن الأسبوعية، في تشرين الثاني 2002 عنوانه: «تاريخ العراق هو تاريخنا أيضاً»، لا بد أن يثير الظنون، فالحديث يدور في ذلك المقال عن مستقبل التراث العراقي على إثر الغزو البري الذي ستقوم به الجيوش الأمريكية. ويؤكد الكاتب أن الجمعية الأمريكية واسمها (المجلس الأمريكي للسياسة الثقافية) التي أسسها أشتون هاوكينز، المحامي السابق لمتحف نيويورك، تستعد لتولي مهمة «المنقذ للآثار العراقية». وتقول الجمعية إنها على استعداد للتعاون مع إدارة الآثار العراقية من أجل ترميم المواقع، وتمرض مساعدتها لتدريب اختصاصيين عراقيين انقطعوا عن كافة التقنيات الحديثة منذ أكثر من عشرة أعوام. ومن سخريات القدر أن يتوافق تاريخ عرض الجمعية مع بداية الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة من الحكومة الأمريكية⁽²⁾.

1- جوان فلرانك العراق بين الآثار واللصوص (مصدر سابق ص 164).

2- المصدر السابق 164-165.

هذا ما كنا نسمعه. أما ما حدث من الناحية التطبيقية فقد غطته مجلة «الاروش» الالكترونية للدراسات السياسية بكثير من التفصيل على لسان دوني جورج، مدير المتحف الوطني للأثار في بغداد. وتبين من حديثه كمشارك وكشاهد عيان أن المتحف العراقي الذي ادعوا رغبتهم في إنقاذه كان الفريسة الأولى التي خططوا لاقتناصها. ويوميات الحرب تسمى الأربعاء (9 نيسان 2003) يوم دخول بغداد الرسمي. وتؤكد تصريحات شاهد العيان ذلك على أن الأمريكيين كانوا متلهفين جداً على بدء معركة المتحف من أجل السطو عليه وأن العملية بدأت قبل دخول العاصمة وبمدها. ولم تصل الحراسة إلى المتحف إلا يوم الأربعاء 16 نيسان. يقول دوني جورج: في صباح الثلاثاء، اليوم الثامن (من نيسان)، عند الساعة الخامسة صباحاً استيقظت على أصوات الدبابات الثقيلة والقصف المدفعي الشديد. كان القتال قريباً جداً، بجانب وزارة الإعلام، ومحطة الإذاعة والتلفزيون، التي لا تبعد أكثر من 400-500 متر عن المتحف. بدأ هذا الصوت يقترب أكثر من المتحف، ومن جديد بدأنا نلاحظ إطلاق النار من الجانب الآخر للمتحف، وكان ذلك من منطقة الحافلات المركزية. وحوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً بدأنا نسمع أصوات طائرات الأباتشي المروحية المقاتلة فوقنا.

كان هذا كله يحدث وكنا واثقين من أن الأمريكيين لن يضرخوا المتحف لأنهم يعرفون بالتأكيد أن هذا متحف، وعلمنا أنهم تلقوا تحذيراً من العلماء في الولايات المتحدة وبريطانيا. لكننا رأينا بعض أعضاء الحرس الوطني المسلحين العراقيين، الذين يمكن تسميتهم بالفدائيين، وقد راخوا يقفزون عائدين إلى حديقتنا ورأيناهم يطلقون النار على الدبابات، وكان هذا يعني أن متحفنا قد أصبح هدفاً..

ذهبنا عبر النهر إلى الجانب الشرقي إلى متحف صغير آخر، وانتظرنا هناك، ومن جديد كانت الساعة الثالثة بعد الظهر حين أردنا العودة إلى المتحف. لقد أردنا البقاء بميدان قليلاً فقط، حتى تهدأ الأمور، وحاولنا عبور جسر السابع عشر من تموز، أو جسر المدينة الطبية، وهو أقرب جسر إلى المتحف. وحين أصبحنا في منتصف الجسر تقريباً، كان الناس يأتون من الجانب الآخر، وطلبوا منا أن نعود، لأن الأمريكيين كانوا هناك، وكان القتال ناشباً هناك تماماً ولم يدعنا أحد نعب.

كان الأمريكيون قد استولوا على منطقة المتحف وعبروا عن تلك المنطقة. لذلك كان من المستحيل أن نذهب إلى المتحف في ذلك اليوم.

وبعد ذلك، اعتقد أنه كان مساء السبت (12 نيسان) حين سمعت في الأخبار أن المتحف قد نهب، بعد ذلك (كما عرفنا) كان اللصوص قد دخلوا المتحف يوم الخميس. ولا نعرف

بالضبط ما حدث يوم الأربعاء، ولكن في أيام الخميس والجمعة والسبت (10-11-12 نيسان) كان اللصوص يتجولون داخل المتحف وداخل منطقة إدارتنا. وفي صباح الحد قررت الذهاب إلى مقر قيادة مشاة البحرية في بغداد لأننا عرفنا أن لديهم مقراً عاماً لقيادتهم المركزية في فندق فلسطين. قررت الذهاب إلى هناك وطلب أي نوع من المساعدة لحماية المتحف. وقرر الدكتور جبار (رئيس المتحف) أن يأتي معي.

في الصباح التالي، ذهبنا إلى مقر قيادة مشاة البحرية. واستغرقنا بضع ساعات حتى استطعنا مقابلة شخص ما هناك. ثم قابلنا العقيد ساركوني. كان من مشاة البحرية، من الشؤون المدنية. أخبرناه عما كان يحدث للمتحف وطلبنا منه المساعدة في حماية البناء والمنطقة هناك. فقال «طبعاً، إنه واجبنا، وهذا مهم جداً، ويجب أن نحمله». أريناه موقع المتحف. وقتنا، إننا ذاهبان إلى المتحف. فقال «حسن، ربما سنذهبان وتريان السيارات المدرعة هناك الآن. سأصل على الفور وسيكونون هناك بالتأكيد». لكننا ذهبنا على هناك ولم تكن هناك أي حراسة.

وفي صباح الأربعاء (16 نيسان) فقط وصلت الحراسة إلى المتحف:
مجلة لاروش؛ وذلك بعد أسبوع كامل من دخولهم بغداد رسمياً في 9 نيسان.
دوني جورج؛ بالضبط..

وما سمعته لاحقاً من ذلك الصديق الذي يقيم في منطقة المتحف: إن اللصوص يوم الخميس (10 نيسان) وعددهم حوالي 300-400 كانوا خارج سور المتحف.. ذهب صديقي إلى دبابة كانت قريبة جداً من المتحف.. وراح يتوسل إليهم ليأتوا وينقذوا المتحف، وأن يحركوا الدبابة فقط على أمام المتحف ليوقفوا هؤلاء الناس كلهم وقال إن بعضهم قد اتصل. وبعد ذلك قال: «إنني أسف، فهذا ليس واجبنا».

ثم دخل هؤلاء الناس.. وما رأيناه لاحقاً كان مروعاً طبعاً. لقد بدأ وكان إصصاراً ضرب البناء من الداخل وما لم يستطع اللصوص أخذه حطموه..
ثم اكتشفنا أنهم حطموا المخازن أيضاً..

أنا بالذات كانت لدي فكرة بأن هناك ثلاث مجموعات من الأشخاص دخلت المتحف.. المجموعة الأولى، كانت اللصوص العاديين فقط، واعتبر أنهم الأشخاص الفقراء الأميون الذين يبحثون عن أي شيء يبيعه بالمال. المجموعة الثانية، كانت الأشخاص الذين دخلوا غرف المخازن، ويبدو أنهم درسوا طريق الوصول إلى هناك، لأنهم ذهبوا وحطموها باباً زجاجياً ودخلوا عبره وباباً ذا ستارة حديدية، وباباً حديدياً مقلداً بالأجر. أما أفراد المجموعة الثالثة، فراحوا

يلتقطون أشياء كانوا يعرفون بأمرها مسبقاً. لقد عثرنا على أدوات لقطع الزجاج، وهذا يعني أنهم كانوا مستعدين للحضور إلى المتحف. كما عثرنا على رزمة مفاتيح في مكان ما قرب غرفة مديرة المتحف، بدا أحدها شبيهاً جداً بمفتاح خزانة المديرية التي كانت تحتوي على مفاتيح المتحف. إن رزمة المفاتيح تلك ليست لنا. هذا مستحيل، ونحن نعرف مفاتيحنا. .. قد يكون هناك ارتباط بين المجموعتين الثانية والثالثة. لأن أفراد المجموعتين كانوا يعرفون ما يريدون.

مجلة لاروش؛ كتب عالم الآثار الألماني البروفيسور سومرفيلد في إحدى مقالاته إن الأمريكيين طلبوا من الناس أن يدخلوا وينهبوا، وحطموا البوابات لهم. كان ذلك تقريراً حصل عليه من أشخاص آخرين.

دونني جورج؛ إنني لا أعرف ذلك، حقاً. ولكن ما أنا متأكد منه هو ما قاله صديقتنا ذلك، عالم الآثار. لقد قال إنه ذهب وتوسل إليهم ليأتوا ويحموا الأعمال الفنية، فقالوا: ليست لدينا أوامر. حسن، كان هذا يعني هيا استمروا، وخذوا ما تريدون⁽¹⁾.

كان الأديب الدكتور عبد السلام العجيلي واحداً من أوائل من عبروا عن الألم والحسرة لما جرى في العراق. جاء ذلك ضمن مقالة له بعنوان «حجر في بغداد» وهو قطعة لا يتجاوز حجمها حجم الكف، كان الكاتب يحرص على رؤيته خلال زيارته إلى بغداد، ويحدد أماكن لقائه بالحجر إلى أن استقر في المتحف الواسع في الكرخ. أما سر الحجر فهو «.. الشكل الهندسي المرسوم عليه والذي تفسره الكتابة السامرية إلى جانبه، وكأن الشكل والكتابة منقولان من كتاب الرياضيات من تلك التي تلقينا دروسنا الثانوية فيها ثم على جانب عمر ذلك الحجر وتاريخ الشرح المرافق له، وهما يرجعان إلى أربعمين قرناً خلت، أصني إلى أربعة آلاف سنة قبل اليوم. الشكل يمثل مثلثاً قائم الزاوية أقيم من زاويته القائمة عمود على وتره والكتابة إلى جانبه هي مطالبة بالبرهان على أن المثلثين القائمين إلى جانب العمود متشابهان»⁽²⁾.

ويحسن المؤلف استغلال المناسبة للحديث عن أولوية أبناء ما بين النهرين في العلوم وبخاصة الرياضية منها، وتقدمهم بعشرات القرون على ما ينسب ظلاماً لقدماء الأوروبيين. وندرك حسرة الكاتب على الحجر الذي لا بد وأن يكون قد أخفي أو اختفى، فأني شيء يمكن أن يبقى بعد الاستباحة الجهرية للمتاحف العريقة أياماً بلياليها؟ كل ما يمكن أن

1- مقتطفات من: علماء الآثار بنهمون الولايات المتحدة بجريمة القرن. عن مجلة «لاروش» الالكترونية للدراسات السياسية ترجمة رشا حداد. مجلة «الآداب الأجنبية» (المرجع السابق ص 168-174).

2- د. عبد السلام العجيلي حجر في بغداد. صحيفة «الشربين» زاوية «الطاق» دمشق، 17-4-2003.

«نطمئن إليه» هو أن اللصوص وحماتهم قد بشموا ، وصلات بيع التحف القادمة من الشرق الأوسط في أوروبا وأمريكا قد عملت بكامل طاقتها (ص 190) كما نفترض أن «المؤرخين قد استنفروا لكتابة التاريخ» على الهوى. أما أحجام المسروقات فيجعلها حتى اللصوص:

«قال الخبراء إن هناك من بين المواد التي فقدت مجموعة تضم 80000 لوح من الكتابات المسمارية التي تحتوي على نماذج من بعض أقدم الكتابات في العالم» (الأدب الأجنبية ص 167)، «من المعرض الأكدي فقدنا تمثال بارزيكي الشهير، الذي يزن أكثر من 160 كغ. إنه قطعة ضخمة وأروع ما فيها أنها واحدة من أقدم النماذج الكبيرة عن الصب التي صنعت بواسطة «تقنية الشمع المفقود» التي تستعمل حتى الآن. وأقدم تمثيل لهذا يرجع إلى فترة أوائل السلالة السومرية الحاكمة. وربما تكون هذه أكبر قطعة تم صنعها بهذه الطريقة. لذلك إنها حقاً خسارة عظيمة لتاريخ الفن».

وما لم يستلم اللصوص أخذه حطموه. لقد حطموا بعض الأسود الفخارية التي حصلنا من تل الحرمل من الفترة البابلية القديمة؛ وكان لدينا خزانة عرض لنماذج من الأجر المختوم تعود إلى مرحلة مبكرة من العصور الرومانية. لقد أخذوا تسعة من نماذج الأجر تلك، ويبدو أنهم انتقوا تسع قطع.. ولم يأخذوها بشكل عشوائي. وفي المعرض الآشوري، لاحظنا أن تمثال شلمنصر الثالث مفقود، وتمثال آخر محطم. وفي معرض منطقة حترا أخذوا رأس تمثال وحطموه ثلاثة تماثيل رومانية.. وأخذوا رؤوسها. كما أخذوا رأس نايكي، إلهة النصر.. ثم اكتشفنا أنهم حطموه المغازن أيضاً. وذهبوا إلى ما ندعوه بالمخازن القديمة التي كانت في أقبية المتاحف. ولا نعرف حتى الآن ماذا. ولا كم قطعة أخذوا من تلك الأقبية(171).

«وها هناك تنتصب خزانة زجاجية ضخمة تحتوي لقي تعود لأربعين ألف سنة خلت تحطمت وأفرغت من محتوياتها.. وما من أحد يعلم أين اختفت المجسمات الآشورية التي تعود للقصر الملكي الموجود في «خورسبالد» والأختام المعدنية والحجرية والصلصالية التي ترجع لأربعة آلاف سنة أو الأقراط الذهبية التي دفنت مع أميرات سومر وعمرها 45000 سنة.. متحف بغداد ويضم أكثر من 150 ألف قطعة أثرية عثرت بها أيدي لصوص محترفين. لم يسموا النسخ وإنما سرقوا القطع الأصلية مما يؤكد أنها عملية قرصنة منظمة.. (186) وعلى إثر زيارة روبرت فيسك للعاصمة العراقية بعيد وقوع جريمة المتحف نشرت الاندبندنت البريطانية قوله: «وطئت أقدامنا بقايا تماثيل من رخام عمرها خمسة آلاف سنة إلى جانب جرار وقوارير ولقى صمدت أمام حصار بغداد عشرات المرات عبر التاريخ ليتم تحطيمها مع مجسي» الأمريكين للتحجير، «رأيت لوحات من النقوش الحجرية يعود تاريخها إلى 27000 سنة مقطعة

الأوصال وأقنعة عمرها 700 ق. م وتمائيل صلصالية تعود لألفي سنة ومزهريات تعود لأكثر من 5000 ومجسمات رخامية تعود لـ 800 ق. م وروؤوس ملوك آشور وبابل تعود لـ 2250 سنة ق.م تم تحطيمها بعد سرقة ما خف حمله وارتفع ثمنه وقد «عثر مزاحم (محمود ، عالم الآثار العراقي) خلف تلك البوابة كما أخبر فلاندران ، على مقبرة امرأة يرقد رأسها فوق طبق من الفضة وقد زين تماثيلها بأقراط وعقد ذهبيين إلى جانب أساور وخواتم مطعمة بالأحجار الكريمة.. وتم استخراج تلك المكتشفات وأرسلت إلى متحف بغداد لتعرض للسرقة خلال شهر نيسان الماضي 2003 على غرار كنوز «فالاسار» واكتشفها مزاحم محمود في آذار عام 1989 داخل بئر تؤدي إلى صالة مغلقة بحجر كبير كتب فوقه: «تذركم الملكة إبابا وابنتها أتاليا بالأا تلمسوها والأا تسرقوا مجوهراتها. والأا لن تروا الجنة وستصيبكم الأمراض القاتلة (189).

وقفت الدبابات الأمريكية أمام البوابة الرئيسية لمتحف بغداد الوطني في الوقت الذي قام به اللصوص بنهب محتوياته تحت أنظار تلك القوات وبمباركتها⁽¹⁾...

يسرد المؤرخ والمهندس الفرنسي هنري سيترلين مسيرة حضارات ما يسميه معجزة التراث الإنساني فيقول: «من ينابيع دجلة والفرات نهلت الحضارة الغربية ثقافتها.. فعلى ضفافها ابتدع السوميريون الخط والبابليون القانون المدون وذلك قبل 5200 سنة من الآن إلى جانب الرياضيات وعلم الفلك والزراعة - وظهرت في الألف العاشر ق. م.. ولدت صناعة التماثيل الصلصالية منذ 3300 سنة ومعها صياغة المجوهرات والحلي لتواكب تعاقب الثقافات في منطقة الرافدين ليممل القصف الأمريكي الهجمي للمناطق الأثرية على إبادتها شكلاً ومضموناً وتأتي - يتابع هنري سيترلين - عمليات السرقة المنظمة لتترجم تهديدات جورج بوش الابن ومبادراته التخريبية في العراق على أرض الواقع» (187).

في ملف خاص بالباري مانس أشرف عليه فيليب فلاندران ورد ما يلي: «وعلى مقربة من الموصل - وتبعد 400 كم شمال بغداد تقع مدينة نمرود وتطل على سهول خصبة ترويه مياه دجلة ورافده الزاب الأكبر.. وعلى غرار نيبور - 250 جنوب بغداد - حاصر الجنود الأمريكيون - أفاد فيليب فلاندران وتعرف عل لهجتهم النابمة لولاية تينيسي - مدينة نمرود منذ وصولهم إليها منتصف حزيران 2003 وأطبقوا بدباباتهم على مداخل قصورها الملكية وقاموا بتفتيش كل بقعة فيها ولا أحد يدري ماذا وجدوا وعلى أية آثار استولوا⁽²⁾..

1- مقتطفات من: شهود عيان أجنب وعرب يؤرخون: عمليات نهب الآثار العراقية إصداً هدى أنتيبدا. «الآداب

الأجنبية» (المرجع السابق ص 185-186).

وتعرضت تلك الكنوز هي الأخرى للنهب والاختفاء خلال سرقة المصرف المركزي العراقي حيث نقلت قطع أثرية أخرى تعود لزوجة آشور غاسيريال كالمجوهرات واللآلئ وكاد مزاحم محمود (عالم الآثار العراقي) كما يقول فيليب فلاندران يفقد صوابه حين رأى الصواريخ الأمريكية تدمر مصرف بغداد المركزي حتى علم أن قوات البنتاغون عثرت في خزائن المصرف المذكور على 650 قطعة أثرية و 70 كغ من الذهب وأحجار كريمة تزن أطناناً تم عرضها أمام كاميرات الصحفيين لفترة لا تتجاوز الثلاث ساعات فقط..

تحولت الحاضرة الأثرية بابل المريقة إلى قاعدة أمريكية عسكرية بعد أن دمر جزء من متحفها الخالي من محتوياته اليوم. وفي محافظة الناصرية - يدون فيليب - استعاد مدير آثارها حفنة من القطع الأثرية المسروقة من متحفها.. وتسبب تلك الكنوز لـ «لاغاش» العاصمة القديمة لـ «غوديا».. وكانت محتويات معبد نينكرشو، المدينة المجاورة لـ «فيسوس» قد تعرضت هي أيضاً للنهب والسرقة ولم يتبق سوى بضعة ألواح في متحفها تعود للعصر الذهبي لسومر (قبل 42 قرناً) وصل إليها لصوص الآثار على غرار قصر نوركداد في «الرسا» ومعبد شمس في «سيبار» ومعبد إنليل شقيقة عشتار وتقع في نيبور⁽¹⁾.

وهكذا ظهر أحد الأسباب الحقيقية لحرب العراق منذ أيامها الأولى، وتكشف ذلك لا من خلال أعمال النهب والسرقة فقط بل وأيضاً من خلال الحقد المسور الذي تمت به تلك الأعمال. ويشركنا الباحث الدكتور خالد الناشف في تساؤلاته حول أسباب ما جرى إذ يقول: «لا يوجد تفسير واحد للإحاطة بما حصل، لا سيما وأن طبيعة هذا التدمير لم تقتصر على النهب والسرقة ولم تكن مجرد رد عضوي كما أراد الرئيس بوش أن يوحي لنا، فقد رافق عملية النهب تخريب متعمد انتهى بالحرق، كما حصل في المكتبة الوطنية ومكتبة الأوقاف، أو تهشيم القطع الأثرية التي لم يتمكن اللصوص من حملها في المتحف العراقي. وحصل هذا كله تحت أعين الجنود الأمريكيين الذين لم يحرکوا ساكناً لإيقاف المعتدين. ولهذا يسود الاعتقاد بأن عملية التدمير كانت مدبرة وأنها نفذت بعد تخطيط مسبق ومقصود»⁽²⁾. أما أسباب هذا العدوان على المؤسسات الثقافية ونهبها ثم تدميرها وإحراقها فيحاول الباحث أن يجد لها تفسيرات أخرى بعيداً عن الدوافع الاقتصادية ويذكرنا بالبعدين الجيوسياسي والحضاري الذي يتفرد بهما العراق ويرثهما في الوقت نفسه عن حضارات الأجداد. فالأول تعكسه الخارطة الحديثة للعراق «بمركز ثقله بغداد، وبشكل مطابق للوضع الجيوسياسية

1- المصدر نفسه ص 187-190.

2- د خالد الناشف دلائل العدوان على الجذور الحضارية للعراق مجلة «الأدب الأجنبية» المرجع السابق ص 20

في العالم القديم، وبشكل خاص في فترة الهمنة الأكديّة في الألف الثالث والثاني الذي يشبه في بنيته واقع الغرب اليوم، فقد كان يعتمد على المواد الخام ويقوم بتصدير ما يصنع منها، وهو ما يشابه الوضع اليوم لتصدير البضائع الاستهلاكية الغربية إلى دول العالم الثالث⁽¹⁾. وي طرح الباحث عدة احتمالات ترد على تساؤله «فيما إذا كان هذا العدوان على الجنود الحضارية للعراق هو مواجهة لما كان يمثلته العراق جيوسياسياً من قوة حضارية في الماضي أو، إن عكس ذلك على المستقبل، ما يمكن أنت يصبح عليه العراق من قوة إقليمية تهدد مصالح الولايات المتحدة في المنطقة، وبخاصة أمن حليفتها إسرائيل ولكنه لا ينسى أن ينهبنا، قبل ذلك، على مشروعية المقارنة بين ما فعله غزاة العراق وغزاة فلسطين فعمل التدمير الذي طال المؤسسات الحضارية في العراق ينطوي على نزعة أمريكية تتمثل بإلغاء التاريخ.. وبالمقابل يعمل الغزو الصهيوني على استعادة التاريخ وربطه بالغزاة الغريباء من جهة، ومن جهة أخرى على إلغاء الشعب الفلسطيني، الذي يمتلك حضارياً الحق الفعلي بهذا التاريخ⁽²⁾. ربما كانت كل الاحتمالات التي طرحها الباحث ممكنة وأن الغزو الأمريكي قد جاء في محاولة لتحقيقها جميعاً.

أما وقع هذه الأحداث في نفوس أبناء العراق فلخصه دوني جورج في نهاية حديثه إلى صحيفة لاروش معقّباً على قوانين الآثار في العراق وإمكانية تخفيف وطأة أجزاء من القوانين العراقية بحيث يصبح الأمريكيون قادرين على تصدير بعض المواد خارج البلاد فيقول:

«أعتقد أن هذا مستحيل! لا أحد سيقبل ذلك. هل تعرف لماذا؟ سأخبرك بنوعية الصدمة التي أحدثها المتحف والقطع الأثرية على الشعب العراقي. كنت أقابل أنواعاً مختلفة من الناس، من اللحام إلى البقال، إلى بائع الفاكهة، إلى أستاذ في الجامعة. وقد توصلوا جميعاً إلى نتيجة واحدة وهي أن كل ما حدث للبلاد، يمكن أن يحدث، ولكن لا أحد يقبل ما حدث للمتحف. لأن هذا المتحف يمس قلوب الناس. لذلك من المستحيل أن يتغير القانون! فهذا يتعلق بالشعب العراقي كله.

«إذا قال شخص ما للعراقيين، «حسن، اسمعوا إن الأمريكيين يريدون أن يغيروا قانون الآثار ويريدون أن يقوموا بتصدير بعض آثاركم بشكل قانوني للخارج ما رأيكم؟» إنني أعتقد أنه ستقوم ثورة أخرى في العراق ضد الأمريكيين! لأن هذا مستحيل ولا يحتمل أن يتم⁽³⁾.

1- المرجع السابق ص 21

2- المرجع السابق ص 22، 23

3- علماء الآثار يتهمون الولايات المتحدة بجريمة القرن رشا حداد (مرجع سابق ذكره) ص 182.

فلنتأمل، أخيراً، في هراءه الثنين من الباحثين في الآثار العراقية لهذه «الصدمة» التي تحدث عنها السيد دوني جورج، والكلمة الختامية التي لخص كل منهما دراسته بها وجسد من خلالها إيمانه الإنساني العميق ونبل نظرته الواثقة إلى مستقبل العراق. فعلى الرغم من هول الجريمة والصدمة يؤكد الباحث، الدكتور خالد الناشف على الأمل والتفاؤل، فالجذور العميقة لتلك الحضارة المريقة التي انتهت آثارها باقية في كيان الإنسان العراقي نفسه: «إن وعي الشعب العراقي لتاريخه الحضاري يزداد عمقاً مع وجود هذا التاريخ الحضاري في متاحفه بالقرب منه. غير أنه لا يمكن لتخريب القطع التي تمثل الإنجازات القديمة أو محاولة إخفائها بسرقتها، أن يقضي على الإنسان العراقي، الذي تجسدت فيه هو الجذور الحضارية للعراق قبل تجسدها في مقتنيات المتاحف. والمهمة التي تقع على عاتق العراقي اليوم، هي في العودة إلى نفسه.. والبدائية تتمثل بدحر الاحتلال»⁽¹⁾.

أما جوان فارشاك فتختتم دراستها بكلمات موجزة، ناطقة بالكبرياء والثقة والإيمان، تلخص فيها الحضارة المريقة وتجارب الأجداد عبر آلاف السنين والجريمة التي لا تتسى وحكم التاريخ على مسلك الغزاة وعنجهيتهم الفارغة، وترد في الوقت نفسه على من بلغ بهم التبعج حد إعلان «نهاية التاريخ»، الذي لم ولن يتوقف، وصفحاته لا تزال تكتب وتعد الشعب الأصيل المؤمن المريق... بالكثير.

ليست هذه الحرب بالنسبة للعراقيين سوى مرحلة من تاريخهم الطويل الذي يمد بالآلاف السنين. إنهم لا يستطيعون أن ينهبوا كافة المواقع، ولا أن يقتلوا جميع العراقيين، ولا أن يهدموا في أيام حضارة آلاف مؤلفة من السنين. فالسومريون والبابليون والآشوريون.. هم أجدادنا. لقد حاربوا فربحوا ومبارك وخسروا أخرى. وتاريخنا مكتوب بالدم فليس من شأن نقاط أخرى أن تغيره. ولا يمثل جورج بوش الأب والابن والحصار سوى فترات مؤرخة في تاريخنا. ولا يمكن لسني الشقاء هذه، لهذه السنين العجاف أن تدوم إلى الأبد. والتاريخ لا يتوقف. إنه يكتب كل يوم والزمن يأتي على كل شيء، حتى على الهمنة الأمريكية⁽²⁾.

1- د. خالغ الناشف دلائل العدوان على الجذور الحضارية للعراق (مرجع سبق ذكره) ص 23

2- جوان فارشاند عشية غزو العراق. العراق بين الأثر واللموص (مرجع سبق ذكره) ص 165.

خاتمة

تكتشف الحفريات الأثرية المتواصلة في الأرض العربية على مدى ما يقارب القرنين عن كنوز فكرية وثنائية أفردت لأبناء هذه الأرض واحداً من المراكز الريادية في العالم في مضممار الأصالة والعراقة وعمق الجذور التاريخية. فهذه الأوابد المعمارية والآثار الجليلة والقصور والأسوار والمدافن، وهذه التماثيل والقطع الفنية واللوحات وشتى أنواع المزهريات والتحف والمجوهرات والحلي واللقي المتنوعة وعشرات آلاف البرديات والصفائح الحجرية والمعدنية والألواح الطينية المشوية والنصوص التي طرقت ونقشت وخطت بأشكال وأبجديات مختلفة الرموز والصور، وما اختزنته من المشاعر الإنسانية ومن الحكم والمواعظ والإخباريات والتجارب وضروب المعرفة والحياة، تنطق - من خلال صمتها وصرامتها وحيادها - بالسنة العصور الموعلة في القدم. وتميد نبض الحياة الإنسانية وحركتها جيلاً بعد جيل، وتصلنا بالصور الأولى لوجودنا وتطورنا في مدار الأحقاب. وعبر الأنساع الخفية للموروث الحضاري يتصل الماضي البعيد بالحاضر المتدفق الحي فتستعيد الحياة دفأها ونمطها ومسارها في عادات الأحياء، في مباحثهم وأعيادهم وأغانيتهم وأحزانهم، مثلما تجدد نفسها في لغة الأحفاد، في مفردات الكلام وطريقة النطق وإيماءات الأيدي وفي قسماات الوجوه ولون العيون.

مضى زمن طويل على هذه الكشوفات التي اختصها أرنتست دوبلهوفر بكتابه هذا. وأن لنا، بعد قراءة هذه الآثار واطلاعنا اليقيني، ومن خلال النصوص مدونة في أصولها الأولى على الأسفار الكبرى التي أضافتها الكشوفات الأثرية إلى التاريخ الإنساني العام وإلى تاريخ أرض العرب بصفة خاصة، أن نؤسس لنظرية جديدة إلى الآثار العربية تعتمد على نتائج الدراسات والبحوث العربية والأجنبية وتنتقل من الواقع العربي الذي نعيشه وتطلع إلى المستقبل الذي نطمح في الوصول إليه. أما تصورنا لما يمكن أن يستقر في أساس هذه النظرة المشتركة إلى التراث الأثري فنجمله في النقاط التالية:

٤ - الإقرار بأن هذا التراث البالغ الفنى والتنوع والذي يتوزع في الأراضي العربية المترامية الأطراف من مصر إلى أقاصي الشمال الإفريقي إلى ما بين النهرين فالشام فجزيرة العرب فأقاصي بلاد اليمن هو تراث واحد، وهو الشهادة الأولى على وحدة شعوب هذه المنطقة منذ أقدم عصور التاريخ. وهذه حقيقة لا تقررها أسباب عاطفية أو ضرورات تدعيم فكرة الوحدة العربية التي نحن في أشد الحاجة إليها الآن، بل تقررها الحقيقة الثابتة والمناهج العلمية التي وضعت لتحديد الأسر اللغوية والقرابة الإثنية - العرقية بين تنوعات اللغة الواحدة، تلك المناهج التي انطلقت من الأسس الثلاثة المتعارف عليها في دراسة كل لغة وهي «الأصوات» و«النحو» و«المفردات»، واتفقت على أن التشابه أو التقارب بين عناصر كل من هذه الأسس شاهد على وحدة الأرومة. فبالنسبة «للأصوات» تم الاتفاق على أن لهجات العروبية تتميز جميعاً بقلية الأصوات الساكنة فيها ويتوفرها على الأصوات الحلقية..ع، غ، ه، ق، الهمزة وعلى ثلاث صور من حرف الـ ك وهي: ث، س، ص، وثلاث أخرى لحرف الـ Z وهي: ز، ذ، ظ، ويتفخيمها بعض الأصوات حتى الوصول بالمنغم إلى استقلاليتها كحرف كما في د، ض، ت، ط، ز، ظ، وهكذا كما تقل فيها مراتب الصائتات: أ، و، ي حتى إنها لم تكن تدون في المراحل القديمة من الكتابات العروبية. أما في «النحو» (ويعد المعيار الأساسي للقرابة، فمن المتفق عليه تماثل الطبائع النحوية للغات العروبية والوحدة المشتركة في بناها التركيبية، كتشابه أجزاء الكلام وطبائع الأسماء والحروف، ومقولاتها النحوية كالتذكير والتأنيث - دون المحايد، ومقولات الأفراد والتثنية والجمع، والعاقل وغير العاقل - (مقابل الحي وغير الحي في أسر لغوية أخرى)، والاشتقاق وفق موازين متقاربة وأوزان الجموع، وحروف الزيادة لدى تحقيق التحولات البنوية والإعرابية وما يتعلق بالنسب والتصنيف وأزمنة الفعل وصيغ الأمر والأصل الثنائي أو الثلاثي للفعل وما على ذلك. أما بالنسبة للمفردات فلا يتفق فيها على وحدة الأرومة إلا إذا غاصت معايير القرابة إلى أعماق زمنية بعيدة تصل حتى المراحل الجنينية المبكرة من حياة اللغة، أو البدايات الأولى للمفردات الأولى التي لا تزال واحدة في لهجات العروبية كما في مسميات: أعضاء جسم الإنسان - الرأس، اليد، العين، الرجل، الأسنان، الأصابع؛ أعضاء الأسرة: رجل، امرأة، أب، أم، أخ، أخت، ابن، ابنة، الضمائر: أنا، أنت، هو، هي، نحن، هم، عناصر الطبيعة في أوسع معانيها: الأرض، السماء، الشمس، القمر، النهار، الليل، الجبل، النهر،

الماء، النار، الشجر، التراب، الحديد، الذهب، النحاس، النور؛ أسماء الجهات والفصول والألوان: شمال، شرق، يمين، يسار، ربيع، صيف، أبيض، أحمر، أسود، أسماء الحيوانات، المدججة منها والوحشية: الثور، البقرة، الغنم، الماعز، الكلب، الحمام، الدجاج، السبع، النمر، الأرنب، الفأر، النحل، النمل، الأفعى، العقرب، أعداد حتى العشرة، أسماء الأيام والشهور وما إلى ذلك كما أن لوحة الحروف: د، ب، ك، مع، عن، من، إلى، حتى، أهمية كبرى في هذا السياق، وتضاف إلى هذا أفعال ذات الأهمية الكبرى لاستمرار الحياة: أكل، شرب، نام، سار، عمل، ذهب، حصد وما إلى ذلك.

كانت ندوة الوحدة والتنوع في اللغات العروبية، المنعقدة في طرابلس في مطلع العالم الحالي من أوائل من نبهوا إلى هذه النقطة، ونوجز فيما يلي أهم منطلقات هذه الندوة وتوصياتها: فانطلاقاً من المتطلبات الثقافية والفكرية للمرحلة العربية الراهنة، ومن ضرورات الإفادة من الإرث الثقافي العربي البالغ التنوع، ووفاءً من الأحفاد نحو ما قدمه الأجداد في مختلف ميادين الفكر والحضارة، وحرصاً على إنهاء بعض الظواهر الثقافية الشاذة في النظرة إلى هذا التراث الذي أدى فهمه المفلوط إلى بعض مظاهر التشتيت وظهور ما يشبه المدارس المتنافرة بدلاً من أن يكون وسيلة لتعميق الإحساس القومي بالانتماء إلى الأرومة الواحدة، ورداً على التوجهات الاستعمارية الجديدة التي لم تعد تكتفي بالأرض وثرواتها بل تحاول التسلل إلى مضامين روح الأمة وتجريدها من شخصيتها تمهيداً لتطويعها النهائي وترويضها لقبول ما يملأ على أبنائها من فروض، عقدت الندوة الأولى للغات العروبية بحضور كوكبة من العلماء من مختلف الأقطار العربية لتتدارس قضية لم يجز الانتباه إليها بشكل كاف بعد وهي وحدة أرومة اللغات العروبية، التي يتوهمها البعض لغات مستقلة مختلفة من خلال النظرة السطحية إلى كتاباتها المختلفة بينما تتفق جميع الدراسات على أن هذه تنوعات أو تجليات للغة واحدة تمثل الطبقة الحضارية الأولى في وجودنا العربي.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع بالنسبة للتركيبة القومية للأمة العربية، ولأهمية ذلك بالنسبة لبناء مستقبل الأجيال والتصدي لمخططات الأعداء ووسائلهم، تقدم المشاركون بعدد من التوصيات منها:

- العمل على تأصيل مدرسة «أثرية» جديدة تتغذى بالعلم اليقيني الراسخ وتوظف الكنوز الأثرية والمواد العلمية واللغوية التوظيفية الصحيح مؤكدة على الأصل الواحد والتوجه

الواحد - إصدار دورية علمية تعنى بشؤون التوجه الوجداني بين اللغات العروبية وعودتها جميعاً إلى الأرومة الواحدة وحث المؤسسات التربوية على إدخال هذه النقطة بالذات بين البرامج التربوية للأطفال، وحبذا لو تمت الاستعانة بالفنانين العرب لصياغة الأعمال الفنية التي تخدم هذه القضية، وتشجيعهم - مثلاً - على رسم «الكلمة العروبية» الواحدة بالخطوط والأبجديات المختلفة ليعرف الطفل العربي منذ صغره أنه يتعامل مع الجوهر الواحد رغم تعددية الأشكال التي يتخذها في الرسم.

- تشجيع طبع المآجم العروبية المختلفة بمختلف الخطوط العروبية القديمة لإزالة «القطيعة» بين هذه الخطوط⁽¹⁾.

لقد كان العلماء الغربيون أول من تنبه إلى هذه الوحدة منذ اللحظات الأولى لقراءة المصرية القديمة. ويبدو أن النية في حرف التاريخ أو «الاستثثار به» بدأت منذ ذلك الحين. ويكفي أن نتذكر ما انتهى إليه أحمد باشا كمال ومعجمه الذي لم يطبع حتى اليوم لا لشيء سوى لأنه عرف حقيقة هذه الوحدة ونبه إليها. وفي الوقت نفسه لا تزال حية الجهود التي بذلها منظرو الاستعمار ومفكروه من أجل تفتيت اللغة العربية الواحدة إلى «لغات» وترسيخ لهجات القطر الواحد وإعلانها «لغات» مستقلة. وهذا كله لا يدخل في إطار دراستنا هذه، غير أننا لا نستطيع إغفال حقيقة تاريخية مهمة وهي أن تعرب المنطقة العروبية، بعد ظهور الإسلام، بصورة تتطابق ومناطق الكشوفات الأثرية القديمة - شهادة على وحدة الأصل. فقد اعتنقت الإسلام شعوب من مختلف العروق والألوان والألسنة، بل وكان من بين هذه الشعوب من أظهر نحو الإسلام غيرة لا تقل في صدقها عن غيرة العرب، فحملت رسالة الدين الجديد وسارت بها نحو أراض جديدة واستشهد أبنائها في سبيل مجده كما فعل الفرس والغزنويون والترك لكنها لم تتعرب. أما الشام والعراق ومصر والشمال الإفريقي فكان لها مسار آخر. وتتحدث كتب التاريخ عن أن أهالي هذه المناطق كثيراً ما وقضوا وتتحدث كتب التاريخ عن أن أهالي هذه المناطق كثيراً ما وقضوا إلى جانب العرب المسلمين رغم خلافهم الديني معهم واتفاقهم في الدين مع الفرس والروم. إلا أنهم اعتنقوا الإسلام والعربية بنوع من «التلقائية التاريخية» التي لا يفسرها غير وحدة الأرومة والأصل اللغوي الواحد القديم.

1- أعمال ونوصبات ندوة «الوحدة والتنوع في اللغات العروبية» المنعقدة في مجمع اللغة العربية الليبي،

طرابلس (الجمهورية العربية الليبية) 25-28-1-2004.

❁- حماية التراث من التزييف والانتحال في زمن صار فيه التزوير والكذب صناعة تجري المحاولات لاستغلال منتوجاتها في رسم مصائر الأمم. والمسافة طويلة بين حاضرتنا المعاصر وماضينا البعيد، هي بهذا تثير افتخارنا بتوكيدها على عراقية تاريخنا وامتداد جذوره في أعماق الزمن. إلا أن هذا ما يضاعف في الوقت نفسه من إغراءات الطامعين في هذا التراث إذا لمسوا تقاعسنا في حمايته وفي تأصيله. وهناك من يستعد لاختراق هذه المسافة البعيدة بغية أن يحرف مسيرة التاريخ على هوام.

بلى هذه أرضنا وهذا تراثنا، والبديهيات ليست في حاجة إلى البراهين. وما أدق المتنبي تمبيراً حين قال:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتساج النهار إلى دليل
ومن المخزن أن نقول إن النهار، في المركبة على التراث، في حاجة إلى دليل، وانطلاقاً من هذا يجب أن نفهم النهب العلني المكشوف لآثارنا في العراق على حقيقتها، فقد يكون مقدمة لحملة تشويه كبرى تؤسس لفبركة تاريخ مصنوع. ومن هذه الزاوية أيضاً ينبغي قراءة الوحشية الاستثنائية التي يطبقها الصهاينة الدخلاء على أرض فلسطين. وبينما تبذل الجهود لتتاسي أو تطمس تاريخ الخزر في منطقة بحر الخزر (قزوين) يبذل ما يضاهاها لغرس تاريخ لهم في أرض فلسطين.

في المقال الافتتاحي من العدد 166 من مجلة الآداب الأجنبية تبته الدكتور ناديا خوست بإيجاز غني بالمعاني وبكل دقة وإحساس بالمسؤولية - إلى ما يقوم به الصهاينة في أرضنا وما يخطط له من مشاريع وإلى ما يؤدي إليه غيابنا عن الساحة العلمية العالمية، وتحدد معالم المشروع الذي نحن مطالبون بالقيام به ثم تختتم ذلك كل بالإشارة إلى أئمن ما ينبغي أن تعلمه الأجيال من شواهد حضارتنا القديمة وتراثنا العريق.

تقول الدكتورة ناديا خوست:

«فالصهيونية التي غرست دول حملت لها مستوطنين غرباء من أنحاء العالم جهدت بالتقريب عن الآثار كي تسندهم بعمق تاريخي. واخترعت أساطير تبرر احتلال فلسطين التاريخية لتدعي عمقاً تاريخياً. مع أن يهود الخزر غرباء، على كل حال، عن المنطقة كلها.»

التقى مشروع المحافظين الجدد الصهيونيين الذين يحكمون الإدارة الأمريكية للسيادة على العالم باحتلال نقت الخليج، بالمشروع الصهيوني للسيادة على المنطقة. فقفز المشروع الصهيوني للسيادة على الأرض العربية من النيل إلى الفرات، إلى مرحلة خطيرة باحتلال العراق.

في هذه الخريطة الجديدة التي تصاغ للعالم ولنطقنا، نقرأ نهب المتاحف والمواقع الأثرية العراقية، واكتشاف القطع الأثرية المهرية إلى إسرائيل.

وسنلاحظ في تقرير كتبه الدكتور فاروق إسماعيل لهذا العدد من مجلة الآداب الأجنبية، غياب الباحثين العرب عن مؤتمر لندن للدراسات الآشورية، وحضور الإسرائيليين. ويجب أن نتوقع، إذا استمر استسلام العرب للغزو الأمريكي، أن تؤول حضارات المنطقة تأويلاً تلمودياً وأن تزور الحقائق التاريخية، وينبها هذا إلى ضرورة مشروع واسع مؤسس على رؤية استراتيجية، يمد خبراء في لفات حضارتنا القديمة ومؤسسات تنشر تراثها، وبرنامجاً يربي تلاميذنا على فهم الاستمرار الحضاري وعلى معرفة الآثار وزيارتها. وسيوهل ذلك، في سباق، لتربية فنية وفكرية، تستلم التراث الوطني المريق وتفهم، من شواهد الحضارة، أن التجديد كان دائماً موجوداً كضرورة روحية وواقعية، فردية وجماعية، لكنه كان مستمداً من الصلة الحية بالإرث الحضاري الوطني، لا من غزو طارئ يفرض رؤيته. كما سيساهم ذلك، لو تحقق، في فهم مدى العلاقات بين الحضارات القديمة⁽¹⁾.

ولعل التزامنا بالنقطتين التاليتين- الثالثة والرابعة- من هذا التصور يمكن أن ينهض بجزء واقب من حق التراث علينا في جانبه التطبيقي العملي:

3- الارتقاء بالدراسات العلمية في موضوع الآثار إلى مستوى أكاديمي أوسع ميداناً وأكثر جدية وعمقاً. وإننا إذ نشني على الجهود الكبيرة التي بذلها علماء اللغات والقارثون حتى فكوا رموز تاريخنا القديم وقدموا للإنسانية أسفاراً مهمة لا يمكن قراءة التاريخ البشري من دونها، نتساءل: - ومتى نبدأ نحن إسهامنا الجاد في قراءة تاريخنا المجيد؟

لقد أدى أولئك العلماء واجبه فمتى نؤدي نحن واجبنا؟ لقد حققوا «معجزات» فك الرموز فمتى نستلم الراية ونعكف على الأسفار الخالدة التي تركها الأجداد فتستخرج ما فيها من كنوز ووثائق وأقا صيص وأحداث وحكم فتعرض، من خلال رؤية واقعية موضوعية، تاريخنا الذي لا يزال، في كثير من جوانبه، نهياً بين الأغراب والمغاصرين.

إننا لا نتقص من الجهود الكبرى التي قدمها العلماء العرب في مصر وما بين النهرين في هذا المضمار ولا من أهمية ما نشرته وتشره والحواليات الأثرية العربية السورية، وغيرها من الدوريات العربية الرائدة على مدى عشرات السنين، لكننا نؤكد على أن آثار الأرض العربية

1- ناديا خوست، حضارة العراق افتتاحية العدد 116 من مجلة «الآداب الأجنبية» دمشق، خريف 2003،

تستحق جهوداً أكبر ودراسات أكثر حضوراً على الصعيد العالمي؛ ويكفي أن نتصفح «ثابت المراجع» في كل دراسة جادة، عربية أو أجنبية، تصدر في هذا الميدان حتى يتضح لنا ما الذي نغنيه بهذا الحضور واللا حضور.

وقد لا يكون من المبالغة القول إن الموضوع على الصعيد العربي يستحق إنشاء المجلس القومي للدراسات الأثرية العربية، ويكون من مهماته دراسة ما تتكشف عنه المعطيات الأثرية الجديدة، والإفادة منها في تأصيل وحدة الأرومة العربية للهجات والتوعات اللغوية التي يتم اكتشافها، بالإضافة إلى ترسيخ هذا التوجه في الأدبيات التربوية العربية المخصصة للأجيال الفتية والمراحل التي تليها. كما يكون من مهماته أيضاً التنسيق بين العلماء العرب وحثهم، إذا لم نقل توجيههم، للمشاركة الفاعلة في الندوات والمؤتمرات العلمية، المحلية منها والعالمية، وعلى ترجمة أفضل الأعمال العربية ومنها في كافة فروع المعرفة الأثرية.

ولنتذكر أن هذا الحضور العلمي على مستوى العالم ليس مطلوباً فقط من أجل ترسيخ الحقيقة العلمية، ولمضاعفة الاعتزاز بهذا التراث، بل وأيضاً من أجل أن ترسخ في الذهنية العالمية حقيقة انتماء هذا التراث لنا، ارتباطنا به، وارتباطه بنا ووجدارتنا به واعتزازنا بصفحاته.

ما الذي يقوله المتخصصون في موضوع الكشوفات الأوغاريتية؟

في الاحتفال الذي أقيم في القاعة الشامية في المتحف الوطني بدمشق بمناسبة مرور 75 سنة على اكتشاف أوغاريت تحدث الدكتور بسام جاموس عن بداية ذلك الاكتشاف وأهميته فقد «اكتشف فيها أبجدية تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ق.م وفيها أكثر من 800 كلمة عربية. وأوغاريت تبعد نحو 11 كم شمال اللاذقية وعاصمتها رأس الشمرأ ويتبع لها أكثر من 280 مملكة ويمتد تاريخها من الألف الثامن ق.م وحتى القرن الثاني ق.م وتمتد فوق هضبة ارتفاعها عشرون متراً ومساحتها ستة وثلاثون هكتاراً على مقربة من شاطئ البحر.. والتقنيات ما زالت مستمرة وقد تم العثور على ستمئة رقيم مسماري منها لقي بحجم الإصبع نقش عليه أبجدية أوغاريت المكونة من ثلاثين حرفاً، ولقى أخرى فيها مقطوعة موسيقية ذات سلم موسيقي لحنها زياد عجان من اللاذقية.

وهناك مجموعة مهمة من اللقى الأثرية منها رقيم مسماري عبارة عن ختم وتمثال الإله إيل 1400-1300 ق.م من البرونز والذهب موجود في المتحف الوطني بدمشق، وكذلك تمثال آخر للإله بعل أيضاً من الحجر الكلسي موجود في متحف اللاذقية. وكذلك تمثال قارع

الطيب ورأس أمير أو أميرة من العاج والذهب والصدف واللوزرد وغطاء علبة تجميل من العاج وختم ملكي حثي باسم الملك مورسيل الثاني وخاتم ملكي من الذهب دونت عليه كتابة هيروغليفية حثية من القرن 13 ق.م ومجموعة كبيرة من الجرار والقموع والأواني الفخارية المستوردة من مصر⁽¹⁾.

وقد أكد الباحث جمال حسن حيدر على الفنى الفكري الذي تميزت به أوغاريت في قوله:

«زودتنا نصوص أوغاريت بوثائق مهمة عن الحياة الفكرية والثقافية. هذه النصوص التي كتبت في أوغاريت بتناول موضوعات تتعلق بمختلف جوانب الحياة السياسية والميثولوجية والأخلاقية والفلسفية والفنية والاقتصادية والحقوقية والعلمية وهناك رسائل متبادلة بين ملوك أوغاريت ومعاصريهم ملوك كركميش وجبيل وأمورو والحثيين ومصر وقبرص وغيرها، مما يدل على علاقات دبلوماسية متطورة شهدها عصر أوغاريت، وهناك نصوص تتحدث عن عالم الآلهة الكنعانية التي تجسد قوى الطبيعة وهي تحمل فكراً ميثولوجياً ذا طابع إنساني وتذكر الأرباب إيل وأثيراً ويعمل والرب موت الذي يجسد الجفاف وعناة ربة الخصب وكوثار إله الصناعة ورشف وحورون ودجن غيرهم إضافة إلى نصوص تدل على فكر أخلاقي وإنساني تتعلق بالتعليم والمعلمين والتواضع والكرم ونصائح أخلاقية منها: لا تسخر من إله لم تبتهل إليه. أطمع اليتيم. أنقذ المظلوم»⁽²⁾.

أليس من حقنا - وصدور هذه الطبعة من «رموز ومعجزات» تترافق مع مرور ثلاثة أرباع القرن على قراءة أبجدية أوغاريت- أن نسأل: أين هي الدراسة الجادة المسؤولة المدققة، المشفوعة بالشواهد والشروح والإحالات والتي بينت أصول هذه اللغة، وخصوصية القلم الأوغاريتي وعلاقته بالمسمارية وخصائص الأبجدية نفسها ومسار تطورها على الصعيد العالمي. وماذا عن التراث الأوغاريتي الذي تؤكد الدراسات على أنه من أثنى ما عرفه العالم القديم؟ فمتى تصدر الترجمات الجادة لذلك التراث أو لبعض من أصوله معرزة بما يستحقه من الإيضاحات والهوامش والمقارنات وتبين الأبعاد الإنسانية والآفاق الفكرية للإبداعات

1- أخذ مقتطف من مقالة: سهيل الذهب أوغاريت (رأس الشمرة) جغرافياً تاريخياً وأثرية. «تشرين»، 27-5-2004 ص 9.

2- جمال حسن حيدر، أوغاريت، التاريخ والآثار، دار المرساة للطباعة والنشر والتوزيع، اللاذقية، 2003 ص 21.

الأوغاريتية التي عبرت، من خلال تجسيدها لآلهتها في صورة الإنسان الخارق للمادة، أو تصويرها للإنسان البسيط في مسار حياته اليومي، عن معاناة الإنسان، ككل البشر، في تطلعاتهم، مشاعرهم، اهتماماتهم، أفراحهم وأحزانهم، علاقاتهم بأنفسهم وللآخرين وبالمحيط الذي يعيشون فيه.

الملاحظ أن معظم ما نشر حتى الآن ترجمات متواضعة تتباين مستوياتها وتشف في تضاعفها الجهود الفردية الصادقة والتي كان يمكن أن ترتفع إلى مستوى أفضل لو توفرت المرجعية العلمية التي تشارك في اختيار العمل وتحديد مداره والإشراف على مراحلها، والوصول به إلى المستوى العلمي المنشود، فهل أن الأوان لإحداث كرسى الدراسات الأوغاريتية في قسم التاريخ بجامعة تشرين واعداد المتخصصين الجادين في شروع هذا العلم الجديد الذي لا يزال يثير الدهشة وكل الاحترام بطرافة مكتشفاته وأهميتها وقيمتها العلمية بالنسبة لمجموع التراث الإنساني العظيم.

﴿ نقل التراث القديم من سكون المتاحف وبردها إلى نبض الصدور الإنسانية ودفنها، أي أن نجعل منه جزءاً صميمياً في التركيبة الروحية للأجيال التي يمكنها وينبغي لها أن تحقق التواصل مع تراثنا الأثاري الذي يفرّد لنا الصفحات الأولى في أسفار التاريخ والعلم العالميين، والذي تفبطنا- إذا لم نقل تحمدنا- عليه كل الأمم. لقد آن الأوان لإلغاء القطيعة غير المبررة مع التراث الأثري القديم، فلحكمة إلهية وعلم بما تتلوي عليه طبقات الأرض وما يختزنه صدرها من الدروس والمعبر تحضنا الآيات القرآنية التالية على السير والتأمل والإنصات إلى صوت الزمان والمكان:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَعْلَمُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْقِلُ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْقِلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾⁽¹⁾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽²⁾

1- سورة الحج: الآية 46

2- سورة الصنكوت: الآية 20

«أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَكْثَرَ مِثْلَهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَرًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ» (١)

وتعريف الأجيال الصاعدة على التراث والماضي وتقريبهما إلى نفوسهم ليس بالأمر الصعب. فتخصيص ساعات دراسية معينة لزيارة مواطن الحفريات والمتاحف العربية يمكن أن ينهض بهذه المهمة. لكن ما نصبوا إليه يتجاوز المعرفة على المستوى السياحي البسيط، ولو كان الأمر بيدنا لفرضنا صياغة مادة دراسية موحدة (ليس فقط لأن توحيد المنهل العربي يؤدي إلى توحيد القلوب) تقدم بكيفية ما في المدارس العربية، وتتجاوز في طموحاتها جميع أشكال الحدود المضروبة بين الإفطار والتي يجري ترميمها وتعميقها بصورة مستمرة، على أن يستلهم برنامج هذه المادة تأصيل البديهية التي سلفت الإشارة إليها ونعيد تكرارها وهي أن الكتابات واللغات القديمة- تنوعات لنظام خاص من الكتابة تم إبداعه على أرض العرب باسم الأجدية وما اللغات إلا لهجات وتنوعات للغة واحدة هي العربية القديمة، وهذا ما ينبغي أن يتعلمه أبناؤنا وما يمكن أن يزيدهم تقارباً وإحساساً بوحدة الانتماء، كما أن الأخذ بهذه البديهية ييسر لنا كيف نشرح لأبنائنا عدداً من المفاهيم القديمة- الحديثة المتعلقة بالتجديد، بالتواصل مع الماضي، بالتنوع من خلال الوحدة وما إلى ذلك.

أما وسائل التعريف بالتراث وتحقيق التواصل مع الأجداد فكثيرة متنوعة ويمكن للوسائل التربوية الحديثة أن تقدم مساعدات كبيرة في هذا الميدان. فيمكن تخصيص مساحة معينة في الكتب التعليمية للحديث عن الأوابد التراثية المرتبطة بمآثر الماضين، ونقل بعض آثارهم الأدبية إلى صفحات هذه الكتب، وإخراج صفحات التاريخ القديمة وبعض أحداثه وقصصه في الأعمال السينمائية وفي القصص والمسرحيات وأعمال النحت والرسم التي «تعيد إنتاج» تلك الصفحات بطريقتها الفنية فتضمن لها النفاذ إلى القلوب بما عرف عن الفن الأصيل من القدرة على التأثير. كما يمكن تقديم بعض النصوص في صورتها وكتابتها الأصلية لاستغلال دهشة التلاميذ وحب الاستطلاع لديهم وتحويل ذلك إلى نوع من الفضول العلمي الذي يثير ألواناً من

١- سورة غافر: الآية 82.

التساؤلات تزيل «عدوانيتهم» نحو هذه المواد المجهولة وتفاجئهم بأنها تعيدهم إلى الجذور الثقافية الأولى وتثير اهتمامهم بتلك المهود القديمة وبما كان يتسم به أهلها من العادات والأعراف، ويمكن أن يكون ذلك وسيلة لإزاحة ولو جزء من جهل أبنائنا بهذا التراث وبالتالي باللامبالاة نحوه. كما أن للوسائل الحديثة دورها في هذا المضمار، فقد شجعت، ولو عن طريق الدعاية السياحية تقريب عالم الآثار وممطياته واستطاعت، بطرق فنية متنوعة أن تمرض مشاهير أبطال الحكايات الأسطورية والقصص الشعبية والأحداث التاريخية البارزة وحروف الكتابات القديمة ومقولات الحكماء الماضين حتى على أعمدة الشوارع وجدرانها، في معمارية المباني وعلى مختلف أنواع المزهريات والحلي والقطع النقدية وأوراق النقود وعلى المفارش وأدوات الزينة والطعام والملبس وحاملات المفاتيح وكل ما اصطاح على ترصيمه بشواهد الماضي، كما نشرت نماذج منحوتاتها وتمائليها ونصبها التذكارية في الميادين والمساحات والحدائق العامة وما إليها. ومن قدرت له زيارة بلاد ذات نصيب يقل كثيراً عن نصيب بلادنا من إرث الأجداد الغابرين، كالإيونان وإيطاليا، سيدرك جيداً صدق ما قلناه.

مرة واحدة لقيت أوغاريت التكريم الذي تستحقه. كان ذلك عام 1990 عندما تألقت صورة الأبجدية الأولى، للمرة الأولى، يومذاك، على الورقة النقدية السورية من فئة الخمسمئة ليرة، إلى جانب لقى أوغاريتية أخرى، من بينها كأس قديم من قبل التاريخ ورأس بشري منحوت من العاج، وإناء من الذهب، وتوزعت مئات الألوف منها لتجوب البلاد كلها وتدخل كل بيت في رحلة مكرورة لا تنتهي، إلى أن صدرت بعدها ورقة أخرى من نفس الفئة تحمل صورة البطلة المجيدة زوييا فمالت الورقة الأولى إلى قليل من الانكماش وإن كانت لا تتداولان في تجاور ودي يؤكد انتماء المملكتين الشقيقتين، تدمر وأوغاريت إلى وطن واحد. وحبذا لو يتواصل هذا التجاور في المستقبل القريب وتبعت الورقة النقدية «الأوغاريتية» من جديد.

ومن المحزن أن نشير اليوم، ونحن نحتفل بالمعيد الماسي لقراءة الأبجدية الأوغاريتية إلى أن اللاذقية، رامينا القديمة، حفيده أوغاريت وجارتها اللصيقة بها لم تزل أي حظ، مهما صغر، من التكريم، باستثناء ما ذكرناه، ولم تلق أي اهتمام بتخليد ذكراها التي تبقى مخلدة على الرغم من ذلك. لقد وصف شامبليون الدراسات القديمة بأنها «فناة رائمة الجمال لكنها بلا صداق» وكأنه كان يشير بذلك إلى اللاذقية وهي لا تجد ما

تتجمل به في عيدها الماسي. ربما كان السبب في ذلك أن عطايا أوغاريت الأثرية كانت غير مألوفة. فقد تكتشف الركام والأترية في مدن أخرى عن الشيران المجنحة والتماثيل المهولة الأبعاد والأحجام للبشر والحيوانات، وعن القصور الفاخرة تزهو بالقاعات والأبهاء التي تتنافس في زخارفها وزيناتها، وعن الأواني الذهبية والأسلحة المذهبة وعن بوابات المدن التي انتصبت عمودية بشموخ وتكبر لتبعث الرعب والدهشة في نفوس الداخلين، فرقشت بمزيج من الجميل والمخيف وتلاقتا على واجهاتها أوراق الأعناب والأفاعي المنسابة على ارتفاع الأعمدة ذات التجان، وأضواف الزهور مع العقارب المتربصة في كل زاوية، ورؤوس الغزلان الوديمة مع أنياب النمر المكشورة، وزينت تلك البوابات بصور الوحوش والطيور، وصفحت ألواحها وطعمت بمختلف المعادن الثمينة. أما القطاف الأوغاريتي فكان مختلفاً عن ذلك كله. كان أثنى ما فيه وما عد واحدة من أثنى اللقى الأثرية في تاريخ الإنسانية رقيم صغير لا يغطي بحجمه إلا جزءاً من راحة الكف الواحدة، نقش فوقه رموز عرفت فيما بعد بالأبجدية التي حظيت بشهادة كلود شيفر فـ «كان يرى أن الشعب الذي صنع هذه الأعجوبة له الحق أن يكون له مكان في العالم»⁽¹⁾. كما اكتشفت رقم كثيرة تشكل فيما بينها مكتبة كبيرة سطرت أسفارها على الألواح المشوية فأبطلت الكثير مما عد مسلمات قبل قراءتها وأضاءت العديد من الحقائق بأنوار جديدة، كما أضافت الكثير من المعارف الأسطورية منها الدينية والأدبية وما إليها، حتى عدت مرحلة انعطافية في التاريخ فصار يقال وفقاً لما جاء في حديث العالم الباحث، الدكتور عدنان البني: «العالم ما قبل أو بعد أوغاريت»⁽²⁾.

فهل استعصى التعبير عن المآثرة الأوغاريتية الفريدة (مآثرة الحرف والكلمة) لا لشيء إلا لأن مصير المدينة الجمالي وضع في أيدي مقاولين⁽³⁾ لا يريدون أو لا يحسنون تجسيد أمثال

1- وردت هذه العبارة في حديث الدكتور عدنان البني عن كلد شيفر (1898-1982) وقد لقبه بالمكتشف السوبرمان، الذي ظل يبحث في أوغاريت واحداً وأربعين عاماً وأصدر عنها مؤلفاً في خمسة أجزاء، سماه «أوغاريتا»، انظر: سهيل النقيب أوغاريت (راس الشمرة) جغرافياً تاريخياً وأثرياً. «نشرين» 27-5-2004 ص 9.

2- أخذ المقنطف من الهامش السابق.

3- أخذ مصطلح «مقاولون» من مقال متميز للدكتورة ناديا خوست نشر بعنوان «سجل التاريخ» في زاوية «الطاق» في صحيفة «نشرين»، دمشق 5-6-2004.

هذه المآثر؟ ومهما يكن، فالحفريات لا تزال مستمرة، وقد يطرأ تطور تقني في الفن تتفجر عنه طريقة جديدة في التعبير عن هذه المسألة التي تبدو - حتى الآن - مستحيلة. وهكذا فقد نتوصل إلى تدارك هذا التقصير نحو المدينة في يوبيلها المثوي القادم عام 2029، فما خمس وعشرون سنة في الامتداد النسبي للزمن، وللزمن الأوغاريتي، بصفة خاصة، إلا جزئية من ثانية!

❏- النظر إلى التراث على أنه جزء صميمي عريق من أجزاء الوطن، جزء شمين، فريد، لا يتكرر ولا يموض، ومن هذا المنظور يجب حمايته والدفاع عنه. وقد يبدو هذا بدهية لا تستحق المناقشة، لكن محنة الآثار في بغداد أثبتت أن الكنوز الأثرية مطمح يحتل الصدارة بين ما يبحث عنه الغزاة. وهو ما يتطلب الاستعداد لذلك بكل ما استطعنا من قوة. فلم يعد كافياً في عصرنا العجيب هذا، عصر البدايات المرعبة للقرن الحادي والعشرين، أن نطمئن لقوة الحق الفطري الطبيعي الذي نملكه في أن تكون أرضنا لنا وتراثنا لنا. لقد سيطر حق القوة وأصحابه لا يتسترون على ذلك ولا يتحفظون في إعلان قانون راتسيل الذي أشرنا إليه في مستهل هذه الدراسة ذريعتهم إلى المدوان وانتهاب ثروات الأمم. أما الطامعون الذين يعبثون بتراث بلادهم الأثاري مدفوعين بالجشع وتحقيق المكاسب المالية فينبغي محاسبتهم ومعاقتهم بكل صرامة وحزم وعلى أساس أن عملهم جريمة تتساوى في حطتها ولا أخلاقيتها وضررها مع الخيانة الوطنية والتفريط بتراب الوطن.

وأخيراً، فليس لدينا ما نعترض به على الشعراء عندما يؤكدون على أن عناصر الطبيعة نفسها تقف على جانب الشعب المتحد المتضامن الصادق مع نفسه، فتوازره مكونات الوجود كلها: أرض الوطن وسماؤه والحجر والشجر والبحر والرياح والغيوم. أما أرضنا العربية فتضيف أمراً جديداً إلى ذلك، إذ دأبت - منذ بواكير التاريخ - على إعانة أبنائها بالثروات والنفائس المكنونة في أعماقها، وهو ما نجم عنه انتشار فن طريف جداً في تاريخنا الأدبي هو «أدب السحر والتنجيم» وقراءة الطلسم وإزالة الرصد، وتكررت صورته في «ألف ليلة وليلة» وعلى آلاف صفحات «السير» العربية الشهيرة. ويخيل لنا أن أرضنا المباركة، التي منها أتينا وإليها نعود، لم تقبض يوماً

أيادي كرمها السخي، ولا تزال أخبار كنوزها الأثرية المكتشفة تتوارد بين الحين والآخر على مساحة مترامية الأطراف تمتد بين أقاصي المشرق والمغرب العربيين، وأشن ما في هذه الكنوز أنها تترافق بنصوص صارت - بعد تجارينا الطويلة في تعلم اللغات وتطبيقاتها - تقرأ في عين المكان بلهجات وتنوعات اللغة - الأم العروبية الأولى التي تعود بنا إلى الأصل الواحد وتهيب بنا أن نقف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص مهما تفاقمت الأمور واضطربت العواصف وتلبدت الأجواء بنذر الحقد والتهديد والأعاصير.

أ. د. عماد حاتم

فهرس الأشكال

- الشكل -1- الأينكا توباك يوبانفي يصفي إلى اخبارية ينقلها اليه واحد من أتباعه (بقرؤها بواسطة الكيبو)..... 23
- الشكل -2- فامبوم بين العائد لقبيلة لينى - لابي..... 25
- الشكل -3- «أروكو» ييبو (شمال لاغوس، نيجيريا)..... 26
- الشكل -4- النقش الصخري في كهف باسييفا..... 28
- الشكل -5- صور منفصلة من «جرد فصول الشتاء» العائد لقبيلة «الكلب المنزرد»..... 29
- الشكل -6- الطلب الذي وجهته القبائل الهندية السبع إلى كونغرس الولايات المتحدة الأمريكية..... 30
- الشكل -7- «مرسال» الحب اليوكاغيري..... 31
- الشكل -8- تطور الكتابة السومرية من الرموز التصويرية القديمة نحو المسماية..... 35
- الشكل -9- كتابة هيراطيقية على بردية إبيبرس وصيغتها بالهيروغليبية..... 37
- الشكل -10- كتابة كاتاكانا اليابانية المقطعية في تطورها عن الكتابة الصينية العادية..... 40
- الشكل -11- الأبجدية السامية القديمة..... 43
- الشكل -12- الأبجديات اليونانية وتطورها بعد استعارة رموز الكتابة الفينيقية..... 45
- الشكل -13- تطور الأبجديات من الهيروغليفيات المصرية حتى الحروف الرومانية..... 46
- الشكل -14- أفاناسي كيرخير..... 51
- الشكل -15- dd - jn W sjr «اوزيريس يقول»..... 52
- الشكل -16- اللقب الإمبراطوري «اوتوكرات» مكتوباً بالهيروغليفيات..... 53
- الشكل -17- غوتفريد ويلهيلم ليبينس..... 57
- الشكل -18- إطار يحتوي اسم بطليموس..... 64
- الشكل -19- إطار يتضمن اسم بيريونكا..... 65

- الشكل -20- تطوّر الكتابة المصرية.....78
- الشكل -21- تحليل اسم بطلبموس وفق قراءة شامليون.....79
- الشكل -22- الشكل المتضمن لاسم كليوباترة وتحليل هيروغليفاته.....81
- الشكل -23- اسم الكسندر.....82
- الشكل -24- محددات مصرية.....82
- الشكل -25- الكتابة الهيروغليفية لاسم رمسيس.....83
- الشكل -26- الكتابة الهيروغليفية لاسم توتموس.....84
- الشكل -27- هيروغليفات مصرية تعني اشياء ملموسة.....91
- الشكل -28- ايدولوجيات هيروغليفية تعبر عن اعمال تتم يمكن مشاهدتها.....92
- الشكل -29- هيروغليفات مصرية كانت تعبر عن المفاهيم المجردة.....92
- الشكل -30- كتابة هيروغليفية مصرية.....92
- الشكل -31- رموز لفظية من ساكنين.....93
- الشكل -32- «الأبجدية» المصرية.....94
- الشكل -33- الأبجديتان الميروبيتان (الهيروغليفية والديموطيضية) ومنقوشة ميروبيد.....96
- الشكل -34- المحددات الأكثر استعمالاً.....97
- الشكل -35- نص هيروغليفي مصري.....98
- الشكل -36- رموز اسفينية نشرها بينرو ديلا فالي.....106
- الشكل -37- كلمة «ملك» في الإسفينية الفارسية القديمة.....117
- الشكل -38- نقشا داريوس الأول وكسيركس بالفارسية القديمة.....119
- الشكل -39- نقشا داريوس الأول وكسيركس كما يقرآن ويترجمان في الوقت الحاضر.....122
- الشكل -40- الأبجدية المسمارية الفارسية القديمة.....135
- الشكل -41- نص مسماري عيلامي حديث من مدونة بيهستون مع تدوين لفظي وترجمة.....141
- الشكل -42- مدونة كسيركس باللغة الفارسية القديمة (الى الأعلى) وبالبابلية (الى الأسفل) زفق التدوين اللفظي والترجمة.....144

- الشكل 43- تحولات الرموز المقطعية بطريقة الكتابة المركبة و «المقطعة».....146
- الشكل 44- رمزان كان يمكن استخدامهما كإيديوغرامات، وكمحددات وكرموز مقطعية147
- الشكل 45- رموز مقطعية بوليفونية.....148
- الشكل 46- طبعة من خاتم الملك نارام - سين على قطعة من الأجر عشر عليها هي نيبور (2270-2233ق.م).....158
- الشكل 47- أقدم الأشكال الأيديوغرافية للرموز المسمارية.....159
- الشكل 48- رموز تصويرية مركبة.....160
- الشكل 49- منقوشة معمارية باللغة الأكادية القديمة.....161
- الشكل 50- رمزان سومريان يستعملان في الوقت نفسه كإيديوغرامتين ورمزين مقطعين.....162
- الشكل 51- إيديوغرامتان سومريتان تعنيان: «أب»، «أرض» و «جبل».....162
- الشكل 52- كلمة «بلاد» في كتابة مختلطة.....164
- الشكل 53- مفردات تحدها المحددات.....166
- الشكل 54- طبعة من خاتم تاركوموا الذي كان نقطة الانطلاق لقراءة رموز الكتابة الهيروغليفية الحثية.....178
- الشكل 55- القراءة اللفظية لخاتم تاركوموا.....181
- الشكل 56- الرمز الهيروغليفي «أنا» في الكتابتين - المصرية والحثية الهيروغليفيتين.....183
- الشكل 57- اسم مدينة كركميش مكتوباً بالهيروغليفيات الحثية.....185
- الشكل 58- بداية النصين في كتابتي كركميش.....203
- الشكل 59- اسم «واربالاواس» مكتوباً بالحثية الهيروغليفية.....214
- الشكل 60- أختام هيروغليفية ومسمارية حثية.....219
- الشكل 61- الجمل 19-22 و 38-50 من ثنائية قره نبيي.....222
- الشكل 62- مدونة هيروغليفية من كركميش.....226
- الشكل 63- رموز هيروغليفية حثية كانت تعني مفردات «بيت» و «شمس» و «إله»...227
- الشكل 64- فأسان طرفت عليها كتابة أوغاريتية.....242

- الشكل -65- ابجدية رأس الشمرة..... 246
- الشكل -66- أ- بلاطة تحمل نقشاً تذكاريًا بكتابة جبيل. ب- لوحة برونزية مغطاة بنفوش من جبيل..... 253
- الشكل -67- جدول رموز جبيل الكتابية..... 255
- الشكل -68- الوجه المقابل من اللوحة البرونزية من جبيل..... 257
- الشكل -69- الثنائية الفينيقية - القبرصية وثيقة ايداليون..... 264
- الشكل -70- رموز الكتابة القبرصية المقطعية..... 272
- الشكل -71- رموز كتابية قبرصية - ميكينية..... 273
- الشكل -72- الختم العقيفي الرباعي الجوانب من جزيرة كريت (من سبارطة)..... 276
- الشكل -73- بعض الهيروغليفيات الكرينية..... 278
- الشكل -74- لوحتان كرينيتان من كنوس..... 281
- الشكل -75- لوحة 1- «العربة الحربية» من كنوس..... 282
- الشكل -75- لوحة 2- بعض ايديوغرامات الكتابة الكرينية - الميكينية..... 283
- الشكل -76- مجموعات البما كوبيير الثلاثية..... 286
- الشكل -77- المكافأة التجريبية..... 288
- الشكل -78- «شبكة» فينتريس التي أنجزها في شباط (فبراير) سنة 1952 قبل عملية فك الرموز..... 293
- الشكل -79- الجدول الأساسي للرموز المقطعية (مأخوذ عن الـ «Evidence»)..... 299
- الشكل -80- لوحة الأدوات المنزلية من ببلوس..... 300
- الشكل -81- الفهرس المقطعي الميكيني وفقاً لكتاب فينتريس وتشبديوك..... 303
- الشكل -82- رموز مكتوبة بالحبر على الوجه الداخلي لكأس من كنوس..... 306
- الشكل -83- لوحة فخارية صغيرة ذات مدونة بالكتابة الخطوطية أ، عشر في أفيا - تريدا..... 307
- الشكل -84- جرد أدوات هيروغليفية عشر عليه في فيست..... 308
- الشكل -85- الرموز المرسومة على فرص فيست..... 309

- الشكل -86 أ - فرص فيست الوجه الأمامي..... 310
- الشكل -86 ب - فرص فيست الوجه المقابل..... 311
- الشكل -87- الأبجدية الرونية لقدماء النيورك..... 330
- الشكل -88- المدونة الرونية باللغة المجرية القديمة من استامبول..... 334
- الشكل -89- الرموز الرونية في الكتابة المجرية القديمة بالمقارنة مع الرونات النيوركية القديمة ومع الحروف اليونانية والغلاغوليتسا..... 336
- الشكل -90- الأبجدية الإيتروسكية..... 340
- الشكل -91- لوحة مالبانو الرصاصية - الكبد البرونزية المكتشفة في بيانشينتسا..... 343
- الشكل -92- نقوش كتابية ما قبل الهندية نقشت على أختام..... 348
- الشكل -93- لوحة مقارنة بين الرموز والكتابة لحوض الهند وبين رموز جزيرة الصيام..... 354
- الشكل -94- «رونغو، رب السماء والأرض، الذي خلق الكون»..... 356

فأته اللوات

- 1- اللوحة - جعلُ نقتت فوفه كتابة مصرية تشبر الى زواج الفرعون امنحوتب الثالث
- 2- اللوحة - الكرنك، نصب تحوتموس الأول
- 3- اللوحة - الكرنك نصب الملكة حتشبسوت
- 4- اللوحة - نموذج للكتابة الهيروغليفية المصرية، لوحة قداس لـ خونن الأسرة الحادية عشر من الحجر الجيري
- 5- اللوحة - تمثال نصفي لـ توم في هيئة فرد البافيان
- 6- اللوحة - كتابات على قاعدة التمثال النصفي لتوم
- 7- اللوحة - أخناتون ونفرتيتي
- 8- اللوحة - كتابة إسفينية.
- 9- اللوحة - زقورة من تشونفا - زمبيل، كتابة مسمارية.
- 10- اللوحة - غانج - نامة
- 11- اللوحة - بيهستون، مدونة داريوس الأول المنقوشة في الصخر.
- 12- اللوحة - داريوس الأول
- 13- اللوحة - مدونة هيروغليفية حثية من حماة
- 14- اللوحة - نموذج للخط الحثي الهيروغليفي، بداية الألف الأول ق.م، كركميش
- 15- اللوحة - رقيم كتب عليه نص للقوانين الحثية، حماة
- 16- اللوحة - شاهدة قبر حجرية عليها رسومات تمثل فارسا وجملا، جنوب الجزيرة العربية، نهاية الألف الأول ق.م
- 17- اللوحة - مدونة فينيقية.
- 18- اللوحة - لوحة من جزيرة كريت
- 19- اللوحة - السفر التاريخي للقيصر الأورارتي ساردوري الثاني منقوشة على الصخرة الوائية في القرن الثامن ق.م
- 20- اللوحة - تمثال من جزيرة الصيام.
- 21- اللوحة - نقش كتابي بلغة مايا.

الفهرس

- 5.....مقدمة
- 19.....الفصل الأول
- نبذة عن الكتابة
بديلاً عن المدخل
- 47.....الفصل الثاني
- أحجية أبي الهول
قراءة رموز الكتابة المصرية القديمة
- 101.....الفصل الثالث
- أهورامزدا أهانني
قراءة رموز الكتابة السامرية الفارسية القديمة
- 137.....الفصل الرابع
- أنى نظرت لقيت إسفيناً
فك رموز الكتابة السامرية في ما بين النهرين
- 169.....الفصل الخامس
- إسفين وصورة في بلاد الحثيين
قراءة لغة المدونات الحثية الإسفينية وحل رموز النقوش الهيروغليفية الحثية
- 231.....الفصل السادس
- «رأس الشمرة» في «مينة البيضاء» وجبيل، مدينة الورق
قراءة رموز رأس الشمرة وجبيل

261..... الفصل السابع

آلهة و تجار

فك رموز الكتابة المقطعة القيرصية

275..... الفصل الثامن

عربة حربية وكاس

قراءة رموز كتابة «ب» الكريتية - المبكينة الخطوطية

313..... الفصل التاسع

الأمير كيول تيكين، بيلكي خاقان و طونيوكوك الحكيم

قراءة رموز الكتابة النيوركية الرونية القديمة

337..... الفصل العاشر

قراءة الكتابات القديمة مُداً

كتابة الإيتروسكيين ووادي الهندوس وجزيرة الصيام

359..... الفصل الحادي عشر

قراءة الكتابات واللغات القديمة في منظور الواقع العربي الراهن

تمهيد

363..... 1- الرموز ومناهج قراءة الكتابات القديمة

371..... 2- المركزية الغربية وقراءة القديمة

385..... 3- الكشوفات الأثرية ومعانيها البعيدة

359..... 4- جرمة القرن

407..... خاتمة

421..... فهرس الأشكال

426..... قائمة اللوحات



اللوحة - 1.

جُعل نقش فوقه كتابة مصرية
تشير الى زواج الفرعون امنحوتب الثالث



اللوحة - 2.

الكرنك. نصب تحوتمس الاول



اللوحة . 3.

الكرنك. الملكة تـ تـ تـ



اللوحة - 4 -

نموذج للكتابة الهيروغليفية المصرية

لوحة قداس لـ خونن الأسرة الحادية عشرة من الحجر الجيري

اللوحة - 5 -
تمثال النصف لـتوم
في هيئة قرد البافيان



اللوحة - 6 -
كتابات على
قاعدة التمثال
النصفي لـتوم





اللوحه
امحاثون وحنتمحيتي



اللوحة 8 -
كتابة اسفينية



اللوحة - 9 - زقورة من تشونغا - زمبيل - كتابة مسمارية



اللوحة - 10 - خانج - نامة



اللوحة - 11 -

بيهستون، مدفنة داريوس الأول

المنقوشة في السخر



اللوحة - 12 -
داريوس الأول



اللوحة - 13.

مدونته هيروغليفيه حثية من حماة



اللوحة 14. نموذج للخط الحثي الهيروغليفي،
بداية الألف الأول ق.م، كركميش



اللوحة 16.

شاهدة قبر مجرية عليها رسومات
تمثل فارسا وجملا، جنوب الجزيرة
العربية نهاية الألف الأول ق.م



اللوحة 15.

زقيم كتب عليه نص
للقوانين الحثية، حماة



اللوحة 17 -
مدونتهيتية



اللوحة 18 -
لوحة من جزيرة كريت



اللوحة - 19.

السفر التاريخي للقيصر الأوراثي ساردوري الثاني
منقوشة على الصخرة الوانية في القرن الثامن ق.م



اللوحة - 20 -
تمثال من جزيرة الصيام



اللوحة - 21 -
نقش كتابي بلغة ماينا

من منشورات دار علاء الدين

- | | |
|----------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ● الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم
..... د. ماجد عبد الله الشمس | ● أسرار الآلهة والديانات
..... ا. س. ميخوليفسكي |
| ● في أصل العرب ومواطنهم
..... د. ماجد عبد الله الشمس | ● هرم ستونهنج الاثراضي
..... ا. فزينوفيف ا. ا. زينوفيف |
| ● القاهرة وبيت المقدس ودمشق
..... داهيد صموئيل مار جوليت | ● تاريخ اليابان من الجذور حتى هيروشيما
..... ادوين اولدفاندر ريشاور |
| ● أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة
..... س. بريوشينكين | ● المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية
..... ا. س. سفينسيسكيا |
| ● التشريعات البابلية
..... عبد الحكيم الذنون | ● قصص اكتشاف المومياءات
..... باتريشيا لوبير |
| ● بدايات الحضارة
..... عبد الحكيم الذنون | ● التاريخ السري
..... برونكو بيبوس |
| ● الأسطورة في بلاد الرافدين الخلق والتكوين
..... عبد الحميد محمد | ● فتح بلاد الغال يوليوس قيصر
..... بيثي رافيس |
| ● سلسلة الأساطير السورية ديانات الشرق الأوسط
..... رينيه لابات | ● السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية
..... جان كلود مارغرون |
| ● الحضارات القديمة ١-٢
..... ف. دياكوف - س. كوفاليف | ● أميرات سوريات حكمن روما
..... جودفري نورتون |
| ● حكايات واساطير من مصر القديمة
..... مارغريت ديفين | ● اليوم الآخر ونهاية الزمان
..... د. خالد صنابقي |
| ● معجم الأساطير
..... ماكس شابيرو ، رودا هندريكس | ● الإله والإنسان وأسرار جنائن بابل
..... د. ماجد عبد الله الشمس |
| ● الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى
..... فضل عبد الله الجثام | ● نقد النص التوراتي الكتاب الأول
..... د. اسماعيل ناصر الصمادي |
| ● المصادر التاريخية العربية في الأندلس
..... له بويكا | ● التاريخ التوراتي.. والتاريخ الكتاب الثاني
..... د. اسماعيل ناصر الصمادي |
| ● الأسطورة والمعنى دراسة في الميثولوجيا والديانات المشرقية
..... فرانس السواح | ● التاريخ التاريخي ما بين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية الكتاب الثالث
..... د. اسماعيل ناصر الصمادي |

من منشورات دار علاء الدين

- | | |
|------------------------------------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------------|
| ● سحر الأساطير
م. فهد الببديل | ● الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
فراس السواح |
| ● كليوباترا وعصرها
مجموعة من المؤلفين | ● التاوتي تشينغ إنجيل الحكمة التاوية في الصين
فراس السواح |
| ● الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية
محمد الخطيب | ● ارام دمشق واسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي
فراس السواح |
| ● الحضارة الفينيقية
محمد الخطيب | ● تاريخ اورشليم والبحث عن مملكة اليهود
فراس السواح |
| ● الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية
محمد الخطيب | ● جلجامش ملحمة الراشدين الخالدة
فراس السواح |
| ● الفكر الإغريقي
محمد الخطيب | ● مدخل إلى نصوص الشرق القديم
فراس السواح |
| ● المجتمع البدوي
محمد الخطيب | ● الرحمن والشیطان
فراس السواح |
| ● دين الإنسان بحث في ماهية الدين وابتلاء الدافع الديني
مجموعة من المؤلفين | ● دین الإنسان بحث في ماهية الدين وابتلاء الدافع الديني
فراس السواح |
| ● المجتمع العربي القديم
محمد الخطيب | ● طريق إخوان الصفاء
فراس السواح |
| ● تاريخ الحضارة العربية
محمد الخطيب | ● لفر عشتار
فراس السواح |
| ● حضارة أوروبا في العصور الوسطى
محمد الخطيب | ● موسوعة تاريخ الأديان ١-٥
فراس السواح |
| ● ديانة مصر الفرعونية
محمد الخطيب | ● الوجه الآخر للمسيح
فراس السواح |
| ● مصر أيام الضرامنة
محمد الخطيب | ● اكتشاف خازاريا
لبف شومبايوف |
| ● شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم
مجموعة من المؤلفين | ● مطامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة سوريا أرض الراشدين
فراس السواح |